

طبعة جديدة ومنقحة وفريدة

٨ أجزاء كاملة في مجلد

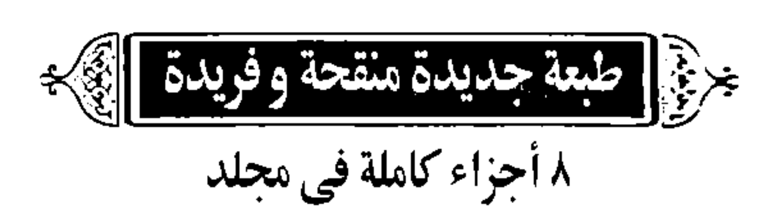
تأليف
الدكتور السيد محمد نوح



آفات على الطريق

تأليف

الدكتور السيد محمد نوح



طبعة جديدة منقحة و فريدة

٨ أجزاء كاملة في مجلد

دار الوفاء
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العربية

الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية الطب - المنصورة ص.ب: 230

ت: 20502370863+ فاكس: 20502370863+

www: darelwafaa com E-mail: darelwafa2005@yahoo.com


آفات على الطريق

مقدمة

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمدٌ ﷺ وعلى آله وأصحابه، والسالكين سبيله، والداعين بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن توضيح معالم الطريق أمام العاملين الفارين بدينهم إلى ربهم - كى يعدّوا لكل أمر عدته ويأخذوا لكل شىء أهبته، فلا ينقطعون، ولا يتوانون، ولا يتأخرون عن ركب النجاة - ضرورة لا مفرٌ منها، ولا محيص عنها، توجبها الدعوة إلى الله، من أجل التمكين لدينه فى الأرض .

ولعل من أهم هذه المعالم : أن هناك آفات يمكن أنْ يصاب بها بعض العاملين، بل قد تصيبهم بالفعل، فتقعد بهم عن أداء دورهم، والقيام بواجبهم .

ويطيب لنا فى هذا المقام : أن نعرض لهذه الآفات بشىء من التحليل والبيان، كى يحذرها العاملون، ويتطهّروا منها .

ففى « **الجزء الأول** » من الكتاب تناولنا آفات: الفتور، والإسراف، والاستعجال، والعزلة أو التفرد، والإعجاب بالنفس، والغرور، والتكبر .

وفى « **الجزء الثانى** » آفات : الرياء أو السمعة، واتباع الهوى، والتطلع إلى الصدارة وطلب الريادة، وضيق الأفق أو قصر النظر، وضعف أو تلاشى الالتزام، وعدم التثبت أو التبين، والتفريط فى عمل اليوم والليلة .

وفى « **الجزء الثالث** » آفات : سوء الظن، والغيبة، والنميمة، وفوضى الوقت، والتسويف، والتشاؤم، والتنطع أو الغلو فى الدين .

وفى « **الجزء الرابع** » آفات : المراء أو الجدل، والقعود، والشح، والغضب، والحقد، وتنافس الدنيا، والاحتقار والانهزام النفسى.

وفى « **الجزأين الخامس والسادس** » آفات : رفض النقد والنصيحة، واللغو، والكبت، واليأس، والقنوط، وأكل الحرام، والخوف، والظلم، والحسد والعين .

وفى « **الجزأين السابع والثامن** » آفات : الخذلان، وتتبع العورات، والاحتقار، والشماتة، والغدر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وتضييع الأولاد، وتضييع كل من الزوجين للآخر، والغش .

أسأل الله أن يتقبَّل عنَّا أحسن ماعملنا، وأن يتجاوز عن سيئاتنا فى أصحاب الجنة، وأن ينفع به ناشره، وقارئه والعامل به، ومبلغهُ .

هذا . . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتب

أبو محمد : السيد محمد نوح


الجزء الأول

الآفة الأولى
الفتور

أولاً : معناه :

لغة : يطلق الفتور لغة على معنيين :

أ ـ الانقطاع بعد الاستمرار، أو السكون بعد الحركة .

ب ـ الكسل، أو التراخى، أو التباطؤ بعد النشاط والجدّ .

جاء فى لسان العرب : « وفتر الشىءُ، والحرُّ، وفلان يفتُر ويفتر فُتُورا، وفُتَارا: سكن بعد حدَّة، ولان بعد شدَّة »[1] .

اصطلاحا : أما فى الاصطلاح : فهو داء يمكن أن يصيب بعض العاملين، بل قد يصيبهم بالفعل، أدناه : الكسل، أو التراخى، أو التباطؤ، وأعلاه : الانقطاع أو السكون بعد النشاط الدائب، والحركة المستمرة .

قال تعالى عن الملائكة : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى: «أنهم فى عبادة دائمة يُنزِّهون الله عما لا يليق به، ويصلُّون، ويذكرون الله ليل نهار، لا يضعفون ولا يسأمون »[2] .

ثانيا : أسبابه :

ويمكن أن يدخل الفتور إلى النفس بسبب من الأسباب التالية :

١ ـ الغلو والتشدد فى الدين :

بالانهماك فى الطاعات، وحرمان البدن حقّه من الراحة والطيبات، فإن هذا من

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥ / ٤٣، مادة : « فتر » .

(٢) صفوة التفاسير للصابونى ٢ / ٢٥٧، ٢٥٨ .

شأنه أن يؤدى إلى الضعف أو السأم والملل، وبالتالى : الانقطاع، والترك، بل ربما أدى إلى سلوك طريق أخرى عكس الطريق التى كان عليها، فينتقل العامل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التّسيب وهذا أمر بدهى ؛ إذ للإنسان طاقة محدودة، فإذا تجاوزها اعتراه الفتور، فيكسل أو ينقطع .

ولعل ذلك هو السرُّ فى تحذير الإسلام الشديد، ونهيه الصريح عن الغلو، والتنطُّع، والتشديد، إذ يقول ﷺ :

«إياكم والغلو فى الدين، فإنّما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدّين»[(١)]، «هلك المتنطعون » قالها ثلاثا [(٢)]، يعنى: المتعمّقين المجاوزين الحدود فى أقوالهم، وأفعالهم، «لا تشدِّدوا على أنفسكم، فيُشَدَّدَ عليكم، فإن قوما شدَّدوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم فى الصّوامع، والدِّيارات ـ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » [(٣)]، «إن الدِّين يُسرٌ، ولن يشاد الدِّين أحدٌ إلا غلبه . . . » [(٤)] .

وعن أنس ؓ قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فى السِّرِّ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، وقالوا : أين نحنُ من النبى ﷺ قد غُفِرَ لهُ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدًا، وقال الآخر : وأنا أصوم الدّهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم . فقال : « أنتم الذين قُلْتُم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فَمَن رغب عن سنتى فليس منى »[(٥)] .

وعن عائشة ؓ أن النبى ﷺ دخل عليها، وعندها امرأة، فقال : « من هذه ؟ » قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال : « مَهْ عليكم بما تطيقون، فو الله لا يملُّ الله

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ١ / ٢١٥ من حديث ابن عباس ؓ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب العلم : باب هلك المتنطعون ٤ / ٢٠٥٥ رقم (٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود ؓ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الأدب : باب فى الحسد ٤ / ٢٧٦، ٢٧٧ رقم (٤٩٠٤) من حديث أنس ؓ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدين يسر . . . إلخ ١ / ١٦ من حديث أبى هريرة ؓ .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب النكاح : باب الترغيب فى النكاح ٧ / ٢، ومسلم فى: الصحيح : كتاب النكاح : باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه . . . إلخ ٢/ ١٠٢٠ رقم (١٤٠١) واللفظ للبخارى .

حتى تملُّوا،وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه» (١)، « اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا، وإن أحبَّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ »(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت مولاة للنبي ﷺ تصوم النهار، وتقومُ الليل، فقيل له: إنها تصومُ النهار، وتقومُ الليل فقال ﷺ : « إن لكل عمل شِرّة والشرة إلى فَترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى،ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضل»(٣) .

٢ ـ السّرف ومجاوزة الحد في تعاطى المباحات :

فإن هذا من شأنه أن يؤدى إلى السمنة وضخامة البدن، وسيطرة الشهوات، وبالتالى التثاقل، والكسل، والتراخى، إن لم يكن الانقطاع، والقعود، ولعل ذلك هو السرّ في نهى الله ورسوله،وتحذيرهما من السّرف.

قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف].

وقال رسول الله ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه. . . » (٤).

وقد أدرك سلف الأمة مايصنعه السّرف والتوسّع فى المباحات بصاحبه فحذروا منه؛ إذ تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : أولُ بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها الشّبع، فإنّ القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم(٥) .

وإذ يقول عمر رضي الله عنه : إياكم والبطنة فى الطعام والشّراب، فإنّها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما ؛ فإنه أصلح للجسد، وأبعد

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب أحب الدين إلى الله أدومه ١/ ١٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ١ / ٥٤٠ رقم (٧٨٢)، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب التنكيل لمن أكثر الوصال ٣/ ٤٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب النهى عن الوصال فى الصوم ١ / ٧٧٤، ٧٧٥ رقم (١١٠٣)، كلاهما عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : أبواب العيدين : باب الاقتصار فى العمل والدوام عليه ٢/ ٢٦١، ٢٦٢ وعقب عليه بقوله : « رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد : باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٤/ ٥٠٩، ٥١٠ رقم (٢٣٨٠) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » من حديث المقدام بن معدى كرب رضي الله عنه .

(٥) أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ٣ / ١٣٧ .

من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإنّ الرّجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه [١] .

وإذ يقول أبو سليمان الداراني : من شبع دخل عليه ست آفات : فَقَدَ حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشّفقة على الخلق ؛ لأنه إذا شبع ظنّ أنّ الخلق كلهم شباع ـ وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشّباع يدورون حول المزابل[٢] .

٣ ـ مفارقة الجماعة، وإيثار حياة العزلة والتفرد :

ذلك أن الطريق طويلة الأبعاد، متعددة المراحل، كثيرة العقبات، في حاجة إلى تجديد، فإذا سارها المسلم مع الجماعة، وجد نفسه دوما متجدد النشاط، قوى الإرادة، صادق العزيمة، أمّا إذا شذ عن الجماعة وفارقها، فإنه سيفقد من يجدد نشاطه، ويقوى إرادته، ويحرك همّته، ويذكره بربه فيسأم ويملّ، وبالتالي يتراخى ويتباطأ، إن لم ينقطع ويقعد .

ولعلّ هذا بعض السّر في حرص الإسلام وتأكيده وتشديده على الجماعة، وتحذيره من مفارقتها، والشذوذ عنها، إذ يقول الله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . **﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾** [المائدة : ٢] . **﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾** [الأنفال : ٤٦] . **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)﴾** [آل عمران] .

وإذ يقول النبي ﷺ :

« ... عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة »[٣] . « من فارق الجماعة شبرا، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » [٤].

---

(١) أورده الهندي في : كنز العمال (٦٣٠٩) وعزاه للديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أورده الغزالي في : إحياء علوم الدين ٣ / ٩٤ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/ ٤٠٤ رقم (٢١٦٥) وعقب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب الأمثال : باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٥/ ١٣٦، ١٣٧ رقم (٢٨٦٣) وعقب عليه بقوله:«هذا حديث حسن صحيح غريب» من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه .

« وآمركم بالسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد، والجماعة، فإنّ من فارق الجماعة شبرا فمات، إلا كانت ميتته ميتة جاهلية »[١] . « المؤمن الذى يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم »[٢] .

وقد أدرك سلف الأمة ذلك، فلزموا الجماعة، ورغبوا فيها، وأكدوا عليها، يقول عليّ رضي الله عنه : « كدر الجماعة خير من صفو الفرد » .

ويقول عبد الله بن المبارك :

لولا الجماعة ما كانت لنا سبل ... ولكان أضعفنا نهبا لأقوانا

٤ـ قلّة تذكُّر الموت والدار الآخرة :

فإن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى فتورالإرادة، وضعف العزيمة، وبطء النشاط والحركة، بل قد يؤدى إلى الوقوف والانقطاع .

ولعلنا ـ فى ضوء هذا ـ نفهم الحكمة من أمره ﷺ بزيارة القبور بعد النهى والتحذير، إذ يقول : « إنى نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإن فيها عِبرةً »[٣] ، وفى رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهّد فى الدنيا، وتذكّر الآخرة »[٤] .

كما نفهم الحكمة من حضه ﷺ على تذكر الموت، وانتهاء الأجل إذ يقول:

« أيها الناس، استحيوا من الله حق الحياء »، فقال رجل: يا رسول الله، إنا لنستحى من الله تعالى، فقال : « مَنْ كان منكم مستحييا فلا يبيتن ليلةً إلا وأجله بين

---

(١) الحديث اخرجه احمد فى : المسند ٤ / ١٣٠ من حديث الحارث الأشعرى .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٥٥) ٤/ ٥٧٢ رقم (٢٥٠٧) عن شيخ من أصحاب النبى ﷺ ، ولم يعقب عليه، وابن ماجه فى السنن: كتاب الفتن : باب الصبر على البلاء ٢ / ١٣٣٨ رقم (٤٠٣٢) واللفظ له، وأحمد فى : المسند ٢ / ٤٣، كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣ / ٣٨ من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الجنائز : باب ما جاء فى الرخصة فى زيارة القبور ٣/ ٣٧٠ رقم (١٠٥٤) وعقب عليه بقوله : « حديث بريدة حديث حسن صحيح »، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه .

عينيه، وليحفظ البطنَ وما حوى، والرأس وما وعى، وليذكر الموتَ والبلى، وليترك زينة الدنيا »[١] .

٥ ـ التقصير فى عمل اليوم والليلة :

مثل النوم عن الصلاة المكتوبة بسبب السّمر الذى لا مبرر له بعد العشاء، ومثل إهمال بعض النوافل الراتبة، وترك قيام الليل، أو صلاة الضحى، أو تلاوة القرآن، أو الذكر أو الدعاء، أو الاستغفار، أو التخلف عن الذهاب إلى المسجد، أو عدم حضور الجماعة بدون عذر، فكلّ ذلك وأمثاله له عقوبات، وأدنى هذه العقوبات : الفتور بأن يكسل ويتثاقل أو ينقطع ويتوقف.

وقد أشار النبى ﷺ فى حديثه إلى شىء من هذا، إذ يقول : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد : يضرب كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، وإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلانَ»[٢] .

٦ ـ دخول جوفه شىء محرّم أو به شبهة :

إما بسبب تقصيره وعدم إتقانه للعمل اليومى الذى يتعيشُ منه، وإما بسبب تعامله فيما نُسَميه شبهة، وإما بسبب غير ذلك، فمثل هذا يعاقب من سيده ومولاه. وأدنى عقاب فى الدنيا : أن يفتر فيقعد ويرقد عن الطاعات، أو على الأقل يكسل ويتثاقل فلا يجدُ للقيام لذة، ولا للمناجاة حلاوة .

ولعل هذا هو سر دعوة الإسلام إلى أكل الحلال وتحريه، والابتعاد عن الحرام، وما كانت به أدنى شبهة، إذ يقول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين (١٦٨) ﴾ [البقرة] . ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٢٤) ٤/ ٥٥٠ رقم (٢٤٥٨) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد »، وأحمد فى : المسند ١ / ٣٨٧، كلاهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب التهجد : باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٢ / ٦٥، ومسلم فى: الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ١ / ٥٣٨ رقم (٧٧٦)، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل]. ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون].

وإذ يقول النبي ﷺ:

« كل جسد نبت من سحت ـ أى من حرام ـ فالنار أولى به»[1] . « الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم، أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصى حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه »[2]، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[3] .

ويربى النبي ﷺ المسلمين عمليا على ذلك حين يجد تمرة فى الطريق ويرفض أكلها قائلا: « لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها »[4] .

وعلى هذا المنهج سار سلف الأمة، فكانوا يفتشون، ويتحرّون عن كل ما يتعلق بحياتهم من الطعام، والشراب، واللباس، والمركب . . . إلخ، وإذا وجدوا شيئا شابته شائبة أو أدنى شبهة اجتنبوه، مخافة أن يجرّهم إلى الحرام، فتفسد قلوبهم، فيحرموا العمل، أو يحرموا قبوله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبى بكر الصديق رضي الله عنه غلام يُخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوما بشىء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أُحسنُ الكهانة، إلا أنى خدعته فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شىء فى بطنه »[5] .

---

(١) الحديث أورده الأصفهانى فى: حلية الأولياء ١ /٣١، والهندى فى: كنز العمال (٩٢٥٩)، والسيوطى فى: الدر المنثور ٢ / ٢٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات ٣/ ٧٠، ومسلم فى: الصحيح : كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣ / ١٢١٩ رقم (١٥٩٩)، كلاهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، واللفظ للبخارى.

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى:السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٦٠) ٤ / ٥٧٦، ٥٧٧ رقم (٢٥١٨) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على رضي الله عنه.

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب البيوع : باب ما يتنزه من الشبهات٣/ ٧١، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وآله . . . إلخ ٢ / ٧٥٢ رقم(١٠٧١)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب مناقب الأنصار : باب أيام الجاهلية ٥ / ٥٣، ٥٤ .

٧ ـ اقتصار العامل على جانب واحد من جوانب الدين :

كأن يجعل همه العقيدة فحسب، ملغيًا كل شيء غيرها من حسابه، أو يجعل همه الشعائر التعبدية، تاركا كل ما سواها، أو يقتصر على فعل الخيرات ورعاية الآداب الاجتماعية، غاضا الطرف عما عداها، فكل هؤلاء وأمثالهم تأتى عليهم أوقات يصابون فيها لا محالة بالفتور . وهذا أمر بدهى؛ نظرا لأن دين الله موضوع لاستيعاب الحياة كلها، فإذا اقتصر واحد من الناس على بعضه فكأنما أراد أن يحيا بعض الحياة، لا كل الحياة، ثم إذا بلغ الذروة فى هذا البعض يتساءل : وماذا بعد ؟ فلا يجد جوابا سوى الفتور إمَّا بالعجز وإمَّا بالكسل .

ولعل ذلك هو أحد أسرار الدعوة إلى أخذ منهج الله كلا بلا تبعيض ولا تجزىء :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)﴾ [البقرة]، أى اعملوا بجميع شعب الإيمان، وشرائع الإسلام، ولا تسيروا خلف الشيطان، لما يكنه لكم من العداوة والبغضاء، فيصرفكم عن منهج الله بالكلية، أو عن بعضه، فتفتروا، وتضيعوا .

٨ ـ الغفلة عن سنن الله فى الكون والحياة :

فإنَّا نرى صنفا من العاملين لدين الله يريد أن يغير المجتمع كله ـ أفكاره، ومشاعره، وتقاليده، وأخلاقه، وأنظمته : الاجتماعية،والسياسة، والاقتصادية ـ فى يوم وليلة، بأساليب ووسائل هى إلى الوَهم والخيال أقرب منها إلى الحقيقة والواقع، مع شجاعة وجرأة، وفدائية، لا تستكثر تضحيةً وإن غَلَتْ، ولا تعبأ بالموت سعتْ إليه أو سعى إليها، ولا تهتم بالنتائج أيا كانت، ما دامت نيتها لله، ومادام هدفها إعلاء كلمة الله، غير واضعين فى حسابهم سنن الله فى الكون والحياة : من ضرورة التدرج فى العمل، ومن أنَّ الغلبة إنّما تكون للأتقى، فإذا لم يكن فللأقوىُ، ومن أن لكل شيء أجلاً مسمىً لا يقدم ولا يؤخر. . . إلخ، فإذا مانزلوا إلى أرض الواقع، وكان غير ما أملوا وما أرادوا وما عملوا، فتروا عن العمل: إما بالكسل والتوانى والتراخى، وإما بالقعود والانسلاخ والترك.

٩ ـ التقصير في حق البدن بسبب ضخامة الأعباء وكثرة الواجبات، وقلة العاملين:

ذلك أننا نجد بعض العاملين ينفقون كل ما يملكون من جهد ووقت وطاقة فى سبيل خدمة هذا الدين، ضانين على أنفسهم بقليل من الراحة والترويح، فهؤلاء

وأمثالهم، وإن كانوا معذورين بسبب ضخامة الأعباء، وكثرة الواجبات وقلة العاملين، إلا أنه تأتى عليهم أوقات يفترون عن العمل لا محالة .

ولعل هذا هو سر تأكيدهﷺ على حق البدن، مهما تكن الأعذار والمبررات إذ يقول :

« إنّ لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه » [١] ، وفى رواية أخرى : « فإن لجسدك عليك حقّا، وإن لعينك عليك حقّا، وإن لزوجك عليك حقّا، وإن لِزَوْرِك عليك حقّا. . . » [٢] .

١٠ ـ عدم الاستعداد لمواجهة معوقات الطريق :

ذلك أننا نجد بعض العاملين يبدءون السير فى الطريق دون أن يقفوا على معوقاته، من زوجة أو ولد، أو إقبال دنيا، أو امتحان، أو ابتلاء، أو نحو ذلك، وبالتالى لا يأخذون أهبتهم ولا استعدادهم، وقد يحدث أن يصدموا أثناء السير بهذه المعوقات، أو بعضها، فإذا هم يعجزون عن مواجهتها، فيفترون عن العمل إما بالكسل والتراخى، وإما بالوقوف والانقطاع .

وهذا سر تنبيه القرآن الكريم، وتحذيراته المتكررة من معوقات الطريق، إذ يقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨] . ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] . ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت] . ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد] .

١١ ـ صحبة ذوى الإرادات الضعيفة ، والهمم الدانية :

فقد يحدث أن يصحب العامل نفرا ممّن لهم ذيوع وشهرة، وحين يقترب منهم

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الصوم : باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ولم ير عليه قضاءً إذا كان أوفق له ٣ / ٤٩ من حديث أبى جحيفة رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الصوم : باب حق الجسم فى الصوم ٣ / ٥١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

ويعايشهم، يراهم خاوين فاترين فى العمل، كالطبل الأجوف، فإن مضى معهم عَدُوه ـ كما يعدى الصحيحَ الأجربُ ـ بالفتور والكسل .

وهذا هو سرّ تأكيدهﷺعلى ضرورة انتقاء واصطفاء الصاحب، إذ يقول:

« المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم إلى من يخالل »[١] ، « إنّما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك : إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة »[٢] .

١٢ ـ العفويّة فى العمل سواء على المستوى الفردى أو الجماعى :

ذلك أن كثيرا من العاملين أفرادا كانوا أو جماعات، يمارسون العمل لدين الله بصورة عفوية لا تتّبع منهجا، ولا تعرف نظاما، فيقدّمون الأمور الثانويّة أو التى ليست بذى بال، ويؤخّرون بل ويهملون الأمور الرئيسية، والتى لابد منها من أجل التمكين لدين الله، وهذا يؤدى إلى أن تطول الطّريق وتكثر التكاليف والتضحيات، فيكون الفتور غالبا، إن لم تتدخّل يد الله بالرعاية والتأييد والثبات.

ولعلّنا فى ضوء هذا نفهم سرّ وصيتهﷺلمعاذ لما وجّههُ إلى اليمن، إذ قال له : «إنّك تأتى قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ فى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[٣] .

إنّ الحديث قاعدة رئيسية فى منهجية العمل، وترتيبه، ودقته .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب الزهد : باب (٤٥) ٤ / ٥٠٩ رقم (٢٣٧٨) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب » من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب البيوع، باب فى العطار وبيع المسك ٣/ ٨٢، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ رقم (٢٦٢٨)، كلاهما من حديث أبى موسى رضي الله عنه .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الزكاة : باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فى الفقراء حيث كانوا ٢/ ١٥٨، ١٥٩، ومسلم فى الصحيح : كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ رقم (١٩)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

١٣ ـ الوقوع فى المعاصى والسيّئات لاسيما صغائر الذنوب مع الاستهانة بها :

فإن ذلك ينتهى بالعامل لا محالة إلى الفتور، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى].

وصدق رسول الله ﷺ الذى يقول :

« إياكم ومحقّرات الذّنوب، فإنّهُنّ يجتمعْنَ على الرجل حتى يُهْلكنَّه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلا، «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سوادا، فأججوا نارا، وأنضجوا ماقذفوا فيها» [1] . « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا، نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذى ذكره عزّ وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾» [المطففين] [2].

تلك هى الأسباب التى توقع فى الفتور غالبا .

ثالثاً : آثاره :

وللفتور آثار ضارّة، ومهلكة، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى:

أ ـ على العاملين :

فمن آثاره على العاملين، قلَّة رصيدهم ـ على الأقل ـ من الطّاعات، وربَّما قُبِضَ أحدهم وهو فاتر كسلان، فيلقى الله مقصِّرا مفرّطا ؛ لذا كان من دعائه ﷺ :

« اللهم إنى أعوذُ بك مِنَ الهمِّ والحزن، وأعوذُ بك من العَجْزِ والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرّجال »[3] . « اللهم اجعل خير عمرى آخره ، اللهم اجعل خواتيم عملى رضوانك ، اللهم اجعل خير أيّامى يوم ألقاك »[4] . « . . . اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتيمه ، وخير أيامى

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ١ / ٤٠٢ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأورده الهيثمى في: مجمع الزوائد : كتاب التوبة : باب فيما يحتقر من الذنوب ١٠/ ١٩٢ وعقب عليه بقوله: « رجاله رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق » .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في: السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ٢ / ١٤١٨ رقم (٤٢٤٤)، وأحمد في: المسند ٢ / ٢٩٧، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن : كتاب الصلاة : باب فى الاستعاذة ٢ / ٩٠ رقم (١٥٤٠، ١٥٤١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن السنى عن أنس، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الأذكار: باب الدعاء فى الصلاة وبعدها ١٠/ ١١٣ وعقّب عليه بقوله: «رواه الطّبرانى فى الأوسط وفيه أبو مالك النخعى وهو ضعيف».

يوم ألقاك فيه . . . »[١] .

وكان من بشرياته لأمته: « إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله » فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : « يوفقه لعمل صالح قبل الموت»[٢] .

وكان من وصيته لها : « إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنّه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم »[٣] ، « لا عليكم ألا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له . . . »[٤] .

وكان من تأثر الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ لما مرض مرض الموت إذ جاء: أنه لما مرض بكى، فقال : إنما أبكى لأنه أصابنى على حال فترة، ولم يصبنى على حال اجتهاد[٥] ، ويقصد أن المرض أصابه وهو فى حال سكون وتقليل من العبادات والمجاهدات .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثاره على العمل الإسلامى : طول الطريق، وكثرة التكاليف والتضحيات، إذ مَضَتْ سنته سبحانه : ألا يعطى النصر والتمكين للكسالى والغافلين والمنقطعين، وإنّما للعاملين المجاهدين الذين أتقنوا العمل، وأحسنوا الجهاد :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝ ﴾ [الكهف]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝ ﴾ [النحل] . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت].

---

(١) أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الأدعية، باب فيما يستفتح به الدعاء من حسن الثناء . . . إلخ ١٠/ ١٦٠، ١٦١ من حديث أنس، وعقّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن الأذرمى، وهو ثقة».

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب القدر: باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار ٤/ ٣٩٢ رقم (٢١٤٢) وعقّب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح » من حديث أنس بن مالك ﷺ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب القدر : باب العمل بالخواتيم ٨ / ١٥٥من حديث سهل بن سعد ﷺ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٣ / ١٢٠ من حديث أنس بن مالك ﷺ ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب القدر: باب الأعمال بالخواتيم ٧/ ٢١٤ وعقب عليه بقوله: « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) الأثر أورده ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٤٠٨ .

رابعاً : علاجه :

ولما كان الفتور يؤدى إلى الآثار والمخاطر التى ذكرنا لزم التحرز والتطهر منه، ويستطيع العاملون التحرز والتطهّر منه على النحو التالى :

١ ـ **البعد عن المعاصى والسيئات كبيرها وصغيرها** : فإنّها نار تحرق القلوب، وتستوجب غضب الله، ومن غضب ربُّه عليه فقد خسر خُسْرانا مبينا : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] .

٢ ـ **المواظبة على عمل اليوم والليلة** : من ذكر أو دعاء وضراعة أو استغفار، أو قراءة قرآن، أوصلاة ضحى، أو قيام ليل ومناجاة، لاسيَّما فى وقت السحر، فإنّ ذلك كلّه مولدٌ إيمَانى جيد، ينشّط النفوس، ويحركها ويعلى الهمم، ويقوى العزائم . قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان]. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . . . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل] .

وقال النبى ﷺ: « مَنْ نَامَ عن حزبه، أو عن شىء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنّما قرأه من الليل » [(١)] .

٣ ـ **ترصُّد الأوقات الفاضلة والعَمل على إحيائها بالطاعات** : فإن هذا مما ينشط النفوس، ويقوى الإرادات . يقول ﷺ : « . . . فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروحة، وشىء من الدُّلْجة » [(٢)] .

٤ ـ **التحرّر من التشدُّد والغلوِّ في دين الله** : فإن ذلك مما ينشِّط ويساعد على الاستمرار، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ حصير، وكان يحجره [(٣)] من الليل فيصلى فيه، فجعل الناس يصلُّون بصلاته، ويبسطه بالنَّهار ، فثابوا [(٤)] ذات ليلة، فقال: « يا أيها الناس، عليكم من الأعمال ماتطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملُّوا، وإن أحب الأعمال إلى الله مادُووِمَ عليه، وإن قلّ » وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملا أثبتوه [(٥)] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ١ / ٥١٥ رقم (٧٤٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدين يسر . . . إلخ ١/١٦ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(٣) يحجره : أى يتخذه حجرة .

(٤) ثابوا : أى اجتمعوا للصلاة .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ١ / ٥٤٠، ٥٤١ رقم (٧٨٢) .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أنَّ التحرّر من التشدُّد والغلوّ لا يعني التَّركَ والإهمال، بل يعنى الاقتصاد والتوسّط، مع المحافظة على ما اعتاده من العمل، ومع اتّباع السنَّة، قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل » (١) ، وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » (٢) .

٥ ـ دفنُ النفس فى أحضان الجماعة ، وعدم اعتزالها أو الشذوذ عنها بحال من الأحوال : وحسبنا قوله ﷺ : « الجماعة رحمة، والفرقة عذاب » (٣) ، « يد الله مع الجماعة » (٤) ، وقول على ﷺ المذكور آنفا : كدر الجماعة خير من صفو الفرد .

٦ ـ الانتباه إلى سنن الله فى الإنسان والكون ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] ، من استفراغ الطاقة وبذل الجهد الإنسانى أولاً: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] .

ومن التدرج فى العمل كما قالت أمّ المؤمنين عائشة ﷺ : إنّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنَّة والنَّار، حتى إذا ثاب النَّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا:لا ندع الخمر، ولو نزل:ولا تزنوا، لقالوا:لا ندع الزنا أبدا (٥) .

وكما عبَّر عنه عمر بن عبد العزيز ﷺ خامس الخلفاء الرّاشدين ـ فقد أراد أن يعود

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التهجد : باب ما يكره من قيام الليل لمن كان يقومه ٦٨/٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا ... إلخ ٢ / ٨١٤ رقم (١١٥٩) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ... إلخ ٩ / ١١٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الفضائل : باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ... إلخ ٤ / ١٨٣٠ رقم (١٣٣٧)، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٤ / ٢٧٨، ٣٧٥ من حديث النعمان بن بشير ﷺ ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب لزوم الجماعة وطاعة الأئمة والنهى عن قتالهم ٥ / ٢٢٠، ٢٢١ وعقب عليه بقوله : « رجاله ثقات » .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب الفتن: باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤ / ٤٠٥ رقم (٢١٦٦) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه » من حديث ابن عباس ﷺ .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب فضائل القرآن : باب تأليف القرآن ٦ / ٢٢٨.

بالحياة إلى هَدْى الخلفاء الأربعة، لكن بعد أن يتمكن ويمسك الخيوط فى يديه، وكان له ابن يقال له : عبد الملك، فيه فتوةٌ، وحماسٌ، وحيوية وتقى، فأنكر على أبيه البطء، وعدم الإسراع فى إزالة كلّ بقايا الانحراف والمظالم، حتّى تعود الحياة إلى سيرتها الأولى أيّام الرّاشدين، إذ قال له يوما:

مالك يا أبت لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالى، لو أن القدور غلت بى وبك فى الحقّ .

فكان جواب الأب الفقيه : لا تعجل يا بنى، فإنَّ الله ذمَّ الخمر فى القرآن مرّتين، وحرّمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الناس على الحقّ جملة، فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة . . . إلخ[1] .

٧ ـ **الوقوف على معوّقات الطّريق من أوّل يوم فى العمل** : حتى تكون الأهبة، ويكون الاستعداد لمواجهتها، والتغلّب عليها، فلا يبقى مجال لفتور أو انقطاع .

٨ ـ **الدقَّة والمنهجية فى العمل** : على معنى مراعاة الأولويات، وتقديم الأهم، وعدم الدُّخول فى معارك جانبية، أو مسائل جزئية هامشيّة.

٩ ـ **صحبة الصالحين المجاهدين من عباد الله**: إذ أنّ هؤلاء لهم من الصّفاء النفسى، والإشراق القلبى، والإشعاع الروحىّ ما يسبى، ويجذب، بل ما يحرّك الهمم والعزائم، ويقوى الإرادات .

وقد لفت النبى ﷺ الأنظار إلى ذلك حين قال : « ألا أخبركم بخير النّاس؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « مَنْ تُذَكِرُكم رؤيته بالله عزَّ وجلَّ » [2] .

١٠ ـ **إعطاء البدن حقَّه من الرّاحة ، والطّعام والشّراب مع الاعتدال فى ذلك** ؛ فإن هذا مما يجدد نشاط الجسم، ويعيد إليه قُوّته وحيويّته .

وقد أرشد النبى ﷺ العاملين إلى ذلك : فقد دخل مرّةً المسجد، فرأى حبلا

---

(١) انظر : الموافقات للشاطبى ٢ / ٩٤ . طبعة دار المعرفة بيروت .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٦/٤٥٩ من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب ما جاء فى الغيبة والنميمة ٨ / ٩٦ وعقب عليه بقوله : « فيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح » بلفظ: « ألا أخبركم بخياركم . . . الذين إذا رؤوا ذُكر الله تعالى . . . » .

ممدودا بين ساريتين، فقال : « ما هذا الحبل ؟ » قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فَتَرتْ تعلَّقت به، فقال النبى ﷺ: « حلُّوه ، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد » [(١)] ، وقال أيضا : « إذا نعس أحدكم ـ وهو يصلى ـ فليرقد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلَّى وهو ناعس لا يدرى لعلّه يذهبُ يستغفر، فيسبَّ نفسه » [(٢)] .

١١ـ الترفيه عن النفس بالمباحات ، من مداعبة الأهل ، أو ملاعبة الأولاد ، أو القيام ببعض الرّحلات : النّهرية للتجديف، أو القمريَّة للرِّياضة، والتدبُّر والتفكُّر، أو الجبليَّة للصعود والتسلُّق، أو الصحراويَّة للتمرُّس والتعوُّد على مواجهة مشاقّ الحياة، أو الحقلية أو غير ذلك، فإنَّ هذا مما يطرد السَّأم والملل، ويقضى على الفتور والكسل، بحيث يعود المسلم إلى ممارسة نشاطه وكأنّما ولد من جديد، أو صار خلقا آخر .

عن أبى ربعى حنظلة بن الرّبيع الأُسَيدى الكاتب، أحد كتّاب رسول الله ﷺ قال: لقينى أبو بكر رضي الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلتُ : نافقَ حنظلةُ، قال : سبحان الله، ما تقول ؟ قلتُ : نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالجنَّة والنَّار كأنَّا رأى عَين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسْنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، قال أبو بكر رضي الله عنه : فو الله إنَّا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلتُ: نافق حنظلة يا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « وما ذاك ؟» قلتُ : يارسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنَّار والجنَّة حتى كأنَّا رَأىَ عين، فإذا خرجنا من عندك عافسْنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر؛ لصافحتْكم الملائكة على فرشكم، وفى طرقكم، ولكن ياحنظلة ساعةً وساعة » ثلاث مرات[(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد فى العبادة ٢ / ٦٧، ومسلم فى الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتي يذهب عنه ذلك ١ / ٥٤١ رقم (٧٨٤) . كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءا ١ / ٦٣، ٦٤، ومسلم فى الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك ١ / ٥٤٢، ٥٤٣ رقم (٧٨٦)، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ٤ / ٢١٠٦ رقم (٢٧٥٠) .

١٢ ـ دوام النظر والمطالعة فى كتب السيرة ، والتاريخ والتراجم ؛ فإنَّها مشحونة بكثير مِنْ أخبار العاملين المجاهدين،أصحاب العزائم القويّة، والإرادات الصّادقة، التّى تُسرِّى عن النفس وتسلّيها، وتولد فيها حب الاقتداء والتأسِّى، وصدق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يقول : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف : ١١١].

وعلى سبيل المثال : حين يقرأ المسلم عن « عمر بن عبد العزيز » أنه كان إذا فتر فى الوقت من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس وارتفاعها قليلا، أخذ يدور فى صحن بيته، ويردِّد على نفسه :

وكيف تنام العين وهى قريرةٌ ولم تــدر أى المحــلين تنزل

حين يقرأ المسلم ذلك، تتحرّك مشاعره، وأحاسيسه، فينشط ويجاهد نفسه ليكون ضمن قافلة العاملين المجاهدين .

١٣ ـ تذكر الموت ومابعده من سؤال القبر ، وظلمته ووحشته ، والبعث والحشر.... إلخ ؛ فإن هذا مما يوقظ النفس من نومها، ويوقفها من رقدتها، وينبهها من غفلتها، فتنشط وتتابع السّير،وخير وسيلة لتذكر الموت الذّهاب إلى القبور ـ ولو مرة فى كل أسبوع ـ وزيارتها والاعتبار بأحوال أهلها، « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنّ فيها عِبْرةً »[١] .

وجاء عن ابن السَّمَّاك الواعظ : أنّه كان قد حفر حفرةً فى بيته كأنّها قبر وكلما أحسَّ من نفسه فتوراً أو كسلاً نزل إلى هذه الحفرة، واستلقى كأنّما قد مات، ثم يتخيَّل أنه قد سئل، وأنَّ أعماله قد قصرت به، ويأخذ فى الاستغاثة والصّراخ، وطلب العودة قائلا : ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ [المؤمنون].

وبعد طول استغاثة وصراخ، وطلب، يجيب نفسه، ها أنت يا بن السمَّاك قد أعطيت فرصة أخرى، ثم يقوم من قبره، وكأنَّما نشط من عقال .

١٤ ـ تذكر الجنة والنار وما فيهما من النعيم والعذاب ؛ فإن ذلك ممَّا يذهب النّوم عن الجفون، ويحرك الهممَ السَّاكنة والعزائم الفاترة، جاء عن هرم بن حيان أنَّه كان يخرج فى بعض الليالى، وينادى بأعلى صوته : عجبت من الجنة كيف ينام طالبها،

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١١.

وعجبت من النَّار كيف ينام هاربها، ثم يقول : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1] [الأعراف] .

١٥ـ حضور مجالس العلم ؛ إذ العلم حياة القلوب، ربما سمع العامل كلمة من عالم صادق مخلص، فنشطته سنة كاملة، بل الدهر كله، وصدق الله الذى يقول : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨]، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه].

١٦ ـ أخذ هذا الدين بعمومه وشموله ، دون التخلى عن شىء منه ؛ فإنَّ ذلك يضمن الدَّوام والاستمرار، حتى تنقضى الحياة، ونلقى الله.

١٧ ـ محاسبة النفس ، والتفتيش فيها دائما ؛ فإنَّ ذلك مما يبصّر بالعيوب فى بدايتها، فتسهل معالجتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر].

(١) الأثر أورده الأصفهانى فى حلية الأولياء ٢/١١٩ .

الآفة الثانية
الإسراف

والآفة الثانية التى تصيب بعض العاملين، ولابدّ أن يتخلّصوا منها، وأن يتحصنوا ضدّها، إنما هى الإسراف، ولكى يكون حديثنا عن إسراف العاملين واضحا محدّد المعالم، سنجعله يدور على النحو التالى :

أولا : معنى الإسراف :

لغة : الإسراف فى اللغة يطلق ويراد به :

أ ـ ما أنفق من غير طاعة .

ب ـ أو التبذير، ومجاوزة الحد [1] .

اصطلاحا : أما فى اصطلاح الدّعاة : فيراد به مجاوزة حدّ الاعتدال فى الطعام، والشراب، واللباس، والسكنى، ونحو ذلك من الغرائز الكامنة فى النفس البشرية.

ثانيا : أسباب الإسراف :

وللإسراف أسباب وبواعث توقع فيه، وتؤدى إليه، ونذكر منها :

١ ـ النشأة الأولى :

فقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هى النشأة الأولى، أى الحياة الأولى: ذلك أنّ المسلم قد ينشأ فى أسرة حالها الإسراف والبذخ، فما يكون منه سوى الاقتداء والتأسى، إلا من رحم الله، على حدّ قول القائل :

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه

ولعلّنا بهذا ندرك شيئا من أسرار دعوة الإسلام وتأكيده على ضرورة اتّصاف الزوجين، والتزامهما بشرع الله وهديه : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ

---

[1] انظر: القاموس المحيط ٣ / ١٥٦، والمعجم الوسيط ١ / ٤٢٧، والصّحاح فى اللغة والعلوم ص ٤٧٤ مادة : « سرف ».

وَإِمَائِكُم ﴾ [النور : ٣٢] . ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٢١].

« تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١) .

٢ ـ السعة بعد الضيق :

وقد يكون الإسراف سَبَبُهُ السعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، ذلك أن كثيرا من الناس قد يعيشون في ضيق أو حرمان أو شدة أو عسر، فإذا هم صابرون محتسبون، بل وماضون في طريقهم إلى ربهم، وقد يحدث أن تتغيّر الموازين، وأن تتبدل الأحوال، فتكون السّعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، وحينئذ يصعب على هذا الصنف من الناس التوسط أو الاعتدال، فينقلب على النقيض تماما فيكون الإسراف أو التبذير .

ولعلنا بهذا ندرك بعض الأسرار التي من أجلها حذّر الشارع الحكيم من الدنيا، وأوصى بأن يكون النّيل منها بقدر . يقول النبي ﷺ:

« فأبشروا، وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم » (٢) . « إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » (٣).

٣ ـ صحبة المسرفين :

وقد يكون السبب في الإسراف إنّما هي صحبة المسرفين، ومخالطتهم، ذلك أن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح : كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين ٧ / ٩، ومسلم في: الصحيح : كتاب النكاح باب استحباب نكاح ذات الدين ٢ / ١٠٨٦ رقم (١٤٦٦)، كلاهما من حديث أبي هريرة عنه ﷺ، واللفظ للبخاري .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح : كتاب الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا، والتنافس فيها ٨/ ١١٢، ومسلم في: الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٧٣، ٢٢٧٤ رقم (٢٩٦١)، كلاهما من حديث عمرو بن عوف، عنه ﷺ، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤ / ٢٠٩٨ رقم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري عنه ﷺ.

الإنسان غالبا ما يتخلق بأخلاق صاحبه،وخليله، لاسيما إذا طالت هذه الصحبة، وكان هذا الصاحب قوى الشخصية، شديد التأثير .

ولعلّنا بذلك ندرك السرّ فى تأكيد الإسلام ، وتشديده على ضرورة انتقاء الصاحب أو الخليل ، ولقد مرت بنا بعض النصوص الدالة على ذلك أثناء الكلام عن أسباب الفتور .

٤ ـ الغفلة عن زاد الطريق :

وقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هى الغفلة عن زاد الطريق، ذلك أن الطريق الموصلة إلى رضوان الله والجنّة، ليست طريقا مفروشة بالحرير والورود والرياحين، بل بالأشواك والدموع، والعرق والدماء والجماجم ؛ وولوج هذه الطريق لا يكون بالترف، والنعومة، والاسترخاء، وإنّما بالرجولة والشدة، ذلك هو زاد الطريق، والغفلة عن هذا الزاد توقع المسلم العامل فى الإسراف .

ولعلنا بذلك ندرك سرّ حديث القرآن المتكرر المتنوع عن طبيعة الطريق : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من الآيات .

٥ ـ الزوجة والولد :

وقد يكون السبب فى الإسراف، إنّما هى الزوجة والولد،إذ قد يبتلى المسلم العامل بزوج وولد ، دأبهم وديدنهم الإسراف، وقد لا يكون حازما معهم، فيؤثرون عليه، وبمرور الأيام، وطول المعاشرة، ينقلب مسرفا مع المسرفين .

ولعلّنا بذلك نفهم بعض الأسرار التى قصد إليها الإسلام حين أكد ضرورة انتقاء واختيار الزوجة، وقد تقدمت بعض النصوص الدالة على ذلك قريبا، أثناء الحديث عن السبب الأول، وحين أكد على ضرورة الاهتمام بتربية الولد والزوجة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] .

« ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع، وهو

مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهى مسؤولة عنهم. . .» الحديث [(١)] .

٦ ـ الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغى أن تكون :

وقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هى الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغى أن تكون، ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا أنها لا تثبت ولا تستقر على حال واحدة، بل هى متقلبة متغيرة، تكون لك اليوم وعليك غدا، وصدق الله العظيم : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس ﴾ [آل عمران : ١٤٠].

والواجب يقتضى أن نكون منها على وجل وحذر : نضع النعمة فى موضعها، وندخر ما يفيض عن حاجتنا الضرورية اليوم من مال، وصحة، ووقت إلى الغد أو بعبارة أخرى : ندّخر من يوم إقبالها ليوم إدبارها .

تلك هى طبيعة الحياة الدنيا، وهذا ما ينبغى أن يكون، والغفلة عن ذلك قد توقع فى الإسراف.

٧ ـ التهاون مع النفس :

وقد يكون السبب فى الإسراف التهاون مع النفس، ذلك أن النفس البشرية تنقاد وتخضع، ويسلس قيادها بالشدة والحزم، وتتمرد وتتطلع إلى الشهوات، وتلحّ فى الانغماس فيها بالتهاون واللين، وعليه فإن المسلم العامل إذا تهاون مع نفسه، ولبى كل مطالبها، أوقعته لا محالة فى الإسراف.

ولعلنا بذلك نفهم السر فى تأكيد الإسلام على ضرورة المجاهدة للنفس أولاً وقبل كل شىء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]. ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] .

٨ ـ الغفلة عن شدائد وأهوال يوم القيامة :

وقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هى الغفلة عن شدائد وأهوال يوم القيامة،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ٩/ ٧٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٥٩ رقم (١٨٢٩)، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ عن النبى ﷺ به، واللفظ للبخارى .

ذلك أن يوم القيامة يوم فيه من الشدائد والأهوال، ما ينعقد اللسان وتعجز الكلمات عن الوصف والتصوير، وحسبنا ما جاء فى كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنّة النبىﷺعن هذا اليوم .

ومن ظلّ متذكرا ذلك، متدبرا فيه، قضى حياته غير ناعم بشىء فى هذه الحياة الدنيا، أما من غفل عن ذلك، فإنّه يصاب بالإسراف والترف، بل ربّما ما هو أبعد من ذلك .

ولعلّنا بهذا ندرك شيئا من أسرار دوام خشيتهﷺلربه وقلة تنعّمه، ونيله من الحياة الدنيا .

يقولﷺ : « لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا » [1] . وفى رواية أخرى : « . . . وما تلذذتم بالنساء على الفرش » [2] .

٩ ـ نسيان الواقع الذى تحياه البشرية عموما، والمسلمون على وجه الخصوص :

وقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هو نسيان الواقع الذى تحياه البشرية عموما، والمسلمون على وجه الخصوص، ذلك أن البشرية اليوم تقف على حافة الهاوية، ويوشك أن تتزلزل الأرض من تحتها فتسقط، أو تقع فى تلك الهاوية، وحينئذ يكون الهلاك أو الدمار، أما المسلمون فقد صاروا إلى حال من الذل والهوان يرثى لها، ويتحسر عليها، ومن بقى مستحضرا هذا الواقع، وكان متبلد الحس، ميّت العاطفة، فإنه يمكن أن يصاب بالترف والإسراف، والركون إلى زهرة الدنيا وزينتها .

ولعلنا بذلك ندرك شيئا من أسرار حزنه واهتمامهﷺ بأمر البشرية قبل البعثة، وبعدها، حتى عاتبه ربّه، ونهاه عن ذلك : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] . ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء] . ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرّقاق : باب قول النبىﷺ : « لو تعلمون ما أعلم » ١٢٧/٨ من حديث أبى هريرة وأنس عنهﷺبه، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى قول النبىﷺ : « لو تعلمون ما أعلم » ٤ / ٤٨٢ رقم (٢٣١٣) من حديث أبى هريرة عنهﷺبه، وعقّب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح » .

(٢) أخرج هذه الرواية الترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى قول النبىّﷺ : « لو تعلمون ما أعلم » ٤٨٢/٤ رقم (٢٣١٢) من حديث أبى ذرّ، وعقّب عليه بقوله: « هذا حديث حسن غريب».

١٠ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على الإسراف :

وقد يكون السبب فى الإسراف إنّما هى الغفلة عن الآثار المترتبة على الإسراف، ذلك أن للإسراف آثارا ضارة، وعواقب مهلكة، على النحو الذى سنعرض له بعد قليل.

ولقد عرف من طبيعة الإنسان، أنّه غالبا ما يفعل الشىء أو يتركه، إذا كان على ذكر من آثاره وعواقبه، أما إذا غفل عن هذه الآثار فإن سلوكه يختل، وأفعاله تضطرب، فيقع أو يسقط فيما لا ينبغى، ويهمل أو يترك ما ينبغى .

وعليه فإن المسلم العامل إذا غفل عن الآثار المترتبة على الإسراف، يكون عرضة للوقوع فى الإسراف .

ولعلنا بذلك نفهم السرّ فى اهتمام الإسلام بذكر الحكم والمقاصد المنوطة بكثير من الأحكام والتشريعات .

ثالثا : آثار الإسراف :

هذا، وللإسراف آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، وإليك طرفا من هذه الآثار:

أ ـ على العاملين :

فمن آثاره على العاملين :

١ ـ علة البدن :

أى أن الأثرالأول الذى يتركه الإسراف : إنّما يكمن فى علّة البدن، ذلك أن هذا البدن محكوم بطائفة من السنن والقوانين الإلهية، بحيث إذا تجاوزها الإنسان بالزيادة أو بالنقص، تطرّقت إليه العلّة، وحين تتطرق إليه العلة، فإنّه يقعد بالمسلم عن القيام بالواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، أو المنوطة به .

٢ ـ قسوة القلب :

والأثر الثانى الذى يترتب على الإسراف : إنّما هو قسوة القلب، ذلك أن هذا القلب يرقّ ويلين بالجوع، أو بقلّة الغذاء، ويقسو ويجمد بالشبع، أو بكثرة الغذاء، سنّة الله، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]، وحين يقسو القلب، أو يجمد، فإنّ صاحبه ينقطع عن البرّ والطاعات، والويل كلّ الويل لمن كانت هذه حاله، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وحتى لو جاهد المسلم نفسه ، وقام بالبرّ والطاعات

فإنه لا يجد لها لذة ولا حلاوة ، بل لا يجنى من ورائها سوى النصب والتعب ، « . . . وربّ قائم حظّه من قيامه السّهر » (١) .

٣ ـ خمول الفكر :

والأثر الثالث الذى يترتّب على الإسراف، إنما هو خمول الفكر، ذلك أن نشاط الفكر وخموله مرتبط بعدّة عوامل، البطنة أحدها، فإذا خلت البطنة نشط الفكر، وإذا امتلأت اعتراه الخمول، حتّى قالوا قديما : « إذا امتلأت البطنة نامت الفطنة » .

ويوم أن يصاب الفكر بالخمول، يوم أن يحرم المسلم الفقه والحكمة، وحينئذ يفقد أخصّ الخصائص التى تميّزه عن باقى المخلوقات .

٤ ـ تحريك دواعى الشرّ والإثم :

والأثر الرابع الذى يخلفه الإسراف، إنّما هو تحريك دواعى الشرّ والإثم، ذلك أن الإسراف يولّد فى النفس طاقة ضخمة، ووجود هذه الطّاقة من شأنه أن يحرّك الغرائز الساكنة أو الكامنة فى هذه النفس، وحينئذ لا يؤمن على المسلم العامل الوقوع فى الإثم والمعصية، إلاّ من رحم الله .

ولعلّ ذلك هو السرّ فى تأكيد الإسلام على الصّوم لمن لم يكن قادرا على مؤن النكاح، إذ يقول ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم فإنّه له وجاء » (٢) .

٥ ـ الانهيار فى ساعات المحن والشدائد :

والأثر الخامس الذى يتركه الإسراف إنّما هو الانهيار فى ساعات المحن والشدائد، ذلك أن المسرف قضى حياته فى الاسترخاء والترف، فلم يألف المحن والشدائد، ومثل هذا إذا وقع فى شدة أو محنة، لا يلقى من الله أدنى عون أو تأييد، فيضعف وينهار ؛ لأن الله عز وجل لا يعين ولا يؤيد، إلا من جاهد نفسه، وكان صادقا مخلصا فى

---

(١) هذه قطعة من حديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الصيام : باب ربّ صائم حظّه من صيامه الجوع ٣ / ٢٠٥، ثم عقب عليه بقوله : « رواه الطبرانىّ فى الكبير ورجاله موثّقون » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب قول النبى ﷺ : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج . . .إلخ »، وباب : من لم يستطع الباءة فليصم ٧ / ٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب استحباب النكاح . . . إلخ ٢ / ١٠١٨، ١٠١٩ رقم (١٤٠٠)، كلاهما من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعاً به، واللفظ لمسلم .

هذه المجاهدة : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح : ١٨] .

٦ ـ عدم الرعاية أو الاهتمام بالآخرين :

والأثر السادس الذى يتركه الإسراف، إنّما هو عدم الرعاية، أو الاهتمام بالآخرين، ذلك أن الإنسان لا يرعى الآخرين، ولا يهتم بهم غالبا، إلا إذا أضناه التعب، وغصّته الحاجة، كما أثر عن يوسف عليه السلام : أنه لما صار على خزائن الأرض، ما كان يشبع أبدا، فلمّا سئل عن ذلك، قال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع .

والمسرف مغمور بالنعمة من كل جانب، فأنى له أن يفكر أو يهتم بالآخرين .

٧ ـ المساءلة غدا بين يدى الله :

والأثرالسابع المترتب على الإسراف، إنّما هى المساءلة غدا بين يدى الله كما قال ـ سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر].

ومجرد الوقوف بين يدى الله للمساءلة والمناقشة عذاب، كما قال ﷺ : « . . . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب »[١] .

٨ ـ الوقوع تحت وطأة الكسب الحرام :

والأثر الثامن الذى يتركه الإسراف، إنّما هو الوقوع تحت وطأة الكسب الحرام، ذلك أن المسرف قد تضيق به أو تنتهى موارده، فيضطرّ ـ تلبية وحفاظا على حياة الترف والنعيم التى ألفها ـ إلى الوقوع ـ والعياذ بالله ـ فى الكسب الحرام، وقد جاء فى الحديث : « كل جسد نبت من سحت ـ أى من حرام ـ فالنّار أولى به »[٢] .

٩ ـ أخوة الشياطين :

والأثر التاسع الذى يتركه الإسراف، إنما هى أخوة الشياطين كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝٢٧ ﴾ [الإسراء] .

---

(١) هذه قطعة من حديث أخرجه البخارى فى : كتاب العلم : باب من سأل شيئا فراجع حتى يعرفه ١ / ٣٧، وكتاب التفسير : سورة إذا السماء انشقت ٦ / ٢٠٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب إثبات الحساب ٤ / ٢٢٠٤ رقم (٢٨٧٦) كلاهما من حديث عائشة W مرفوعا به، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١٦ .

وأخوة الشياطين تعنى الصيرورة والانضمام إلى حزبهم، وإن ذلك لهو الخسران المبين والضلال البعيد: ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ⑲ ﴾ [المجادلة] .

١٠ ـ الحرمان من محبة الله :

والأثر العاشر الذى يتركه الإسراف ، إنما هو الحرمان من محبة الله كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ㉛ ﴾ [الأعراف] .

وماذا يصنع من حرم محبة الله ؟ إنه يعيش فى قلق واضطراب، وألم نفسى، وإن أحاطت به الدنيا من كل جانب .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثاره على العمل الإسلامى فتنحصر فى :

سهولة القضاء عليه، أو على الأقل تأخيره إلى الوراء عشرات السنين ؛ نظرا لأن السلاح الوحيد الذى يواجه به المسلمون أعداء الله، ألا وهو الإيمان، إنّما يتأثر أشد ما يكون التأثير بالإسراف، والترف، والراحة، والنعيم.

تلك هى آثار الإسراف على العاملين، وعلى العمل الإسلامى . . . وقد مرّت بنا ـ أثناء الحديث عن أسباب الفتور ـ عدة نصوص من كتاب الله عز وجل وسنّة النبى ﷺ وسيرة السّلف، تتضمن إجمالا لكل هذه الآثار.

رابعا : الطريق لعلاج الإسراف :

وما دامت هذه آثار وعواقب الإسراف، وتلك أسبابه وبواعثه، فإن طريق العلاج تتلخص فى :

١ ـ التفكر فى الآثار والعواقب المترتبة على الإسراف : فإن ذلك من شأنه أن يحمل على تدارك الأمر، والتخلص من الإسراف، قبل فوات الأوان .

٢ ـ الحزم مع النفس، وذلك بفطمها عن شهواتها ومطالبها، وحملها على الأخذ بكل شاق وصعب : من قيام ليل، إلى صوم تطوع، إلى صدقة، إلى مشى على الأقدام، إلى حمل للأثقال . . . ونحو ذلك .

٣ ـ دوام النظر فى سنة النبى ﷺ وسيرته : فإنها مليئة بالتحذير من الإسراف، بل وبمجاهدة النفس والأهل، والعيش على الخشونة والتقشف، إذ يقول ﷺ

« المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (١) .

وفى رواية : أن رسول الله ﷺ ضافه ضيف، وهو كافر، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة، فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى فشربه، ثم أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم إنَّه أصبح، فأسلم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها، ثم أمر بأخرى فلم يستتمها، فقال رسول الله ﷺ : « المؤمن يشرب فى معىً واحد، والكافر يشرب فى سبعة أمعاء» (٢) . «ما ملأ آدمىٌّ وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه » (٣) .

وإذ تحكى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير ابن أختها فتقول : إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار. فيقول لها عروة: ما كان يعيشكم ؟ قالت: الأسودان : التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم، فيسقيناه (٤) .

وإذ تقول أيضا : كان فراش رسول الله ﷺ من أدم، وحشوه من ليف (٥) ، ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام برّ، ثلاث ليال تباعا حتى قبض (٦) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأطعمة : باب المؤمن يأكل فى معى واحد ٧ / ٩٢، ٩٣ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأشربة : باب المؤمن يأكل فى معىً واحد ٣/ ١٦٣١ ، ١٦٣٢ رقم (٢٠٦٠ـ ٢٠٦٢) ، من حديث ابن عمر ، وجابر ، وأبى موسى رضي الله عنه مرفوعا ، واللفظ له .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأطعمة : باب المؤمن يأكل فى معى واحد ٧ / ٩٣ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأشربة : باب المؤمن يأكل فى معى واحد ٣/ ١٦٣٢رقم (٢٠٦٣) ، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعا ، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٤/٥٠٩ ، ٥١٠ رقم (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معدى كرب رضي الله عنه مرفوعا به، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ٨/ ١٢١، ١٢٢ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٨٣ رقم (٢٩٧٢) ، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها به ، واللفظ للبخارى .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرقاق : باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ٨/ ١٢١، من حديث عائشة رضي الله عنها به .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرقاق : باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ٨/ ١٢٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٨١ رقم (٢٩٧٠)، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها به .

بل كان من دعائه ﷺ: « اللهم ارزق آل محمد قوتا » (١) .

وإن المسلم العامل لدين الله حين يقف على ذلك، وعلى غيره، تتحرك مشاعره وتتأجج عواطفه، فيترسم خطاه ﷺ ويسير على هديه اقتداء وتأسيا، وطمعا فى معيته فى الجنة : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾ [النساء] .

٤ ـ دوام النظر فى سيرة سلف هذه الأمة، من الصحابة المجاهدين، والعلماء العاملين : فقد اقتدى هؤلاء به ﷺ، فكان عيشهم كفافا، ولا هم لهم من الدنيا إلا أنها معبر أو قنطرة توصّل للآخرة .

دخل عمر بن الخطاب على ابنه عبد الله رضي الله عنه فرأى عنده لحما، فقال: ما هذا اللحم؟ قال : اشتهيته ، قال : وكلما اشتهيت شيئا أكلته ؟ كفى بالمرء سرفا أن يأكل كل ما اشتهاه (٢) .

وأتى سلمان الفارسى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فى مرضه الذى مات فيه فقال : أوصنى يا خليفة رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر : إن الله فاتح عليكم الدنيا، فلا يأخذن منها أحد إلا بلاغا(٣).

وكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على الكوفة يستأذنه فى بناء بيت يسكنه، فوقع فى كتابه : ابنِ ما يسترك من الشمس ويكنك من الغيث، فإن الدنيا دار بلغة (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرقاق: باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ٨/ ١٢٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤ / ٢٢٨١ رقم (١٠٥٥)، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للبخارى.

(٢) الأثر أورده الكاندهلوى فى : حياة الصحابة ٢ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥ قائلا : « وأخرج عبد الرزاق، وأحمد فى الزهد ، والعسكرى فى المواعظ ، وابن عساكر عن الحسن ، قال: دخل عمر على ابنه ...» وساقه بتمامه .

(٣) الأثر أورده الكاندهلوى فى : حياة الصحابة ٢ /٢٨٧ قائلا : « وعند الدينورى عن الحسن أن سلمان الفارسى أتى أبا بكر الصديق رضي الله عنه فى مرضه الذى مات فيه فقال : أوصنى ...» وساقه بتمامه.

(٤) الأثر أورده الكاندهلوى فى : حياة الصحابة ٢ / ٢٨٦ قائلا : « وأخرج ابن أبى الدنيا والدينورى عن سفيان بن عيينة قال : كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على الكوفة يستأذنه فى بناء بيت يسكنه ... » وساقه بتمامه .

وحكى ميمون أن رجلا من بنى عبد الله بن عمر ﷺ استكساه إزارا، قائلا : قد تخرق إزارى، فقال له عبد الله : اقطع إزارك ثم اكتسه . فكره الفتى ذلك، فقال له : ويحك، اتق الله، لا تكونن من القوم الذين يجعلون مارزقهم الله تعالى فى بطونهم، وعلى ظهورهم (١) . . .إلى غير ذلك من الأخبار المودعة فى بطون الكتب، والمنثورة هنا وهناك .

وإن المسلم العامل حين يقف على هذه الأخبار، يتحرك من داخله، فيتولد عنده حب السير على نفس المنهج، فتراه يطرح الترف والسّرف، ويعيش على الخشونة والتقشف، ليكون ناجيا مع الناجين .

٥ ـ الانقطاع عن صحبة المسرفين مع الارتماء فى أحضان ذوى الهمم العالية والنفوس الكبيرة، الذين طرحوا الدنيا وراء ظهورهم، وكرّسوا كل حياتهم من أجل استئناف حياة إسلامية كريمة، تصان فيها الدماء، والأموال، والأعراض، ويقام فيها حكم الله عز وجل فى الأرض، غير مبالين بما أصابهم، ويصيبهم فى ذات الله، فإن ذلك من شأنه أن يقضى على كل مظاهر السّرف والدّعة والراحة، بل ويجنبنا الوقوع فيها مرة أخرى، لنكون ضمن قافلة المجاهدين، وفى موكب السائرين .

٦ ـ الاهتمام ببناء شخصية الزوجة والولد ؛ فإن ذلك من شأنه أن يقضى على كل مظاهر الترف، وأن يحول دون التورط فيها مرة أخرى، بل ويعين على سلوك طريق الجادة، حين تنقضى هذه الحياة بأشواكها، وآلامها، ونردّ إلى ربّنا، فنلقى حظنا هناك من الراحة والنعيم المقيم .

٧ ـ دوام التفكر فى الواقع الذى تحياه البشرية عموما، والمسلمون على وجه الخصوص ؛ فإنّ ذلك يساعد فى التخلص من كل مظاهر الإسراف، بل ويحول دون التلذذ أو التنعم بشىء من هذه الحياة، حتى يمكن لمنهج الله، وترفع الراية الإسلامية من جديد .

٨ ـ دوام التفكر فى الموت، وما بعده من شدائد وأهوال ؛ فإن ذلك أيضا يعين على نبذ كل مظاهر الإسراف والترف، ويحول دون الوقوع فيها مرة أخرى ؛ استعدادا لساعة الرحيل ويوم اللقاء .

---

(١) الأثر أورده الكاندهلوى فى : حياة الصحابة ٢ /٢٨٨ قائلا: « وأخرج أبو نعيم فى: الحلية ١ / ٣٠١ عن ميمون أن رجلا من بنى عبد الله بن عمر ﷺ استكساه إزارا . . . » وساقه بتمامه .

٩ ـ تذكر طبيعة الطريق، وما فيها من متاعب وآلام، وأن زادها ما يكون بالإسراف، والاسترخاء، والترف، بل بالخشونة، والحزم، والتقشف ؛ فإن ذلك له دور كبير فى علاج الإسراف، ومجاهدة النفس، والقدرة على اجتياز وتخطى المعوقات والعقبات .

الآفة الثالثة
الاستعجال

والآفة الثالثة التى يصاب بها بعض العاملين ، ولابد أن يحذروها ، وأن يتخلصوا منها إنما هى « الاستعجال » ، ولكى يكون لدينا التصور الدقيق عن هذه الآفة سنتناولها على النحو التالى :

أولا : معنى الاستعجال :

لغة : الاستعجال ، والإعجال ، والتعجل كلها بمعنى واحد ، وهو : الاستحثاث، وطلب العجلة أى : السرعة، واستعجل الرجل الرجل : حثَّه ، وأمره أن يعجل فى الأمر[1] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ** ﴾ [يونس : ١١] .

أى : لو عجل الله للنَّاس الشرَّ إذا دَعَوا به على أنفسهم عند الغضب ، وعلى أهليهم وأولادهم ، واستعجلوا به كما يستعجلون بالخير ، فيسألونه الخير ، والرحمة لقضى إليهم أجلهم ، فماتوا .

اصطلاحا : ومعناه فى اصطلاح الدعاة : إرادة تغيير الواقع الذى يحياه المسلمون اليوم فى لمحة، أو فى أقل من طرفة عين دون نظر فى العواقب ، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع ودون إعداد جيد للمقدمات ، أو للأساليب والوسائل .

بحيث يغمض الناس عيونهم ثم يفتحونها، أو ينامون ليلة ثم يستيقظون، فإذا بهم يرون كل شىء عاد إلى وضعه الطبيعى فى حياتهم : زالت الجاهلية من طريقهم، ورفعت الراية الإسلامية من جديد ، ووجد كل إنسان إنسانيته، وخلصت الفطرة من كل ما يُكدِّرُهَا ويعكِّر صفوها .

ثانيا : نظرة الإسلام إلى الاستعجال :

ولما كانت العجلة والاستعجال من طبيعة الإنسان بشهادة خالقه ، وصانعه ، ومدبر

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ١١ / ٤٢٥ ، مادة « عجل » .

أمره : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء] ، ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] . فإن الإسلام ينظر إلى الاستعجال نظرة عدالة وإنصاف ، فلا يحمده بالمرة ، ولا يذمه بالمرَّة ، وإنما يحمد بعضه ، ويذم البعض الآخر :

فالمحمود منه : ما كان ناشئا عن تقدير دقيق للآثار والعواقب ، وعن إدراك تام للظروف والملابسات وعن حسن إعداد وجودة ترتيب .

ولعل هذا النوع من الاستعجال هو المعنيُّ في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه]. إذ الظروف مناسبة والفرصة مواتية، والعاقبة محمودة، والنفس صافية مشرقة، فما الذى يحمل موسى على التوانى والتأخير ؟

والمذموم منه :ما كان مجرَّد فورة نفسية خالية من تقدير العاقبة ، ومن الإحاطة بالظروف والملابسات ، ومن أخذ الأهبة والاستعداد .

وهذا النوع الأخير هو الذى عناه رسولنا الكريم محمدٌ ﷺ حين قال لخبَّاب بن الأرت ﷺ وقد جاء إلى النبى ﷺ يشكو ما يلقاه هو وإخوانه من الأذى والاضطهاد، ويطلب منه أن يستنصر ربه ، وأن يدعوه ، قال له : « كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه مِنْ عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أوالذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1] ، وهو الذى نعنيه نحن هنا أيضا .

ثالثا : مظاهر الاستعجال :

والاستعجال له مظاهر عديدة منها :

١ـ ضمُّ أشخاص إلى قافلة الدعاة قبل الاستيثاق ، والتأكد من مواهبهم وقدراتهم واستعداداتهم .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب علامات النبوة فى الإسلام ٤/ ٢٤٤، وكتاب مناقب الأنصار: باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥/ ٥٦، ٥٧، وكتاب الإكراه: باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٩/ ٢٥، ٢٦ من حديث قيس عن خباب به .

٢ـ الارتقاء ببعض الدعاة إلى مستوى رفيع قبل اكتمال نضجهم ، واستواء شخصيتهم .

٣ـ القيام بتصرفات طائشة صغيرة تضر بالدعوة ، ولا تفيدها .

رابعا : آثار الاستعجال :

وكل هذه المظاهر المذكورة آنفا وغيرها ، تكون لها آثار وعواقب :

١ـ فهي قد تؤدى إلى الفتور على النحو الذى شرحنا فى الآفة الأولى، وقليل دائم خير من كثير منقطع : « . . . وإنَّ أحبَّ العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ »[1] .

٢ـ وقد تؤدى إلى موتة غير كريمة، وذلك حين لا يكون من ورائها عائد أو ثمرة، وهنالك تكون المسؤولية والمعاتبة بين يدى الجبار الأعلى، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله ، والقصة التالية برهان عملى لما نقول :

« كانت الحركة الإسلامية بمصر فى نهاية الثلاثينات تعيش أزهى أيامها ، فها هى : تشق طريقها فى جميع البيئات والأوساط ، كما تشق السفينة البحر الهادئ والريح رخاء، وها هو صوتها أصبح صوتا مسموعًا فى جميع القضايا سواء على المستوى المحلى أو على المستوى العالمى ، فى هذه الأثناء ، وقف أحد أبنائها هو «أحمد رفعت » يعترض على كل ما تتخذه الحركة من أساليب ، ويدعو إلى أساليب أخرى .

ولم يكن فى هذا ما يلفت النظر ابتداء ، فلكل عضو فى الحركة الحق فى نقد ما يرى أنه يستحق النقد ، ثم تكون مناقشة بين الأطراف تنتهى إلى الأصوب والطريق الأقوم ، بيد أن الذى استرعى الانتباه ، ولفت النظر هو أن هذه الدعوة لقيت آذانا صاغية واستجابة سريعة لدى كثير من شباب الحركة ، ولا نريد الآن أن نخوض فى البحث عن أسباب ذلك ، وإنما الذى يعنينا هو أنه عقد لقاء لمعرفة اعتراضات ومطالب أحمد ، وانحصرت فى ثلاثة :

الأول : أنه يرى أن الحركة تجامل الحكومة ، وتتبع معها سياسة اللَّف والدَّوران، والواجب يقتضى مواجهة الحكومة بالحقيقة التى قررها القرآن الكريم : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة] .

---

[1] الحديث تقدم تخريجه ص ١١.

الثاني : أنه يرى أن الحركة لم تتخذ أى إجراء عملى فى موضوع سفور المرأة وتبرجها، مكتفية بالنصيحة والكلام. والواجب يقتضى أن توزع الحركة نفسها فى شوارع القاهرة، ومع كل واحد مِنْ أبنائها زجاجة حبر، وكلما مرت أمامه فتاة أو امرأة متبرِّجة، ألقى عليها من هذا الحبر، حتى يلطخ ملابسها ، فيكون هذا رادعًا لها .

الثالث : أنه يرى أنَّ وقوف الحركة فى مساعدة مجاهدى فلسطين عند حدِّ الدعاية لهم وجمع المال إنما هو تقصير فى حقِّ هذه القضية ، وقعود عن الجهاد، وتخلف عن المعركة ، وعلى جميع أبناء الحركة : أن يتركوا أعمالهم، وأن يتطوعوا فى صفوفهم وإلا كانوا من المخالفين .

وتصدى بعض الحاضرين للرد على « أحمد» بشأن المطلبين الأولين فقال:

ـ إن مواجهة الحكومة يجب ألا يكون إلا بعد توفر عاملين :

أ ـ توعية الشعب بالحقائق الإسلامية التى لازال حتى اليوم خالى الذهن منها لاسيما علاقة الإسلام بالحكم ، وعلاقة الإسلام بالتشريع .

ب ـ اكتساب الحركة قوَّة شعبية تستند إليها لمواجهة أى ظروف تتعرض لها ولازالت الحركة حتى اليوم حركة وليدة فى حاجة إلى تثبيت لدعائمها وبسط لرواقها .

ـ أمَّا موضوع المرأة ، فكان ردهم عليه ، هو أننا لو أخذنا باقتراح « أحمد» لكانت النتيجة فى اليوم الأول للأخذ بهذا الأسلوب أن يلقى القبض على جميع أبناء الحركة ، ويجرى معهم التحقيق ، ويودعوا السجون ، حتى يحاكموا أمام القضاء الذى يقضى بمعاقبتهم بالسجن ، والغرامة ، وإذا قضوا العقوبة وعادوا إلى نفس الأسلوب ، فإن العقوبة تضاعف ، وما دامت التى لطخت ثيابها ستعوَّض ثمن هذه الثياب مضاعفا من جيوب أبناء الحركة ، ثم ترى الذى لطخ ثيابها قد أودع السجن ، فما الذى يمنعها من لبس ما كانت تلبسه ، وإذن فلا جدوى وراء هذا الأسلوب فى ردع المتبرجات السافرات .

ـ وأما موضوع فلسطين ، فقد أجاب عنه كتاب سماحة مفتى فلسطين السيد أمين الحسينى ردًّ به على الحركة الإسلامية فى مصر ، ومضمونه : « أن المجهود الذى تبذله الحركة فى الدعاية لقضية فلسطين فى مصر هو القدر المطلوب والذى نحن فى أمس الحاجة إليه ، ولا يستطيعه غيرها ، ولسنا فى حاجة إلى متطوعين » .

ورغم وضوح الجواب فقد أصرَّ «أحمد» على موقفه، وزاد عدد مؤيديه، ووصلت

بهم الحال إلى أن صاروا يسبُّون فى الحركة الإسلامية والقائمين عليها دونما حياء أو خجل ، ولما قاطعه أبناء الحركة ، وانفض مَنْ كانوا حوله ـ ورأى نفسه فى عزلة تامة ـ قرَّر السَّفر إلى فلسطين لينضم إلى المجاهدين فى محاربة الإنجليز واليهود .

وهنا أشفقت عليه الحركة ، وأرسلت إليه تطلب منه الحضور لتجهزه بالمال والسلاح ، ثم تسلمه إلى مجموعة من المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يتصلون بهم حتى يؤمِّنوا له الطريق ؛ لأن المجاهدين يشكون فى كل مَن يَرونه فى طريقهم ـ ما داموا لا يعرفونه ـ ويعدونه جاسوسا عليهم، ويقتلونه، فرفض، وأصر على الذهاب وحده، وذهب فعلا ولقى مصرعه ـ كما كانت الحركة تتوقع ـ على أيدى المجاهدين .

إن هذه القصَّة تبين لنا عاقبة الحماس مع السطحية فى فهم كتاب الله ، وتاريخ الدعوة الإسلامية ، وواقع الحياة ، إن عاقبة ذلك إنما هى الاستعجال وآثار الاستعجال قد تكون موتا غير كريم ، كما وقع لأحمد رفعت .

فإنه لم يكن له ـ قبل الانضمام إلى الحركة ـ أدنى معرفة بالإسلام ولا بالقرآن ، ولا بالسيرة ولا بالتاريخ الإسلامى ، وحين اقتنع بالفكرة الإسلامية انقض عليها بحماس بالغ ، وقبل أن يتزود بكل معالم الطريق اندفع اندفاعا غير بصير ، فاصطدم ، وتحطم ، وكاد يحطم الحركة معه لولا العناية الإلهية ، ثم حكمة القائمين عليها وإخلاصهم .

٣ ـ تعطيل العمل ، أو على الأقل الرجوع به إلى الوراء عشرات السنين، وذلك فيه ما فيه من استمرار تدنيس الحياة ، والمضى فى الاعتداء على الدماء، والأموال ، والأعراض ، وزيادة وضع الأحجار والعقبات على الطريق .

خامسا : أسباب الاستعجال :

وإذا كانت هذه آثار الاستعجال ، فلا بُدَّ من معرفة الأسباب التى تؤدى إليه لتكون خطوة على طريق العلاج، فما هى إذن الأسباب التى توقع فى الاستعجال؟

حقيقة هنالك أسباب كثيرة توقع فى الاستعجال ، نخص منها:

١ ـ الدافع النفسى :

فقد يكون الدافع النفسى هو السبب فى الاستعجال ، ذلك أن الاستعجال طبيعة مركوزة فى فطرة الإنسان كما قال المولى تبارك وتعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾

[الأنبياء: ٣٧]. ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ⑪ ﴾ [الإسراء] .
﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : ١١] .

وإذا لم يعمل الداعية على ضبط نفسه ، وإلجامها بلجام العقل ، والتخفيف مِنْ غلوائها ، فإنها تدفعه لا محالة إلى الاستعجال.

٢ ـ الحماس أو الحرارة الإيمانية :

وقد يكون الحماس أو الحرارة الإيمانية هى السبب فى الاستعجال ، ذلك أن الإيمان إذا قوى ،وتمكن مِنَ النفس ، ولد طاقة ضخمة ، تندفع ـ ما لم يتم السيطرة عليها ، وتوجيهها ـ إلى أعمال تؤذى أكثر مما تفيد ، وتضر أكثر مما تنفع .

ولعل هذا هو السرُّ فى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تولى توجيه النبى ﷺ والمؤمنين فى المرحلة المكية إلى الصبر، والجلد، وقوة التحمُّل فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ⑩ ﴾ [المزمل] . ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ⑥⓪ ﴾ [الروم] . ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ②⓪ ﴾ [الفرقان] . . . إلى غير ذلك من الآيات.

٣ ـ طبيعة العصر :

وقد تكون طبيعة العصر هى الباعث على الاستعجال ، ذلك أننا نعيش فى عصر يمضى بسرعة ، ويتحرك فيه كل شىء بسرعة ، فالإنسان يكون هنا وبعد ساعات يكون فى أقصى أطراف الأرض ، بسبب التقدم فى وسائل المواصلات ، والإنسان يضع أساس بيت اليوم ، ويسكنه غدا ، بسبب التمكن من وسائل العمارة الحديثة ، وقس على ذلك أشياء كثيرة فى حياة الإنسان ، فلعل ذلك مما يحملُ بعض العاملين على الاستعجال لمواكبة ظروف العصر ، والتمشِّى معها .

٤ ـ واقع الأعداء :

وقد يكون واقع الأعداء هو السبب فى الاستعجال ، ذلك أنه ما يمرُّ يوم الآن إلا وأعداء الله يحكمون القبضة ، ويمسكون بزمام العالم الإسلامى ، ويلاحقون العمل الإسلامى فى كل مكان لإسكات كل صوت حر نزيه ، وحسبنا أن إسرائيل كانت بالأمس فكرة فى الأذهان ، فإذا بها اليوم واقع يحكم القبضة على جزء غال عزيز من

ديار الإسلام هو فلسطين ، وينطلق منه إلى لبنان وسائر بلدان العالم العربى؛ ليحقق حلم اليهود : « إسرائيل من النيل إلى الفرات » فلعل ذلك مما يحمل بعض العاملين على الاستعجال ، قبل أن يتفاقم الخطر، ويصعب الخلاص.

٥ ـ الجهل بأساليب الأعداء :

وقد يكون الجهل بأساليب الأعداء هو السبب فى الاستعجال ، ذلك أن أعداء الله لهم أساليبهم الخبيثة ، والمتنوعة ، فى الوصول إلى قلب العالم الإسلامى ، وإحكام القبضة عليه ، وأخطر هذه الوسائل ، وأشدها دهاء ومكراً ، أن يواجه المسلمين نفر من بينهم يعلنون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، والحقد والضلال، إن مثل هذا الأسلوب من الكيد يحول دون تعبئة العامة فى الأمة ـ وما أكثر هؤلاء ـ لمواجهة الشر، أو الباطل، وإزاحته من الطريق ، بل إنه ليجعل العامة معهم وفى صفهم ، ولقد لجأ أعداء الله لمثل هذا الأسلوب، بعد أن جربوا زمانا طويلا ومرات عديدة أسلوب المواجهة الصريحة السافرة ، ورأوا أنه لَنْ يغنى عنهم من الله شيئا ، وأنه يحمل المسلمين ـ حتى المفرطين والمستهترين منهم ـ على التصدى وبذل الغالى والرخيص ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

فلعل الجهل بمثل هذا الأسلوب وغيره من الكيد يكون سبباً من الأسباب التى توقع فى الاستعجال .

٦ ـ شيوع المنكرات مع الجهل بأسلوب تغييرها :

وقد يكون شيوع المنكرات مع الجهل بأسلوب تغييرها هو السبب فى الاستعجال ، ذلك أن الإنسان لا يتحرك حركة الآن إلا وقد أحاطت به المنكرات ، ولفته من كل جانب ، وواجب المسلم حين يرى ذلك أن يعمل على تغيير المنكر وإزالته ما فى ذلك شك ؛ لئلا تتحول الأرض إلى بؤرة من الشرّ والفساد .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة] . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] .

وقال ﷺ : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [(١)] . «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » [(٢)] .

بيد أنَّه ليس كل منكر تجب إزالته أو تغييره على الفور، وإنما ذلك مشروط بألا يؤدى إلى منكر أكبر منه ، فإن أدى إلى منكر أكبر منه ، وجب التوقف بشأنه ، مع الكراهية القلبية له ، ومع مقاطعته ، ومع البحث عن أنجح الوسائل لإزالته ، والأخذ بها ، ومع العزم الصادق على الوقوف في أول الصف حين تتاح فرصة التغيير .

وفي السنَّة والسيرة النبوية شواهد على ذلك :

فها هو رسول الله ﷺ يبعث والأصنام تملأ جوف الكعبة ، وتحيط بها وتعلوها من كل جانب ، ثم لا يقبل على إزالتها بالفعل إلا يوم فتح مكة ، في العام الثامن من الهجرة ، أي أنها بقيت منذ بعث إلى يوم تحطيمها إحدى وعشرين سنة ؛ ليقينه ﷺ بأنه لو قام بتحطيمها من أول يوم، قبل أن تحطم من داخل النفوس لأقبلوا على تشييدها وزخرفتها بصورة أبشع وأشنع، فيعظم الإثم، ويتفاقم الضرر؛ لذلك تركها، وأقبل يُعد الرجال، ويزكي النفوس، ويطهر القلوب، حتى إذا تم له ذلك أقبل بهم يفتح مكة، ويزيل الأصنام، مردداً: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء].

وها هو ﷺ يخاطب أم المؤمنين عائشة قائلا : « ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم » فقلت: يا رسول الله، ألا تردُّها على قواعد إبراهيم، قال: « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » [(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب كون النهي عن المنكر من الإيمان... إلخ ٦٩/١ رقم (٧٨ ، ٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ به، وأبو داود في: السنن: كتاب الصلاة: باب الخطبة يوم العيد ٢٩٦/١، ٢٩٧ رقم (١١٤٠) من حديث أبي سعيد أيضا به، غير أنه قال: « مَنْ رأى منكرا فاستطاع أن يغيره بيده ، فليغيِّره بيده» .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الشركة: باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ١٨٢/٣ من حديث النعمان بن بشير ﷺ به .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الحج : باب فضل مكة وبنيانها ١٧٩/٢، ومسلم في: الصحيح : كتاب الحج: باب نقض الكعبة وبنائها ٩٦٩/٢ رقم (١٣٣٣)، كلاهما من حديث عائشة به.

فالنبي ﷺ هنا توقف فى شأن تجديد الكعبة ، وإعادتها إلى قواعد إبراهيم خوفا من أن يؤدى ذلك إلى منكر أكبر ، وهو الفرقة والشقاق ، بدليل قوله فى رواية أخرى: « . . . ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم . . . »[1] .

بل إن المسلم حين يسكت عن منكر خوفاً من أن يؤدى إلى منكر أكبر ، مع الرفض القلبى والمقاطعة ، ومع البحث عن أفضل السبل للتغيير ، ومع العزم الصادق على أنه حين تتاح الفرصة لن يكون هناك توانٍ ولا تباطؤ ، لا يكون آثما بذلك ، وصدق الله الذى يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ ﴾ [التغابن : ١٦].

فإذا نسى العامل أو الداعية فقه أسلوب تغيير المنكر وإزالته وقع ـ لا محالة ـ فى الاستعجال لظنه ، أو لتصوُّره أن الأمر يجب تنفيذه فورا ، وأنه آثم ومذنب إن لم يقم بذلك .

٧ ـ العجز عن تحمل مشاق ومتاعب الطريق :

وقد يكون العجز عن تحمل مشاق ومتاعب الطريق هو السبب فى الاستعجال، ذلك أن بعضاً من العاملين يملك جرأةً ، وشجاعة ، وحماسا لعمل وقتى ، ولو أدَّى به إلى الموت ، لكنه لا يملك القدرة على تحمل مشاقٍّ ومتاعب الطريق لزمن طويل ، مع أن الرجولة الحقَّة هى التى يكون معها صبر، وجلد، وتحمل ، ومثابرة، وجد ، واجتهاد حتى تنتهى الحياة .

لذلك تراه دائماً مستعجلاً ليجنِّب نفسه المشاقَّ والمتاعب،وإن تذرَّع بغير ذلك.

وقد أفرزت الحركة الإسلامية فى العصر الحاضر صنفا من هذا ، عجز عن التحمل والاستمرار فاستعجل ، وانتهى ، وصنفا آخر أوذى فى الله عشرات السنين ، فصبر، وتحمل ، واحتسب ؛ لأن الظروف غير ملائمة ، والفرص غير مواتية ، والعواقب غير محمودة ، والمقدِّمات ناقصة أو قاصرة، وكانت العاقبة أن وفقهم الله ، وأعانهم ، فثبتت أقدامهم على الطريق ، ولا تزال .

---

[1] هذه الرواية أخرجها البخارى فى : الصحيح : كتاب الحج : باب فضل مكة وبنيانها ٢ / ١٧٩ ، ١٨٠ من حديث الأسود بن يزيد عن عائشة به .

٨ ـ الظفر ببعض المقدمات أو ببعض الوسائل مع عدم تقدير العواقب :

وقد يكون الظفر ببعض المقدمات أو ببعض الوسائل مثل العدد البشرى ، ومثل الأدوات مع عدم تقدير العواقب ، من زيادة تسلط أعداء الله ومن حدوث فتنة وردة فعل ، لدى جماهير النَّاس ، قد يكون كل ذلك هُو السبب فى الاستعجال .

ولعل هذا هو السرُّ فى أمر الإسلام بالصبر على جور الأئمة ، ما لم يصل الأمر إلى الكفر الصريح، والخروج السافر عن الإسلام. يقول ﷺ: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر ، فإنَّه مَنْ فارق الجماعة شبرا ، فمات إلا مات ميتة جاهلية »[(١)] .

ويقول عُبادة بن الصَّامت ﷺ: دعانا النبىُّ ﷺفبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا: «أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ، ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »[(٢)] .

بل حتى الكفر البواح لا يكون معه خروج إلا إذا أمنت الفتنة ، وتوفرت القدرات والإمكانات ، وهذا لا يمنع أن ننكر عليهم باللسان وبالقلب .

يقول الإمام النووى ـ رحمه الله ـ فى شرح حديث عبادة : « معنى الحديث : لا تنازعوا ولاة الأمور فى ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم إلا أنْ تروا منهم منكرا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم، فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين»[(٣)] .

ونقل ابن التين عن الداودى قال : « الذى عليه العلماء فى أمراء الجور أنه إنْ قَدَر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ، وإلا فالواجب الصبر »[(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ: « سترون بعدى أمورا تنكرونها » ٩ / ٥٩ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ به، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٣/ ١٤٧٧ رقم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس أيضا به، إلا أنه قال : « فمات ميتة جاهلية ».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ: « سترون بعدى أمورا تنكرونها » ٩ / ٥٩ ، ٦٠ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية . . . إلخ٣ / ١٤٧٠ ـ ١٤٧١ رقم (١٧٠٩) ، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت به.

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ١٢ / ٢٢٩ .

(٤) انظر : فتح البارى لابن حجر ١٣ / ٨ .

٩ ـ عدم وجود برنامج أو منهاج يمتص الطاقات ، ويخفف من حدتها وغلوائها :

وقد يكون عدم وجود برنامج أو منهاج يمتص الطاقات ، ويخفف مِنْ حدتها وغلوائها ، هو السبب فى الاستعجال ، ذلك : أن نفس الإنسان التى بين جنبيه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل .

ولعل ذلك هو السر فى أن الإسلام غمر المسلم ببرنامج عمل فى اليوم والليلة، وفى الأسبوع، وفى الشهر، وفى السَّنة، وفى العمر كلِّه، بحيث إذا حافظ عليه كانت خطواته دقيقة وكانت جهوده مثمرة .

ولعلَّه السرُّ أيضا فى تشديد الإسلام على الأئمة أن يستفرغوا كلَّ ما فى وسعهم وكلَّ ما فى طاقتهم لاستنباط ما يملأ حياة المسلمين بالعمل الجادِّ المثمر الخالى من الضُّرِّ والشرر وإلا حرموا الجنة . يقول ﷺ : « ما مِنْ أمير يلى أمر المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنَّة »[1] .

١٠ ـ العمل بعيداً عن ذوى الخبرة والتجربة :

وقد يكون العمل بعيداً عن ذوى الخبرة والتجربة، هو السبب فى الاستعجال، ذلك أنَّ الإنسان يولد ولا علم له بشىء فى هذه الحياة كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : ٧٨] .

ثم يبدأ ـ عن طريق ما وهبه الله من السمع، والأبصار، والأفئدة ـ التعلُّم، والتعلم لا يكون من الكتب وحدها ، بل يتم أيضا بواسطة التجربة والممارسة، والعامل الواعى هو الذى ينتفع بخبرات وتجارب مَنْ سبقوه على الطريق ، ليوفر على نفسه الجهد ، والوقت ، والتكاليف ، أمَّا إذا شمخ بأنفه، ونأى بنفسه ، وبدأ العمل بعيدا عن ذوى الخبرة والتجربة ، فستكون له أخطاء ، وقد يكون الاستعجال واحدا منها .

ولعل السرَّ فى وصيَّة الإسلام باحترام العلماء ، وكبار السنِّ الصالحين وذوى الفضل ، حيث يقول ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواءً، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواء ، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا فى

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأحكام: باب من استرعى رعيَّة فلم ينصح ٩/ ٨٠ من حديث معقل بن يسار بنحوه، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٦٠ رقم (١٤٢) من حديث معقل بن يسار أيضا به .

الهجرة سواء، فأقدمهم سلْمًا، ولا يؤمَّن الرجلُ الرجلَ فى سلطانه، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه »[1] .

لعل السرَّ فى ذلك إنما هو الظفر بثمار تجارب هؤلاء ، وخبرتهم بدرب الحياة الطويل ، نظرا لأن الإنسان غالباً ما يعطى من يعرف له حقَّه ، ويضن ويبخل على مَنْ يهدر هذا الحق ولا يرعاه .

١١ ـ الغفلة عن سنن الله فى الكون ، وفى النفس ، وفى التشريع :

وقد تكون الغفلة عن سنن الله فى الكون، وفى النَّفس ، وفى التشريع هى السبب فى الاستعجال ، ذلك أنَّ مِنْ سنن الله فى الكون : خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وخلق الإنسان والحيوان والنبات على مراحل ، مع أنه قادر على خلْق ذلك كلِّه وغيره بكلمة « كن » : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] .

ومِنْ سنن الله فى النفس: أنَّها لا تضحِّى ، ولا تبذل ، ولا تعطى إلا إذا عولجتْ من داخلها، واقْتُلعَت منها كلُّ الحظوظ، وأدركت قيمة وفائدة التضحية والبذل والعطاء، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس] .

وذلك لا يتم بسهولة ويسر ، وإنما لابد له من جهد ووقت وتكاليف.

ومن سنن الله فى التشريع : أنَّ الخمر حرمت على مراحل ، وكذلك الرِّبا . وإذا نسى العامل أو الداعية هذه السنن كانت السرعة والعجلة، أما حين تظل ماثلة أمام عينيه، حاضرة فى ذهنه، وفؤاده، فإنها تهدِّئ من نفسه، وتضبط حركته، وتبصره بموضع قدميه .

١٢ ـ نسيان الغاية التى يسعى إليها المسلم :

وقد يكون نسيان الغاية التى يسعى إليها المسلم هى السبب فى الاستعجال، ذلك أن المسلم يسعى أساسا لتحقيق مرضاة الله، وهذا إنما يتحقق بالتزام منهجه ، وعدم التفريط فيه ، والثبات عليه إلى يوم اللقاء قدر الطاقة مع الإخلاص ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الشمس] ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ [التغابن : ١٦] .

---

[1] الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب مَنْ أحق بالإمامة ١/ ٤٦٥ رقم (٢٩٠) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه به .

وتلك مقدمات يُسأل عنها المسلم بين يدى الله يوم القيامة وعليها تكون النَّجاة أو عدم النّجاة ، أمَّا النتائج من التمكين أو عدم التمكين ، فلا يُسْأل عنها؛ لأنها بيد الله يأتى بها حيث يشاء وكما يشاء .

فإذا حدث،ونسى العامل أو الداعية هذه الحقيقة فإنه يقع لا محالة فى الاستعجال.

١٣ ـ الغفلة عن سنة الله مع العصاة والمكذبين :

وقد تكون الغفلة عن سنَّة الله مع العصاة والمكذبين هى السبب فى الاستعجال، ذلك أن من سنَّة الله مع العصاة والمكذبين : الإمهال ، وعدم الاستعجال : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الاعراف] ، ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) ﴾ [الكهف] .

ومن سنته كذلك معهم : أنه إذا أخذهم لم يفلتهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]، ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾ [الانفال].

ومن سنته أيضا : أنَّ أيامه ليست كأيامنا هذه: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج].

وإذا غفل العامل أو الداعية عن هذه السنن استعجل ، قائلا : نناجزهم قبل أن يستفحل شأنهم، وقبل أن يمسكوا بزمام الأمور، فتستحيل إزاحتهم بعد ذلك من طريق الناس .

١٤ ـ صحبة نفر من ذوى العجلة وعدم التأنى :

وقد تكون صحبة نفر من ذوى العجلة وعدم التأنى هى السبب فى الاستعجال، ذلك أن الطبع يعدى ، والمرء على دين خليله ، وإذا لم يحسن المسلم اختيار صاحبه ، فإنَّه يقتدى به لا محالة فى ما يعتنق ، وفى كل ما يسلك ـ سيَّما إذا كان هذا الصاحب قوىَّ الشخصية ـ وقد يكون من بين ذلك الاستعجال . ولعلّ هذا هو سرُّ تأكيد الإسلام على ضرورة مراعاة الدِّقة والأمانة فى اختيار الصديق والصاحب ، وقد قدمنا طرفا من الأحاديث الدالة على ذلك أثناء الحديث عن «الفتور» .

تلك هى أهم الأسباب التى توقع فى الاستعجال .

سادسا : طريق علاج الاستعجال :

وما دمنا قد وقفنا على أهم الأسباب التى تؤدى إلى الاستعجال، فإنَّه صار من السهل علينا أنْ ندرك طريق العلاج ، وتتلخص فى :

١ ـ **إمعان النظر فى الآثار والعواقب المترتبة على الاستعجال** ؛ فإن ذلك مما يهدئ النفس ، ويحمل على التريث والتأنى .

٢ ـ **دوام النظر فى كتاب الله عزَّ وجلَّ** ، فإن ذلك يبصِّرنا بسنن الله فى الكون وفى النفس، وفى التشريع،ومع العصاة والمكذبين، والبصيرة بهذه السنن تهدِّئ النفس، وتساعد على التأنى، والتروِّى، قال تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة] . ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩]

٣ ـ **دوام المطالعة فى السنَّة ، والسيرة النَّبويَّة** ؛ فإن ذلك مما يوقفنا على مقدار ما لاقى النبىﷺ من الشدائد والمحن ،وكيف أنه تحمَّل ، وصبر، ولم يستعجل، حتى كانت العاقبة له، وللمنهج الذى جاء به، ومعلوم أن الوقوف على ذلك مما يضبط حركة المسلم ، اقتداء وتأسيا بهﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب] .

٤ ـ **مطالعة كتب التراجم والتاريخ** ؛ فإن ذلك مما يعرفنا بمنهج أصحاب الدعوات والسلف فى مجابهة الباطل ، وكيف أنَّهم تأنَّوا ، وتريثوا حتى مُكِّن لهم، وهذا بدوره يحمل على الاقتداء والتأسى، أو على الأقل، المحاكاة والمشابهة على حدِّ قول القائل:

فتشبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرِّجال فلاح

وقد مرتْ بنا قصَّة عمر بن عبد العزيز مع ولده فى هذا الشأن ، ونحن نتحدث عن علاج « الفتور » .

٥ ـ **العمل فى أحضان وفى ظل ذوى الخبرة والتجربة ممن سبقوا على الطريق** ؛ فإن ذلك مِنْ شأنه أن يجعل خطوات العاملين دقيقة محسوبة وأن يوفِّر عليهم كثيرا من الجهد والوقت ، وباقى التكاليف . وقد لفت النبىُّﷺ النظر إلى ذلك حين قال : «لا يلدغ المؤمن مِنْ جحر واحد مرتين » [1] .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٨/٣٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٤/٢٢٩٥ رقم (٢٩٩٨)، كلاهما من حديث أبى هريرة به .

٦ ـ العمل من خلال منهاج أو برنامج واضح الأركان ، محدد المعالم ، يستوعب الحياة كلّها ، ويأخذ بيد العامل مِنْ طور إلى طور ، ومنْ مرحلة إلى مرحلة ، فيشبع تَطَلُّعَاتِه ، ويجيب على تساؤلاته ، ويرفع من مستواه .

٧ ـ الفهم الدقيق لأساليب ومخطَّطات الأعداء ؛ فإن ذلك من شأنه أن يحمل العامل على النظر فى عواقب الأمور، وعلى التريُّث والتأنى، والتصرف بحكمة وعلى بيِّنة .

٨ ـ عدم الرهبة أو الخوف من تسلُّط الأعداء ، وإحكامهم القبضة على العالم الإسلامى؛ لأن ذلك يمكن أن يزول فى لحظات، وما هو على الله بعزيز: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) ﴾ [محمد] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الانفال] .

بيد أن هذا مشروط بأن نقيم الإسلام فى أنفسنا ، وفيمن حولنا بكل ما نملك ، وبكل ما نستطيع : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد] ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج] ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

٩ ـ مجاهدة النفس، وتدريبها على ضرورة التريث والتأنى، والتروى؛ فإنَّما الحلم بالتحلّم ، ومَنْ يتصبر يصبره الله ، والرجولة الحقَّة لا تكون إلا بذلك .

١٠ ـ الانتباه إلى الغاية أو الهدف الذى من أجله يحيا المسلم ؛ فإنَّ ذلك يحول دون الاستعجال ، ويحمل على إتقان المقدمات ، والوقوف عندها ، وعدم تجاوزها إلى النتائج .

١١ ـ الانتباه إلى موقف المسلم من المنكرات ، وأسلوب تغييرها؛ فإن ذلك يبصِّره بمعالم الطريق ، ويحول بينه وبين الاستعجال .

تلك خطوات لا بد منها على طريق العلاج .

سابعا : الاستعجال ومنهج الحركة الإسلامية المعاصرة :

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن الاستعجال على النَّحو الذى ذكرنا غير وارد فى منهج الحركة الإسلامية المعاصرة بالمرَّة ، بل إنَّه مرفوض صراحة . والنص التالى ـ وهو جزء من منهج هذه الحركة ـ يصدِّق ذلك :

« **أيها المسلمون** ، وبخاصة المتحمِّسون المتعجلون منكم :

اسمعوها منى كلمة، عالية، داوية مِنْ فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا ـ الجامع ـ إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده ، ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنَّها أسلم طريق للوصول .

أجل قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها ، إنَّما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجدِّ والعمل الدائب . فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرةً قبل نضجها ، أو يقتطف زهرةً قبل أوانها ، فلستُ معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومَنْ صبر معى حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف ، فأجره فى ذلك على الله، ولن يفوتنا وإيَّاه أجر المحسنين: إمَّا النصر والسيادة، وإما الشهادة، والسعادة .

أيُّها المسلمون :

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف ، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فإنَّها غلابة ، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوِّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النَّصر ، وماهى منكم ببعيد .

أيُّها المسلمون :

إنكم تبتغون وجه الله ، وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين ، ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ، ولكن كلَّفكم صدق التوجُّه ، وحسن الاستعداد ، ونحن بعد ذلك: إمَّا مخطئون ، فلنا أجر العاملين المجتهدين، وإمَّا مصيبون فلنا مع ذلك ضعف أجر الفائزين المصيبين، على أنَّ التجارب فى الماضى والحاضر أثبتت أنَّه لا خير إلا فى طريقكم ، ولا إنتاج إلا مع خطَّتكم ، ولا صواب إلا فيما تعلمون ، فلا تغامروا بجهودكم ، ولا تقامروا بشعار نجاحكم ، واعملوا ،

والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ، والفوز للعاملين، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالنَّاس لرؤوف رحيم » .

ثامنا : الداعية بين الفتور والاستعجال :

ويظهر من حديثنا عن الفتور والاستعجال : تحديد موقع الداعية ، إن موقعه يجب أنْ يكون وسطا بين الفتور والاستعجال على معنى أنه مع المقدِّمات كخلية النحل دائب النشاط والحركة ، لا يقصِّر ولا يتوانى لحظة من ليل أو من نهار ، ولا يضيِّع فرصة تتاح له، أمَّا مع النتائج فهو هادئ متريث ، متأن، مترو، لا يستعجل شيئا قبل أوانه ، وإلا عوقب بحرمانه .

هذا ، ولم يفت الحركة الإسلامية المعاصرة أنْ تحدِّد هذا الموقع ، وتلك كلماتها أحرف مِنْ نور ، ومشاعل على الطريق :« إن ميدان القول غير ميدان الخيال ، وميدان العمل غير ميدان القول ، وميدان الجهاد غير ميدان العمل ، وميدان الجهاد الحقّ غير ميدان الجهاد الخاطئ ، يسهل على كثير أن يتخيلوا ، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالا باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ، ولكنّ قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ، ولكنّ قليلا منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاقّ ، والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار ، قد يخطئون الطريق ، ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله ، وفى قصة طالوت بيان لما نقول .

فأعدوا أنفسكم، وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة، والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العمل القوى البغيض لديها، الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها ... ولا تضيِّعوا دقيقة بغير عمل ، وعند ذلك يكون عون الله وتأييده ونصره » .

الآفة الرابعة
العزلة أو التفرد

والآفة الرابعة التى يصاب بها بعض العاملين ، وعليهم أن يعملوا جاهدين على التطهر منها : إنّما هى العزلة أو التفرّد ، ولكى يكون لدينا إلمام دقيق بأبعاد ومعالم هذه الآفة ، سنتناولها على النحو التالى :

أولا: معنى العزلة أو التفرّد :

لغة : العزلة أو التفرد في اللغة تعنى الابتعاد أو التنحى جانبا ، قال صاحب لسان العرب: « عزل الشيء يعزله عزلا ، وعزّله فاعتزل وانعزل، وتعزّل: نحاه جانبا، فتنحى، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ [الشعراء] ، معناه : أنهم لمّا رُمُوا بالنجوم ـ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن] . منعوا من السمع » [١] .

اصطلاحا : أما فى اصطلاح الدعاة فيراد بها: إيثار حياة التفرد على حياة الجماعة، وذلك بأن يكتفى العامل بإقامة الإسلام فى نفسه ، غير مبالٍ بالآخرين ، وبما هم فيه من ضياع وهلكة ، أو أن يقيم الإسلام فى نفسه ، ويسعى جاهدا لإقامته فى الناس ، ولكن بجهود فردية ، بعيدة عن التعاون والتآزر من بقية العاملين فى الميدان .

ثانيا : أسباب العزلة أو التفرد :

وهناك أسباب تؤدى إلى هذه العزلة أو التفرد ، نذكر منها :

١ ـ الوقوف عند بعض النصوص الشرعية المرغبة فى العزلة ، مع الغفلة عن موقعها من النصوص الأخرى الداعية إلى حياة الجماعة :

فقد جاءت بعض النصوص الشرعية مادحة للعزلة، ومرغّبة فيها، كقوله ﷺ:

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ١١ / ٤٤٠ ، مادة : « عزل » .

«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر ، يفرّ بدينه من الفتن » (١) .

وكإجابته للذى سأل: أىّ الناس أفضل ؟ قائلا : « رجل يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه »، قال: ثم من ؟ قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب ، يعبد الله ربّه، ويدع الناس من شره » (٢) .

وكقوله فى حديث حذيفة بن اليمان : « ... فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت ، وأنت على ذلك » (٣) .

وكقوله :« من خير معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتى الزكاة، ويعبد ربّه، حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا فى خير » (٤) .

وكذلك جاءت بعض النصوص الشرعية الأخرى داعية إلى السير تحت لواء الجماعة، والعيش فى كنفها ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] . ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف] .

وكقوله ﷺ : « ... إياكم والفرقة ، وعليكم بالجماعة ، فإنّ الشيطان مع

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب من الدين الفرار من الفتن ١/ ١١ ، وكتاب الفتن : باب التعرب فى الفتنة ٩ / ٦٦ من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب فضل الجهاد والرباط ٣ / ١٥٠٣ رقم (١٨٨٨) من حديث محمد بن الوليد الزبيدى ، ومعمر ، كلاهما عن الزهرى، عن عطاء بن يزيد الليثى ، عن أبى سعيد الخدرى ، مرفوعا به وبنحوه .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الفتن : باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ؟ ٩/ ٦٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ...إلخ ٣ / ١٤٧٥، ١٤٧٦ رقم (١٨٤٧) ، كلاهما من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعا به ، واللفظ للبخارى ، بيد أنه ورد مختصرًا هنا ومطولا هناك .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب فضل الجهاد والرباط ٣ / ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ رقم (١٨٨٩) من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به .

الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة » (١) . « يد الله مع الجماعة » (٢) . « ... وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهنّ : بالجماعة ، وبالسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، فإنّه من خرج من الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلى أن يرجع ... » قالوا : يا رسول الله، وإن صلى وصام ؟ قال : « وإن صام وصلّى، وزعم أنه مسلم » (٣) .

والعامل الذى يقف عند النصوص الأولى المرغبة فى العزلة ، ناسيا أو متناسيا صلتها بالنصوص الأخرى الداعية إلى مخالطة الجماعة ، والعيش فى رحابها ، يبتلى أو يصاب لا محالة بآفة العزلة أو التفرّد .

٢ ـ الوقوف عند ظاهرة العزلة التى أثرت عن بعض السلف مع الغفلة عن الظروف التى دعت إلى ذلك :

وقد يكون الحامل على العزلة ما أثر عن بعض السلف : أنهم آثروا العزلة على مخالطة الجماعة ومعايشتها .

فها هو نبى الله إبراهيم ﷺ يقول لقومه ـ كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم : ٤٨] .

وقد كان الحامل له على ذلك ، استنفاذ وسائل التغيير والإصلاح ، ثم إصرار قومه على الكفر الألد ، الذى خشى معه الفتنة فى الدين ، ففرّ منهم ، واعتزلهم .

وها هو أبو ذرّ، وابن عمر، ومعهما جمع من الصحابة يعتزلون جماعة المسلمين، ويعيشون وحدهم لما وقعت الفتنة، وقد كان الباعث لهم على ذلك، صيانة أيديهم أن تغمس فى دماء زاكية طهّرها الله ـ عزّ وجل ـ ولا يعرف مَنْ المصيب ، ومن غير المصيب .

وهذا هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، يقضى أخريات أيام حياته فى عزلة بعيدا عن الناس، وقد كان عذره، تجنّب مصادمة السلطات حقنا لدماء المسلمين .

وإنّ العامل الذى يقرأ عن هذه العزلة ، التى عاشها هؤلاء ، وينسى ظروفها

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الفتن : باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/٤٠٤ ، ٤٠٥ رقم (٢١٦٥) وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» من حديث ابن عمر ﷺ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى السنن : كتاب الفتن : باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤ / ٤٠٥ رقم (٢١٦٦) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب ... » من حديث ابن عباس ﷺ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ٢٠٢ من حديث الحارث الأشعرى ﷺ .

وملابساتها يتولّد فى نفسه معنى الاقتداء ، والتأسى ، أو على الأقل المحاكاة والتشبّه ، فيلجأ إلى حياة العزلة، بعيدا عن جو الجماعة، حتى وإن لم يكن لهذه العزلة ما يبررها وما يدعو إليها .

٣ ـ الظنّ أن حياة الجماعة تلغى ذاتية المنتمى إليها ، وتؤثر على شخصيته مع الغفلة عن منهج الإسلام فى التوفيق بين الفردية والجماعية :

وقد يكون الحامل على العزلة ظنّ بعض العاملين أنه بعيشه مع الجماعة ، وانتمائه إليها تلغي ذاتيّته، وتذوب شخصيته، فيبقى إمّعة: إن أحسن الناس أحسن ، وإن أساءوا أساء ، مع الغفلة عن منهج الإسلام فى التوفيق بين الفردية والجماعية ؛ إذ يقوم هذا المنهج على دعوة الفرد إلى أن يعيش فى كنف الجماعة، ويستظل بظلها على النحو الذى قدمنا ، فى الوقت الذى يؤكد فيه أنه مسئول مسئولية كاملة عن كل تصرف يقع منه ، فيقول له: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨] . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر] . ﴿ لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٤٨ ، ١٢٣] . ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة] . ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] .

وأن عليه أن يبذل النصيحة بشروطها وآدابها لكل واحد فى الجماعة مهما علا كعبه ومهما عظمت مكانته «الدين النصيحة» قلنا: لمن ؟ قال: « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) . « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه »، وفى رواية : « المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه عيبا قومه » (٢) .

ولقد عاش الصحابة مع النبى ﷺ وعاش المسلمون بعضهم مع بعض ، فما رأينا فردا ذابت شخصيته أو تلاشت فرديته فى الجماعة، وإنما رأينا النصيحة والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما قول بعضهم لعمر : « لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » عنا ببعيد .

وبهذه الدعوة ينشأ ويبنى فى نفس المسلم كيان داخلى متميز ، واضح المعالم والحدود ، وتبقى أعصابه صاحية متنبهة لكل ما يمسه ، ولو من بعيد.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى النصيحة ٤ / ٢٨٦ رقم (٤٩٤٤) من حديث تميم الدّارى مرفوعا بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى النصيحة والحياطة ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٨) من حديث أبى هريرة مرفوعا به .

إن هذا الظن ، وهذه الغفلة ، ينتهيان بالعامل لا محالة إلى أن يلجأ إلى العزلة، فيصاب بآفة من أخطر الآفات .

٤ ـ الغفلة عن طبيعة تكاليف مخالطة الجماعة ، والعيش بين الناس :

وقد يكون الحامل على العزلة ، الغفلة عن طبيعة تكاليف مخالطة الجماعة ، والعيش بين الناس ؛ إذ إن طبيعة هذه التكاليف : أنّها كثيرة ، ضخمة، تستوعب حياة الإنسان من أول يوم إلى آخر يوم، وقد لا تنتهي، وغالبا ما تكون على خلاف ما تهوى الأنفس ، ومالم يكن العامل منتبها إلى ذلك ، فإنّه يهمل نفسه من التزكية ، والتربية ، والمجاهدة ، وتسيطر عليه الأهواء والشهوات ، وبمرور الأيام يضعف ويعجز عن القيام بهذه التكاليف، وحينئذ يبحث عن مخرج أو ملجأ فلا يجد سوى العزلة أو التفرّد.

٥ ـ التذرع بأن مخالطة الناس تشغل عن التفرّغ للعبادة ، مع الغفلة عن المفهوم الصحيح للعبادة :

وقد يكون الحامل على العزلة التذرّع أمام النفس وأمام الغير بأن مخالطة الناس تشغل عن التفرغ للعبادة ، من صلاة ، إلى صيام ، إلى قراءة قرآن ، إلى ذكر ،إلى دعاء ، إلى استغفار ، إلى تفكر . . . إلخ ، مع الغفلة عن المفهوم الصحيح للعبادة؛ إذ المفهوم الصحيح للعبادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله :

« إنها اسم جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال ، الظاهرة والباطنة ، فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج عبادة ، والدعاء، والاستغفار ، والذكر ، وتلاوة القرآن عبادة ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام عبادة ، والوفاء بالعهود عبادة ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة ، والإحسان للجار واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والخادم ، والرحمة بالضعيف ، والرفق بالحيوان عبادة ، وكذلك حبّ الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه، والرّضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء فى رحمته ، والخوف من عذابه وأمثال ذلك كله عبادة » .

والقرآن الكريم، والسنّة النبوية، يصدّقان هذا المفهوم الذى قاله شيخ الإسلام.

على أنّ مخالطة الناس لا تمنع أن تكون للمسلم أوقات يخلو فيها بنفسه ليؤدى واجبا، أو يتقرّب إلى الله بنفل، أويحفظ علما، أو يحقّق مسألة، أو يتلو قرآنا، أو

يذكر ويتفكر، أو يحاسب نفسه، وذلك هو معنى قول عمر بن الخطاب ﷺ : خذوا حظكم من العزلة .

كأن غياب المفهوم الصحيح للعبادة عن بال المسلم العامل ، وحصره العبادة فى دائرة الشعائر التعبدية ، متوهما أن حياة الجماعة تحول بينه وبين التفرغ الكامل لأداء هذه الشعائر ، كل هذا يوقعه لا محالة فى آفة العزلة أو التفرّد .

٦ ـ الاعتذار بانتشار الشرّ والفساد ، مع الغفلة عن دور المسلم حين ينتشر الشرّ والفساد :

وقد يكون الحامل على العزلة الاعتذار بانتشار الشر والفساد ، مع الغفلة عن دور المسلم حين ينتشر الشرّ والفساد؛ إذ إن دور المسلم فى هذه الحال أن ينشط للمقاومة بكل الأساليب المتاحة والوسائل الممكنة ، ولا يلجأ إلى العزلة إلا عند تمكّن الدّاء وعجز الوسائل وخوف الفتنة .

وإذا ما غفل المسلم العامل عن حقيقة هذا الدور ، فإنه يفرّ لأول وهلة إلى العزلة أو التفرد ، وتتحول الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج : ٤٠] .

وصدق الرسول ﷺ النّاصح : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعا » (١).

٧ ـ الاطلاع على صور من المحن والشدائد ابتلى ويبتلى بها العاملون لدين الله ، على مدار التاريخ ، مع الغفلة عن موقف هؤلاء العاملين من هذه الصور :

وقد يكون الحامل على العزلة الاطلاع على صور من المحن والشدائد، ابتلى

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشركة : باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢، وكتاب الشهادات : باب القرعة فى المشكلات . . . إلخ ٣/ ٢٣٧ من حديث النعمان بن بشير مرفوعا به ، وبنحوه .

ويبتلى بها العاملون لدين الله، على مدار التاريخ، مع الغفلة عن موقف هؤلاء العاملين من هذه الصور، إذ إن موقف هؤلاء إنما كان اليقين التام بأن الابتلاء سنة من سنن الله فى الدعوات ثم الاعتراف بالتقصير واللجوء إلى الله أن يثبت أقدامهم على الطريق، وأن ينصرهم، وقد قبل الله منهم فثبتهم ونصرهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ [آل عمران] .

نعم ، إن العامل إذا اطلع على هذه الصور، وكان فى غفلة عن موقف أولئك الممتحنين يسيطر عليه الخوف والهلع، ويحاول أن يجد مخرجا، وحينئذ تسوّل له نفسه، ويزين له الشيطان أن المخرج إنّما يكون فى العزلة أو التفرد، فيركن إلى ذلك.

٨ ـ صحبته نفر من المسلمين منهجهم العزلة ، وسيرتهم التفرد :

وقد يكون الحامل على العزلة صحبته نفر من المسلمين منهجهم العزلة ، وسيرتهم التفرد ؛ نظرا لأن المرء شديد التأثر بقرينه ، لاسيّما إذا كان هذا القرين ذا شخصية مؤثرة ، وممن يقتدى ، أو يتأسى به . يقول ﷺ : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » [(١)] .

٩ ـ تعدد الهيئات والجماعات العاملة لدين الله :

وقد يؤدى تعدد الهيئات والجماعات العاملة لدين الله إلى أن يقع المسلم العامل فى حيرة من أمره، مع أى من هذه الهيئات وتلك الجماعات يعمل، وعن أى منها يبتعد ؟ وتنتهى به هذه الحيرة إلى العزلة أو التفرد ، لاسيّما إذا لم يكن يعرف حقيقة هذه الهيئات ، وتلك الجماعات وموقفه منها ؛ إذ إن حقيقة هذه الهيئات وتلك الجماعات أنها جميعا على خير ، بيد أن هذا الخير متفاوت ، فمنها ما هو على جزء يسير من الخير ، ومنها ما هو على كثير من الخير ، ومنها ما هو على الخير كله ، وأن موقفه منها يفرض عليه أن يتعرف عليها جميعا (أهدافا ، ووسائل، ثم يسير مع من كانت على الخير كله) :

ـ بأن يكون هدفها تطبيق شرع الله ، ومنهجه فى الأرض : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [الانعام : ٥٧] ، ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩].

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠.

ـ وأن تقصد بكل ما يصدر عنها من أقوال وأفعال وجه الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

[الأنعام]

ـ وأن تخلع كل ولاء إلا ولاء الله ورسوله والمؤمنين المستمسكين بهدى الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة] .

ـ وأن تفهم الإسلام فهما وسطا دون غلو أو تشدد ، ودون تفريط أو إسراف، ثم تعمل به كله من السّواك إلى الجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾

[البقرة : ٢٠٨]

ـ وأن تعمل ابتداء على إيجاد الشخصية المسلمة الجامعة لكل خصال الخير، المتأبية على كل خصال الشرّ، المستأهلة لعون الله وتأييده ونصره: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾

[الشمس]

ـ وأن تتوسع في تحقيق هذه الشخصية المسلمة بحيث تنتشر ، وتعم المجتمع كله، بل العالم كله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] .

ـ وأن تجتهد فى الربط بين هذه الشخصيات المسلمة بحيث تصدر عن رأى واحد، وتصير فكرًا واحدًا ، وقلبًا واحدًا ، وروحًا واحدة، ومشاعر واحدة، وإن تعددت الأجساد: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ـ وأن تنطلق من ترتيب واع دقيق مبنى على دراسة وفهم الواقع باستمرار، ثم التعامل معه بناء على هذه الدراسة، وهذا الفهم : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) ﴾

[هود]

ـ وأن تراعى الأولويات فى العمل ، بحيث إذا أصيبت بضيق ذات اليد ، وقصرت بها إمكاناتها ووسائلها، قدمت بعض الأصول على بعض، بل والأصول على الفروع، والفرائض على النوافل ، والمجمع عليه على المختلف فيه ، كما صنع ﷺ حين سعى

إلى تحطيم الأصنام الموجودة بداخل النفس البشرية قبل تحطيم الأصنام التى كانت فى جوف الكعبة ، وعلى سطحها .

ـ وألا تتساهل ، أو تتهاون فى الأصول المجمع عليها ، مع التماس الأعذار فى الفروع المختلف فيها ، وبذلك تفتح الباب للتعاون مع جميع العاملين .

ـ وأن يكون لها منهاج واضح الأركان ، محدد المعالم ، يأخذ بيد الفرد من طور إلى طور ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، فيشبع تطلعاته ، ويجيب على تساؤلاته ويرفع من مستواه .

ـ وأن يكون قد ظهر ثباتها أو صبرها على مشاق ومتاعب الطريق ، فصمدت أمام الإرهاب، واستعلت على المحن والشدائد، وبذلك استحقت أن تكون إماما ورائدا لباقى العاملين : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد].

ـ وأن تكون قد قطعت شوطا طويلا فى العمل ، بحيث صارت ذا دراية وخبرة بالطريق ، وبهذا توفر على من يسير معها جهدا ، ووقتا ، ومالا .

ـ وأن يكون دأبها التأنى والتروى وعدم الاستعجال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] .

ـ وأن يكون معها من يوجهها ، ويرشدها بحيث يرتب العمل ، وتوضع الأمور فى نصابها .

ـ وأن ينزل جميع أبنائها على رأى من يوجههم ما دام فى المعروف .

ـ وأن يكون هناك التناصح بشروطه وآدابه ، وقبول هذا التناصح والرضا به .

ـ وأن تكون هناك الدقة والأمانة فى اختيار العاملين ليقطع الطريق على المتربصين: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

ـ وأن يكون هناك الاتباع لا الابتداع: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾

[الكهف : ١١٠]

١٠ ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على العزلة سواء منها ما يتصل بالعاملين أو بالعمل الإسلامى :

وأخيراً، قد يكون الحامل على العزلة الغفلة عن الآثار المترتبة على هذه العزلة سواء

منها ما يتصل بالعاملين أوبالعمل الإسلامى، على النحو الذى سنعرض له بعد قليل؛ إذ إن من غفل عن الآثار الضارة المترتبة على أمر ما، وقع لا محالة فى هذا الأمر .

ثالثا : آثار العزلة أو التفرد :

هذا وللعزلة أو التفرُّد آثار ضارة، وعواقب سيئة، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامى ، ودونك هذه الآثار :

أ ـ على العاملين :

فمن آثارها على العاملين :

١ ـ **جهلهم بأبعاد ومعالم شخصيتهم** : ذلك أن الإنسان ـ مهما يكن ذكاؤه، ومهما تكن فطنته ـ لا يمكنه وحده أن يعرف أبعاد ومعالم شخصيته معرفة دقيقة ، بل لابد من آخرين يعينونه على ذلك ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لا يستطيع الإنسان أن يكتشف ما فى شخصيته من أثرة ، وأنانية أو إيثار، وتعاون، إلا إذا عاش بين الناس وخالطهم ، ورأى أصحاب الحاجات منهم ، ثم تأمل فى نفسه : هل تقسو وتجمد ، فتشح وتبخل ؟ وحينئذ تكون الأثرة والأنانية ، أو ترق وتلين ، فتجود وتعطى ؟ وحينئذ يكون الإيثار والتعاون ، وكذلك لا يمكنه أن يقف على ما فى شخصيته من حلم وأناة ، أو حمق وعجلة ، إلا إذا خالط الناس ، وصادف طبقات من غير أولى الكياسة، ونظر : هل يقابل خشونة ألسنتهم باللين ، وغلظة قلوبهم بالرفق ؟ وهنا يكون الحلم والأناة ، أو يقابلها بمثلها أو أشد ؟ وهنا يكون الحمق والعجلة .

وأيضا لا يعرف الإنسان مالديه من الشجاعة الأدبيّة ، أو الجبن والخور ، إلا إذا لزم الجماعة ، ورأى من يخطئ ، ثم تبصّر فى نفسه :

هل يهون عليها أن تقول لهذا المخطئ : إنّ الصواب فى غير ما نطقت ، والحقّ فى غير ما رأيت، والخير فى غير ما أتيت ؟ وهنالك تكون الشجاعة الأدبية، أو يعزّ عليها أن تقول ذلك ، فتصمت وتخرس؟ وهنالك يكون الجبن والخور .

وبالمثل : لا يدرك الإنسان ما تنطوى عليه شخصيته من صدق وكذب، من أمانة وخيانة ، من نظام أو فوضى ، إلا إذا عاش فى وسط جماعة ، وحدّث أفرادها ، أو ائتمنوه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، أو ضرب لهم موعدا ، أو أعطى من نفسه عهدا لهم ، ثم نظر :

هل يحدثهم بما يوافق الحقيقة والواقع فيكون صدوقا، أو بما يخالفها فيكون كذوبا؟

وهل يحافظ على دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، فيكون أمينا، أو يعتدى عليها ويهدرها فيكون خائنا ؟

وهل يحافظ على عهده ، ويفي بوعده فيكون دقيقا ، منضبطا ، منظما، أو يهمل ويخلف فيكون فوضويا ، غير دقيق ، ولا منظم ، ولا منضبط ؟

كأنّ المسلم إذا عاش فى عزلة أو منفردا ، فإن شخصيته تبقى مجهولة لديه، وذلك هو الخسران بعينه ، إذ ربّما يفعل الشر ، ظانّا أنه الخير ، وربما يترك الخير، معتقدا أنه الشر ؛ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف] .

ولعل هذا الأثر هو المفهوم من قوله ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن . . . » (١) .

ومن قول عمر رضي الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا (٢).

أى أن الطريق التى يعرف بها المسلم أبعاد ومعالم شخصيته من كمال أو نقص، قوة أو ضعف ـ فينمى نواحي الكمال والقوة ، ويستكمل ويقوى نواحي النقص والضعف ،إنما هى الجماعة ، وبغيرها يعيش المسلم فى عماية، وعلى غير هدى .

٢ ـ حرمانهم من المعين الذى يمكن أن يأخذ بأيديهم ، ويساعدهم على إصلاح عيوبهم : ذلك أن الإنسان قد يُهدى إلى عيوبه ، لكنه قد يكون من ضعف الإرادة ، وخور العزيمة ، بحيث يعجز بمفرده عن إصلاح وتقويم هذه العيوب ، ولابد له من معين يعينه على نفسه ، وحين يختار العزلة أو التفرّد يحرم هذا المعين ، ويبقى طوال حياته غارقا فى المعاصى والسيئات .

ولعلّ هذا الأثر هو المفهوم مما جاء : « المؤمن مرآة أخيه ، إذا رأى فيه عيبا أصلحه » (٣) . « من ولاه الله عز وجل من أمر المسلمين شيئا فأراد به خيرا ، جعل له

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٢ .

(٢) الأثر أورده ابن قدامة فى: مختصر منهاج القاصدين: الفصل الثالث، علامات مرض القلب ص ١٧١.

(٣) الحديث اخرجه البخارى فى : الأدب المفرد : باب المسلم مرآة أخيه ص ١٠٧ رقم (٢٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه موقوفا عليه به، ومرفوعا إلى النبى ﷺ بلفظ : « المؤمن مرآة أخيه ، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه »، وهو عند أبى داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى النصيحة والحياطة ٤ / ٢٨٠ باللفظ المرفوع، إلاّ أن فيه : «المؤ من مرآة المؤمن » بدل : « المؤمن مرآة أخيه » رقم (٤٩١٨) .

وزير صدق ، فإن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه » [١] .

٣ ـ تعطيل بعض طاقاتهم وإمكاناتهم ، الأمر الذى يجعلهم فريسة لإغواء الشيطان وإضلاله ، ووسوسته ، فضلا عما يلحق شخصيتهم من الانفصام أو الخلل : ذلك أن الإنسان ـ كما هو معلوم ـ مؤلف من جسد وعقل وروح ، أو بعبارة أخرى من مادة وروح ، والروح مزودة بطائفة من الغرائز تشبه الخيوط الدقيقة المتقابلة المتوازية ، كل غريزتين منها متجاورتان فى النفس ، وهما فى الوقت ذاته مختلفتان فى الاتجاه ، الخوف والرجاء ، الحب والكره ، الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال ، الطاقة الحسية والطاقة المعنوية ، الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس ، حب الالتزام والميل إلى التطوع، الفردية والجماعية ، السلبية والإيجابية. . . إلخ، كلّها غرائز متوازية ، ومتقابلة ـ كما ترى ـ وهى بتوازيها وتقابلها تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة ، كأنما هى أوتاد متفرقة ، متقابلة ، تشدّ الكيان كله ، وتربطه من كل جانب يصلح للارتباط ، وهى فى الوقت ذاته توسّع أفقه وتفسح مجال حياته ، فلا ينحصر فى نطاق واحد، ولا فى مستوى واحد، بيد أن تحقيق التوازن والتكامل فى حياة الإنسان مرهون بإعطاء كلّ غريزة من هذه الغرائز حقّها ، دون زيادة أونقص .

والجماعة هى المجال الوحيد الذى يوظف سائر طاقات المسلم ، ويعمل كل الغرائز بدرجات متساوية ، ومتوازية فى نفس الوقت ، فتتكوّن الشخصية السويّة المتكاملة، الخالية من أى انفصام أو اعوجاج،والمحصّنة ضدّ كيد الشيطان وإغوائه.

وإذا حدث أن ابتعد المسلم عن الجماعة وآثر حياة العزلة أو التفرد، فإنّه تتعطل ـ لا محالة ـ بعض طاقاته وإمكاناته ، وحينئذ يكون الخلل أو الانفصام فى شخصيّته، فضلا عن وجود الفراغ الذى يمكن أن يستغله شياطين الإنس والجنّ فى إغوائه وإضلاله .

ولعلّ هذا الأثر هو مالفت النبىﷺ النظر إليه بقوله : «. . . فمن أحبّ منكم بحبوحة الجنّة ، فليلزم الجماعة ، فإنّ الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد. . . » [٢] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٦/ ٧٠ من حديث عائشة ﵂ به، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة : باب الوزراء ٥ / ٢١٣ ولم يعقب على رجال أحمد .

(٢) سبق تخريجه ص ٧٥ .

٤ ـ قلة رصيدهم من الخبرات والتجارب التى تعينهم على مواجهة ما يعترض طريقهم من صعاب وعقبات : ذلك أن طريق العمل لدين الله طريق مليئة بالأشواك ، محفوفة بالمخاطر ، والمسلم الحصيف الذكي هو الذى تكون لديه الخبرة أو التجربة التى تمكّنه من التغلب على هذه المخاطر ، والنجاة من تلك الأشواك .

وليس هناك مجال أرحب ، وأوسع ـ يكتسب فيه المسلم الخبرات ، ويتعلم التجارب ـ سوى العيش مع النّاس ، ومخالطتهم .

وحين ينأى المسلم العامل بنفسه عن الجماعة ، ويرضى بالعزلة أوالتفرّد ، فإنّه يحرم هذه الخبرات ، وتلك التجارب ، ويبقى طول حياته ضيّق الأفق، قاصر النظر، لا يعرف كيف يواجه أبسط المشكلات ، فضلا عن أمهاتها ، وعظائمها .

ولعلّ هذا الأثر هو مانفهمه من قوله ﷺ : « إنّما مثل الجليس الصالح ، والجليس السّوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك ، وإمّا أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك ، وإمّا أن تجد ريحا خبيثة » [١] .

٥ ـ سيطرة اليأس والقنوط على نفوسهم ، الأمر الذى قد ينتهى بهم إلى الفتور : ذلك أن المسلم العامل لدين الله ـ لا سيّما فى هذا العصر ـ يأتيه الشيطان بين الحين والحين ، ويلقى عليه هذه التساؤلات :

ما المخرج، وأعداء الله ـ فى داخل الأمة الإسلامية ومن خارجها ـ كثير، وهم الآن ممسكون بخناق العالم الإسلامى ، ولديهم خطط ماكرة وأساليب خبيثة ؟

ويستطيع المسلم المخالط للناس، والعامل من خلال جماعة، دفع هذه التساؤلات، بأنه ليس وحيدا فى الميدان ، وإنّما هناك آخرون سواه يسيرون فى نفس الطريق ، وأولئك لهم من الوسائل والأساليب والإمكانات ، مايعينهم على مواجهة أعدائهم ، وإحباط مكائدهم ومخططاتهم.

أما إذا كان فى عزلة أو يعمل وحده ، فإنّ هذه التساؤلات تظلّ تلحّ عليه، وليس عنده ما يدفعها به ، وحينئذ يدبّ اليأس فى قلبه، والقنوط إلى نفسه، فيفتر، وربما ترك العمل لدين الله .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٠ .

٦ ـ قلة رصيدهم من الأجر والثواب : ذلك أن الذى يعيش مع الناس ويخالطهم، يجد أمامه مجالات رحبة ، وميادين واسعة لتحصيل الأجر والثواب، فهناك مجالس العلم، للإفادة أو الاستفادة ، وهناك عيادة المرضى ، وزيارة الإخوان تأكيدا لمودتهم، أو تهنئة بنعمة ، أو تعزية على مصيبة ، وهناك إرشاد للناس وتوجيههم إلى الخير، ومد يد المعونة على ما يسد حاجاتهم، أو تقوى به شوكتهم . . . وهكذا .

أما الذى يعيش منفردا أو منعزلا فإنه يحرم من هذه الميادين وتلك المجالات ، وبالتالى يقل رصيده من الأجر والثواب .

٧ ـ عدم تمكّنهم من إقامة دين الله فى أنفسهم اليوم أو غدا: ذلك أن الباطل لا يفتأ لحظة عن العمل بهدف أن تتحول الأرض إلى بؤرة من الشرّ والفساد، فلا يستطيع المسلم العامل أن يؤدى دورا أو أن يقوم بواجب ، وما يمكن أن يتحقق للباطل مثل ذلك إلاّ إذا فرّ أهل الحقّ من الميدان، أو عملوا متفرقين، والمعتزل واحد فرّ من الميدان، أو آثر أن يعمل وحده، ومن كان كذلك فإنّه سيضيّق عليه حتما، اليوم أو غدا .

ولعل ذلك هو ما أشارت إليه تلك النصوص التى ذكرناها آنفا فى أسباب العزلة أو التّفرد : ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] . ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)** ﴾ [الحج] .

« مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا » (١) .

٨ ـ تعريضهم أنفسهم للإثم والغضب الإلهى ، بسبب اعتزالهم الناس ومفارقتهم الجماعة : وأنى للمسلم أن يطيق ذلك أو يتحمّله ؟ وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)** ﴾ [طه] .

ولعلّ هذا الأثر هو ما نفهمه من قوله ﷺ : « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة ، فمات ، مات ميتة جاهلية. . . » (٢) .

---

(١) سبق تخريجه صفحة ٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . . . إلخ ٣ / ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ رقم (١٨٤٨) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا إلى النبى ﷺ به

تلكم أهمّ آثار العزلة أو التفرّد على العاملين ، وهى فى جملتها مستفادة من قوله ﷺ: « من فارق الجماعة شبرا، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » [(١)] .

وكأنه يعنى بذلك أن من خرج عن الجماعة ، وفارقها فى الأمر المجمع عليه ، فقد عرَّض نفسه للهلاك والضياع ، إذ لا يؤمن عليه حينئذ الوقوع فى جميع الآثار المذكورة آنفا ، أو على الأقل فى بعضها ، تماما كما يحدث للدّابة إذا خلعت الرّبقة أو الطوق الذى يجعل فى عنقها لئلا تشرد ، فإنّه لا يؤمن عليها الهلاك والضياع .

ب ـ على العمل الإسلامى :

أما آثارها على العمل الإسلامى فتدور حول :

١ ـ سهولة ضربه ، والقضاء عليه أو على الأقل إجهاضه : فلا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة، وزمن طويل، نظرا لضعفه بسبب تفرق العاملين، وعدم تضامنهم .

ولعلّ ذلك هو السرّ فى حرص أعداء الله على أن يظلّ المسلمون منقسمين على أنفسهم ، تحت شعار : « فرّق تسد » .

ولعلّه السرّ أيضا فى الأمر بالوحدة ، ونبذ الفرقة والتنازع : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] . ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾
[المائدة : ٢]

٢ ـ الحرمان من العون أو المدد الإلهى: ذلك أنّ العمل الإسلامى مهما تكن طاقاته، وإمكاناته ، فهو بحاجة إلى عون ، وتأييد من الله ـ عز وجل ـ وقد وعد الله أنه لا يعطى هذا العون ، وذلك التأييد ، إلا إذا كان القائمون على العمل الإسلامى ، متضامنين متكاتفين. يقول النبىﷺ: « يد الله مع الجماعة » [(٢)] .

ولئن ترتب على هذا الحرمان امتحان أو ابتلاء ، فإنّه يكون رحمة وبركة على العاملين المتضامنين، ونقمة وعذابا على القاعدين، وكذلك على العاملين المتفرقين :

﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)** ﴾ [محمد] .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣ .
(٢) سبق تخريجه ص ٧٥ .

« إذا أنزل الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »[(١)] .

رابعًا : الطريق للخلاص والوقاية من العزلة :

ومادمنا قد وقفنا على أسباب العزلة ، وآثارها ، فإنّ من السهل أن ندرك طريق الخلاص والوقاية منها ، وتتلخّص فى :

١ ـ الفهم التام للعلاقة أو الصلة القائمة بين النصوص الشرعية المرغبة فى العزلة ، والأخرى الداعية إلى مخالطة الناس ، ولزوم الجماعة : فإن ذلك الفهم كفيل بانتزاع المسلم ـ إن كان صادقا مع نفسه ـ من حياة العزلة ، وإلقائه فى أحضان الجماعة ، نظرا لأن مخالطة الجماعة هى الأصل ، والعزلة أمر طارئ لا يكون إلا عند الضرورة التى لا يبقى معها دين ، ولا حياة .

٢ ـ الفهم التام للظروف أو الأسباب التى دعت بعض السلف إلى العزلة أو التفرّد: فإن ذلك الفهم كثيرا ما يحول بيننا ، وبين الاقتداء بهم فى هذا الشأن ، لا سيما إذا عرفنا أنَّ عزلة هؤلاء لم يكن من ورائها ضرر ، فقد كانت دولة الإسلام قائمة والرّاية مرفوعة ، والدين كله لله ، أما عزلتنا الآن ، فمن ورائها ضرر كثير نظرا لغياب دولة الإسلام، وإمساك أعداء الله بخناقنا، وصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وحاجتنا إلى سواد كثير ، وجهود ضخمة ، متعاونة متآزرة لإعادة السلطان لله .

٣ ـ الإلمام الدقيق بمنهج الإسلام فى التوفيق بين الفردية والجماعية : فإن ذلك كفيل بدفع المسلم إلى أن يعيش فى أحضان الجماعة ، فى الوقت الذى يحافظ فيه على ذاتيته أو فرديته .

٤ ـ الوقوف على المفهوم الصحيح للعبادة : فإنه كاف فى القضاء على العزلة ، والحمل على ملازمة الجماعة ، ومخالطة الناس، دون أن يكون هناك أدنى حرج فى أن الأوقات تنفق فى غير الطاعة والعبادة .

٥ ـ مجاهدة النفس وأخذها دوما بالشدّة والحزم : لئلاّ تسيطر عليها الأهواء ، وتستبد بها الشهوات ، فتدفعها إلى العزلة ، والفرار من تكاليف مخالطة الجماعة ، والعيش بين الناس .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الفتن : باب إذا أنزل الله بقوم عذابا ٩ / ٧١ ، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا به .

٦ ـ فهم الدّور الواجب على المسلم حين ينتشر الشّر ، ويعمّ الفساد: فإن ذلك كاف فى إخراج أىّ عامل من عزلته ، وحمله على مخالطة الناس ، واقتحام الخطوب ، من أجل القضاء على الشرّ ، ومقاومة الفساد ، أو على الأقل تحجيمهما .

٧ ـ اللجوء التامّ إلى الله عزّ وجلّ ، والاستعانة الصادقة به : فإنّ من يستعن بالله يعنه الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة).

٨ ـ التخلص من صحبة من كان منهجهم العزلة ، وسيرتهم التفرد مع ملازمة صف العاملين : فإن ذلك له دور كبير فى القضاء على العزلة .

٩ ـ الإلمام التام بحقيقة الهيئات والجماعات العاملة لدين الله: فإن ذلك سينتهى به حتما إلى نبذ حياة العزلة، والسيّر مع من كانت على الخير كلّه، وقائمة بالحقّ جميعه.

١٠ ـ الوقوف على حقيقة المنهج الذى سلكه رسول الله ﷺ فى تشييد صرح ودولة الإسلام الأولى : فإن ذلك يعين على التخلص من العزلة ، ويحمل على الانحياز للجماعة اقتداء وتأسّيا بهﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] .

١١ ـ إدراك أن أعداء الله من الكافرين والمنافقين ، يتعاونون فيما بينهم ، ويعملون لضرب الإسلام مجتمعين لا متفرقين ، فى شكل أحلاف عسكرية : (حلف وارسو ـ حلف الأطلنطى) ، وفى شكل أسواق تجارية : (السوق الأوروبية المشتركة) وفى شكل برلمانات وهيئات سياسية : (البرلمان الأوروبى) ، وفى شكل اتحادات جمهورية وولايانية (جمهوريات الاتحاد السوفيتى ـ سابقًا ـ والولايات المتحدة الأمريكية) .

وإذا كان هذا شأن أعداء الله ـ وهم على الباطل ، وبينهم ما بينهم من خلافات جوهرية ـ فأولى بنا نحن المسلمين ـ لا سيّما أننا على الحقّ ، وليست لدينا خلافات جوهرية ـ أن نواجههم بنفس الأسلوب ، أى مجتمعين لا متفرقين : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال] .

١٢ ـ التأمل فى حياة المخلوقات المحيطة بنا ، والموجودة حولنا: فإن ذلك التأمل سيقودنا حتما إلى أن هذه المخلوقات ما تعيش فى عزلة ، وإنما تعيش مجتمعة متعاونة لتؤدى دورها ، فها هى المجموعة الشمسية تتعاون لتوفير الضياء والدفء لسائر الكائنات الحية ، وها هى جماعة النحل تتعاون فى بناء بيوتها ، وتنظيفها ، وتوفير الحماية لها ،

ثم تسرح لتمتص رحيق الأزهار، ولتخرجه فى النهاية عسلا مصفى، فيه شفاء للناس، ومثل ذلك يحدث لجماعة النمل وباقى المخلوقات، مما حدا بالشاعر أن يقول :

النمل تبنى قراها فى تماسكها والنحل تجنى رحيق الشهد أعوانا

وإذا كان هذا شأن المخلوقات التى لا عقل لها ، فكيف بنا نحن بنى آدم، الذين ميّزنا الله بالعقل والحرية والإرادة ، وجعلنا سادة فى هذا الكون ، وهكذا يمكن أن يؤدى مثل هذا التأمل إلى نبذ حياة العزلة ، والعيش مع الجماعة وبين الناس .

١٣ ـ الوقوف على حقيقة الآثار المترتبة على العزلة أو التفرد ، وقد ذكرناها آنفا :

فإن ذلك يقود من كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، إلى العيش بين الناس ومخالطتهم، حذرا من الوقوع فى هذه الآثار، أو تلك العواقب .

الآفة الخامسة
الإعجاب بالنفس

والآفة الخامسة التى يُصاب بها بعضُ العاملين ، وعليهم أنْ يعملوا جاهدين على مداواة أنفسهم وتحريرها ، بل والاحتراز والتوقِّى منها : إنما هى الإعجاب بالنَّفس .

ولكى يكون حديثنا عن هذه الآفة واضح الأبْعاد ، محدَّدَ المعالم ، سنجعله يدور على النحو التالى :

أولا : معنى الإعجاب بالنفس :

لغة : يطلق الإعجاب في اللغة ويراد به :

أ ـ السرور والاستحسان ، تقول : أعجبه الأمر : سَرَّه ، أُعْجِبَ به : سُرَّ به[1] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢١] . ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠]. ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ [الحديد : ٢٠].

ب ـ الزهو أو الإعظام والإكبار تقول : أعجبه الأمر: أى زها به ، وعظم عنده وكبر لديه، ورجل مُعْجب: أى مزهو أو مُعظمٌ ومكبٌر لما يكون منه حسنا أو قبيحا[2] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة :٢٥].

اصطلاحا : أمَّا فى اصطلاح الدُّعاة أو العاملين ، فإن الإعجاب بالنفس هو : «السرور أو الفرح بالنَّفس ، وبما يصدر عنها من أقوال أو أعمال من غير تعدٍّ أو تجاوز إلى الآخرين من النَّاس ، سواء أكانت هذه الأقوال ، وتلك الأعمال خيرا أم شرا ، محمودةً أو غيرَ محمودة . فإن كانَ هناك تعدٍّ أو تجاوز إلى الآخرين من الناس ، باحتقار واستصغار ما يصدر عنهم، فهو الغرور أو شدة الإعجاب، وإن كان هناك تعد أو تجاوز إلى الآخرين من الناس، باحتقارهم فى أشخاصهم وذواتهم والترفع عليهم ، فهو التكبُّر، أو شدَّة الإعجاب »[3] .

(١ ، ٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ١ / ٥٨١ ، مادة: « عجب » .

(٣) انظر : مختصر منهاج القاصدين ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ بتصرف .

ثانيا : أسباب الإعجاب بالنفس :

وللإعجاب بالنفس أسباب تؤدى إليه ، وبواعث توقع فيه ، نذكر منها :

١ ـ النشأة الأولى :

فقد يكون السبب فى الإعجاب بالنفس إنَّما هى النشأة الأولى ذلك أن الإنسان قد ينشأ بين أبوين يلمس منهما أو مِنْ أحدهما : حُبَّ المحمدة، ودوامَ تزكية النَّفس، إنْ بالحقِّ وإنْ بالباطل ، والاستعصاء على النُّصح والإرشاد ، ونحو ذلك من مظاهر الإعجاب بالنفس . فيحاكيهما ، وبمرور الزَّمن يتأثر بهما ، ويصبح الإعجاب بالنفس جزءاً من شخصيته ، إلا مَنْ رحم الله .

ولعل ذلك السرُّ فى تأكيد الإسلام على التزام الأبوين بمنهج الله على النحو الذى قدَّمنا فى الآفة الثانية « آفة الإسراف » .

إذ منهج الله وحده هو الذى يحمى الأبوين من أىِّ انحراف ، وبذلك يصلحان أن يكونا قدوة للأولاد .

٢ ـ الإطراء والمدح فى الوجه دون مراعاة الآداب الشرعية المتعلقة بذلك :

وقد يكون السبب فى الإعجاب بالنَّفْس إنَّما هو الإطراء والمدح فى الوجه دون مراعاة للآداب الشرعية المتعلقة بذلك :

ذلك أن هناك فريقاً من النَّاس ، إذا أطرى أو مدح فى وجهه دون تقيد بالآداب الشرعية فى هذا الإطراء وذلك المدح،اعتراه أو ساوره ـ لجهله بمكائد الشيطان ـ خاطر أنَّهُ ما مدح وما أطرى إلا لأنَّه يملك من المواهب ما ليس لغيره، وما يزال هذا الخاطر يلاحقه ، ويلحُّ عليه حتى يصاب ـ والعياذ بالله ـ بالإعجاب بالنفس،ولعلَّ ذلك هو السر فى ذمِّه ﷺ للثناء والمدح فى الوجه، بل وتأكيده على ضرورة مراعاة الآداب الشرعية إن كان ولابد من ذلك [1] .

---

(١) الآداب الشرعية المتعلقة بالإطراء والمدح كما استنبطها العلماء من الكتاب والسنة ثلاثة : الأول : ألا يكون فى المدح إفراط ومجاوزة للحدِّ ، الثانى : أن يكون بالحق لا بالباطل ، الثالث : ألا يكون مع مَنْ يخشى عليه الفتنة من إعجاب وغيره، فإذا توافرت هذه الآداب جاز المدح ، بل قد يصير مستحبا إن كانت من ورائه مصلحة أو منفعة كالتنشيط لفعل الخير ، أو الزيادة منه ، والاستمرار عليه ، أو الاقتداء، والتأسِّى أو نحو ذلك . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى : كتاب الزهد والرَّقائق : باب النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح ١٨ / ١٢٦ بتصرف .

جاء عن مجاهد عن أبى معمر أنه قال : قام رجل يثنى على أمير من الأمراء، فجعل المقداد بن الأسود يحثى فى وجهه التراب ، وقال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثى فى وجوه المداحين التراب [١] .

وجاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : مدح رجلٌ ، رجلاً عند النبى ﷺ فقال : « ويحك ، قطعت عنقَ صاحبك، قطعت عنق صاحبك » مراراً «إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محاله فليقل : أحسب فلانا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدا ، أحسبه ـ إن كان يعلم ذلك ـ كذا وكذا » [٢] .

٣ ـ صحبة نفر من ذوى الإعجاب بأنفسهم :

وقد يكون السبب فى الإعجاب بالنفس إنَّما هى الصحبة والملازمة لنفر من ذوى الإعجاب بأنفسهم ، ذلك أن الإنسان شديدُ المحاكاة والتأثُّر بصاحبه، لاسيَّما إذا كان هذا الصاحبُ قويَّ الشخصية ، ذا خبرة ودراية بالحياة ، وكان المصحوب غافلا على سجيَّته، يتأثر بكلٍّ ما يلقى عليه. وعليه فإذا كان الصاحب مصابا بداء الإعجاب، فإن عدواه تصل إلى قرينه فيصير مثله ، ولعلَّ هذا هو السرُّ فى تأكيد الإسلام على ضرورة انتقاء ، واختيار الصاحب ؛ لتكون الثمرة طيبةً والعواقبُ حميدةً ، وقد قدَّمنا طرفا من النصوص الشرعية المتعلقة بذلك أثناء الحديث عن آفة « الفتور » .

٤ ـ الوقوف عند النعمة ونسيان المنعم :

وقد يكون السبب فى الإعجاب إنَّما هو الوقوف عند النعمة ، ونسيان المنعم ، ذلك أنَّ هناك صنفا فى العاملين إذا حباه الله نعمة من مال أو علم أو قوة أو جاه أو نحوه،وقف عند النعمة ونسى المنعم ، وتحت تأثير بريق النعمة وسلطانها تحدِّثه نفسه أنَّه ما أصابته هذه النعمة إلا لما لديه من مواهب وإمكانات ، على حدِّ قول قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : ٧٨]. ولا يزال هذا الحديث يلحُّ عليه حتى يرى أنَّه بلغ الغاية أو المنتهى، ويُسر ويفرح بنفسه وبما يصدر عنها، ولو كان باطلا، وذلك هو الإعجاب بالنَّفس .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط ، وخيف منه فتنة على الممدوح ٤ / ٢٢٩٧ رقم (٣٠٠٢) من حديث المقداد بن الأسود مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب ما يكره من التمادح ٨ / ٢٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح ٤ / ٢٢٩٦ رقم (٣٠٠٠) كلاهما من حديث خالد الحذَّاء ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه مرفوعا ، واللفظ لمسلم .

ولعل هذا هو السرُّ فى تأكيد الإسلام ، على أنَّ مصدر النعمة ـ أى نعمة ـ إنما هو الله ـ عزَّ وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣] .

بل ، وعلى أن يناجى المسلم ربه كل صباح ومساء قائلا ، ثلاث مرات : « اللهمَّ ما أصبح بى من نعمة أو بأحدٍ منْ خَلْقِك، فمنك وحْدَك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر »[1] .

٥ ـ الصدارة للعمل قبل النضج ، وكمال التربية :

وقد يكون السبب فى الإعجاب بالنَّفس ، إنَّما هى الصدارة للعمل قبل النَّضج وكمال التربية ، ذلك أن ظروف العمل الإسلامى قد تفرض أن يتصدَر بعضُ العاملين للعمل قبل أن يستوى عودهم، وقبل أن تكتمل شخصيتهم، وحينئذ يأتى الشيطان فيلقى فى روعهم أنَّهم ما تصدَّروا للعمل، وما وضعوا فى الموقع الذى هم فيه الآن إلا لما يحملون من مؤهلات،وما لديهم من مواهب وإمكانات، وقد ينطلى عليهم ـ لجهلهم بمكائد الشيطان وحيله ـ مثل هذا الإلقاء، فيتصورونه حقيقة، ويرفعون من قدر نفوسهم فوق ما تستحق حتى يكون الإعجاب بها ـ والعياذ بالله .

ولعل هذا هو سرُّ حرص الإسلام على الفقه ، وعلى أن يكون هذا الفقه قبل الصدارة أو القيادة ، إذ يقول الله تعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾ [التوبة] . ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩].

---

[1] المناجاة أو الدعاء جاء فيه حديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما يقول إذا أصبح ٤ / ٣١٨ رقم (٥٠٧٣) من حديث عبد الله بن غنام البياضى: أن رسول اللهﷺ قال : « مَنْ قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة ، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ، ولك الشكر ، فقد أدَّى شكر يومه ، ومَنْ قال مثل ذلك حين يمسى فقد أدَّى شكر ليلته » ، وإذ يقول بسر بن جحاش القرشى : إن رسول اللهﷺ بصق يوما فى كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: قال الله تعالى: «ابن آدم أنى تعجزنى ، وقد خلقتك منْ مثل هذه، حتى إذا سوَّيتك وعدلْتك ، مشيت بين بُرْدين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقى، قلت : أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة » . الحديث أخرجه الإمام أحمد فى : المسند ٤ / ٢١٠ .

وإذ يقول النبي ﷺ : « مَنْ يرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين»[1] .

وإذ يقول عمر رضي الله عنه : تفقَّهوا قبل أن تسودوا[2] . يعني : تعلموا العلم قبل أن تصيروا سادة ، أو أصحاب مسئولية ؛ لتدركوا ما في السيادة أو ما في المسئولية من آفات فتتقوها .

٦ ـ الغفلة أو الجهل بحقيقة النفس :

وقد يكون السبب في الإعجاب بالنفس، إنَّما هي الغفلة أو الجهل بحقيقة النفس، ذلك أن الإنسان إذا غفل أو جهل حقيقة نفسه ، وأنَّها من ماء مهين خرج من مخرج البول ، وأنَّ النقص دائما طبيعتها وسمتها ، وأن مردَّها أن تلقى في التراب ، فتصير جيفة منتنة ، تنفر من رائحتها جميع الكائنات، إذا غفل الإنسان أو جهل ذلك كله ربَّما خطر بباله أنَّه شيء ، ويقوى الشيطان فيه هذا الخاطر حتى يصير معجبا بنفسه .

ولعلَّ ذلك هو السرُّ في حديث القرآن والسنة المتكرر عن حقيقة النفس الإنسانية بدءًا ونهايةً ، إذ يقول الحقُّ سبحانه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ [السجدة] ، ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ [المرسلات] ، ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ﴾ [عبس] .

٧ ـ عراقة النسب أو شرف الأصل :

وقد يكون السبب في الإعجاب بالنفس، إنَّما هي عراقة النسب،أو شرف الأصل، ذلك أن بعض العاملين قد يكون سليل بيت عريق النسب ، أو شريف الأصل، وربما حمله ذلك على استحسان نفسه،وما يصدر عنها، ناسيا أو متناسيًا أن النَّسب أو الأصل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب العلم : باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ١/٢٧، ٢٨، وكتاب فرض الخُمس : باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ ٤ / ١٠٣ ، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة: باب قول النبي ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ... إلخ» ٩/ ١٢٥، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإمارة : باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ... إلخ » ٣/ ١٥٢٤ رقم (١٠٣٧)، وكتاب الزكاة : باب النهي عن المسألة ٢/٧١٨ رقم (١٠٣٧) ، كلاهما من حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه مرفوعا به .

(٢) الأثر أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب العلم : باب الاغتباط في العلم والحكمة ١ / ٢٨ تعليقا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفا عليه به ، وعقَّب عليه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١ / ١٦٦ بقوله : « أما أثر عمر فأخرجه ابن أبي شيبة وغيره من طريق محمد ابن سيرين ، عن الأحنف بن قيس قال : قال عمر ... فذكره ، وإسناده صحيح » .

لا يقدِّم ولا يؤخر، بل المعوَّل عليه إنَّما هو العمل المقرون بالجهد والعرق، وهكذا نتتهى به عراقة نسبه، أو شرف أصله إلى الإعجاب بنفسه.

ولعل ذلك هو سرُّ تأكيد الإسلام على العمل ، والعمل وحده ؛ إذ يقول الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون] . ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾

[النساء]

وإذ يقول النبيُّ ﷺ ـ لما أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]:

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ،لا أغنى عنكم من الله شيئا. يابنى عبد المطلب، لا أغنى عنكم من الله شيئا. يا عبَّاس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئا . يا صفيَّة عمة رسول الله ﷺ ، لا أغنى عنك من الله شيئا. يافاطمة بنت رسول الله ، سلينى بما شئت ، لا أغنى عنك من الله شيئا » [١] .

٨ ـ الإفراط أو المبالغة فى التوقير والاحترام :

وقد يكون السبب فى الإعجاب بالنَّفس ، إنَّما هو الإفراط أو المبالغة فى التوقير والاحترام ، ذلك أن بعض العاملين قد يحظى من الآخرين بتوقير واحترام فيهما مبالغة أو إفراط يتعارض مع هدى الإسلام ، ويأباها شرع الله الحنيف ، كدوام الوقوف طالما أنَّه قائم أو قاعد ، وكتقبيل يده ، والانحناء له، والسَّير خلفه. . . إلخ .

وإزاء هذا السلوك قد تحدثه نفسه أنَّه ما حظى بهذا التوقير والاحترام إلا لأن لديه من المواهب والخصائص ما ليس لغيره ، ويظل هذا الحديث يقوى ويشتد إلى أن يكون الإعجاب بالنَّفس ـ والعياذ بالله .

ولعل هذا هو سرُّ نهيه ﷺ أصحابه أن يقوموا له ، وأن يعظِّموه كما يعظم الأعاجم ملوكهم ، فيقول : « مَنْ أحبَّ أن يُمثَّلَ له الرجال قيامًا فليتبوأْ مَقْعَده من النار » [٢] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى قيام الرجل للرجل ٤/ ٣٥٨ رقم (٥٢٢٩) من حديث معاوية مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التفسير : سورة الشعراء ٦/ ١٤٠ ، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب فى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ١/ ١٩٢، ١٩٣ رقم (٢٠٦)، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه رفوعا ، واللفظ لمسلم.

ويخرج ﷺ إلى أصحابه يوما متوكئا على عصا ، فيقومون له ، فيقول : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّم بعضُها بعضا »[١] .

٩ ـ الإفراط أو المبالغة فى الانقياد والطاعة :

وقد يكون السبب فى الإعجاب بالنَّفس ، إنَّما هو الإفراط أو المبالغة فى الانقياد والطاعة ذلك أن بعض العاملين قد يلقى من الآخرين انقيادا وطاعة فيهما إفراط أو مبالغة لا تتفق ومنهج الله ، كأن يكون هذا الانقياد وهذه الطاعة فى كل شىء سواء كان معروفا أو منكرا ، خيرا أو شرا .

وتبعا لذلك قد تسوِّل له نفسه أنَّه ما كان الانقياد ، وما كانت الطاعة إلا لأنه يملك من الخصائص والمزايا مالا يملك غيره، وربَّما صدق فكان الإعجاب بالنفس.

ولعلَّ ذلك هو بعض السرِّ فى تأكيد الإسلام على أن يكون الانقياد والطاعة فى المعروف ، وليس فى المعصية . يقول ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره ، إلاَّ أن يؤْمر بمعصية، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة »[٢] .

١٠ ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على الإعجاب بالنفس :

وأخيرا ، قد يكون السبب فى الإعجاب بالنفس ، إنَّما هى الغفلة عن الآثار والعواقب ، ذلك أن سلوك الإنسان فى الحياة غالبا ما يكون نابعا من إدراكه أو عدم إدراكه لعواقب وآثار هذا السلوك .

وعليه ، فإن العامل أو الداعية إذا لم يدرك العواقب المترتبة على الإعجاب بالنَّفس فإنه قد يصاب به ، ولا يراه إلا أمرا بسيطا هينا ، لا يحتاج منه أن يقف عنده ، أو أن يضيِّع فيه وقته .

ولعلَّ ذلك السرُّ فى حرص هذا الدين على عرض مبادئه ومقاصده مقرونةً بآثارها وعواقبها .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى قيام الرجل للرجل ٤ / ٣٥٨ رقم (٥٢٣٠) من حديث أبى أمامة مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ٣/ ١٤٦٩ رقم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر مرفوعا به .

ثالثا : آثار الإعجاب بالنفس :

هذا وللإعجاب بالنَّفس آثار سيئة ، وعواقب وخيمة، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثاره على العاملين :

١ ـ الوقوع فى شراك الغرور بل والتكبُّر :

أى أن الأثر الأول للإعجاب بالنفس ، إنما هو الوقوع فى شراك الغرور، بل والتكبر ، ذلك أنَّ المعجب بنفسه كثيرا ما يؤدى به الإعجاب إلى أن يهمل نفسه ، ويلغيها من التفتيش والمحاسبة ، وبمرور الزمن يستفحل الداء، ويتحول إلى احتقار واستصغار ما يصدر عن الآخرين ، وذلك هو الغرور ، أو يتحول إلى الترفع على الآخرين واحتقارهم فى ذواتهم وأشخاصهم ، وذلك هو التكبُّر .

وللغرور والتكبر آثارهما الخطيرة ، وعواقبهما المهلكة التى سنقف عليها بالتفصيل عند الحديث عن هاتين الآفتين إن شاء الله تعالى .

٢ ـ الحرمان من التوفيق الإلهى :

أى أن الأثر الثانى للإعجاب بالنفس ، إنَّما هو الحرمان من التوفيق الإلهى، ذلك أن المعجب بنفسه كثيرا ما ينتهى به الإعجاب إلى أن يقف عند ذاته ، ويعتمد عليها فى كلِّ شىء ، ناسيا أو متناسيا خالقه وصانعه ومدبر أمره ، والمنعم عليه بسائر النِّعم الظاهرة والباطنة .

ومثل هذا يكون مآله الخذلان ، وعدم التوفيق فى كلِّ ما يأتى وفى كلِّ ما يدع؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ مضَتْ سنتُه فى خلقه : أنَّه لا يمنح التوفيق إلا لمن تجرَّدوا من ذواتهم ، واستخرجوا منها حظَّ الشيطان ، بل ولجأوا بكليتهم إليه ـ تبارك اسمه ، وتعاظمت آلاؤه ـ وقضوا حياتهم فى طاعته ، وخدمته ، كما قال فى كتابه : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وكما قال فى الحديث القدسى : « ... وما يزال عبدى يتقرَّبُ إلىَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمْعه الذى يسمع به، وبصَرَه الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذ بى لأعيذنَّه »[1] .

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرقاق : باب التواضع ٧/ ١٣١ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه

٣ ـ الانهيار فى أوقات المحن والشدائد :

أى أن الأثر الثالث للإعجاب بالنفّس،إنّما هو الانهيار فى أوقات المحن والشدائد، ذلك أن المعجب بنفسه كثيراً ما يهمل نفسه من التزكية ، والتزوّد بزاد الطريق ، ومثل هذا ينهار ويضعف مع أول شدة أو محنة يتعرض لها ؛ لأنّه لم يتعرف على الله فى الرّخاء حتى يعرفه فى الشدّة .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]. ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت].

وصدق النبىﷺ إذ ينصح عبد الله بن عباس فيقول : « ... احفظ الله تجده أمامك ، تعرَّف إلى الله فى الرَّخاء يعرفك فى الشدة... »[١] .

٤ ـ النفور بل والكراهية من الآخرين :

أى أن الأثر الرابع للإعجاب بالنفس، إنما هو النفور، بل والكراهية من الآخرين، ذلك أن المعجب بنفسه قد عرَّض نفسه بصنيعه هذا لبغض الله له، ومن أبغضه الله أبغضه أهل السموات ، وبالتالى يوضع له البغض فى الأرض، فترى الناس ينفرون منه ويكرهونه ولا يطيقون رؤيته، بل ولا سماع صوته ، جاء فى الحديث :

« إن الله إذا أحبَّ عبدا ، دعا جبريل ، فقال : إنى أحبُّ فلانا فأحبَّه ، قال : فيحبُّه جبريل ، ثم ينادى فى السَّماء ، فيقول : إن الله يحبُّ فلانا فأحبُّوه، فيحبُّه أهل السَّماء، قال: ثمَّ يوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريلَ، فيقول : إنِّى أبغض فلانا فأبغضه ، قال: فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السَّماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض »[٢] .

٥ ـ العقاب أو الانتقام الإلهى عاجلا أو آجلا :

أى أن الأثر الخامس للإعجاب بالنفس، إنما هو العقاب أو الانتقام الإلهى عاجلاً أو آجلا ، ذلك أن المعجب بنفسه قد عرَّض نفسه بهذا الخُلُق إلى العقاب والانتقام

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى : المسند ١ / ٣٠٧ من حديث ابن عباس .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب الملائكة ٤ / ١٣٥ ، وكتاب الأدب : باب المِقَة من الله تعالى ٨ / ١٧ ، وكتاب التوحيد: باب كلام الربِّ مع جبريل ٩ / ١٧٣، ١٧٤ من حديث نافع وأبى صالح ، كلاهما عن أبى هريرة مرفوعا ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب إذا أحبَّ الله عبدا ٤ / ٢٠٣٠ رقم (٢٦٣٧) من حديث أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا ، واللفظ لمسلم .

الإلهى، عاجلا بأن يخسف به كما كان فى الأمم الماضية، أو على الأقل يصاب بالقلق والتمزق والاضطراب النفسى ، كما فى هذه الأمة ، أو آجلا بأن يعذَّب فى النار مع المعذَّبين .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « بينما رجل يمشى فى حلَّة تعجبه نفسه ، مرجَّلٌ جُمَّته [(١)] إذ خَسَفَ الله به ، فهو يتجلجل [(٢)] إلى يوم القيامة » [(٣)] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثاره على العمل الإسلامى فتدور حول :

١ ـ سهولة اختراقه ، وبالتَّالى ضربه ، أو على الأقل إجهاضه ، فلا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة ، وزمن طويل ؛ نظرا لانهيار العاملين المعجبين بأنفسهم فى أوقات المحن والشدائد ، بل وحرمانهم من خاصية نفاذ البصيرة، تلك التى تساعد على معرفة الأدعياء ، وتمييز الدخلاء من غيرهم .

٢ ـ توقف ـ أو على الأقل بطء ـ كسب الأنصار والأصدقاء ؛ نظرا لنفور الناس وكراهيتهم للعاملين المعجبين بأنفسهم ، وهذا فيه ما فيه من طول الطريق وكثرة التكاليف .

تلكم هى آثار الإعجاب بالنفس على العاملين ، وعلى العمل الإسلامى.

رابعا : مظاهر الإعجاب بالنفس :

ويمكن اكتشاف هذا الداء من خلال المظاهر التالية :

١ ـ تزكية النفس :

أى أن المظهر الأول للإعجاب بالنفس، إنما هو دوام التزكية للنفس، والثَّناء عليها، والرَّفع من قيمتها ، مع نسيان أو تناسى قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم] .

---

(١) مرجَّل جمَّته : أى مسرِّح ما سقط على المنكبين من شعر رأسه ، إذ الجمَّة من شعر الرأس ما سقط على المنكبين . انظر : النهاية ١/ ١٧٩ .

(٢) يتجلجل : أى يغوص فى الأرض يخسف به، والجلجلة: حركة مع صوت . انظر : النهاية ١/ ١٧٠ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب اللباس : باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء ٧/ ١٨٣ ، ومسلم فى: الصحيح : كتاب اللباس والزِّينة: باب تحريم التبختر فى المشى مع إعجابه بثيابه ٣/ ١٦٥٣، ١٦٥٤ رقم (٢٠٨٨) ، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ للبخارى .

٢ ـ الاستعصاء على النصيحة :

والمظهر الثانى للإعجاب بالنَّفس، إنما هو الاستعصاء على النصيحة ، بل والنُّفور منها ، مع أنَّه لا خير فى قوم لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة .

٣ ـ الفرح بسماع عيوب الآخرين ، لا سيَّما أقرانه :

والمظهر الثالث للإعجاب بالنَّفس ، إنَّما هو الفرح بسماع عيوب الآخرين ، لا سيَّما أقرانه ، حتى قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله : إن من علامة المنافق أن يفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه [١] .

خامسا : الطريق لعلاج الإعجاب بالنفس :

وما دمنا قد وقفنا على أسباب وبواعث الإعجاب بالنَّفس ، فإنَّ من السَّهل معرفة طريق علاج واقتلاع هذا الداء ، بل والوقاية منه ، وتتلخص فى:

١ـ التذكير دائما بحقيقة النفس الإنسانية ، وذلك بأن يفهم المعجب بنفسه أنَّ نفسه التى بين جنبيه لولا ما فيها من النفخة الإلهية ، ما كانت تساوى شيئا، فقد خلقت من تراب تدوسه الأقدام ، ثم من ماء مهين يأنف الناظر إليه من رؤيته ، وسترد إلى هذا التراب مرةً أخرى ، فتصير جيفة منتنة، يفرُّ الخلق كلُّهم مِنْ رائحتها، وهى بين البدء والإعادة تحمل فى بطنها العذرة، أى الفضلات ذات الروائح الكريهة ، ولا تستريح ولا تهدأ إلا إذا تخلَّصت من هذه الفضلات .

إذ إن مثل هذا التذكير يساعد كثيراً فى ردع النَّفس ، وردها عن غيِّها ، واقتلاع داء الإعجاب منها ، بل وحمايتها من التورُّط فيه مرَّة أخرى .

ولقد لفت أحد السلف النَّظر إلى هذه الوسيلة حين سمع معجبا بنفسه يخاطبه قائلا : « أتعرف مَنْ أنا ؟ ».

فردَّ عليه بقوله : « نعم ، أعرف مَنْ أنت ؛ لقد كنت نطفة قذرة ، وستصير جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل العذرة » .

٢ ـ التذكير دائما بحقيقة الدنيا والآخرة ، وذلك بأن يعرف المعجب بنفسه أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنَّه مهما طال عمرها فإنَّها إلى زوال ، وأن الآخرة إنَّما هى الباقية ، وأنَّها هى دار القرار ، إذ إنَّ مثل هذا التذكير يحمل الإنسان على أنْ يعدِّل من

---

(١) العوائق للأستاذ : محمد أحمد الراشد ص ٥٣ .

سلوكه ، أو يقوِّم عوج نفسه ، قبل أن تنتهى الحياة ، وقبل أنْ تضيع الفرصة ، ويفوت الأوان .

٣ ـ التذكير بنعم الله التى تغمر الإنسان ، وتحيط به من أعلى إلى أدنى ؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] . فإن هذا التذكير من شأنه أن يشعر الإنسان بضعفه وفقره، وحاجته إلى الله دائما ، وبالتالى يُطَهِّرُ نفسه من داء الإعجاب ، بل ويقيه أن يبتلى به مرَّةً أخرى .

٤ ـ التفكُّر فى الموت ، وما بعده من منازل ، وما سيكون فى هذه المنازل من شدائد وأهوال ، فإن ذلك كفيل باقتلاع الإعجاب من النفس ، بل وتحصينها ضدَّه، لمن كان له قلب أو ألقى السَّمْع وهو شهيد .

٥ ـ دوام الاستماع أو النظر فى كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وسنة النبىِّ ﷺ؛ فإنَّ فيهما البيانَ الشافى ، والتحليلَ الدقيق لكل ما يتصل بالوسائل الأربع المذكورة آنفا، وبهما يتخلص الإنسان ـ إن كان موضوعيا وصادقا مع نفسه ـ مِنْ كل داء .

٦ ـ دوام حضور مجالس العلم، لاسيِّما تلك التى تدور حول علل النفس وطريق الخلاص منها ، فإن أمثال هذه المجالس كثيرا ما تعين على تطهير النفس ، بل وصيانتها من داء الإعجاب .

٧ ـ الاطلاع على أحوال المرضى ، وأصحاب العاهات ، بل والموتى، لاسيما فى وقت غَسْلهم وتكفينهم ودفنهم ، ثم زيارة القبور بين الحين والحين والتفكر فى أحوال أهلها ومصيرهم ، فإن ذلك يحرِّك الإنسان من داخله ، ويحمله على اقتلاع العجب ونحوه من كلِّ العلل والأمراض النفسية أو القلبية.

٨ ـ وصيَّة الأبوين أن يتحرراً من داء الإعجاب بالنَّفس ونحوه ، وأن يكونا قدوة صالحة أمام الولد ، وأن يفهماه بأنَّ ما وقع منهما كان خطأ وأنهما قد أقلعا عن هذا الخطأ ، وعليه أن يقلع عنه مثلهما ويتوب إلى الله عز وجل.

٩ ـ الانقطاع عن صحبة المعجبين بأنفسهم ، مع الارتماء فى أحضان المتواضعين العارفين أقدارهم ومكانتهم ؛ فإن ذلك يساعد فى التخلص ، بل وفى التوقى من الإعجاب بالنفس .

١٠ ـ التوصية والتأكيد على ضرورة اتباع الآداب الشرعيَّة فى الثناء والمدح، فى التوقير والاحترام، فى الانقياد والطاعة، مع الإعراض والزجر الشديد لكل مَنْ يخرجون على هذه الآداب؛ فإن ذلك له دور كبير فى مداواة النفس وتحريرها من الإعجاب .

١١ ـ التأخير عن المواقع الأماميَّة بعض الوقت ، إلى أن تستقيم النفس ، ويصلب عودها ،وتستعصى على الشيطان ؛ فإن ذلك يُسهِّل طريق العلاج.

١٢ ـ دوام النَّظر فى سيرة السَّلف ، وكيف كانوا يتعاملون مع أنفسهم حين يَرَوْن منها مثل هذا الخلق؛ فإن ذلك يحمل على الاقتداء والتأسى، أو على الأقل المحاكاة، والمشابهة في استئصال هذا الداء، وقطع الطريق عليه أن يعود إلى النَّفس مرَّةً أخرى .

١٣ ـ تعريض النَّفس بين الحين والحين لبعض المواقف التى تقتل كبرياءها، وتضعها فى موضعها الصحيح، كأن يقوم صاحبها بخدمة إخوانه الذين هم أدنى منه فى المرتبة، أو أن يقوم بشراء طعامه من السُّوق ، وحَمْل أمتعته بنفسه، على نحو ما أثر عن كثير من السلف.

فقد روى عن عمر رضي الله عنه : أنَّه لَّما قدم الشَّام عرضَتْ له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع خُفَّيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة عامر بن الجَّراح: لقد صنعتَ اليوم صنعا عظيما عند أهل الأرض، فصكَّ صدره، وقال: أوه، لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة !! إنكم كنتم أذلَّ النَّاس وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يذلكم الله .

وجاء فى رواية أخرى : أنَّه لما قدم الشَّام استقبله النَّاس ، وهو على بعيره، فقيل له : لو ركبتَ برذونا تلقى به عظماء النَّاس ووجوههم ؟ فقال عمر رضي الله عنه : لا أراكم ها هنا ، إنَّما الأمر من هاهنا ـ وأشار بيده إلى السَّماء ـ خلُّوا سبيل جملى (١) .

١٤ ـ متابعة الآخرين له،ووقوفهم بجانبه حتى يتمكَّن من التخلص من هذه الآفة.

١٥ ـ محاسبة النفس أولا بأول ، حتى يمكن الوقوف على العيوب وهى لا تزال فى بداياتها فيسهل علاجها ، والوقاية منها .

١٦ ـ إدراك العواقب والآثار المترتِّبة على الإعجاب بالنَّفس ؛ فإنها ذات أثر فعَّال فى علاج هذه الآفة والتحصُّن ضدَّها .

---

(١) انظر : مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسى ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

١٧ ـ الاستعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذلك بواسطة الدعاء والاستغاثة واللجوء إليه أن يأخذ الله بيده ، وأن يطهِّره من هذه الآفة ، وأن يقيه شر الوقوع فيها مرَّة أخرى، إذ إن مَنْ استعان بالله أعانه الله ، وهداه لصراطه المستقيم .

١٨ ـ التأكيد على المسئولية الفردية، بغض النظر عن الأحساب والأنساب؛ فإن ذلك له دور كبير فى علاج النفس، بل وحفظها من أن تقع مرَّة أخرى فى آفة الإعجاب .



الآفة السادسة
الغرور

والآفة السادسة التي يبتلى بها بعض العاملين ، وعليهم أن يعملوا جاهدين على التحررّ منها ، وعدم الوقوع فيها مرّة أخرى إنّما هي : الغرور، ولكي يكون حديثنا عن هذه الآفة واضح الأبعاد ، محدّد الملامح والمعالم ، سنجعله يدور على النّحو التّالي :

أولا : معنى الغرور :

لغة : يطلق الغرور في اللغة على عدّة معان ، أهمّها :

أ ـ الخداع ، سواء أكان للنفس أو للغير ، أو للنّفس وللغير معا ، تقول : غرّه، يَغُرّه ، غروراً : أي خدعه، وغرّ نفسه، يغرها، غرورا تعنى خدعها [1] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء] .

ب ـ ما يؤدى إلى الغرور ، وما يوقع فيه ، قال الجوهرى : والغرور بالضم : ما اغتر به من متاع الدنيا [2] . ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر].

اصطلاحا : أمّا في اصطلاح الدعاة أو العاملين فإن الغرور هو إعجاب العامل بنفسه إعجابا يصل إلى حد احتقار أو استصغار كل ما يصدر عن الآخرين بجنب ما يصدر عنه ، ولكن دون النيل من ذواتهم أو الترفّع على أشخاصهم .

ولا شك أن من كان بهذه المثابة فهو مخدوع ، وتبعا لذلك فإنّنا يمكن أن نفهم مدى التلاقى بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى .

ثانيا : أسباب الغرور :

ولما كان الغرور شدّة الإعجاب بالنّفس ، فإن أسبابه التى تؤدى إليه وبواعثه التى توقع فيه، هى فى جملتها أسباب الإعجاب بالنفس ويزاد عليها :

---

(١) انظر : لسان العرب ٥ / ١١ ، مادة : « غرر » .

(٢) انظر: الصحاح ٢ / ٧٦٨ مادة : « غرر» .

١ ـ إهمال النفس من التفتيش والمحاسبة :

إذ قد يكون السبب فى الغرور إنّما هو إهمال النفس من التفتيش والمحاسبة . ذلك أن بعض العاملين قد يبتلى بالإعجاب بالنفس ، ولإهماله نفسه من التفتيش والمحاسبة يتمكن الدّاء منه ، ويتحول إلى احتقار أو استصغار ما يقع من الآخرين بالإضافة إلى ما يقع منه ، وبذلك يصير مغرورا . ولعل هذا هو السرّ فى وصية الإسلام بالتفتيش فى النّفس، ومحاسبتها أوّلا بأوّل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑱ ﴾ [الحشر] .

٢ ـ الإهمال أو عدم المتابعة ، والأخذ باليد من الآخرين :

وقد يكون السبب فى الغرور إنّما هو الإهمال أو عدم المتابعة والأخذ باليد من الآخرين . ذلك أن بعض العاملين قد يصاب بآفة الإعجاب بالنفس ، ويكون من ضعف الإرادة ، وخور العزيمة ، وفتور الهمة بحيث لا يستطيع التطهّر بذاته من هذه الآفة، وإنّما لابد له من متابعة الآخرين ، ووقوفهم بجواره، وأخذهم بيده . وقد لا يلتفت الآخرون إلى ذلك ، فيقعدون عن أداء دورهم وواجبهم ، وحينئذ تتمكن هذه الآفة من النفس وتتحول بمرور الزمن إلى غرور ـ والعياذ بالله.

ولعل ذلك هو السر فى تأكيد الإسلام على النَّصيحة ، حتى جعل الدين كلّه منحصرا فيها ، وراجعا إليها ؛ إذ يقول ﷺ : « الدّين النّصيحة » قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

ولعله السر أيضا فى دعوته إلى التضامن والتعاون بين المسلمين ؛ إذ يقول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] .

ويقول النبى ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » (٢) .

٣ ـ الغلو أو التشدد فى الدين :

وقد يكون السبب فى الغرور إنّما هو الغلو أو التشدّد فى الدين ، ذلك أن بعض العاملين قد يقبل على منهج الله فى غلوّ وتشدّد ، وبعد فترة من الزمان ينظر حوله ،

(١ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٦٢ .

فيرى غيره من العاملين يسلكون المنهج الوسط ، فيظنّ ـ لغفلته أو عدم إدراكه طبيعة هذا الدين ـ أن ذلك منهم تفريط أو تضييع ، ويتمادى به هذا الظّن إلى حد الاحتقار والاستصغار لكل ما يصدر عنهم بالإضافة إلى ما يقع منه ، وذلك هو الغرور .

ولعلّ ذلك هو بعض السرّ فى دعوة الإسلام إلى الوسطية ، بل وتحذيره من الغلوّ أو التشدّد فى الدّين ؛ إذ يقولﷺ للرهط الذين عزمُوا على التبتّل واعتزال الحياة : «أنتم قلتم كذا وكذا : أما والله إنّى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلّى وأرقد ، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(١) .

ويقول: « هلك المتنطعون »(٢) ، قالها ثلاثا، يعنى : المتعمقين المجاوزين الحدود فى أقوالهم وأفعالهم . « إياكم والغلو فى الدين ، فإنّما هلك من قبلكم بالغلوّ فى الدين »(٣) ، « إن الدين يسر ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسدّدوا ، وقاربوا ، وأبشروا . . . » الحديث(٤) .

٤ ـ التعمق فى العلم ، لاسيّما غرائب وشواذ المسائل مع إهمال العمل:

وقد يكون السبب فى الغرور إنّما هو التعمق فى العلم، لاسيّما غرائب وشواذ المسائل مع إهمال العمل ، ذلك أن بعض العاملين قد يكون كل همه التعمق فى العلم لا سيّما غرائب وشواذ المسائل ، مع إهماله العمل ، وربما لاَحَظَ ـ أثناء طرح هذه المسائل ـ غفلة بعض العاملين عنها وعدم إلمامهم بها ، إما لأنّها ثانوية لا يضر الجهل بها ، وإمّا لأنه لا يترتب عليها عمل ، فيخطر بباله أنّ هؤلاء لا يتقنون من مسائل العلم شيئا ، وإن أتقنوا فإنما هو قليل فى جانب ما لديه من الغرائب والشواذ، وما يزال هذا الخاطر يتردد فى نفسه ، ويلح عليه حتى يتحول إلى احتقار واستصغار ما لدى الآخرين ، بالإضافة إلى ما عنده ، وذلك هو داء الغرور .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب الترغيب فى النكاح ٧ / ٢ ، ومسلم فى: الصحيح: كتاب النكاح : باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... إلخ ٢/ ١٠١٨ رقم (١٤٠١) ، والنسائى فى : السنن : كتاب النكاح : باب النهى عن التبتل ٦ / ٦٠ رقم (٣٢١٧) ، وأحمد فى : المسند ٣ / ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا ، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب هلك المتنطعون ٤ / ٢٠٥٥ رقم (٢٦٧٠) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعا به .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١ / ٢١٥ ، ٣٤٧ من حديث ابن عباس ﷺ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الإيمان: باب الدين يسر ١/ ١٦ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به .

ولعلّ ذلك هو السر فى دعوة الإسلام إلى أن يكون السعى فى طلب العلم دائما حول النافع والمفيد ؛ إذ كان من دعائهﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها » (١) .

بل وفى تأكيده على أن يكون هذا العلم مقرونا بالعمل، وإلا كان الهلاك والبوار، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] ، ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة] .

وإذ يقول النبى الكريمﷺ : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه فى النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أى فلان ماشأنك، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » (٢) .

٥ ـ الوقوف عند الطاعات مع نسيان المعاصى والسيئات :

وقد يكون السبب فى الغرور ، إنما هو الوقوف عند الطاعات مع نسيان المعاصى والسيئات ، ذلك أننا جميعا بشر ، وشأن البشر ـ سوى النبيين ـ الصواب والخطأ ، وإذا غفل العامل عن ذلك فإنه كثيرا ما يقف عند الطاعة أو الصواب فى الوقت الذى ينسى فيه المعصية أو الخطأ، وتكون العاقبة الإعجاب بالنفس ، المقرون باحتقار ما يقع فيه الآخرون إلى جانب ما يصدر عنه ، وهذا هو الغرور.

وقد لفت المولى ـ سبحانه وتعالى ـ النّظر إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث وهو يمدح صنفا من المؤمنين يؤدى الطاعة، ويخاف أن يكون قد وقع منه ما يحول بينه وبين قبولها فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل ٤/ ٢٠٨٨ رقم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه مرفوعا به ، بيد أنه زاد قبله : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم ، وعذاب القبر ؛ اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب صفة النار وأنها مخلوقة ٤/ ١٤٧،ومسلم فى: الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله ٤/ ٢٢٩٠، ٢٢٩١ رقم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعا به، واللفظ للبخارى .

وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون] .

تقول عائشة رضي الله عنها قلت : يا رسول الله، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزّ وجلّ ؟ قال : « لا يا بنت الصدّيق، ولكنه الذي يصلي ويصوم، ويتصدّق، وهو يخاف الله عزّ وجلّ » [(١)] .

كما لفت النبي ﷺ النظر إلى ذلك حين دعا إلى أن يكون التعويل بعد الفراغ من العمل على فضل الله ورحمته ، لا على العمل نفسه ، وإلا كان الغرور والضياع ، فقال : « لن ينجي أحدا منكم عمله »، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، سدّدوا، وقاربوا، واغدوا ، وروحوا، وشيء من الدّلجة، والقصد القصد تبلغوا » [(٢)] .

وقد عبر عن ذلك كله بوضوح سيدنا عبد الله بن مسعود ، حين بيّن أثر تذكر الذنب ونسيانه على سلوك الإنسان ، فقال : « إن المؤمن من يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه ، فقال به هكذا » [(٣)] أي نحّاه بيده ، ودفعه عنه .

٦ ـ الركون إلى الدنيا :

وقد يكون السبب في الغرور هو الركون إلى الدنيا ، ذلك أن بعض العاملين قد يفطن إلى أنه مبتلى بآفة الإعجاب بالنفس، بيد أنه لركونه إلى الدنيا، وانغماسه فيها، ربما يعتريه الكسل، فلا يستطيع أن يجمع همته لمداواة نفسه، بل قد يأخذ في التسويف وتأخير التوبة، وبمرور الزمن يتحول الإعجاب بالنفس إلى داء أكبر وأبعد، ألا وهو الغرور.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن : كتاب تفسير القرآن : باب من سورة « المؤمنون » ٣٠٦/٥ ، ٣٠٧ رقم (٣١٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا به، وعقب عليه بقوله: « وقد روى هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحو هذا » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الرقاق: باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨، ١٢٣، ومسلم في: الصحيح: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب لن يدخل الجنة أحد بعمله...إلخ ٢١٦٩/٤، ٢١٧١ رقم (٢٨١٦ ، ٢٨١٨) من حديث أبي هريرة ، وعائشة رضي الله عنها مرفوعا به وبنحوه، واللفظ للبخاري .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الدعوات: باب التوبة ٨٣/٨ ، ٨٤ من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا عليه به، وادعى بعضهم أنه مرفوع، وهو وهم. انظر: فتح الباري ١٠٥/١١ .

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث ، من خلال ذم الدنيا ، والتحذير منها ، إذا اتخذها الناس هدفا أو غاية ، فقال :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ [الحديد: ٢٠] . ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف] . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس] .

وقال ﷺ : « تعس عبد الدّينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السّاقة كان في السّاقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع » (١) .

وقلما كان ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولاتجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » (٢) .

ولقد وعى سلف الأمّة ، ما يجره الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها على المرء من وبال ، فأعرضوا عنها إلا بمقدار ما يتزودون منها للآخرة ، وجرى ذلك كثيرا على ألسنتهم ، يقول علي رضي الله عنه : ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح: كتاب الجهاد: باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤/ ٤١، ٤٢، وكتاب الرقاق: باب ما يتقى من فتنة المال ٨/ ١١٤، ١١٥، وابن ماجه في: السنن: كتاب الزهد: باب في المكثرين ٢/ ١٣٨٥، ١٣٨٦ رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب الدعوات : باب (٨٠) ٥ / ٤٩٣ ، ٤٩٤ رقم (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا به ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب».

منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل [١] .

ويقول الحسن ـ رحمه الله : من نافسك فى دينك فنافسه فيه، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره [٢] .

ويصور بعضهم هذا الوعى ، وذلك الإحساس ، قائلا :

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى وطنا

جعلوها لجّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا [٣]

٧ ـ رؤية بعض ذوى الأسوة والقدوة على حال دون الحال التى ينبغى أن يكونوا عليها :

وقد يكون السبب فى الغرور إنما هى رؤية بعض ذوى الأسوة أو القدوة على حال دون الحال التى ينبغى أن يكونوا عليها ، ذلك أن بعض ذوى الأسوة والقدوة ، قد ينزلون ـ لسبب أو لآخر ـ عن الحال التى ينبغى أن يكونوا عليها، من أخذ أنفسهم بالعزيمة فى غالب الأحيان ، إلى حال أقل منها من أخذ أنفسهم بالرخص فى بعض الأوقات.

وربما رأى ذلك من يحاول الاقتداء والتأسّى بهم، ولقلّة رصيده من الفقه، أو لعدم اكتمال تربيته ، يتوهّم أو يظن أنهم بذلك دونه فى العمل بمراحل ، ويظلّ هذا الوهم أو هذا الظن يلاحقه ويلحّ عليه، حتى يتحول ـ والعياذ بالله ـ إلى الإعجاب بالنفس، ثم الغرور .

ولعل ذلك هو بعض السر فى دعوة الإسلام إلى البعد عن مواطن التهم ، من خلال بيان وجه الحق فى سائر التصرفات المباحة، التى ربما تؤدى إلى سوء الظن .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب فى الأمل وطوله ٨ / ١١٠ من حديث على موقوفا عليه به .

(٢) الأثر أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين ٣ / ٢٠٧ .

(٣) الأبيات أوردها الإمام النووى فى : مقدمته لكتاب رياض الصالحين ص ٢ دون أن يعزوها لأحد .

عن صفية بنت حيى زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها، أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره فى اعتكافه فى المسجد ، فى العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنقلب ، فقام النبى ﷺ يقلبها ، حتى إذا بلغت المسجد عند باب أم سلمة مرّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما النبى ﷺ : « على رسلكما، إنما هى صفيّة بنت حيى»، فقالا: سبحان الله، يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبى ﷺ : « إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا »[1] .

وصلى يزيد بن الأسود مع النبى ﷺ وهو غلام شاب ، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا فى ناحية المسجد ، فدعا بهما ، فجىء بهما ترعد فرائصهما ، فقال : « مامنعكما أن تصليا معنا ؟» قالا: قد صلينا فى رحالنا، فقال: « لا تفعلوا ، إذا صلى أحدكم فى رحله، ثم أدرك الإمام، ولم يصل، فليصل معه، فإنها له نافلة »[2] .

ولذا قال ابن دقيق العيد : « وهذا ـ أى التحرز من كل ما يوقع فى التهم ـ متأكد فى حق العلماء ، ومن يُقتدى بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم ، وإن كان لهم فيه مخلص ؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، وقد قالوا : إنه ينبغى للحاكم أن يبين وجه الحق للمحكوم عليه إذا خفى عليه ، وهو من باب نفى التهمة بالنسبة إلى الجور فى الحكم »[3] .

٨ ـ مبالغة بعض العاملين فى إخفاء ما يصدر عنهم من أعمال :

وقد يكون السبب فى الغرور إنما هى مبالغة بعض العاملين فى إخفاء ما يصدر عنهم من أعمال، ذلك أن بعض العاملين قد يحمله الحرص على تحقيق معنى الإخلاص

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتكاف : باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ؟ ٣ / ٦٤ ، ٦٥ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب السلام : باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما له ... إلخ ١٧١٢/٤، ١٧١٣ رقم (٢١٧٥) من حديث صفية ﵂ مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فيمن صلى فى منزله ثم أدرك الجماعة يصلى معهم ١٥٧/١ رقم (٥٧٥)، والترمذى فى: السنن: كتاب الصلاة : باب ما جاء فى الرجل يصلى وحده ثم يدرك الجماعة ١ / ٤٢٤ ـ ٤٢٦ رقم (٢١٩)، وعقب عليه بقوله : « حديث يزيد بن الأسود حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى : السنن : كتاب الإمامة : باب إعادة الصلاة مع الجماعة بعد صلاة الرجل لنفسه ٢ / ١١٢ رقم (٨٥٧) من حديث يزيد بن الأسود ﵁ مرفوعا به .

(٣) انظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٢ / ٥٧ ، وعنه نقل ابن حجر فى فتح البارى ٤ / ٢٨٠ .

إلى أن يبالغ فى إخفاء ما يصدر عنه من عمل، فلا يظهر منه إلا أقل القليل ، وربما لاحظ أو رأى بعض من لم تنضج تربيتهم بعد، هذا الذى يظهر فقط، فيتوهم أن عمل هؤلاء قليل فى جنب عمله، ويظل هذا الوهم يساوره ويلحّ عليه، حتى يقع فى أحبولة الإعجاب بالنفس ثم الغرور.

ولعلّ دعوة الإسلام إلى إبراز الأعمال الطيبة ، والتعرض بها للناس ـ فوق كونها تحريضا لهم على الاقتداء والتأسى ـ فيها إشارة إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث ، مع بيان طريق الخلاص منه ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » [(١)] . « من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعد، من غير أن ينقص من أجورهم شىء . . . » [(٢)] الحديث .

٩ ـ تفرقة بعض ذوى الأسوة والقدوة فى معاملة المتأسين أو المقتدين:

وقد يكون السبب فى الغرور إنّما هى : تفرقة بعض ذوى الأسوة والقدوة فى معاملة المتأسّين أو المقتدين ؛ ذلك أن بعض ذوى الأسوة والقدوة، قد يغيب عن بالهم الأسلوب الأمثل فى معاملة المتأسين أو المقتدين، فتراهم يقربون البعض ويفسحون صدورهم له ، ويتغاضون عن هفواته وأخطائه ، فى الوقت الذى يعرضون فيه عن البعض الآخر ، ويضيقون به ذرعا، ويفتحون عيونهم على أدنى الهفوات والزلات التى تقع منه ، وربّما كان فى الصنف الأول من لم تكتمل تربيتهم ، ولم تنضج شخصياتهم بعد، ويشاهد هذه التفرقة فى المعاملة ، فيخطر بباله أنها نابعة مما لديه من إمكانات ومواهب لا توجد عند الآخرين ، ويظلّ هذا الخاطر يلحّ عليه ، حتى يكون الإعجاب بالنفس ، ثم الغرور .

ولقد سدّ النبى ﷺ هذا الباب من خلال حرصه على معاملة أصحابه بالسوية ، إذ

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلاة : باب فضل صلاة الجماعة ١ / ١٦٥ ، ١٦٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب فضل صلاة الجماعة ١ / ٤٥٠ ، ٤٥١ رقم (٦٥٠) من حديث ابن عمر مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب الحث على الصدقة ٢/٧٠٤ ـ ٧٠٦ رقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى مرفوعا به ، وبنحوه .

كان من هديه ﷺ كما يقول واصفوه : « يعطى كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أنّ أحدا أكرم عليه منه » (١) .

ويوم أن كانت الحاجة تلجؤه ﷺ إلى التفريق فى المعاملة ولا يفهم جليسه الحكمة من وراء ذلك، كان يبين صراحة، إذ يروى سعد بن أبى وقاص فيقول :

أعطى رسول ﷺ رهطا ، وأنا جالس ، فترك رجلا هو أعجبهم إلىّ ، فقلت : يا رسول الله، مالك عن فلان، فو الله إنى لأراه مؤمنا ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام: « أو مسلما » فسكتّ قليلا، ثم غلبنى ما أعلم منه، فعدت لمقالتى، فقلت: مالك عن فلان، فو الله إنّى لأراه مؤمنا ، فقال : « أو مسلما »، ثم غلبنى ما أعلم منه ، فعدت لمقالتى، وعاد رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا سعد، إنّى لأعطى الرجل، وغيره أحبّ إلىّ منه ، خشية أن يكبّه الله فى النار » (٢) .

ثالثا : آثار الغرور :

وللغرور آثار سيئة، وعواقب خطيرة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، وإليك بعض هذه الآثار وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثاره على العاملين فوق ما قدّمنا فى آفة الإعجاب بالنّفْس :

١ ـ الوقوع فى غوائل المراء والجدل :

أىْ أنَّ الأثر الأول الذى يتركه الغرور على العاملين إنما هو الوقوع فى غوائل المراء والجدل، ذلك أن المغرور ـ لحبِّه لذاته ، ورؤيته لعمله ، واحتقاره لأعمال الآخرين ـ يحاول دائما الانتصار لنفسه، والغلبة لها بالحق أو بالباطل، ويزين له الشيطان أن أفضل وسيلة توصل إلى ذلك إنَّما هى المراء والجدل، وينطلى عليه هذا التَّزيين، فيقع فيه، وحينئذ تَضيع عليه الأوقات، ويذهب العمر سُدى، وذلك هو الضلال والضياع .

(١) الحديث جزء من حديث مطوّل أخرجه الترمذى فى : الشمائل المحمدية : باب ما جاء فى خلق رسول الله ﷺ ص ١٨ ـ ٢٣ من حديث سفيان بن وكيع ، عن جميع بن عمير بن عبد الرحمن ، عن رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة ، عن الحسن بن على بن أبى طالب ﷺ به ، وإسناده ضعيف لضعف سفيان وجميع ، وجهالة الرجل الذى من بنى تميم ، إلا أنّ له شواهد أخرى تجبر هذا الضعف ، وترفعه إلى درجة القبول .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ١/١٣، ١٤ ، من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه مرفوعا به .

وقد لفت النبيﷺ النظر إلى ذلك فقال : « ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » [(١)] .

كما حضَّ على التحرر من المراء والجدل بأوجز عبارة، وألطف أسلوب فقال: « أنا زعيم ببيت في ربض الجنَّة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنَّة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت في أعلى الجنَّة لمن حسن خلقه» [(٢)] .

٢ ـ الوقوع في حبائل التكبُّر في الأرض بغير الحقِّ :

وأمَّا الأثر الثاني الذي يؤدي إليه الغرور فإنَّما هو الوقوع في حبائل التَّكبُّر في الأرض بغير الحقِّ ، ذلك أن الغرور حين يتمكَّنُ من النَّفس يتحوَّل من مجرد استصغار واحتقار ما يصدر عن الآخرين من أعمال ، إلى ترفُّع وتعالٍ على هؤلاء ، وللترفع والتعالي أو التكبر عواقب وخيمة وآثار ضارَّة ، وسنقف عليها بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ أثناء الحديث عن آفة التكبر .

٣ ـ الاستبداد بالرأي :

وأمّا الأثر الثالث الذي يترتَّب على الغرور فإنَّما هوالاستبداد بالرأي ، ذلك أن المغرور لرؤيته نفسه ، ويعتقد أن ما يصدر عنها سدادٌ لا خطأ فيه ، وأنَّ ما يصدر عن الآخرين خطأ لا سداد فيه، ومثل هذا إذا دعي إلى حق عزَّ عليه النزول عليه، والإذعان له فيبقى مستبدا برأيه، واستبداده برأيه يجعله يعيش حياته غارقا في الأخطاء ، حتى يهلك مع الهالكين .

ب ـ على العمل الإسلامي :

وأمّا آثاره على العمل الإسلامي فتتلخص في :

١ ـ سهولة اختراقه من قبل أعداء الله ، الأمر الذي يؤدي إلى ضربه ، أو على الأقل إجهاضه ، فلا يؤتي ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب «ومن سورة الزخرف » ٥/٣٥٣ رقم (٣٢٥٣) وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار. . .إلخ»، وابن ماجه في : السنن : المقدمة : باب اجتناب البدع والجدل ١/١٩ رقم (٤٨) ، كلاهما من حديث حجاج بن دينار، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة مرفوعا به.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق ٤/٢٥٣ رقم (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة مرفوعا به ، وأورده الألباني في: سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٧٣) معزوا إلى أبي داوُد، وأشار إلى أن في إسناده مَنْ لا يعرف، لكنه أورد له شواهد ترفعه إلى مرتبة الحديث الحسن.

٢ ـ انقلاب العامة والبسطاء من الناس عليه، ونيلهم منه لاسيَّما في أوقات الشدائد والمحن ؛نظرا لأنهم لم يروا من المنتسبين إليه إلا غرورا يتجلى في الازدراء والاحتقار لأعمالهم حتى وإن كانت خيرا،وهذا وحده فيه ما فيه.

رابعا: مظاهر الغرور :

ويدل على الغرور عدةً مظاهر ، نذكر منها :

١ ـ دوام التحقير والتسفيه لأعمال الآخرين حتى وإن كانت خيرا .

٢ ـ كثرة الحديث عما يصدر عن النَّفس من أعمال، مع مدحها والرَّفع من شأنها.

٣ ـ صعوبة الإذعان والانقياد للحق ، حتى وإن كان صادراً عمن هو أهل له .

خامسا : علاج الغرور :

هذا ، ويمكن علاجُ النَّفْس من الغرور ، بل ووقايتها من أن تُبْتَلى به مرَّةً أخرى، وذلك باتباع الأساليب والوسائل التالية :

١ ـ الوقوف على العواقب والآثار المترتبة على الغرور؛ فإن الوقوف على ذلك مما يحرِّك النَّفس من داخلها، ويجعلها ـ إن كان لا يزال فيها خير ـ تسعى جاهدة للتخلص من هذا الداء، قبل أن يأتي يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وقبل أن تَتمنى الرجعة إلى الدنيا لتدارك التقصير فلا تجاب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[المؤمنون].

٢ ـ التنبيه إلى ضرورة التوسط والاعتدال في كل شيء ، حتى في الطّاعات والمباحات ، لئلا يكون هناك غرور أو قعود .

٣ ـ التذكير بأن الأعمال وإن كانت ضرورة لابد منها ؛ فإنَّها ليست سبب النَّجاة حتى يعوِّل العبد عليها،وإنَّما النَّجاة محض تفضُّل من الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يشير إلى ذلك التعبير بالإدخال في كثير من آي القرآن الكريم، إذ يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء]. ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الحج: ١٤، ٢٣] .... إلخ.

وكما يشير إلى ذلك الحديث الذى ذكرنا فى أسباب الغرور : « لن ينجى أحداً منكم عملُه . . . » الحديث [١] .

٤ ـ دوام النظر فى كتاب الله ـ عز وجلَّ ـ وسنة النبىﷺ ؛ فإن ذلك يطلعنا على سير وأخبار الأنبياء والصالحين ، وكيف كانوا يخافون من الهفوات أن تقع منهم ، مع أن رصيدهم من الطاعات ضخم وكبير حتى نقتدى ونتأسى .

حكى القرآن عن آدم وحواء قولهما : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] . وحكى عن نوح قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود] . وحكى عن إبراهيم قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء]. وغير هذا كثير.

٥ ـ الوقوف على سير وأخبار السَّلف مِنْ هذه الأمَّة ، حيث كانوا يعملون العمل الكثير، المراعى فيه الصدق والإخلاص، ثم لا يعوِّلون عليه، بل إنَّهم ليتَّهَمون أنفسهم فى كثير من الأحوال ؛ فإن ذلك مما يحرِّك العواطف ، والأحاسيس للاقتداء أو على الأقل المحاكاة . جاء عن أبى بكر الصدِّيق صاحب النبىﷺ ورفيقه فى الغار ، وأكمل هذه الأمَّة إيمانا بعد نبيِّهاﷺ قوله: « لو يعلم الناس ما أنا فيه لأهالوا على التراب ».

ولما حضرت الشافعى الوفاةُ، سأله بعض الأصحاب، قائلاً له : « كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ » فأجابه ـ وهو الذى وصفه تلميذه أحمد بن حنبل بأنَّه كان كالشمس للدنيا والعافية للناس ـ بقوله : « أصبحت عن الدنيا راحلا، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، وعلى الله عزَّ وجل واردا ، ولا أدرى أيؤمر بى إلى الجنَّة ، أو يؤمر بى إلى النَّار ، ثم أنشد :

ولماَّ قسا قلبى ، وضاقت مذاهبى ... جعلتُ الرَّجا منى لعفوك سلَّما

تعاظمنى ذنبى فلمَّا قرنته ... بعفوك ربِّى كان عفوك أعظما

٦ ـ التوجيه إلى الاشتغال بأمَّهات وأصول المسائل، مع الإعراض عن الشواذِّ والغرائب؛ لما فى ذلك من الحفاظ على الأوقات ،والانتفاع بالأعمار.

٧ ـ مقاطعة المغترين، والابتعاد عن صحبتهم، مع الارتماء فى أحضان العارفين

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٠ .

بربِّهم المقدرين له حقَّ قدره، الذين يعملون العمل، ولا يَتَّكِلُونَ عليه، خشية أن يكون قد وقع منهم ما يحول دون قبوله، على النَّحو الذى قدمنا فى مدح الحق سبحانه وتعالى لهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُون ... ﴾ الآيات [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] .

٨ ـ محاسبة النفس أولا بأوَّل ، وتأديبها حتى تقلع عن كل الأخلاق الذميمة ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الكيِّس مَنْ دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانى » (١) .

٩ ـ متابعة الآخرين له ، وقيامهم بواجبهم نحوه من النَّصيحة مقرونة بشروطها وآدابها ثم حمله ـ بمختلف الأساليب ـ على قبول هذه النصيحة ، وتنفيذها مهما كانت شاقة أو صعبة .

١٠ ـ التأخير عن المواقع الأمامية ، ولو لفترة من الزمان حتى يبرأ من هذه الآفة وتعود نفسه إلى فطرتها وإشراقها .

١١ ـ اتباع المحيطين به للآداب الشرعية فى الثناء والاحترام والانقياد ، حتى يقطع الطريق على الشيطان ، وتستأصل من النفس هذه الآفة .

١٢ ـ حرص المحيطين به على إبراز بعض الأعمال الطيبة أمام المبتلين بداء الغرور؛ لئلا ينفرد بهم الشيطان ويهلكهم .

١٣ ـ حرص ذوى الأسوة والقدوة على معاملة المقتدين أو المتأسِّين بالسويَّة ؛ لئلا يبقى للشيطان مسلك إلى النَّفس ، فتسلم من وسوسته وكيده.

١٤ـ الاستعانة بالله ـ عزَّ وجل ـ فإنَّه سبحانه يعين من دعاه ، ولجأ إليه ولاذ به ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له ٢ / ١٤٢٣ رقم (٤٢٦٠) من حديث أبى يعلى شداد بن أوس مرفوعا به .



الآفة السابعة

التكبر

والآفة السابعة التى تصيب بعض العاملين، وهى ذات أثر خطير فى حياتهم ، وعليهم أن يجاهدوا أنفسهم للتطهر منها ، بل وأن تصير لديهم حصانة ضدها ، إنّما هى : آفة التكبر .

وحتى يكون حديثنا عن هذه الآفة واضحا ، محدّد الأبعاد والمعالم ، فإنّنا سنتناولها على النحو التالى:

أولا : معنى التكبر :

لغة : التكبّر فى اللغة هو: التعظم، أى إظهار العظمة، قال صاحب اللسان: «والتكبّر، والاستكبار : التعظم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الاعراف : ١٤٦] . أى : أنهم يرون أنهم أفضل الخلق ، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم» [١] .

اصطلاحا : أما فى اصطلاح الدعاة أو العاملين ، فإن التكبّر هو : إظهار العامل إعجابه بنفسه بصورة تجعله يحتقر الآخرين فى أنفسهم ، وينال من ذواتهم ، ويترفع عن قبول الحق منهم .

جاء فى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر» قال رجل : إن الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : «إن الله جميل يحبّ الجمال ، والكبر بطر الحقّ ، وغمط الناس» [٢] .

ثانيا : الفرق بين التكبّر ، وبين العزّة :

والفرق بين التكبّر والعزّة واضح ، إذ التكبّر ترفع بالباطل ، والعزّة ترفع بالحق،

---

(١) انظر : لسان العرب ٥ / ١٢٩ مادة : « كبر » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ١ / ٩٣ رقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعا به. ومعنى : « بطر الحق » : إنكار الحق ودفعه ترفعا وتجبّرا ، أما « غمط الناس » فإن معناه : احتقارهم. انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ /٨٣، ٣ /١٧١ .

أو أنّ التكبّر : نكران النعمة وجحودها ، والترفع : اعتراف بالنعمة وتحدّث بها ، على نحو ما تضمّنه الحديث المذكور آنفا .

ثالثا : أسباب التكبّر :

ولما كان التكبّر شدّة الإعجاب بالنفس، المؤدية إلى احتقار الناس، والترفع عليهم، فإنّ أسبابه التى تؤدى إليه ، وبواعثه التى ينشأ منها ، هى بعينها : أسباب وبواعث الإعجاب بالنفس ، والغرور ، إذا أهملت ولم تعالج ، وهى لاتزال فى مهدها ، أو فى أوائلها ، ويزاد عليها :

١ ـ مبالغة الآخرين فى التواضع :

فقد يكون السبب أو الباعث على التكبّر : إنّما هى مبالغة الآخرين فى التواضع ، وهضم النفس ، ذلك بعض الناس قد تحملهم المبالغة فى التواضع على ترك التجمل والزينة فى اللباس ونحوه ، وعلى عدم المشاركة بفكر أو برأى فى أىّ أمر من الأمور ، بل والعزوف عن التقدم للقيام بمسئولية ، أو تحمّل أمانة ، وقد يرى ذلك من لم يدرك الأمور على حقيقتها ، فيوسوس له الشيطان ، وتزين له نفسه ، أن عزوف الآخرين عن كل ما تقدم إنما هو للفقر أو لذات اليد ، وإلا لما تأخروا أو توانوا لحظة ، وتظلّ مثل هذه الوساوس ، وتلك التزيينات تلحّ عليه وتحيط به من هنا وهناك ، حتى ينظر إلى الآخرين نظرة ازدراء وسخرية ، فى الوقت الذى ينظر فيه إلى نفسه نظرة إكبار وإعظام، وقد لا يكتفى بذلك ، بل يحاول إبرازه فى كل فرصة تتاح له ، أو فى كلّ مناسبة تواتيه ، وهذا هو التكبّر .

وقد لفت القرآن الكريم والسنّة النبوية النظر إلى هذا السبب، أو إلى هذا الباعث من خلال دعوتهما إلى التحدّث بنعمة الله تعالى ، إذ يقول سبحانه : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** (١١) ﴾ [الضحى] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » [(١)] . « واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا » [(٢)] .

وعن مالك بن نضلة الجشمي قال : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون ، فقال : «ألك

(١) سبق تخريجه ص ١٠٣ .

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى : تفسير سورة « الضحى » ٤ / ٥٢٣ دون أن يعزوه إلى أى من كتب الحديث .

مال ؟ » قال: نعم، قال: « من أى المال ؟ »، قال: قد آتانى الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرقيق، قال: « فإذا أتاك الله مالا، فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته »[(١)].

وقد فهم السلف ذلك ، فحرصوا على التحدث بما يفيض الله عليهم من نعم، وعابوا على من يغفل هذا الأمر من حسابه .

قال الحسن بن على ﷺ : إذا أصبت خيرا ، أو عملت خيرا فحدّث به الثقة من إخوانك [(٢)] .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : من أعطى خيرا فلم يُرَ عليه ، سمّى بغيض الله، معاديا لنعم الله [(٣)] .

٢ ـ اختلال القيم أو معايير التفاضل عند الناس :

وقد يكون السبب أو الباعث على التكبّر إنما هو اختلال القيم أو معايير التفاضل عند الناس ، ذلك أن الجهل قد يسود فى الناس إلى حد اختلال القيم أو معايير التفاضل عندهم ، فتراهم يفضّلون صاحب الدنيا ، ويقدمونه حتى لو كان عاصيا أو بعيدا عن منهج الله ، فى الوقت الذى يحتقرون فيه البائس المسكين الذى أدارت الدنيا ظهرها له ، حتى وإن كان طائعا ملتزما بهدى الله، ومن يحيا فى هذا الجو ، ويتأثر به لا محالة ـ إلا من رحم الله ـ ويتجلى هذا التأثر فى احتقار الآخرين والترفع عليهم .

وقد ألمح القرآن والسنّة إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث من خلال رفض هذا المعيار ، ووضع المعيار الصحيح مكانه ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾ [المؤمنون]. ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۝٣٧ ﴾ [سبأ] .

وإذ يقول النبى ﷺ لأصحابه، وقد مرّ عليه رجل: «ما تقولون فى هذا الرجل ؟ » قالوا: رأيك فى هذا، نقول: هذا من أشرف الناس، هذا حرىٌ إن خطب أن يُخَطَّبَ،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب اللباس : باب فى غسل الثوب وفى الخلقان ٤/ ٥١ رقم (٤٠٦٣) من حديث أبى الأحوص ، عن أبيه ، مرفوعا به .

(٢، ٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٠ / ١٠٢ .

وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يُسمع لقوله، فسكت النبىﷺ. ومرّ رجل آخر، فقال النبىﷺ: « ما تقولون فى هذا ؟» قالوا : نقول والله يا رسول الله، هذا من فقراء المسلمين، هذا حرىٌ إن خطب لم ينكحْ، وإن شفع لا يشفَّع، وإن قال لا يُسمع لقوله، فقال النبىﷺ: « لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[1].

٣ ـ مقارنة نعمته بنعمة الآخرين ونسيان المنعم :

وقد يكون السبب فى التكبر إنّما هو مقارنة نعمته بنعمة الآخرين ونسيان المنعم، ذلك أن مِنَ الناس مَنْ يحبوه الله ـ لحكمة يعلمها ـ بنعم يحرم منها الآخرين، كالصحة، أو الزوجة أو الولد، أو المال، أو الجاه والمركز، أو العلم، أو حسن الحديث، أو الكتابة أو التأليف، أو القدرة على التأثير، أو كثرة الأنصار والاتباع ... إلخ، وتحت بريق وتأثير هذه النعم، ينسى المنعم، ويأخذ فى الموازنة أو المقارنة بين نعمته ونعمة الآخرين، فيراهم دونه فيها، وحينئذ يحتقرهم، ويزدريهم، ويضع من شأنهم، وهذا هو التكبّر .

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا السبب، أو إلى هذا الباعث، من خلال حديثه عن قصّة صاحب الجنّتين، فقال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾

[الكهف]

٤ ـ ظنّ دوام النعمة أو عدم التحوّل عنها :

وقد يكون السبب فى التكبّر إنّما هو ظنّ دوام النعمة أو عدم التحوّل عنها، ذلك أن بعض الناس قد تأتيه النّعمة من الدنيا، وتحت تأثيرها وبريقها يظنّ دوامها أو عدم التحول عنها، وينتهى به هذا الظن إلى التكبر أو الترفع أو التعالى على عباد الله، كما قال صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] .

وكما قال الله عن الإنسان : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

---

[1] الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزّهد : باب فضل الفقراء ٢ / ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ رقم (٤١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى ﷺ مرفوعا به .

٥ ـ السّبق بفضيلة أو أكثر من الفضائل :

وقد يكون السبب فى التكبّر إنّما هو السبّق بفضيلة أو أكثر من الفضائل، كالعلم ، أو الدعوة ، أو الجهاد ، أو التربية أو نحو ذلك ، ذلك أن بعض الناس قد يحبوهم القدر بفضيلة السبق فى بعض خصال الخير وإذا بهم ينظرون إلى اللاحق نظرة ازدراء واحتقار، ولسان حالهم أو مقالهم ينطق فى استكبار : ومن هؤلاء الذين يعملون الآن ؟ لقد كانوا عدما أو فى حكم العدم يوم أن مشينا على الأشواك، وتحملنا مشاق ومتاعب الطريق، حتى عبّدناها لهم ولغيرهم من الناس .

وقد لفت المولى ـ سبحانه ـ إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث حين بين : أن السَّبق لا يعتبر، ولا قيمة له، إلا إذا كان معه الصّدق، فقال : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة] . ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] .

ولم ينظر المولى سبحانه إلى سبق هؤلاء إلا من خلال ما قدموه من الأدلة على صدقهم وثباتهم على الحق ، مثل : الهجرة ، والنصرة ، واتباع سبيل المؤمنين ، وحسن الصلة بالله ، ومعرفة الفضل لذويه . . . وهلمّ جرّا.

وهكذا صار مبدأ الإسلام : « ليس الفضل لمن سبق ، بل لمن صدق » .

وصدق الله: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

٦ ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على التكبّر :

وقد يكون السبب فى التكبّر ، إنما هى الغفلة عن الآثار الخطيرة ، والعواقب المهلكة المترتبة على التكبّر فى الأرض بغير الحق ، ذلك أن من غفل عن الآثار الضارة لعلّة من العلل ، أو آفة من الآفات ، فإنه يصاب بها ، وتتمكن من نفسه ، ولا يشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان ، وبعد الاستعصاء على القلع والعلاج .

رابعا : مظاهر التكبّر :

هذا وهناك مظاهر للتكبّر ، يعرف أو يستدلّ عليه بها ، نذكر منها :

١ ـ الاختيال فى المشية، مع لىّ صفحة العنق، وتصعير الخدّ ، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج : ٩] ، ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد]، ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾ [لقمان].

٢ ـ الإفساد فى الأرض عندما تتاح الفرصة مع رفض النصيحة، والاستنكاف عن الحق، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة] .

٣ ـ التقعر فى الحديث ، يقول النبى الكريم ﷺ : « إنّ الله ـ عز وجل ـ يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه ، كما تخلل الباقرة بلسانها » [(١)] ، « ألا أنبئكم بشراركم ؟ » فقال : « هم الثرثارون المتشدقون . . . » [(٢)] .

٤ ـ إسبال الإزار بنية الاختيال والتكبّر ، يقول النبى ﷺ : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » قال أبو بكر : إن أحد جانبى إزارى يسترخى ، إنى لأتعاهد ذلك منه، قال : « لست ممّن يفعله خيلاء » [(٣)] .

٥ ـ محبة أن يسعى الناس إليه ، ولا يسعى هو إليهم ، وأن يمثّلوا له قياما إذا قدم أو مرّ بهم، وقد جاء فى الحديث : « من أحبّ أن يُمَثَّل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار » [(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب ما جاء فى المتشدق فى الكلام ٤/ ٣٠١، ٣٠٢ رقم (٥٠٠٥) عن محمد بن سنان الباهلى العوقى، والترمذى فى: السنن: كتاب الأدب: باب ما جاء فى الفصاحة والبيان ٥/ ١٢٩، ١٣٠، رقم (٢٨٥٣) عن محمد بن عبد الأعلى، عن عمر بن على المقدمى وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه »، وأحمد فى: المسند (الفتح الربانى ١٩ / ٢٧١) عن يزيد، كلهم عن نافع بن عمر، عن بشر بن عاصم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبى ﷺ مرفوعا به. والذى يتخلل بلسانه: هو الذى يتشدق فى الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها. انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٧٣ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى: المسند (الفتح الربانى ١٩ / ٢٧١) من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وعقب عليه صاحب الفتح الربانى بقوله : « لم أقف عليه بهذا اللفظ لغير الإمام أحمد من حديث أبى هريرة، وسنده جيد ، وله شاهد من حديث أبى ثعلبة الخشنى فى : المسند أيضا ١٩ / ٧٦ » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب اللباس : باب ما جاء فى إسبال الإزار ٤ / ٥٦ ، ٥٧ رقم (٤٠٨٥) عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، مرفوعا به .

(٤) سبق تخريجه ص ٨١ .

٦ ـ محبّة التقدم على الغير فى المشى أو فى المجلس، أو فى الحديث ، أو نحو ذلك .

خامسا : آثار التكبّر :

وللتكبّر في الأرض بغير الحقّ آثار ضارّة ، وعواقب مهلكة ، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى :

أ ـ على العاملين :

١ ـ الحرمان من النّظر والاعتبار :

أى أن الأثر الأول الذى يتركه التكبّر على العاملين : إنّما هو الحرمان من النظر والاعتبار ، ذلك أن المتكبر ـ بترفّعه وتعاليه على عباد الله ـ قد اعتدى من حيث يدرى أو لا يدرى على مقام الألوهية، ومثل هذا لابدّ له من عقوبات، وأوّل هذه العقوبات: الحرمان من النظر والاعتبار، فتراه يمر على آيات الله المبثوثة فى النفس وفى الكون، وهو فى إعراض تام عنها : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف) .ومن حرم النظر والاعتبار ، كانت عاقبته البوار والخسران المبين؛ لأنه سيبقى مقيما على عيوبه وأخطائه ، غارقا فى أو حاله ، حتى تنتهى الحياة، كما عقب النبى ﷺ حين قرأ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ إلى قوله : ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ عقب بقوله : « ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » [1] .

---

[1] الحديث جزء من حديث طويل أورده ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ من طريقين عن عطاء ، الأولى بلفظ : انطلقت أنا وابن عمر ، وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت : يا عبيد ، ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زر غبّا تزدد حبا. فقال ابن عمر: ذرنا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا، أتانى فى ليلتى حتى مسّ جلده جلدى ، ثم قال : « ذرينى أتعبّد لربّى ـ عزّ وجل» . قالت :فقلت : والله إنى لأحب قربك ، وإنى أحبّ أن تعبد ربّك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت : فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعنى أن أبكى ، وقد أنزل الله على فى هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ » ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »، والطريق الأخرى بنحوه ، ثم عزاهما ـ أى ابن كثير ـ إلى ابن مردويه، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم، وابن حبان .

وقد صرح المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا الأثر في قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

٢ـ القلق والاضطراب النفسى :

وأما الأثر الثانى الذى يتركه التكبّر على العاملين ؛ فإنّما هو القلق والاضطراب النفسى ، ذلك أن المتكبر يحبّ ـ إشباعا لرغبة الترفع والتعالى ـ أن يحنى الناس رءوسهم له، وأن يكونوا دوما فى ركابه ، ولأنّ أعزّة الناس وكرامهم يأبون ذلك ، بل ليسوا مستعدين له أصلا ، فإنّه يصاب بخيبة أمل ، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسى ، هذا فضلا عن أن اشتغال هذا المتكبّر بنفسه يجعله فى إعراض تام عن معرفة الله وذكره ، وذلك له عواقب أدناها فى هذه الدنيا : القلق والاضطراب النفسى .

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤] . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] .

٣ ـ الملازمة للعيوب والنقائص :

وأمّا الأثر الثالث الذى يتركه التكبّر على العاملين ، فإنّما هى ملازمة العيوب والنقائص، ذلك أن المتكبر لظنه أنه بلغ الكمال فى كل شىء لايفتّش فى نفسه، حتى يعرف أبعادها ومعالمها، فيصلح ما هو فى حاجة منها إلى إصلاح، ولا يقبل كذلك نصحا أو توجيها أو إرشادا من الآخرين ، ومثل هذا يبقى غارقا فى عيوبه ونقائصه ، ملازما لها إلى أن تنقضى الحياة ، ويدخل النار مع الداخلين : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف] . ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة] .

٤ ـ الحرمان من الجنّة :

وأمّا الأثر الأخير الذى يتركه التكبّر على العاملين ؛ فإنّما هو الحرمان من الجنة، وذلك أمر بدهى، فإن من يعتدى على مقام الألوهية، ويظل مقيما على عيوبه ورذائله، ستنتهى به الحياة حتما ، وما حصّل خيرا يستحق به ثوابا أو مكافأة، فيحرم الجنّة مؤبدا أو مؤقتا، وصدق الله ورسوله، إذ يقول الحق فى الحديث القدسى: « الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٧ رقم (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة مرفوعا به .

وإذ يقول النبى ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر...»[(١)].

«... ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتلّ جوّاظ مستكبر»[(٢)].

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثاره على العمل الإسلامى :

١ ـ قلّة كسب الأنصار بل والفرقة والتمزّق :

ذلك أن القلوب جبلت على حبّ من ألانَ لها الجانب، وخفض لها الجناح، ونظر إليها من دون لا من عل ، أمّا من ترفّع عليها واحتقرها أو ازدراها ونال منها ؛ فإنّها تبغضه، وتنفر منه، بل وتحاول الابتعاد عنه، وتكون العاقبة خواء ذات اليد من الأنصار من ناحية، ووقوع الفرقة والتمزّق بين من هو نصير وظهير بالفعل من ناحية أخرى .

ويوم ينتهى الأمر بالعمل الإسلامى إلى انعدام النصير من الخارج ، ووقوع الفرقة والتمزّق من الداخل ، فإنّه يسهل ضربه ، أو على الأقل إجهاضه، فلا يؤتى ثمره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل .

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا الأثر ، وهو يتحدث عن المنافقين فقال:

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون] .

وكذلك النبى ﷺ إذ يقول : « ... وإن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد »[(٣)].

٢ ـ الحرمان من العون والتأييد الإلهى :

ذلك أن الحق سبحانه مضت سنّته أنه لا يعطى عونه وتأييده ، إلا لمن هضموا نفوسهم حتى استخرجوا حظ الشيطان من نفوسهم ، بل حظ نفوسهم من نفوسهم، والمتكبرون قوم كبرت نفوسهم ، ومن كانت هذه صفته ، فلا حقّ له فى عون أو تأييد إلهى .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ١ / ٩٣ رقم (٩١) من حديث ابن مسعود مرفوعا به .

(٢) الحديث شطر من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب الكبر ٨ / ٢٤ من حديث حارثة بن وهب الخزاعى مرفوعا ، والجوّاظ هو : الجموع المنوع .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٨/٤، ٢١٩٩ رقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار مرفوعا به .

ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] . حيث ربط نصره لهم بحالهم التى كانوا عليها من المسكنة والتواضع وهضم النفس ، وكأن هذه الحال إذا انعدمت أو غابت غاب معها العون والتأييد .

سادسا : علاج التكبّر :

هذا وعلاج التكبّر ـ بحيث تطهر منه النفس ، ولا يعود إليها مرة أخرى ـ إنما يكون باتباع الأساليب ، والوسائل التالية :

١ ـ تذكير النفس بالعواقب والآثار المترتبة على التكبّر ، سواء أكانت عواقب ذاتية أو متّصلة بالعمل الإسلامى ، وسواء أكانت دنيوية أو أخروية على النحو الذى قدمنا ، فلعلّ هذا التذكير يحرّك النفس من داخلها ، ويحملها على أن تتوب، وتتدارك أمرها قبل ضياع العمر وفوات الأوان .

٢ ـ عيادة المرضى ، ومشاهدة المحتضرين ، وأهل البلاء ، وتشييع الجنائز، زيارة القبور ، فلعل ذلك أيضا يحركه من داخله ، ويجعله يرجع إلى ربه بالإخبات، والتواضع .

٣ ـ الانسلاخ من صحبة المتكبّرين ، والارتماء فى أحضان المتواضعين المخبتين، فربما تعكس هذه الصحبة بمرور الأيام شعاعها عليه ، فيعود له سناؤه ، وضياؤه الفطرى كما عند ولادته .

٤ ـ مجالسة ضعاف الناس وفقرائهم ، وذوى العاهات منهم ، بل ومؤاكلتهم ومشاربتهم ، كما كان يصنع النبى ﷺ وصحبه الكرام ، وكثير من السلف ، فإن هذا مما يهذب النفس ، ويجعلها تقلع عن غيّها ، وتعود إلى رشدها .

٥ ـ التفكّر فى النّفس ، وفى الكون ، بل وفى كلّ النعم التى تحيط به من أعلاه إلى أدناه ، مَنْ مصدر ذلك كله ؟ ومَنْ ممسكه ؟وبأى شىء استحقَّه العباد ؟ وكيف تكون حاله لو سلبت منه نعمة واحدة ، فضلا عن باقى النعم ؟ فإن ذلك التفكّر لو كانت معه جدية ، يحرك النفس ويجعلها تشعر بخطر ما هى فيه ، إن لم تبادر بالتوبة والرجوع إلى ربها .

٦ ـ النظر فى سير وأخبار المتكبرين ، كيف كانوا ؟ وإلى أى شىء صاروا ؟ من إبليس والنمرود إلى فرعون ، إلى هامان ، إلى قارون ، إلى أبى جهل ، إلى أبى ابن خلف ، إلى سائر الطغاة والجبارين والمجرمين ، فى كل العصور والبيئات ، فإن ذلك

مما يخوف النفس ، ويحملها على التوبة والإقلاع ، خشية أن تصير إلى نفس المصير ، وكتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ وسنة النبى ﷺ وكتب التراجم والتاريخ خير ما يعين على ذلك .

٧ ـ حضور مجالس العلم التى يقوم عليها علماء ثقات نابهون ، لاسيّما مجالس التذكير والتزكية ، فإن هذه المجالس لا تزال بالقلوب حتى ترقّ وتلين، وتعود إليها الحياة من جديد .

٨ ـ حمل النفس على ممارسة بعض الأعمال التى يتأفف منها كثير من النّاس ممارسة ذاتية ما دامت مشروعة ، كأن يقوم هذا المتكبر بشراء طعامه وشرابه وسائر ما يلزمه بنفسه ، ويحرص على حمله والمشى به بين الناس ، حتى لو كان له خادم ، على نحو ما كان يصنع النبى ﷺ وصحبه ، والسلف ، فإن هذا يساعد كثيراً فى تهذيب النفس وتأديبها ، والرجوع بها إلى سيرتها الأولى الفطرية ، بعيداً عن أى التواء أو اعوجاج .

٩ ـ الاعتذار لمن تعالى وتطاول عليهم بسخرية أو استهزاء ، بل ووضع الخدّ على التراب وإلصاقه به ، وتمكينه من القصاص ، على نحو ما صنع أبو ذرّ مع بلال لما عاب عليه النبى ﷺ تعييره بسواد أمه .

١٠ ـ إظهار الآخرين نعمة الله عليهم ، وتحدثهم بها ـ لاسيّما أمام المستكبرين ـ علّهم يثوبون إلى رشدهم وصوابهم ، ويتوبون ويرجعون إلى ربهم ، قبل أن يأتيهم أمر الله .

١١ ـ التذكير دوما بمعايير التفاضل والتقدم فى الإسلام : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكوننّ أهون على الله ـ تعالى ـ من الجعلان» [(١)] .

١٢ ـ المواظبة على الطاعات : فإنها إذا وظب عليها، وكانت متقنة لا يراد بها إلا وجه الله ، طهّرت النفس من كل الرذائل ، بل زكتها وسمت بها إلى أعلى عليين : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

---

(١) الحديث أورده ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ٢١٧/٤ من حديث حذيفة به، وعزاه إلى أبى بكر البزار فى مسنده ، وأنه ـ أى البزار ـ عقب عليه بقوله: « لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه ».

١٣ ـ محاسبة النفس أولا بأول ، بحيث يعرف صاحب هذا الداء الحدّ الذى انتهى إليه علاجه ، وما فيه من نجاح أو قصور ، فينمى نواحى النجاح ، ويتدارك نواحى القصور .

١٤ ـ وأخيراً . . الاستعانة بالله ـ عزّ وجلّ ـ فإنّه ـ سبحانه ـ يعين من استعان به ، ويجيب دعاء المضطر إذا دعاه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل] .


الجزء الثانى

الآفة الثامنة
الرياء أو السمعة

والآفة الثامنة التى يبتلى بها بعض العاملين، والتى تعدّ من أخطر الآفات وأشدّها فتكا بهم، وعليهم أن يجاهدوا أنفسهم فورا للتخلّص والتطهّر منها وإلا ضل سعيهم فى الدنيا والآخرة ، إنما هى: « الرّياء أو السمعة ».

ولكى يكون لدينا تصورّ واضح، أو قريب من الواضح عن هذه الآفة، وآثارها، وسبيل الخلاص منها ، فإننا سنتناولها على النحو التالى :

أولا : مفهوم الرياء أوالسمعة :

الرياء والسمعة لغة : الرياء فى اللغة مشتق من الرؤية، تقول: أرأى الرجل: إذا أظهر عملا صالحًا ليراه الناس ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون]، ﴿ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

والسمعة مشتقّة من سمّع ، تقول : سمّع الناس بعمله، أى أظهره لهم بعد أن كان سرا [(١)] .

الرياء والسمعة اصطلاحا : أما مفهوم الرّياء والسمعة فى اصطلاح الدعاة ، وعلماء السلوك والأخلاق: فهو إطلاع المسلم الناس على ما يصدر منه من الصالحات طلبا للمنزلة والمكانة عندهم ، أو طمعا فى دنياهم ، فإن وقعت أمامهم ورأوها فذلك هو الرياء وإن لم تقع أمامهم لكنّه حدّثهم بها ، فتلك هى السمعة [(٢)] ، وفرّق العلامة عز الدين بن عبد السلام بين الرياء والسمعة قائلا :

« الرياء : أن يعمل لغير اللّه ، والسمعة : أن يخفى عمله للّه ، ثم يحدث به الناس »[(٣)] ، وكأنه يرى أن الرياء كلّه مذموم ، أما السمعة فقد تكون مذمومة إذا قصد

---

(١) لسان العرب ٨/ ١٦٥ ، ١٤/ ٢٩٦ بتصرف .

(٢) انظر : فتح البارى لابن حجر ١١/ ٣٣٦ بتصرف .

(٣) كلام العز بن عبد السلام هذا أورده ابن حجر فى الفتح ١١/٣٣٦ .

بالحديث عن عمله وجه الناس، ومحمودة إذا قصد بذلك وجه اللّه، وابتغاء مرضاته، وذلك الذى قاله ابن عبد السلام هو ما تصدقه النصوص الشرعية، إذ يقول اللّه ـ عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾

[البقرة : ٢٦٤]

وإذ يقول الرسول ﷺ: « من سمّع سمّع اللّه به، ومن يرائى يرائى اللّه به»[١]، « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر »، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللّه؟ قال: « الرّياء، يقول اللّه ـ عز وجلّ ـ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذى كنتم تراءون فى الدنيا، فانظروا: هل تجدون عندهم الجزاء؟ »[٢].

وإذ يسمع الرسول ﷺ رجلا يقرأ ويرفع صوته بالذكر، فيقول: « إنه أوّاب» فإذا هو المقداد بن الأسود[٣].

ثانيا : أسباب الرّياء أو السمعة :

هذا وللرياء أو السمعة أسباب أو بواعث توقع فيه وتؤدى إليه: نذكر منها :

١ـ النشأة الأولى :

إذ قد ينشأ الولد فى أحضان بيت دأبه وديدنه الرياء أو السمعة، فما يكون منه إلا التقليد والمحاكاة، وبمرور الزمن تتأصل هذه الآفة فى نفسه، وتصبح وكأنما هى جزء لا يتجزأ من شخصيته.

ولعلّ هذا هو السر فى وصية الإسلام بأن يكون الدين هو أساس اقتران الرجل بالمرأة، إذ يقول ﷺ: « فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٤]، و« إذا أتاكم من

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب الرياء والسمعة ٨/ ١٣٠، من حديث جندب، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد: باب من أشرك فى عمله غير اللّه ٤/ ٢٢٨٩ رقم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس، واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/٤٢٨، ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد به، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الإيمان: باب ما جاء فى الرياء ١/ ١٠٧، وعقب عليه بقوله: « رجاله رجال الصحيح ».

(٣) الحديث أورده ابن حجر فى: الفتح ١١/ ٣٣٧ من رواية ثابت عن أنس مرفوعا به، وعزاه إلى الطبرى.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى السنن: كتاب النكاح: باب ما يؤمر به من تزويج ذات الدين ٢/ ٢١٩ رقم (٢٠٤٧) من حديث أبى هريرة مرفوعاً به، والترمذى فى: السنن: كتاب النكاح: باب ما جاء أن المرأة تنكح على ثلاث خصال ٣/ ٣٩٦ رقم (١٠٨٦) من حديث جابر بنحوه، وعقب عليه بقوله: « حديث جابر حسن صحيح »، وابن ماجه فى: السنن: كتاب النكاح: باب تزويج ذات الدين ١/ ٥٩٧ رقم (١٨٥٨) من حديث أبى هريرة مرفوعا به، والدارمى فى السنن: كتاب النكاح: باب تنكح المرأة على أربع ٢/ ١٣٣، ١٣٤ من حديث أبى هريرة وجابر بن عبد اللّه رضي الله عنه مرفوعا به وبنحوه.

ترضون خلقه ودينه فزوّجوه »(١) .

٢ـ الصحبة أو الرفقة السيئة :

وقد تحتويه صحبة أو رفقة سيئة لا همّ لها إلا الرياء أو السمعة ، فيقلدهم ويحاكيهم لاسيّما إذا كان ضعيف الشخصية، شديد التأثر بغيره، وبتوالى الأيام يتمكن هذا الداء من نفسه ، ويطبعها بطابعه ، وذلك هو سرّ ما قدمناه فيما مرّ من آفات ، من ضرورة أن تكون الصحبة طيبة ، تحترم شرع الله وتعمل به .

٣ـ عدم المعرفة الحقيقية بالله ـ عزّ وجلّ :

وقد يكون عدم المعرفة الحقيقية باللّه ـ عزّ وجلّ ـ هو السبب أو الباعث على الرياء أو السمعة . . . إذ أن الجهل باللّه أو نقصان المعرفة به يؤدى إلى عدم تقديره حق قدره، ومن ثمَّ يظن هذا الجاهل باللّه الذى لم يعرفه حق المعرفة، ولم يقدّره حقّ قدره أنّ العباد يملكون شيئًا من الضرّ أو النفع، فيحرص على مراءاتهم وتسميعهم كل ما يصدر عنه من الصالحات ، ليمنحوه شيئا مما يتصوّر أنّهم مالكوه .

ولعلّ ذلك هو السرّ فى دعوة الإسلام إلى المعرفة باللّه أولا : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] بل وتطبيقه ذلك ، حيث دار القرآن المكى، وعمل الرسول ﷺ طوال المرحلة المكية حول التعريف بأصول العقيدة، وتأكيدها وترسيخها فى النفس.

٤ـ الرغبة فى الصدارة أو المنصب :

وقد تدفع الرغبة فى الصدارة أو فى المنصب إلى الرياء أو السمعة ، حتى يثق به من بيدهم هذا الأمر ، فيجعلوه فى الصدارة ، أو يبوئوه المنصب.

ولعلّ ذلك هو السرّ فى تأكيد الإسلام على اختيار أو ابتلاء الناس قبل الوثوق بهم أو الركون إليهم، لاسيما إذا كانوا على حال تدعو إلى ذلك، إذ يقول اللّه ـ عزّ وجلّ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء : ٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب النكاح : باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ٣/ ٣٩٥ رقم (١٠٨٥) من حديث أبى عبد الرحمن المزنىّ مرفوعا به، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسنٌ غريب، وأبو حاتم المزنى له صحبة، ولا نعرف له عن النبى ﷺ غير هذا الحديث » .

٥ـ الطمع فيما فى أيدى الناس :

وقد يحمله الطمع فيما فى أيدى الناس ، والحرص على الدنيا على الرياء أو السمعة ، ليثق به الناس وترقّ قلوبهم له ، فيعطونه ما يملأ جيبه ، ويشبع بطنه .

وفى سؤال الأعرابى للنبى ﷺ : والرجل يقاتل للمغنم . . .[(١)] ، وكذلك فى قوله ﷺ فى الحديث الآخر: « من غزا لا يبغى إلا عقالاً فله ما نوى »[(٢)] ما يشير إلى هذا السبب .

٦ـ إشباع غريزة حبّ المحمدة أو الثناء من الناس :

وقد يدعوه حب المحمدة أو الثناء من الناس إلى الرياء أو السمعة ، حتى يكون حديث كلّ لسان ، وذكر كلّ مجلس، فتنتفش نفسه وتنتفخ بذلك ـ والعياذ بالله .

وإلى هذا السبب يشير بقية الحديث المتقدم: . . .والرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليرى مكانه ، من فى سبيل الله ؟

٧ـ شدّة ذوى المسئولية فى المحاسبة :

وقد تكون شدّة ذوى المسئولية فى المحاسبة هى السبب فى الرياء أو السمعة لاسيما إذا كان هناك ضعف فى الإرادة وفتور فى العزيمة، وكأنه يحاول بهذا الرياء أو بهذه السمعة ستر ضعفه وفتوره .

وصدق رسول الله الذى لا ينطق عن الهوى ؛ إذ يقول لعائشة :« إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه »[(٣)] .

---

(١) الحديث جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الخمس : باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره ٤ /١٠٥ من حديث أبى موسى قال : قال أعرابى للنبى ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، ويقاتل ليرى مكانه ، من فى سبيل الله ؟ فقال:« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »، ومسلم فى :الصحيح : كتاب الإمارة : باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله٣/١٥١٢ ، ١٥١٣ رقم (١٩٠٤) وما بعده بنحو رواية البخارى .

(٢) الحديث أخرجه النسائى فى: السنن : كتاب الجهاد : باب من غزا فى سبيل الله ولم ينو من غزاته إلا عقالا ٦ / ٢٤ ، ٢٥ رقم (٣١٣٨) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « من غزا وهو لا يريد إلا عقالا فله ما نوى » ،والدارمى فى: السنن : كتاب الجهاد: باب من غزا ينوى شيئا فله ما نوى ٢/٢٠٨ بنحوه ، وأحمد فى: المسند ٥/٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٩ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح:كتاب البر والصلة والآداب: باب فضل الرفق ٤/٢٠٠٤ رقم (٢٥٩٤)، وأبو داود فى: السنن:كتاب الجهاد: باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو ٣/٣ رقم (٢٤٧٨) من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا به .

٨ ـ إظهار الآخرين إعجابهم به وبما يصدر عنه من أعمال :

وقد يكون إظهار الآخرين إعجابهم به ، وبما يصدر عنه من أعمال ، هو الباعث على الرياء أو السمعة ، كى يكون هناك مزيد من هذا الإعجاب .

وحتى يحمى الإسلام البشر من هذا الداء ، منع إبراز هذا الإعجاب ، فإن كان ولابد فليكن معه الاحتراز والحيطة بأن يقول: « أحسب فلانا كذا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً » (١) .

٩ـ الخوف من قالة الناس لاسيّما الأقران :

وقد يكون الخوف من قالة الناس ، لاسيما الأقران هو الباعث على الرياء أو السمعة، حتى يظهر أمامهم بالصورة التى ترضيهم، وتسكت ألسنتهم عنه، وإذا ما خلا بنفسه انتهك محارم الله : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء] .

١٠ـ الجهل أو الغفلة عن العواقب أو الآثار الناجمة عن الرياء أو السمعة :

وأخيراً قد يكون الجهل أو الغفلة عن العواقب أو الآثار الناجمة عن الرياء أو السمعة ، هى السبب فى مراءاة الناس أو تسميعهم ، فإن من جهل أو غفل عن عاقبة شىء ما ـ لاسيّما إذا كانت هذه العاقبة ضارة ـ تعاطى هذا الشىء ولازمه حتى يصير خلقا له .

ثالثا : سمات أو علامات الرياء أو السمعة :

وحتى يدرك المسلم موقعه من الرياء أو السمعة، فإن هناك سمات أو علامات يعرف بها ، وهذه السمات أو تلك العلامات هى :

١ـ النشاط فى العمل ومضاعفة الجهد ، إذا كان هناك ثناء أو مدح ، والكسل والتقصير إذا كان هناك عيب أو ذم .

٢ـ النشاط فى العمل ومضاعفة الجهد إذا كان مع الناس ، والكسل والتقصير حال التفرّد أو البعد عن الناس ، وإلى هاتين السمتين أو العلامتين يشير سيدنا على ﷺ فيقول: « للمرائى علامات : يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص إذا ذم » (٢) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول ، آفة « الإعجاب بالنفس » .

(٢) الأثر أورده الغزالى فى: إحياء علوم الدين ٣/ ٢٩٨ ، والذهبى فى: الكبائر ص ١٤٥ .

٣ـ الحفاظ على محارم اللّه ورعايتها إذا كان مع الناس ، وانتهاك هذه المحارم والتطاول عليها إذا كان وحده أو بعيدا عن الناس ، وإلى هذه السمة أو العلامة يشير النبى ﷺ قائلا : « لأعلمنّ أقواما من أمّتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها اللّه هباء منثورا، أما إنّهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم اللّه انتهكوها »[١] .

رابعًا: آثار الرياء أو السمعة :

وللرياء أو السمعة آثار ضارة ، وعواقب مهلكة ، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، وإليك طرفا من هذه الآثار ، وتلك العواقب :

أـ آثار الرياء على العاملين :

فمن آثاره على العاملين:

١ـ الحرمان من الهداية والتوفيق :

ذلك أن اللّه ـ عزّ وجلّ ـ هو وحده الذى يملك الهداية والتوفيق ، وهو وحده الذى يمنّ بهما على من يشاء، ويمنعهما عمّن يشاء، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، وقد مضت سنّته وجرى قضاؤه أنه لا يمنحهما إلا لمن علم منه الإخلاص، وصدق التوجّه إليه: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد] ، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]. والمرائى أو المسمّع، بدّد هذا الإخلاص، وضيّع ذلك الصدق، فأنّى له الهداية والتوفيق؟ وصدق اللّه الذى يقول : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

[الصف]

٢ـ الضيق أو الاضطراب النفسى :

ذلك أن المرائى أو المسمّع ، إنّما يفعل ما يفعل طلبا لمرضاة الناس وطمعا فيما بأيديهم، وقد يحول قضاء اللّه وقدره دون تحقيق ذلك؛ نظراً لأن الأمور عنده سبحانه تجرى بالمقادير: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد] ،وحينئذ يعتريه الضيق والاضطراب النفسى ، فلا هو بالذى ظفر برضا اللّه عزّ وجلّ ، ولا هو بالذى حصّل ما كان يؤمّله

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ٢ / ١٤١٨ رقم (٤٢٤٥) كما أورده النبهانى فى: الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ٣/ ٢، والألبانى فى : صحيح الجامع الصغير ٢/ ٨٩٧ رقم (٥٠٢٨) ، وكلهم من حديث ثوبان ﷺ ، مرفوعاً به .

ويرجوه من الناس: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] .

٣ـ نزع الهيبة من قلوب الناس :

ذلك أن اللّه وحده هو الذى يملك غرس هذه الهيبة فى قلوب من يشاء من عباده، بيد أن ذلك مرهون بتقديم الإخلاص بين يدى كل سلوك أو تصرف، والمرائى أو المسمّع أضاع هذه الرهينة ، فضيّع اللّه عليه الهيبة ، ونزعها من قلوب الناس ، فصار هيّنا عليهم: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

ولقد وعى السّلف ذلك ، فكانوا أحرص الناس على إخلاص العمل للّه، حتى تبقى هيبتهم ومكانتهم مستقرّة فى الصدور أو فى القلوب، والأخبار الواردة عنهم فى ذلك أكثر من أن تحصى ، وحسبنا منها ما أوصى به عمر بن الخطاب ﵁ أبا موسى الأشعرى إذ قال له : «من خلصت نيته، كفاه اللّه تعالى ما بينه وبين الناس »[١] .

وما أثر عن الحسن البصرى من كثرة مجاهداته لنفسه بالليل والناس نيام، ثم محاولة إخفاء ذلك عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى هابه ذوو السلطان والجاه .

فقد نال من الحجاج ـ ذات مرّة ـ لظلمه وطغيانه ،فوجه الحجّاج بعض شرطه، وأمرهم أن يأتوه به ليقتله، وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن ، فشخصت نحوه الأبصار، ووجفت عليه القلوب ، وأقبل على الحجاج ، وعليه جلال المؤمن، وعزة المسلم ، ووقار الداعية ، فلما رآه الحجاج على حاله هذه هابه أشدّ الهيبة ، وقال له : هاهنا يا أبا سعيد . . . هاهنا . . . ثم ما زال يوسّع له ويقول : هاهنا . . . والناس ينظرون إليه فى دهشة واستغراب ، حتى أجلسه على فراشه ، ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج ، وجعل يسأله عن بعض أمور الدين ، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت ، وبيان ساحر ، وعلم واسع ، فقال له الحجاج : أنت سيّد التابعين يا أبا سعيد ، ثم أذن له بالعودة إلى بيته معززاً مكرما[٢] .

٤ـ الإعراض من الناس وعدم التأثر :

ذلك أن القلب هو محل التأثر من الإنسان ، والقلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء ، ومن راءى أو سمّع بعمله ، فقد قطع ما بينه وبين اللّه ، وأنى لذلك أن يمنحه

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٤ /٣٧٨ .

(٢) صور من حياة التابعين للدكتور : عبد الرحمن الباشا ص ١٧ ـ ٢٢ بتصرف .

الله إقبالا من الناس ، أو تأثيرا فيهم ؛ لذا تراه إذا تكلم لا يسمع ، وإذا عمل لا يحرّك ، والحوار التالى يكشف لنا عن حقيقة ذلك بجلاء ووضوح :

كان عمر بن هبيرة الفزارى واليا على العراقين[1] فى عهد الخليفة الأموى: يزيد بن عبد الملك ،وكان يزيد يرسل إليه بالكتاب تلو الكتاب، ويأمره بإنفاذ ما فى هذه الكتب، ولو كان مجافيا للحق أحيانا .فدعا ابن هبيرة كلا من الحسن البصرى، وعامر ابن شراحيل المعروف بالشّعبى ، يستفتيهما فى ذلك، وهل له من مخرج فى دين الله ؟ فأجاب الشّعبى جوابا فيه ملاطفة للخليفة، ومسايرة للوالى ، والحسن ساكت فالتفت عمر بن هبيرة إلى الحسن، وقال : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ فقال : يا بن هبيرة ، خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، واعلم أن الله عزّ وجلّ يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله ... يابن هبيرة، إنّه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصى الله ما أمر ، فيزيلك عن سريرك هذا ، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، حيث لا تجد هناك يزيد ، وإنّما تجد عملك الذى خالفت فيه ربّ يزيد ... يابن هبيرة ، إنك إن تك مع الله تعالى وفى طاعته يكفك بائقة يزيد بن عبد الملك فى الدنيا والآخرة، وإن تك مع يزيد فى معصية الله تعالى ، فإن الله يكلك إلى يزيد، واعلم يا بن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق كائنا من كان فى معصية الخالق ـ عزّ وجلّ.

فبكى عمر بن هبيرة حتى بللت دموعه لحيته ، ومال عن الشعبى إلى الحسن، وبالغ فى إعظامه وإكرامه .

فلما خرجا من عنده توجها إلى المسجد، فاجتمع عليهما الناس،وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع أمير العراقين، فالتفت الشعبى إليهم، وقال : أيها الناس ، من استطاع منكم أن يؤثر الله ـ عزّ وجلّ ـ على خلقه فى كل مقام فليفعل ، فوالذى نفسى بيده ، ما قال الحسن لعمر بن هبيرة قولا أجهله ، ولكنى أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة، وأراد فيما قاله وجه الله، فأقصانى الله من ابن هبيرة وأدناه منه، وحببه إليه [2] . •

٥ـ عدم إتقان العمل :

ذلك أن المرائى أو المسمّع إنما يراقب الخلق لا الخالق، والخلق مهما كانت طاقاتهم

---

(١) الكوفة والبصرة : العراقان . انظر :لسان العرب ٢٤٨/١٠ مادة : « عرق » .

(٢) انظر : أبا نعيم فى حلية الأولياء ١٤٩/٢ ، ١٥٠ ، ومن طريقه أورده المزى فى تهذيب الكمال ١١٣/٦ ، ١١٤ ، وصور من حياة التابعين ص ٢٣ ـ ٢٧ بتصرف .

وإمكاناتهم، عاجزون عن المتابعة فى كل بيئة وفى كل وقت،وفى كل ظرف أو ملابسة؛ لذا فإن عجزهم هذا ينتهى بالمرائى أو بالمسمّع إلى عدم إتقان العمل ، الأمر الذى يفقده ثقة الناس ويكون بذلك قد ضيع نفسه من حديث أراد مصلحتها أو منفعتها ، وصدق الحق ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] .

ولقد أشار المولى ـ عزّ وجلّ ـ إلى هذا الأثر وهو يتحدث عن المنافقين فقال : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) ﴾ [النساء] .

٦ـ الفضيحة فى الدنيا ، وعلى رءوس الأشهاد يوم القيامة :

ذلك أن المرائى أو المسمّع إنما يقصد بعمله هذا خداع غيره ، ليعطيه هذا الغير زمامه ، وليسلم إليه قياده ، ويأبى الله ـ عز وجل ـ ذلك نظراً لما يمكن أن يصنعه هذا المرائى أو هذا المسمّع من إفساد في الأرض وإهلاك للحرث والنسل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة] .

لذا فإنه يفضحه فى الدنيا ولو بعد حين، حتى يحذره الناس، ولا يغتروا به . أما فى الآخرة فإن الفضيحة تكون مزيدا من الانتقام والعذاب .

وقد سبق التصريح بهذا السبب فى قول النبى ﷺ : « من سمّع سمّع الله به»[1] .

كما جاء التصريح به فى قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد سأله عن الجهاد والغزو : « يا عبد الله بن عمرو ، إن قاتلت صابرا محتسبا، بعثك الله صابرا محتسبا ، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا ، بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبد الله بن عمرو ، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تيك الحال »[2] .

٧ـ الوقوع فى غوائل الإعجاب بالنفس ، ثم الغرور، ثم التكبر :

ذلك أن المرائى أو المسمّع يخدع كثيراً من الناس فترة زمنية معينة ، وخلال هذه الفترة تلهج ألسنة الناس وأفئدتهم بحمده والثناء عليه ، وقد يحمله ذلك على الإعجاب بنفسه ، ثم الغرور ثم التكبر، ثم يعيث فى الأرض فسادا ، ويؤكد ذلك ما نشاهده فى

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١١٦ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الجهاد : باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ٣/ ١٤، ١٥ رقم (٢٥١٩) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعا به .

الوقت الحاضر من أن كثيرا من ذوى القيادة فى أمتنا، يسلكون سبيل الرّياء أو التسميع، حتى إذا انخدع بهم الدهماء والعامّة، وسبحوا بحمدهم، انقلبوا إلى معجبين بأنفسهم، ثم مغرورين ثم متكبرين،ثم سلطوا على الذين يفهمونهم منذ اللحظة الأولى يسومونهم سوء العذاب ، وأخيرا يسلطون على أولئك الذين ضيّعوهم ، فيأكلونهم ، وصدق اللّه العظيم الذى يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم] .

٨ ـ بطلان العمل :

ذلك أن الحق ـ سبحانه ـ مضت سنّته فى خلقه ألا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له ، وابتغى به وجهه : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف] .

والمرائى جعل لنفسه وللناس حظا من عمله ، وأنّى لذلك أن يقبل اللّه منه عملا ، أو أن يثيبه عليه، وصدق اللّه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] ، ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] .

وصدق النبىّ ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول اللّه ؟ قال : « الرياء ، يقول اللّه ـ عزّ وجل ـ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذى كنتم تراءون فى الدنيا،فانظروا : هل تجدون عندهم الجزاء »(١) .

ويقول اللّه تعالى فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى ، فأنا منه برىء، وهو للذى أشرك» (٢).

وهكذا ينتهى الرياء أوالسمعة بصاحبه إلى بطلان العمل وردّه، وعدم قبوله.

---

(١) الحديث اخرجه الإمام احمد فى: المسند ٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد به أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الإيمان : باب ما جاء فى الرياء ١/ ١٠٧ ، وعقب عليه بقوله : « رجاله رجال الصحيح »، وأخرج ابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد: باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٦ رقم (٤٢٠٣) نحوه من حديث أبى سعد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة، ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل له للّه فليطلب ثوابه من عند غير اللّه ، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك » .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٥ رقم (٤٢٠٢) من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به ، وأورده البوصيرى فى: مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة ٤ / ٢٣٦ وعقب عليه بقوله : «هذا إسناد صحيح رجاله موثقون، رواه ابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى ، ورواه أحمد بن منيع فى مسنده » .

٩ـ العذاب الشديد فى الآخرة :

وأخيرا، فإن من حبط عمله على النحو الذى قدمنا، ليس له من جزاء إلا العذاب الشديد فى الآخرة ، ولذلك العذاب صور، أبرزها صورتان :

الأولى : أنه يكون أول من تسعّر بهم النار، فإن وقودها كما قال اللّه فى كتابه: الناس والحجارة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

[التحريم : ٦]

ويقول النبى ﷺ : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة: رجل استشهد، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم ، وعلّمه ، وقرأ القرآن، فأتى به ، فعرّفه نعَمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ، ليقال : إنك عالم ، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى به فى النار، ورجل وسع اللّه عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلّه ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جوّاد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى به فى النار » (١) .

الأخرى : الإلقاء فى النار بحيث تخلع مفاصله وتتفكك أوصاله ، وتسقط أمعاؤه ويدور بها على مشهد ومرأى من أهل النار جميعا .

يقول النبى ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول: بلى ، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » (٢).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ٣/ ١٥١٣، ١٥١٤ رقم (١٩٠٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، والنسائى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب من قاتل ليقال فلان جرىء ٦/ ٢٣، ٢٤ رقم (٣١٣٧) بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ٤/ ٢٢٩٠ ، ٢٢٩١ رقم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن يزيد رضي الله عنهما مرفوعا به .

ب ـ آثار الرياء على العمل الإسلامي :

وإذا كان للرياء أو للسمعة تلك الآثار التى قدمنا على العاملين ، فإنها بدورها تنعكس على العمل الإسلامى ، وتتلخص هذه الآثار المتعلقة بالعمل الإسلامى فيما يأتى :

طول الطريق ، وكثرة التكاليف :

ذلك أن قوما أخلاقهم الرّياء ، وصفاتهم التسمّع لا يمكن أن يُمكّن لهم إلا بعد طول ابتلاء ، وكثرة تمحيص : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③ ﴾ [العنكبوت]. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑯ ﴾ [التوبة] .

خامساً : طريق علاج الرياء أو السمعة :

هذا ، والطريق لعلاج الرّياء أو السمعة تتلخّص فى :

١ـ تذكر عواقب الرياء أو السمعة الدنيوية والأخروية، على النحو الذى قدمنا آنفا، فإن ذلك له أثر كبير فى تحريك القلوب ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم إقلاعها عن هذه الآفة ، أو عن هذا الداء الخطير .

٢ـ الانسلاخ من صحبة المعروفين بالرياء أو بالسّمعة ، ثم الارتماء فى أحضان المخلصين الصادقين ، فإن ذلك له دوره فى إقلاع النفس عن هذه الآفة حتى تبرأ منها تماما .

٣ـ معرفة اللّه ـ عزّ وجلّ ـ حق المعرفة ، فإن هذه المعرفة تعين على تقدير اللّه حق قدره ، الأمر الذى يؤدى إلى التخلص من الرّياء أو السّمعة ، ثم التحلى بالإخلاص ، وسبيل ذلك معايشة الكتاب والسنّة .

٤ـ مجاهدة النفس ، حتى تهذب من الغرائز التى تُملى على الإنسان الرّياء أو السمعة ، والتى من جملتها الرغبة فى الصّدارة أو المنصب ، وكذلك الطمع فيما فى أيدى الناس ، وحبّ الثناء أو المحمدة .

٥ـ رفق ذوى المسئولية فى المحاسبة ، فإن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه، وما نزع من شىء إلا شانه .

٦ـ الالتزام بآداب الإسلام فى المعاملة ، فلا غلوّ فى الاحترام والتقدير ، ولا إهمال ولا تقصير ، وإنما هو الأمر الوسط ، وخير الأمور أوساطها .

٧ـ الوقوف على أخبار المرائين ، ومعرفة عواقبهم ، فإن ذلك مما يساعد على تجنب هذا الدّاء ، أو هذه الآفة ، لئلا تكون العاقبة كعاقبة هؤلاء .

٨ ـ دوام النظر أو السّماع للنصوص المرغبة فى الإخلاص ، والمحذّرة من الرياء ، فإنّ بداية الإقلاع عن الأخطاء والالتزام بالصواب تكون بوضوح الرؤية ، ودقة التصوُّر؛ إذ من جهل شيئا عاداه ، كما قال الله ـ عزّ وجلّ : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه﴾ [يونس : ٣٩] .

٩ـ محاسبة النفس أوّلا بأول؛ للوقوف على عيوبها،ثم التخلص من هذه العيوب.

١٠ـ اللجوء التام إلى الله ، والاستعانة به، فإن من لجأ إلى الله واستعان به، وكان صادقا فى ذلك ، أيّده الله ،وأعانه ، وصدق رسول الله ﷺ إذ خطب ذات يوم فقال: « أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك ، فإنَّه أخفى من دبيب النمل » ، فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتّقيه، وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[1].

١١ـ التذكر بأن كل شيء يجرى فى هذا الكون بقضاء وقدر: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد] .

وأن الخلق مهما كانت قوتهم، ومهما كان سلطانهم، فإنهم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعا، أو يدفعوا عنها ضرًا، فضلا عن أن يملكوا هذا لغيرهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[الاعراف] ، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية : ١٩] .

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى : المسند ٤ / ٤٠٣ من حديث أبى علىّ رجل من بنى كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى ، فقال: يا أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقام إليه عبد الله بن حزن، وقيس بن المضارب، فقالا : والله لتخرجنّ مما قلت، أو لنأتين عمر مأذون لنا أو غير مأذون، قال : بل أخرج مما قلت : ... خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « أيها الناس ... » الحديث ، وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب: باب الترهيب من الرياء ، وما يقوله من خاف شيئا منه ١ / ٧٦ وعقّب عليه بقوله : « رواه أحمد والطبرانى ورواته إلى أبى على محتج بهم فى الصحيح، أبو على وثقه ابن حبان ، ولم أر أحدا جرحه ، ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنّه قال فيه: يقول كل يوم ثلاث مرات » .

الآفة التاسعة
اتباع الهوى

والآفة التاسعة التي تصيب بعض العاملين ، ويصطلي بنارها العمل الإسلامي إنما هي : « اتباع الهوى » .

وحتى يتطهر منها من ابتلوا أو أصيبوا بها ويتحصّن من غوائلها وخطرها من عافاهم الله ـ عزّ وجلّ ـ منها فإنه لابد من الوقوف على أبعادها ومعالمها ، وتقديم تصور واضح لها .

ولكي نقف على هذه الأبعاد ، وتلك المعالم، ويكون لدينا تصور واضح أو قريب من الواضح عن هذه الآفة، فإننا سنتناولها على النحو التالي:

أولا: مفهوم اتباع الهوى :

اتباع الهوى لغة : لا يمكن أن ينجلي أو يظهر المراد باتباع الهوى لغة ، إلا إذا فسر المراد بالهوى، فماذا يراد بالهوى ؟ يطلق الهوى على عدة معان ، نذكر منها :

أ ـ ميل النفس إلى ما تشتهي [1] .

ب ـ إرادة النفس ما تحب [2] .

جـ ـ محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه [3] .

د ـ عشق الشيء ، وتمكنه من القلب [4] .

وحقيقة الحال أن هذه المعاني جميعا متقاربة المضمون ، وإن اختلفت العبارة أو اللفظ ، إذ المعنى الأول والثاني يصوّران الهوى في بدايته على أنه مجرد ميل وإرادة قلبية دون تمكن واستقرار، أما المعنى الثالث فيصوره في وسطه على أنه حب أو غلبة قلبية يمكن أن تزول بقليل من المجاهدة ، أما المعنى الرابع والأخير فيصوّره في نهايته على أنه عشق وهيام يسيطران على القلب، ويتمكنان منه، ولا يمكن زوالهما بالمجاهدة إلا بعد جهد جهيد، وزمن طويل.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادي ٥ / ٣٥٩ .

(٢ ـ ٤) بصائر ذوي التمييز ٥ / ٣٥٩ ، ولسان العرب لابن منظور ١٥ / ٣٧٢ .

ولما كان كل معنىً من المعانى المذكورة آنفا ، صالحا لأن يكون فى الخير، وصالحا لأن يكون فى الشر، فقد قال علماء اللغة: إن الهوى إذا أطلق انصرف إلى ما كان شرا أو إلى ما كان مذموما ، فإذا أريد به ما كان خيرا أو ما كان محمودا ، فلابد من تقييد ذلك بوصف أو نحوه كأن يقال: هوىً حسن، وهوىً موافق للصواب (١) .

وإذا انتهينا الآن من تحديد المراد بالهوى لغة فإننا نقول: إن اتباع الهوى فى اللغة: هو السير وراء ما تهوى النفس ، وما تشتهى ، بل ما تحب وتعشق.

اتباع الهوى اصطلاحا : أما المراد باتباع الهوى فى الاصطلاح الشرعى والدعوة، فهو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهى، أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل، أو رجوع إلى شرع ، أو تقدير لعاقبة .

ثانيا : حقيقة اتباع الهوى فى ميزان الإسلام :

واتباع الهوى ليس مذموما كله فى نظر الإسلام، بل منه ما هو مذموم، وهو المذكور فى المعنى الاصطلاحى، وهو الذى عناه القرآن الكريم فى قول الله ـ عزّ وجلّ: ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء : ١٣٥] . ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾ [النجم] . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ④⓪ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ④① ﴾ [النازعات] . ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، وآيات آخرى كثيرة.

كما عناه النبى ﷺ فى قوله : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(٢) . « بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحا مطاعا، وهوىً متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام . . .»(٣) . «والآخر أسود مربادا، كالكوز

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٥ / ٣٧٢ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٥٠، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ رقم (٤٢٦٠) ، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٢٤ كلهم من حديث شداد بن أوس ؓ مرفوعا به، وعقّب عليه الترمذى بقوله: «هذا حديث حسن ».

(٣) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الملاحم: باب الأمر والنهى ٤/ ١٢٣ رقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة المائدة ٥/ ٢٤٠ رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه فى: السنن :كتاب الفتن : باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ٢/ ١٣٣٠، ١٣٣١ رقم (٤٠١٤) كلهم من حديث أبى ثعلبة الخشنى ؓ مرفوعا به، وتمامه: أن أبا أمية =

مجخيًا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه »[(١)] . « . . . وإنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه »[(٢)] .

وعناه بعضهم بقوله :

إنى بليت بأربع يرميننى ... بالنبل من قوس لها توتير

إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يا رب أنت على الخلاص قدير[(٣)]

ومنه ما هو محمود، وهو الموافق لشرع اللّه، ومنهجه، وهديه، وهو الذى عناه النبىﷺ بقوله : « لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعا لما جئتكم به »[(٤)] .

كما عنته عائشة ﷺ بقولها للنبىﷺ لما أنزل اللّه تعالى قوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ [الاحزاب: ٥١] : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك[(٥)] .

= الشعبانى قال : سألت أبا ثعلبة الخشنى ، فقلت : يا أبا ثعلبة ، كيف تقول فى هذه الآية : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؟ قال: أما واللّه لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول اللّهﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوىً متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك ـ يعنى بنفسك ـ ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أيامًا ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » ، وزادنى غيره قيل : يا رسول اللّه ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » وعقب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن غريب » .

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١/١٢٨، ١٢٩ رقم (١٤٤) ،وأحمد فى: المسند ٥/ ٣٨٦ ، كلاهما من حديث حذيفة ﷺ مرفوعا به وبنحوه .

(٢) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب السنة : باب شرح السنة ٤/١٩٨رقم (٤٥٩٧)، وأحمد فى: المسند٤/١٠٢، كلاهما من حديث أبى عامر الهوزنى، عن معاوية بن أبى سفيان ﷺ مرفوعا به وبنحوه .

(٣) انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى ٥ / ٣٥٩ .

(٤) الحديث أورده السيوطى فى: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٢/١٧ من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعا به ، وعزاه إلى الأصبهانى فى : الترغيب .

(٥) الحديث جزء من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التفسير: باب قوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ : ٦ /١٤٧ ، وكتاب النكاح : باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد ؟ ٧/١٥، ١٦، وأخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الرضاع: باب جواز هبتها نوبتها لضرتها ٢/١٠٨٥، ١٠٨٦ رقم (١٤٦٤) ، وابن ماجه فى: السنن: كتاب النكاح:باب التى وهبت نفسها للنبىﷺ ١/ ٦٤٤ رقم (٢٠٠٠) ، وأحمد فى:المسند ٦/ ١٥٨، ٢٣٤ ، ٢٦١، كلهم من حديث عائشة ، مرفوعا به وبنحوه .

ثالثا : أسباب اتباع الهوى :

ولاتباع الهوى أسباب تؤدى إليه ، وبواعث توقع فيه ، نذكر منها :

١ـ عدم التعويد على ضبط الهوى منذ الصغر :

أى أن السبب الأول لاتباع الهوى إنما يدور حول عدم التعويد على ضبط هذا الهوى منذ الصغر ، ذلك أن الإنسان قد يلقى من أبويه منذ الصغر حبا مفرطا ، وحنانا فوق المطلوب ، بحيث يطغى هذا الحب ، وذلك الحنان على تنمية الضوابط الفطرية والشرعية التى لابد منها لتنظيم الرغائب أو الدوافع. وحينئذ يكبر هذا الإنسان، ويكبر معه الانسياق وراء العواطف والرغائب ، حتى لو كانت مخالفة للمشروع ، إذ من شبّ على شىء شاب عليه ، إلا من رحم الله ـ عزّ وجلّ .

جاء فى منهج التربية الإسلامية ، قول كاتبه :

« والأم التى ترضع طفلها كلما بكى لكى يسكت؛ أو لأنها لا تطيق أن تسمعه يبكى، تضره بذلك ؛ لأنها لا تعينه على ضبط رغباته، ولا تعوده على ذلك الضبط فى صغره فلا يتعوده فى كبره ، ومن منّا تتركه ظروف الحياة لرغباته يشبعها كما يشاء ؟ وذلك فضلا عن أن المسلم بالذات ينبغى أن يتعلم الضبط ، ويتعوده منذ باكر عمره ؛ لأن الجهاد فى سبيل الله لا يستقيم فى النفس التى لا تستطيع ضبط رغباتها ، فتنساق معها ، وكيف يمكن الجهاد بغير ضبط للشهوات والرغبات ، حتى إن كانت فى دائرة المباح الذى لا إثم فيه فى ذاته ولكنه يصبح إثما حين يشغل عن الجهاد فى سبيل الله :
﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة] .

فكل ما ذكرته الآية ليس محرما فى ذاته ، ولكنه صار فسقا وحراما حين أصبح سببا في القعود عن الجهاد فى سبيل الله ، وحين رجحت كفته فى ميزان القلب على حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .

فما الوسيلة للاستقامة على ميزان الله إلا ضبط هذه الرغبات ، والاستغناء عنها حين تحول بين الإنسان وبين سبيل الله .

والضبط مقدرة يتدرب الإنسان عليها ، وعادة يتعلمها ، وكلما تدرب عليها

وهو صغير كان أقدر عليها، وأكثر تمكنا منها، فيجدها حاضرة فى أعصابه حين تفجؤه الأحداث »[(١)] .

٢ـ مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم :

والسبب الثانى لاتباع الهوى إنما هو مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم، ذلك أن العواطف أو الدوافع تنمو بالمجالسة وطول الصحبة، وعليه فمن لازم مجالسة أهل الأهواء ، وأدام صحبتهم ، فلابد من تأثره بما هم عليه ، لاسيما إذا كان ضعيف الشخصية ، عنده قابلية التأثر بغيره من أولئك الناس .

وقد وعى السلف ـ رضوان اللّه تعالى عليهم ـ هذا السبب ، فأكثروا من التحذير من مجالسة أهل الأهواء ، بل والتعامل معهم .

أثر عن أبى قلابة قوله : «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون »[(٢)] .

وأثر عن الحسن ، وابن سيرين قولهما : «ولا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»[(٣)] .

٣ـ ضعف المعرفة الحقة باللّه والدار الآخرة :

والسبب الثالث لاتباع الهوى إنما هو ضعف المعرفة الحقة باللّه وبالدار الآخرة، ذلك أن من ضعفت معرفته باللّه، وأنه وحده له الحكم، وإليه المرجع والمآب، وهو أسرع الحاسبين ، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام] ، من كان كذلك لا يقدر ربّه حق قدره ، وبالتالى يفعل ما يفعل غير مبال بما إذا كان ذلك يرضى اللّه أو يغضبه، ينجيه أو يهلكه.

وقد لفت الحق ـ سبحانه ـ النظر إلى ذلك وهو يتحدث عن الضالين والمكذبين، مبينا أن السبب فى ضلال هؤلاء وتكذيبهم إنما يعود إلى عدم معرفتهم باللّه حق المعرفة، وبالتالى عدم تقديرهم له حق قدره، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

---

(١) منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ٢ / ١١٣ .

(٢) الأثر أخرجه الدارمى فى: السنن : المقدمة : باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ١/ ١٠٨ من حديث أيوب عن أبى قلابة به .

(٣) الأثر أخرجه الدارمى فى: السنن : المقدمة: باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ١/ ١١٠ .

إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُون اللَّه لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾ [الحج] . ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾

[الزمر]

٤ـ تقصير الآخرين فى القيام بواجبهم نحو صاحب الهوى :

والسبب الرابع لاتباع الهوى إنما هو تقصير الآخرين فى القيام بواجبهم نحو صاحب الهوى ، ذلك أن صاحب الهوى إذا رأى ممن حوله استحسانا لما هو عليه ، أو سكوتا وعدم إنكار بأى من وسائل الإنكار ، فإنّه يمضى ويتمادى فيما هو عليه ، حتى يتمكن الهوى من قلبه ، ويسيطر على كل سلوكياته وتصرفاته .

ولعل هذا هو السر فى تأكيد الإسلام على مقاومة المنكرات ، وعدم السكوت عنها ولكن بالأسلوب المناسب، ومع التكرار، نظرا لأن غالبها ناشئ عن اتباع الهوى، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ [آل عمران] . ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]. ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) ﴾

[النساء]

ولعله السر كذلك فى حرص النبى ﷺ على مجانبة من لمح فيهم ميلا إلى الهوى، وعدم رحابة الصدر لهم ، لعلهم يتوبون أو يذكرون.

جاء عن عبد اللّه بن كعب أنه قال : سمعت كعب بن مالك ، وذكر ابن السرح قصة تخلفه عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك ، قال: ونهى رسول اللّه ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، حتى إذا طال على تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى، فسلمت عليه ، فواللّه ما رد على السلام ، ثم ساق خبر توبته [١].

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أنه اعتل بعير لصفية بنت حيىّ ، وعند زينب فضل ظهر، فقال

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب السنة : باب مجانبة أهل الأهواء وبغضهم ١٩٩/٤ رقم (٤٦٠٠) من حديث عبد اللّه بن كعب به .

رسول الله ﷺ لزينب : « أعطيها بعيرا » فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ؟ فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة والمحرّم وبعض صفر [١] .

وجاء عن عمار بن ياسر أنه قال: قدمت على أهلى ، وقد تشققت يداى، فخلفونى بزعفران ، فغدوت على النبى ﷺ فسلمت عليه ، فلم يرد على ، وقال : «اذهب فاغسل هذا عنك » [٢] .

٥ـ حب الدنيا والركون إليها مع نسيان الآخرة :

والسبب الخامس لاتباع الهوى إنما هو حب الدنيا والركون إليها مع نسيان الآخرة ، ذلك أن من أحب الدنيا ، وركن إليها ، ونسى الآخرة يتولد عنده سعى حثيث لتلبية كلّ ما يفرضه هذا الحب ، وذلك الركون، حتى وإن كان مخالفا لمنهج الله ، وذلك بعينه هو اتباع الهوى .

وقد لفت المولى النظر إلى هذا السبب فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ⑦ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑧ ﴾

[يونس]

كما لفت إليه النبى ﷺ النظر فى الحديث المذكور آنفا : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » [٣] .

٦ـ الجهل بالعواقب المترتبة على اتّباع الهوى :

والسبب السادس لاتباع الهوى إنما هو الجهل بالعواقب المترتبة على اتباع الهوى ، ذلك أن من جهل عواقب محظور من المحظورات ، وقع فى هذا المحظور دون أدنى اهتمام أو مبالاة .

ولعل هذا السر فى اهتمام الشارع الحكيم بالتذكير بالعواقب المترتبة على المأمورات والمنهيات ، كما أشرنا إلى ذلك غير مرة فيما تقدم من آفات .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب ترك السلام على أهل الأهواء ٤/١٩٩ رقم (٤٦٠٢) من حديث عائشة مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب ترك السلام على أهل الأهواء ٤ / ١٩٩ رقم (٤٦٠١) من حديث عمار بن ياسر ﷺ مرفوعًا به .

(٣) الحديث تقدم تخريجه ص ١٣٠ .

رابعا : آثار اتباع الهوى :

ولاتباع الهوى آثار ضارّة ، وعواقب مهلكة ، سواء أكانت على العاملين أو على العمل الإسلامى ، ودونك هذه الآثار :

أـ آثار اتباع الهوى على العاملين :

فمن آثاره على العاملين :

١ـ نقصان بل تلاشى الطاعة من النفس :

ذلك أن صاحب الهوى ، أو المتبع لهواه يعزّ عليه ، بل ويكبر فى نفسه، أن يطيع غيره ، خالقا كان هذا الغير أو مخلوقا، بسبب أن هذا الهوى قد تمكّن من قلبه، وملك عليه أقطار نفسه ، فصار أسيرا لديه ودافعًا له فى نفس الوقت إلى الغرور ، والتكبّر ، وما جعل اللّه لرجل من قلبين فى جوفه، فإمّا أن يطيع ربّه، وإمًّا أن يطيع نفسه وهواه، وشيطانه، وهو ليس بمطيع ربّه ، فلم يبق إلا أن يكون مطيعا لهواه .

٢ـ مرض القلب ثم قسوته وموته :

ذلك أن صاحب الهوى غارق من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه فى المعاصى والسيئات ، وهذه بدورها لها آثار خطيرة على القلب ، إذ أنّها تنتهى به إلى المرض ثم القسوة أو الموت ، كما قال الرسول ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى يعلو قلبه، ذاك الرّين، الذى ذكره اللّه ـ عز وجل ـ فى القرآن: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭﴾»[1]

[المطففين]

وإذا مات القلب ـ وهو لبّ الإنسان وجوهره ـ فماذا بقى لهذا الإنسان ؟ ! إنه لا يبقى له سوى الشحم واللحم، أو بالأحرى الجانب الطينى ، وهو جانب حقير لا قيمة له فى ميزان اللّه .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الذنوب ١٤١٨/٢ رقم (٤٢٤٤)، وأحمد فى: المسند ٢٩٧/٢ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به، بيد أن ابن ماجه قال: «الران» بدل: « الرين » .

وصدق الرّسولﷺإذ يقول : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

٣ـ الاستهانة بالذنوب والآثام :

وذلك أن المتّبع لهواه قد قسا قلبه ومات على النحو الذى قدمنا ويوم تقسو القلوب وتموت تكون الاستهانة والاستهتار بالذنوب والآثام ، كما قال النبىﷺ : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه ، فقال به هكذا . . . » (٢) .

والاستهانة بالذنوب والآثام هى عين الهلاك ، والبوار ، والخسران المبين.

٤ـ عدم جدوى النصح والإرشاد :

وذلك لأن المتّبع لهواه قد ركب رأسه، وصار عبدا لشهواته،وأنّى لهذا أن يستجيب لنصح، أو ينفع فيه توجيه وإرشاد ؟ ! ولا خير فى قوم لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة(٣) ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠].

٥ـ الابتداع فى دين اللّه :

وذلك أن صاحب الهوى يميل كغيره من البشر إلى إثبات ذاته ووجوده ، وهو لا يرضى منهج اللّه طريقا لتحقيق هذا الميل ، فلم يبق إلا أن يبتدع منهاجا يوافق أهواءه وشهواته .

يقول حمّاد بن سلمة : حدثّنى شيخ لهم تاب ـ يعنى الرافضة ـ قال : كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئًا ، جعلناه حديثا (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرّ والصلة والآداب : باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ، ودمه وعرضه ٤ / ١٩٨٧ رقم (٢٥٦٤) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب القناعة ١٣٨٨/٢ رقم (٤١٤٣)، وأحمد فى: المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الدعوات: باب استغفار النبىﷺ فى اليوم والليلة ٨٣/٨، ٨٤، والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة : باب منه ٥٦٨/٤ رقم (٢٤٩٧)، وأحمد فى: المسند ١ / ٣٨٣ كلهم من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا به .

(٣) الحديث سبق تخريجه فيما سبق وتقدم من آفات .

(٤) انظر : الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع .

والابتداع هو الضلال ، وكل ضلال في النار ،كما يقول النبي ﷺ : «. . .وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة »[١]، « أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة »[٢] .

٦ـ التخبّط وعدم الهداية إلى الطريق المستقيم :

وذلك أن صاحب الهوى بعبوديته لشهواته وميوله، قد أعرض عن مصدر الهداية والتوفيق ، فمن أين يأتيه التوفيق والهداية إلى الصراط المستقيم ؟ وصدق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يقول : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية] .

٧ـ إضلال الآخرين ، وإبعادهم عن الطريق :

ولا تقتصر هذه الآثار الضارة على صاحب الهوى ، بل كثيراً ما تتعداه إلى الآخرين ، لاسيّما والسقوط أو البعد عن الطريق سهل مرغوب فيه ، وقد لفت المولى ـ سبحانه وتعالى ـ النظر إلى ذلك فى قوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١١٩]

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب فى لزوم السنة ٤/ ٢٠٠ ، ٢٠١ رقم (٤٦٠٧) ، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥ /٤٣ رقم (٢٦٧٦) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/ ١٥، ١٦رقم (٤٢)، والدارمى فى: السنن: المقدمة: باب اتباع السنة١/ ٤٤، ٤٥، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٢٦، ١٢٧، كلهم من حديث العرباض ابن سارية ﷺ مرفوعا، ولفظه كما فى أبى داود : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال: « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور . . . » الحديث.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٢ رقم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا بلفظ : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ، ومساكم ، ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « أما بعد ، فإن خير الحديث . . . » إلى أن يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلى وعلى » .

٨ ـ الصيرورة إلى الجحيم ، وبئس المصير :

وأخيرا فإن مَنْ عوقب بكل الآثار التى قدمنا، فإنما مأواه الجحيم، وصدق الله العظيم : ﴿ فأما من طغى (٣٧) وآثر الحياة الدنيا (٣٨) فإن الجحيم هى المأوى (٣٩) ﴾ [النازعات].

ب ـ آثار اتباع الهوى على العمل الإسلامى :

وأما آثار اتباع الهوى على العمل الإسلامى، فإنها كثيرة نذكر منها :

١ـ ضعف بل تلاشى كسب الأنصار :

وذلك أن العمل الإسلامى إذا قام على أكتاف ، أو كان فى صفه، من عرف باتباع الهوى ، فإنه بذلك يسدّ الباب فى وجه الأنصار الجدد ،إذ ليس فيه حينئذ أسوة أو قدوة تغرى بالالتحاق به ، وبذل الغالى والرخيص فى سبيل نصرته ، والمضىّ به قدما إلى الأمام ، وهذا بدوره يؤدى إلى طول الطريق مع كثرة التكاليف.

٢ـ تفريق أو تمزيق وحدة الصف :

وذلك أن صف العمل الإسلامى إذا اشتمل على أصحاب الأهواء ، فإنهم ينتهون به إلى التمزيق والفرقة ، نظرا لضعف أو تلاشى مبدأ الطاعة عندهم ، وحين تقع هذه الفرقة أو هذا التمزيق ، فقد صار العمل الإسلامى لقمة سائغة فى فم الأعداء .

ولعمرى هذا هو أهم ما يسعى إليه هؤلاء ، حتى يصير حقيقة وواقعا فى هذه الأرض، وحينئذ يتمكنون بواسطته من ضرب العمل الإسلامى أو على الأقل إجهاضه، والرجوع إلى الوراء عشرات السنين .

٣ـ الحرمان من العون والتأييد الإلهى :

وذلك أن سنة الله فى خلقه مضت أنه لا يمنحهم العون أو التأييد إلا إذا كانوا أهلا لذلك ، حتى إذا مكّن لهم يكونون كما قال سبحانه : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ [الحج : ٤١] .

ولعمرى فإن صاحب الهوى بمعصيته لربّه، ولرسوله، ولإمارة المسلمين، يكون سببا فى حجب هذا العون وذلك التأييد الإلهى للعمل الإسلامى .

وما زالت وصايا عمر لأمراء الجيوش الإسلامية وجندها، إبان الفتوحات الإسلامية ترن فى الآذان: إذ قال لسعد بن أبى وقاص حين أمّره على العراق:

يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه ، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربّهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنّه الأمر. هذه عظتى إيّاك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين [(١)] .

كما كتب إليه ومن معه من الأجناد :

أما بعد . . . فإنّى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنّما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا : إن عدونا شر منا، فلن يسلّط علينا، فربّ قوم سلط عليهم شرّ منهم، كما سلّط على بنى إسرائيل ـ لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم ، وأسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم [(٢)] .

خامسا: علاج اتباع الهوى :

وحتى يعالج أصحاب الأهواء أنفسهم ، ويقيموها على الجادة ، فإنّه لا مناص من اتباع الخطوات الآتية :

١ـ التذكير بعواقب اتباع الهوى سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، فإنّ ذلك له دور كبير فى تخليص النفس من أهوائها وشهواتها ، ما دامت مخالفة لمنهج الله ورسوله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٧ / ٣٥، ٣٦ .

(٢) انظر : الوصايا الخالدة ، للشيخ عبد البديع صقر ، ص ٤٣ .

٢ـ الانقطاع عن مجالسة ومصاحبة أهل الأهواء ، مع الارتماء فى أحضان أهل الصلاح والاستقامة ، فإن ذلك يعين على تحرير النفس من وقوعها أسيرة الأهواء والشهوات .

٣ـ التعريف باللّه ـ عزّ وجلّ ـ حقّ المعرفة ، فإنّ ذلك يولّد فى النفس حبّه وإجلاله ، والنزول على حكمه في كل ما أمر به، وفي كل ما نهى عنه، بل ويربّى فيها كذلك مراقبته وخشيته والطمع فى جنته ، ورضوانه ، والخوف من ناره وعقابه.

٤ـ حياطة الآخرين ورعايتهم لصاحب الهوى ، تارة بالنصيحة المقرونة بآدابها وشروطها، وتارة بإيقاع السلوك الأمثل أمامه، وتارة بالعتاب، وتارة بالتوبيخ والتأنيب، وتارة بالهجر والقطيعة، إلى غير ذلك من أساليب ووسائل الحياطة والرعاية .

٥ـ الوقوف على سير أصحاب الأهواء ، وعاقبتهم ، سواء أكانوا من هذه الأمة أم من الأمم الأخرى، فإن ذلك يولد فى النفس نفورا من اتباع الهوى لئلا تكون حديث كل لسان ، ولئلا ينزل بها من العقاب مثلما نزل بهؤلاء .

٦ـ الوقوف على سير وأخبار من عرفوا بمجاهدة نفوسهم وأهوائهم ، وإلزامها بحدود اللّه مثل: عمر بن عبد العزيز، والحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، والفضيل ابن عياض، وعبد اللّه بن المبارك ، وغيرهم وغيرهم ، فإن ذلك يحمل على معنى الاقتداء والتأسى ، أو على الأقل المحاكاة والمشابهة .

٧ـ التحذير من الركون إلى الدنيا والاطمئنان بها، مع الربط الشديد بالآخرة بحيث يبتغى المسلم فيما آتاه اللّه : الدار الآخرة ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا إن أمكن ، وإلا آثر الآخرة عن الأولى .

٨ ـ الاستعانة الكاملة باللّه ـ عزّ وجلّ ـ فإنه سبحانه يعين من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، وطلب العون والتسديد منه ، وصدق الله إذ يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم »[1] .

---

[1] الجملة قطعة من حديث قدسى طويل أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤، ١٩٩٥ رقم (٢٥٧٧) ، والترمذى في: السنن: كتاب صفة القيامة : باب منه ٤ / ٥٦٦ رقم (٢٤٩٥) ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد: باب ذكر التوبة ٢ / ١٤٢٢ رقم (٤٢٥٧) ، وأحمد في : المسند ٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧ كلهم من حديث أبى ذر ﷺ مرفوعا بلفظ : «يا عبادى ، إنّى حرّمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا ...» الحديث

٩ـ مجاهدة النفس ، وحملها قسرا على التخلص من أهوائها وشهواتها، من قبل أن يأتي يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله .

١٠ـ التذكير بأن السّعادة والراحة والطمأنينة والفوز ، إنّما هي في اتباع المشروع، لا في اتّباع ما تملي النفس وما تهوى ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه] . ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة] .

وفي هذا المعنى يقول القائل :

واعلم بأنّ الفضل فـي إيحائه لا في الذي يوحي إليه هواكا

الآفة العاشرة
التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة

والآفة العاشرة التي يبتلى بها نفر من العاملين ، ولا يكاد يسلم من شرّها العمل الإسلامي، إنما هي : « التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة » .

وحتى يتطهّر من هذه الآفة من ابتلوا بها ، ويتّقي شرّها من عافاهم اللّه ـ عزّ وجلّ ـ منها ، فتصفو الطريق أمام العمل الإسلامي ، فإنّه لا بدّ من تقديم أو عرض تصوّر واضح لهم ، وذلك على النحو التالي :

أولا: مفهوم التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة :

التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة لغة : لا نستطيع تحديد المراد بالتطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة لغة إلا بعد تحديد المراد بالصدارة والريادة ، فماذا يراد بهما ؟

تطلق الصدارة في اللغة ، ويراد بها : التقدم أو الترؤس ، إذ هي مأخوذة من الصدر الذي هو أعلى مقدم كل شيء وأوّله ، تقول: صدر النهار والليل، وصدر الشتاء والصيف ، وما أشبه ذلك ، تعني أول وأعلى كل واحد منها ، وتصدّر الفرس ، وصدّر أي تقدّم الخيل بصدره [1] .

وكذلك الريادة تطلق لغة ويراد بها : التقدم أو السبق للإعداد والتهيئة ، إذ هي مأخوذة من الرّود وهو الترويد أو فعل الرائد، تقول: بعثنا رائدًا يرود لنا الكلأ والمنزل، ويرتاد ، أي ينظر ، ويطلب ، ويختار أفضله [2] .

وإذ انتهينا الآن من تحديد المراد بالصدارة والريادة لغة ، فإننا نقول: إن التطلّع للصدارة ، وطلب الريادة في اللغة، إنما هو الرغبة في التقدم على الغير، بل سؤال ذلك صراحة .

---

[1] انظر : لسان العرب ٤ / ٤٤٥ ـ ٤٤٧ بتصرف كثير ، والصحاح في اللغة والعلوم ص ٥٩٣ .
[2] انظر : لسان العرب ٣ / ١٨٧ ، والصحاح في اللغة والعلوم ص ٤١٦ .

التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة اصطلاحا : أما المراد بالتطلع إلى الصدارة وطلب الريادة فى الاصطلاح الشرعى والدعوىّ ، فإنما هو تعلق القلب بالإمامة أو الريادة ، وسؤال ذلك صراحة أو القعود عن القيام بالواجب ، وأداء الرسالة .

ثانيا : حقيقة التطلّع إلى الصدارة، وطلب الريادة فى ميزان الإسلام :

التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة فى ميزان الإسلام شىء مذموم ومنهىّ عنه، بل عليه الوعيد الشديد إذ يقول النبى ﷺ : «إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحدًا حرص عليه »[١] .

ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها »[٢] .

ويقول أبو ذر رضي الله عنه : قلت : يا رسول اللّه ، ألا تستعملنى؟ قال: فضرب بيده على منكبى ثم قال: « يا أبا ذرّ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها »[٣] .

ويقول المقدام بن معد يكرب : إن رسول اللّه ﷺ ضرب على منكبه ثم قال له : «أفلحت يا قديم إن متّ ولم تكن أميرا ، ولا كاتبا ، ولا عريفا »[٤] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأحكام: باب ما يكره من الحرص على الإمارة ٩/ ٨٠ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب النهى عن طلب الإمارة والحرص عليها ٣ / ١٤٥٦ رقم (١٧٣٣) كلاهما من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه مرفوعا به ، إلا أنه قال فى أوله : دخلت على النبى ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك اللّه ـ عز وجل ـ وقال الآخر مثل ذلك . . . الحديث ، وهذا لفظ مسلم .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأحكام : باب من سأل الإمارة وكل إليها ٩/ ٧٩ ، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الإمارة : باب النهى عن طلب الإمارة والحرص عليها ٣ /١٤٥٦ رقم (١٦٥٢)، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن سمرة مرفوعًا به واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب كراهة الإمارة بغيرضرورة ٣/١٤٥٧رقم (١٨٢٥) من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعا به ، وأخرج البخارى نحوه فى: الصحيح : كتاب الأحكام : باب من سأل الإمارة وكل إليها ٩/ ٧٩ ، ٨٠ من حديث أبى هريرة .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الخراج والإمارة والفىء : باب فى العرافة ٣/ ١٣١ رقم (٢٩٣٣) ، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٣٣، كلاهما من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه مرفوعا ، واللفظ لأبى داود .

ويقول ﷺ : « ويل للأمراء ، ويل للعرفاء ، ويل للأمناء ، ليتمنين أقوام يوم القيامة أنّ ذوائبهم كانت معلّقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء »(١).

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من التطلع إلى الصدارة، وطلب الريادة، فما بال نبيّ من أنبياء اللّه سألها، وزكى نفسه ليعطاها ؟ إنّه يوسف ﷺ إذ حكى القرآن الكريم قوله: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف] .

وما بال المسلم يلحّ فى سؤالها حتى تصبح سمة من سماته،وعلامة يعرف بها بين الناس ؟ إذ يقول الحقّ ـ سبحانه ـ فى صفات عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] .

ونقول: لا تعارض ولا تناقض: ذلك أن يوسف ﷺ سأل وزكّى نفسه؛ لأنه رأى خلوّ المكان من قائم بالحق، وداع إليه، ومدافع عنه ، ووجد نفسه أهلا لذلك ، ولكنه لم يكن معروفا، فكان لابد من السؤال والتزكية ، من باب ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وكذلك سؤال المسلم الريادة والإمامة إنّما هو سؤال للّه وليس للبشر، والمنهى عنه سؤال البشر ، وأيضًا هناك فرق بين أن يطلب المسلم ذلك من ربّه حتى يكون جاهزاً ، ومعدّاً لسد الفراغ عند الحاجة، وبين أن يظل نائما ، ثم يسأل الريادة، ولم يأخذ بسبب واحد من أسباب القدرة عليها، والقيام بحقها.

ثالثا : أسباب التطلّع إلى الصّدارة ، وطلب الرّيادة :

وللتطلّع إلى الصّدارة ، وطلب الرّيادة أسباب تؤدى إليه ، وبواعث توقع فيه، نذكر منها :

١ ـ الرغبة فى التحرر من سيطرة وسلطان الآخرين :

فقد يكون السبب فى التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة، إنما هى الرغبة فى التحرر من سيطرة وسلطان الآخرين ، ذلك أن بعض الناس قد ينشأ دون أن يذوق طعم الطاعة

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٢/ ٣٥٢ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا به، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب كراهة الولاية ولمن تستحب ٥ / ٢٠٣ وعقب عليه بقوله : « رجاله ثقات فى طريقين من أربعة ، ورواه أبو يعلى والبزار » .

لأحد ، ولو مرة واحدة ، ومثل هذا إذا وضع فى محيط جماعى ، فإنه يعز عليه بل يكبر فى نفسه أن يكون فوقه أحد .

لذلك تراه تتعلّق نفسه تعلقا شديدا بالصدارة ، ويسعى جاهدا لسؤال الريادة، حتى يتحرر - بتصوّره - من سيطرة وسلطان الآخرين .

٢- الرغبة فى تحصيل عرض من أعراض الحياة الدنيا :

وقد يكون السبب فى التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة ، إنّما هى الرغبة فى تحصيل عرض من أعراض الحياة الدنيا ؛ ذلك أن بعض الناس قد يتعلق بالحياة الدنيا تعلقا يحمله على إصابتها من أى باب تيسر له ، حلالا كان هذا الباب أو حراما، ومثل هذا الصنف يتصور أنه إذا كان صدرا أو رائدًا ، فإن الكل سيكون فى خدمته من أجل إصابة حظه من أعراض هذه الحياة الفانية؛ لذا تراه متعلق النفس بالصدارة، ساعيا بجدية واهتمام لسؤال أو طلب الريادة.

٣- الغفلة عن تبعات الصدارة والريادة :

وقد يكون السبب فى التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة ، إنما هى: الغفلة عن تبعات هذه الصدارة، وتلك الريادة، ذلك أن تبعات الصدارة والريادة ضخمة، فصاحبها يجوع حيث يشبع الآخرون، ويظمأ حيث يروى الآخرون، ويسهر حيث ينام الآخرون، ويتعب حيث يستريح الآخرون .

وبالجملة، فإن تبعات هذا الأمر أن يفدى صاحبه الآخرين بنفسه فى ساعات الشدّة، ويقدّمهم على هذه النفس فى ساعات الرّخاء - على نحو ما كان يصنع النبىّ ﷺ مع أصحابه - إذ يقول البراء رضي الله عنه : كنا والله إذا احمرّ البأس نتقى به، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به - يعنى النبىّ ﷺ [(١)] .

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجهاد والسِّير: باب فى غزوة حنين ٣/ ١٤٠١ رقم (١٧٧٦) من حديث البراء رضي الله عنه بلفظ : جاء رجل إلى البراء ، فقال: أكنتم وليتم يوم حنين، يا أبا عمارة ؟ فقال: أشهد على نبى الله ما ولى ، ولكنه انطلق اخفاء من الناس وحُسَّر إلى هذا الحى من هوازن ، وهم قوم رماة ، فرموهم برشق من نبل، كأنّها رجل من جراد ، فانكشفوا ، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته ، فنزل ، ودعا واستنصر ، وهو يقول :

« أنا النبىّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

اللهم نزّل نصرك »، قال البراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتقى به . . . الحديث .

وإذ يقول على رضي الله عنه : كنا إذا احمرّ البأس ، ولقى القومُ القومَ ، اتّقينا برسول الله ﷺ فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه [(١)] .

ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبيّ ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت ، وهو يقول: « لن تراعوا ، لن تراعوا » وهو على فرس لأبى طلحة عُرى ،ما عليه سرج ، فى عنقه سيف [(٢)] .

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه : اللّه الذى لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الّذى يخرجون منه فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب اللّه ما سألته إلا ليشبعنى ، فمرّ ولم يفعل، ثم مرّ بى عمر ، فسألته عن آية من كتاب اللّه ما سألته إلا ليشبعنى، فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى ، وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : « يا أبا هرّ »، فقلت : لبّيك يا رسول اللّه ، قال : « الحق » .

ومضى فتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لى فدخل ، فوجد لبنا فى قدح فقال : « من أين هذا اللبن ؟» قالوا: أهداه لك فلان، أو فلانة، قال: « أبا هر» ، قلت : لبيك يا رسول اللّه ، قال: « الحق إلى أهل الصّفة ، فادعهم لى ».

قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءنى ذلك، فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصّفة، كنت أحقّ أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوّى بها، فإذا جاء أمرنى ، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة اللّه، وطاعة رسول اللّه ﷺ بد .

فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت، فقال : « يا أبا هرّ »، قلت: لبيك يا رسول اللّه، قال: « خذ فأعطهم»، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردّ على القدح، فأعطيه الرجل

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١ / ١٥٦ من حديث على رضي الله عنه مرفوعا به .

(٢) الحديث قطعة من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب : باب حسن الخلق والسّخاء، وما يكره من البخل ٨ / ١٦ من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ : كان النبى ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ... الحديث .

فيشرب حتى يروى، ثم يرد علىّ القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علىّ القدح حتى انتهيت إلى النبى ﷺ وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده ، فنظر إلىّ فتبسّم، فقال: « أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول اللّه، قال: « بقيت أنا وأنت ؟» قلت: صدقت يا رسول اللّه، قال: « اقعد فاشرب »، فقعدت فشربت، قال : « اشرب »، فشربت، فما زال يقول : « اشرب »، حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، قال: « فأرنى » ، فأعطيته القدح ، فحمد اللّه وسمّى وشرب الفضلة [1] .

هذه تبعات وتكاليف الصدارة والريادة ، ومن غفل عنها فإنه تتعلق نفسه لا محالة بالصدارة ويجتهد فى طلب الريادة .

٤ـ الغفلة عن عواقب التقصير فى الصدارة والرّيادة :

وقد يكون السبب فى التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة إنّما هى الغفلة عن عواقب التقصير فى هذه الصدارة وتلك الريادة ، وذلك أن عواقب التقصير فى هذا الأمر فى الدنيا إنّما هى إفساح المجال أمام الباطل وجنده، ليفسد فى الأرض ، ويهلك الحرث والنسل . وأما فى الآخرة فهى التقييد بالأغلال والسلاسل ، والحرمان من الجنة والإلقاء فى النار؛ إذ يقول ﷺ : « ما من عبد يسترعيه اللّه رعيّة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرّم اللّه عليه الجنة » [2] . «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا ، لا يفكّه إلا العدل، أو يوبقه الجور » [3] . « من طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره عدله فله النار » [4] .

ومن غفل عن هذه العواقب فإنما تتوق نفسه إلى الصدارة، ويسأل الريادة.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرّقاق : باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ، وتخليهم من الدنيا ٨/١١٩ ـ ١٢١ ، والترمذى فى : السنن:كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/٥٥٩ ، ٥٦٠ رقم (٢٤٧٧) ، وأحمد فى: المسند ٢/٥١٥، كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، واللفظ للبخارى ، وعقب الترمذى على روايته بقوله: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الأحكام : باب من استرعى رعية فلم ينصح ٩ / ٨٠ ، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الإيمان : باب استحقاق الوالى الغاش لرعيته النار ١ / ١٢٥، ١٢٦ رقم (١٤٢) ، وكتاب الإمارة : باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ٣ / ١٤٦٠ رقم (١٤٢)، كلاهما من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث اخرجه الدارمى فى: السنن: كتاب السير: باب فى التشديد فى الإمارة ٢/ ٢٤٠، وأحمد فى: المسند ٢ / ٤٣١ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الأقضية : باب فى القاضى يخطئ ٣ /٢٩٩رقم (٣٥٧٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به .

٥ ـ الرّغبة فى التسلط ، وإذلال الآخرين :

وأخيرا ، قد يكون السبب فى التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة إنّما هى الرغبة فى التسلط وإذلال الآخرين ، ذلك أن بعض الناس قد يلقى شدّة وضغطا فى تربيته ، أو تهوينا وتسيبا إلى حدّ حبّ التسلط والإذلال ، ومثل هذا يرى الصدارة والريادة بابا يلج منه ليتشفى ، وليشبع غريزة أفرزتها التربية السيئة ؛ لذا فإن نفسه تتوق إلى هذه الصدارة، ويجتهد فى طلب تلك الريادة.

رابعا: آثار التطلّع إلى الصّدارة ، وطلب الرّيادة :

وللتطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة آثار سيئة ، وعواقب وخيمة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ آثار التطلع إلى الصدارة على العاملين :

فمن آثار ذلك على العاملين :

١ ـ الحرمان من التوفيق ، والعون الإلهى :

ذلك أن التطلع إلى الصدارة، وطلب الريادة يعنى الوثوق بالنفس، والاعتماد عليها وعلى ما لديها من طاقات وإمكانات، دون الحاجة إلى عون وتأييد من اللّه، وقد جرت سنّة اللّه مع خلقه، أن يتخلّى عمّن اعتمدوا على حولهم وقوتهم ، غير عابئين بحوله سبحانه وقوته . . . وما ظنّك بمن تخلى عنه ربه ، أيكتب له توفيق ، أو يحظى بأى عون أو تأييد ؟ اللّهم لا !!

وقد لفت النبىﷺ النظر إلى هذا الأثر فى قوله لعبد الرحمن بن سمرة: « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها. . . »[(١)] .

٢ـ تعريض النفس للفتنة ، وبالتالى للغضب الإلهى :

وذلك أن من تطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة ، فقد جعل نفسه فى مهب ريح الفتن ، إذ ربما ينسى بهذا التطلع، وذلك الطلب مراقبة اللّه ، والحساب والمساءلة غدا بين يديه سبحانه، فيركن إلى الدنيا ، ويرضى بها، وينسى تبعات وتكاليف هذا الأمر، بل ربما جار وظلم، وهذا كلّه ينتهى به إلى استحقاق الغضب والسخط الإلهى، الذى يتمثّل فى العقاب، والعذاب، على نحو ما شرحنا آنفا.

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٤٢ .

وما أجمل، وأروع تصوير النبي ﷺ لمثل هذا الأثر حين يقول: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة ، وبئست الفاطمة »[١] .

٣ـ تضاعف الأوزار والأثقال :

وذلك أن من يصل إلى الصدارة والريادة بعد التطلع والسؤال ، قد يفتن ، ويقتدى ويتأسّى به من هم دونه، فيعرضون أنفسهم للفتنة مثله، وحينئذ تتضاعف عليه الأوزار، والأحمال فيحمل وزره ووزر من اقتدى وتأسى في الشر به ، وصدق الله : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وصدق رسول الله ﷺ : «. . . ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٢] . «. . . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»[٣] .

٤ـ القتل أو النفى والتشريد في الأرض :

وذلك أن التطلع إلى الصدارة ، وطلب الريادة قد يؤدى إلى التشاجر أو التناحر، وربما أسفر ذلك عن القتل ، أو النفى والتشريد في الأرض ، والتاريخ البشرى حافل

---

(١) الحديث أخرجه البخارى في : الصحيح : كتاب الأحكام : باب ما يكره من الحرص على الإمارة ٩/ ٩، والنسائى في : السنن : كتاب البيعة : باب ما يكره من الحرص على الإمارة ٧/ ١٦٢ رقم (٤٢١١)، وكتاب آداب القضاة : باب النهى عن مسألة الإمارة ٨/ ٢٢٥ ، ٢٢٦، رقم (٥٣٨٥) ، وأحمد في: المسند ٢/ ٤٤٨ ، ٤٧٦ ، كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به، بيد أن الرواية الأولى عند أحمد : « فبئست المرضعة، ونعمت الفاطمة » بالقلب، ولست أدرى مصدر هذا القلب أهم الرواة أم الطباعون ؟ ولعل الأخير هو الراجح نظرا لأن مخرج الحديثين واحد ، والله أعلم .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ٢/ ٧٠٤ ، ٧٠٥ رقم (١٠١٧) ، وكتاب العلم: باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤/ ٢٠٥٩ ، ٢٠٦٠ رقم (١٠١٧) ، والترمذى في : السنن :كتاب العلم : باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة ٥/ ٤٢ رقم (٢٦٧٥) ، والنسائى في : السنن: كتاب الزكاة: باب التحريض على الصدقة ٦/ ٧٥، ٧٧، رقم(٢٥٥٤)، وابن ماجه في: السنن: المقدمة : باب من سن سنة حسنة أو سيئة ١/ ٧٤ ، رقم (٢٠٣) ، وأحمد في: المسند ٤ / ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، كلهم من حديث جرير بن عبد الله البجلى ﷺ مرفوعا به وبنحوه .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في: الصحيح : كتاب العلم: باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ٤ / ٢٠٦٠ رقم (٢٦٧٤)، وأبو داود في: السنن : كتاب السنة : باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم (٤٦٠٩) ، والترمذى في: السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى ٥/ ٤٢ رقم (٢٦٧٤)، وابن ماجه في: السنن: المقدمة: باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ١/ ٧٥ رقم (٢٠٦)، والدارمىّ في: السنن: المقدمة: باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ١/ ١٣٠ ، ١٣١ ، وأحمد في: المسند ٢/ ٣٩٧ ، ٥٠٥، كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به وبنحوه .

بآلاف النماذج التى تطلعت إلى الصدارة، وطلب الريادة ، ولم تصل إلى مرادها ، بل انتهت بها الحال إلى القتل أو النفى والتشريد فى الأرض .

ب ـ آثار التطلع إلى الصدارة على العمل الإسلامى :

من آثار ذلك على العمل الإسلامى، كثرة التكاليف ، وطول الطريق ذلك أن صفا يحوى فى طياته متطلعين إلى الصدارة وطالبين للريادة، لا يمكن أن يستقيم أبدًا، وأنَّى لهذا الصف أن يستقيم وفيه من أغرتهم الدنيا بزخرفها، وبريقها، وزهرتها وزينتها . ممثلا ذلك فى التطلع إلى المنصب، والتعلق به ؟

وإذا انتهى الأمر بصف إلى الاعوجاج فإن نصر اللّه منه بعيد إلا أن يكون ذلك مكرا، واستدراجا، وصدق اللّه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج: ٤٠] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ ٧ ﴾ [محمد] .

وقد فطن إلى ذلك سلف هذه الأمة ـ رضوان اللّه عليهم أجمعين ـ فكانوا إذا تأخر عليهم النصر، يردّون هذا التأخير إلى حب الدنيا، والتعلق بها ثم يبادرون بالتوبة والرجوع إلى اللّه ، فينزل بهم نصره .

والقصة التالية تصوير بديع لما فطن إليه هؤلاء :

لما أبطأ فتح مصر على عمرو بن العاص ، كتب إلى عمر يستمدّه ، فأمدّه بأربعة آلاف (تمام ثمانية آلاف) على كل ألف رجل منهم ، رجل ، وكتب إليه : إنى أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل ، رجل منهم مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلّد ، واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلّة .

ولما وصل هذا المدد ، وتأخر الفتح على عمر، كتب إلى عمرو : أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنين ،وما ذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم ، وإن اللّه تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نيّاتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف، إلا أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابى ، فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغّبهم فى الصبر، والنية، وقدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند

الزّوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ، ووقت الإجابة ، وليعجّ الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوّهم . . . [(١)] .

خامسا : علاج التطلّع إلى الصّدارة ، وطلب الرّيادة :

ويمكن التطهّر من هذه الآفة ، بل وتحصين النفس ضدّها باتّباع الأساليب التّالية :

١ـ دوام النظر فى السنّة النبوية :

فإن فيها تحذيرا شديدا من سؤال الولاية، أو تعلق القلب بها، بل فيها تصوير بليغ لتبعات وعواقب التقصير فى هذا الأمر على نحو ما ذكرنا فى الأسباب من قبل .

٢ـ دوام التذكير بتبعات هذا الأمر ، وعواقبه الدنيوية والأخروية :

فإن الإنسان بفطرته ينسى، ولا علاج لهذا النسيان إلا بالتذكير، والتذكير الدائم، نزولا على منهج القرآن الكريم: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] .

٣ـ التعويد على الطاعة ، وهضم النفس ، منذ نعومة الأظفار :

فإن ذلك له أثره فيما بعد ، فى خلع هذه الأمراض من القلب ، والرضا بالحال التى يوضع فيها المسلم ، كما قال النبىﷺ :

« . . . طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى السّاقة كان فى السّاقة. . . » [(٢)] .

٤ـ الرفق فى المعاملة :

فإنه ما كان الرفق فى شىء إلا زانه ، وما نزع الرفق من شىء إلا شانه ، وعليه

---

(١) الحديث أورده علاء الدين المتقى الهندى فى: كنز العمال ٥/٧٠٥ ، ٧٠٦ ، وعزاه إلى ابن عبد الحكم فى : فتوح مصر من حديث زيد بن أسلم .

(٢) الحديث قطعة من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤ / ٤١ ، ٤٢ ، وكتاب الرقاق: باب ما يتقى من فتنة المال ٨ / ١١٤ ، ١١٥ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب فى المكثرين ٢ / ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ رقم (٤١٣٥ ، ٤١٣٦) ، من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، ولفظه فى الرواية الأولى عند البخارى: « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله. . .» الحديث .

فإن هذا الرفق سيعين على تخليص القلب من الصدارة ، بل وحمد الله على المعافاة منها .

٥ـ التذكير بسيرة السّلف ، وموقفهم من الصدارة والريادة :

فإن سيرتهم طافحة بكراهية هذا الأمر، والنّفور والتحذير الشديد منه تقديرا لتبعاته وعواقبه، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يخطب فى المسلمين بعد قبوله الخلافة قائلا :

يا أيها الناس ، إن كنتم ظننتم أنّى أخذت خلافتكم رغبة فيها ، أو إرادة استئثار عليكم ، وعلى المسلمين ، فلا والذى نفسى بيده ، ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارا عليكم ، ولا على أحد من المسلمين ، ولا حرصت عليها يوما ولا ليلة قط، ولا سألت الله سرا، ولا علانية ، لقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لى به إلا أن يعين الله ، ولوددت أنها إلى أى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعدل فيها ، فهى إليكم ردّ ، ولا بيعة لكم عندى ، فادفعوا لمن أحببتم، فإنّما أنا رجل منكم (١) .

ولما كان عمر فى النزع الأخير ، جعل الأمر شورى فى ستة من المسلمين، فأشار عليه المغيرة بن شعبة بابنه عبد الله بن عمر، ليكون خليفة ، فغضب عمر ، ورد عليه قائلا :

قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمّة محمد ﷺ ، أما لقد جهدت نفسى ، وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافا لا وزر، ولا أجر إنّى لسعيد (٢) .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة،جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة، على عادته مع الخلفاء قبله ، فقال له عمر: مالى ولك ؟ تنحّ عنى إنّما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال : أيها الناس، إنّى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منّى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم

---

(١) الحديث أورده علاء الدين المتقى الهندى فى : كنز العمال ٥ / ٦١٥ ، وعزاه إلى أبى نعيم فى فضائل الصحابة ، من حديث أبى بكر رضي الله عنه به .

(٢) الحديث أورده الطنطاويان فى : أخبار عمر ص ٤٥٢ وعزواه لتاريخ الأمم والملوك للطبرى وأنساب الأشراف للبلاذرى .

ولأمركم من تريدون، فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك لأنفسنا ، ولأمرنا ورضينا كلنا بك . . .(١) .

إلى غير ذلك من الأخبار المشحونة بها كتب التاريخ .

٦ـ التذكير بمكانة ومنزلة الدنيا من الآخرة ، على نحو ما جاء فى كتاب اللّه ـ عز وجل ـ وعلى لسان النبى ﷺ :

إذ يقول المولى ـ عزّ وجل ـ عن هذه المنزلة ، وتلك المكانة :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء: ٧٧] . **﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾** [التوبة : ٣٨]. **﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾** [غافر]. **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾**

[آل عمران]

وإذ يقول النبى ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليمّ . فلينظر بم يرجع» (٢) . « لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»(٣) .

فإن هذا التذكير قد يحمل العقلاء على أن يكونوا مغمورين بعيدا عن أىّ صدارة أو ريادة، حتى يخرجوا من هذه الدنيا سالمين غانمين، فيظفروا غدا برضوان اللّه سبحانه، والجنة .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٩ / ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٤/ ٢١٩٣ رقم (٢٨٥٨)، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب منه ٤/ ٤٨٦ رقم (٢٣٢٣)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٦ رقم (٤١٠٨)، وأحمد فى: المسند ٤/ ٢٢٩، ٢٣٠ كلهم من حديث المستورد ابن شداد رضي الله عنه مرفوعًا به ، وبنحوه ، واللفظ لمسلم، وقال الترمذى معقبا على روايته : «هذا حديث حسن صحيح . . . » .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى هوان الدنيا على اللّه ـ عزّ وجلّ ٤/ ٤٨٥ رقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٦، ١٣٧٧ رقم (٤١١٠)، كلاهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعًا به، وبنحوه، واللفظ للترمذى، وعقّب عليه بقوله: « هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه » كما عقّب شهاب الدين البوصيرى فى: مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٤/ ٢١٣، ٢١٤ على رواية ابن ماجه بقوله : « هذا إسناد ضعيف لضعف زكريا بن منظور به » ثم ذكر له متابعات وشواهد تفيد أن أصل المتن صحيح .

الآفة الحادية عشرة
ضيق الأفق أو قصر النظر

والآفة الحادية عشرة التى يبتلى بها كثير من العاملين، ويعانى منها العمل الإسلامى أشد المعاناة ، إنما هى: « ضيق الأفق ، أو قصر النظر » .

وحتى نسهم فى اقتلاع هذه الآفة من نفوس من ابتلوا بها، وتحصين الآخرين ضدها ، ويسلم من شرها العمل الإسلامى، فإنه لابد من تقديم تصور دقيق واضح لها على النحو التالى:

أولا: مفهوم ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ضيق الأفق لغة : الأفق فى اللغة واحد الآفاق التى هى الجهات أو النواحى[1] ، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٢]، والنظر هو تأمل الشىء بالعين[2] ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، وهو كذلك تقليب البصيرة لإدراك الشىء ورؤيته[3] ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] . وتبعا لما ذكرنا، فإن ضيق الأفق فى اللغة ، يعنى انحسار أو انكماش جهة أو ناحية النظر والتأمل ، وكذلك قصر النظر يعنى ضعف أو اختلال البصر أو البصيرة أو هما معا .

ضيق الأفق اصطلاحا : أما مفهوم ضيق الأفق أو قصر النظر فى الاصطلاح الشرعى والدعوى : فهو ضعف أو خلل فى البصيرة ، يؤدى إلى حصر التفكير أو الرؤية في حدود ضيقه لا تتجاوز المكان والزمان ، أو بعبارة أخرى ، هو ضعف أو خلل فى البصيرة يؤدى إلى رؤية القريب وما تحت القدمين فقط، دون النظر إلى البعيد، ودون تقدير الآثار والعواقب، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] .

---

(١) انظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص ٢٧، وجامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ٢٥/ ٤ بتصرف كثير.
(٢) انظر: بصائر ذوى التميز ٥ / ٨٢ ، والصحاح فى اللغة و العلوم ص ١١٧٩ .
(٣) انظر : بصائر ذوى التميز ٥/ ٨٢ .

ثانيا : أسباب ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ولضيق الأفق أو قصر النظر أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، نذكر منها :

١ـ النشأة الأولى :

فقد ينشأ الإنسان فى بيئة لا تهتم كثيرا بتنمية الذّكاء الفطرى أو المواهب لدى أفرادها ، وتكون العاقبة انحسار دائرة التفكير أو النّظر والتأمّل إلا من رحم اللّه ـ عزّ وجلّ .

٢ـ صحبة نفر من ذوى الأفق الضيق والنظر القصير:

وقد يحيط بالإنسان صحبة ذات أفق ضيق ونظر قصير فتسرى آثار ذلك إلى هذا الإنسان ، فإذا به يواجه كلّ المواقف بنفس النّمط ، وعلى هذا المنوال، إذ المرء على دين خليله .

٣ـ الانزواء أو العزلة :

وقد يؤثر الإنسان الانزواء أو العزلة ،إما لعدم القدرة على التوفيق بين الفردية والجماعية ، وإما إيثاراً للعافية والسلامة ، ومثل هذا وإن جنى كثيرا من ثمار العزلة أو التفرد، فإنه يخسر أول ما يخسر الخبرة أو التجربة، تلك التى تستفاد من ملازمة الجماعة والارتماء فى أحضانها ، والتى تساعد على اتساع الأفق ، وبعد النظر ، وحين يخسر الإنسان الخبرة أو التجربة ، فإنه يظل ذا أفق ضيّق ، ونظر قصير محدود .

٤ـ عدم الفهم لدور أو لرسالة الإنسان فى الأرض :

وقد لا يفهم الإنسان دوره أو رسالته فى الأرض ، من أنه خليفة فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وأن هذه الخلافة إنما هى سيادة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وعبودية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] .

وإن تحقيق هذا الدور أو الرسالة يقتضى التبصّر والتدبّر: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] .

والعمل الدائم بالليل والنهار: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥]

وقد لا يفهم الإنسان ذلك كله ، فيقعد وينام، أو ينطلق على غير هدى وبصيرة، وأنَّى لهذا أن يكون واسع الأفق ، أو بعيد النظر ؟

٥ـ عدم الفهم لحقيقة ومضمون الإسلام :

قد لا يفهم المسلم حقيقة ومضمون الإسلام ، من أنه دين شامل للحياة جميعا، وإلى قيام الساعة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾

[المائدة : ٣]

وأن الدعوة إليه، والتمكين له فى الأرض يقتضى الحكمة التى من لوازمها اتساع الأفق ، وبعد النظر ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] . ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل : ١٢٥]

قد لا يفهم المسلم ذلك فيدعو إلى هذا الإسلام، ويعمل على التمكين له دون أن يجهد نفسه فى تحصيل الحكمة، وأنى لمن حرم الحكمة أن يكون واسع الأفق بعيد النظر؟

٦ـ عدم الإلمام بواقع الأعداء ، وأسلوبهم فى العمل :

وقد يكون المسلم غير ملمّ بواقع الأعداء ، وأسلوبهم فى العمل ، من أنهم كثرة ، وأن لديهم العتاد والعدد ، وأن أسلوبهم فى العمل يقوم على الدهاء والمكر والخديعة ، قد لا يلمّ المسلم بذلك كله ، فتضيع عليه فرصة اكتساب الخبرة والدراية والتجربة ، وأنّى لمن لم يكتسب خبرة ولا دراية ، ولا تجربة أن يكون واسع الأفق بعيد النظر؟

٧ـ الإعجاب بالنفس ، بل الغرور والتكبّر :

وقد يكون الإنسان معجبا بنفسه، مغرورا ، متكبّرا ،فيحمله ذلك على الترفّع، والاستعلاء، أن يكتسب من غيره خبرة، أو مهارة أو تجربة ،فيبقى طول حياته محدود الأفق ، قصير النظر .

٨ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على ضيق الأفق أو قصر النظر :

وقد يكون المسلم غافلاً عن العواقب أو الآثار المترتبة على ضيق الأفق أو قصر النظر، فيقنع بما هو عليه دون أن يجهد نفسه ، أو أن يعمل فكره فى تلاشى هذه العواقب ، أو تلك الآثار، ومثل هذا يظل طول حياته ضيق الأفق، محدود النظر.

٩ـ الجهل بأخبار وحوادث الماضين :

وقد يكون المسلم جاهلا بأخبار وحوادث الماضين ، وكيف كانوا يتصرفون بإزاء المواقف المباغتة أو المفاجئة، ومثل هذا يعيش محروما من الخبرة والدراية والتجربة، التى هى أساس اتساع الأفق ، وبعد النظر ، وصدق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يقول عن أخبار وحوادث الماضين : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] . ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

١٠ـ ضعف الصّلة بالله ـ عزّ وجلّ :

وقد يكون المسلم ضعيف الصّلة بالله ـ عزّ وجلّ ـ بأن يكون غير محترز من المعاصى والسيئات ، لاسيّما الصغائر منها، أو أن يكون مفرّطا فى عمل اليوم والليلة، أو أن يكون مهملا لجانب فعل الخيرات ، فيعاقب على ذلك كلّه بالحرمان من الحكمة التى هى أساس سعة الأفق ، وبعد النظر .

ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى فى كتابه الحكيم :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

ومن قوله ﷺ فى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى: من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته »[1] .

ثالثا : مظاهر أو سمات ضيق الأفق أو قصر النظر :

ولضيق الأفق، أو قصر النظر مظاهر أو سمات يعرف بها وتدل عليه، نذكر منها:

١ـ التبرّم الشديد بالمنهج الدعوى أو الحركى الذى ارتضته الحركة الإسلامية المعاصرة من أجل التمكين لمنهج الله فى الأرض، ووصف هذا المنهج بالتخلف، وعدم القدرة على مواكبة ظروف ومستجدات العصر، بل ووصف القائمين عليه بالركون إلى الدنيا إيثاراً للعافية والسلامة .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب التواضع ٨/ ١٣١، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به ، وأخرج أحمد فى: المسند ٦ / ٢٥٦ نحوه مرفوعًا، من حديث عائشة رضي الله عنها .

٢ـ حصر الجهد فى جوانب، وإن كانت مفيدة إلا أنها ثانوية، تستهلك طاقة كبيرة، ووقتا طويلا، مثل العمل على بناء مسجد، أو إنشاء جمعية خيرية أو إلقاء موعظة، أو تأليف كتاب، أو قراءة ومطالعة، أو عيادة مريض، أو محاولة جمع الناس على رأى واحد فى مسائل الفروع، أو المسائل المختلف فيها، وهكذا دواليك.

٣ـ الصلابة أو الشدة عند التقصير فى سنّة من السّنن، أو هيئة من الهيئات، والسكوت وعدم تغير القلب، أو تمعّر الوجه عند تضييع فريضة من الفرائض، أو واجب من الواجبات ، فتراه مثلا يقيم الدنيا ولا يقعدها على من لا يهتم بتقصير ثيابه، أو لا يحافظ على السّواك ، أو لا يلبس الساعة فى اليد اليمنى، ولا تتحرّك فيه شعرة عندما يرى حكم اللّه معطّلا فى الأرض، وأهل الباطل يصدون عن سبيل اللّه، ويسومون أولياء اللّه سوء العذاب .

٤ـ علاج المشكلات التى تعانى منها الأمة الإسلامية بطريق تعاطى المسكنات دون البحث عن أصل الداء ، وسبب العلة ، ثم اجتثاث هذا الأصل أو هذا السبب من جذوره، فمثلا نسمع ونرى علاج مشكلة الحانات والبارات، ومراكز الفيديو الداعرة ، إنّما يكون بالتكسير، وإشعال الحرائق ، وحقيقة العلاج يجب أن ينصرف إلى إيجاد السلطان الذى يقيم شرع اللّه فى الأرض ، فإن اللّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ثم إحداث وعى فى الأمة يغيّر العرف العام ، ويجعلها تحمل مسئولية أو أمانة تطبيق شرعة اللّه بنفسها .

٥ـ استعجال النتائج، أو قطف الثمار قبل أوانها، وقد قيل : من استعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

رابعا : آثار ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ولضيق الأفق ، أو قصر النظر آثار سيئة ، وعواقب وخيمة على العاملين وعلى العمل الإسلامى ، وهاك طرفا منها :

أـ آثار ضيق الأفق على العاملين :

فمن آثار ضيق الأفق أو قصر النظر على العاملين :

١ـ تبديد الجهود ، وإهدار الطاقات :

فالأثر الأول : تبديد الجهود وإهدار الطاقات فى أمور نافعة ومفيدة لكنها ثانوية بل هامشية، وإذا بدّدت الجهود، وأهدرت الطاقات فى مثل هذه الأمور، فإن المسلم العامل سيعجز بعد ذلك ، ويفقد القدرة على مواجهة المهام الجسام ، والتبعات الضخمة.

ولعل هذا الأثر هو المفهوم من توجيه القرآن للمسلمين أوّل مرّة : أن يقيموا الإسلام فى أنفسهم، وأن يحسنوا الترابط فيما بينهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الاعلى]، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]، دون أن يستجيبوا لأى إثارة .

أو يردوا على أى أذىً أو اضطهاد يوجه إليهم من عدوهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] ، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

[الحجر]

كل هذا من أجل أن تنمو طاقاتهم، وتتضاعف جهودهم، بل ويحتفظ بهذه الجهود، وتلك الطاقات لتوجّه نحو النافع والمفيد ، فى الوقت المناسب وفى اللحظة المناسبة، وقد كان . . . فإن أولئك الذين جاهدوا أنفسهم وترابطوا فيما بينهم، وأوذوا فصبروا طوال المرحلة المكّية، وسنتين من المرحلة المدنيّة، نجحوا فى أول مواجهة مع عدوّهم فى بدر ، رغم عدم التكافؤ بين الفريقين ، لا فى العدد، ولا فى العُدد، وسجّلت لهم صور تدل على مدى امتلائهم وشحنهم من داخلهم ضد أعداء الله وأعدائهم، ولعل من أبرز هذه الصور ما صنعه بلال بن رباح مع أمية بن خلف ؛ إذ يقول عبد الرحمن بن عوف :

كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيتى (خاصتى) بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ، فلمّا ذكرت الرحمن ،قال : لا أعرف الرحمن، كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ، فلما كان فى يوم بدر ، خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس ، فأبصره بلال ، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار ، فقال : أمية بن خلف !! لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا ، خلّفت لهم ابنه لأشغلهم ، فقتلوه ، ثم أتوا حتى يتبعونا ، وكان رجلا ثقيلا، فلما أدركونا، قلت له: ابرُك ، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه [١] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوكالة : باب إذا وكل المسلم حربيا فى دار الحرب أو فى دار الإسلام جاز ٣ / ١٢٩ من حديث صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه ، عن جده عبد الرحمن بن عوف t مرفوعا به ، وزاد فى آخره :
« وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه » .

٢ـ اليأس والقنوط :

والأثر الثانى هو اليأس والقنوط ، وذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر، سيواجه فى طريقه كثيرا من العقبات والصعاب، ولن يستطيع ـ لضيق أفقه أو لقصر نظره ـ استيعاب هذه العقبات ، وتلك الصعاب ، ومحاولة التغلب عليها ، وتكون النتيجة : اليأس والقنوط ، بله القعود عن أداء الدور والقيام بالواجب .

ولعمرى ذلك هو أهم ما يسعى إليه أعداء اللّه ، ليخلو لهم الجو، ويفسح أمامهم المجال ، (خلا لك الجو، فَبِيضِي واصْفِرى) [1] .

٣ـ قلة ـ بل تلاشى ـ كسب الأنصار والمؤيدين :

والأثرالثالث إنما هو قلة بل تلاشى ـ كسب الأنصار والمؤيدين، ذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر نادرا ما يصادفه التوفيق والنجاح، ومن يفقد التوفيق والنجاح لا يبقى لديه ما يغرى به الناس، حتى يكسب منهم نصيرا ، أو على الأقل مؤيدا ، والواقع يؤيد ذلك، فكم من ضيّق أفق أو قصير نظر، يعيش ويموت، وليس من حوله إلا أفراد يعدون على الأصابع، فضلا عن نفور كثير من الناس منه، وإعراضهم عنه .

٤ـ الحرمان من التوفيق الإلهى :

والأثرالأخير إنّما هو الحرمان من التوفيق الإلهى، ذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر، يريد من كل الناس السّير وفق تصوّره الضيّق، ورؤيته المحدودة، ولن يستجيب له الناس، وحينئذ يسلقهم بألسنة حداد، ويجعل من لحومهم غذاء شهيا، وأنّى لمن يلغوا فى أعراض الناس، ويعيش على لحومهم، أن يمنحه ربّه توفيقا أو تأييدا ؟

ب ـ آثار ضيق الأفق على العمل الإسلامى :

ومن آثار ضيق الأفق أ و قصر النظر على العمل الإسلامى :

---

(١) هذا مثل يضرب فى الحاجة يتمكن منها صاحبها ، وأول من قال ذلك : طرفة بن العبد الشاعر ، ذلك أنه كان مع عمه فى سفر وهو صبى ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيخ له، فنصبه للقنابر، وبقى عامة يومه فلم يصد شيئا ، ثم حمل فخه ، ورجع إلى عمه ، وتحمّلوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحب فقال :

يا لك من قنبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقّرى ما شئت أن تنقّرى ... قد رحل الصياد عنك فابشرى
ورفع الفخ فماذا تحذرى ... لا بد من صيدك يوما فاصبرى

انظر : مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ المثل رقم (١٢٦٨) .

١ـ التشويه :

ذلك أن ضيق الأفق ، وقصر النظر سيوجّه العمل الإسلامى إلى علاج المشكلات عن طريق المسكّنات ، دون النّظر فى الأسباب ، وبترها من جذورها على النحو الذى ذكرنا آنفا ، ومثل هذا الأسلوب فى العمل غير مجد ، فضلا عما سيصاحبه من طول الطريق ، وكثرة التكاليف ، وحينئذ يجدها أعداء اللّه فرصة للتشويه ، وتقديم الإسلام وصورة العمل له على أنّهما غير قادرين على مواجهة مشكلات العصر ، ووضع الحلول المناسبة لها.

٢ـ المصادرة :

وذلك أن العمل الإسلامى يواجه كثيرا من العقبات والصعاب التى يضعها أعداء اللّه فى طريقه ، وضيق الأفق أو قصر النظر سيؤدى إلى الصدام بهذه العقبات وتلك الصعاب، وعدم القدرة على استيعابها أو التحايل عليها، وحينئذ تكون المصادرة وعدم السماح بالاستمرار .

٣ـ الضرب أو على الأقل الإجهاض :

وذلك أن ضيق الأفق أو قصر النظر سيحرم العمل الإسلامى من الأنصار والمؤيدين، بل من التوفيق والعون الإلهى ، ويوم يحرم العمل الإسلامى من ذل ، فإنه يسهل على أعداء اللّه ضربه، أو على الأقل إجهاضه، والرجوع به إلى الوراء عشرات السنين .

خامسًا : علاج ضيق الأفق ، أو قصر النّظر :

هذا ، ويمكن علاج ضيق الأفق ، أو قصر النظر ، بل والتحصن ضدّه، باتباع الأساليب التالية :

١ـ التعويد على حمل المسئولية فى الصّغر، ومنذ نعومة الأظفار، فإن ذلك يكسب الإنسان كثيرا من الخبرات والتجارب ، وينمّى لديه مواهبه أو ذكاءه الفطرى ، فإذا شبّ بعد ذلك ، كان واسع التصور بعيد الرؤية.

ولنا فى أنبياء اللّه ورسله ، لاسيما محمد ﷺ الأسوة والقدوة، إذ حملوا بأنفسهم مسئولية الحياة فى الصغر ، ومنذ نعومة أظفارهم ، الأمر الذى ساعد على تنمية مواهبهم ، وقدرتهم على سياسة النفوس وإصلاحها بعد الرّسالة .

وقد لفت النبى ﷺ النظر إلى هذا الأسلوب التربوى حين قال : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة »[1] .

٢ـ اقتلاع النفس من بين ذوى الأفق الضيق ، والنظرة المحدودة ، والارتماء فى أحضان أصحاب الخبرات والتجارب ، الذين اتسموا بسمة التصور الواسع ، والرؤية البعيدة ، وملازمة هؤلاء دوما ، مع التواضع وخفض الجناح لهم ، فإن ذلك يؤدى بمرور الزمن إلى تنمية المواهب الفطرية ، وتعلم الحكمة التى يعدّ اتساع الأفق أوبعد النظر أمارة من أماراتها ، وسمة بارزة من سماتها .

٣ـ الفهم الدقيق لرسالة الإنسان ودوره فى الأرض ، وسبيل القيام بهذا الدور وهذه الرسالة .

٤ـ الفهم الدقيق لحقيقة ومضمون الإسلام ، وسبيل العمل أو التمكين له فى الأرض ، فإنّ هذا الفهم كثيرا ما يحمل على جمع الهمّة من أجل التطبيق والتنفيذ ، الأمر الذى يساعد على سعة الأفق ، وبعد النظر .

٥ـ الإلمام التام بواقع الأعداء ، وسبيلهم أو منهاجهم فى العمل ، فإن هذا الإلمام كثيرا ما يحمل صاحبه على قدح زناد الفكر ، والاحتيال من أجل إبطال هذه السبيل ، أو هذا المنهج ، وذلك هو ما نعنيه بسعة الأفق ، وبعد النظر .

٦ـ معايشة رسول الله ﷺ فى سيرته، فإنها حافلة بالكثير من المواقف التى تساعد على سعة الأفق وبعد النظر، وحسبنا من هذه المواقف ما أثر عنه ﷺ من أنه لم يحطم الأصنام الموجودة فى جوف الكعبة وعلى سطحها إلا فى العام الثامن من الهجرة يوم فتح مكّة ؛ لأنه كان يرى أن البدء بتحطيم هذه الأصنام قبل تحطيم الأصنام الموجودة بداخل النفوس، تلك التى توجه وتدعُو إلى الشرك والإثم والرذيلة ، سيساعد على إعادة بناء هذه الأصنام من الذهب، بدلا من الحجارة ، بل سيضاعف من عددها ، لذا

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإجارة : باب رعى الغنم على قراريط ٣/ ١١٥ ، ١١٦، وكتاب الأطعمة : باب الكباث . وهو ثمر الأراك ٧/ ١٠٥ ، وكتاب الأنبياء : باب يعكفون على أصنام لهم ٤/ ١٩١، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الأشربة: باب فضيلة الأسود من الكباث ٣/ ١٦٢١ رقم (٢٠٥٠)، وابن ماجه فى: السنن : كتاب التجارات : باب الصناعات ٢/ ٧٢٧ رقم (٢١٤٩)، ومالك بلاغا فى: الموطأ: كتاب الجامع: باب ما جاء فى أمر الغنم ص ٦٨٩ رقم (١٧٧٠)، وأحمد فى: المسند ٣ / ٣٢٦، كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعا بنحوه ، إلا أن الرواية الأولى عند البخارى وابن ماجه ، فإنها فيهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به .

تركها ، وعمد إلى إصلاح النفوس من داخلها، تطبيقا لقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد :١١] .

حتى إذا صلحت هذه النفوس، واستقامت على منهج الله ، وترابطت فيما بينها قادهاﷺوفتح بها مكّة ، وحطم بها هذه الأصنام .

وكذلك ما أثر عنهﷺفى صلح الحديبية، إذ قبل هذا الصلح، رغم القسوة التى انطوت عليها شروطه حتى ضايق ذلك كثيراً من الصحابة وعلى رأسهم عمر ﷺ ؛ لأنه ﷺ كان ينظر بعين النبوّة، وكان يرى أن هذه الشروط، وإن بدا أنها قاسية، فإنها ستسفر عن خير كثير للمسلمين ، وذلك هو ما أكّده الواقع، فقد زاد عدد المسلمين بعد الحديبية إلى أضعاف أضعاف ما كانوا قبله، حسبنا أن عدد المقاتلين فى غزوة الخندق، وهى التى كانت فى السنة الخامسة من الهجرة ، كان ثلاثة آلاف ، وإذا به يصل يوم فتح مكة إلى عشرة آلاف، وما حدث هذا إلا بسبب التزاور والاختلاط بين الفريقين ، واطّلاع المشركين على أخلاق المسلمين وأحوالهم؛ نتيجة الهدنة ، ووضع الحرب بين الفريقين لعشر سنوات .

وكذلك جاء المشركون بعد فترة من إبرام هذا الصلح يطالبون بإلغاء شرط: «ومن جاء إلى النبىﷺمسلما، ردّه إلى المشركين » بعد ما أذاقهم أبو بصير ورفاقه الأمرّين، وبعد ما قطعوا طريق تجارتهم حتى اضطروهم إلى أكل الجيف والميتة ، وأوراق الشجر من شدة الجوع .

هذه المواقف وغيرها تعلّم كيف تكون سعة الأفق ، وبعد النظر .

٧ـ حسن الصّلة بالله ـ عزّ وجل ـ من ترك للمعاصى والسيئات ـ صغيرها وكبيرها ـ ومن المواظبة على عمل اليوم والليلة، ومن التفانى فى فعل الخيرات، فإن ذلك يورث الحكمة التى عنوانها : سعة الأفق ، وبعد النظر .

٨ ـ دوام الاطلاع على خبرات وتجارب الماضين ، فإنها مشحونة بالكثير والكثير الذى يكسب الخبرات ، والتجارب، وينمّى المواهب والقدرات، وحسبنا فى هذا المقام، ما أثر عن الحافظ أبى الفرج المعروف بابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) إذ سأله رافضى فى مجلس وعظ عام، قائلا له: يا سيدى، نريد كلمة ننقلها عنك، أيّهما أفضل، أبو بكر أو علىّ ؟

وأدرك أبو الفرج خبث السؤال ، وخطورته ، فرد على الفور : أفضلهما من كانت بنته تحته [١] . وهذه عبارة محتملة لوجهين ؛ لذا فهى ترضى الفريقين : الرافضة، وأهل السنة ، وما كان هذا الجواب إلا لسعة الأفق ، وبعد النظر .

وحسبنا أيضا ما قاله الشيخ حسن البنّا ردّاً على مؤلّف كتاب : « أحداث صنعت التاريخ »، وقد حمل إليه مقالا كتبه يبطل فيه المقال الذى نشره سيّد قطب فى جريدة الأهرام فى أواخر الثلاثينات حيث دعا سيد قطب فى هذا المقال دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم . قرأ الشيخ حسن البنا الرّد ، ثم أطرق طويلا ـ على غير عادته ـ والتفت إلى كاتب مقال الرّد ، واسمه « محمود » وقال له : يا محمود، إن المقال متين الأسلوب ، قوىّ الحجّة ، جدير أن ينشر، وقد سبق أن أجزت لك بعض ما نشرته فى بعض الصحف اليومية . . . ولكن فى هذه المرّة مرّت بخاطرى عدّة خواطر ، أحب أن أعرضها عليك ، فقال :

أولا :لا شك أن فكرة المقال مثيرة ، تجرح قلب المؤمن.

ثانيا : كاتب هذ المقال شاب متأثر بالبيئة التى تعرفها، ونعرفها، وهى التى تغذّيه بمثل هذه الأفكار .

ثالثا : إن هدف الشاب من كتابة هذا المقال ليس مجرّد التعبير عمّا يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار إليه ، على أساس عُرْفهم من أنّ الغاية تبرر الوسيلة.

رابعا: إن قرّاء « الأهرام » عدد محدود بالنسبة لسكان هذه البلاد ـ يعنى بها مصر ـ وليس كل قرّاء « الأهرام » قد قرأوا هذا المقال ، فأكثرقراء الأهرام لا يقرءون فيه إلا الأخبار، وأكثر الذين قرءوا المقال لم يستوعبوا فكرته ؛ لأنهم اعتادوا قراءة المقالات غير الرئيسة قراءة عابرة .

خامسا: إذا نشرنا ردّاً على هذا المقال فى « الأهرام » كانت لذلك النتائج الآتية :

أ ـ سيثير نشر الرد اهتمام الذين لم يقرءوا المقال الأصلى إلى البحث عنه وقراءته، كما سيدفع الذين قرأوه قراءة عابرة أن يقرأوه مرة أخرى قراءة متأنية،وستبرز بذلك فكرة المقال فى مختلف المجتمعات وتكون موضوع مناقشة واهتمام ،ونكون بذلك قد عملنا ـ من حيث لا نقصد ـ على تحقيق مأرب صاحب المقال ، من جذب الأنظار إليه، وجعل اسمه على الألسنة .

---

(١)انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٢١ / ٣٧١ .

ب ـ نكون ـ من غير قصد ـ قد تسبّبنا فى لفت الأنظار إلى لون من الرذائل ربما علقت به بعض النفوس الضعيفة ، ولو لم نرد عليه لمرّت الدعوة إلى هذه الرذائل فى غفلة من الناس،غير معارة أى اهتمام، ولطمرت فى طيات النسيان.

جـ ـ الردّ نوع من التحدّى يخلف فى نفس المرء المردود عليه نوعا من العناد، وهذا العناد يجعله يتعصّب لرأيه مهما اقتنع بخطئه ، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خطّ الرجعة ، وفى هذا خسارة نحن فى غنى عنها .

وهـذا الكاتب شاب ، وتـرك الفرصـة أمامـه للرجوع إلى الحقّ خير من إحراجه، وما يدريـك لعلّ هذا الشاب يفيق من غفلتـه ،ويفىء إلى الصواب، ويكـون ممّن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام، ثم قال: ما رأيك فى هذه الخواطر؟ قلت ـ أى كاتب الرد : إنها مقنعة تمام الإقناع . . . ومزّقت الردّ بين يديه (١).

وتمر الأيام، ويصير «سيد قطب» ـ رحمه اللّه ـ علما من أعلام الدعوة الإسلامية، بل شهيدا من شهدائها .

ولعل السر فى ذلك هو توفيق اللّه أولا، ثم هذه البصيرة النافذة ، والرأى الملهم اللذين كان يتمتع بهما الشيخ حسن البنا ـ رحمه اللّه تعالى .

وحسبنا كذلك ما قاله داعية ملهم لشابّين من شباب هذ ا العصر ـ الملتزم بالإسلام عن ضيق أفق وقصر نظر ـ وقد رآهما يختلفان على مقدار الممسوح من الرأس، أهو شعرات، أم الربع، أم النصف ، أم الرأس كله ؟ ووصل الاختلاف إلى حد التراشق بالكلام، بل إلى حد الضرب ، قال لهما : احميا هذه الرأس من القطع أولا،فإن هناك مؤامرة من قبل أعداء اللّه على قطعها، ثم بعد ذلك اختلفا فى مقدار الممسوح منها .

٩ـ النظر فى عواقب قصر النظر أو ضيق الأفق ، سواء على العاملين ، أو على العمل الإسلامى على النحو الذى شرحنا آنفا، فلعل ذلك يشحذ الهمم، أو يحرك العزائم فتسعى إلى سعة الأفق ، ونفاذ البصيرة .

---

(١) انظر : أحداث صنعت التاريخ ١ / ١٩١ ، ١٩٢ .

الآفة الثانية عشرة
ضعف أو تلاشى الالتزام (*)

والآفة الثانية عشرة التى يبتلى بها نفر من العاملين، وتكون ذا أثر خطير عليهم، وعلى العمل الإسلامى، إنّما هى : « ضعف أو تلاشى الالتزام » .

وحتى نسهم فى اقتلاع هذه الآفة من النفوس التى ابتليت بها وحتى نحمى النفوس الأخرى التى عافاها اللّه ـ عز وجل ـ منها فإنّه لا بدّ من تقديم تصور واضح، أو قريب من الواضح عنها، وذلك على النحو التالى :

أولا : مفهوم ضعف أو تلاشى الالتزام :

ضعف أو تلاشى الالتزام لغة : يطلق الالتزام فى اللغة على عدّة معان، منها:

أ ـ الاستمساك أو الاعتناق والالتصاق بالشىء، تقول : التزم الشىء، وبالشىء تعنى: استمسك به أو اعتنقه والتصق به، وفى لسان العرب: والالتزام: الاعتناق[1]، ومنه فى الحديث الشريف : أنه ﷺ ما زال يهتف بربه يوم بدر، مادّاً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال : « يا نبى اللّه، كذاك أو كفاك مُناشدتك ربك . . . » [2] . ومنه أيضا قول عبد اللّه بن مغفّل فى الحديث : أصبت جرابا من شحم يوم خيبر، قال: فالتزمته، فقلت : لا أعطى اليوم أحدا من هذا شيئا ، قال : فالتفت فإذا رسول اللّه ﷺ مبتسما [3] .

(*) قد يقع فى صدر القارئ أن هذه الآفة تكرار لآفة « الفتور »، والحقيقة أنه لا تكرار ؛ لأن الفتور يعنى بذل بعض الجهد مع الانضباط والدقة، أما هذه فتعنى بذل الجهد كله مع قلة انضباط ودقة، أو مع عدم انضباط ودقة بالمرة، واللّه أعلم .

(1) انظر : لسان العرب ١٢ / ٥٤٢ .

(2) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم ٣ / ١٣٨٣ ـ ١٣٨٥ رقم (١٧٦٣) من حديث عبد اللّه بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا به .

(3) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجهاد والسير : باب جواز الأكل من طعام الغنيمة فى دار الحرب ٣ / ١٣٩٣ رقم (١٧٢٢)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد: باب فى إباحة الطعام فى أرض العدو ٣/ ٦٥ رقم (٢٧٠٢)، والنسائى فى: السنن: كتاب الضحايا : باب ذبائح اليهود ٧/ ٢٣٦ رقم (٤٤٣٥)، والدارمى فى: السنن: كتاب السير : باب أكل الطعام قبل أن تقسم الغنيمة ٢/ ٢٣٤، كلهم من حديث عبد اللّه بن مغفل مرفوعا به .

ب ـ الفرض أو الإيجاب على النفس؛ تقول : التزم الشيء أو الأمر: أوجبه على نفسه، والتزم فلان للدولة : تعهّد أن يؤدى قدرا من المال لقاء استغلاله أرضا من أملاكها، فهو ملتزم [١] .

وعليه فإن ضعف أو تلاشى الالتزام في اللغة، إنّما هو التقصير فى الاستمساك بالشيء أو اعتناقه والالتصاق به، أوعدم الاستمساك بالشيء والالتصاق به أو الاعتناق له بالمرة،وهو أيضا التقصير أو عدم الوفاء بالمرة بما يوجبه أو يفرضه المرء على نفسه .

اصطلاحا : أمّا ضعف أو تلاشى الالتزام فى اصطلاح العلماء ، والدعاة : فهو التقصير أو عدم الوفاء بما يتعهد به المسلم، أو يفرضه ويوجبه على نفسه من الصالحات، حين يرضى باللّه ربّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدﷺ نبيًا ورسولا ، بل حين يرضى أن يكون فى صفوف الدّعاة ، وضمن قافلة العاملين من أجل التمكين لمنهج اللّه فى الأرض.

ثانيا : مظاهر ضعف أو تلاشى الالتزام :

ولضعف أو تلاشى الالتزام مظاهر تدلّ عليه، وسمات يعرف بها، نذكر منها:

١ـ عدم الدقة أو عدم الانضباط فى الحديث والموعد .

٢ـ إصدار الأحكام دون تثبت أو تبيّن .

٣ـ الفجور فى الخصومة، أو عدم رعاية أدب الخلاف .

٤ـ الإصغاء للإشاعات، والأراجيف .

٥ـ نبذ الطاعة إلا فيما يوافق هوى النفس.

٦ـ عدم النهوض بالبيت من الأهل والولد إلى المستوى المنشود .

٧ـ عدم رعاية الآداب أو السلوكيات الاجتماعية .

٨ ـ عدم التضحية سواء بالنفس أو بالمال أو بهما معا .

٩ـ عدم الدّقة أو عدم الانضباط فى الحركة .

١٠ـ إهمال النفس من التنقية والتزكية .

١١ـ استعجال النصر دون تأنٍّ أو تروٍّ أو تأهب .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٢ / ٨٢٣.

١٢ـ الاجتهاد فيما لا مجال فيه للاجتهاد .

١٣ـ عدم الثبات أمام مطامع الحياة الدنيا، وعند المحن والشدائد .

١٤ـ إهدار حقوق الأخوّة .

١٥ـ التدخّل فيما لا يعنى .

وهلم جرا.

ثالثا : أسباب ضعف أو تلاشى الالتزام :

وهناك أسباب أو بواعث تؤدّى إلى ضعف أو تلاشى الالتزام،نذكر منها :

١ـ عدم الفهم أو عدم الإدراك لأبعاد ومعالم الالتزام :

ذلك أن عدم الفهم أو عدم الإدراك لأبعاد ومعالم أى أمر من الأمور يؤدى إلى رفضه، بل ومعاداته، كما قال اللّه ـ عزّ وجلّ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه ﴾ [يونس: ٣٩] .

وعليه فإن عدم الفهم، أو الفهم مع عدم الإدارك القلبى لأبعاد ومعالم الالتزام، سينتهى حتما بصاحبه إلى التقصير أو عدم الوفاء بما يقتضيه الدخول فى صفوف المسلمين، بل فى صفوف الدعاة والعاملين .

ولعل ذلك هو السرّ فى افتتاح آى التنزيل بالدعوة إلى الفهم، والفهم الصحيح الواعى المستنير : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] .

٢ـ الوسط الضعيف الالتزام أو غير الملتزم :

وقد تلقى الأقدار بالمسلم فى وسط ضعيف الالتزام، أو غير ملتزم بالمرة، فيأخذ فى الاقتداء والتأسّى، أو على الأقل فى المحاكاة والمشابهة، لاسيما إذا كان هذا الوسط ممّن يقتدى أو يتأسّى به، وتكون النتيجة ضعف أو تلاشى الالتزام.

ولعل هذا السبب يكشف لنا عن السر فى تأكيد الإسلام على الأسوة والقدوة الطيبة، وذمّه للأسوة والقدوة السيئة، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الاحزاب] .

فيضاعف ـ سبحانه ـ لهنّ العقاب على السيئة، والثواب على الحسنة، بسبب جوّ الطهر والعفاف الذى يعشن فيه، والذى يساعد على الطاعة والتقوى، وبسبب أن غيرهن يقتدى بهنّ، فيكون عليهنّ عقاب معصيتهن، وعقاب معصية من اقتدى بهنّ، وكذلك يكون لهنّ ثواب طاعتهنّ، وثواب طاعة من اقتدى بهنّ، جزاء وفاقا، لاسيّما وقد جاء عن النبىّ ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (١) .

والدعوة كما تكون بالقول تكون بالسلوك : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وإذ جاء عن عمر رضي الله عنه أنه رأى على طلحة بن عبيد الله ثوبا مصبوغاً وهو محرم، فقال عمر: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما هو مدر، فقال عمر: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم الناس، فلو أن رجلا جاهلا رأى هذا الثوب لقال: إن طلحة بن عبيد الله كان يلبس الثياب المصبغة فى الإحرام، فلا تلبسوا أيها الرهط شيئا من هذه الثياب المصبغة (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى مختصرا فى : الصحيح (الترجمة) : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب إثم من دعا إلى ضلالة، أو سنّ سنّة سيئة ٩ /١٢٧، ومسلم فى : الصحيح: كتاب العلم : باب من سنّ سنّة سيئة أو حسنة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ٤/ ٢٠٦٠ رقم (٢٦٧٤)، وأبو داود فى: السنن: كتاب السنة : باب لزوم السنة٤ / ٢٠١ رقم (٤٦٠٩)، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى ٥ / ٤٢ رقم (٢٦٧٤)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة: باب من سنّ سنّة حسنة أو سيئة ١/ ٧٥ رقم (٢٠٦)، والدارمى فى: السنن : المقدمة : باب من سن سنة حسنة أو سيئة ١/ ١٣٠، ١٣١، وأحمد فى:المسند ٢/٣٩٧، ٥٠٥، كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، وبنحوه، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أخرجه مالك فى: الموطأ : كتاب الحج : باب لبس الثياب المصبغة فى الإحرام، ص ٢٢٣ رقم (٧١٦)، وأحمد فى : المسند (١١/ ٢٠١ الفتح الربانى)، والبيهقى فى : السنن الكبرى : كتاب الحج: باب من كره لبس المصبوغ بغير طيب فى الإحرام مخافة أن يراه الجاهل فيذهب إلى أن الصبغ واحد، فيلبس المصبوغ بالطيب ٥/ ٦٠، كلهم من حديث نافع عن أسلم مولى ابن عمر عن ابن عمر موقوفا به.
والمدر فى قوله: « إنما هو مدر » : المغرة وهى الطين الأحمر لا شىء فيه، كأن المعنى: وإنما هو ثوب مصبوغ بالمغرة، وإنما كرهه عمر رضي الله عنه لئلا يراه من لا يعرف ذلك فيفهم أنه ورس أو زعفران، وكلاهما محظور، انظر : بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى للشيخ : أحمد عبد الرحمن البنا المعروف بالساعاتى ١١/ ٢٠١ .

٣ـ ضعف الإيمان :

وقد يكون ضعف الإيمان، ونزول مستواه فى نفس المسلم، هو السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام، ذلك أن الإيمان هو مصدر الطاقات المتجددة، بل هو الحارس والحامى لصاحبه من أن يهمل أو يقصّر أو يصرّ على الأخطاء ، إذ يقول النبىﷺ لمن قال له : إنك تواصل يا رسول اللّه : « وأيكم مثلى ؟ إنّى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى »[١] .

فقد بيّن جمهور علماء المسلمين المراد من هذا الكلام قائلين : « قوله: « يطعمنى ويسقينى » مجاز عن لازم الطعام والشراب، وهو القوة، فكأنه قال: يعطينى قوة الآكل والشارب، ويفيض علىّ ما يسدّ مسدّ الطعام والشراب، ويقوّى على أنواع الطاعة، من غير ضعف فى القوة، ولا كلال فى الإحساس. . . »[٢] .

وقال ابن حجر : « ويحتمل أن يكون المراد بقوله : « يطعمنى ويسقينى » : أى يشغلنى بالتفكر فى عظمته، والتملى بمشاهدته والتغذى بمعارفه، وقرّة العين بمحبّته، والاستغراق فى مناجاته، والإقبال عليه عن الطعام والشراب »[٣] .

---

(١) الحديث جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الصوم : باب بركة السحور من غير إيجاب ٣/ ٣٧ من حديث ابن عمر مرفوعا بنحوه، و باب الوصال ومن قال: ليس فى الليل صيام ٣/ ٤٨ من حديث أنس، وابن عمر، وأبى سعيد، وعائشة مرفوعا بنحوه، وباب التنكيل لمن أكثر الوصال ٣/ ٤٨، ٤٩ من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وباب الوصال إلى السحر٣ / ٤٩ من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا بنحوه، وكتاب التمنّى: باب ما يجوز من اللو ٩ / ١٠٦ من حديث أنس، وأبى هريرة، مرفوعا به، وبنحوه، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة : باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلوّ فى الدين والبدع ٩ / ١١٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب النهى عن الوصال فى الصوم، ٢ / ٧٧٤ ـ ٧٧٦ رقم (١١٠٢ ـ ١١٠٥)، من حديث ابن عمر، وأبى هريرة، وأنس، وعائشة ﷺ مرفوعًا به وبنحوه، وأبو داود فى: السنن: كتاب الصوم : باب فى الوصال ٢/ ٣٠٦،٣٠٧ رقم (٢٣٦٠، ٢٣٦١) من حديث ابن عمر،وأبى سعيد الخدرى مرفوعا بنحوه، والترمذى فى: السنن : كتاب الصوم : باب ما جاء فى كراهة الوصال للصائم ٣ / ١٤٨ رقم (٧٧٨)، من حديث أنس مرفوعا بنحوه، وعقب عليه قائلا : « وفى الباب عن على، وأبى هريرة، وعائشة، وابن عمر، وجابر، وأبى سعيد ، وبشير بن الخصاصية، وحديث أنس حديث حسن صحيح»، والدارمى فى : السنن : كتاب الصوم : باب النهى عن الوصال فى الصوم ٢ / ٧، ٨ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد مرفوعا بنحوه، ومالك فى الموطأ : كتاب الصيام : باب النهى عن الوصال فى الصيام ص ٢٠٣، ٢٠٤ رقم (٦٧١، ٦٧٢) من حديث ابن عمر وأبى هريرة مرفوعا به، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢١، ١٠٢، ١٥٣، من حديث ابن عمر، ٣/ ٨ من حديث أبى سعيد الخدرى ٣/ ١٢٤، ٢٥٣، من حديث أنس بن مالك مرفوعا بنحوه .

(٢ ، ٣) انظر : فتح البارى لابن حجر ٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

وقال ابن القيّم : « . . . إنّ المراد به ما يغذيه اللّه به من المعارف، وما يفيض على قلبه من لذّة مناجاته، وقرّة عينه بقربه، وتنعّمه بحبّه، والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التى هى غذاء القلوب، ونعيم الأرواح، وقرّة العين، وبهجة النفوس، والروح والقلب، بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه، وقد يقوى هذا الغذاء حتى يغنى عن غذاء الأجسام مدة الزمان، كما قيل:

لها أحاديث فى ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور يستضاء به ومن حديثك فى أعقابها حاد

إذا شكت من كلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

ومن له أدنى تجربة وشوق، يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح، عن كثير من الغذاء الحيوانى . . . » [(١)] .

وإذ يقول ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [(٢)] يعنى : لا يفعل هذه المعاصى وهو كامل الإيمان [(٣)] .

---

(١) انظر : زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ١ / ١٥٤، ١٥٥، وعنه نقل ابن حجر فى: فتح البارى ٤ / ٢٠٨ بمعناه لا بلفظه .

(٢) الحديث اخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب المظالم : باب النُّهبى بغيرإذن صاحبه ٣ / ١٧٨، وكتاب الأشربة: باب منه ٧ / ١٣٥، ١٣٦، وكتاب الحدود : باب لا يشرب الخمر ٨ / ١٩٥، ١٩٦ من حديث أبى هريرة مرفوعًا به وفيه زيادة : النهبة، وباب : السارق حين يسرق ٨ / ١٩٧، وكتاب المحاربين من أهل الكفر والردة : باب إثم الزناة، ٨/٢٠٣، ٢٠٤ من حديث ابن عباس وأبى هريرة مرفوعا به وبنحوه، دون ذكر للشرب ولا للنهبة فى رواية ابن عباس الأولى، وزيادة القتل فى الرواية الأخيرة عنه، وزيادة التوبة فى رواية أبى هريرة، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ١/ ٧٦، ٧٧ رقم (٥٧) من حديث أبى هريرة مرفوعا به، مع زيادة النهبة والتوبة فى بعض الروايات، والنسائى فى : السنن : كتاب السرقة : باب تعظيم السرقة ٨ /٦٤، ٦٥ رقم (٤٨٧١) من حديث أبى هريرة مرفوعا وفيه ذكر النهبة والتوبة، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب النهى عن النهبة ٢ / ١٢٩٨، ١٢٩٩ رقم (٣٩٣٦)، من حديث أبى هريرة مرفوعًا به وفيه ذكر النهبة، والدارمى فى: السنن : كتاب الأضاحى: باب النهى عن النهبة ٢ / ٨٧ من حديث أبى هريرة مرفوعًا مع الاقتصار على النهبة، وأحمد فى: المسند ٢/٣١٧، ٣٨٦ من حديث أبى هريرة مرفوعًا به وفيه ذكر النهبة والغلول والتوبة ٤/ ٣٥٢، ٣٥٣، من حديث عبد اللّه بن أبى أوفى مرفوعًا بنحوه ٦ / ١٣٩، من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا بنحوه .

(٣) انظر : فتح البارى لابن حجر ١٢ / ٦٠ .

وعليه، فإن المسلم إذا ترك هذا الإيمان بدون تجديد وتعهّد، فإن جذوته تخبو أو تضعف فى النفس، وتكون العاقبة ضعف أو تلاشى هذا الالتزام .

ولعل هذا السبب يضع أيدينا على الحكمة من وراء دعوة الإسلام إلى ضرورة تعهّد الإيمان فى القلب ، وعدم إهماله ولولحظة من نهار، إذ يقولﷺ : « إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا اللّه تعالى أن يجدد الإيمان فى قلوبكم »[1] . « جددوا إيمانكم »، قيل: يا رسول اللّه، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا اللّه »[2] .

٤ـ إقبال الدنيا والتعلق بها :

وقد يكون إقبال الدنيا ببريقها وزخارفها من الأموال والأولاد، والشهادات والوظائف، والمركز والجاه، وتعلق القلب بها، هى السبب فى ضعف أوتلاشى الالتزام، ذلك أنه: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤] . وعليه فإذا أقبلت الدنيا، وكان الاشتغال والتعلق بها، لم يبق هناك وقت ولا طاقة ولا فكر يساعد على الالتزام والالتزام الدقيق، وحينئذ يكون ضعف أو تلاشى الالتزام.

ولعل هذا هو سر تحذير الإسلام الشديد من إقبال الدنيا، والتعلق بها، إذ يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان]. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر]

وإذ يقول النبىﷺ : « . . . فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم »[3] . « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الإيمان، باب تجديد الإيمان ١ / ٥٢ من حديث عبد اللّه بن عمرو مرفوعا به، وعقّب عليه قائلا :« رواه الطبرانى فى الكبير، وإسناده حسن » .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢ /٣٥٩ من حديث أبى هريرة مرفوعًا به، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الإيمان : باب تجديد الإيمان ٥٢/١ من حديث أبى هريرة، مرفوعًا به، وعزاه إلى أحمد، وعقّب عليه قائلا : « وإسناده جيد، وفيه سمير بن نهار، وثقه ابن حبّان » .

(٣) الحديث جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجزية والموادعة مع أهل الحرب: باب منه ١١٧/٤، ١١٨، وكتاب المغازى: باب منه ٥ / ١٠٨، وكتاب الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ١١٢/٨، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب منه ٢٢٧٣/٤، ٢٢٧٤ =

فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم »[١] . وفى رواية : « إذا نظر أحدكم إلى من فضّل اللّه عليه فى المال، والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه »[٢] . « إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »[٣] . « تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش . . . »[٤] .

= رقم (٢٩٦١)، والترمذى فى: السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٥٢، ٥٥٣ رقم (٢٤٦٢) وقال عنه: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤، ١٣٢٥ رقم (٣٩٩٧) كلهم من حديث عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره، أن عمرو بن عوف وهو حليف عامر بن لؤى وكان شهد بدرا مع رسول اللّه ﷺ أخبره أن رسول اللّه ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمّر عليهم العلاء ابن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول اللّه ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟ » قالوا : أجل ، يا رسول الله، فقال: « أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم . . .» الحديث ، وهذا لفظ مسلم .

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب منه ٤/ ٢٢٧٥ رقم (٢٩٦٣)، والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٧٤ رقم (٢٥١٣)، وقال عنه : « هذا حديث صحيح » ، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد : باب القناعة ٢/ ١٣٨٧ رقم (٤١٤٢)، وأحمد فى: المسند ٢ / ٢٥٤، ٤٨١، ٤٨٢، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا به، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب لينظر إلى من هو أسفل منه ٨/ ١٢٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه ٤/ ٢٢٧٥ رقم (٢٩٦٣)، والترمذى فى: السنن: كتاب اللباس: باب ما جاء فى ترقيع الثوب ٤/ ٢١٥ رقم (١٧٨٠)، وقال عقيبه : « ويروى عن عون بن عبد اللّه قال: صحبت الأغنياء، فلم أر أحدا أكبر همّا منى، أرى دابة خيرا من دابتى، وثوبا خيرا من ثوبى، وصحبت الفقراء فاسترحت »، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣١٤، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا به وبنحوه، واللفظ لمسلم.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤/ ٢٠٩٨ رقم (٢٧٤٢)، والترمذى فى: السنن : كتاب الفتن : باب ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ٤/ ٤١٩، ٤٢٠ رقم (٢١٩١)، على أنه جزء حديث طويل، وعقّب عليه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الفتن : باب فتنة النساء ٢ / ١٣٢٥ رقم (٤٠٠٠)، وأحمد فى: المسند ٣/ ١٩، ٢٢، ٤٦، ٦١، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعا به، واللفظ لمسلم.

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد: باب الحراسة فى الغزو فى سبيل اللّه ٤/ ٤١، ٤٢، وكتاب الرقاق: باب ما يتّقى من فتنة المال ٨ / ١١٤، ١١٥، وابن ماجه فى: السنن :كتاب الزهد: باب فى المكثرين ٢/ ١٣٨٥، ١٣٨٦ رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخارى، وفى آخره : « طوبى لعبد آخذ عنان فرسه فى سبيل اللّه، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة » .

٥ـ المحن والشدائد :

وقد تكون المحن والشدائد فى داخل الصف، أو من خارجه، هى السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام، ذلك أن المحنة أو الشدة عندما تنزل بالإنسان فإنها تزلزل كيانه، وتكاد تعصف به إلا من رحم الله، لاسيّما إذا كان نزولها خاليا من الترقب والاستعداد، ومعرفة طريق الخلاص، وسبيل المواجهة، وحينئذ يشغل بها عن دوره الحقيقى، ورسالته السامية، ويكون ضعف أو تلاشى الالتزام .

ولعل هذا هو سرّ حديث الإسلام المتكرر عن المحن والشدائد، وكيفية التعامل معها، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة] . ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران] . ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)﴾ [آل عمران] . ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾ [آل عمران] .

وإذ يقول النبى ﷺ :

« إن الله ليجرب عليكم بالبلاء، وهو أعلم به، كما يجرّب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، فذلك الذى نجّاه الله من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذى افتتن »[١] . « إنكم ستلقون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض »[٢] .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك : كتاب الرقاق ٤ / ٣١٤ من حديث أبى أمامة مرفوعا به، وعقّب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه » وأقرّه على ذلك الذهبى فى : التخليص، وأورده السيوطى فى: الدر المنثور ١/ ٢٤٣ وعزاه إلى الحاكم على أنه من حديث أبى مالك، والذى نقلناه عن : المستدرك أنه من حديث أبى أمامة لا من حديث أبى مالك .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب مناقب الأنصار: باب قول النبى ﷺ للأنصار : « اصبروا =

« ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر اللّه بها من خطاياه » [(١)] .

٦ـ كثرة الأعباء مع طول ومشاق الطريق :

وقد تكون كثرة الأعباء، مع طول ومشاق الطريق هى السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام، ذلك أن الإنسان طاقة، وإذا حمّل عبئا فوق طاقته، فإنه ستأتى عليه لحظة يُسقط بعضه أو كله عن كاهله، لاسيّما إذا كانت الطريق طويلة وبها كثير من العقبات والمعوّقات، ولعل ذلك هو سرّ دعوة الإسلام إلى الأخوّة أو الجماعة ؛ إذ هى التى تشارك فى حمل الأعباء وتجاوز طول ومشاق الطريق .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]، ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] . ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه] . ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢]

ويقول النبى ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » [(٢)] . « مثل

= حتى تلقونى على الحوض» ٥/ ٤١، ٤٢، كتاب الرقاق : باب فى الحوض ٨ / ١٤٨ معلقا عن عبد الله ابن زيد، وكتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ: «سترون بعدى أموراً تنكرونها » ٩/ ٥٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة : باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم ٣ /١٤٧٤ رقم (١٨٤٥)، والترمذى فى: السنن : كتاب الفتن: باب فى الأثرة وما جاء فيه ٤ /٤١٨ رقم (٢١٨٩)، كلهم من حديث أنس بن مالك، وعقّب الترمذى على روايته قائلا : « وهذا حديث حسن صحيح » .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب المرضى (الطب) : باب ما جاء فى كفارة المرض ٧/١٤٨، ١٤٩، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣رقم (٢٥٧٣)، والترمذى فى: السنن: كتاب الجنائز: باب ما جاء فى ثواب المريض ٣ /٢٩٨ رقم(٩٦٦) وعقب على روايته قائلا : هذا حديث حسن فى هذا الباب»، وأحمد فى: المسند ٢ / ٣٠٣، ٣٣٥، ٣ / ٤، ١٨، ١٩، ٢٤، ٣٨، ٤٨، ٦١، ٨١ ، كلهم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهما مرفوعًا به، واللفظ للبخارى.وللحديث شواهد عند البخارى، ومسلم، والترمذى، وأحمد، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الصلاة : باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره ١/ ١٢٩، وكتاب المظالم: باب نصر المظلوم ٣/ ١٦٩ ،وكتاب الأدب: باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ٨/ ١٤، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤/ ١٩٩٩ رقم (٢٥٨٥)، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة: باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ٤/ ٢٨٧ رقم (١٩٢٨)، وأحمد فى : المسند ٤ /٤٠٩، كلهم من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم .

المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(١) .

٧ـ الأبوان :

وقد يكون الأبوان هما السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام، ذلك أن بعض الآباء قد تحمله عاطفة الحب لولده، على الحيلولة بين الولد والالتزام، لا سيّما فى هذا العصر الذى صار فيه الالتزام بالإسلام، بل والالتزام بالدعاة والعاملين لدين اللّه تهمة، وتهمة خطيرة تقود صاحبها إلى السجون والمعتقلات، أو النفى والتشريد فى الأرض، بل الموت أو القتل، ناسين أو متناسين أن الآجال بيد اللّه لا بيد البشر : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

وأن اللّه وحده هو الذى يعلم نهاية هذه الآجال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] .

وأن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون :١١]، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [نوح]، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] .

بل ناسين أو متناسين أنّ موسى ﷺ الذى ألقى فى اليمّ، وهو صغير لا حول له ولا قوة، نجاه اللّه، وكان هلاك فرعون طاغية مصر على يديه : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص] .

وأن يوسف ﷺ الذى ألقى من قبل فى الجب، أنجاه اللّه،ومكّن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وقال لإخوته فى النهاية: ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب رحمة الناس والبهائم ٨/ ١١، ١٢، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤/ ١٩٩٩، ٢٠٠٠، رقم (٢٥٨٦)، وأحمد فى: المسند٤/ ٢٧٠، ٢٧١ ٢٧٦، ٢٧٨، كلهم من حديث النعمان ابن بشير ؓ مرفوعا به، واللفظ لمسلم .

٨ ـ الاستجابة للوساوس والشبهات الشيطانية :

وقد تكون الاستجابة للوساوس والشبهات الشيطانية هى السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام، ذلك أن الشيطان قاعد للإنسان ـ لاسيّما المسلم ـ بالمرصاد، يوسوس بإلقاء الشبهات والأباطيل كى يصرفه عن طريق اللّه أو على الأقل يجعل سيره فى هذه الطريق محفوفا بالتضييع والتفريط، وحين يستجيب المسلم إلى هذه الوساوس، وتلك الشبهات، يبتلى بضعف أو تلاشى الالتزام .

تلاشى الالتزام، ذلك أن الشيطان قاعد للإنسان ـ لاسيّما المسلم ـ بالمرصاد، يوسوس بإلقاء الشبهات والأباطيل كى يصرفه عن طريق اللّه أو على الأقل يجعل سيره فى هذه الطريق محفوفا بالتضييع والتفريط، وحين يستجيب المسلم إلى هذه الوساوس، وتلك الشبهات، يبتلى بضعف أو تلاشى الالتزام.

ولعل هذا هو السرّ فى دوام تحذير الإسلام لنا من الشيطان الرجيم ووسوسته فلا نسمع لها، ولا نستجيب، يقول الحقّ ـ سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الاعراف: ٢٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) ﴾ [البقرة] . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾

[سورة الناس]

ويقول النبى ﷺ:

«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر، وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد»، فقال رسول اللّه ﷺ: «فمن فعل ذلك كان حقًا على اللّه ـ عزّ وجلّ ـ أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقًا على اللّه ـ عز وجل ـ أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته، كان حقا على اللّه أن يدخله الجنة»[1] .

---

(١) الحديث أخرجه النسائى فى: السنن : كتاب الجهاد : باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد ٦ / ٢١، ٢٢ رقم (٣١٣٤)، وأحمد فى: المسند ٣ / ٤٨٣، كلاهما من حديث سبرة بن أبى فاكه ﷺ مرفوعا، واللفظ للنسائى .

٩ـ عدم المتابعة من الآخرين :

وقد يكون السبب فى ضعف أو تلاشى الالتزام إنما هو عدم المتابعة من الآخرين . ذلك أن الإنسان إذا شعر أن هناك إهمالا أو عدم متابعة له من الآخرين، فإن همته تفتر وعزيمته تضعف، أما إذا كانت المتابعة المتمثلة فى المساءلة والمجازاة، فإن الهمة تعلو، والإرادة تقوى والعزيمة تشتد .

ولعل هذا هو سرّ متابعة النبى ﷺ الشديدة لأصحابه فى كل تصرفاتهم وسلوكياتهم، وحسبنا هنا هذه الصورة من المتابعة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائما ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا، قال: « فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ ». قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال: « فمن أطعم منكم اليوم مسكينا ؟ » . قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضا ؟ ». قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا، فقال رسول الله ﷺ : « ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة » (١) .

١٠ـ الغفلة عن عواقب ضعف أو تلاشى الالتزام :

وأخيرا، قد تكون الغفلة عن عواقب ضعف أو تلاشى الالتزام هى السبب فى هذا الضعف أو ذلك التلاشى، ذلك أن من غفل عن العواقب الخطيرة لأمر ما، تعاطى هذا الأمر مع تقصير فيه، أو أهمله وألغاه من حسابه بالمرة، ولا يفيق ولا ينتبه إلا حين تزول العواقب فيندم حيث لا ينفع الندم، ويتمنى حين لا تفيد الأمانى .

رابعا: آثار ضعف أو تلاشى الالتزام :

ولضعف أو تلاشى الالتزام عواقب وخيمة، وآثار سيئة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه العواقب، وتلك الآثار :

أ ـ آثار ضعف أو تلاشى الالتزام على العاملين :

لعلّ من أبرز آثار ضعف أو تلاشى الالتزام على العاملين:

١ـ الحيلولة دون العبودية الحقة :

ذلك أنّ من كان ضعيف أو عديم الالتزام، فإنه يفسح المجال أمام الشر ليستشرى

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب الزكاة : باب من جمع الصدقة وأعمال البر ٢/ ٧١٣ رقم (١٢٠٨)، وكتاب فضائل الصحابة : باب فضائل أبى بكر الصديق رضي الله عنه ١٨٥٧/٤ رقم (١٠٢٨) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به .

والباطل لينتشر، حتى يصل إليه وإلى ذويه، وحينئذ يحال بينه وبين أبسط قواعد الالتزام الإسلامى، كالشعائر التعبدية مثلا، وحال المسلمين فى الجمهوريات الإسلامية الواقعة الآن تحت نير الشيوعية الحمراء فى الاتحاد السوفيتى خير ما يوضح هذا الأمر، فقد أتى على هؤلاء زمان كان الواحد فيه يكتفى بالالتزام بجزء من دين اللّه ، وهو ما يخصّه فى نفسه، تاركا ومهملا الباقى، قائلا : علىّ نفسى، فى الوقت الذى كان الباطل يواصل الليل بالنهار فى تنفيذ خطته حتى أمسك بخناق هؤلاء، وحينئذ حال بينهم وبين أسمائهم الإسلامية، بل بينهم وبين الأعراف والتقاليد الإسلامية، فيما يعرف بشئون الأسرة من:الزواج، والطلاق، والحضانة، والنفقة، ونحوها.وأبعد من ذلك سعى إلى تحويل المساجد إلى دور للخيالة، أو اصطبلات للخيول، وحظر على أى منهم اقتناء نسخة بل ورقة من المصحف الذى يضم بين طياته القرآن الكريم، وكان السبب المباشر، إنّما هو ضعف أو تلاشى الالتزام .

٢ـ فقد ثقة الناس :

وهذا أمر بدهى، فإن الناس لا يتأثرون بالكلمات قدر ما يتأثرون بالسلوكيات، حتى قيل: « عمل رجل فى ألف رجل، خير من قول ألف رجل فى رجل » .

وعليه فإن من كان ضعيف أو عديم الالتزام يسحب الناس ثقتهم منه وحينئذ يخسر كثيرا، وتكون هذه الخسارة فى الدنيا قبل الآخرة، وكم قرأنا وسمعنا وشاهدنا أقواما استهانوا بأمر الالتزام، فعاقبهم اللّه بضياع ثقة الناس وجرّ ذلك عليهم خسرانا مبينًا حتى فى وظائفهم، ودنياهم، ومصالحهم الشخصية .

٣ـ القلق والاضطراب النفسى :

وذلك أن ضعيف أو عديم الالتزام إنّما هو عاص للّه، وللمعصية آثار ضارة أشدها القلق والاضطراب النفسى .

ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام].

بل هو المصرّح به فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤] . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] .

٤ـ الحرمان من الأجر والمثوبة، بل وتحمّل الأوزار :

ذلك أن ضعيف أو عديم الالتزام ضيّع على نفسه بذلك الأجر، وحرمها من

المثوبة، بل وعرّضها لتحمل أوزار الذين اقتدوا به ، فى ضعفه أو عدم التزامه ففتنوا وضاعوا، وصدق الله : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار ضعف أو تلاشى الالتزام على العمل الإسلامى فكثيرة، نذكر منها :

١ـ فتح المجال لمحاولة اختراق هذا العمل ، لضربه أو على الأقلّ تطويقه وإجهاضه، فلا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة، وزمن طويل .

٢ـ قلّة أو انعدام كسب الأنصار والمؤيدين ؛ لأن كسب هؤلاء إنما يكون بكسب ثقتهم أولا، وضعف أو تلاشى الالتزام يضيع هذه الثقة، وبالتالى يضيع منها المؤيّد، والنّصير .

٣ـ منح أعداء الله فرصة التحرش بالعمل الإسلامى لتشويه صورته فى عيون العامة، والدّهماء من الناس، تمهيدًا لضربه والقضاء عليه، أو تعطيله على الأقل.

٤ـ الحرمان من العون والمدد الربَّانى، ذلك أن من كان فى التزامه ثلمة أو ضعف، فهو مقصّر فى نصرة دين الله، وأنَّى لمن أعرض عن نصرة دين الله أن يمنحه ربه عونا أو مددا ؟ وصدق الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد]

خامسا : علاج ضعف أوتلاشى الالتزام :

وما دمنا قد وقفنا على الأسباب أو البواعث التى تؤدى إلى ضعف أو تلاشى الالتزام، فإن طريق العلاج تبدأ بتطبيق ما يلى :

١ـ الإدراك الذهنى بل والقلبى لأبعاد ومعالم الالتزام، بحيث يخالط هذا الإدراك الأحاسيس والمشاعر بل والخواطر، ويصير سجية للنفس، تفرح وتستريح حين تتمثله فى داخلها وفى واقع الحياة، وتحزن وتضيق إذا هى قصّرت فى هذا التمثيل .

٢ـ التأكيد على دقة الالتزام، من ذوى الأسوة والقدوة حتى يكون ذلك دافعا لمن دونهم على الاقتداء والتأسّى، أو على الأقل المحاكاة، والمشابهة .

٣ـ الحرص على تجديد الإيمان وتقويته فى النفس،فإن ذلك يولّد طاقات وإمكانات تعين على الالتزام،وأبعد من ذلك يكون الحارس والأمين؛ لئلا يكون تقصير أو إهمال.

٤ـ الفهم الدقيق الواعى لحقيقة الدنيا والآخرة، وعلاقة كل منهما بالآخر، وسبل تحقيق التوازن بينهما : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

[القصص: ٧٧]

٥ـ إدراك أن طريق الهجرة والفرار إلى اللّه، طريق كلها أشواك وصعاب، ولكنها تفضى إلى النعيم المقيم فى جوار ربّ العالمين، وأنه لابد من حمل النفس على أخذ الأهبة والاستعداد: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

٦ـ حمل ما بمقدور النفس القيام به ، حتى لا تضعف أو تنقطع عن ركب العاملين المجاهدين : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٨٦] ، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : ٧] .

٧ـ التحذير المستمر من كيد الشيطان ووسوسته، مع بيان سبيل النجاة من هذه المكايد، وتلك الوساوس .

٨ ـ الوقوف على سير وأخبار من عرفوا بدقة وكمال الالتزام، والتاريخ الإسلامى طافح فى ذلك بالنافع المفيد :

حسبنا ما جاء عن حذيفة ﷺ قال: لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقرّ ـ أى برد ـ فقال رسول اللّه ﷺ : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله اللّه معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا فلم يجبه أحد منا، ثم قال: « ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللّه معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: « ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللّه معى يوم القيامة ؟ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: « قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم » فلم أجد بدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم، فقال: «اذهب فأتنى بخبر القوم، ولا تذعرهم علىّ »[1] .

فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمّام[2] حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان

---

(١) قال الإمام النووى ـ رحمه اللّه تعالى ـ فى شرحه على مسلم ٤/ ٤٣٠ تعليقا على هذه الجملة : قوله ﷺ : « اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تذعرهم على » هو بفتح التاء، وبالذال المعجمة، معناه : لا تفزعهم علىّ ولا تحركهم علىّ، وقيل: معناه: لا تنفرهم، وهو قريب من المعنى الأول، لا تحركهم عليك، فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررا علىّ لأنك رسولى وصاحبى، وقال ابن الأثير فى: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٦ فى مادة « ذعر » : فى حديث حذيفة : قال له ليلة الأحزاب : « قم فائت القوم ولا تذعرهم علىّ »، يعنى قريشاً، الذعر والفزع، يريد لا تعلمهم بنفسك وامش فى خفية؛ لئلا ينفروا منك ويقبلوا علىّ ».

(٢) قال الإمام النووى ـ رحمه اللّه تعالى ـ فى شرحه على مسلم ٤/ ٤٣٠ تعليقا على هذه الجملة: قوله: =

يصلى ظهره بالنار (١) فوضعت سهماً فى كبد القوس (٢) ، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ : « ولا تذعرهم علىّ » ولو رميته لأصبته،فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمّام، فلمّا أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت (٣) فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلّى فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: « قم يا نومان » (٤) .

وحسبنا أيضا ما جاء عن أم جميل بنت الخطاب فى بداية الدعوة الإسلامية ، إذ تقول عائشة رضي الله عنها :

لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا، ألحّ أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال : « يا أبا بكر، إنّا قليل » ، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ ،وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبى بكر، وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبى بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله، لئن مات أبو بكر، لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبى بكر،فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكرحتى أجابهم، فتكلم آخر النهار،

= « فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمّام حتى أتيتهم » يعنى أنه لم يجد البرد الذى يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئا، بل عافاه ببركة إجابته للنبى ﷺ وذهابه فيما وجهه إليه ودعائه ﷺ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبى ﷺ ، فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذى يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ ، ولفظة الحمّام عربية، وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار .

(١) قوله : « فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره » : هو بفتح الياء وإسكان الصاد، أى يدفئه ويدنيه منها. انظر: النووى على مسلم ٤ / ٤٣٠، والنهاية لابن الأثير ٢ / ٢٧٤ .

(٢) قوله: « كبد القوس» : هو مقبضها، وكبد كل شىء وسطه . انظر: النووى على مسلم ٤/ ٤٣٠، والنهاية لابن الأثير ٤/ ٣ .

(٣) قوله: « قُررت » هو بضم القاف وكسر الراء، أى بردت . انظر: النووى على مسلم ٤/ ٤٢٩، قال ابن الأثير فى النهاية: « فلما أخبرته خبر القوم وقررت »، (قررت): أى لما سكنت وجدت مسّ البرد.

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب ٣ / ١٤١٤، ١٤١٥ رقم (١٧٨٨)، وأحمد فى: المسند ٥ /٣٩٢، ٣٩٣، كلاهما من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم .

فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئا أوتسقيه إياه.

فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: والله ما لى علم بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها، حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله، إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علىَّ ألا أذوق طعاما، ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ. قال: فأكبّ عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله، ليس بى بأس إلا ما ناله الفاسق من وجهى، وهذه أمى برّة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت [١].

وحسبنا كذلك ما ورد عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ إذ يقول:

أتى علىَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلم علينا فبعثنى إلى حاجة، فأبطأت على أمّى، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثنّ بسر رسول الله ﷺ أحدا [٢].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٣ / ٣٠، ٣١، والسيرة النبوية كلاهما لابن كثير ١/ ٤٣٩ ـ ٤٤١، من حديث القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها به.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الاستئذان: باب حفظ السر ٨ / ٨٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «أسرّ إلىَّ النبىُّ ﷺ سرا، فما أخبرت به أحدا بعده، ولقد سألتنى أم سليم فما أخبرتها به»، ومسلم فى: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضل أنس بن مالك رضي الله عنه ٤ / ١٩٢٩، ١٩٣٠ رقم (٢٤٨٢) به، وبلفظ البخارى.

هذه الأخبار، وغيرها كثير فى تاريخ المسلمين، قديمه وحديثه تعين من سمعها على الاقتداء والتأسّى، أو على الأقل المحاكاة والتشبّه .

٩ـ الحرص على لزوم الجماعة، وعدم الانفكاك عنها لحظة واحدة، إذ فيها يكون التناصح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، والتعاون، وتجديد النشاط، وإعلاء الهمة، وغير ذلك مما يعد فى الحقيقة جوهر ومضمون الالتزام .

١٠ـ الاستعانة التّامة باللّه ـ عزّ وجلّ ـ فإنه ـ سبحانه ـ يعين من لجأ إليه، واستعان به، ولاذ بحماه .

١١ـ محاسبة النفس دوما للوقوف على جوانب الضعف والخلل فيها، ثم تلافى ذلك بالتوبة والإقلاع عن الخطأ،وجبره بأنواع من الكفّارات، كالصدقة والصوم والإكثار من النوافل .

١٢ـ الإحسان إلى الأبوين فى المعاملة، مع لفت نظرهما بأدب ورفق إلى أن الآجال بيد اللّه، وأن ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها .

١٣ـ التذكير الدائم بفوائد وثمرات الالتزام، وكذلك بعواقب ومضار إهدار هذا الالتزام، أو التخلى عنه، فإن هذا التذكير له دور كبير فى عودة النفس إلى صوابها، ونهوضها من جديد .

١٤ـ المعايشة المستمرة لكتاب اللّه ـ عزّ وجلّ ـ فإنه بيان دقيق لحقيقة ومضمون الالتزام، ولم لايكون كذلك، وهو حكم اللّه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[المائدة]

١٥ـ المسارعة بالانتفاع بالنعم الآنية من الوقت، والصحة، والمال، والعلم والشباب، ونحو ذلك، قبل زوالها، إذ يقول ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا[1] ، أو موتا مجهزا، أو الدجّال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ »[2] .

---

(١) هرما مفندا: هو الكبر المؤدى إلى ضعف الذاكرة، والتخريف فى الكلام، إذ الفند فى الأصل: الكذب، وأفند تكلم بالفند، ثم قالوا للشيخ إذا هرم : قد أفند ؛ لأنه يتكلم بالمحرف من الكلام عن سنن الصحة، وأفنده الكبر إذا أوقعه فى الفند. انظر النهاية فى غريب الحديث، مادة (فند) .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى المبادرة بالعمل ٤٧٨/٤، رقم (٢٣٠٦) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا به، وعقّب عليه الترمذى قائلا: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبى هريرة إلا من حديث محرز بن هارون . . . » .

١٦- المعايشة الدائمة لسنّة وسيرة رسول الله ﷺ، ففيهما الصورة الدقيقة الحية لما ينبغى أن يكون عليه المسلم من الالتزام .

حسبنا أنه لم يقبل أن يهاجر وأموال الناس عنده أمانات وودائع، بل استبقى عليا مكانه فى فراشه ليرد هذه الودائع إلى أهلها، وليموه على الأعداء، حسبنا أنّه لم ينقص عهدا قط، لا مع الأعداء، ولا مع غير الأعداء، فكان بذلك مضرب الأمثال .

والقصة التالية بعض من كلٍّ، وقليل من كثير: يروى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فيقول:

ما منعنى أن أشهد بدرا إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل[1] ، قال : فأخذنا كفار قريش، قالوا : إنكم تريدون محمدا ؟ فقلنا : ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ ، فأخبرناه الخبر، فقال : « انصرفا، نفى لهم بعهدهم ونستعين اللهَ عليهم »[2].

---

(١) حسيل: بحاء مضمومة، ثم سين مفتوحة مهملتين، ثم ياء ولام، ويقال أيضا : « حِسْل » بكسر الحاء وإسكان السين، وهو والد حذيفة، واليمان لقب له، والمشهور فى استعمال المحدثين أنه اليمان بالنون من غير ياء بعدها وهى لغة قليلة، والصحيح : اليمانى بالياء، وكذا عمرو بن العاصى، وعبد الرحمن بن أبى الموالى، وشداد بن الهادى، والمشهور عند المحدثين حذف الياء، والصحيح إثباتها. انظر: شرح الإمام النووى على مسلم ١٢/ ١٤٤ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح :كتاب الجهاد والسير : باب الوفاء بالعهد ٣/ ١٤١٤ رقم (١٧٨٧) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعا به .

الآفة الثالثة عشرة
عدم التثبت أو التبيّن

والآفة الثالثة عشرة التى لا يكاد يسلم من شرها إلا من كان ذا صلة قويّة متينة بربّه، وكان حصيفا، إنّما هى : « عدم التثبّت أو التبيّن » .

وحتى يتحرر من ابتلوا بها، ويتّقيها من عافاهم اللّه ـ عزّ وجلّ ـ منها، فلابد من تقديم تصوّر دقيق عن أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال الجوانب التالية:

أولا : مفهوم عدم التثبت أو التبيّن :

عدم التثبت لغة : وحتى نفهم المراد بعدم التثبت أو التبين فى اللغة، فإنّنا بحاجة إلى أن نفهم المراد بعدم التثبت أو التبين فى اللغة، فماذا يراد من كل منهما لغة ؟ يطلق التثبت فى اللغة على أمور، منها:

أ ـ طلب ما يكون به الثبات على الأمر، أى لزومه وعدم التحول عنه أو تجاوزه إلى غيره، وبعبارة أخرى :طلب الدليل الموصّل إلى الثبات على الأمر [1] .

ب ـ والتأكد من حقيقة ما يعين على الثبات فى الأمر، وبعبارة أخرى : فحص الدليل الموصل إلى الثبات فى الأمر، تقول: « أثبت الأمر: حققه، وصححه، وأثبت الكتاب : سجّله، وأثبت الحق: أقام حجّته، وأثبت الشيء : عرفه حقّ المعرفة »[2] .

جـ ـ والتأنّى أو التريّث وعدم الاستعجال، « تقول: تثبت فى الأمر والرأى، واستثبت: تأنّى فيه ولم يعجل، واستثبت فى أمره: إذا شاور وفحص عنه » [3] .

وكذلك التبين يطلق فى اللغة على نفس المعانى التى يطلق عليها التثبت، فهو:

أ ـ طلب ما يستبين به الأمر، وتنكشف حاله، تقول : « تبين الشيء : أى تأمله حتى اتضح » [4] .

---

(١) انظر : المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٧٨ .

(٢) انظر: المعجم الوسيط ١ / ٩٣ .

(٣) انظر: لسان العرب ٢ / ١٩ .

(٤) انظر : المعجم الوسيط ١ / ٨٠ .

ب ـ وهو التأكد من حقيقة ما يستبين به الأمر وتنكشف حاله، تقول : «تبين الشيء: ظهر واتضح » (١) ، « واستبنت الشيء: إذا تأملته حتى تبيّن لك » (٢) .

جـ ـ وهو التأنى أو التريث فى الأمر، وعدم الاستعجال فيه، تقول: «تبيّن القوم الأمر: تدبّروه على مهل، غير متعجلين ليظهر لهم جليا » (٣) ، « وتبين فى أمره : تثبّت وتأنى » (٤) .

ويؤكد أن التثبت والتبين معناهما واحد لغة : استعمال القرآن الكريم، فقد جاء فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦] ، أن أكثر الكوفيين يقرءون الآية الأولى، وكذلك عامّة أهل المدينة يقرءون الآية الثانية: « فتثبتوا » بدل: « فتبينوا » .

وفى هذا يقول الإمام ابن جرير الطبرى ـ رحمه اللّه : « والقول عندنا فى ذلك أنهما قراءتان معروفتان، مستفيضتان فى قراءة المسلمين بمعنى واحد، وإن اختلفت بهما الألفاظ؛ لأن المتثبت متبين، والمتبين متثبت، فبأى القراءتين قرأ القارئ، فمصيب صواب القراءة فى ذلك » (٥) .

كما يقول فى موضع آخر : « والصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان معروفتان، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب » (٦) .

ونستطيع أن نقول: إن هذه الإطلاقات اللغوية الثلاثة لكل من التثبت أو التبين، يمكن أن تردّ إلى إطلاق واحد، آلا وهو التأنى أو التريث فى الأمر، وعدم الاستعجال فيه، فإن ذلك مطلوب فى الحكم على الشىء، وفى طلب دليله، بل وفى فحص وتأمّل هذا الدليل . وحيث انتهينا من تحديد المراد بالتثبت أو التبين لغة، فإننا نقول: إن عدم التثبت أو التبين لغة يعنى: السرعة فى الحكم على الشىء دون طلب دليله، ودون فحص وتأمل هذا الدليل .

عدم التثبت اصطلاحا : أما عدم التثبت أو التبيّن فى الاصطلاح الإسلامى والدعوى، فهو :

السرعة، أو عدم التأنى والتريث فى كل ما يمسّ المسلمين ـ بل الناس جميعا ـ من

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١ / ٨٠ . (٢) انظر : أخلاق القرآن للشرباصى ٣ / ١٥.
(٣) انظر : أخلاق القرآن للشرباصى ٣ / ١٥. (٤) انظر: المعجم الوسيط ١ / ٨٠ .
(٥ ، ٦) انظر: جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى ٥ /١٤٢، ١٤٣، ٢٦ / ٧٨ .

أحكام أو تصورات، ومن تناقل وتداول لهذه الأحكام، وتلك التصورات،دون فهم دقيق للواقع، وما يحيط به من ظروف وملابسات [١] .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى تعليقه على حادثة الإفك، حين قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور : ١٥] .

لأن من المعلوم بداهة أن التلقّى إنَّما يكون بالأذن، ثم يعرض على العقل والقلب، وحينئذ يكون الكلام باللسان أو عدم الكلام، فإذا ما عبّر القرآن الكريم بأن التلقّى إنما كان باللسان، فإنما هى لفتة إلى السرعة، وعدم التأنى أو التروّى فى إصدار الحكم، بل فى تداوله والتحرّك به، كأنّ الإفك عندما وقع من ابن سلول صمّت الآذان، وسترت العقول، وغلّفت القلوب، فلم يبق إلا أن لاكته الألسن،وتحركت به الشفاه، دون فهم للواقع، ودون معرفة بالظروف والملابسات، ولقد صوّر صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ ذلك تصويرا بديعا حين قال:

« وهى صورة فيها الخفّة والاستهتار، وقلّة الحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لسان يتلقّى عن لسان، بلا تدبّر ولا تروٍّ، ولا فحص ولا إنعام نظر، حتّى لكأن القول لا يمرّ على الآذان، ولا تتملاّه الرءوس، ولا تتدبّره القلوب ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ بأفواهكم لا بوعيكم،ولا بعقلكم، ولا بقلبكم، إنما هى كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر فى المدارك، وقبل أن تتلقّاها العقول » [٢] .

ثانيا : أسباب عدم التثبت أو التبيّن :

وهناك أسباب أو بواعث تؤدى إلى عدم التثبّت أوالتبيّن، نذكر منها:

١ـ النشأة الأولى :

فقد ينشأ المرء بين أبوين سمتهما عدم التثبت أو التبين،وحينئذ يسرى ذلك إلى نفسه، فإذا به صورة منهما، وهنا يتجلّى دور التزام الآباء بأخلاق وآداب الإسلام . أجل، إن ذلك لو روعى لجنّب الآباء أبناءهم كثيرا من الانحرافات، دون الحاجة إلى خطب أو مواعظ .

---

(١)انظر: جامع البيان للطبرى ٥ / ١٣٩، ١٤٠، وتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ٣٤٨/٥، ٣٤٩، وروح المعانى ٥ / ١١٨، ٢٦ / ١٤٥ بتصرف .

(٢)انظر : فى ظلال القرآن ٦/ ٨٠ .

٢ـ الصحبة العارية من هذا الخلق الإسلامي :

وقد يعيش المرء في وسط غير ملتزم بهذا الخلق الإسلامي، فإذا به يحاكي، ويتأسّى لاسيما إذا كان ضعيف الشخصية غير واثق من نفسه، ومن تصرفاته وسلوكه، وهنا يأتي دور الارتماء بين أحضان الصحبة الطيبة الملتزمة بالمنهاج الإسلامي. إنّ هذا لو وقع، لصَحَت الأعصاب، ولتنبّهت المشاعر والأحاسيس والجوارح .

٣ـ الغفلة أو النسيان :

وقد تؤدي الغفلة أوالنسيان بالإنسان إلى عدم التثبّت أو التبين، وحينئذ يجب أن يتعلم من ذلك درسا لا ينساه على مدار الزمان، فلا يتكرر منه هذا الخطأ، وصدق رسول الله ﷺ الذي يقول: « كل ابن ادم خطّاء، وخير الخطائين التوّابون »[١] .

٤ـ الاغترار ببريق الألفاظ :

وقد يقرع أذن المرء طائفة من الألفاظ المعسولة والعبارات الخلابة، وإذا به يغتر بما لهذه الألفاظ وتلك العبارات من بريق وزخرف، وحينئذ يكون منه عدم التثبت أو التبين.

وقد لفت النبي ﷺ النظر إلى هذا السبب حين قال : « إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحجّته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله، فإنّما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذها »[٢] .

---

[١] الحديث أخرجه الترمذي في: السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤ / ٥٦٨، ٥٦٩ (٢٤٩٩)، وابن ماجه في: السنن : كتاب الزهد: باب ذكر التوبة ٢/ ١٤٢٠ رقم (٤٢٥١)، والدارمي في: السنن: كتاب الرقاق: باب في التوبة ٢/٣٠٣، وأحمد في: المسند ٣/١٩٨، كلّهم من حديث علي بن مسعدة الباهليّ، عن قتادة، عن أنس ﷺ مرفوعا به، وزاد أحمد في روايته : « ولو أن لابن آدم واديين من مال، لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »، وعقّب الترمذي على روايته قائلا : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة » .

[٢] الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح : كتاب المظالم والغصب : باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ٣ / ١٧١، ١٧٢، وكتاب الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين ٣ / ٢٣٥، ٢٣٦، وكتاب الحيل: باب منه ٩ / ٣٢، وكتاب الأحكام : باب موعظة الإمام للخصوم، وباب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه، وباب القضاء في كثير من المال وقليله ٩/ ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ومسلم في : الصحيح: كتاب الأقضية : باب الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة ٣/١٣٣٧، ١٣٣٨ رقم (١٧١٣)، وأبو داود في: السنن: كتاب الأقضية: باب في قضاء القاضي إذا أخطأ ٣ / ٣٠١,٣٠٢ رقم (٣٥٨٣، ٣٥٨٤)، والترمذي في السنن: كتاب الأحكام : باب ما جاء في التشديد على من يقضى له بشيء ليس له أن يأخذه ٣/ ٦٢٤ رقم (١٣٣٩) ، والنسائي في : السنن : كتاب آداب القضاء : باب الحكم بالظاهر ، وباب ما يقطع القضاء ٨ / ٢٣٣ ، ٢٤٧ رقم (٥٤٠١ ، ٥٤٢٢) ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الأحكام : باب قضية الحاكم لا تحل حراما، ولا تحرّم حلالا ٢/ ٧٧٧ رقم (٢٣١٧، ٢٣١٨)، ومالك =

٥ـ الجهل بأساليب أو طرق التثبّت أو التبين :

وقد يحمل الجهل بأساليب أو طرق التثبت أوالتبين، إلى السرعة فى الحكم، وتداوله هنا وهناك، ذلك أن للتثبّت أو للتبين أساليب وطرقا كثيرة توصل إليه، من بينها:

* الردّ إلى الله والرسول، وذوى الرأى والحجا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء : ٨٣] .

* السؤال أو المناقشة لصاحب الشأن، وخير ما يوضّح ذلك موقفهﷺ من حاطب ابن أبى بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبىﷺ لهم، وأطْلَعَ الله ـ عزّ وجلّ ـ نبيّه على الكتاب، وجيء به إليهﷺ إذ دعاه النبىﷺ وسأله قبل أن يقضى فى أمره قائلا : « يا حاطب، ما هذا ؟ » فقال : يا رسول الله، لا تعجل علىّ، إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ـ يقول : كنت حليفا، ولم أكن من أنفسها ـ وكان معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتدادا عن دينى، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فعذره النبىﷺ وقال : « أما إنه قد صدقكم »، ولما استأذن عمر فى ضرب عنقه قائلا : يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق، ردّ عليهﷺ قائلا: « وما يدريك، لعل الله قد اطلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(١) .

= فى: الموطأ : كتاب الأقضية : باب الترغيب فى القضاء بالحق ص ٥٠٩ رقم (١٣٩٧)، وأحمد فى: المسند ٢٠٣/٦، ٢٩٠، ٣٠٨،٢٩١، ٣٢٠، كلهم من حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعا، واللفظ للبخارى، وزاد ابن ماجه رواية أخرى من حديث أبى هريرة، وعقّب عليها البوصيرى فى : مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٣/ ٤٤ قائلا: « هذا إسناد صحيح، وله شاهد من حديث أم سلمة رواه الستة ورجاله رجال الصحيح »، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « حديث أم سلمة حديث حسن صحيح» .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الجهاد : باب الجاسوس، وقول الله تعالى: ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ٤ / ٧٢، ٧٣، وكتاب المغازى : باب فضل من شهد بدرا ٥ / ٩٨، ٩٩، وباب غزوة الفتح ١٨٤/٥، ١٨٥، وكتاب التفسير : سورة الممتحنة: باب ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ٦/ ١٨٥، ١٨٦، ومسلم فى: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم ، وقصة حاطب بن أبى بلتعة ١٩٤١/٤، ١٩٤٢ رقم (٢٤٩٤)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب فى حكم الجاسوس إذا كان مسلما ٣ / ٤٧، ٤٨ رقم (٢٦٥٠)، والترمذى فى: السنن : كتاب التفسير : باب ومن سورة الممتحنة ٥ / ٣٨١، ٣٨٢ رقم (٣٣٠٥)، وأحمد فى: المسند ١ / ٧٩، ٨٠، ١٠٥، ٢ / ١٠٩، كلهم من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخارى، وزاد أحمد رواية أخرى بنحو من هذا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

* الإصغاء الجيّد، بل والمراجعة إذا لزم أو أشكل الأمر، فهذا علىّ رضي الله عنه يعطيه الرسول ﷺ الراية يوم خيبر، ثم يقول له : « اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت »، ويشعر علىّ رضي الله عنه بعد مضيّه لأداء مهمته أن التكليف الذى كلّف به غير واضح فى ذهنه، فيعود بظهره امتثالا للأمر، ويسأل النبى ﷺ قائلا : علام أقاتل الناس ؟ فيرد عليه النبى ﷺ : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله،وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منّا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله »[1] .

* التجربة الملاحظة من خلال المعايشة والمصاحبة،فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يثنى رجل على آخر فى مجلسه ، فيقول عمر للرجل الذى أثنى : « هل صحبته فى سفر قط ؟ » يقول : لا، فيقول له : « هل ائتمنته على أمانة قط؟ » يقول : لا، فيقول له: « هل كانت بينك وبينه معاملة في حق ؟ » يقول : لا، فيقول له : « اسكت، فلا أرى لك علما به، أظنّك ـ والله ـ رأيته فى المسجد يخفض رأسه ويرفعه »[2] .

* الجمع بين كلّ الأطراف مع المواجهة، لاسيما فى الأمور التى لا يجوز فيها التغاضى أو السكوت، فهذا رسول الله ﷺ يعلّم علياً لما بعثه قاضيا إلى أهل اليمن، أسلوب التثبت فى القضاء قائلا له: « إن الله سيهدى قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٤/٥٧، ٥٨، وباب فضل من أسلم على يديه رجل ٤ / ٧٣، وكتاب أصحاب النبى ﷺ : باب من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه ٥ / ٢٢، ٢٣، وكتاب المغازى : باب غزوة خيبر ٥ / ١٧١، ومسلم فى: الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه ٤/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ رقم (٢٤٠٥ ـ ٢٤٠٧)، والترمذى فى: السنن : كتاب المناقب : باب مناقب على بن أبى طالب رضي الله عنه ٥/ ٥٩٦ رقم (٣٧٢٤)، كلهم من حديث سهيل بن سعد مرفوعا بنحوه، وبمثله، وزاد مسلم روايتين؛ إحداهما من حديث أبى هريرة، والأخرى من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه .

(٢) الخبر أخرجه العقيلى فى: الضعفاء الكبير ٣ / ٤٥٤، ٤٥٥، والبيهقى فى: السنن الكبرى : كتاب آداب القاضى : باب من يرجع إليه فى السؤال يجب أن تكون معرفته باطنة متقادمة ١٠/ ١٢٥، ١٢٦من طريق داود بن رشيد،حدثنا الفضل بن زياد، حدثنا شيبان، عن الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر، بلفظ : شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . . الخبر، وأورده الألبانى فى: إرواء الغليل فى تخريج أحاديث منار السبيل: كتاب القضاء : باب طريق الحكم وصفته ٨ / ٢٦٠، ٢٦١، وعزاه إلى العقيلى، والبيهقى، ثم عقّب عليه قائلا: « وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رجال مسلم، غير الفضل ابن زياد ، فقال العقيلى : لا يعرف إلا بهذا وفيه نظر » ، ونقل عن الخطيب فى تاريخ بغداد ، وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ما يفيد عدالته وضبطه وحفظه، وأورده بهذا اللفظ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد فى تعليقه على توضيح الأفكار٢/ ١٨١من غير أن يعزوه لأحد.

بين يديك الخصمان، فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء »[١] .

* السماع من صاحب الشأن أكثر من مرة، وعلى فترات متباعدة، مع المقابلة والموازنة، فها هى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يبلغها عن عبد الله بن عمرو، أنّه قادم من مصر للحج، فتقول لابن أختها عروة بن الزبير: يابن أختى، بلغنى أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج، فالقه، فسائله، فإنه قد حمل عن النبىﷺ علما كثيرا، قال : فلقيته، فساءلته عن أشياء يذكرها عن رسول اللهﷺ : قال عروة : فكان فيما ذكر: أن النبى ﷺقال: «إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعا، ولكن يقبض العلماء، فيرتفع العلم معهم، ويبقى فى الناس رؤساء جهالا، يفتونهم بغير علم، فيضلّون، ويُضلّون » .

قال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك، أعظمت ذلك، وأنكرته قالت : أحدّثك أنه سمع النّبىﷺ يقول هذا ؟ قال عروة: حتى إذا كان قابل، قالت له: إن ابن عمرو قد قدم، فالقه، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك فى العلم، قال: فلقيته، فساءلته، فذكر لى نحو ما حدّثنى به فى مرّته الأولى، قال عروة : فلمّا أخبرتها بذلك، قالت: ما أحسبه إلا قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص[٢] .

هذه الطرق أو الأساليب، وغيرها كثيرة، قد يجهلها كثير من الناس، وحينئذ يتناولون الأمر بغير تثبيت ولا تبيّن .

٦ـ الحماس أو العاطفة الإسلامية الجياشة المتأججة :

وقد يؤدى الحماس أو العاطفة الإسلامية الجياشة المتأججة إلى عدم التثبت أو التبيّن، ذلك أن هذا الحماس أو هذه العاطفة ما لم تكن موزونة بميزان الشرع، ومحكومة بلجام العقل، فإنها تسلب صاحبها الإدراك، وإذا به يخطئ كثيرا، ويضيع فى بيداء هذه الحياة .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الأقضية: باب كيف القضاء ؟ ٣ /٣٠١ رقم (٣٥٨٢)، وأحمد فى : المسند ١ /١٣٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦،من طريق شريك عن سماك عن حنش به، وأورده الألبانى فى: إرواء الغليل: كتاب القضاء ٨/٢٢٦ ـ ٢٢٨، وعزاه إلى المصادر المذكورة وإلى غيرها، ثم عقّب عليه قائلا: « وجملة القول أن الحديث بمجموع الطرق حسن على أقل الأحوال، والله أعلم » .

(٢) الحديث بهذ اللفظ أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب العلم : باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان ٤ /٢٠٥٩ رقم (٢٦٧٣)، وأخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يذكر من ذمّ الرأى، وتكلف القياس ٩/ ١٢٣ بنحوه.

ويمكن أن نستشف هذا السبب من حديث أسامة بن زيد التالى إذ يقول:

بعثنا رسول اللهﷺ إلى الحرقة فصبّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصارى، فطعنته برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبىﷺ فقال : « يا أسامة، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ » قلت : كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم (١) .

أجل، لقد كان الحامل لأسامة على قتل الرجل مع نطقه بلا إله إلا الله، تلك التى تعصم الدم إلا بحقّها، إنما هو الحماس أو العاطفة الإسلامية الجياشة، التى انطوى عليها قلب أسامة بن زيد ﷺ بحيث حالت بينه وبين الاقتناع بما صدر عن الرجل، من الإسلام، والنطق بالشهادة، واتهمه بأنه يظهر خلاف ما يبطن، ناسيا أن الله وحده هو المطّلع على ما تكنّه القلوب ، وتخفيه الصدور : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النمل]. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الاحزاب: ٥١]. ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر] .

٧ـ التعلق بعرض زائل من الدنيا :

وقد يكون التعلق بعرض زائل من أعراض هذه الحياة الدنيا، هو الحامل على عدم التثبّت أو التبيّن، وذلك أن حبّ الشىء يعمى ويصم، ويحول بين الإنسان وبين استطلاع الموقف وتبين الحقيقة .

ولعل هذا السبب هو المشار إليه فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] .

٨ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على عدم التثبّت أو التبيّن :

وأخيرا، قد تؤدى الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على عدم الالتزام بهذا الخلق

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المغازى: باب بعث النبىﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة ٥ /١٨٣، وكتاب الديّات : باب قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ٩/ ٤، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ١ / ٩٦ ـ ٩٨ رقم (٩٦، ٩٧) ، وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد : باب على ما يقاتل المشركون ٣/ ٤٤، ٤٥ رقم (٢٦٤٣)، وأحمد فى : المسند ٥ / ٢٠٠، كلهم من حديث أسامة بن زيد ﷺ مرفوعا، واللفظ للبخارى .

الإسلامى إلى السرعة،أو العجلة فى الأمر، وعدم التريّث أو التأنى، فإنّ من غفل عن عاقبة أمر ما، وقع فيه لا محالة إلا من عصم الله ـ عز وجلّ .

ثالثا : مظاهر عدم التثبّت أو التبين :

ولعدم التثبّت أوالتبيّن مظاهر تدلّ عليه، وأمارات يعرف بها، نذكر منها:

١ـ معاداة كثير من الأفراد والهيئات العاملة للإسلام، استجابة لحملات التشويش والدعاية المغرضة، دون مخالطة هؤلاء، ومعرفة أحوالهم وأخلاقهم عن قرب ومشاهدة.

٢ـ التركيز على المظهر والشكل، مع إهمال المخبر والجوهر، فإن كثيرا من الهيئات العاملة للإسلام تهتم كثيرا بالمظهر والشكل من اللحية، والسواك وقصر الجلباب، وإرخاء العذبة وحمل العصا، والعمامة، مع الإهمال التام للمخبر والجوهر، الأمر الذى يجعلهم لا يميزون بين الصّالح والطالح، بين الصادق والكاذب .

ولا يُفهم ذلك أنه استهانة أو تحقير لتلك الأشياء، فقد وردت بذلك أحاديث تتفاوت صحة وضعفا وليس هنا مجال تحقيقها الآن، ولكننا نريد من المسلم أن يكون لديه ترتيب الأولويات، وتقدير لمخبر الإنسان وجوهره، وإن قصر فى بعض الشكليات فإن ذلك لا يضيره .

٣ـ عدم التماس المعاذير، وعدم السماع للحجج والآراء، بزعم أنه لا عقبات ولا صعوبات فى حياة الناس .

٤ـ المبادرة بالتفوه والرأى، لمجرد السماع والتلقّى، أو لمجرد الرؤية والمشاهدة.

٥ـ المبادرة بالتنفيذ لمجرد صدور التكليف، دون إحاطة تامة بكل ظروفه وملابساته، ودون معرفة دقيقة بمن له حق التكليف والإلزام .

رابعا : آثار عدم التثبّت أو التبيّن :

ولعدم التثبت أو التبين آثار سيئة، وعواقب وخيمة، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار :

أـ آثار عدم التثبت على العاملين :

فمن آثار عدم التثبت أو التبين على العاملين:

١ـ اتهام الأبرياء من الناس زورا وبهتانا :

فقد اتُّهمت أمّ المؤمنين عائشة زورا وبهتانا بما لم يقع منها فى الجاهلية، فكيف بعد إذ أعزّها الله بالإسلام، وصارت زوجة لإمام المسلمين وأفضل النبيين ورسول الله

للعالمين؟! الأمر الذى أقلقها، وأقلق أبويها، ورسول الله ﷺ زوجها، والمسلمين جميعا، شهرا كاملا، حتى نزلت البراءة من فوق سبع سموات .

وكان سبب هذا الاتهام هو عدم التثبت أو التبين، حتى قال الله لهم: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾ [النور] .

وحسب العامل هذا الأثر، إذ هو مجلبة للشر والإثم ـ والعياذ بالله ـ كما قال النبى ﷺ : «خيار عباد الله الذين إذا رُءُوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء العيب » (١) .

٢ـ سفك الدماء ، وسلب الأموال :

فقد قتل أسامة بن زيد ﷺ أو غيره، نفرا من الناس، وسلب ماله بغير تثبت ولا تبين، وفيه وفى أمثاله نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾

[النساء : ٩٤]

٣ـ الحسرة والندم :

فإن بعض الصحابة الذين خاضوا فى الإفك، وطاروا به من غير تثبت ولا تبين، من أمثال حسّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وغيرهما، وكذلك الذين قتلوا الرجل وأخذوا ماله بعد أن سلّم، وشهد أن لا إله إلا هو، من مثل أسامة بن زيد ﷺ كلّ أولئك أصابتهم الحسرة، وعمّهم الندم، لما نزل الوحى من السماء، يكشف الموقف، ويضع النقاط على الحروف، وتمنّوا أن لم يكونوا أسلموا قبل ذلك اليوم، بل ظلت الحسرة والندامة شبحا مخيفا يلاحقهم، حتى لقوا ربهم. ولعل هذا الأثر هو ما يشير إليه قوله تعالى فى قصة الوليد بن عقبة بن أبى معيط مع بنى المصطلق، الواردة فى سورة الحجرات : ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد : فى المسند ٤ / ٢٢٧، من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم يبلغ به النبى ﷺ ٦/ ٤٥٩ من حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد، مرفوعا بلفظ : « الا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا :بلى يا رسول الله قال: « الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى »، ثم قال: « الا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة »، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد : كتاب الأدب، باب ما جاء فى الغيبة والنميمة ٨/ ٩٣، وعزاه إلى أحمد قائلا : « رواه أحمد ، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحمد أسانيده رجال الصحيح » .

٤ـ فقد ثقة الناس مع النفور والكراهية :

فمن عرف عنه العجلة فى الرأى، والحكم أو عدم التثبت أو التبين، ينظر إليه الناس على أنه أرعن أحمق، ومثل هذا يسحب الناس ثقتهم منه بل وينفرون منه، ويكرهونه بشدة ، وإذا ذهبت الثقة ، وكان النفور والكراهية ، لم يعد فى يد المسلم ما يكسب به الأنصار أو المؤيدين .

٥ـ التعرّض للغضب الإلهى :

فمن تجرّد من التثبت أو التبين، كثرت أخطاؤه وتضاعفت عثراته، ومن ثمّ يستوجب غضب اللّه وسخطه، ومن حل عليه غضب اللّه وسخطه، فقد ضاع دنيا وآخرة، وخسر خسرانا مبينا، وصدق اللّه: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه].

ب ـ آثار عدم التثبت على العمل الإسلامى :

ومن آثاره على العمل الإسلامى:

١ـ خلل أو اضطراب الصف :

فإن عدم التبين من شأنه أن يؤدى إلى خلل أو اضطراب فى الصف ، على نحو ما صوّره صاحب الظلال ـ رحمه اللّه ـ إذ يقول :

«كذلك إشاعة أمر الخوف فى معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة قد تحدث إشاعة الخوف فيه خلخلة وارتباكا،وحركات لا ضرورة لها، لاتّقاء مظانّ الخوف، وقد تكون كذلك القاضية » [(١)] .

وعلى نحو ما وقع بين الأنصار أوسهم وخزرجهم، حين استمعوا إلى هذا الدخيل الذى بثّه بينهم أحد اليهود فى ساعة الصفاء ، والحبّ فى اللّه، ليذكّرهم بيوم بعاث، وثاراتهم القديمة، لقد تنادوا قائلين:

السلاح السلاح موعدكم الظاهرة ـ أى الحرة ـ وخرجوا إليها، وانضمّت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، ولولا رحمة الله ولطفه بهم، ثم خروج الرسولﷺإليهم، وتذكيرهم بنعمة اللّه عليهم، وهدايته لهم، بعد الكفر والضلالة، قائلا : « يا معشر المسلمين اللّه اللّه، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم اللّه إلى الإسلام،وأكرمكم به وقطع به

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٢ / ٤٦٨ .

عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألّف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ؟ » (١) ، لولا ذلك لعادوا ـ كما كانوا فى الجاهلية ـ شيعا وأحزابا .

وعلى نحو ما وقع للحركة الإسلامية فى مصر فى الخمسينات، حيث استمع نفر من أبنائها لوشايات الواشين، وافتراءات المغرضين، وأراجيف المبطلين، دون تثبت أو تبين، الأمر الذى أدى إلى خلل فى الصفوف لبعض الوقت، وكاد يعصف بهذه الحركة، لولا لطف الله ورحمته، وعنايته وتثبيته لبعض الصادقين المخلصين من أبنائها.

٢ـ الفتور أو التراخى فى العمل :

فإن عدم الالتزام بالتثبت أو التبين من شأنه أن يؤدى إلى الفتور أو التراخى فى العمل مباشرة، أو بعد سلسلة من المكدّرات والمنغصات ، كما يصوره صاحب الظلال إذ يقول : « ... فإن إشاعة أمر الأمن مثلا فى معسكر متأهب، مستيقظ، متوقع لحركة العدو، إشاعة أمر الأمن فى مثل هذا المعسكر، تحدث نوعا من التراخى، مهما تكن الأوامر باليقظة؛ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفى ذلك التراخى تكون القاضية » (٢) .

٣ـ إفساح المجال للأدعياء والدّخلاء :

فإن عدم الالتزام بهذا الخلق الإسلامى، جعل أكثر الجمعيات والجماعات العاملة للإسلام ، مخترقا ، ومكشوفا من قِبَل الأدعياء ، والدخلاء ، وهذا فيه من الخطورة ما فيه، حسبنا أن هذه الجمعيات والجماعات، يُكادُ لها بواسطة هؤلاء الأدعياء والدخلاء، والمنشئون أو المؤسسون الحقيقيون لها، نائمون غافلون، لا يدرون من أمرها شيئا .

٤ـ خسارة بعض الأنصار والمؤيدين :

وقد يخسر العمل الإسلامى بسبب عدم التثبت أو التبين، بعض الأنصار والمؤيدين وربما انقلبوا رأس حربة على العمل الإسلامى، والعاملين لدين الله، بعد أن كانوا مرجوا منهم أنهم مساندون أو مؤيدون .

---

(١) القصة أوردها الحافظ ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم١/٣٩٨، وعزاها إلى ابن إسحاق وغيره، وأوردها كذلك السيوطى فى: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور٢ /٥٧، ٥٨، وعزاها إلى ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس ... وساق القصة .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ٢/٤٦٧، ٤٦٨ .

٥ـ الانطلاق من الخيال لا من الواقع :

فإن من كان من شأنهم عدم التثبت أو التبين سينقلون الأمور على غير وجهها، ويحكون الواقع بصورة غير صورته الحقيقية التى هوعليها، وعليه، فإذا كانت خطة أو منهاج أو رأى، فإنما يكون مصدره أو منبعه الخيال لا الواقع، وتلك أولى عوامل الفشل والخسران .

٦ـ الحرمان من العون والتأييد الإلهى :

فإن عدم الالتزام بهذا الخلق ـ أعنى التثبت أو التبين ـ سيؤدى إلى دخن فى القلوب، وغلّ فى الصدور، فضلا عن باقى الآثار والسلبيات التى ذكرنا آنفا، وهذا بدوره يؤدى إلى الحرمان من العون والتأييد الإلهى، إذ أن عونه ـ سبحانه ـ وتوفيقه وهدايته لنا، ذلك كله مقرون باستقامتنا وثباتنا فى الطريق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ [محمد] . ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣ ﴾ [الصافات] .

خامسا : علاج عدم التثبّت أو التبيّن :

وما دمنا قد وقفنا على أبعاد ومعالم عدم التثبت أو التبين على النحو الذى قدمنا، فإن علينا أن نعرف سبيل العلاج، وتتلخص فى الأخذ بالوسائل التالية :

١ـ تقوية ملكة التقوى والمراقبة لله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن هذه إن تأكدت فى النفس، فسوف تحمل صاحبها حملا على التأنّى والتروّى، والإنصاف، ونقل الحقيقة كما هى دون زيادة أو نقص، بل ستكون سببا فى نور القلب، ونفاذ البصيرة، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] .

ولعلنا نلمح هذه الوسيلة العلاجية من قوله ﷺ: « التثبت من الله، والعجلة من الشيطان » [(١)].

---

(١) الحديث أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى : المسند ٧ / ٢٤٧، ٢٤٨ رقم (٤٢٥٦) من حديث ابن سنان عن أنس بن مالك مرفوعا به، والبيهقى فى: السنن: كتاب آداب القاضى: باب التثبت فى الحكم ١٠/ ١٠٤ من طريق عثمان بن سعيد ثنا أبو الوليد ثنا الليث بهذا الإسناد، وابن سنان هذا هو سعد بن سنان بن سعد الكندى المصرى وهو الصواب كما فى : تقريب التهذيب ١/ ٢٨٧ صدوق له أفراد، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب ما جاء فى الرفق ٨ / ١٩، وقال : « رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح »، هذا وللحديث شواهد أخرى ترتقى به إلى درجة الحسن، والله أعلم .

٢ـ التذكير بين يدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمساءلة والجزاء : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات]. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر]. ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] . ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] .

فإن هذا إن تمكّن من النفس، وخالط القلب، فإنّه سيقود حتما إلى التأنّى أو التروّى .

٣ـ معايشة الكتاب والسنّة، من خلال هذه النصوص المتّصلة بقضية التثبت أو التبين، كما فى آيات « النساء » : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [الآية: ٨٣]، وآيات الإفك فى سورة « النور»، وآيات سورة « الحجرات »: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الآية : ٦] ، وآيات سورة « ص » : داود مع الخصمين: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ ، وآيات سورة « النمل » : سليمان مع الهدهد، إذ قال له : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

فإن هذه النصوص جميعا مدعاة إلى تربية ملكة التثبت أو التبين فى النفس .

٤ـ دوام النظر فى سير وأخبار السلف، فإنها طافحة بالنماذج الحية التى تجسّد هذا التثبت، وتجعله ماثلا أمامنا العيان، وحسبنا من هذه السّير، وتلك الأخبار :

قصّة عمر بن الخطّاب مع سعيد بن عامر الجمحى، واليه على حمص، إذ قدّر الله لعمر أن يزور هذه البلدة ويسأل أهلها : كيف وجدتم عاملكم ؟ فيشكونه له ، وكان يقال لأهل حمص : الكوفيّة الصغرى لشكايتهم عمالهمﷺ، قائلين : نشكو أربعا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال:أعظم بهذا، وماذا ؟ قالوا : لا يجيب أحدا بليل، قال : وعظيمة، وماذا لله ؟ قالوا : وله يوم فى الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة، وماذا؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام ـ أى يغمى عليه، ويغيب عن حسّه، فلم يفصل عمر فى الأمر، إلا بعد أن جمع بينهم وبينه، ودعا ربّه قائلا : « اللهم لا تفيّل رأيى فيه »، وكان عمر حسن الظن به ، وبدأت المحاكمة ، فقال عمر لهم أمامه : ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال: ما تقول؟ قال: والله إن كنت لأكره ذكره : ليس لأهلى خادم، فأعجن عجينى، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم .

فقال: ما تشكون منه ؟ قالوا :لا يجيب أحدا بليل، قال: ما تقول؟ قال: إن كنت لأكره ذكره : إني جعلت النهار لهم، والليل للّه ـ عزّ وجلّ . قال: وما تشكون منه ؟ قالوا : إن له يوما في الشهر لا يخرج إلينا فيه، قال : ما تقول ؟ قال : ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار، قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام، قال: ما تقول: قال شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، وقد بضعت قريش من لحمه، ثم حملوه على جذعة، فقالوا: أتحب أن محمدا مكانك ؟ فقال : واللّه ما أحبّ أني في أهلي وولدي وأن محمدا ﷺ شيك بشوكة، ثم نادى يا محمد، فما ذكرتُ ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال، وأنا مشرك لا أومن باللّه العظيم، إلا ظننت أن اللّه ـ عزّ وجلّ ـ لا يغفر لي بذلك الذنب أبدا، فتصيبني تلك الغنطة . فقال عمر ـ بعد أن أظهر براءته أمامهم : الحمد للّه الذي لم يفيّل فراستي، وبعث إليه بألف دينار، وقال: استعن بها على أمرك، ففرّقها » [(١)].

وقصه الوزير أبي القاسم بن مسلمة، أحد وزراء بني العباس، مع اليهود الخيابرة في القرن الخامس الهجري، إذ رفع إليه هؤلاء اليهود كتابا زاعمين أنه كتاب نبوي فيه إسقاط الجزية عنهم، فلم يبادر بالفصل في المسألة دون تثبت أو تبيّن، وإنما ردّ الأمر إلى أهله، لقد دفع الكتاب إلى الحافظ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) شيخ علماء بغداد، ومؤرخها ومحدّثها في عصره، فنظر فيه ثم قال: هذا كذب، فسأله الوزير : وما الدليل على كذبه ؟ فقال: لأن فيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يوم خيبر، وقد كانت خيبر في سنة سبع من الهجرة، وإنّما أسلم معاوية يوم الفتح، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات قبل خيبر، عام الخندق سنة خمس، فأعجب الناس ذلك، وتوقف الوزير عن العمل بالكتاب [(٢)] .

أرأيت لو أن هذا الوزير استعجل، ونفذ ما في الكتاب من غير أن يردّ الأمر إلى أهله، فماذا تكون النتيجة؟ إن النتيجة هي تعطيل نص صريح من كتاب اللّه ـ عزّ وجلّ ـ بغير دليل ولا برهان، إذ يقول الحق ـ سبحانه : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ

---

(١) القصة أوردها الطنطاويان في: أخبار عمر ١٦٢ ـ ١٦٤، عن حلية الأولياء لأبي نعيم، وتهذيب تاريخ دمشق لابن بدران .

(٢) الخبرأورده الحافظ ابن كثير في: البداية والنهاية ١٢/ ١١٠، ١١١، مشيرا إلى أن ابن جرير هو الذي سبق الخطيب في ذلك .

الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾.[التوبة] .

٥ـ التربية على ذلك من خلال الأحداث والوقائع، على نحو ما جاء فى: قصة أسامة بن زيد مع الجهنى فى سورة « النساء »،وعلى نحو ما جاء فى: حادثة الإفك فى سورة « النور »، وعلى نحو ما جاء فى قصة داود مع الخصمين فى سورة « ص »، وعلى نحو ما جاء فى قصة سليمان مع الهدهد فى سورة « النمل »، وعلى نحو ما جاء فى قصة الوليد بن عقبة مع بنى المصطلق فى سورة « الحجرات »، فإن هذا اللون من التربية يثبت فى النفس، ولا ينسى، نظرا لارتباطه بالحدث أو بالقصة .

٦ـ التذكير بقواعد ومعالم وطرق التثبت أو التبيّن، فإن الإنسان مجبول على النسيان وعلاج هذا النسيان دوام التذكير : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات] . ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى] .

٧ـ تقدير العواقب المترتّبة على ترك التثبت أو التبين فى الدنيا والآخرة، فإن هذا التقدير من شأنه أن يبعث الإنسان من داخله، ويحمله على التروّى أو التأنى أوالتريّث.

٨ ـ معايشة أو مخالطة من اشتهروا بخلق التثبت أو التبين، فإن هذا يفيد الإنسان كثيرا،ويدعوه إلى محاكاتهم،والنسج على منوالهم، لتقلّ العثرات، وتسلم الخطوات .

٩ـ الحكمة فى التعامل مع الناس ، فلا تخدعنا الظّواهروالأشكال والصّور ، ولا نبالغ فى البحث والتفتيش عن البواطن وخفايا الصدور، وإنّما ندع الواقع ليحدد لنا كيفيّة وأسلوب التعامل .

١٠ـ محاولة الإفادة من مناهج أهل الأرض بشأن هذا الخلق . . . أعنى التثبّت أو التبيّن . . . شريطة ألا يتعارض ذلك مع الإسلام، فإن لدى هؤلاء رصيدا لو أمكن استغلاله وتوجيهه التوجيه السليم لعاد على الإسلام، والمسلمين بالخير الكثير .

١١ـ أن يتصور المسلم نفسه فى موطن من يؤخذ بغير تثبت أو تبين، فإن ذلك يحمله على تعديل خطواته فى الطريق ؛ إذ ما لا يرضاه لنفسه، لا يرضاه لغيره .

١٢ـ التعويد على إحسان الظن بالمسلمين، إلا أن يقع منهم ما يوجب غير هذا: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور : ١٢] .

الآفة الرابعة عشرة
التفريط فى عمل اليوم والليلة

والآفة الرابعة عشرة التى يبتلى بها كثير من العاملين ، إنّما هى : « التفريط فى عمل اليوم والليلة » .

وحتى يتخلص منها من ابتلوا بها ، ويتّقيها من عافاهم اللّه ـ عز وجلّ ـ منها ، فإنه لابدّ من تقديم تصوّر دقيق يكشف عن أبعادها ومعالمها ، وذلك على النحو التالى:

أولا: مفهوم التفريط فى عمل اليوم والليلة :

التفريط لغة : التفريط فى اللغة هو: التقصير فى الأمر، وتضييعه حتى يفوت، قال فى اللسان: « وفرط فى الأمر يفرط فرطا ، أى: قصّر فيه وضيّعه حتى فات، كذلك التفريط» [1] ، « وفرّط فى الشيء ، وفرّطه : ضيّعه وقدّم العجز فيه، وفى التنزيل : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، أى أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له مخافة أن تصيروا إلى حال الندامة للتفريط فى أمراللّه » [2] . وعمل اليوم والليلة فى اللغة ، هو الوظائف أو الواجبات التى ينبغى للمرء الحفاظ عليها ، أعم من أن تكون دنيوية أو أخروية. وعليه فإن التفريط فى عمل اليوم والليلة لغة هو : التقصير أو التضييع للوظائف أو الواجبات التى ينبغى للمرء الحفاظ أو المواظبة عليها ، دنيوية كانت أو أخروية، أو هما معا حتى تفوت .

التفريط فى عمل اليوم والليلة اصطلاحا : أما مفهوم التفريط فى عمل اليوم والليلة فى اصطلاح العلماء والدعاة فإنه: التقصير أو التضييع للوظائف العبادية ، التى ينبغى للمسلم الحفاظ والمواظبة عليها فى اليوم والليلة حتى يخرج وقتها وتفوت ، مثل النوم عن الصلاة المكتوبة ، ومثل إهمال النوافل الراتبة ، أو ترك قيام الليل ، أو صلاة الوتر ، أو صلاة الضحى ، أو تضييع الورد القرآنى، أو الأذكار، أو الدعاء، أو المحاسبة للنفس والتوبة والاستغفار أو التخلف عن الذهاب إلى المسجد، وعدم حضور الجماعة بغير عذر ولا مبرر ، أو عدم فعل الخيرات الأخرى ، أو إهمال الآداب

---

(١) انظر : لسان العرب ٧ / ٣٦٨ ، مادة : « فرط » .

(٢) انظر : لسان العرب ٧ / ٣٧٠ .

الاجتماعية : من عيادة المرضى ، وتشييع الجنائز ، والسؤال عما فى الناس ، ومشاركتهم أحوالهم فى السرّاء والضرّاء . . . إلى غير ذلك من الطاعات أو العبادات .

ثانيا: أسباب التفريط فى عمل اليوم والليلة :

وللتفريط فى عمل اليوم والليلة أسباب تؤدى إليه ، وبواعث توقع فيه، نذكر منها:

١ـ التلطخ أو التدنس بالمعصية :

بأن يكون المسلم غير محترس أو متحرّز من المعصية ، لاسيّما الصغائر ، تلك التى يستهين بها كثير من الناس ، ولا يولونها رعاية أو أهمية ، وحينئذ فلا بد من العقاب ، ويكون العقاب بأمور كثيرة ، من بينها التفريط فى عمل اليوم والليلة ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] .

وجاء عن الحسن البصرى مرسلا قوله: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾قال رسول اللّهﷺ : « والذى نفس محمد بيده ، ما من خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا نكبة حجر ، ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو اللّه عنه أكثر »[1] .

وقالﷺ : « لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر » ، وقرأ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾ الآية[2] .

وقد وعى السّلف مثل هذا السبب ، وأثره على عمل اليوم والليلة ، ونبّهوا إليه كثيرا : هذا الضّحاك يقول: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه ، إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاك : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] . ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن[3] .

---

(١) الحديث أورده ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ٤ / ١١٦ من طريق إسماعيل بن مسلم، عن الحسن البصرى مرسلا، وعزاه إلى ابن أبى حاتم، وأورده السيوطى فى : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/ ٩، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن الحسن البصرى، مرسلا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة « حمٓ عٓسٓقٓ » ٥/ ٣٥٢ رقم (٣٢٥٢) من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعا به، وعقب عليه قائلا: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » وأورده السيوطى فى: الدر المنثور ٦/ ٩ وعزاه إلى عبد بن حميد ، والترمذى .

(٣) الأثر أورده ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١١٧ وعزاه إلى ابن أبى حاتم ، وأورده السيوطى فى: الدر المنثور ٦/ ٩ وعزاه إلى ابن المبارك ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن الضحاك .

وهذا الحسن يسأله رجل قائلا: يا أبا سعيد، إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل، وأعدّ طهورى فما بالى لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك [١] .

وهذا الثورى يقول: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل : وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلا يبكى ، فقلت فى نفسى : هذا مراء [٢] .

وهذا كرز بن وبرة يدخل عليه بعض الناس وهو يبكى فيقول له: أتاك نعى بعض أهلك؟ فيقول: أشدّ، فيقول له : وجع يؤلمك ؟ فيقول: أشدّ ، فيقول له : وما ذاك ؟ فيجيبه : بابى مغلق ، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البارحة ، وما ذاك إلا بذنب أحدثته [٣] .

وهذا أبو سليمان الدّارانى يقول: لا تفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب [٤] .

وهذا عابد عالم يقول: كم من أكلة منعت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل أكلة، أو يفعل فعلة، فيحرم بها قيام سنة، وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة ، وسائر الخيرات [٥] .

وقد بين الحافظ ابن القيم كيف يؤدى هذا السبب إلى مثل هذا التفريط فقال:

« ومنها - أى من آثار المعاصى - حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ، وتقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ثم رابعة وهلمّ جرّا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كلّ واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدّة أكلات أطيب منها ، والله المستعان » [٦] .

٢ـ التوسع فى المباحات :

وقد يكون التوسّع فى المباحات من الطعام والشراب واللباس والمراكب ، ونحوها هو السبب فى التفريط فى عمل اليوم والليلة ، ذلك أن هذا التوسع يورث الركون والنوم . والراحة ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى مثل هذا التفريط ، وقد سبق أن بيّنا ذلك بالتفصيل عند الحديث عن آفة الإسراف ، وحسبنا هنا قول الغزالىّ :

(١ـ ٥) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ١/ ٣٥٦ .

(٦) انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى للحافظ ابن القيم ص ٧٤.

« كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين : لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا، فترقدوا كثيرا، فتتحسّروا عند الموت كثيرا » (١) .

٣ـ عدم إدراك قيمة النعم ، وسبيل الدّوام :

وقد يكون عدم إدراك قيمة النعم وسبيل الدوام هو السبب فى التفريط فى عمل اليوم والليلة ، ذلك أن من لم يدرك أن نعم اللّه على العباد ، الظاهر منها والباطن، والمعلوم منها وغير المعلوم، شىء لا يعد ولا يحصى . ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤ ، والنحل : ١٨] . ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

ومن غفل عن أن دوام هذه النعم إنّما يكون بالشكر : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧]

ومن الشكر المواظبة على عمل اليوم والليلة من العبادات والطاعات ،من لم يدرك هذا كله، وغفل عنه ، فإنّه يقع منه لا محالة التفريط فى عمل اليوم والليلة ، وصدق اللّه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

قال الحسن البصرى ، وأبو العالية ، والسّدى والربيع بن أنس: « إن اللّه يذكر من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره» (٢) .

وقال الحسن البصرى أيضا فى قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال : اذكرونى فيما أوجبت لكم على نفسى (٣) .

قال سعيد بن جبير: اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى . وفى رواية: برحمتى(٤).

٤ـ الغفلة عن الحاجة إلى عمل اليوم والليلة :

وقد تكون الغفلة عن الحاجة إلى عمل اليوم والليلة، هى السبب فى التفريط فى هذا العمل، فإن من غفل عن أنه بحوله وقوّته ضعيف، وأنه بحول اللّه وقوته قوى، وأنه لا بد له ـ كى ينجح فى أداء دوره، والقيام بواجبه فى هذه الأرض ـ لابد له من

(١) انظر : إحياء علوم الدين ١ / ٣٥٦ .

(٢ ، ٣) الأثر أورده الحافظ ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم ١ / ١٩٦ بهذا اللفظ من غير أن يعزوه لأحد .

(٤) الأثر أورده الحافظ ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ١٩٦/١ بهذا اللفظ من غير أن يعزوه لأحد . وأورده السيوطى فى: الدر المنثور ٤٨/١ قائلا: أخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن جبير. . . وذكره .

عون الله وتأييده ونصره، وأن المواظبة على عمل اليوم والليلة هى التى تستجلب هذا العون، وذلك التأييد والنصر: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت]. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل].

« . . . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينّه ، وإن استعاذنى لأعيذنّه . . . »[1].

بل إنها هى التى تكون سببا فى سكينة النفس ، وطمأنينة القلب : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح]. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد]. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

[الأنفال: ٢]

من غفل قلبه عن كل ما قدمنا، فإنه سيفرّط لا محالة فى عمل اليوم والليلة .

٥ـ ضعف أو تلاشى التصور الصحيح لحقيقة أجر المواظبة على عمل اليوم والليلة:

وقد يكون ضعف أو تلاشى التصور الصحيح لحقيقة أجر المواظبة على عمل اليوم والليلة، هو السبب فى هذا التفريط ، فإن الاستمساك بالشىء ، والعض عليه بالنواجذ مرتبط بالتصور الصحيح له ، وللمنافع أو الفوائد المرتبطة به .

وعليه، فمن لم يكتمل عنده التصور الصحيح لحقيقة الأجر المرتبط بعمل اليوم والليلة من أنه نجاة من أهوال وشدائد يوم القيامة: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ [الزمر]. ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم].

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب التواضع ٨ / ١٣١ من حديث أبى هريرة مرفوعا به ، وأخرج أحمد فى: المسند ٦/٢٥٦ نحوه من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ: «قال الله ـ عزّ وجلّ : من أذل وليا فقد استحل محاربتى ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء الفرائض ، وما يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، وإن سألنى أعطيته ، وإن دعانى أجبته ،ما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن وفاته لأنه يكره الموت وأكره مساءته» .

بل من أنه ـ أى الأجر ـ جنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفوق هذا وذاك رؤية الله، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [التوبة] . ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ [يونس] . ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة] . ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] .

ومن لم يكتمل عنده التصور لحقيقة هذا الأجر، فإنه يستلذ النّوم والرّاحة، ويضنّ بالتعب والمجاهدة فى سبيل الله،وبالتالى يُفرّط فى عمل اليوم والليلة.

وصدق العلامة ابن الجوزى حين قال : « من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف » [1].

٦ـ نسيان الموت وما بعده من أهوال وشدائد :

وقد يكون نسيان الموت وما بعده من أهوال وشدائد ، هو السبب فى التفريط فى عمل اليوم والليلة ، ذلك أن من نسى أنه ميت لا محالة وإن طال الأجل : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥ ، والأنبياء: ٣٥، والعنكبوت: ٥٧] . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء] .

وأن هذا الموت أقرب إليه من شراك نعله : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾ [يس] .

وأنه سيكون بعد هذا الموت شدائد وأهوال يشيب منها الولدان ، وتنخلع لها القلوب ، ولا نجاة منها إلا بالمواظبة على عمل اليوم والليلة : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨)﴾ [المزمل] . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]. ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ [غافر]

من نسى ذلك كله ، كان منه هذا التفريط ولا شك .

[1] انظر : الرقائق للأستاذ محمد أحمد الراشد ص ٦٢ نقلا عن ابن الجوزى .

وقد ألمح إلى ذلك النبى ﷺ إذ دخل مصلاه، فرأى ناسا كأنهم يكتشرون [١] ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى: الموت، فأكثروا من ذكر هادم اللذات: الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه، فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود. . . » [٢] .

٧ـ ظنّ بلوغ الكمال :

وقد يكون ظنّ بلوغ الكمال هو السبب فى التفريط فى عمل اليوم والليلة، ذلك أن الإنسان قد ينسى نفسه، وينسى أنه مهما عمل وأطاع بالليل والنهار ، فلن يستطيع شكر أدنى نعمة من نعم الله ـ تعالى ـ عليه، ويحمله هذا النسيان مع عوامل أخرى على ظنّ بلوغ الكمال ، وحينئذ يقع منه التفريط فى عمل اليوم والليلة .

ولعل هذا هو ما نفهمه من حديث النبى ﷺ إذ يقول : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » [٣] .

ومما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه فى الدنيا [٤] .

ومن قول ميمون بن مهران : لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه ، كما يحاسب شريكه من أين مطعمه ، وملبسه [٥] .

---

(١) يكتشرون : أى تظهر أسنانهم من الضحك ، إذ الكشر : ظهور الأسنان للضحك، وكاشره إذا ضحك فى وجهه ، وباسطه ، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٢١.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى ذكر الموت ٤/ ٤٧٩ رقم (٢٣٠٧) من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ : « أكثروا ذكر هادم اللذات » يعنى الموت ، وكتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٥١ رقم (٢٤٦٠) من حديث أبى سعيد مرفوعا به ، والنسائى فى: السنن : كتاب الجنائز: باب كثرة ذكر الموت ٤/ ٤ رقم (١٨٢٤) من حديث أبى هريرة ، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٢ رقم (٤٢٥٨) من حديث أبى هريرة، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣ من حديث أبى هريرة، وقال الترمذى عقب رواية أبى هريرة : « هذا حديث حسن غريب »، وعقب رواية أبى سعيد : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ».

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤/ ٥٥٠ رقم (٢٤٥٩) وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ رقم (٤٢٦٠)، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٢٤ كلهم من حديث أبى يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه مرفوعا به .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤/ ٥٥٠ تحت رقم (٢٤٥٩) موقوفا على عمر بن الخطاب ، وأورده الطنطاويان فى أخبار عمر ص ٢٩٠ وعزواه إلى ابن الأثير فى أسد الغابة.

(٥) الأثر أورده الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب منه ٤/ ٥٥٠ تحت رقم (٢٤٥٩) من كلام ميمون بن مهران به .

٨ ـ كثرة الأعباء والواجبات :

وقد تؤدى كثرة الأعباء والواجبات إلى التفريط فى عمل اليوم والليلة ، ذلك أن الإنسان فى زحمة العمل ، وفى إلحاح الأعباء والواجبات ، قد يهمل فى عمل اليوم والليلة بحجة ضيق الوقت ، وضرورة الفراغ من هذه الأعباء وتلك الواجبات ، ناسيا أو متناسيا أن زاده على الطريق للخروج من كل ما هو مطلوب منه إنّما يكمن فى المواظبة على عمل اليوم والليلة ، إذ الوقت والطاقات والإمكانات كلها ملك للّه، وبيده سبحانه ، وحين يرى من العبد إقبالا عليه، وتلذذاً بطاعته وذكره يمتنّ ويتفضل عليه بالبركة في الوقت، والقوة فى الإرادة ، والمضاء فى العزيمة ، والسداد فى الرأى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق] .

٩ـ التسويف :

وقد يكون التسويف هو السبب فى التفريط فى عمل اليوم والليلة ، ذلك أن من تعوّد التسويف أو التأجيل تتراكم عليه الواجبات أو الأعباء ، وحين يريد الخلاص أو الخروج منها، تصبح ثقيلة أو شاقة عليه، وحينئذ لا يكون منه إلا التفريط أو التضييع.

ولعل هذا هو المفهوم من قوله ﷺ: « بادروا بالأعمال الصالحة سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفنّدا، أو موتا مجهزا ، أو الدّجّال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » [(١)].

وقد وعى ذلك سلف الأمة ـ رضوا ن اللّه عليهم ـ فحرصوا على اقتناص الفرص واغتنام العمر قبل أن يضيع ، وحسبنا هنا مقالة عمر رضي الله عنه : القوة فى ألا تؤخّر عمل اليوم لغد [(٢)].

---

(١)الحديث أخرجه الترمذى فى:السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى المبادرة بالعمل ٤/٤٧٨ رقم (٢٣٠٦) من حديث أبى هريرة مرفوعا به ، وأورده الإمام الغزالى فى : إحياء علوم الدين : كتاب ذكر الموت وما بعده : باب بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير ٤/٤٥٩. وخرجه الحافظ العراقى فى: المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ٤/٤٥٩ بهامش الإحياء قائلا : « أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة بلفظ : ينتظرون إلا غناء ... » الحديث وقال: « حسن ، ورواه ابن المبارك فى: الزهد ، ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى : قصر الأمل بلفظ المصنف ، وفيه من لم يسمّ » .

(٢)الأثر أورده الطنطاويان فى: أخبار عمر ص ٢٨١ ، وعزواه إلى الطبرى فى تاريخه .

ومن وعظهﷺلرجل بقوله: « اغتنم خمسا قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (١) .

١٠ـ مشاهدة بعض ذوى الأسوة على حال من التفريط :

وأخيرا، قد تكون مشاهدة بعض ذوى الأسوة والقدوة ، على حال من التفريط ، هى السبب فى عدم المواظبة على عمل اليوم والليلة، ذلك أن المسلم أحيانا ينظر إلى ذوى الأسوة والقدوة على أنّهم نمط فريد من الناس، لا يمكن أن يقع منهم تفريط أو تقصير ، وحين يطلع منهم أو من بعضهم على شىء من التفريط، فإن هذه النظرة قد تحمله على محاكاتهم ، ناسيا أنه لا طاعة ولا محاكاة فى المعصية ، وإنما فى المعروف فقط .

ولعل هذا السبب هو المفهوم من تشديد الإسلام على عدم المجاهرة بالإثم ، إذ يقولﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره اللّه، فيقول : يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه ، ويصبح يكشف ستر اللّه عنه » (٢) .

ثالثا : آثار التفريط فى عمل اليوم والليلة :

وللتفريط فى عمل اليوم والليلة ، آثار ضارة ، وعواقب مهلكة ، سواء على العاملين ، أو على العمل الإسلامى، ودونك بعض هذه الآثار :

أ ـ آثار التفريط فى عمل اليوم والليلة على العاملين :

فمن آثار التفريط فى عمل اليوم والليلة على العاملين :

---

(١) الحديث أورده ابن أبى شيبة فى : المصنّف : كتاب الزهد: باب ما ذكر عن نبيناﷺفى الزهد ١٣/ ٢٢٣ من حديث عمرو بن ميمون ﷺ مرسلا ، وأورده الغزالى فى : إحياء علوم الدين : كتاب ذكر الموت وما بعده : باب بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير ٤ / ٤٥٩، وخرجه الحافظ العراقى فى : المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ٤ / ٤٥٩ بهامش الإحياء قائلا : « حديث ابن عباس : « اغتنم خمسا قبل خمس ، شبابك قبل هرمك . . . » الحديث : أخرجه ابن أبى الدنيا فيه بإسناد حسن ، ورواه ابن المبارك فى: الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلا » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الأدب: باب ستر المؤمن على نفسه ٨ / ٢٤، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه ٤/ ٢٢٩١ رقم (٢٩٩٠)، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخارى.

١ـ الاضطراب والقلق النفسى :

ذلك أن غذاء القلب ، وراحة النفس ، وسموّ الروح ، إنما يكون فى المواظبة على عمل اليوم والليلة ،وعليه فإن من فرّط فى عمل اليوم والليلة ، فقد قطع عن القلب غذاءه ودواءه، ومصدر سعادته وطمأنينته، وتكون النتيجة : القلق والاضطراب النفسى، وصدق اللّه العظيم : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] .

٢ـ القعود عن أداء الواجب أو على الأقل الفتور :

وذلك أن زاد المسلم على الطريق إنما هو فى المواظبة على عمل اليوم والليلة، وعليه فمن فرّط فى عمل اليوم والليلة ، فقد بقى بغير زاد ، ومثل هذا تنتهى به الحال إلى القعود عن أداء الواجب ، أو على الأقل الفتور ، وذلك فيه من الخطورة والضرر ما فيه .

وصدق الرسول ﷺ إذ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا نام ثلاث عقد: يضرب كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر اللّه انحلّت عقدة، وإن توضأ انحلّت عقدة، فإن صلى انحلّت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

٣ـ الجرأة على المعصية :

ذلك أن الطاعة الحقّة بمثابة حاجز يحول بين الإنسان ، وبين المعصية : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، إن فلانا يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق ، فقال : « إنّه سينهاه ما تقول » (٢) .

وعليه فإذا فرط فيها وضيّعها، أو أدّاها بشكلها لا بجوهرها وحقيقتها، فقد هدم هذا الحاجز، وصارت الطَّريق مفتوحة أمامه للوقوع فى المعاصى والسيئات بصورة فيها جرأة أو لا مبالاة .

---

(١) الحديث تقدم تخريجه فى الجزء الأول آفة « الفتور » .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى: المسند ٢/ ٤٤٧ من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وأورده ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٥ وعزاه إلى أحمد عن أبى هريرة .

ولعل هذا هو ما يشير إليه قول ابن عبّاس: من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهاه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا (١) .

٤ـ الضعف أو الانهيار البدنى :

وذلك أن المواظبة على عمل اليوم والليلة ، تكسب الجسم مناعة ، وقدرة على التحمل، كما قال ـ سبحانه ـ على لسان هود ﷺ : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود : ٥٢] .

كما أوصى به النبى ﷺ عليا وفاطمة ـ عليهما السلام ـ إذ قال علىّ: إنّ فاطمة أتت النبى ﷺ تشكو إليه ما تلقى فى يدها من الرّحى ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته، قال: فجاءنا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم ، فقال: « على مكانكما » ، فجاء فقعد بينى وبينها، حتى وجدت برد قدميه على بطنى ، فقال : « ألا أدلكما على خير مما سألتما ، إذا أخذتما مضاجعكما، أو أويتما إلى فراشكما، فسبّحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبّرا أربعا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم » (٢) .

وعليه فمن فرّط فى عمل اليوم والليلة فسيعتاد الاسترخاء والنوم ، وذلك لا يعود على الجسد إلا بما فيه ضعفه وانهياره .

٥ـ الحرمان من العون والتوفيق الإلهى :

وذلك أن عون الله وتوفيقه، لا يظفر بهما العبد إلا إذا كان على صلة طيبة بربّه ، تتجلى فى المواظبة على اليوم والليلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] .

وإذا حدث وفرّط المسلم فى هذا العمل، فقد قطع نفسه عن ربّه ، وحينئذ يحرم العون والتوفيق .

---

(١) الحديث أورده ابن جرير فى: جامع البيان فى تفسير القرآن ٢٠/٩٩ من حديث ابن عباس موقوفا عليه، وعنه نقل ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم ٣/٤١٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب فرض الخمس : باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين ٤/١٠٢ ، وكتاب فضائل الصحابة : باب مناقب علىّ ابن أبى طالب ؓ ٥/٢٤، وكتاب النفقات: باب عمل المرأة فى بيت زوجها، وباب خادم المرأة ٧/ ٨٤ ، وكتاب الدعوات: باب التكبير والتسبيح عند المنام ٨/٨٧، وأبو داود فى: السنن : كتاب الأدب : باب فى التسبيح عند النوم ٤/ ٣١٥ ، ٣١٦ رقم (٥٠٦٢ ـ ٥٠٦٤)، وأحمد فى: المسند ١/ ١٣٦، ١٥٣، كلهم من حديث على بن أبى طالب ؓ واللفظ للبخارى .

ولعل ذلك هو ما نفهمه من قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ [الزخرف] .

٦ـ فقد الهيبة أو التأثير فى الناس :

وذلك أن من فرط فى عمل اليوم والليلة ، فقد ضيّع أعظم سلاح يؤثر به فى الناس وسبى قلوبهم ، وهذا بدهىّ ؛ لأنه بهذا التفريط ضيّع منزلته عند ربّه ، ومن ضاعت منزلته عند ربّه ، فقد ضاعت منزلته عند الناس .

وقد أشار إلى ذلك النبىّ ﷺ إذ يقول : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ اللّه من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ اللّه فى قلوبكم الوهن » فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن ؟ قال: « حبّ الدنيا وكراهية الموت » [1] .

ب ـ آثار التفريط فى عمل اليوم والليلة على العمل الإسلامىّ :

ومن آثاره على العمل الإسلامىّ :

١ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

ذلك أن عملا يضيّع المنتسبون إليه حقّ اللّه ـ تبارك وتعالى ـ عليهم، ستطول به الطريق ، وتتضاعف عليه التكاليف ، وتحيط به المحن والشدائد من كل ناحية، لاسيّما وأعداء اللّه ماضون في تنفيذ أساليبهم ومخططاتهم ، ولا يتوانون عن ذلك لحظة، من ليل أو نهار، وصدق الحقّ ـ سبحانه ـ حين قال على لسان نبى اللّه صالح عليه السلام : ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود : ٦٣] .

٢ـ عدم الثبات فى ساعات المحن والشدائد :

وذلك أن المحن بطبيعتها قاسية وشديدة ، لا يطيقها البشر بحوله وقوته وإنّما لابدّ له من العون والتأييد الإلهى ، وأنّى لمن فرّطوا فى جنب اللّه أن يرزقهم اللّه تحمّلا أو ثباتا ؟

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الملاحم : باب فى تداعى الأمم على الإسلام ١١١/٤ رقم (٤٢٩٧) ، وأحمد فى : المسند ٣٥٩/٢، ٢٧٨/٥ كلاهما من حديث ثوبان رضي الله عنه واللفظ لأبى داود .

ولعل هذا هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحقاف]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد] .

ومن قولهﷺ لابن عباس : « يا غلام ، إنّى أعلّمك كلمات : احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك،ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف »(١) .

رابعا: علاج التفريط فى عمل اليوم والليلة :

وبعد هذا نستطيع علاج التفريط فى عمل اليوم والليلة ، باتباع ما يلى:

١ـ معايشة الكتاب والسنّة ، ففيهما صورة صادقة لثواب الطائعين ، وعقاب العاصين، وماهية هذا الثواب، وذلك العقاب، بل فيهما تحريض على ملازمة الطاعة، وترك المعصية ، من خلال التذكير باطّلاع اللّه ـ سبحانه ـ وإحاطة علمه بكل شيء، والرجوع إليه، والمساءلة بين يديه، والجزاء ، وحسب المسلم أن يقرأ هذه الآيات :

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر] .

٢ـ التحرر من المعاصى والسيئات لاسيما الصغائر ، فإنها سم قاتل ، ونار محرقة وصدق الرسولﷺ إذ يقول : « إيّاكم ومحقّرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » ، وإن رسول اللّهﷺ ضرب لهن مثلا « كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادا فأجّجوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها »(٢) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب صفة القيامة والرقاق والورع : باب منه ٤/ ٥٧٥ ، ٥٧٦ رقم (٢٥١٦) ، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، كلاهما من حديث عبد اللّه بن عباس مرفوعا.

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ١/ ٤٠٢، ٤٠٣ من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعا به وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب التوبة : باب فيما يحتقر من الذنوب١٠/ ١٩٢ وقال عقبه : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق ».

٣ـ التوسّط فى تعاطى المباحات لاسيما المطاعم والمشارب، فإنها أساس كل بلية وصدق الرسول ﷺ: « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (١) .

٤ـ إدراك دور المواظبة على عمل اليوم والليلة فى النجاح والقدرة على القيام بالأعباء والواجبات ، فإن ذلك يحرر النفس من التفريط ، ويحملها على المواظبة والملازمة.

٥ـ تقدير النعمة، وأنها لن تدوم إلا بالطاعات، فإن ذلك يحرك النفوس المستقيمة للمواظبة على عمل اليوم والليلة، وفاء بحق اللّه، وطمعا فى الاستمرار والزيادة .

٦ـ محاولة التوفيق بين المواظبة على عمل اليوم والليلة، والقيام بالواجبات الأخرى : « إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط لكل ذى حق حقّه » (٢) .

٧ـ مجاهدة النفس ، وأخذها بالحزم والشدة ، مع اتهامها بالتقصير، ومع ترك التسويف ، ومع تمنيتها بأنها إن تعبت اليوم ، ستتمتع غدا بالنعيم المقيم ، وتتلذذ بالنظر إلى وجه اللّه الكريم .

٨ ـ تقدير العواقب والآثار المترتبة على التفريط فى عمل اليوم والليلة ، فلعل ذلك يحرّك القلوب، وتنعكس هذه الحركة على الجوارح ، فتكون المواظبة على عمل اليوم والليلة .

---

(١) الحديث تقدم تخريجه فى الجزء الأول ، آفة « الإسراف ».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الصوم: باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع... ٣/٤٩، ٥٠ ، وكتاب الأدب : باب صنع الطعام ، والتكلّف للضيف ٨/ ٤٠، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد : باب منه ٤/٥٢٦ رقم (٢٤١٣)، وأبو يعلى الموصلى فى: المسند ٢ / ١٩٣، ١٩٤ ، كلهم من حديث أبى جحيفة ، ولفظه عند البخارى: آخى رسول اللّه ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال له: كل ، قال : فإنى صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال: فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم، فقال : نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن فصلّيا ، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا... وذكر الحديث ، وفى آخره قال له النبى ﷺ: « صدق سلمان » .

٩ـ ملازمة الجماعة ، والعيش فى وسط صالح مستقيم ، فإن ذلك يذكر باللّه ، ويشحذ الهمم والعزائم وصدق رسول اللّه ﷺ : « ألا أنبئكم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول اللّه . قال : « خياركم الذين إذا رُءُوا ذكر اللّه ـ عزّ وجلّ »[(١)] .

١٠ـ الاستعانة التامة باللّه ـ عزّ وجل ـ فإنه ـ سبحانه ـ يعين من استعان به ، ولجأ إلى حماه، ولاذ بجنابه ، لا سيما فى ساعات الاضطرار والشدة : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] . ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل] .

١١ـ إدراك أن الدنيا دار عمل وغرس وزراعة ، وغدا سيكون الحصاد ، ومعرفة النتائج، ولئن ضاعت الدنيا بغير طاعة، كانت الخسارة التى لا خسارة بعدها : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ(٤٥) ﴾[الشورى] .

١٢ـ مواظبة ذوى الأسوة والقدوة على عمل اليوم والليلة ، حتى لا يكونوا سببا فى فتنة وضياع غيرهم من الناس ، فيحتملون إثم أنفسهم ، وإثم اقتداء غيرهم بهم : « . . . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[(٢)] .

١٣ـ معايشة النبى ﷺ فى سيرته ، وكيف كان يصوم النهار، حتى يقال: إنه لا يفطر ، ويقوم الليل حتى يقال: إنه لا ينام، ومثل ذلك كان يصنع فى باقى الطاعات،

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن: كتاب الزهد : باب من لا يؤبه له٢/ ١٣٧٩ رقم (٤١١٩)، وأورده البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ٤/ ٢١٥، ٢١٦، وعقب عليه قائلا: « هذا إسناد حسن، شهر وسويد مختلف فيهما، وباقى رجال الإسناد ثقات. . .»، وأبو بكر ابن أبى شيبة فى: المصنف : كتاب الزهد : باب كلام سلمان ١٣/ ٣٣٥، ٣٣٦ من طريق شهر بن حوشب بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى مختصرا فى: الصحيح (الترجمة) : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة ٩/ ١٢٧ ومسلم فى : الصحيح: كتاب العلم : باب من سن سنة سيئة أو حسنة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ٤/ ٢٠٦٠ رقم (٢٦٧٤)، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم (٤٦٠٩)، والترمذى فى: السنن: كتاب العلم : فيمن دعا إلى هدى ٥/ ٤٢ رقم (٢٦٧٤) وابن ماجه فى: السنن : المقدمة: باب من سن سنة حسنة أو سيئة ١/ ٧٥ ، رقم (٢٠٦) ، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٩٧ ، ٥٠٥ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا به وبنحوه ، واللفظ لمسلم .

مع من أن اللّه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، إذ هذه المعايشة تحمل كل مفرّط فى عمل اليوم والليلة على المواظبة، من منطلق أن النبىﷺ كان يصنع ذلك، وقد وعده اللّه المقام المحمود، فكيف بمن لا يعرف عاقبته ، وهل سيكون فى الجنة أو مع أهل النار ؟

١٤ـ دوام النظر فى سيرة وأخبار السلف ، فإنها مليئة بصور حية مشرقة فى المواظبة على عمل اليوم والليلة ، تحمل كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد على الاقتداء والتأسى ، أو على الأقل المحاكاة والتشبه .

١٥ـ تذكر الذنوب والآثام الماضية ، فإن ذلك يحمل على المواظبة فى عمل اليوم والليلة تداركا لما فات ، وطمعا فى تكفير هذه الذنوب ، وتلك الآثام، وخير ما يصدّق ذلك موقف السحرة من تهديد فرعون حين خالطت حلاوة الإيمان بشاشة قلوبهم وردّهم عليه : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾ [طه] .

١٦ـ تذكّر أن الموت يأتى بغتة ، وإذا لم يأت بغتة فسيسبقه المرض ثم يكون الموت ويكون الندم ، ولكنه بعد فوات الأوان ، وضياع الفرصة .


الجزء الثالث

الآفة الخامسة عشرة

سوء الظن

والآفة الخامسة عشرة التي يبتلى بها نفر من العاملين ، وتصيبهم ، وتصيب العمل الإسلامى بآثار مهلكة ، وعواقب وخيمة ، إنما هى : « سوء الظن » .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلوا بها ، ويتجنبها من سلمهم الله منها ، فإننا سنتناولها من الجوانب التالية :

أولا : تعريف سوء الظن :

يطلق الظن لغة على معان عدة نذكر منها :

أ ـ الشك، تقول : بئر ظنون : لا يدرى أفيها ماء أم لا ؟ ومنه قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج] .

ب ـ التهمة، تقول: أظنَّ به الناسَ ، تعنى : عرَّضه لتهمتهم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الاحزاب]، ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

جـ ـ الحسبان أو العلم بغير يقين، تقول: ظننت الشمس طالعة أى حسبتها أو علمتها علمًا غير يقينى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الانبياء] ، ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢] ، ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾

[النجم : ٢٨]

د ـ اليقين، تقول: ظنَّ فلان الشىءَ بمعنى تيقنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة] ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ

حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحاقة]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المطففين] (٢)

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا إذ هي تصوير لمراتب الظن من بدايته إلى نهايته، وكأن الظن: إنما هو تخمين أو هاجس أو خاطر يقع في النفس لأمارات تظهر، وقرائن تبدو، فإذا قويت، وتأكدت هذه الأمارات وتلك القرائن أثمرت علمًا يقينًا أو تصديقًا قطعيًا، وإذا ضعفت أو تلاشت لم تثمر إلا مجرد الشك أو التوهم، أو العلم الغير يقيني.

والسوء لغة يطلق على معنيين:

الأول: أن السوء هو كل ما يقبح، أو ما يقابل الحسن، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ [الأعراف: ٩٥]، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ [الرعد: ٦].

الآخر: أن السوء هو كل ما يغم الإنسان من أمور الدارين سواء أكان في نفسه أم في غيره (٢)

ولا تعارض بين المعنيين، إذ القبيح أو الشر يعود على النفس بالهم والغم، والقلق والاضطراب النفسي كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن]، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

وإذ قد عرفنا معنى « الظن » ومعنى « السوء » كل على حدة فإننا نقول: إن سوء الظن هو تخريص أو تخمين ينتهي بوصف الغير بما يسوءه ويغمه من كل قبيح من غير دليل ولا برهان.

ثانيًا: مظاهر سوء الظن، ووضعه في ميزان الإسلام:

ولسوء الظن مظاهر عدة، وأمارات كثيرة تدل عليه، نذكر منها:

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٣/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٩ بتصرف كثير.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٣/ ٢٨٨، ٢٨٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٩ بتصرف كثير.

١ ـ القعود عن نصرة دين الله ـ عز وجل ـ في الغير أو في النفس وفي الغير معًا بدعوى أننا أهل الله وأولياؤه ، وقد عملنا طويلا وتعبنا كثيراً وما حصلنا من وراء ذلك نصرة على أعدائنا ، بل على العكس كانت الشدائد والامتحانات شدة بعد شدة ، وامتحانًا بعد امتحان ، كما حكى الله ـ عز وجل ـ عن نفر من الناس يوم أحد : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، أو بدعوى أن ذنوبنا كثيرة لن تغفر، ولا يمكن أن تغفر .

٢ ـ الولوغ في المعاصي والسيئات بدعوى أن الله لا يرى ، ولا يعلم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [فصلت] ، أو بدعوى أنه لا بعث، ولا حساب كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾ [الجن] ، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] ، ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

٣ ـ توقع هلاك المؤمنين ، واستئصال شأفتهم أمام كثرة العدو عددًا وعتادًا مع تقدم هذا العدو ونبوغه ، كما قال سبحانه عن المنافقين وموقفهم من المؤمنين يوم الحديبية : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) ﴾ [الفتح : ١٢] .

٤ ـ الرجاء أو الخوف من الخلق ظنًا أنهم يعطون ويمنعون ، ينفعون ويضرون .

٥ ـ التقصير في عمل من أعمال البر المعروفة ، مثل عيادة المريض ، وتشييع الجنائز، ورد السلام ، وإجابة الدعوة ، وبذل النصيحة ، وتشميت العاطس ، ومساعدة ذوي الحاجة ، وإماطة الأذى عن الطريق ، والتزاور ونحوها ؛ لأسباب خارجة عن الإرادة ، مثل السفر أو المرض ، أو القيام بواجب أكبر ، أو عدم العلم ، أو غير ذلك، فيظن سيئ الظن أن هذا التقصير نشأ من التكبر والاستعلاء أو من الاحتقار وعدم الاهتمام ، أو من البخل والشح ، وهكذا .

٦ ـ القيام بأعمال البر المعروفة من : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدقات، وإرشاد الناس وتعليمهم والإصلاح بين المتخاصمين ونحوها ، فيظن سيئ الظن أنه إنما يفعل ذلك رياءً أو شهرةً أو طمعًا فى مغنم. والحقيقة أن البار ما كان يفعل ذلك إلا لأنه المعروف الذى دعانا الله إليه ، وحذرنا من تضييعه والتفريط أو التقصير فيه .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم ما كان يصنعه المنافقون مع المتصدقين من المسلمين؛ إذ كانوا يقولون : إنهم يصنعون ما يصنعون للرياء والشهرة ، فأنزل الله فيهم قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة] .

٧ ـ إتقان السعى المعاشى من تجارة أو صناعة أو زراعة ونحوها ، امتثالا لما أمر الله ـ عز وجل ـ به من السعى والضرب فى الأرض فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك]، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، فيظن سيئ الظن أن هذا تكالب، وتهافت وحب للدنيا وبغض للآخرة .

٨ ـ إتقان الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وقراءة للقرآن، وذكر ، ودعاء، واستغفار ونحو ذلك، فيظن سيئ الظن أن هذه رهبانية وعزلة أو انقطاع للعبادة وترك للحياة الدنيا .

٩ ـ الحرص على الحياة فى الوقت الذى يقتضى الحرص على الحياة، والإقدام على الموت فى الوقت الذى يقتضى الإقدام على الموت، كما أمر الإسلام بذلك ، فيظن سيئ الظن أن هذا جبن وأن ذاك تهور، إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على سوء الظن.

ولقد حرم الإسلام سوء الظن بالله وبرسوله وبالمؤمنين المعروفين بصلاح الحال واستقامة الخلق ، ونظافة السيرة ، وإن وقع منهم تقصير فى معروف أو تجاوز لمباح أو خدش لمروءة ، وأمر بتدارك هذا التقصير ، أو هذا التجاوز والخدش عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون أن يتغير قلب المسلم على أخيه المسلم قيد شعرة ، ولو للحظة واحدة، إذ يقول سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام]، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وإذ يقول الرسولﷺ : « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث »[(١)] ، « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى »[(٢)] ، « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »[(٣)] ، « ... ورأيت رجلا من أمتى قائمًا على شفير جهنم يرعد كما ترعد السعفة فى يوم عاصف ، فجاءه رجاؤه فى الله - عز وجل - فاستنقذه من ذلك ومضى »[(٤)] .

وأوجب سوء الظن بكافر معلن بكفره وعداوته لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن وقع منه معروف أو عمل من أعمال البر ؛ لأنه إذا كان قد أنكر وجود الله أو وحدانيته ، وخان نعمه التى تغمره من أعلاه إلى أدناه ، فكيف يفى لنا ، ويصدق معنا ، وصدق

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب : باب ما ينهى عن التحاسد ، والتدابر، وباب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ ٨/ ٢٣، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظن، والتجسس ... إلخ ٤/١٩٨٥، ١٩٨٦، رقم (٢٥٦٣)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى الظن ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٧)، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا، هذا وللحديث تخريج أوسع فى كتابنا : (غاية البيان فى شرح مختارات من السنن] ١/ ٦٧ فليراجعه من أراد .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾، وباب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وباب ذكر النبىﷺ وروايته عن ربه ١٤٨/٩، ١٧٧، ١٩٢، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الذكر : باب الحث على ذكر الله تعالى ، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ٤/ ٢٠٦١، ٢٠٦٧ رقم (٢٦٧٥) ، وكتاب التوبة : باب فى الحض على التوبة والفرح بها ٤/ ٢١٠٢ رقم (٢٦٧٥) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى حسن الظن بالله ٤/ ٥١٤ رقم (٢٣٨٨)، وكتاب الدعوات : باب فى حسن الظن بالله - عز وجل ٥/ ٥٤٢ رقم (٣٦٠٣)،وابن ماجه فى:السنن:كتاب الأدب:باب فضل العمل ٢/ ١٢٥٥، ١٢٥٦ رقم (٣٨٢٢)، والدارمى فى : السنن: كتاب الرقاق: باب حسن الظن بالله ٢/ ٧٦٠، ٧٦١ رقم (٢٦٣١) ، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٥١ ، ٣١٥ ، ٣٩١ ، ٤١٣ ، ٤٤٥ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٩ ، ٣/ ٢١٠ ، ٢٧٧ ، ٤٩١ ، ٤/ ١٠٦ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا إلا الدارمى ورواية عن أحمد، فإنه عندهما من حديث واثلة ابن الأسقع، وإلا رواية عند البخارى، وأحمد من حديث أنس بن مالك ﷺ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ٤/ ٢٢٠٥ ، ٢٢٠٦ رقم (٢٨٧٧) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجنائز : باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت ٣/ ١٨٩ رقم (٣١١٣)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب التوكل واليقين ٢/ ١٣٩٥ رقم (٤١٦٧)، وأحمد فى المسند ٣/ ٢٩٣، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٩٠، ٣٩١، كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا .

(٤) الحديث جزء من حديث أورده الحافظ ابن القيم فى : الوابل الصيب من الكلم الطيب ، والحافظ بدر الدين العينى فى : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ٢٢/ ٩٢، وعزواه إلى أبى موسى المدينى قائلين : « قال أبو موسى : هذا حديث حسن جدًا » .

الله العليم بالنفوس وخفاياها إذ يقول : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٨]، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

وكذلك وجوب سوء الظن بمسلم عرف عنه المجاهرة بالمعصية ، والصد عن سبيل الله، وعدم الالتزام بالإسلام ؛ لجواز أن يكون أداة فى أيدى الكافرين لتنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ، كما يشهد بذلك الواقع اليوم ، ويكون سوء الظن بهؤلاء حينئذ من باب الحذر والحيطة ؛ اتقاء لشرهم، وإبطالا لكيدهم ومؤامراتهم .

إذ كان من هديه ﷺ حين يدخل عليه الغريب من الناس أن يحذره ويحترس منه من غير أن يطوى عنه بشره ولا خلقه .

وهكذا يدور سوء الظن بين الحرمة والوجوب ، وأما الأحاديث التى وردت فى الدعوة إلى سوء الظن بإطلاق فإنها ضعيفة ولا تصح مثل : « من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته »[1] ، « الحزم سوء الظن »[2] ، « احترسوا من الناس بسوء الظن »[3] .

ثالثًا : أسباب سوء الظن :

ويوقع فى سوء الظن أسباب كثيرة ، وبواعث عدة ، نذكر منها :

١ - سوء النية وخبث الطوية :

كأن ينشأ الإنسان تنشئة غير صالحة فيقع كثيرًا فى المعاصى والسيئات حتى تورثه تلك المعاصى وهذه السيئات سوء الظن بمن ليس أهلا له ، ويصبح ذلك مظهرًا من مظاهر سوء النية وخبث الطوية ، كما قال سبحانه وتعالى :

(١) انظر فى ضعف هذه الأحاديث : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ فى الأمة للألبانى ١/ ١٨٦، ١٨٧، ٣/ ٢٩١ - ٢٩٣ وإن كان قد عزا الحديث الثالث : « احترسوا من الناس بسوء الظن » إلى ابن سعد فى : الطبقات الكبرى على أنه من أقوال الحسن البصرى ، ثم عقب عليه بقوله : « وسنده صحيح » .

وحاول رده من حيث المتن بأنه مخالف للأحاديث الكثيرة الصحيحة التى وردت بإحسان الظن بالمسلمين ، والتى منها : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » ، ولا نوافقه على هذا التعليل الأخير ، لأنه يمكن الجمع بين الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب تحسين الظن بالمسلمين وبين هذا الكلام المأثور عن الحسن البصرى الدال على وجوب الاحتراس من الناس بسوء الظن ، يمكن الجمع بأن الأول محمول على المسلم المعروف بالصلاح والتقوى ، وحسن الخلق ، ونظافة السيرة ، والآخر محمول على الكافر أو على مسلم معروف بحربه لله ولرسوله ، أو على مجهول الهوية أهو مسلم أو كافر ؟ على النحو الذى شرحنا فى موقف الإسلام من سوء الظن ، والله أعلم .

﴿ ويُعذّبَ المُنافقينَ والمُنافقات والمُشركينَ والمُشركات الظّانّين بالله ظَنّ السّوْء عليهم دائرةُ السّوْء وغضبَ اللّهُ عليهم ولعنهمْ وأعدّ لهم جهنّم وساءتْ مصيرًا (٦) ﴾ [الفتح] ، ﴿ بلْ ظننتُم أن لّن ينقلب الرّسُولُ والمُؤمنُون إلىٰ أهليهمْ أبدًا وزُيّن ذلك في قُلُوبكُمْ وظننتُمْ ظنّ السّوْء وكُنتُمْ قوْمًا بُورًا (١٢) ﴾ [الفتح] ، ﴿وطائفةٌ قدْ أهمّتْهُمْ أنفُسُهُمْ يظُنُّون بالله غيْر الحقّ ظنّ الجاهليّة يقُولُون هل لّنا من الأمْر من شيْءٍ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، ﴿ وما يتّبعُ أكْثرُهُمْ إلاّ ظنًّا إنّ الظّنّ لا يُغْني من الحقّ شيْئًا﴾ [يونس : ٣٦]، ﴿ إذْ جاءُوكُم مّن فوْقكُمْ ومنْ أسْفل منكُمْ وإذْ زاغت الأبْصارُ وبلغت القُلُوبُ الحناجر وتظُنُّون بالله الظُّنُونا (١٠) ﴾ [الأحزاب] .

٢ ـ عدم التنشئة على المبدأ الصحيح فى الحكم على الأشياء والأشخاص:

ذلك أن المبدأ الصحيح فى الحكم على الأشياء والأشخاص إنما يتمثل فى:

أ ـ النظر إلى الظاهر وترك السرائر إلى الله ، فهو وحده المطلع عليها العليم بكل ما فيها ، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئًا ، فإنما أقطع له قطعة من النار »(١)

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك ،

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم والغصب : باب إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه ٣/ ١٧١، ١٧٢، وكتاب الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين ٣/ ٢٣٥ ، ٢٣٦ وكتاب الحيل : باب منه ٩/ ٣٢ ، وكتاب الأحكام : باب موعظة الإمام للخصوم ، وباب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه ، وباب القضاء فى كثير المال وقليله ٩/ ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأقضية : باب الحكم بالظاهر ، واللحن بالحجة ٣ / ١٣٣٧، ١٣٣٨ رقم (١٧١٣) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأقضية: باب فى قضاء القاضى إذا أخطأ ٣/ ٣٠١، ٣٠٢ رقم (٣٥٨٣، ٣٥٨٤)، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب ما جاء فى التشديد على من يقضى له بشيء ليس له أن يأخذه ٣/ ٦٢٤ رقم (١٣٣٩)، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب القضاء: باب الحكم بالظاهر، وباب ما يقطع القضاء ٣/ ٤٧٢، ٤٨٢، رقم (٥٩٥٦، ٥٩٨٥) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الأحكام : باب قضية الحاكم لا تحل حرامًا ولا تحرم حلالا ٢/ ٧٧٧ رقم (٢٣١٧، ٢٣١٨) ، ومالك فى : الموطأ : كتاب الأقضية ، باب الترغيب فى القضاء بالحق ص ٥٠٩ رقم (١٣٩٧)، وأحمد فى : المسند ٦/ ٢٠٣، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٨، ٣٢٠، كلهم من حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا ، واللفظ للبخارى ، وزاد ابن ماجه رواية أخرى من حديث أبى هريرة، وعقب عليها البوصيرى فى: مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٣/ ٤٤ قائلا : « هذا إسناد صحيح ، وله شاهد من حديث أم سلمة ، رواه الستة ، ورجاله رجال الصحيح » وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « حديث أم سلمة حديث حسن صحيح » .

فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله، فقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا» فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ... الحديث[1].

ب ـ والاعتماد على الدليل أو البرهان قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة]، ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النور : ١٣].

جـ ـ والتأكد من صحة هذا الدليل أو ذلك البرهان، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء : ٩٤]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات].

د ـ وأخيرًا عدم معارضة الأدلة، أو البراهين لبعضها البعض، هذا هو المبدأ الصحيح في الحكم على الأشياء والأشخاص، ومن يربى على غير هذا المبدأ فإن أموره وأحكامه كلها تبنى على الظنون والأوهام التي قد تصيب مرة وتخطئ مائة مرة ومرة، ولقد أشار القرآن إلى هذا السبب وهو يناقش المشركين في دعواهم أن وقوعهم في الشرك من الله، قائلين: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨]، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام].

٣ ـ البيئة قريبة كانت أو بعيدة :

وقد ينشأ المرء في بيئة معروفة بسوء الخلق، ومنه سوء الظن، سواء أكانت هذه البيئة قريبة ـ ونعني بها البيت ـ أم بعيدة ـ ونعني بها الأصدقاء ـ فيتأثر بها، ولا سيما إذا كان في مرحلة الحضانة أو البناء والتكوين، ولما يصلب عوده ويحصن بعد ضد هذه الأخلاقيات وتلك السلوكيات، وحينئذ يصاب بسوء الظن.

ولقد بين النبي ﷺ أثر البيئة على الإنسان عندما قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المغازي : باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة ٥/ ١٨٣، وكتاب الديات : باب قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ٩/ ٤، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ١/ ٩٦ ـ ٩٨ رقم (٩٦، ٩٧)، وأبو داود في : السنن : كتاب الجهاد : باب على ما يقاتل المشركون ٣/ ٤٤، ٤٥ رقم (٢٦٤٣)، وأحمد في : المسند ٥/ ٢٠٠، كلهم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخاري.

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم : ٣٠] (١) « إنما مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة » (٢) .

٤ ـ اتباع الهوى :

ذلك أن الإنسان إذا اتبع هواه حتى صار هذا الهوى إلهه الذى يعبده من دون الله ، فإنه يقع لا محالة فى الظنون الكاذبة التى لا دليل عليها ولا حجة ، ولا برهان ؛ نظرًا لأن حب الشيء يعمى ويصم ، كما أن البغض يستوجب التماس العثرات ، وتصيد الأخطاء ، فمثلا إذا مال الإنسان بهواه إلى آخر فإن هذا الميل ينسيه أخطاءه ويحمله على تحسين الظن به ، وإن كان مخطئًا فى الواقع ، ونفس الأمر ، وإذا أبغض الإنسان آخر لأنه لا يميل إليه بهواه ، ولم يكن هذا الإنسان منصفًا ، فإن هذا البغض يحمل على سوء الظن ، وما يتبعه من التماس العثرات وتصيد الأخطاء وإن كان مصيبًا فى الواقع ونفس الأمر ، من باب :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... وعين السخط تبدى المساويا

وقد لفت الحق تبارك وتعالى الأنظار إلى هذا السبب حين قال :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [النجم : ٢٣] ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾ [القصص] ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجنائز : باب إذا أسلم الصبى فمات ، هل نصلى عليه؟ وباب ما قيل فى أولاد المشركين ٢ / ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، وكتاب التفسير ، سورة : ﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾ ، باب : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ١٤٣/٦ ، وكتاب القدر : باب الله أعلم بما كانوا عاملين ١٥٣/٨ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ رقم (٢٦٥٨) ، ومالك فى : الموطأ : كتاب الجنائز : باب جامع الجنائز ص ١٦٠ رقم (٥٧١) ، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٣٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا ، واللفظ للبخارى ، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح » ، وله شاهد عند أحمد ٣/ ٤٣٥ ، ٤/ ٢٤ من حديث الأسود بن سريع .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب فى العطار وبيع المسك ٨٢/٣ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب استحباب مجالسة الصالحين ، ومجانبة قرناء السوء ٢٠٢٦/٤ رقم (٢٦٢٨) بلفظه ، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

٥ ـ الوقوع فى الشبهات :

وقد يكون الوقوع فى الشبهات عن قصد ، أو عن غير قصد ، بل وعدم تبرير الوقوع فى هذه الشبهات إن كانت عن غير قصد ، أو غير تعمد من الأسباب التى تغرى الآخرين أن يقعوا فى سوء الظن ، ولعل هذا بعض أسرار تأكيده ﷺ على البعد عن الشبهات إذ يقول :

« الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه »[1] ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »[2] .

بل وضربه ﷺ المثل من نفسه لنقتدى به ونتأسى فى البعد عن كل شبهة ، إذ تقول السيدة صفية بنت حيى أم المؤمنين رضي الله عنها : كان النبى ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى ـ وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبى أسرعا، فقال النبى ﷺ : «على رسلكما، إنها

(1) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح:كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٠ ، وكتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين ٢/ ٧٢٣، ٧٢٤ رقم (١٩٤٦)، ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩ ـ ١٢٢١ رقم (١٥٩٩) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب البيوع : باب فى اجتناب الشبهات ٣/ ٢٤٣ رقم (٣٣٢٩)، والترمذى فى : السنن : كتاب البيوع: باب ما جاء فى ترك الشبهات ٣/ ٥١١ رقم (١٢٠٥)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب البيوع : باب اجتناب الشبهات فى الكسب ٤/ ٣ رقم (٦٠٤٠) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الوقوف عند الشبهات ٢/ ١٣١٨، ١٣١٩ رقم (٣٩٨٤)، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب فى الحلال بين ، والحرام بين ٢/ ٦٩٥ رقم (٢٤٣٦)، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥ كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

(2) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح (معلقًا] : كتاب البيوع : باب تفسير المشبهات ٣/ ٧٠، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٧٦، ٥٧٧ (٢٥١٨) من حديث الحسن بن على قال: حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك ... »الحديث، وعقب عليه بقوله : « وهذا حديث حسن صحيح » ، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٢/ ٦٩٥، ٦٩٦ رقم (٢٤٣٧) من حديث الحسن بن على، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٥٣ من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ، والنسائى فى : السنن : كتاب الأشربة : باب الحث على ترك الشبهات ٨/ ٣٢٧، ٣٢٨ رقم (٥٧١١) من حديث الحسين بن على .

صفية بنت حيى » فقالا: سبحان الله يا رسول الله ، قال : « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًا ـ أو قال : شيئًا »[1]

٦ ـ عدم مراعاة آداب الإسلام فى التناجى :

ذلك أن الإسلام أدبنا : أنه إن كان ولا بد من التناجى لصلاح الحياة واستقامة الحال ، فإن هناك آدابًا يلزم مراعاتها وهذه الآداب هى :

أ ـ حرمة انفراد اثنين فما فوقهما بالنجوى دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس ، إذ يقول ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه »[2] .

ويدخل فى هذا الأدب : حرمة تناجى اثنين فما فوقهما دون الجماعة بلسان غير لسان الجماعة ، لاتحاد العلة ، وللمشابهة المتمثلة فى الإحزان والإغضاب .

ب ـ وأن تكون النجوى فى الطاعة والمعروف ، لا فى المعصية والمنكر ، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[المجادلة]

جـ ـ وأن تكون النجوى فى أمر مهم لا يتم ولا يبرم إلا بعيداً عن أعين المرجفين، والمفسدين فى الأرض .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الصحيح : كتاب الأدب : باب التكبير والتسبيح عند التعجب ٨ / ٦٠ ، وأبو داود فى السنن : كتاب الصوم : باب المعتكف يدخل البيت لحاجة ٢/ ٣٣٣ رقم (٢٤٧٠)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الصيام : باب فى المعتكف يزوره أهله فى المسجد ١/ ٥٦٦ رقم (١٧٧٩) ، وأحمد فى : المسند ٦/ ٣٣٧، كلهم من حديث صفية بنت حيى رضي الله عنها به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاستئذان : باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمساراة والمناجاة ٨/ ٨٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب السلام : باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه ٤/ ١٧١٧، ١٧١٨ رقم (٢١٨٣، ٢١٨٤)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى التناجى ٤/ ٢٦٣ رقم (٤٨٥١) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث ٥/ ١١٧ رقم (٢٨٢٥) : وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح » ، والدارمى فى : السنن : كتاب الاستئذان : باب لا يتناجى اثنان دون صاحبهما ٢/ ٢٨٢، ومالك فى : الموطأ : كتاب الكلام : باب ما جاء فى مناجاة اثنين دون واحد ص ٧٠٠ رقم (١٨١٢)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٧٥، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٢/ ٩ ، ١٨ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا .

تلكم هى آداب الإسلام فى التناجى ، ومن يهملها أو لا يلتزم بها يمكن أن يفتح الطريق على نفسه لتتسرب إليها الظنون والأوهام الكاذبة التى لا دليل عليها ، ولا برهان .

٧ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات ولا سيما مع المجاهرة أو الإعلان :

فقد يقع الإنسان فى المعاصى والسيئات وتصل به الحال إلى أن يجاهر أو يعلن بها، وحينئذ يفتح الباب أمام الآخرين ليظنوا به سوءاً ؛ نظراً لأنه خان نعمة الله عليه، ولم يقابلها بالعرفان والشكر، وإنما قابلها بالجحود والنكران، فكان أجدر أن يخافه الناس وأن يظنوا به سوءاً أو شراً .

ولهذا وغيره دعا الإسلام إلى الإسرار بالمعصية إن كان ولا بد من اقترافها فقال ﷺ: « كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١) .

٨ ـ نسيان الحاضر النظيف والوقوف مع الماضى الدنس :

فقد يفتتح الإنسان حياته بالوقوع فى الرجس والدنس من المعاصى والسيئات ، ثم يتوب الله عز وجل عليه فيقلع عن هذه المعاصى ، وتلك السيئات ، ويواظب على المعروف من البر والطاعات .

ويأتى من ينسى أن قلوب العباد جميعًا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ويأخذ فى تقييم هذا الصنف ـ الذى عصى ثم تاب الله عليه فتاب ـ من خلال ماضيه السيئ ، وليس من خلال حاضره النظيف ، وحينئذ يجد الشيطان مدخلا يدخل منه لتحريك الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة التى لا دليل عليها، ولا برهان، ويعمل على تنميتها، حتى تصير خلقًا يتحرك به صاحبه بين الناس .

ولقد علمنا الله فى كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ أنه سبحانه يتجاوز عن العبد ما دام قد تاب وصحت التوبة ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب ستر المؤمن على نفسه ٨/٢٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد : باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه ٤/٢٢٩١ رقم (٢٩٩٠) كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] .

وإذ يقول ﷺ لعمرو بن العاص وقد جاء يبايعه وأراد أن يشترط في البيعة مغفرة ما مضى من ذنوبه ، يقول له : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله » [1] .

وعن ابن عباس : أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] ، ونزل : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [2] [الزمر : ٥٣] .

٩ ـ الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن :

وأخيراً فإن الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن قد تكون من بين الأسباب التى تؤدى إلى التردى فى هذه الآفة ، إذ الإنسان إذا غفل أو نسى عاقبة شيء تردى فيه، وإن كان فيه حتفه وهلاكه، قال تعالى: ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان] .

رابعًا : آثار سوء الظن :

ولسوء الظن آثار ضارة ، وعواقب خطيرة يصطلى بنارها الفرد ، وتصطلى بنارها الجماعة ودونك طرفًا من هذه الآثار وتلك العواقب :

أ ـ على الفرد :

فمن آثار وعواقب سوء الظن على الفرد :

١ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات :

فقد يؤدى سوء الظن بصاحبه حين يريد أن يتحقق أو يتأكد من صحة ما ظن ، أن يقع فى سلسلة طويلة من المعاصى والسيئات ، تسلم كل واحدة إلى التى تليها ، مثل :

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٢، ١١٣ رقم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٣ رقم (١٢٢) من حديث ابن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ .

التجسس أو التحسس ، الغيبة ، النميمة ، التحاسد ، التباغض ، التدابر ، التقاطع ، الفرقة ، وهلم جراً .

وقد لفت القرآن الكريم والسنة النبوية النظر إلى هذا الأثر وهذه العاقبة حين ذكرا سلاسل المعاصى والسيئات مقترنة بسوء الظن فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات] ، وفى قوله عليه السلام : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا » .

٢ ـ القعود عن أعمال البر والطاعات فضلا عن القلق والاضطراب النفسى :

إذ الوقوع فى سلاسل المعاصى والسيئات التى ذكرنا تكون سببًا فى سواد القلب فيمرض فيقسو أو يموت فَيُقْفَلُ ، وَيُخْتَمُ عَلَيه فيكون القعود عن الطاعات وأعمال البر، فضلا عن القلق والاضطراب النفسى وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣] .

ويتأكد القلق والاضطراب النفسى من جانب آخر ، وهو أن سيئ الظن يوجه كل ظنونه إلى ما يحمى به نفسه وعرضه وماله، وعشيرته، فتراه يتوهم أن الناس يتآمرون عليه لقتله أو هتك عرضه أو سلب ماله أو أنهم يحتقرونه، ولا يلقون له بالا ولا يقيمون له وزنًا، ومن ثم يحيا قلقًا من داخله، لا ينعم بأمن ولا باطمئنان نفسى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه : ١٢٤] ، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] .

٣ ـ الحسرة والندامة :

فقد ينتهى سوء الظن بصاحبه بعد البحث ومحاولة التحقق أو التأكد إلى عكس ما توهم ، وهنا تكون الحسرة والندامة إن كانت لا تزال هناك بقية من خير فى الفطرة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : نجد أن الذين ظنوا بأم المؤمنين عائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهما ظن السوء ، من أمثال حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وغيرهما ، أصابتهم الحسرة وعمتهم الندامة لما نزلت البراءة لعائشة من السماء ، وتمنوا لو أنهم لم يكونوا ولدوا حتى هذا اليوم ، بل لقد ظلت الحسرة والندامة شبحًا مخيفًا يلاحقهم فى كل مكان حتى لقوا ربهم .

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٣ .

٤ ـ كراهية الناس ونفورهم من أصحاب الظن السيئ :
ذلك أن الناس حين يعرفون عن واحد من الناس أنه سيئ الظن ، وأن ظنونه هذه تنتهى إلى مجرد اتهام لا دليل عليه ولا برهان ، ينفرون منه ويكرهونه أشد الكراهية ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وماذا جنى المرء إذا كرهه الناس ، ونفروا منه ، والإنسان مدنى بطبعه ، كما أنه قليل بنفسه كثير بإخوانه .

٥ ـ تضييع العمر فيما لا يفيد :
ذلك أن سيئ الظن يظل طول حياته يجرى وراء هذه الظنون بغية التحقق والتأكد من صحتها، وغالبًا ما تكون كاذبة،فيكون قد ضيع عمره بددًا،وحتى لو كانت صادقة فقد اطلع على ما يؤذى ويؤلم ويبقى خاسرًا فى الحالين.

٦ ـ التعرض للغضب والسخط الإلهى :
وفوق ما قدمنا فإن سوء الظن وما يترتب عليه من أعمال تؤكده أو تبطله يكون سببًا فى التعرض للغضب والسخط الإلهى ، ومن يطيق غضب الله وسخطه وهو سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) ﴾ [طه] .

ب ـ على الجماعة :
ومن آثار وعواقب سوء الظن على الجماعة :

١ ـ الفرقة وتمزيق الصف :
ذلك أن شيوع سوء الظن يؤدى إلى أن يتراشق الناس بالتهم ، ثم يسحبوا الثقة من بعضهم فيتباغضون، ويتدابرون، ويتقاطعون، الأمر الذى يؤدى إلى ذهاب ريحنا ونسلنا فى مواجهة العدو،وذلك هو العذاب العظيم الذى حذرنا الله من أسبابه فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :
وكذلك إذا جثم العدو على صدرنا بسبب الفرقة التى هى من آثار سوء الظن ، فإن التكاليف تكثر، والطريق تطول، إذ ليس من السهل أن يخلى العدو لنا طريقنا،وإنما يحتاج إلى جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ومثابرة ومرابطة حتى يزحزح ويزاح من

طريق الناس، وليلة تحت قيادة العدو تحتاج منا إلى تكاليف وتضحيات لسنة ، لمحو آثار الشر التى غرسها فى هذه الليلة وصدق الله : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ ﴾ [الممتحنة] .

وحتى يدرك القارئ خطورة هذه الآثار نضع بين يديه نماذج أخرى غير ما قدمنا:

ـ كان أحد الموظفين فى بعض المؤسسات الخاصة قد طلب من صاحب المؤسسة قرضًا لفرش وتجهيز سكناه ، وحدد مقدار القرض الذى يريد ، وإذا بصاحب المؤسسة يوافق على ثلاثة أثمان ما طلب فقط وأصر على ألا يزيد ، فى الوقت الذى يمنح من هم دونه منزلة وإحسانًا القرض الذى يريدون ، وعجبنا لصنيع صاحب المؤسسة ، وظننا أنه يكره طالب القرض ، ويريد التضييق عليه حتى يترك العمل ، وبسؤال صاحب العمل أجاب أن هذا الموظف كبير فى السن وليست له امرأة ، وبحاجة إلى من يعينه على أمره ، وهو الآن يقيم فى دار ابنه المتزوج ، وقد منحنا الابن سكنًا به فسحة وسعة من أجل أبيه ، وصرحنا بما صرحنا به من قرض ليتمكن من تجهيز غرفة خاصة به ضمن سكن ولده ، ولو أعطيناه القرض الذى أراد لساعده ذلك على تجهيز سكن مستقل عن ولده ونحن لا نريد له ذلك لأنه كبير ، ووجوده مع ولده خير له ألف مرة من عيشه لحاله .

فانظر كيف ساء ظننا بصاحب العمل ، وبالبحث والتحرى تبين أنه لا يريد بما صنع إلا الخير على النحو الذى شرحنا .

ـ وقال عبيد بن عمير : بينما عمر بن الخطاب يمر فى الطريق فإذا هو برجل يكلم امرأة فعلاه بالدرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما هى امرأتى ، فقال له : فلم تقف مع زوجتك فى الطريق تعرضان المسلمين إلى غيبتكما ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن قد دخلنا المدينة ونحن نتشاور أين ننزل، فدفع إليه الدرة، وقال : اقتص منى يا عبد الله، فقال : هى لك يا أمير المؤمنين ، فقال : خذ واقتص ، فقال بعد ثلاث : هى لله ، قال : الله لك فيها [(١)] .

ـ ومر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك فى هذا ؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل آخر، فقال له رسول الله: «ما رأيك فى هذا ؟ »

---

(١) الخبر أورده الشيخ على الطنطاوى فى : أخبار عمر ، نقلا عن المحب الطبرى .

فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله،فقال رسول اللهﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[(١)] .

ـ وقال رسول اللهﷺ : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج .

وكان جريج رجلا عابدًا فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتته أمه ، وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ، فقال : يا رب ، أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج، فقال : أى رب ، أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج، فقال : أى رب، أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا ، وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه ، فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال: ما شأنكم ؟ قالوا: زنيت بهذه البغى فولدت منك، قال : أين الصبى ؟ فجاءوا به ، فقال: دعونى حتى أصلى، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه ، وقال : يا غلام ، من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا .

وبينما صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابةٍ فارهةٍ ، وشارة حسنةٍ فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه ، فجعل يرتضع » يقول راوى الحديث : فكأنى أنظر إلى رسول اللهﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه ، فجعل يمصها .

قال : « ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ، ونظر إليها ، وقال : اللهم اجعلنى مثلها .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب فضل الفقراء ١٣٧٩/٢، ١٣٨٠ رقم (٤١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

فهنالك تراجعا الحديث . فقالت : مر رجل حسن الهيئة فقلتُ : اللهم اجعل ابنى مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلنى مثله، ومروا بهذه الأمة، وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلتُ : اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فقلتَ : اللهم اجعلنى مثلها ؟ قال: إن ذلك الرجل كان جبارًا . فقلتُ : اللهم لا تجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيت ، ولم تزن ، وسرقت ولم تسرق فقلت : اللهم اجعلنى مثلها »(١) .

ـ وقال على رضي الله عنه : أكثروا على مارية أم إبراهيم فى قبطى ابن عم لها يزورها ويختلف إليها، فقال رسول الله ﷺ : « خذ السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله » قال: قلت: يا رسول الله، أكون فى أمرك إذا أرسلتنى كالسكة المحماة ، لا يثنينى شىء حتى أمضى لما أمرتنى به ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال رسول الله ﷺ : «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب» فأقبلت متوشحًا السيف فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما رآنى عرف أنى أريده، فأتى نخلة، فرقى فيها ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شال رجليه ، فإذا به أجب أمسح ، ماله مما للرجال لا قليل ، ولا كثير، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « الحمد لله الذى صرف عنا أهل البيت »(٢) .

ـ ويحكى الدكتور نجيب الكيلانى فى كتابه : (المجتمع المريض ص ٨٣ ـ ٨٥) قصة سجين قتل زوجته لظن كاذب ، ثم ندم بعد فوات الأوان ، فيقول على لسان هذا السجين :

« كنت زوجًا سعيدًا أنعم ببيتى وزوجتى ، ولم أكن أرى الحياة إلا باسمة مزدهرة، وأنا بطبيعتى أقنع بالقليل ، وأومن بأن الرغيف الذى أحصل عليه هو كنز مقدر علىَّ أن أشكر الله عليه . . كنت سعيدًا بحق . . ومرت بى الأيام ناعمة هادئة. . ثم جاء اليوم الذى تعكر فيه صفو أحلامى التى كنت أحيا فيها، وذلك حين تناهى إلى سمعى شائعة خيانة زوجتى وأنا يا سيدى من أسيوط، ونحن هناك نرى الشرف أرفع بكثير من أن يمس ، ثارت ثائرتى، وخرجت من عملى مسرعًا إلى البيت ، وهناك رأيت زوجتى ومعها رجل كانا جالسين فى صورة لا تثير ريبة أو شك فى أن خيانة ما قد وقعت ولكنى لم أكن أعرف الرجل ، بل إننى لم أره من قبل ، وكنت حين دخولى أعانى ثورة نفسية عاتية وفى اضطراب شديد .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ٤/ ٢٠١، ٢٠٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة ، وغيرها ٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ رقم (٢٥٥٠)، وأحمد فى : المسند ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا ، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى : السيرة النبوية ٤/ ٦٠٠ .

سألت الرجل من يكون ؟ فارتبك وتلعثم ولم يحر جوابًا ، ونظرت إلى امرأتى فرأيت فى عينها خوفًا مريعًا ، فجن جنونى وشعرت بدمائى الساخنة تنطلق إلى رأسى، وتركت فى نفسى مشاعر عديدة من الشعور بالخيانة والرغبة فى الانتقام من هذه المرأة التى أدخلتها قلبى وأطلعتها على سرى ، فقد كان بيننا عهود.

أحسست بكل هذه المشاعر تموج بين جوانحى فى لحظات سراع ثم راحت تتلاشى رويدًا رويدًا إلا شعورًا واحدًا كئيبًا سيطر على خيالى فى إصرار ، كان هذا الشعور بأنى مغفل ، نعم مغفل .

ورأيت ذلك السكين على المائدة ، وكانت زوجتى فى أقصى حالات الرعب وكنت أنا ثائرًا أصرخ ، وأهدد وأقترب منها ولففت ذراعى حول ظهرها ثم ذبحتها ذبح الخراف من غير أن تنبس ببنت شفة ، ولكنى سمعت عشيقها يرجونى بصوت متحشرج ألا أقتلها ثم غمغم بكلمات كثيرة لم أفهم منها شيئًا ، ولكنى أجهزت عليها تمامًا ، واتجهت إليه ولم يكن مصيره إلا مصير زوجتى .

كان هذا الرجل الذى وجدته مع امرأتى يقطن فى قرية مجاورة ويدعونه الشيخ محمود ، وكان الناس يتبركون به ويلجئون إليه فى الملمات ، ودعته زوجتى إلى البيت مرات عديدة لأنها كانت لا تخرج مطلقًا ، دعته ليبرئها من العقم ويدعو لها أسياد السموات والأرض لينقذوها من هذه الأزمة ، ولم يكن الذنب ذنبها يا سيدى بل ذنبى أنا ، أنا كنت ألومها لأنها لم تنجب لى ابنًا يرث قوتى ووجودى .. ثم عرفت أنها بريئة من كل خيانة ، وأن الشيخ محمود كان من الأتقياء الصالحين ، سيدى أنا معذب فليرحمني الله » .

خامسًا : علاج سوء الظن :

وما دمنا قد وقفنا على حقيقة سوء الظن، وأسبابه، وآثاره، فإن العلاج معروف، ويمكن تلخيصه فى الخطوات التالية :

١ ـ بناء العقيدة السليمة القائمة على تحسين الظن بالله ، وبرسوله وبالمؤمنين الصالحين ، فإن هذه العقيدة تحرسنا أن نظن ظن السوء بالآخرين من غير مبرر ، ولا مقتضى ، وحتى لو كان فإننا نبادر بالتوبة والرجوع إلى الله تبارك وتعالى .

٢ ـ التربية على تغذية هذه العقيدة بما يثبتها فى النفس وينميها ، وذلك بترك المعاصى والسيئات والمواظبة على فعل الطاعات وأعمال البر ، فإن التربية بهذه الصورة تجعلنا نتورع أن نقع فى سوء الظن بمن ليس له أهلا ، وإن وقعنا فالتوبة والندم .

٣ ـ التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام فى الحكم على الأشياء والأشخاص من : الاعتماد على الظاهر وترك السرائر إلى الله وحده الذى يعلم السر وأخفى ، ومن طلب الدليل والبرهان ، ومحض ذلك الدليل وهذا البرهان ، بل والتأكد من عدم تعارض وتضارب الأدلة مع بعضها البعض ، فإن التنشئة بهذه الصورة تحرس الإنسان من التورط فى سوء الظن بغير مبرر ولا موجب .

٤ ـ التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام فى النجوى من عدم تناجى اثنين فما فوقهما دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس ، ومن كون هذه النجوى فى الطاعة والمعروف دون المعصية والمنكر ، ومن كونها فى أمر مهم لا يصح أن يقضى فيه إلا بعيداً عن سمع وبصر المرجفين ، والمفسدين فى الأرض .

٥ ـ تجنب الوقوع فى الشبهات ثم الحرص على دفع هذه الشبهات إن وقعت خطأً أو عن غير قصد ، وقد مرت بنا قصته ﷺ مع الأنصاريين ، حين كان يودع أم المؤمنين صفية، وهو معتكف ، وأسرعا السير واستوقفهما قائلا: « إنها صفية بنت حيى »(١) .

وقاس العلماء على ذلك عدة صور فقالوا :

ـ إذا كنت فى خلوة مع محرم لك ، أو مع أهلك ، ورآك الغير الذى تخشى عليه الشيطان ، وجب أن تقول له : هذه أهلى كيلا تعين عليه الشيطان.

ـ وإذا كنت قد صليت فى بيتك، ثم جئت المسجد، فوجدت الناس يصلون فصل معهم وتكون الصلاة الثانية نافلة لك ؛ لئلا يتخذ الناس قعودك وهم يصلون ذريعة لإساءة الظن بك وأنك لست من المصلين . جاء فى الحديث : عن جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه أنه صلى مع رسول الله ﷺ وهو غلام شاب ، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا فى ناحية المسجد فدعا بهما فجيء بهما ترعد فرائصهما فقال: « ما منعكما أن تصليا معنا » ، قالا : قد صلينا فى رحالنا ، فقال : « لا تفعلوا ، إذا صلى أحدكم فى رحله ثم أدرك الإمام ، ولم يصل فليصل معه فإنها له نافلة »(٢) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فيمن صلى فى منزله ثم أدرك الجماعة فصلى معهم ١/ ١٥٧ رقم (٥٧٥) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الصلاة : باب ما جاء فى الرجل يصلى وحده ، ثم يدرك الجماعة ١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦ رقم (٢١٩) . وعقب عليه بقوله: «حديث يزيد بن الأسود حديث حسن صحيح ». والنسائى فى: السنن: كتاب الإمامة: باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده ٢/ ١١٢، ١١٣ رقم (٨٥٨)، والدارمى فى : السنن : كتاب الصلاة : باب إعادة الصلوات فى الجماعة بعد ما صلى فى بيته ١/ ٣١٧، ٣١٨، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٦٠، ١٦١ كلهم من حديث يزيد بن الأسود رضي الله عنه مرفوعًا .

والفرائص ـ كما فى النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١٩٣ ـ : جمع فريصة ، وهى =

وأمثلة البعد عن مواطن التهم فى الإسلام كثيرة جداً ، غاية ما فى الأمر أنه يجب أن يكون هذا المعنى آكد ، وأشد فى حق العلماء والمربين ؛ لأنهم أسوة وقدوة لغيرهم من الناس ، وأى سلوك أو تصرف محسوب عليهم .

يقول ابن دقيق العيد : « وهذا ـ أى التحرز من كل ما يوقع فى التهم ـ متأكد فى حق العلماء ومن يقتدى بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص ؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم ، وقد قالوا : إنه ينبغى للحاكم أن يبين وجه الحكم للمحكوم عليه إذا خفى عليه ، وهو من باب نفى التهمة بالنسبة إلى الجور فى الحكم »[1] .

٦ ـ الحرص على سلامة البيئة ، ولا سيما فى مجتمع الأصدقاء ، فإن ذلك له دور كبير فى علاج سوء الظن وحماية النفس من أن تتورط فيه من جديد .

٧ ـ مجاهدة النفس وقمع الهوى والشهوات، حتى تعرف النفس أنه ليس من السهل توجيه تهمة لأحد من الناس لمجرد ظن أو تخمين لا دليل عليه ولا برهان ، وما فى الدنيا شىء أعظم من أن يكون هوانا تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ حيث يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

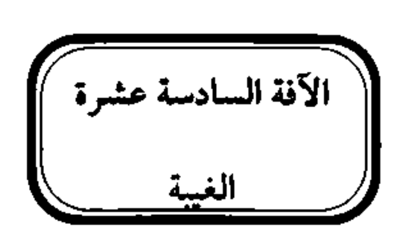
٨ ـ معاملة التائبين من الناس بحاضرهم لا بماضيهم ، وإذا كان الملك الذى أساء هؤلاء وأجرموا فى حقه قد تجاوز وعفا فنحن فى التجاوز والعفو أولى وأحق ، ولاسيما ونحن فى المعاصى مثلهم وربما أشد .

٩ ـ دوام النظر فى كتب السيرة والتاريخ ، ولاسيما تاريخ المسلمين ، فإنها مليئة بصور حية عن الظن السيئ وآثاره وطريق الخلاص منه ، بحيث يسهل على النفس التخلص من هذا الداء .

١٠ ـ التذكير الدائم بعواقب سوء الظن فى الدنيا والآخرة، وعلى الفرد، والجماعة، فإن الإنسان كثيراً ما ينسى، وعلاج هذا النسيان بالتذكير ، كما قال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات]، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] .

= اللحمة التى بين الجنب والكتف تهتز عند الفزع . والرعدة ـ كما فى النهاية أيضاً ٢/ ٨٧ ـ الرجفة ، والاضطراب من الخوف .

(١) انظر : إحكام الأحكام ٢/ ٥٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٤/ ٢٨٠ .



الآفة السادسة عشرة

الغيبة

والآفة السادسة عشرة التى يبتلى بها كثير من العاملين فضلا عن عامة المسلمين، بل لا يكاد يسلم منها أحد إلا من رحم الله عز وجل، إنما هى : « الغيبة » .

وحتى يتطهر منها من ابتلى بها، ويتقيها من عافاه الله ـ عز وجل ـ وسلمه من الوقوع فى غوائلها، فإننا بعون الله وتوفيقه سنعرض لها من الجوانب التالية :

أولا : تعريف ومظاهر أو صور الغيبة :

لغة : الغيبة لغة : مشتقة من الغيب الذى هو خلاف الشهادة، أو هو كل ما غاب عن الإنسان، سواء كان محصلا فى القلوب أم غير محصل، ومنه قوله ـ سبحانه ـ فى صفة نفسه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن] ، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [التغابن]، وعليه فالغيبة فى اللغة، هى ذكر الغير فى غيابه سواء أكان ذلك بما يرضى أم بما لا يرضى، وسواء أكان ذلك بالخير أم بالشر [١] .

اصطلاحًا : أما ماهية الغيبة فى المصطلح الشرعى فتدور حول ذكر المسلم أخاه المسلم فى غيابه بما فيه مما يسوءه، ويكرهه، يستوى فى ذلك اللفظ والكتابة، التصريح والتلويح [٢] . جاء فى الحديث أنه ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكره » قيل: أفرأيت إن كان فى

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٦٩١/٢، ٦٩٢ بتصرف كثير، والصحاح فى اللغة والعلوم لأسامة المرعشلى وأخيه نديم ص ٨٣٣ بتصرف كثير .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ١٤٠ ، والأذكار للنووى ص ٣٠٠ ، وابن حجر فى الفتح ٤٦٩/١٠ .

أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »[١] .

ومظاهر أو صور الغيبة كثيرة منها :

١ ـ العيوب البدنية كقولك عن المسلم : أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر، كبير البطن كالحبر السمين . . . وهكذا .

٢ ـ العيوب الدينية كقولك عن المسلم : فاسق، فاجر، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل فى النجاسات، ليس باراً بوالديه، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة . . . وهكذا .

٣ ـ العيوب الدنيوية كقولك عن المسلم : قليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقًا، كثير الكلام، كثير الأكل أو النوم، ينام فى غير وقته، يجلس فى غير موضعه . . . وهكذا .

٤ ـ العيوب المتعلقة بأسرته كقولك عن المسلم : أبوه فاسق، أو هندى، أو نبطى، أو زنجى، إسكافى، بزاز، نحاس، نجار، حداد، حائك . . . وهكذا .

٥ ـ العيوب الخلقية للمغتاب، كقولك عنه : سيئ الخلق، متكبر، مراء، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، متهور، عبوس، خليع . . . وهكذا .

٦ ـ العيوب باللباس والهيئة كقولك عن المغتاب : واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب . . . وهكذا .

٧ ـ محاكاة المغتاب فى مشيه وحركته وحديثه مثل : المشى متعرجًا، أو مطأطئ الرأس، أو مصعراً الخد، ونسبة ذلك إلى المغتاب . . . وهكذا .

٨ ـ غيبة المتفقهين والمتعبدين، كأن يقول أحدهم عن آخر : كيف حال فلان، الله يصلحه، الله يغفر لنا، الله يصلحنا، نسأل الله العافية، نحمد الله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الشر، الله يعافينا من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك من كل ما يفهم منه التنقص، والازدراء . . . وهكذا.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الغيبة ٤/ ٢٠٠١ رقم (٢٥٨٩)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب : باب فى الغيبة ٤/ ٢٦٩ رقم (٤٨٧٤)، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى الغيبة ٤/ ٢٩٠ رقم (١٩٣٤)، والدارمى فى : السنن : كتاب الرقاق: باب ما جاء فى الغيبة ٢/ ٧٥٥رقم (٢٦١٤)،وأحمد فى:المسند ٢/ ٢٣٠، ٣٨٤، ٣٨٦، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وعقب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

٩ـ سوء الظن بغير دليل ولا برهان فإنه غيبة بالقلب، وقد أفردنا الحديث عن هذا المظهر، أو هذه الصورة على أنها آفة قائمة بذاتها وفصلنا القول فى ذلك فليراجع فى موضعه .

١٠ ـ سماع المغتابين ، وعدم زجرهم والإنكار عليهم ، أو عدم مقاطعة مجلسهم. . . وهكذا [١] .

ثانيًا : الغيبة فى ميزان الإسلام :

والغيبة فى ميزان الإسلام حرام بإجماع المسلمين، للدلائل الواضحة الصريحة المنصوص عليها فى الكتاب والسنة .

إذ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] .

وإذ يقول ﷺ وقد مر بقبرين فقال : « إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير »، قال : « بلى إنه كبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»[٢]، ويقول فى خطبة يوم النحر بمنى فى حجة الوداع: « . . . إن دماءكم وأموالكم

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ١٤١، ١٤٢، والأذكار للنووى ص ٣٠١ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الوضوء: باب من الكبائر ألا يستتر من بوله ١/ ٦٤، ٦٥، وكتاب الجنائز: باب الجريد على القبر، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول ٢/ ١١٩، ١٢٠، ١٢٤، وكتاب الأدب : باب الغيبة، وباب النميمة من الكبائر ٨/ ٢٠، ٢١، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الطهارة : باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ١/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم (٢٩٢)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الطهارة: باب الاستبراء من البول ٢/ ٦ رقم (٢٠)، والترمذى فى : السنن : كتاب الطهارة: باب ما جاء فى التشديد فى البول ١/ ١٠٢، ١٠٣ رقم (٧٠)، والنسائى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب التنزه من البول ١/ ٢٨ رقم (٣١)، وكتاب الجنائز: باب وضع الجريدة على القبر ٣/ ١٠٦ رقم (٢٠٦٨)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الطهارة : باب التشديد فى البول ١/ ١٢٥ رقم (٣٤٧)، والدارمى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب الاتقاء من البول ١/ ٢٠٠ رقم (٧٣٩)، وأحمد فى : المسند ١/ ٢٢٥ كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح » كما أخرجه ابن ماجه فى السنن : كتاب الطهارة وسننها : باب التشديد فى البول ١/ ١٢٥ رقم (٣٤٩) من حديث أبى بكرة مرفوعًا بنحوه، ومثله أحمد فى: المسند ٥/ ٣٩، بل زاد رواية ثالثة ٥/ ٢٦٦ من حديث أبى أمامة ولفظه قال : مرَّ النبى ﷺ فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد، قال: فكان الناس يمشون خلفه، قال : فلما سمع صوت النعال، وقر ذلك فى نفسه فجلس حتى قدمهم أمامه لئلا يقع فى نفسه من الكبر، فلما مر ببقيع الغرقد، إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين، قال : فوقف النبى ﷺ فقال : « من دفنتم ها هنا اليوم ؟ » قالوا : يا نبى الله، فلان وفلان، قال : « إنهما ليعذبان الآن، ويفتنان فى قبورهما » قالوا : يا رسول الله، فيم ذاك؟ قال : « أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة »، وأخذ جريدة رطبة فشقها، ثم جعلها على القبرين، قالوا : يا نبى الله، ولم فعلت ؟ قال: « ليخففنَّ عنهما »، قالوا : يا نبى الله وحتى متى يعذبهما الله ؟ قال : « غيب لا يعلمه إلا الله » قال : « ولولا تمريغ قلوبكم، أو تزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » .

وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا، ألا هل بلغت»(١)، « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب قول النبى ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع »، وباب ليبلغ الشاهد الغائب ١/ ٢٦، ٣٧، ٣٨، وكتاب الحج: باب الخطبة أيام منى ٢/ ٢١٦، وكتاب الأضاحى : باب من قال : الأضحى يوم النحر ٧/ ١٢٩، ١٣٠، وكتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ٩/ ٦٣، وكتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ٩/ ١٦٣، وكتاب المغازى : باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٤ من عدة أوجه عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه مرفوعًا، وكتاب الحج : باب الخطبة أيام منى ٢/ ٢١٦، ٢١٧، وكتاب المغازى: باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٣ من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعًا وكتاب الحج : باب الخطبة أيام منى ٢/ ٢١٥، ٢١٦ من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا، ومسلم فى: الصحيح: كتاب القسامة : باب تغليظ تحريم الدماء، والأعراض والأموال ٣/ ١٣٠٥، ١٣٠٦ رقم (١٦٧٩) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه مرفوعًا، وكتاب الحج: باب حجة النبى ﷺ ٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢ رقم (١٢١٨) من حديث جابر ابن عبد الله مرفوعًا، وأبو داود فى: السنن: كتاب المناسك (الحج) : باب صفة حجة النبى ﷺ ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٦ رقم (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا، والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن : باب ما جاء فى: دماؤكم، وأموالكم عليكم حرام ٤/ ٤٠١ رقم (٢١٥٩)، وكتاب التفسير : باب ومن سورة التوبة ٥/ ٢٥٥، ٢٥٦ رقم (٣٠٨٧) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه مرفوعًا، وعقب عليه قائلا: « هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى: السنن الكبرى : كتاب الحج، باب الخطبة يوم النحر، وباب فضل يوم النحر، وباب يوم الحج الأكبر ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٤ رقم (٤٠٩٢، ٤٠٩٣) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه مرفوعًا، ورقم (٤٠٩٧) من حديث نبيط بن شريط الأشجعى مرفوعًا، ورقم (٤١٠٠) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه مرفوعًا، ورقم (٤٠٩٩) من حديث مرة الهمدانى، قال : حدثنى رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة قال . . . وساق الحديث، وابن ماجه فى : السنن : كتاب المناسك : باب الخطبة يوم النحر، وباب حجة رسول الله ﷺ ٢/ ١٠١٥ ـ ١٠١٧، ١٠٢٢ ـ ١٠٢٧ رقم (٣٠٥٥) من حديث سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه مرفوعًا، ورقم (٣٠٥٧) من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٣/ ٢٠٧ بقوله: « هذا إسناد صحيح »، ورقم (٣٠٥٨) من حديث ابن عمر مرفوعًا، ورقم (٣٠٧٤) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا، والدارمى فى : السنن : المقدمة : باب الاقتداء بالعلماء ١/ ٧٩، ٨٠ رقم (٢٣١) من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعًا، وكتاب المناسك : باب فى سنة الحاج ١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٨ رقم (١٧٩٣) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا، وباب الخطبة يوم النحر ١/ ٤٩٧ رقم (١٨٥٢) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه مرفوعًا، وأحمد فى : المسند ١/ ٢٣٠ من حديث ابن عباس مرفوعًا، ٤/ ٣٠٥، ٣٠٦ من حديث نبيط بن شريط عن أبيه مرفوعًا، ٤/ ٣٣٧ من حديث خريم بن عمرو مرفوعًا، ٥/ ٣٠ من حديث العداء بن خالد ابن هوذة، ٥/ ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٩، من عدة طرق عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه مرفوعًا، ٥/ ٦٨ من حديث أبى غادية مرفوعًا، ٥/ ٧٢، ٧٣ من حديث أبى حرة الرقاشى، عن عمه مرفوعًا، ٥/ ٤١١ من حديث أبى نضرة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ مرفوعا، ٥/ ٤١٢ من حديث عمرو بن مرة، عن أبيه، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ مرفوعًا .

فى أعراضهم »[1] ، « إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق »[2] ، «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله،كل المسلم على المسلم حرام عرضه، وماله، ودمه، التقوى هاهنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[3].

ويقول ﷺ لعائشة ، وقد قالت عن صفية ﵂ حسبك من صفية كذا وكذا ، يقول لها: « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »[4] .

إلى غير ذلك من النصوص الواضحة الدلالة فى ذم الغيبة، وتحريمها، وإن كان الحديث الأخير ـ كما يقول الإمام النووى رحمه الله : « من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ فى الذم لها هذا المبلغ »[5] .

ومع حرمة الغيبة على النحو الذى ذكرنا فإنها تباح فى أحوال ولأسباب هى :

١ ـ التظلم :

فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان، والقاضى وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكر أن : فلانًا ظلمنى وفعل بى كذا، وأخذ منى كذا، ونحو ذلك. وأطلب منك إنصافى ورد مظلمتى، إذ يقول سبحانه : ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ٤/٢٦٩، ٢٧٠ رقم (٤٨٧٨) من حديث بقية، وأبى المغيرة قالا : حدثنا صفوان، قال : حدثنى راشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك مرفوعا، وعقب عليه أبو داود بقوله : « حدثناه يحيى بن عثمان عن بقية ليس فيه أنس»، ويعنى بذلك أنه حديث مرسل، وأورده ابن حجر فى: فتح البارى ١٠/ ٤٧٠ وعزاه إلى أبى داود وعقب عليه بقوله : « وله شاهد عن ابن عباس عند أحمد » . ومعنى : « يخمشون وجوههم »، أى يمزقونها . يقال : خمش الجلد: مزقه، لسان العرب مادة « خمش » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ٤/٢٦٩ رقم (٤٨٧٦) من حديث سعيد بن زيد رفعه، وأورده ابن حجر فى: فتح البارى : ١٠/ ٤٧٠ وعزاه إلى أبى داود، ثم عقب عليه قائلا: «وله شاهد عند البزار، وابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة،وعند أبى يعلى من حديث عائشة».

(٣) جزء من حديث طويل سبق تخريجه ص ١٣، ١٤ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ٤/٢٦٩ رقم (٤٨٧٥)، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٧٠ رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وأحمد فى : المسند ٦/١٨٩، كلهم من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) انظر : الأذكار للنووى ص ٣٠٠ .

٢ ـ الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب :

فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوسل إلى إزالة المنكر فإن قصد غير ذلك كان مغتابًا، إذ يقول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » (١) . ومن التغيير باللسان الاستعانة بذوى القدرة على إزالة هذا المنكر .

٣ ـ الاستفتاء :

بأن يقول للمفتى : ظلمنى أبى، أو أخى أو فلان بكذا فهل له ذلك، أم لا ؟ وما طريقى فى الخلاص منه، وتحصيل حقى ودفع الظلم عنى، ونحو ذلك ؟ وكذلك قوله: زوجتى تفعل معى كذا أو زوجى يفعل كذا، ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة، والأحوط أن ينسب ذلك إلى غيره بصفته لا باسمه، بأن يقول : ما تقول فى رجل كان من أمره كذا، أو فى زوج أو زوجة تفعل كذا ونحو ذلك، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع هذا فالتعيين جائز ولا يضر ما دام بهذا المقصد، أو بهذه النية .

جاء فى حديث هند بنت عتبة أم معاوية وامرأة أبى سفيان t قولها للنبى ﷺ وقد أخذ عليها العهد مع من أخذ يوم فتح مكة حين أسلمت ألا تسرق، فقالت : يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنه لا يعطينى ما يكفينى وبنى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل على فى ذلك جناح ؟ فقال: «خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف» (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ رقم (٤٩)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب الخطبة يوم العيد ١/ ٢٩٦، ٢٩٧ رقم (١١٤٠)، والترمذى فى : السنن : كتاب الفتن : باب ما جاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ٤/ ٤٠٧، ٤٠٨ رقم (٢١٧٢)، والنسائى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب تفاضل أهل الإيمان ٨/ ١١١، ١١٢ رقم (٥٠٠٨، ٥٠٠٩)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الصلاة : باب ما جاء فى صلاة العيدين ١/ ٤٠٦ رقم (١٢٧٥)، وكتاب الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٣٠ رقم (٤٠١٣)، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٠، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا، وقال الترمذى عقب حديثه : «هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب من أجرى أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم فى البيوع ٣/ ١٠٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأقضية : باب قضية هند ٣/ ١٣٣٨، ١٣٣٩ رقم (١٧١٤)، وأبو داود فى: السنن: كتاب البيوع والإجارات : باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠ رقم (٣٥٣٢، ٣٥٣٣)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب القضاء : باب قضاء الحاكم على الغائب إذا عرفه ٣/ ٤٨١، ٤٨٢ رقم (٥٩٨٢)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب التجارات: باب ما للمرأة من مال زوجها ٢/ ٧٦٩ رقم (٢٢٩٣)، والدارمى فى: السنن: كتاب النكاح: باب فى وجوب نفقة الرجل على أهله ٢/ ٥٩٨ رقم (٢١٧٦) كلهم من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا به، وبنحوه .

٤ ـ تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم :

وذلك من وجوه :

منها : جرح المجروحين من الرواة للحديث، وكذلك الشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة، فقد استأذن رجل على النبي ﷺ فقال: « ائذنوا له، بئس أخو العشيرة »[1] ، وقال ﷺ في رجلين من المنافقين : « ما أظن فلانًا، وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا »[2] .

ومنها : أنه إذا استشارك إنسان في مصاهرته، أو مشاركته أو إيداعه أو الإيداع عنده، أو معاملته بغير ذلك، وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة فإن حصل الغرض بمجرد قولك: لا تصلح لك معاملته أو مصاهرته، أو لا تفعل هذا، أو نحو ذلك لم تجزئه الزيادة بذكر المساوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه وجب ذكره بصريحه .

جاء في حديث فاطمة بنت قيس أنها جاءت تستشير رسول الله ﷺ في رجلين خطباها، هما : معاوية، وأبو الجهم فقال ﷺ : « أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه »[3] .

ومنها : أنه إذا رأيت من يشترى عبدا معروفًا بالسرقة، أو الزنى، أو الشرب أو غيرها فعليك أن تبين ذلك للمشترى إن لم يكن عالمًا به، ولا يختص بذلك بل كل من علم بالسلعة المبيعة عيبًا وجب عليه بيانه للمشترى إذا لم يعلمه .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا، ولا متفحشًا، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ٨/ ١٥، ١٦، ٢٠، ٢١، ومسلم في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب مداراة من يتقى فحشه ٤/ ٢٠٠٢، ٢٠٠٣ رقم (٢٥٩١)، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب : باب في حسن العشرة ٤/ ٢٥١ رقم (٤٧٩١، ٤٧٩٢)، ومالك في : الموطأ : كتاب الجامع : باب ما جاء في حسن الخلق ص ٦٥٠ رقم (١٦٣٠)، وأحمد في : المسند ٦/ ٣٨، ٧٩، ٨٠، ١٥٨، ١٥٩، كلهم من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب ما يجوز من الظنّ ٨/ ٢٣، ٢٤ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الطلاق: باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ٢/ ١١١٤، ١١١٩، ١١٢٠ رقم (١٤٨٠)، وأبو داود في : السنن : كتاب الطلاق : باب في نفقة المبتوتة ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦ رقم (٢٢٨٤)، والنسائي في : السنن : كتاب الطلاق : باب نفقة الحامل المبتوتة ٦/ ٢١٠رقم (٣٥٥٢) والترمذي في السنن : كتاب النكاح : باب ما جاء ألا يخطب الرجل على خطبة أخيه ٣/ ٤٤١، ٤٤٢ رقم (١١٣٥) كلهم من حديث أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن فاطمة بنت قيس ... الحديث، وعقب الترمذي على روايته بقوله : « هذا حديث صحيح » .

ومنها : إذا رأيت متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخفت أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليك نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يكون القصد النصيحة، مجردة عن أى حظ من حظوظ النفس .

ومنها : أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بألا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا أو مغفلا ونحو ذلك، فيجب ذكر هذا لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولى من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى فى حثه على الاستقامة أو خلعه واستبداله بمن يصلح، وجماع ذلك كله قوله : « الدين النصيحة » قلنا : لمن ؟ قال : « لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » [(١)] .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أنه ليس من هذا الباب: جرح الثقات المجاهدين من العلماء، والدعاة المصلحين الذين باعوا أنفسهم وما يملكون لله عز وجل، وتعرضوا فى سبيل ذلك لأصناف شتى من المحن والابتلاءات حتى كان منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد فى هذا العصر، ومن أمثال الشيخ حسن البنا مجدد الإسلام فى القرن الرابع عشر، ومن أمثال الشيخ سيد قطب الذى تحولت كلماته التى قالها فى ظلال القرآن الكريم بعد أن مات فى سبيلها إلى أحرف من نور، تضىء للسالكين الطريق، وتحملهم على التضحية، بالنفس والنفيس، الغالى والرخيص وغيرهم، ليس ذلك كله من هذا الباب بدعوى أنهم منافقون، أو مبتدعون، أو ذيول وأذناب للمستعمرين، إذ المنافق والمبتدع أو الذنب لا يقدم رقبته للموت، أو على الأقل لا يظل ماضيًا فى الطريق وإن لحقه من العنت والأذى ما لحقه، وتجريح هؤلاء فضلا عن أنه غيبة، فهو إما حسد وإما تلبيس وتخييل من الشيطان، وإما ضيق أفق وبله وغباء، وإما عمالة وخسة ونذالة .

٥ ـ أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر أو مصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلمًا وتولى الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما قدمنا آنفًا .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : (معلقًا) : كتاب الإيمان : باب قول النبى : «الدين النصيحة » ١/ ٢٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ٧٤ رقم (٥٥)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى النصيحة ٤/ ٢٨٦ رقم (٤٩٤٤)، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى النصيحة ٤/ ٢٨٦ رقم (١٩٢٦)، والنسائى فى : السنن : كتاب البيعة : باب النصيحة للإمام ٧/ ١٥٦ رقم (٤١٩٧)، كلهم من حديث تميم الدارى رضي الله عنه به .

إذ يقول ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه »(١).

٦ ـ التعريف :

فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب مذموم، كالأعمش والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف، ويحرم إطلاقه على جهة النقص، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى، وإذا أمكن التعريف بلقب واحد، من الألقاب المذمومة، فإن الزيادة على هذا اللقب تعد غيبة وهى حرام .

إذ قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بهذا وجه الله تعالى، فأتى ابن مسعود رسول الله ﷺ فأخبره فتغير وجهه وقال : « رحم الله موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر »(٢)، يقول ابن مسعود : فقلت: لا أرفع إليه بعد هذا حديثًا .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فأصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبى بن سلول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبى وذكر الحديث، فأنكر وكذب زيد بن أرقم، وأنزل الله تصديق زيد بن أرقم فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① ﴾ [المنافقون] (٣).

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب فرض الخمس : باب ما كان النبى ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ٤/١١٥، وكتاب الأنبياء : باب منه ٤/ ١٩١، وكتاب المغازى : باب غزوة الطائف ٥/ ٢٠٢، وكتاب الأدب : باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه ٨/ ٢١، ٢٢، وباب الصبر على الأذى ٨/ ٣١، وكتاب الاستئذان : باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة، فلا بأس بالمسارة والمناجاة ٨/ ٨٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوى إيمانه ٢/ ٧٣٩ رقم (١٠٦٢)، والترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب فضل أزواج النبى ﷺ ٥/ ٦٦٧ رقم (٣٨٩٦)، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٨٠، ٣٩٦، ٤١١، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤١، ٤٥٣ كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا به وبنحوه، وعقب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد زيد فى الإسناد رجل » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التفسير: سورة المنافقون: باب قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ ٦ / ١٨٩ ـ ١٩١ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : باب منه ٤/ ٢١٤٠ رقم (٢٧٧٢)، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة المنافقون ٥/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩ رقم (٣٣١٢، ٣٣١٣، ٣٣١٤)، وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٣، كلهم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه مرفوعًا به، وبنحوه، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

ثالثًا : أسباب الوقوع في الغيبة :

وهناك أسباب كثيرة وبواعث عدة تدفع إلى الوقوع فى الغيبة وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث :

١ ـ عدم التثبت أو التبين :

ذلك أن الحكم على الأمور والأشخاص بالسوء دون طلب للدليل وفحص له والتأكد من صحته، والموازنة بينه وبين الظروف المحيطة والواقع المعاش ـ وهو ما يعرف بعدم التثبت أو التبين ـ قد يكون من بين الأسباب أو البواعث التى تدفع بالمسلم إلى أن يقع فى الغيبة، وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝ ﴾ [الحجرات] .

٢ ـ الغضب :

وقد يكون الغضب من بين الأسباب أو البواعث التى تدفع إلى الوقوع فى الغيبة، ذلك أن الإنسان إذا غضب من إنسان وهُيِّج هذا الغضب، ولم يكن هناك وازع من دين أو خلق فإن لسانه يسبق إلى غيبة هذا الإنسان من باب التشفى وإراحة النفس .

وأحيانًا يمتنع الإنسان من التشفى وإراحة النفس عند الغضب لسبب أو لآخر، فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدًا ثابتًا كامنًا فى النفس، الأمر الذى يؤدى إلى ذكر العيوب والمساوئ، وهذه هى الغيبة بعينها .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها دعا الإسلام إلى كظم الغيظ ومقاومة الغضب، إذ يقول ﷺ: « من كتم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء » [1] .

٣ ـ البيئة المحيطة قريبة كانت أو بعيدة :

وقد تكون البيئة المحيطة قريبة كانت ـ ونعنى بها البيت ـ أو بعيدة ـ ونعنى بها

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب من كظم غيظًا ٤/ ٢٤٨ رقم (٤٧٧٧) من حديث سهل بن معاذ عن أبيه به، مع اختلاف يسير، والترمذى فى : السنن : كتاب البر : باب فى كظم الغيظ ٤/ ٣٢٦، ٣٢٧ رقم (٢٠٢١)، وكتاب صفة القيامة : باب رقم (٤٨) ٤/ ٥٦٥، ٥٦٦ رقم (٢٤٩٣)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد : باب الحلم ٢/ ١٤٠٠ رقم (٤١٨٦)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٤٣٨، ٤٣٩، ٤/ ١٤، وأورده الألبانى فى : صحيح الجامع الصغير ٥/ ٣٥١ رقم (٦٣٩٤) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه به .

مجتمع الأصدقاء ـ هى السبب فى الوقوع فى الغيبة ، ذلك أن الإنسان شديد التأثر ببيئته، ولاسيما إذا كان فى مرحلة الإعداد والبناء .

وعليه فإذا وجد فى بيئة لا ترعى للغائب حقه ولا حرمته فإنه يحاكيها، بل ربما وسوس له الشيطان وسولت له نفسه أن الإنكار على هذه البيئة أو قطع هذا المجلس قد يؤدى إلى استثقاله والنفور منه فيجارى، ويرى ذلك من حسن المعاشرة وتمام المجاملة، وأبعد من ذلك غضبه لغضب رفاقه، والخوض فى ذكر معايب ومساوئ الغائبين إظهاراً للمشاركة والمساهمة فى السراء والضراء.

٤ ـ الحسد :

ذلك أن الإنسان قد يحسد من يثنى الناس عليه ويجلونه ويكرمونه، متمنيًا زوال نعمته، ولا يجد سبيلا لتحقيق هذه الأمنية إلا بالطعن فيه والنيل منه حتى تسقط منزلته ومكانته عند الناس وهذه هى الغيبة المحظورة أو المحرمة.

ولعل هذا من الأسرار التى من أجلها نهى الإسلام عن الحسد، إذ يقول ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1] ، « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » [2] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٨/٢٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ٤/ ١٩٨٣ رقم (٢٥٥٩) وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فيمن يهجر أخاه المسلم ٤/٢٧٨ رقم (٤٩١٠)، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة: باب ما جاء فى الحسد ٤/ ٢٩٠ رقم (١٩٣٥)، وأحمد فى : المسند ٣/ ١١٠، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٥، كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ به .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب الأدب : باب فى الحسد ٤/٢٧٦ رقم (٤٩٠٣) من حديث إبراهيم بن أبى أسيد، عن جده، عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات ... » الحديث، وجد إبراهيم بن أبى أسيد لم يسم، وقد ذكر البخارى إبراهيم هذا فى : التاريخ الكبير . وذكر له هذا الحديث، وقال : « لا يصح »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب الحسد ٢/١٤٠٨ رقم (٤٢١٠) من حديث عيسى بن أبى عيسى الحنَّاط،عن أبى الزناد،عن أنس، عن النبى ﷺ وزاد:« والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جنة من النار »، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/٢٣٨، بقوله : « هذا إسناد فيه عيسى بن أبى عيسى، وهو ضعيف، والجملة الأولى رواها أبو داود من حديث أبى هريرة، ورواه البيهقى من هذا الوجه، وروى قصة الحسد أبو بكر بن أبى شيبة فى مسنده، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن يزيد الرقاشى، عن أنس به ، ورواه أبو يعلى الموصلى ، حدثنا أبو سعيد الأشج ، وغيره ، حدثنا خالد ، عن عيسى ... فذكره بتمامه » .

٥ ـ الإعجاب بالنفس حد الغرور والتكبر :

ذلك أن الإنسان قد تعجبه نفسه إلى حد الغرور والتكبر، فيحاول وصفها بالرفعة وعلو المنزلة والمكانة على حساب غيره، فيتناول هذا الغير بالانتقاص والطعن فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك، وكلامه هزيل أو ضعيف لا يحسن أن يبين به عما في نفسه ـ كما قال هذا الطاغية الجبار فرعون عن موسى عليه السلام وقصده بذلك أن يرفع من قدر نفسه : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) ﴾ [الزخرف] .

٦ ـ محاولة تبرئة النفس من التهمة والعيب :

وذلك أن الإنسان قد توجه إليه بعض التهم وتلصق به بعض العيوب ويحاول أن يبرئ نفسه من هذه وتلك، فيخطئ السبيل، وبدل أن يثبت عكس التهمة بسلوكه الحميد، وخلقه الطيب أو عن طريق الشهود الثقات الأثبات، يلجأ إلى الطعن والنيل ممن اتهمه وعابه وهذه هي الغيبة المحرمة .

وصلى الله وسلم وعظم وبارك على الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ ، إذ كانت توجه إليهم الطعون وتلصق بهم التهم، فكانوا يصبرون ويحتسبون ويمضون في طريقهم إلى نهايتها، مفوضين الأمر كله لله قائلين : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وقد اقتدى بهم أتباعهم في كل عصر ومصر ومن كل جيل وقبيل، وشغلوا أنفسهم بالله وطاعته عن الطعن والنيل من خصومهم وأعدائهم، ويوم القيامة سيكون فوزهم وربحهم وخسارة أعدائهم وخصومهم بسبب ما كانوا يصنعون كما قال سبحانه: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾ [المؤمنون] .

٧ ـ استشعار الطعن من الآخرين :

وقد يستشعر المسلم أن الآخرين سيتوجهون إليه بالطعن والعيب، فيحاول أن يبادرهم قبل أن يبادروه وأن يبادئهم قبل أن يبادئوه، فيقبح من حالهم أو يذكر بعض ما فيهم من خير، ويتخذه سبيلا للطعن فيهم والنيل منهم فيقول : ليس من عاداتي الكذب وقد أخبرتكم بكذا وكذا من أحوالهم فكان كما قلت، ويبني على ذلك ما يريد من الطعن فيهم والنيل منهم ولاسيما في غيابهم، فيقع في آفة الغيبة المحظورة أو المحرمة .

٨ ـ المزاح أو التفكه :

وقد يذكر المرء عيوب الآخرين ولاسيما في غيابهم، من باب المزاح والتفكه ومحاولة تضييع الوقت وإضحاك الآخرين، ناسيًا أنه بذلك يأكل لحوم الناس، وناسيًا حديث الرسول ﷺ: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوى بها سبعين خريفًا في النار »[1] .

٩ ـ عدم الدقة في التعبير وتصوير المراد :

ذلك أن المسلم قد يرى من آخر ثباتًا في حقٍّ أو صبرًا على بلاء، في أهل، ومال، وولد، وعشيرة، فيتعجب من صنيعه هذا أو يشفق عليه، ويغضب فيه لله، ويحاول أن يعبر عن ذلك وأن يصوره، فلا يوفق، إذ بدل أن يذكره بصفته، يذكره باسمه، ويعيب عليه أنه كان ينبغي أن يصنع كذا وكذا، وما درى ظروفه أو الملابسات التي أحاطت به، فيكون له بذلك مغتابًا .

وقد جاء في الحديث : أن رجلا مرَّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى، فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت، والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان ـ لرجل منهم ـ قم فأدركه فأخبره بما قال : فأدركه رسولهم، فأخبره، فأتى رسول الله ﷺ، وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله، فقال : قد قلت ذلك، فقال رسول الله ﷺ: « لم تبغضه ؟ »، فقال : أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاةً قط، إلا هذه المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله: هل رآني أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله، فقال: لا. فقال: والله ما رأيته يصوم شهرًا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال : فاسأله يا رسول الله : هل رآني قط أفطرت أو نقصت من حقه شيئًا ؟ فسأله عنه، فقال : لا، فقال : والله ما رأيته يعطي سائلا، ولا مسكينًا قط ولا رأيته ينفق شيئًا من ماله في سبيل الله، إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال : فاسأله : هل رآني نقصت منها أو

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الرقاق : باب حفظ اللسان ٨/ ١٢٥، ومسلم في : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب التكلم بالكلمة يهوى بها في النار ٤/ ٢٢٩٠ رقم (٢٩٨٨)، والترمذي في: السنن : كتاب الزهد : باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ٤/ ٤٨٣ رقم (٢٣١٤)، والنسائي في: السنن الكبرى: كتاب الرقاق (تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف) ١٠/ ٢٩٤ رقم (١٤٢٨٣).

ماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فقال : لا، فقال رسول الله ﷺ للرجل : « قم فلعله خير منك »(1) .

١٠ ـ العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة :

وقد يكون العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة معروفة بالحقد على الإسلام وأهله، طمعًا فى عرض زائل من أعراض هذه الحياة الدنيا، هو السبب فى الوقوع فى آفة الغيبة، على النحو الذى نشهده الآن من الطعن فى أبناء الحركة الإسلامية، ومحاولة إلصاق التهم والعيوب بهم، لا لشىء إلا لأنهم باعوا أنفسهم، وما تملك هذه النفوس لله عز وجل، وممن ؟! من أناس ذوى لحى، وعمائم، وسواك، وثياب قصار وقد أرخوا ذوائبهم من وراء ظهورهم، واعتلوا المنابر، وتصدروا للفتوى، إنه لا تبرير لذلك سوى العمالة، سواء أكانوا يقصدون أم لا يقصدون، إذ لا يستفيد من مثل هذا الطعن وذلك النيل والعيب إلا أعداء الله .

١١ ـ عدم قيام الأمة بواجبها نحو المغتابين :

وقد يكون عدم قيام الأمة بواجبها ـ حكامًا أو محكومين ـ نحو المغتابين، من الأسباب التى تفتح الطريق أمام هذه الآفة حتى تشيع وتنتشر فى الناس .

ذلك أن واجب الأمة نحو المغتابين يقضى :

أ ـ بعدم السماع أو الاستحسان لما يصدر عن هؤلاء المغتابين .

ب ـ وزجر أولئك وتخويفهم من عقاب الله فى الدنيا والآخرة .

جـ ـ ومقاطعة مجالسهم، والإعراض التام عنهم، وإلا فالإنكار، والبغض القلبى .

د ـ ثم دعوتهم إلى أن يشتغلوا بعيوبهم عن عيوب الناس « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

ومالم يرع هذا الواجب يكون الوقوع فى آفة الغيبة .

١٢ ـ سلوكيات أو تصرفات الآخرين الغير محسوبة، ولا سيّما إذا كان هؤلاء من ذوى الأسوة والقدوة :

وقد تكون سلوكيات أو تصرفات الآخرين الغير محسوبة من بين الأسباب التى تؤدى إلى الوقوع فى الغيبة .

---

(1) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٤٥٥ من حديث أبى الطفيل عامر بن واثلة أن رجلا مرَّ على قوم فسلم عليهم . . . الحديث، وأورده الحافظ العراقى فى : المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار ٣/ ١٤٤، ١٤٥ وعزاه إلى أحمد قائلا : «أحمد بإسناد صحيح » .

ولعل هذا من بين الأسباب التى من أجلها دعا الإسلام إلى ترك المعاصى وإن كانت صغيرة، واتقاء الشبهات، إذ يقول ﷺ: « إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه »، وضرب ﷺ لهنَّ مثلا : « كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها » (١) ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٢) ، « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمىَ يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه » (٣) .

وحين يبتلى المسلم بشىء من المعاصى أو الشبهات، فإن عليه أن يستتر فلا يعلن أو يجاهر، إذ يقول ﷺ: « كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا، وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (٤) .

١٣ ـ عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة :

وأخيرًا قد يكون عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة هو السبب فى الوقوع فى آفة الغيبة، إذ الإنسان ـ كما قدمنا فى سائر الآفات التى مضت ـ إذا نسى عواقب الشىء الضارة، وآثاره المهلكة تجرأ عليه، وواقعه، بل ربما لا يستطيع الانفكاك والتحول عنه .

وإلى هذا أشار رب العزة فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] .

رابعًا : آثار الغيبة :

وللغيبة آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء أكان ذلك على العاملين، أم على العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ١/٤٠٢، ٤٠٣ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٣) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

(٤) الحديث سبق تخريجه ص ٢٢ .

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الغيبة الضارة، وعواقبها المهلكة على العاملين :

١ ـ قسوة القلب :

ذلك أن المغتاب كثيرُ الكلام بغير ذكر الله ؛ لأنَّه وقَّاع في أعراض الناس، أكَّال للحومهم، ومن كثر كلامه بغير ذكر الله قسا قلبه، فلم يوفق لخير أبدًا، وإن وفق فإنما هو توفيق الجوارح ، لا توفيق القلوب ، ولهؤلاء من ربهم الويل كل الويل كما قال سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] .

٢ ـ التعرض لسخط الله وغضبه :

وذلك أن المغتاب قد تطاول بهذه الغيبة على حدود الله، وأتى منكرًا من القول وزورًا، والتطاول على حدود الله، وإتيان المنكر من القول والزور مما يعرِّض لغضب الله، وسخطه كما جاء في حديث أبي هريرة، عنهﷺ أنه قال : « وإن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقى لها بالا يهوى بها في جهنم » [١] .

٣ ـ العذاب الشديد ولا سيِّما في القبر :

وذلك أن المغتاب يضيع حسناته إن كانت له حسنات بل تتكاثر عليه السيئات، الأمر الذي يعرضه للعذاب الشديد ولا سيما في القبر، وأقل شيء في هذا العذاب تشويه الوجه، فقد مرَّﷺ بقبرين، فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالغيبة والنميمة »[٢] .

وقال لأصحابه : « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار » [٣] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٥١ . (٢) الحديث سبق تخريجه ص ٣٩ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم (٢٥٨١)، والترمذي في : السنن : كتاب صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ٥٢٩/٤، ٥٣٠ رقم (٢٤١٨)، وأحمد في : المسند ٣٠٣/٢، ٣٣٤، ٣٧١، ٣٧٢، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ لمسلم وعقب عليه الترمذي بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

وقال ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم » [1] .

٤ ـ عدم القدرة على القيام بالواجبات :

وذلك أن المغتاب يبدِّد طاقاته فى أكل لحوم النَّاس، وإذا بددت طاقات الإنسان عجز عن القيام بالمهام المنوطة، والواجبات المفروضة .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها دعا الإسلام إلى الصبر وكظم الغيظ، فقال سبحانه : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

٥ ـ الجبن :

وذلك أن الغيبة فى حدٍّ ذاتها مظهر من مظاهر الجبن، وإلا لواجه المغتاب أخاه بعيبه، ونصحه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبمرور الوقت تثمر الغيبة آفة الجبن، والضعف، وعدم القدرة على المواجهة، الأمر الذى يؤدى إلى انتفاش الباطل وانتفاخه وتحوُّل الأرض إلى جورة من الشر والفساد، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] ، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار الغيبة الضارة وعواقبها المهلكة على العاملين فإنها تتلخص فى :

١ ـ الفرقة والتمزق :

الأمر الذى يؤدى إلى شيوع الشر والفساد وطول الطريق، وكثرة التكاليف وتمكن العدو من رقابنا، ذلك أن الغيبة تؤدى إلى قول الزور، وقول الزور يؤدى إلى البهتان، والبهتان يؤدى إلى الخصومة، ثم التدابر والقطيعة، أو الفرقة .

ولعل هذا هو ما عناه سهل بن عبد الله حين قال : من أراد أن يسلم من الغيبة، فليسد على نفسه باب الظنون ، فمن سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٤١ .

التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان »[(١)] .

٢ ـ فتح الطريق أمام الناشئة والبسطاء من الناس للوقوع فى هذه الآفة :

ذلك أن الناشئة والبسطاء من الناس فيهم حب الاقتداء والتأسى، أو على الأقل المحاكاة أو التشبه، فإذا كان الجو الذى يحيط بهم ملوثًا بالغيبة، وليس لديهم حصانة أو رصيد يقوم على مراقبة الله والخوف منه، فإنهم لا محالة سيشاركون، إما اقتداءً وتأسيًا، وإما محاكاة ومشابهة، وكأننا بذلك نفتح المجال أمامهم لتدنس نفوسهم، وتفسد قلوبهم، وحينئذ يكون البوار والخسران المبين .

خامسًا : علاج الغيبة :

وما دمنا قد وقفنا على أسباب الوقوع فى الغيبة، وأدركنا آثارها الضارّة، وعواقبها المهلكة، فقد صار من السهل علينا رسم طريق العلاج، بل الوقاية من هذه الآفة، وتتلخص فى :

١ ـ تربية ملكة تقوى الله، ومراقبته فى النفس، وإن هذه الملكة إن نبتت، ورسخت فى النفس تحمى صاحبها من أكل لحوم الناس، بل قد تدفعه أن يصون أعراض الآخرين من أن تنتهك فى مجلسه وهو ساكت لا يفعل شيئًا، ولعل هذا الدواء هو الوارد فى ذيل آية تحريم الغيبة فى سورة الحجرات، إذ ختمت الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ⑫ ﴾ [الحجرات] .

٢ ـ أن يضع المسلم فى حسابه أن كل ما يتفوه به مكتوب ومحسوب عليه، إذ يقول سبحانه : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱ ﴾ [ق] .

ولأن تحسب له كلماته التى يتفوه بها، خير من أن تحسب عليه .

٣ ـ التثبت أو التبين فى الحكم على الأشياء والأشخاص بل وفى نقل هذا الحكم، وإشاعته بين الناس حفاظًا على أعراض الناس، وإبقاءً على رابطة الأخوة، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ⑥ ﴾ [الحجرات] .

---

(١) الأثر أورده الحافظ البيهقى فى : شعب الإيمان : باب فى تحريم أعراض الناس ٥/٣١٦ رقم (٦٧٨٣) عن سهل بن عبد الله .

٤ ـ كظم الغيظ ، ومقاومة الغضب على اعتبار أن الغضب من أسباب الوقوع في الغيبة كما قدمنا ، يقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] .

ويقول ﷺ : « من كتم غيظًا، وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء » (١) .

٥ ـ العمل على سلامة البيئة قريبة كانت أو بعيدة من مثل هذه الآفة، حتى لا يكون هناك مجال للاقتداء أو للمحاكاة بما هو ضار وموبق في الحياتين جميعًا : الدنيا والآخرة .

٦ ـ التبصير بالسبيل الصحيحة لتبرئة النفس من التهم أو الطعون الموجهة إليها، بأن يواجه المسلم التهم أو الطعون الموجهة إليه بالسلوك الحميد، والخلق الطيب، أو بواسطة الشهود الثقات الأثبات، دون لجوء إلى غيبة من اتهمه وطعن فيه .

٧ ـ دعوة ذوى الأسوة والقدوة أن تكون تصرفاتهم دقيقة ومحسوبة، وإلا اقتدى بهم الآخرون، وكانت شرور ومفاسد لا يعلم عقباها إلا الله عز وجل .

وإليك ما نبه إليه الإمام النووى ـ رحمه الله ـ فى هذا الأمر، إذ يقول : اعلم أنه يستحب للعالم، والمعلم، والقاضى، والمفتى، والشيخ المربى، وغيرهم ممن يقتدى به، ويؤخذ عنه : أن يجتنب الأفعال، والأقوال، والتصرفات التى ظاهرها خلاف الصواب وإن كان محقًا فيها ؛ لأنه إذا فعل ذلك ترتب عليه مفاسد من جملتها : توهم كثير ممن يعلم ذلك منه أن هذا جائز على ظاهره بكل حال، وأن يبقى ذلك شرعًا، وأمرًا معمولا به أبدًا، ومنها : وقوع الناس فيه بالتنقص، واعتقادهم نقصه وإطلاق ألسنتهم بذلك، ومنها : أن الناس يسيئون الظن به، فينفرون عنه، وينفرون غيرهم عن أخذ العلم عنه، وتسقط رواياته، وشهادته، ويبطل العمل بفتواه ويذهب ركون النفوس إلى ما يقوله من العلوم، وهذه مفاسد ظاهرة، فينبغى له اجتناب أفرادها، فكيف بمجموعها ؟ فإن احتاج إلى شىء من ذلك، وكان محقًا فى نفس الأمر لم يظهره، فإن أظهره أو ظهر أو رأى المصلحة فى إظهاره ليعلم جوازه، وحكم الشرع فيه، فينبغى أن يقول : هذا الذى فعلته ليس بحرام، أو إنما فعلته لتعلموا أنه ليس بحرام إذا كان على هذا الوجه الذى فعلته، وهو كذا، وكذا، ودليله : كذا، وكذا .

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٤٨ .

روينا في صحيحي البخاري، ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قام على المنبر، فكبَّر، وكبَّر الناس وراءه، فقرأ، وركع، وركع الناس خلفه، ثم رفع، ثم رجع القهقرى، فسجد على الأرض. ثم عاد إلى المنبر حتى فرغ من صلاته، ثم أقبل على الناس فقال : « أيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي » . والأحاديث في هذا الباب كثيرة (١) .

٨ ـ وجوب السؤال عن التصرفات التي ظاهرها مجانبة الصواب قبل الوقوع في أصحابها بالغيبة، فلعل لهؤلاء مبرراً، أو وجهة نظر فيما وقع منهم مجانبًا للصواب، ولا سيما وكل واحد في الناس يؤخذ منه، ويرد عليه إلا النبي ﷺ وفي ذلك يقول الإمام النووي ـ رحمه الله : (اعلم أنه يستحب للتابع إذا رأى من شيخه وغيره ممن يقتدى به في ظاهره للمعروف، أن يسأله عنه، بنية الاسترشاد، فإن كان قد فعله ناسيًا تداركه، وإن كان فعله عامدًا، وهو صحيح في نفس الأمر تنبه له، فقد روينا في صحيحي البخاري، ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال، ثم توضأ فقلت : الصلاة يا رسول الله . فقال : «الصلاةُ أمامك » .

يقول الإمام النووي معقبًا على ذلك : « إنما قال أسامة ذلك ؛ لأنه ظن أن النبي ﷺ نسي صلاة المغرب، وكان قد دخل وقتها قبل خروجه » (٢) .

وفي صحيح مسلم : أن النبي ﷺ صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، فقال عمر : لقد صنعت اليوم شيئًا لم تكن تصنعه، فقال : « عمدًا صنعته يا عمرُ» (٣) .

٩ ـ قيام الأمة بواجبها نحو المغتابين بألا تسمع لهؤلاء، بل عليها أن تزجرهم بكل ما تملك من أساليب ووسائل، ومن أبرز هذه الأساليب وتلك الوسائل رد غيبة هؤلاء، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الجمعة : باب الخطبة على المنبر ٢/ ١١، ومسلم في : الصحيح : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة ١/ ٣٨٦، ٣٨٧، رقم (٥٤٤) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الحج : باب النزول بين عرفة وجمع ٢/ ٢٠٠، ومسلم في : الصحيح : كتاب الحج : باب استحباب إدامة الحاج التلبية ٢/ ٩٣١ رقم (١٢٨٠) . وانظر الأذكار للنووي ص ٢٨٤ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الطهارة : باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد ١/ ٢٣٢ رقم (٢٧٧) .

النَّار يوم القيامة » [١] ، « ما من امرئ خذل امرأ مسلمًا فى موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا فى موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب نصرته» [٢] ، «من حمى مؤمنًا من منافق، بعث الله تعالى ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلمًا بشىء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم، حتى يخرج مما قال » [٣] .

وعلى ولى الأمر بالذات لفت نظر المغتابين إلى خطورة الغيبة وضررها على الفرد، والجماعة، فإن لم ينزجروا أنذرهم، ثم عزرهم، وبذلك يقضى على الشر من أساسه، ويقتل السوء فى مهده .

١٠ ـ التذكير الدائم بعواقب الغيبة فى الدنيا والآخرة، سواء أكان ذلك على العاملين، أم على العمل الإسلامى، فإن الإنسان ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة، باب ما جاء فى الذبِّ عن عرض المسلم ٤/ ٢٨٨ رقم (١٩٣١)، وأحمد فى : المسند ٦/ ٤٤٩، ٤٥٠ كلاهما من حديث أبى الدرداء ﷺ مرفوعًا، وعقب عليه الترمذى بقوله: «هذا حديث حسن» وزاد أحمد ٦/ ٤٦١ رواية أخرى من حديث أسماء بنت يزيد إلا أن فى إسناد هذه الرواية : (شهر بن حوشب) وهو وإن كان صدوقًا، إلا أنه كثير الإرسال، والأوهام. انظر: تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ١/ ٣٥٥ ترجمة رقم (١١٢) حرف الشين.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب من رد عن مسلم غيبة ٤/ ٢٧١ رقم (٤٨٨٤)، وأحمد فى : المسند ٤/ ٣٠ كلاهما من حديث جابر بن عبد الله، وأبى طلحة بن سهل الأنصاريين مرفوعًا به، بنحوه .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب من رد عن مسلم غيبة ٤/ ٢٧١ رقم (٤٨٨٣)، من حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه مرفوعًا، وسهل بن معاذ هذا قال عنه المنذرى : ضعيف، وقال ابن حجر فى: تقريب التهذيب ١/ ٣٣٧ رقم (٥٦٨) : « لا بأس به إلا فى روايات ربَّان عنه ». كما أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ٤٤١ من حديث سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعًا .

الآفة السابعة عشرة
النميمة

والآفة السابعة عشرة التى ابتلى بها نفر من العاملين، وكادت تأتى على الأخضر واليابس إنما هى : « النميمة » .

وحتى يتطهر من هذه الآفة من ابتلى بها، ويتوقاها من سلَّمه الله ـ عز وجل ـ منها، فإننا سنتناولها من الجوانب التالية :

أولا : تعريف النميمة :

لغة : تطلق النميمة فى اللغة على معان عدَّة، نذكر منها :

أ ـ قتُّ الكلام أو الحديث مطلقًا أى نقله، تقول : نم الحديث نمًا أى قتَّه، ورجل نَمٌّ، ونمَّام أى قتَّات ، ثم صارت تطلق على نقل الكلام على جهة الإفساد ، وفى الحديث : « لا يدخل الجنة قتَّات »[(١)] .

ب ـ الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نامَّته ، أى ما ينمُّ عليه من حركته .

جـ ـ الترقيش والزخرفة، تقول : نمنم الشىء نمنمةً، أى رقَّشه، وزخرفه، وثوب منمنم أى موشًّى، ومنه قيل للبياض الذى يكون على أظفار الأحداث : نمنمةٌ[(٢)] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ قتُّ الكلام أو الحديث قد يكون مصحوبًا بالهمس، والحركة، وقد يكون مزخرفًا، ومنمقًا حتى يحظى بالقبول .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب ما يكره من النميمة ٨/ ٢١، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الإيمان : باب غلظ تحريم النميمة ١/ ١٠١ رقم (١٠٥)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى القتات ٤/ ٢٦٨ رقم (٤٨٧١)، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى النمام ٤/ ٣٢٩ رقم (٢٠٢٦) كلهم من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبلفظ : « لا يدخل الجنة نمام » عند مسلم .

(٢) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم لنديم وأسامة المرعشليين ص ١٠٢٨، وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ٥/ ١٢٦، ١٢٧ بتصرف .

اصطلاحًا : أما معنى النميمة فى الاصطلاح الشرعى فلها معنيان : أحدهما خاص، وهو : نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم . والآخر عام، وهو : كشف ما يكره المرء كشفه سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء أكان الكشف بالقول، أم بالكتابة، أم بالرمز، أم بالإيماء يعنى الإشارة وسواء أكان المنقول من الأفعال، أم من الأقوال، وسواء أكان ذلك عيبًا أو نقصًا فى المنقول عنه، أم لم يكن (١) .

وليس من النميمة بمعنييها الخاص، والعام، نقل الكلام أو الحديث على جهة الإصلاح كالتقريب بين متخاصمين مثلا، وكما إذا رأى من يعتدى على مال غيره بسرقة، أو اختلاس، وشهد به مراعاة لحق المشهود عليه ويعرف هذا فى اللغة باسم الإنماء (٢) ، وقد جاء فى الحديث قولهﷺ : « ليس الكذاب من أصلح بين الناس، فقال خيرًا، أو نمى خيرًا » (٣) .

والفرق بين النميمة، والغيبة على هذا التعريف هو العموم والخصوص المطلق، أى أن كل نميمة غيبة، وليس كل غيبة نميمة، فإن الإنسان قد يذكر عن غيره ما يكرهه، ولا إفساد فيه بينه وبين أحد، وهذا غيبة، وقد يذكر عن غيره ما يكرهه وفيه إفساد، وهذا غيبة، وغيمة معًا (٤) .

ثانيًا : موقف الإسلام من النميمة :

والإسلام يحرِّم النميمة، ويراها من الكبائر التى تحرم الواقع فيها المقيم عليها من الجنَّة، وتوجب له النار، نظرًا لأنه سعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل، ويفسد فى الأرض .

(١، ٢) إحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ١٥٢، والأذكار للنووى ص ٣٠٩، وتطهير العيبة من دنس الغيبة لابن حجر الهيثمى ص ٧٩ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس ٣/ ٢٤٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٤/ ٢٠١١ رقم (٢٦٠٥)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى إصلاح ذات البين ٤/ ٢٨٠، ٢٨١ رقم (٤٩٢٠، ٤٩٢١)، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى إصلاح ذات البين ٤/ ٢٩٢ رقم (١٩٣٨)، وقال عقيه : « هذا حديث حسن صحيح »، وأحمد فى : المسند ٦/ ٤٠٤ كلهم من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

(٤) انظر : تطهير العيبة من دنس الغيبة لابن حجر الهيثمى ص ٨٠ .

يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الشورى : ٤٢] . والنَّمام واحد من هؤلاء : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ ﴾ [القلم] .

ويقول ﷺ : « إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره »(١) ، « لا يدخل الجنة قاطع » قيل : وما القاطع ؟ قال : « قاطع بين الناس »(٢) . وهو النَّمام، وقيل: قاطع رحم، « لا يدخل الجنة قتات »(٣) ، ومر ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أمَّا أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأمَّا الآخر فكان يمشي بين الناس بالغيبة والنميمة »(٤) ، « من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة »(٥) ، « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين »(٦) . إلى غير ذلك من النصوص .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ٨/ ١٥، ١٦، ٢٠، ٢١، ومسلم في: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب مداراة من يتقى فحشه ٤/ ٢٠٠٢، ٢٠٠٣ رقم (٢٥٩١)، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب : باب في حسن العشرة ٤/ ٢٥١ رقم (٤٧٩١، ٤٧٩٢)، ومالك في : الموطأ : كتاب الجامع : باب ما جاء في حسن الخلق ص ٦٥٠ رقم (١٦٣٠)، وأحمد في : المسند ٦/ ٣٨، ٧٩، ٨٠، ١٥٨، ١٥٩ كلهم من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا، ولفظه : أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فقال : « ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة »، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت : ثم ألنت له القول، قال : « يا عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه، أو تركه الناس اتقاء فحشه » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الأدب: باب إثم القاطع ٨/ ٦، ومسلم في: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ٤/ ١٩٨١ رقم (٢٥٥٦)، وأبو داود في: السنن : كتاب الزكاة : باب في صلة الرحم ٢/ ١٣٣ رقم (١٦٩٦)، والترمذي في : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء في صلة الرحم ٤/ ٢٧٩ رقم (١٩٠٩) كلهم من حديث جبير بن مطعم مرفوعًا، وعقب الترمذي عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) الحديث سبق تخريجه ص ٦٥ .

(٤) الحديث سبق تخريجه ص ٣٩ .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في: الأدب المفرد: باب إثم ذي الوجهين ص ٥٧٣ رقم (١٣١٠)، وأبو داود في: السنن : كتاب الأدب : باب في ذي الوجهين ٤ / ٢٦٨ رقم (٤٨٧٣]، والدارمي في : السنن : كتاب الرقاق : باب ما قيل في ذي الوجهين ٢/ ٧٧٠ رقم (٢٦٦٢) كلهم من حديث عمار بن ياسر ﵄ مرفوعًا، وأورده الألباني في : صحيح الجامع الصغير برقم (٦٣٧٢) .

(٦) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المناقب : باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ ٤/ ٢١٧، وكتاب الأحكام : باب ما قيل في ذي الوجهين ٨/ ٢١، وكتاب الأحكام : باب ما يكره من ثناء السلطان ٩/ ٨٩، ومسلم في الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب ذم ذي الوجهين، وتحريم فعله ٤/ ٢٠١١ رقم (٢٥٢٦)، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب : باب في ذي الوجهين ٤/ ٢٦٨ رقم (٤٨٧٢)، والترمذي في : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء في ذي الوجهين ٤/ ٣٢٨ رقم (٢٠٢٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ومالك في: الموطأ: باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين ص ٧٠١ رقم (١٨١٨)، وأحمد في : المسند ٢/ ٢٤٥، ٣٠٧، ٣٣٦، ٤٥٥، ٤٦٥، ٤٩٥، ٥١٧، ٥٢٥ كلهم من حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه .

ثالثًا : أسباب النميمة :

والأسباب التى توقع فى النميمة كثيرة، ونذكر منها :

١ ـ البيئة المحيطة القريبة كانت أو بعيدة :

فقد ينشأ الإنسان فى بيئة دأبها الإفساد والوقيعة بين الناس، فيأخذ فى التأثر بها، ومحاكاتها، ولا سيما إذا لم يكن قد توفرت لديه الوقاية والحصانة اللازمة لحمايته من مثل هذه الآفات، ولا فرق بين أن تكون هذه البيئة قريبة ـ أى البيت ـ أو بعيدة ـ أى المجتمع ـ إذ الكل له دور كبير فى حياة المرء على وجه العموم، والناشئة على وجه الخصوص .

٢ ـ الحسد أو محبة الشر والسوء للناس :

وقد يكون الحسد أو محبة الشر والسوء للناس مدعاة للوقيعة والإفساد، على نحو ما جاء عن حمَّاد بن سلمة إذ قال : « باع رجل عبداً، وقال للمشترى : ما فيه عيب إلا النميمة، قال : قد رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أيامًا، ثم قال لزوجة مولاه : إن سيِّدى لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذى الموسى، واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها، فيحبك، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلا، وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها، فجاءت المرأة بالموسى، فظنَّ أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين »[(١)] .

وعلى نحو ما ذكر صاحب بدائع السلك فى طبائع الملك إذ قال : « كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسىء ستكفيه مساوئه، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقال: إن هذا الذى يقوم بحذائك، ويقول ما يقول يزعم أن الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندى ؟ قال : تدعو به إليك، فإذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر، فقال له الملك : انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله، فأطعمه طعامًا فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك، فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسىء ستكفيه مساوئه، فقال له الملك : ادن منى، فدنا منه، فوضع يده على فيه، مخافة أن يشمَّ الملك منه ريح الثوم، فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلانًا إلا وقد صدق، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا جائزة أو صلة، فكتب له

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣/ ١٥٤ .

كتابًا بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابى هذا، فاذبحه، واسلخه، واحش جلده تبنًا، وابعث به إلىَّ، فأخذ الرجل الكتاب، وخرج، فلقيه الرجل الذى سعى به، فقال: ما هذا الكتاب ؟ قال: خط الملك لى بصلة، فقال: هبه لى، فقال: هو لك، فأخذه، ومضى إلى العامل، فقال العامل: فى كتابك: أن أذبحك، وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لى، اللهَ اللهَ فى أمرى حتى أرجع إلى الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه، وسلخه، وحشا جلده تبنًا، وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ قال : لقينى فلان، فاستوهبنى إياه، فوهبته له، فقال الملك: إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر، قال: ما فعلت، قال: فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال: كان أطعمنى طعامًا فيه ثوم، فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك، فقد كفاك المسيء مساوئه »[(١)] .

ولهذا السبب وغيره جاء الأمر بالاستعاذة بالله من شر الحاسد، إذ يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴾ [سورة الفلق] .

٣ ـ التملق لدى ذوى الوجاهة والسلطان إرضاءً لهم أو طمعًا فيما بأيديهم :

وقد يكون التملق لذوى الوجاهة والسلطان، إرضاءً لهم أو طمعًا فيما بأيديهم، هو السبب فى الوقوع فى آفة النميمة، ذلك أن نفرًا من الناس يتصورون بفهمهم القاصر أن إرضاء ذوى الوجاهة والسلطان، أو الحصول على ما بأيديهم لا يتم إلا على أعراض الناس، والوشاية أو الوقيعة بينهم وقد نسوا، أو تناسوا أن ما عند الله، وما عند الناس لا يناله المرء إلا بطاعته لله، وتفانيه فى مرضاته تبارك وتعالى، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

وإذ يقول النبىﷺ : « من أكل برجل مسلم أكلةً، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسى ثوبًا برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياءٍ، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة »[(٢)] .

---

(١) انظر : بدائع السلك فى طبائع الملك لأبى عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسى ٢/ ٥١٤، ٥١٥ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ٤/ ٢٧٠ رقم (٤٨٨١) قال : حدثنا حيوة بن شريح المصرى، حدثنا بقية، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد أنه حدَّثه أنَّ النبىﷺ قال : « من أكل برجل مسلم ...» الحديث، وعقب عليه المنذرى بقوله : « فى إسناده بقية بن الوليد، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وهما ضعيفان » .

٤ ـ الترويح عن النفس :

وقد يرى بعض الناس أنَّ الخوض فى الفضول والباطل ، والسعى بين الناس بالقطيعة، والإفساد، إنما هو من قبيل التنفيس والترويح عن النفس ومن ثمَّ فلا يتورع عن الوقوع فى هذه الآفة، ناسيًا أو متناسيًا أن الترويح عن النفس بالخوض فى الباطل والفضول، والسعى بين الناس بالقطيعة والإفساد لا يعود على المرء إلا بالقلق، والاضطراب النفسى؛ نظراً لأنه معصية، وللمعصية عواقب وخيمة، وآثار مهلكة أعظمها هذا القلق والاضطراب النفسى، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن]

٥ ـ عدم قيام الأمة بواجبها نحو النمام بل استحسان عمله هذا :

وقد يكون عدم قيام الأمة ـ حكامًا ومحكومين ـ بواجبها نحو النمَّام من تكذيبه، وزجره، وتخويفه، واستهجان عمله هذا، بل استحسان الأمة لمثل هذا العمل، قد يكون سببًا من الأسباب التى تؤدى إلى الوقوع فى آفة النميمة.

وقد وعى السلف واجبهم نحو النمامين، فقطعوا الطريق عليهم بأداء هذا الواجب:

هذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يدخل عليه رجل، فيذكر له عن رجل شيئًا، فيقول له أمير المؤمنين عمر: (إن شئت نظرنا فى أمرك، فإن كنت كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات : ٦] ، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القلم] ، وإن شئت عفونا عنك، فقال : العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا) [(١)] .

وهذا سليمان بن عبد الملك يأتيه رجل ـ وعنده الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ـ فيقول سليمان للرجل : « بلغنى أنك وقعت فىَّ، وقلت كذا وكذا، فقال الرجل : ما فعلت، ولا قلت، فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق، فقال له الإمام الزهرى : لا يكون النمام صادقًا، فقال سليمان : صدقت، ثم قال للرجل : اذهب بسلام »[(٢)] .

وهذا عمرو بن عبيد زعيم الخوارج يدخل عليه رجل، فيقول له : « إن الأسوارى

(١، ٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣/١٥٣، ١٥٤ .

ما يزال يذكرك فى قصصه بشرٍّ، فقال له عمرو : يا هذا، ما رَعَيْتَ حقَّ مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره، ولكن أعلمه: أن الموت يعمنا، والقبر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين »(١) .

وهذا الصاحب بن عبَّاد يرفع إليه بعض السعاة رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع الصاحب بن عبَّاد على ظهرها : « السعاية قبيحة، وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح، فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكًا فى مستور، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك، فتوقَّ يا ملعون العيب، فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمَّره الله، والساعى لعنه الله » (٢) .

٦ ـ العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة :

وقد يكون العمل لحساب أفراد، أو جهات مشبوهة، هو السبب فى الوقوع فى آفة النميمة، ذلك أن هناك أفرادًا وجهات مشبوهة لا تصل إلى مرادها إلا بالوقيعة، والسعاية بين الناس بالإفساد، مباشرة أو بواسطة آخرين من ذوى النفوس الضعيفة، والقلوب المريضة، ومن ثمَّ تنتشر وتشيع النميمة بين الناس ولعلَّ الفرقة الواقعة اليوم بين المسلمين بعامة، والجماعات الإسلامية فى أنحاء الوطن العربى والإسلامى بخاصة نابعة من هذا السبب .

٧ ـ نسيان الله والدار الآخرة :

وقد يكون نسيان الله، وأنه القوى القهار الفعال لما يريد، المطلع على كل شىء، الجامع الناس ليوم لا ريب فيه، المجازى كلا بما فعل، وكذلك نسيان الدار الآخرة، وما فيها من الأهوال والشدائد، أو السلامة والأمن، العذاب الدائم، أو النعيم المقيم، قد يكون هذا كله سببًا فى الوقوع فى النميمة، وصدق النبىُّ الكريم إذ يقول : « إن ممَّا أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (٣) .

(١ ، ٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣/١٥٣، ١٥٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الأنبياء : باب منه ٤/٢١٥ وكتاب الأدب: باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ٨/٣٥، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الحياء ٤/٢٥٢ رقم (٤٧٩٧)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب الحياء ٢/ ١٤٠٠ رقم (٤١٨٣)، وأحمد فى : المسند ٤/١٢١، ١٢٢ كلهم من حديث أبى مسعود البدرى ﷺ مرفوعًا به .

٨ ـ الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة :

وأخيراً قد تكون الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة ـ كما سنعرف بعد قليل ـ هي السبب في الوقوع في هذه الآفة، إذ من لا يقدِّر عواقب الشيء، ولا سيما إذا كانت هذه العواقب وخيمة، فإنه يتجرأ عليه، وإن كان في تجرئه هذا الحتف والهلاك .

رابعاً : آثار النميمة :

وللنميمة آثار ضارة، وعواقب مهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامي، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار النميمة على العاملين :

١ ـ قسوة القلب :

ذلك أن النميمة كغيرها من المعاصي والسيئات تسود القلب وتدنسه، فيصيبه المرض، ويظلُ هذا المرض يسري فيه حتى يموت، فتكون القسوة، والويل كل الويل لمن قسا قلبه كما قال سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾

[الزمر]

٢ ـ نزع الثقة والهيبة من قلوب الناس :

وتنتهي النميمة بصاحبها إلى نزع هيبته والثقة به من قلوب الناس، من باب أن من نمَّ لك نمَّ عليك، وإذا نزعت هيبة المرء، وضاعت الثقة به من قلوب الناس احترقت كل أوراقه، ولم يبق له ما يعيش أو يحيا به بين الناس، فيكون قد حكم على نفسه بالموت، وإن بدا أنه واحد من الأحياء .

٣ ـ الإفلاس :

وتنتهي النميمة كذلك بصاحبها إلى الإفلاس، إذ تضيع حسناته إن كانت له حسنات، الواحدة تلو الأخرى، بل ربما حُطَّ عليه من سيئات الآخرين إن لم تف حسناته بما عليه من مظالم وديون، وهذا ما لفت إليه النبي ﷺ الأنظار حين قال لأصحابه : « أتدرون ما المفلس ؟ »، قالوا : المفلس فينا من لا درهم له، ولا متاع، فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من

حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح فى النار »[1] .

٤ ـ سلب الأموال وانتهاك الأعراض وسفك الدماء :

ومن آثار النميمة على العاملين أيضًا: سلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وقد مرَّت بنا قصة العبد النمام، وكيف حرَّض سيده على مولاته حتى قتلها، ثم قتل بأيدى أقاربها، واشتعلت الحرب بين الفريقين .

ومن هذا الباب ما يقع لنفر من العاملين للإسلام على أيدى بعض الحكومات من انتهاك للأعراض، وسلب للأموال، وسفك للدماء، حيث تعمل الوشاية، والنميمة عملها فى إشعال أوار هذه الحرب، ولو كان التثبت أو التبين لحقيقة ما يقوله هؤلاء النمامون والوشاة لما كان شىء من ذلك .

٥ ـ التعرض لغضب الله وسخطه الموجبين للنار :

وأخيرًا فإن النميمة تنتهى بصاحبها إلى التعرض لغضب الله وسخطه الموجبين للنار، فضلا عن عقاب الدنيا، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ [فاطر] .

وإذ يقولﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »[2] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار النميمة على العمل الإسلامى :

١ ـ الفرقة والتمزق :

وذلك أن سماع النميمة إذا لم يكن معه تقوى الله، يؤدى إلى سوء الظن، ثم التجسس وتتبع العورات، ثم الغيبة، ثم الخصومة، ثم التدابر والتقاطع، أو الفرقة والتمزق، الأمر الذى يكون سببًا فى ذهاب ريحنا وطمع الأعداء فينا، على النحو الذى نعيشه نحن المسلمين اليوم على كل المستويات الداخلية، والخارجية، الشعبية والقيادية، الفردية والجماعية، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾ [آل عمران] .

وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامى من عصر النبوة إلى يومنا هذا صوراً توضح هذا الأثر، وحسبنا منها ما ذكره ابن إسحاق، وغيره من كتاب السيرة النبوية : أن رجلا من اليهود مرَّ بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه، وأمره أن يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه، حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرَّة، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فأتاهم، فجعل يسكنهم ويقول : «أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم» وتلا عليهم هذه الآية : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] ، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح ﷺ [1] .

وحسبنا ما كان بين إمامين جليلين من أئمة المسلمين : الأول : الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على، المعروف بابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ)، والآخر العلامة بدر الدين محمود بن أحمد المعروف بالعينى (ت ٨٥٥ هـ)، وكلاهما له شرح نفيس على صحيح البخارى، وقد كانا على صلة وثيقة، وصداقة وصحبة، وذهبا معا رفقة السلطان ـ فى السفرة الحلبية ـ واستضاف العينى ابن حجر فى بلدته عينتاب، فلبى الحافظ ذلك، وأخذ كل منهما عن الآخر، ثم سعى بينهما الوشاءون النمامون، فدب الخلاف بينهما ، وتتبع كل منهما الآخر فى كتبه ومؤلفاته ، ودروسه وإملاءاته ، وأول ما بدأ الخلاف بينهما على ما يحكى المؤرخون أن اتفق أن المئذنة التى بنيت على البرج الشمالى بباب زويلة للجامع المؤيدى بمصر، قد مالت، وكان العينى يدرس بالجامع المؤيدى آنذاك، فرسم محضر بهدمها، فقال ابن حجر معرضًا بالعينى :

لجـــامع مولانا المؤيـــد رونـــق ... منـــارته بالحسـن تـزهـو وبالزين

تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا ... فليس على جسمى أضر من العين

فذكر بعض الجلساء للعينى أن ابن حجر عرَّض به، فغضب ورد عليه قائلا :

منـــارة كعـــروس الحسن إذ جُلِيَتْ ... وهـدمهـــا بقضـــاء الله والقـــدر

قالـوا أصيبت بعين قلـت ذا غلط ... ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحى ٣/ ٥٨٠ ـ ٥٨٢ .

(٢) انظر : الحافظ ابن حجر العسقلانى أمير المؤمنين فى الحديث للأستاذ عبد الستار الشيخ ص ٣٤١ ـ ٣٤٥ بتصرف كثير .

ثم اتسع الخلاف بينهما، وإن كان ذلك لم يمنع كل واحد منهما من إنصاف الآخر والشهادة له بالفضل ، ومتانة الدين ، والكفاية العلمية ، ولاسيما عندما يسأل أو يستشهد، وقاتل الله الوشاة النمامين .

٢ ـ فتح الطريق أمام الناشئة وضعاف النفوس أن يقعوا فى هذه الآفة :.

وأخيراً، فإن شيوع النميمة فى الأمة يفتح الطريق أمام الناشئة، وضعاف النفوس أن يقعوا فى هذه الآفة، وحينئذ تتسع أسباب الفرقة والتمزق، ويكون العذاب الأليم .

خامسًا : علاج النميمة :

وما دمنا قد وقفنا على أسباب وبواعث النميمة، وأدركنا آثارها الضارة، وعواقبها الوخيمة، فإنه يسهل علينا أن نرسم طريق الوقاية، والعلاج، وتتلخص فى الخطوات التالية :

١ ـ المبادرة بعدم تصديق النمام، بل زجره، وتخويفه الله والدار الآخرة، فإن ذلك مما يقطع الطريق على النمام، ولا يجعله يستمرئ أو يتمادى، ويوقن المسلم أن مثل هذه الخطوة من باب : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

٢ ـ بغض النمام فى الله بغضًا ينعكس على السلوك، وعلى طريقة المعاملة، فإن ذلك له أثر كبير فى الإقلاع عن هذه الآفة، ولاسيما عند من لديهم بقية من خير أو ذرة من نور .

٣ ـ تربية ملكة تقوى الله، ومراقبته فى النفس، فإن هذه الملكة لها دور كبير فى التخلص من العيوب والآفات ومن بينها النميمة، ثم التحلى بالفضائل والمنجيات .

٤ ـ نقاء الوسط الذى يعيش فيه النمام، سواء أكان قريبًا كالبيت، أم بعيداً كالمجتمع، فإن المرء ابن بيئته، وكم من أناس طهرت قلوبهم، وزكت جوارحهم واستقاموا على الطريق، بسبب عيشهم فى وسط نقى نظيف .

٥ ـ اليقين التام بأن ما عند الله لا ينال بالمعصية، والوقيعة أو الإفساد بين الناس، وإنما ينال بالطاعة والاستقامة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾ [النساء] .

٦ ـ دوام النظر فى سيرة السلف، ومنهجهم فى مقاومة النميمة ومعالجة النمامين، فإن ذلك له دور كبير فى الاقتداء والتأسى، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وحينئذ يكون التخلص من النميمة .

٧ ـ التذكير بعواقب النميمة والنمامين، سواء أكان ذلك على العاملين أم على العمل الإسلامى، وخير مذكر بذلك دوام النظر فى كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبى ﷺ، وواقع هذا الصنف من الناس .

٨ ـ قيام أولى الأمر بواجبهم نحو النمامين، وذلك بزجرهم وتخويفهم، بل وتعزيرهم إن اقتضت المصلحة ذلك، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

٩ ـ مقاطعة النمام إن أصر على هذا الخلق الذميم، ولم تنفع معه الأساليب المتقدمة، وآخر الدواء الكى، حيث يقول ﷺ: « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

(١) الحديث سبق تخريجه .

الآفة الثامنة عشرة
فوضى الوقت

والآفة الثامنة عشرة التي يبتلى بها كثير من العاملين ، بل لا يكاد يسلم منها أحد إنما هى : « فوضى الوقت » ، ولا بد أن يتخلص منها من ابتلى بها ، وأن يتوقاها ، ويتجنبها من سلمه الله وعافاه منها .

وحتى يكون لدينا تصور واضح أو قريب من الواضح عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، فإننا سنتناولها على النحو التالى :

أولا : تعريف فوضى الوقت :

لغة : الفوضى فى اللغة تطلق على معنيين هما :

أ ـ اختلاط الأمور بعضها ببعض، يقال: نعام فوضى: أى مختلط بعضه ببعض، ويقال : أموالهم فوضى بينهم : أى هم شركاء فيها .

ب ـ والتساوى فى الأمر أو الرتبة ، يقال : قوم فوضى : أى متساوون لا رئيس لهم .

قال الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا[1]

وعندى أنه لا تعارض بين المعنيين جميعًا ؛ لأن الأول لازم للآخر ، ومنبثق عنه ، ذلك أن التساوى فى الأمر أو الرتبة يقتضى الاختلاط أو التداخل فى هذا الأمر أو فى هذه الرتبة .

اصطلاحًا : أمَّا فى الاصطلاح فإن فوضى الوقت تعنى خلط الأمور بعضها ببعض، والنظر إليها على أنها بدرجة واحدة من حيث الأهمية والفائدة ، مع عدم التوفيق بين الواجبات والأوقات .

---

(١) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم لأسامة ونديم المرعشليين ص ٨٨٢ ، والمعجم الوجيز ـ مجمع اللغة العربية ـ مصر ، ص ٤٨٤ بتصرف يسير .

ثانيًا : مظاهر فوضى الوقت ، ووضع هذه الفوضى فى ميزان الإسلام:

ولفوضى الوقت مظاهر كثيرة تدل عليها ، أهمها :

١ ـ الاشتغال بثانويات ، أو هوامش الأعمال عن أصولها وقلبها .

٢ ـ إعطاء العمل البسيط فوق ما يستحق من الجهد ، والوقت .

٣ ـ تضييع الساعات الطوال بغير عمل بالمرَّة .

٤ ـ تراكم أكثر من عمل فى وقت واحد ، بل فى لحظة واحدة .

وأما عن وضع فوضى الوقت هذه فى ميزان الإسلام، فهى حرام،كما تلمح بذلك النصوص الكثيرة الناطقة بتحسر أقوام على أعمارهم التى ضيعوها بغير عمل يفيد، فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) ﴾ [الاحزاب] .

وأنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من تقصير ، فيقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون] ، ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون] ، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الانعام] ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر : ٣٧] .

وإذ يقول ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » [(١)] ، «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرقاق : باب ما جاء فى الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة ٨ /١٠٩ ، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٤ / ٤٧٧ رقم (٢٣٠٤] ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد: باب الحكمة ٢/ ١٣٩٦ رقم (٤١٧٠)، والدارمى فى: السنن : كتاب الرقاق: باب فى الصحة والفراغ ٢/ ٧٥٣ رقم (٢٦٠٧)، وأحمد فى : المسند ١/ ٢٥٨، ٣٤٤، كلهم من حديث عبد الله بن عباس ﷺ مرفوعًا.

وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » (١) .

ويشرح أو يبين الحق ـ تبارك وتعالى ـ حرمة هذه الفوضى بشكل أدق حين يذكر بنعمة الوقت ، فيقول :

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور] ، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص] .

ويقول ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »(٢) ، « بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا : هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا ، أو غنى مطغيًا ، أو مرضا مفسدًا ، أو هرمًا مفندًا ، أو موتًا مجهزًا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » (٣) .

ثالثًا : أسباب فوضى الوقت :

والأسباب أو البواعث التي توقع في فوضى الوقت كثيرة ، نذكر منها :

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب فى القيامة ٥٢٩/٤، رقم (٢٤١٧) من حديث أبى برزة الأسلمى ﷺ مرفوعًا به ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأخرج نحوه من حديث ابن مسعود ، إلا أن فيه السؤال عن خمس بدل أربع ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف فى الحديث من قبل حفظه »، ورواه الطبرانى فى: المعجم الكبير ٢٠/ ٦٠، ٦١ بلفظ: « لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » ، والبزار فى : المسند رقم (٣٤٣٧) من كشف الأستار، وهو ـ كما قال خلدون الأحدب فى : سوانح وتأملات ص ١٨ : صحيح بشواهده، والدارمى فى : السنن : المقدمة ، باب من كره الشهرة والمعرفة ١٤٢/١ رقم (٥٤٣) من حديث أبى برزة الأسلمى ، ورقم (٥٤٤، ٥٤٥) من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا به ، وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى : المستدرك : كتاب الرقاق : باب نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ٣٠٦/٤ من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا، وعقب عليه قائلا: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » ، وأقره الذهبى على ذلك فى : التلخيص .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الزهد : باب ما جاء فى المبادرة بالعمل ٤٧٨/٤ رقم (٢٣٠٦) من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبى هريرة إلا من حديث محرز بن هارون . . . » .

١ ـ الأسرة التي لا ترعى حرمة الوقت :

فقد ينشأ الإنسان فى أسرة لا ترعى حرمة الوقت، ولا تعطى له أدنى رعاية أو أهمية، وتكون النتيجة التأثر ، والتأثر الشديد بهذا الجو ، أو بهذا المحيط من الفوضى، وتصبح لازمة من لوازم حياته ، تسير معه إلى القبر إلا أن يتداركه الله برحمة منه وفضل ، ويهيئ له صحبة صادقة طيبة ، تأخذ بيده إلى احترام الوقت وتنظيمه، وتظل تتعهده ، وترعاه حتى يقلع عن هذا الداء .

٢ ـ الصحبة السيئة :

وقد تلقى المقادير بالإنسان فى وسط من الصحبة السيئة ، دأبها وديدنها ضياع الوقت ، أو ملؤه بالتافه الضار ، ويكون هو غير مكتمل الحصانة وحينئذ يتأثر بهم ، ويظهر ذلك أول ما يظهر فى وقته ، فإذا به يهدره ويضيعه فيما لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى من ورائه .

٣ ـ عدم احترام ذوى الأسوة والقدوة لأوقاتهم :

وقد يكرم الله المسلم بصحبة طيبة ، إلا أن ذوى التأثير والأسوة والقدوة فى هذه الصحبة مصابون بفوضى الوقت ، فيتأثر بهم ، وخصوصًا إن لم يعمل عقله ، ويرى نفسه مسئولا وحده بين يدى ربه ، وبمرور الزمن تصبح فوضى الوقت خلقًا لازمًا له فى حياته .

٤ ـ عدم تقدير قيمة الوقت :

وقد لا يعرف الإنسان قيمة الوقت ، وأنه رأس ماله على ظهر هذه الأرض ، وأنه إن ضاع ضاعت نفسه ، وإن بقى بقيت نفسه . قد لا يعرف ذلك كله ، فينشأ فى نفسه، وفى سلوكه ما يسمى بفوضى الوقت .

٥ ـ الركون إلى النعمة مع أمن مكر الله :

وقد يمن الله على الإنسان من فراغ ، أو صحبة ، أو شباب ، أو غير ذلك فيطمئن بهذه النعمة ، ويركن إليها ، وينسى أنه يمكن أن تصير إلى زوال فى لحظة ، ويأمن مكر الله ، وتكون العاقبة إهدار الوقت ، وتضييعه فيما لا يجدى ، ولا يفيد ، وتلك هى فوضى الوقت .

٦ ـ الانفراد بالرأى وعدم المشورة :

وقد ينطلق الإنسان يعمل حسبما تسنح له الفرصة ، معتمدا على رأيه دون الرجوع إلى أحد من ذوى الخبرة ، والتجربة ، والسداد ، والرأى ومشاورته فيما يريد ، وتكون العاقبة فوضى الوقت، حيث يشتغل بثانويات الأمور، ويضيع الأصول ، أو الأساس، أو تتراكم عليه الأعمال فيقعد ولا يعمل شيئًا بالمرة .

٧ ـ عدم تقدير المرء لجهده وطاقته :

وقد لا يقدر المرء جهده ، وطاقته ، ويظن أن لديه القدرة على عمل كل شيء ، ويأخذ فى العمل، ويصادف أنه لم ينجز شيئًا، ويصير من أصحاب أنصاف أو أثلاث، أو أرباع الأعمال . كما قيل : الذى يعمل كل شيء لا يعمل شيئًا ، وهذه هى فوضى الوقت .

٨ ـ عدم المتابعة والمحاسبة :

وقد يحرم الإنسان ممن يتابعه ، ويحاسبه على عمله ، وعلى خطواته أولا بأول ، وتكون النتيجة فوضى الوقت حيث يضيع الوقت فى غير عمل بالمرة ، أو فى عمل هامشى لا يسمن ولا يغنى من جوع .

٩ ـ المعصية ، وإهمال النفس من التزكية :

وقد يقع الإنسان فى المعصية ، ولاسيما الصغير منها ، ويهمل التوبة والتخلص منها ، بل يهمل تزكية نفسه التى هى سبب بركة الوقت وامتداده ، أو اتساعه ، وحينئذ يبتلى بفوضى الوقت ، إذ يقول ﷺ فى الحديث : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه »[١] .

والعلماء مختلفون فى تحديد معنى الإنساء على نحو ما ذكر الحافظ ابن القيم فى كتابه الداء والدواء ، إذ يقول :

« وقد اختلف الناس فى هذا الموضع ، فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب من أحبَّ البسط فى الرزق ٣/ ٧٣ ، وكتاب الأدب : باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم ٨ / ٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم ٤/ ١٩٨٢ رقم (٢٥٥٧) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الزكاة : باب فى صلة الرحم ٢/ ١٣٢، ١٣٣ رقم (١٦٩٣) ، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٥٦ ، ٢٤٧، ٢٦٦ ، كلهم من حديث أنس إلا البخارى فى الرواية الثانية ، فإنها من حديث أبى هريرة .

ذهاب بركة عمره ، ومحقها عليه ، وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصي ، وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسبابًا كثيرة تكثره ، وتزيده ، وللبركة فى العمر أسبابًا تكثره ، وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والآجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وإن كانت بقضاء الرب ـ عز وجل ـ فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية له .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب، ولهذا جعل الله ـ سبحانه ـ الكافر ميتًا غير حى ، كما قال تعالى : ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء﴾ [النحل : ٢١] .

فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر ، والتقوى ، والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة ، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصى، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر] . فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية ، والأخروية أولا ، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك، فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلا. وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقى من عمره. وسر المسألة: أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه والتنعم بحبه، وذكره، وإيثار مرضاته »[1] .

١٠ ـ الغفلة عن واقع الأعداء :

وقد ينسى المرء واقع الأعداء ، وأنهم يعملون بالليل والنهار ، ولا يسمحون لأنفسهم بتضييع لحظة بغير عمل ، وبغير كيد لله ولرسوله ، ولجماعة المسلمين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويلتزمون بهدى السماء ، قد ينسى المسلم ذلك، فيهمل الانتفاع بوقته، وحينئذ يصاب بفوضى الوقت .

١١ ـ الغفلة عن عواقب فوضى الوقت :

وقد تغيب عواقب فوضى الوقت الدنيوية والأخروية عن بال المسلم فإذا به يهدر

(١) انظر : الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى لابن القيم ص ٥٧ ، ولمزيد من البيان فى تحديد معنى الإنساء يراجع : غاية البيان فى شرح مختارات من السنن لكاتب هذه السطور ص ١٩ ـ ٢٣ .

وقته ، ولا ينتفع به ، أو ينتفع به فيما لا جدوى من ورائه ، وحين يأتيه الموت يبكى ندمًا ، ويتمنى التأخير لتدارك ما فات ، وأنى له ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون] .

١٢ ـ الدخول فى العمل بغير تنظيم وتخطيط :

وقد يدخل الإنسان في العمل مهملا قواعد التنظيم، والتخطيط لواجباته ولطاقاته، بل للواجب الواحد ، وحينئذ يأخذ فى التضييع والتفريط ، وتكون فوضى الوقت .

رابعًا : آثار فوضى الوقت :

ولفوضى الوقت آثار مهلكة ، وعواقب خطيرة ، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، ودونك طرفًا من هذه الآثار .

أ ـ على العاملين :

أما عن آثار فوضى الوقت على العاملين فكثيرة ، نذكر منها :

١ ـ ضياع العمر بغير فائدة ، أو بفائدة لا تذكر :

ذلك أن الفوضوى فى وقته ، تمر عليه أوقات كثيرة بغير عمل ، أو بعمل هامشى لا يكاد يذكر ، وتكون النتيجة الأخيرة، والمحصلة النهائية ضياع العمر كله بغير فائدة، أو بفائدة قليلة الجدوى ، ضئيلة النفع ، وهذا هو الغبن الذى نبه إليه رسول الله ﷺ فى قوله : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (١) .

وهو الذى قصد إليه حكيم من الحكماء حين قال : من أمضى يومًا من عمره فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد أثله ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه ، أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه وظلم نفسه (٢) .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أن الفوضوى فى وقته ينسى نفسه من التزكية ، أو يزكيها بما لا يشبعها ولا يشفيها ، بل ربَّما وقع فى المعاصى والسيئات كما شهد بذلك الواقع ، وأشار إليه بعض الحكماء إذ قال: « من الفراغ تكون الصبوة » (٣) ، وتكون النتيجة مرض القلب وموته، وبعبارة أخرى قسوته ، الأمر الذى يؤدى إلى القلق والاضطراب النفسى ، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٨٢ .

(٢ ، ٣) انظر : فيض القدير للمناوى ٦/ ٢٨٨ .

بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] ، ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] .

٣ ـ الذل والهوان فى الدنيا :

ذلك أن الفوضوى فى وقته إنما هو واقف فى محله ، أو يتحرك حركة بطيئة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فى الوقت الذى لا يكف فيه الباطل ، ولا يفتر عن العمل لحظة واحدةً ، ومثل هذا سيأتى عليه لحظة ، لا يتمكن فيها حتى من التنفس العادى ، فضلا عن الحركة والتأثير فى غيره ، فيقضى حياته ذليلا مهينًا ، كما يقول سبحانه: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ [طه : ١٢٤] .

٤ ـ الحسرة والندامة يوم القيامة :

ذلك أن الفوضوى فى وقته ، يلقى ربه يوم القيامة بغير ما يرضيه وتكون العاقبة الحسرة والندامة ، بل وتمنى العودة إلى الدنيا للتدارك ، والإصلاح كما يقول سبحانه :

﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر]، ﴿ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴿٢٣﴾ يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر]، ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴿٩٩﴾ لعلى أعمل صالحا فيما تركت﴾ [المؤمنون] ، ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴾

[فاطر : ٣٧]

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأمَّا عن آثار فوضى الوقت على العمل الإسلامى فتتلخص فى :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن الفوضوى فى وقته يقصر فى حق الآخرين، فلا يرعى الآداب الاجتماعية، وتكون العاقبة النفور والقطيعة ، الأمر الذى يؤدى إلى الفرقة والتمزق ، ثم تمكين العدو من رقابنا واستغلاله لخيرنا ، وثرواتنا .

٢ ـ الحصار والتطويق :

ذلك أن فوضى الوقت ، إنما يفسح الطريق أمام الباطل لحصار العمل الإسلامى وتطويقه ، بل وتشديد القبضة عليه ، ولاسيما أن هذا الباطل حريص كل الحرص على الانتفاع بوقته وتوظيفه فيما يحقق له أهدافه ، ويوصله إلى غاياته.

٣ ـ طول الطريق ، وكثرة التكاليف :

أو على الأقل تؤدى فوضى الوقت إلى طول الطريق، وكثرة التكاليف نظراً لتربص الباطل بالعمل الإسلامى، وعدم انتفاع هذا العمل بوقته فى إبطال هذا التربص، وتفادى شرره وأخطاره .

ولقد أشار الإمام المودودى وهو يخاطب الدعاة إلى هذا الأثر والذى قبله بقوله :

« اسمحوا لى أن أقول لكم : إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التى تجدونها فى قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم ، فإنكم لا بد أن تبوءوا بالفشل الذريع ، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تفكر فى القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية ، قبل أن تهتموا بالخطوات الكبيرة » (١) .

خامساً: علاج فوضى الوقت :

وما دمنا قد وقفنا على الأسباب أو البواعث التى أدت إلى فوضى الوقت، فإنه من السهل معرفة طريق العلاج ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ اليقين بأن الوقت هو رأس المال على ظهر هذه الأرض :

بأن يضع المسلم فى حسابه أن وقته هو رأس ماله على ظهر هذه الأرض ، والتفريط فيه ، أو عدم شغله بالنافع المفيد يعنى خسارة الدنيا والآخرة أو خسارة الآخرة على الأقل، وتلك هى الخسارة التى لا خسارة بعدها ، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر] ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل المسلم على تنظيم وقته، وملئه بما يعود عليه وعلى أمته بالخير العظيم .

٢ ـ اليقين بضخامة المسئولية غداً :

وأن يوقن المسلم بضخامة المسئولية غدًا بين يدى الله ـ عز وجل ـ إذ الوقت من بين ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة كما جاء فى الحديث: « لا تزول قدما عبد يوم القيامة

---

(١) انظر : مجلة الأمل التى تصدرها رابطة الشباب المسلم العربى فى أمريكا الشمالية ، عدد رمضان رقم ١٣١ ص ١١ ـ ١٥ نقلا عن : تذكرة دعاة الإسلام للمودودى ص ٥٧ ـ ٥٩ .

حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيما أفناه، وعن عمره فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه »[1] .

٣ ـ دوام النظر فى سيرة السلف :

وأن يديم المسلم النظر فى سيرة السلف ، وكيف كان حرصهم على الوقت بل واستغلاله استغلالا صحيحًا حقيقيا ، ولاسيما العلماء والدعاة والمجاهدون ، فقد كان هؤلاء يستغلون أوقاتهم استغلالا يدور بين القراءة ، والسماع ، والإسماع ، وقراءة القرآن ، والذكر ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار ، والصلوات ، وسائر أعمال البر والخيرات .

هذا أبو بكر الأنبارى يدخل عليه الطبيب في مرض موته، فينظر إلى مائه ـ يعنى بوله ـ ويقول له : قد كنت تفعل شيئًا لا يفعله أحد ، ثم يخرج فيقول : ما يجىء منه شىء. ويعود إليه ويسأله: ما الذى كنت تفعل ؟ فيقول له أبو بكر ـ رحمه الله ـ : كنت أعيد فى كل أسبوع عشرة آلاف ورقة[2] .

وها هى امرأة الحافظ محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهرى ، المحدث المشهور المتوفى ١٢٤ هـ، تشكو من تعلق زوجها بالكتب، وطول معايشته لها فتقول: والله ، إن هذه الكتب أشدُّ علىَّ من ثلاث ضرائر[3] .

وهذا الشيخ عبد العظيم المنذرى (صاحب كتاب الترغيب والترهيب المتوفى ٦٥٦ هـ) يحكى عن إسحاق بن إبراهيم بن عيسى المرادى، فيقول: ولم أر، ولم أسمع أحداً أكثر اجتهاداً منه فى الاشتغال ، كان دائم الاشتغال فى الليل والنهار ، وقد جاورته فى المدرسة ـ يعنى القاهرة ـ بيتى فوق بيته ، اثنتى عشرة سنة ، فلم أستيقظ فى ليلة من الليالى ، فى ساعة من ساعات الليل إلا وجدت ضوء السراج فى بيته ، وهو مشتغل بالعلم، وحتى كان فى حال الأكل، والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها[4] .

---

(١) الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير ١١/١٠٢ رقم (١١١٧٧)، والطبرانى فى : الأوسط ٩/١٥٥ رقم (٩٤٠٦)، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب البعث : باب ما جاء فى الحساب ١٠/٣٤٩ وعقب عليه بقوله: « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه حسين بن الحسن الأشقر وهو ضعيف جدًا وقد وثقه ابن حبان مع أنه يشتم السلف » ، كلهم من حديث ابن عباس ﷺ به .

(٢) انظر : الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع ١/٤٥ نقلا عن وصايا ونصائح لطالب العلم .

(٣) انظر : شذرات الذهب لابن العماد ١/٦٣ .

(٤) انظر : الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع ١/٥١، ٥٢ نقلا عن بستان العارفين .

وهذا العلامة ابن الجوزى (المتوفى ٥٩٧ هـ) يقول عن نفسه : وإنى أخبر عن حالى، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره ، فكأنى وقعت على كنز ، فلو قلت : إنى قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر ، وأنا بعد فى طلب الكتب ، فاستفدت بالنظر فيها ملاحظة سير القوم، قدر هممهم، وحفظهم، وعاداتهم، وغرائب لا يعرفها من لم يطالع [١] .

وهذا الحافظ ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ يقول : وأعرف من أصابه مرض من صداع، وحمًّى، وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه ، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك ، فقال : إن هذا لا يحلُّ لك ، فإنك تعين على نفسك ، وتكون سببًا لفوات مطلوبك [٢] .

وهذا عبد الرحمن بن تيمية ينقل عن أبيه ، عن جده ، فيقول : كان الجد إذا دخل الخلاء ، يقول لى : اقرأ فى هذا الكتاب ، وارفع صوتك حتى أسمع[٣] .

وهذا أبو عثمان أحد شيوخ البخارى يقول : ما سألنى أحد حاجة إلا قمت له بنفسى ، فإن تمَّ ، وإلا قمت له بمالى ، فإن تمَّ ، وإلا استعنت له بالإخوان ، فإن تمَّ وإلا استعنت له بالسلطان [٤] .

وهذا الليث بن سعد ـ رحمه الله ـ كان يجلس للمسائل ، يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد من الناس فيرده، كثرت حاجته، أو صغرت[٥].

وهذا الخطيب البغدادى يقول : سمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوى ، يحكى أن محمد بن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠ هـ ـ عن ثلاث وثمانين سنة ـ مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة [٦] .

وهذا الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ يقول عن نفسه : لقد استدعيت فى دار الشبان حتى أقول رأيى فى كتاب : (مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين) بعد خمسة أيام، ولما لم أكن أستطع التحلل من مواعيد كنت مرتبطًا بها فى خلال الأيام الخمسة، فلم أجد وقتًا أخصصه لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبى الترام فى الصباح إلى

---

(١) انظر : الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع ١/ ٥٢ نقلا عن الآداب الشرعية للمقدسى ٢/ ٢٦٧.

(٢، ٣) انظر : روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ٧٠ .

(٤) انظر : الوقت عمار أو دمار ١/ ٣٢ نقلا عن الآداب الشرعية للمقدسى .

(٥) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ١٣١ .

(٦) انظر: تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣، وعنه نقل : خلدون الأحدب فى : سوانح وتأملات ص ٣٠.

مدرستى، وفترة رجوعى منها فى الترام ، قال : فقرأت الكتاب ـ لأنه لم يكن كبيرًا ـ وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة ، ولم تمض الأيام الخمسة ، حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله (١) .

وهذا المرحوم عمر التلمسانى ، يقول عن نفسه : أقبلت على القراءة الدينية ، فقرأت تفسير الزمخشرى ، وابن كثير ، والقرطبى ، وسيرة ابن هشام ، وغيرها من السير . . . قرأت أسد الغابة ، والطبقات الكبرى ، ونهج البلاغة ، والأمالى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والمخصص لابن سيده ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم من جلده ، إلى جلده (٢) .

وهذا الأستاذ على طنطاوى يقول : لو أحصيت معدل الساعات التى كنت أطالع فيها لزادت على عشر فى اليوم ، لأننى منذ الصغر شبه معتزل ، بعيد عن المجتمع ، فلو جعلت لكل ساعة عشرين صفحة ، أقرأ من الكتب الدسمة نصفها ، ومن الكتب السهلة نصفها ، لكان لى فى كل يوم مائتا صفحة فى اليوم .

فاحسبوا كم صفحة قرأت من يوم تعلمت النظر فى الكتب ، وامتدت يدى إليها سبعين سنة، فى كل سنة اثنا عشر شهرًا، فى كل شهر ثلاثون يومًا، فى كل يوم مائة صفحة ، فإن هالكم الرقم ، فاحسموا منه نصفه فكم يبقى ؟! كنت ولا أزال أقرأ فى كل علم : فى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الفقه ، وفى التاريخ ، وفى الأدب : الأدب العربى ، والأدب الفرنسى . وفى العلوم على تنوعها وتعددها بدأت اليوم أقرأ سنة ١٣٣٥هـ ، ونحن اليوم فى سنة ١٤٠٥هـ وأنا أقرأ أكثر ساعات ليلى ونهارى ، فلو قدرت لكل يوم مائة صفحة ـ وأنا أقرأ أضعافها ـ لكان مجموع ما قرأت مليونين ونصف من الصفحات ، وكتبت ما لم يكتب أكثر منه مما أعرف إلا قليلا ، كالأمير شكيب أرسلان ، والأستاذ العقاد ، وأمثالهما ، وإن كان أمثالهما قلة من أصحاب القلم الفيَّاض ، والذى نشر مما كتبتُ يزيد على ثلاث عشرة ألف صفحة ، وما ضاع منى مثله ، أو أكثر منه (٣) .

وهذا الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء بالجزائر يصفه أحد الكتاب بقوله : ولقد تميَّز ابن باديس فى حياته كلها باحترام الوقت والنظام فكان ـ رحمه الله ـ

(١) انظر : الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ١/ ٢٤٠ .

(٢) انظر : الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع ١/ ٤٩ .

(٣) انظر : الوقت عمار أو دمار لجاسم المطوع ١/ ٥٠ ، ٥١ نقلا عن : سوانح وتأملات فى قيمة الزمن ص ٣٤ .

رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته ، فكان برنامجه اليومى ، مما يصعب على الكثير أن يقوم به، حيث يبدأ نهاره من قبيل صلاة الفجر بالمرور على مساكن طلاب الجامع الأخضر ليتأكد من استيقاظهم لأداء صلاة الفجر ، وبعد الصلاة يشرع فى التدريس حتى الشروق ، فيتناول إفطاره ، ويعود إلى التدريس حتى صلاة الظهر ، ثم يعاود التدريس من صلاة العصر حتى ما بعد صلاة العشاء ، وقد بلغت الدروس التى يلقيها فى اليوم الواحد خمسة عشر درسًا (١) .

إن الوقوف على أمثال هذه السير وغيرها يجعل المسلم يراجع نفسه بالنسبة لوقته ، ويجتهد أن يملأه بالنافع المفيد اقتداءً وتأسيًا ، أو على الأقل محاكاةً ، وتشبهًا بذوى الفضل ، والحكمة .

٤ ـ الدعاء والضراعة إلى الله بالبركة فى الوقت :

وأن يلزم المسلم الدعاء والضراعة إلى الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض أن يبارك له فى وقته ، وأن يوفقه لله بالنافع المفيد ، إذ الدعاء سهام نافذة، ولاسيما إذا وقع فى الأوقات التى ترجى فيها الإجابة كوقت السحر وفى السفر ، وعند الاضطرار ، ونحوها ، ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة والأسوة ، إذ كان من دعائه قوله : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » (٢) .

٥ ـ الزهد فى الدنيا مع الرغبة فى الآخرة :

وأن يزهد المسلم فى الدنيا بأن تكون فى يده لا فى قلبه ، وأن تكون من حلال، وأن يؤدى حق الله فيها ، بل أن يتنازل عنها جميعًا لله إن اقتضت الحال ذلك ، مع الرغبة القوية فى الآخرة ، فإن ذلك من شأنه أن يحمله على التشمير الدائم ، والحرص ألا تمر عليه لحظة بغير طاعة تقربه إلى الله ـ تبارك وتعالى .

---

(١) انظر : عبد الحميد بن باديس للأستاذ مازن صلاح مطبقانى ص ٤٢ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الجهاد : باب فى الابتكار فى السفر ٣/ ٣٥ رقم (٢٦٠٦) من حديث صخر بن وداعة الغامدى ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب التجارات: باب ما يرجى من البركة ٢/ ٧٥٢ رقم (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدى ، ورقم (٢٢٣٧) من حديث أبى هريرة ، ورقم (٢٢٣٨) من حديث ابن عمر ، وإسناده ـ كما فى مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه للبوصيرى ـ ضعيف ، لضعف عبد الرحمن بن أبى بكر الجدعانى، والدارمى فى : السنن : كتاب السير : باب بارك لأمتى فى بكورها ٢/ ٦٦١ رقم (٢٤٣٥) من حديث صخر الغامدى ، وأحمد فى : المسند ١/ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦ من حديث على بن أبى طالب ٣/ ٤١٦، ٤١٧، ٤٣٢، ٤/ ٣٨٤، ٣٩٠، ٣٩١ من حديث صخر الغامدى مرفوعًا .

قيل للإمام الزهرى مرةً : ما الزهد ؟ قال : ليس تشعيث اللمة ، ولا قشف الهيئة ـ أى ليس شعث الرأس ، ولا اغبرار الهيئة ـ ولكنه صرف النفس عن الشهوة [(١)] .

وقال أحد الزهاد : ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر ، أو صلاة ، أو قراءة ، أو إحسان ، فقال له رجل : إنى أكثر البكاء ، فقال : إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مدل ـ أى منبسط بعملك ـ وإن المدلَّ لا يصعد عمله فوق رأسه .

فقال: أوصنى، فقال: دع الدنيا لأهلها. وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيبًا، وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شىء لم تكسره، ولم تخدشه[(٢)] .

٦ ـ التخلص من الصحبة السيئة مع الارتماء فى أحضان الصحبة الطيبة :

وأن يحرص المسلم على تجنب الصحبة السيئة مع الإلقاء بالنفس بين أحضان الصحبة الطيبة ، فإن هذا من شأنه أن يحفظ على المسلم أوقاته ، وأن تنفق فى النافع المفيد ، وفى الخبر :

« من يرد الله به خيرًا يهده خليلاً صالحًا، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه»[(٣)]، «ألا أنبئكم بخير الناس ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من تذكركم رؤيته بالله عز وجل » [(٤)] ، « اصحب من يدلك على الله حاله ، ومن يعرفك بالله مقاله » [(٥)] .

٧ ـ تنظيم الأسرة للوقت مع شغله بالنافع المفيد :

وأن تحرص الأسرة على تنظيم أوقات المنتمين إليها مع شغل هذه الأوقات بالنافع المفيد ، فوقت للراحة والنوم ، ووقت للطعام والشراب ، ووقت لتحسين وتقوية الصلة بالله عز وجل ، ووقت للترفيه عن النفس ، ووقت لرعاية الآداب الاجتماعية ، وهكذا دواليك ، فإن هذا التنظيم مع الشغل من شأنه أن يبنى فى النفس الحرص على الوقت، وعدم تضييع لحظة منه بغير ثمرة أو عمل .

---

(١) انظر : تذكرة الدعاة للأستاذ البهى الخولى ص ١٧٤ ، وعنه نقل الشيخ جاسم المطوع فى : الوقت عمار أو دمار ١/ ٧٧ .

(٢) انظر : الفوائد لابن القيم ص ١١٨ ، وعنه نقل الشيخ جاسم المطوع فى : الوقت عمار أو دمار ١/ ٧٦، ٧٧ .

(٣) الأثر سبق تخريجه فى الجزء الأول ، آفة : « العزلة » .

(٤) الحديث أخرجه البيهقى فى : شعب الإيمان : باب فى مباعدة الكفار والمفسدين ٧/ ٥٧ رقم (٩٤٤٦) من حديث عبد الله بن عباس .

(٥) لم أهتد إلى تخريجه .

٨ ـ الحرص على المشورة وعدم الانفراد بالرأى :

وأن يحرص المسلم ألا يبرم أمرًا دون أخذ الرأى والمشورة ، فإن ذلك من شأنه أن يدل المسلم على النافع المفيد ، بل وعلى الأولويات والمهمات ، فلا تضيع منه لحظة بغير عمل نافع ، أو ثمرة حلوة .

٩ ـ معرفة المرء قدر نفسه :

وأن يكون المسلم عارفًا قدر نفسه ، مدركًا حدود جهده ، فلا يزعم لنفسه ما ليس من شأنها ، ولا يدخل فيما لا يجيد ، إذ أن هذا من شأنه أن ينظم الوقت ، وأن يشغله بالنافع المفيد الذى هو فى حدود الطاقة والوسع .

١٠ ـ الاحتراز من المعاصى مع الإكثار من الطاعات :

وأن يحترز المسلم من المعاصى والسيئات ، وإن وقع فى شىء منه فليبادر بالتوبة والإقلاع، مع الإكثار من الطاعات، فإن ذلك يكون سببًا فى بركة الوقت وسعة الرزق، مصداقا لقوله ﷺ : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، أو ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه » (١) .

١١ ـ احترام ذوى الأسوة والقدوة لأوقاتهم مع شغلها بالنافع المفيد :

وأن يحرص ذوو الأسوة والقدوة على تنظيم أوقاتهم، مع شغلها بالنافع المفيد، واضعين فى حسابهم أن الناس يصنعون كما يصنعون فى الغالب دون أن يعملوا فكرهم، ودون أن يسألوا : هل هذا موافق للهدى الربانى أو غير موافق . وأنهم إن أهملوا هذا الجانب فقد سنوا لغيرهم سنة سيئة عليهم وزرها ، ووزر العاملين بها إلى يوم القيامة ، وإن اهتموا بهذا الجانب فقد سنوا لغيرهم سنة حسنة لهم ثوابها ، وثواب العاملين بها إلى يوم القيامة .

١٢ ـ الخوف من الله مع عدم الركون إلى النعمة :

وأن يصحب المسلم معه فى سفره إلى ربِّه خلق الخوف منه وعدم أمن مكره أو عذابه،مع عدم الركون إلى النعمة، فإن ذلك إن توفر للمسلم صار سوطًا يلهب ظهره، ويحمله على تنظيم وقته، وشغله بالنافع المفيد، ويصدق ذلك ما أثر عن السلف.

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٨٥ .

وحسبنا هنا : ما جاء عن سيدنا عمر بن عبد العزيز ، إذ تقول عنه زوجه فاطمة بنت عبد الملك :

ما رأيت أحدًا أكثر صلاةً، ولا صيامًا منه، ولا أحدًا أشد فرقًا من ربه منه، كان يصلى العشاء ، ثم يجلس يبكى حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه ، فلا يزال يبكى حتى تغلبه عيناه ، ولقد كان معى فى الفراش ، فيذكر الشىء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء ، ويجلس يبكى ، فأطرح عليه اللحاف [١] .

وحسبنا هنا كذلك ما جاء عن الإمام أبى حنيفة - النعمان بن ثابت - إذ يقول عنه صاحبه يزيد بن الكميت :

كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى ، فقرأ بنا على بن الحسين المؤذن ليلة فى العشاء الآخرة سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَت ﴾ وأبو حنيفة خلفه ، فلما قضى الصلاة ، وخرج الناس ، نظرت إلى أبى حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس فقلت : أقوم لا يشتغل قلبه بى ، فلما خرجت تركت القنديل ، ولم يكن فيه إلا زيت قليل ، فجئت وقد طلع الفجر ، وهو قائم ، وقد أخذ بلحية نفسه ، وهو يقول : يا من يجزى بمثقال ذرة خير خيراً ، ويا من يجزى بمثقال ذرة شر شراً ، أجر النعمان عبدك من النار ، ومما يقرب منها من السوء ، وأدخله فى سعة رحمتك ، قال : فأذنت ، وإذا بالقنديل يزهر ، وهو قائم ، فلما دخلت قال لى : تريد أن تأخذ القنديل ؟ قلت : قد أذنت لصلاة الغداة ، فقال : اكتم ما رأيت ، وركع ركعتين ، وجلس حتى أقمت الصلاة ، وصلى معنا [٢] .

١٣ - الحرص على التنظيم والتخطيط لأى عمل من الأعمال :

وأن يحرص المسلم ألا يدخل فى أى عمل من الأعمال وإن كان بسيطًا إلا بالتنظيم والتخطيط ، فإن هذا من شأنه استغلال الوقت أحسن استغلال مع توفير الجهد ، والتقليل من التكاليف والتضحيات ، وسيرة النبى ﷺ غاصة بالنماذج الناطقة بحرصه ﷺ على التنظيم والتخطيط ولو لأبسط الأعمال .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٤/٩، وعنه نقل الشيخ جاسم المطوع فى : الوقت عمار أو دمار ٨٠/١ .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ٤١٢/٥ وعنه نقل الشيخ جاسم المطوع فى : الوقت عمار أو دمار ٨٠/١، ٨١ .

فمثلا ما كان ينام فى سفر أو حضر إلا ويكلف من يكلأ الوقت، ويراقبه، وما كان يأكل أو يشرب إلا بنظام أو ترتيب خاص ، وما كان يغزو أو يسالم إلا وفق تنظيم وتخطيط ، وهكذا سائر حياته وأعماله ﷺ .

١٤ ـ البصيرة بواقع الأعداء ، والعواقب المترتبة على فوضى الوقت:

وأن يكون المسلم بصيراً بواقع الأعداء ، وأنهم لا يضيعون لحظة بغير عمل ، وأن إهدار وقته أو عدم استغلاله الاستغلال الصحيح يعنى تمكن هؤلاء الأعداء من رقاب الأمَّة ، فضلا عن غضب الله وسخطه فى الدنيا والآخرة على النحو الذى قدمنا .

١٥ ـ الحرص على لزوم الجماعة ، ونبذ العزلة أو التفرد :

وأن يظل المسلم ملازمًا الجماعة نابذًا وراء ظهره العزلة أو التفرد ، فإن الجماعة إن كانت مدركة لمهمتها، بصيرة بأمرها، نهضت بواجبها نحو هذا المسلم ، فتنظم له وقته، وتملؤه بالنافع المفيد ، بل وتتابعه وتحاسبه على التفريط أو التضييع ، مقتفية فى ذلك هدى رسول الله ﷺ .

إذ كان من هديه ﷺ أن يقوم من الليل ثلثه ، ثم ينام سدسه ، ثم يصلى الصبح ، ويظل يذكر ربه حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح ، فيصلى الضحى ، ويتناول طعامه، وينصرف إلى واجباته نحو المسلمين ، ومنهم أهله وأحفاده ، ثم يصلى الظهر، وينام القيلولة ، ويصلى العصر ويظل فى حاجة المسلمين إلى العشاء، وفى هذه الأثناء يتناول عشاءه إن كانت به حاجة إلى هذا العشاء ، ثم يصلى العشاء ، وينام مبكرًا ، أو يسمر بعض الوقت فى مصالح المسلمين إن قصر النهار عن تغطية هذه المصالح ، ثم ينام ، ولم يكن ينسى حق بدنه من الرياضة كالمشى، أو العدو، أو المصارعة ، أو ركوب الخيل والرمى ، فتحاول الجماعة تطبيق هذا الهدى مع كل مسلم ، وتتولى متابعته ومحاسبته ، فتحميه بذلك من التفريط والتضييع .

١٦ ـ التأكيد على الموعد بالنسبة للزائرين مع لباقة التخلص من الفضوليين أو شغلهم بالنافع المفيد :

ولا بد من أن يعود المسلم الزائرين على ألا تتم زيارة بغير موعد حفاظًا على الوقت،وتوفيرًا للجهد، وأن يكون لبقًا فى التخلص من الفضوليين، كأن يصنع معهم ما كان يصنعه بعض السلف إذ كان يأمر جاريته أن تدوِّر دائرةً، وأن تضع أصبعها فى وسط هذه الدائرة ، وتقول : سيدى ليس هنا ، أى ليس فى داخل الدائرة ، وهى

صادقة ، أو ما يصنعه أحد العلماء ، الدعاة المعاصرين بأن يضع عمامته وجبته على مشجب خلف الباب ، فإن جاء فضولى ورمقه من ثقب بالباب، لبس عمامته ، وجبته إيهامًا له بأنه خارج لواجب أو لمهمة ، وفعلا يعتذر له ، ويخرج قليلا ، ويعود ، فإن أبى هذا الفضولى إلا الدخول عمل على شغله بالنافع المفيد ، وعلى نحو ما كان يصنع ابن الجوزى ، إذ كان يقصر الكلام معهم استعجالا للفراق ، أو يعدُّ أعمالا تعنيه ، ولا يمنع إنجازها من المحادثة والكلام مثل تقطيع الأوراق التى يكتب فيها وبرى الأقلام ، وحزم الدفاتر ونحوه ، ودونك تجربته فى ذلك بنصها ، إذ يقول :

« لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معى فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ويسمون ذلك التردد خدمة،ويطلبون الجلوس،ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعنى ، ويتخلله غيبة ، وهذا شىء يفعله فى زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور ، وتشوق إليه ، واستوحش من الوحدة ، خصوصًا فى أيام التهانى ، والأعياد ، فتراهم يمشى بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان ، فلما رأيت أن الزمان أشرف شىء ، والواجب انتهازه بفعل الخير ، كرهت ذلك ، وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع اللقاء جهدى ، فإذا غلبت قصرت فى الكلام لأتعجل الفراق .

ثم أعددت أعمالا لا تمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضى الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد ـ أى الورق ـ وبرى الأقلام ، وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شىء من وقتى» [١] .

---

(١) انظر : سوانح وتأملات فى قيمة الزمن ص ٣٦، ٣٧ نقلا عن صيد الخاطر .

الآفة التاسعة عشرة
التسويف

والآفة التاسعة عشرة التى تصيب نفرًا من العاملين ، بل لا يكاد يسلم منها إلا أصحاب الهمم العالية، والإرادات القوية والعزائم الصادقة، إنما هى: « التسويف » .

وحتى يتخلص منها من أصيبوا بها ، ويتقيها، ويتجنبها من سلمهم الله ـ عز وجل ـ منها ، فإننا سنعرض لها بإذن الله من الجوانب التالية :

أولا : تعريف التسويف :

لغة :التسويف لغة يطلق على معان عدة ، نذكر منها :

أ ـ التأخير والمماطلة ، يقال : سوف يسوف تسويفًا أخر ، وماطل ، يؤخر ، ويماطل ، تأخيراً ، ومماطلة ، وسوف حرف يدخل على الفعل المضارع ، فيخصصه للاستقبال ودلالته التأخير ، يقال : سوف أسافر .

ب ـ والتهويل ، يقال : سوَّف الأمر تسويفًا تعنى هوَّله وضخم من شأنه، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام] ، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر] .

جـ ـ والوعد ، يقال :سوَّف بالحسنة تسويفًا يعنى وعد بها مستقبلا ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء] ، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء] .

د ـ والوعيد ، يقال : سوَّفَ بالسيئة تسويفًا ، يعنى توعَّد بها مستقبلا ، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الكهف] ، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم] [1] .

---

(١) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٥١٦ ، والمعجم الوجيز ص ٣٢٩ ، وبصائر ذوى التمييز ٣/ ٣٧٨ .

وعندى أنه لا تعارض بين هذه المعانى جميعًا ، إذ هى وعدًا ، أو وعيدًا أو تهويلا إنما ترد إلى معنى التأخير أو التأجيل والمماطلة .

اصطلاحًا : أما معنى التسويف اصطلاحًا ، فهو المماطلة أو التأجيل على سبيل التهويل ، والتضخيم لتنفيذ المطلوب وعدًا كان أو وعيدًا .

ثانيًا : وضع التسويف فى ميزان الإسلام مع بعض ما يدل عليه من سمات ومظاهر:

والتسويف بهذا المعنى ليس مذمومًا كله وليس محمودًا كله، بل منه ما هو مذموم، ومنه ما هو محمود .

فأما المذموم : فهو التأجيل أو التأخير لتنفيذ المطلوب بغير مبرر أو مقتضى ، وهو الذى نبه إليه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون] ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون] ، ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾ [الفجر] ، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾ [الزمر] .

كما نبه إليه النبى ﷺ بقوله : « بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا : هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا ، أو هرمًا مفندًا ، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشرُّ غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر »[(١)] ، « اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »[(٢)] .

وأما المحمود : فهو التهويل أو الوعد والوعيد ، دفعًا لفعل خير ، أو ترك شرٍّ، أو ترقبًا وانتظارًا للحظة مناسبة، وفرصة مواتية ، ويدلنا على حسن هذا النوع من التسويف وروده فى كلام الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه الكريم ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ [النساء : ٣٠] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا

سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ [النساء : ٥٦] ، ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء] ، ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [التكاثر] .

كما يدلنا على حسن هذا النوع من التسويف ، وروده على لسان بعض الأنبياء كما حكى القرآن الكريم :

فقد طلب أولاد يعقوب من أبيهم أن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم ربهم ، بعد أن أدركوا خطأهم الذى وقعوا فيه بشأن يوسف عليه السلام قائلين : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف] ، فردَّ عليهم قائلا : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف].

ونصح نوح قومه ، فلما أعرضوا وكذبوا ، توعدَّهم قائلا : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود : ٣٩] ، ومثل ذلك صنع شعيب عليه السلام ، فقال : ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ [هود : ٩٣] .

وأمَّا السمات أو المظاهر الدالة على التسويف فكثيرة نذكر منها :

١ ـ البقاء على المعصية مع الوعد بالتوبة بأن يقول العاصى: سوف أتوب، أو سأتوب ، أو غدًا أتوب ، وهكذا .

٢ ـ تأجيل عمل اليوم إلى الغد بغير مبرر، ولا مقتضى، بأن يقول المسلم : غدًا أفعل كذا ، أو أنفذ كذا مما يلزم أن يكون فعله أو تنفيذه توًا ، وحالا ، ولا يفعل ، ولا ينفذ. ومثاله من الواقع أن يكلف محاضر أو مربٍّ بالتحضير لموضوع ما قبله بوقت كاف ، ويظل يؤخره ويؤخره حتى يدخل عليه الوقت ، وما صنع شيئًا ، أو صنع شيئًا ولكنه لا يذكر . . . وهكذا .

ثالثا : أسباب التسويف :

والأسباب أو البواعث التى توقع فى التسويف كثيرة نذكر منها :

١ ـ الأسرة التى تبنى حياتها على التسويف أو تدليل الأولاد :

إذ قد ينشأ المسلم فى أسرة بنت حياتها على التسويف ، فالأب ، والأم ، والأجداد ، والإخوة الكبار غارقون من مفرق رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم فى

الأخطاء، ويعدون بالتغيير ولا تغيير، ولهم أماني طويلة ، وعريضة ، ولا تنفذ ولا تطبق ، وقد تبنى الأسرة حياتها على تدليل الأولاد القائم على الحنو والشفقة المجاوزين للحد ، فيندفع الابن إلى أداء المعروف محاكاة للكبار، فتمنعه الأسرة من أداء هذا المعروف بحجة صغره وعدم إطاقته ، وتعده بإفساح المجال له فى المستقبل، ويتكرر ذلك فى كل مرة ، حتى يرث هذا الابن خلق التسويف .

ولعلنا فى ضوء هذا السبب نفهم السر فى تأكيده ﷺ على ضرورة الوفاء للأولاد إذا تم وعدهم بشيء ، وإلا كان ذلك تعويداً للأولاد على الكذب ، نظراً لأنه تسويف والتسويف أوسع أبواب الكذب ، إذ يقول عبد الله بن عامر: دعتنى أمى يومًا ، ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: « وما أردت أن تعطيه ؟ » ، قالت : أعطيه تمرًا ، فقال لها رسول الله ﷺ: « أما إنك لو لم تعطيه شيئًا ، كتبت عليك كذبة » [١] .

كما نفهم فى ضوء هذا السبب أيضًا حزم الأنصار مع أولادهم دفعًا لهم إلى المبادرة بفعل المعروف، وقطع الطريق على التسويف وخصوصًا فى تعويدهم على الصوم منذ نعومة أظفارهم ، إذ تقول الربيع بنت معوذ : أرسل النبى ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا فليصم»، قالت: فكنا نصومه بعد ، ونصوّم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن [٢] ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار [٣] ، وفى رواية : فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتمُّوا صومهم[٤] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى التشديد فى الكذب ٢٩٨/٤ رقم (٤٩٩١) قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن ابن عجلان ، أن رجلا من موالى عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوى حدثه ، عن عبد الله بن عامر ، وساق الحديث ، وأحمد فى : المسند ٤٤٧/٣ بنفس الإسناد ، ومولى عبد الله مجهول .

(٢) العهن هنا : هو الصوف الملون ، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٤٢/٣ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب صوم الصبيان ٤٨/٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب من أكل فى عاشوراء فليكف بقية يومه ٧٩٨/٢، ٧٩٩ رقم (١١٣٦) كلاهما من حديث الربيع بنت معوّذ ﷺ مرفوعًا به وبنحوه.

(٤) هذه الرواية أخرجها مسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب من أكل فى عاشوراء فليكف بقية يومه ٩٩٧/٢ رقم (١١٣٦) من حديث خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوّذ بهذا اللفظ .

وعن رزينة أن النبى ﷺ كان يأمر مرضعاته فى عاشوراء ، ورضعاء فاطمة ، فيتفل فى أفواههم ويأمر أمهاتهم ألا يرضعن إلى الليل(١) .

٢ ـ صحبة الكسالى والمسوِّفين :

وقد تكون صحبة الكسالى ، والمسوِّفين هى السبب فى التسويف ، ولاسيما إذا كانت هذه الصحبة قبل إيجاد الحصانة التى تحول دون انتقال عدوى الكسل والتسويف .

ولعل هذا هو السر فى تأكيد الإسلام على الصحبة الطيبة، ونبذ ما عداها، إذ جاء فى الحديث قوله ﷺ: « لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى »(٢) .

٣ ـ ضعف الإرادة أو الكسل والتراخى مع النفس :

وقد يكون ضعف الإرادة، وفتور العزيمة، ونزول الهمة، أو الكسل والتراخى مع النفس سببًا من الأسباب التى تؤدى إلى التسويف، فمثلا بينما الواجب ينادى المسلم ويلح عليه إذ يدعوه ضعف الإرادة وفتور العزيمة ، ونزول الهمة ، أو الكسل والتراخى مع النفس إلى القعود عن أداء هذا الواجب بحجة أن فى الغد فسحة أو فرصة .

ولعلنا فى ضوء هذا السبب نفهم استعاذته ﷺ الدائمة من العجز والكسل، إذ كان كثيراً ما يدعو فى الصباح والمساء بهذا الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن ، والهرم . . . »(٣) ، وفى رواية ثانية : « اللهم إنى أعوذ بك من

---

(١) الحديث أورده الحافظ ابن حجر فى : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤/٢٠١، وعزاه إلى ابن خزيمة فى : صحيحه ، قائلا : « وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه ، وتوقف فى صحته ». ثم عقب عليه بقوله : « إسناده لا بأس به » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب من يؤمر أن يجالس ٤/٢٥٩، رقم (٤٨٣٢)، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى صحبة المؤمن ٤/٥١٩ رقم (٢٣٩٥) كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعًا بهذا اللفظ ، وعقب الترمذى عليه بقوله : « هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب ما يتعوذ من الجبن ٤/٢٨، وكتاب التفسير: سورة النحل : باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ ٦/١٠٣، وكتاب الدعوات : باب التعوذ من فتنة المحيا والممات ٨/٩٨، وباب التعوذ من أرذل العمر ٨/٩٩، من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه، وباب التعوذ من المأثم والمغرم ٨/٩٨ من حديث عائشة مرفوعًا بنحوه، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : باب التعوذ من العجز والكسل وغيره ٤/٢٠٧٩ ، ٢٠٨٠ رقم (٢٧٠٦) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا ، وباب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل ٤/٢٠٨٨ رقم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم مرفوعًا بنحوه ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فى الاستعاذة ٢/ ٩٠ رقم (١٥٤٠) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا به وبنحوه، والترمذى فى: السنن: كتاب الدعوات: باب منه ٥/٤٨٦ رقم (٣٤٨٤) من حديث عمرو بن =

الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال »[1] ، وفى رواية ثالثة: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال »[2] .

٤ ـ أمن مكر الله :

وقد يكون أمن مكر الله سبباً من الأسباب التى توقع فى التسويف ، إذ الإنسان مجبول على المبادرة والإسراع بأداء ما يطلب منه عندما يخاف ، وعلى التوانى والتفريط إذا أمن ، ولقد أشار رب العزة إلى هذا السبب عند حديثه عن الكفار ومضيهم فى كفرهم وباطلهم ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف] ، ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ [الملك] ، ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ

= أبى عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك مرفوعًا ، وعقب عليه بقوله: « هذا حديث غريب من هذا الوجه، من حديث عمرو بن أبى عمرو » ، ورقم (٣٤٨٥) من حديث أنس أيضًا ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الاستعاذة : باب الاستعاذة من البخل، وباب الاستعاذة من الهمّ، وباب الاستعاذة من الحزن، وباب الاستعاذة من الكسل، وباب الاستعاذة من العجز ٤/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠ رقم (٧٨٨١، ٧٨٨٤ ـ ٧٨٨٨، ٧٨٩٠، ٧٨٩٢، ٧٨٩٤) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا به، وبنحوه، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الدعاء: باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ ٢/ ١٢٦٢ رقم (٣٨٣٨) من حديث عائشة مرفوعًا بنحوه، وأحمد فى: المسند ٣/ ١١٣، ١١٧، ١٢٢، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٦٤، من حديث أنس بن مالك مرفوعًا به، وبنحوه ٤/ ٣٧١ من حديث زيد بن أرقم مرفوعًا بنحوه .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال ٨/ ٩٦، ٩٧ من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بهذا اللفظ ، وباب الاستعاذة من الجبن والكسل ٨/ ٩٨ من حديث عائشة مرفوعًا ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فى الاستعاذة ٢/ ٩٠ رقم (١٥٤١)، وكتاب الحروف والقراءات : باب منه ٤/ ٣١ رقم (٣٩٧٢) من حديث أنس بلفظه ، وبنحوه ، مطولا ، ومختصراً ، والترمذى فى : السنن : كتاب الدعوات : باب منه ٥/ ٤٨٦ رقم (٣٤٨٤)، وقد تقدمت الإشارة إليه فى الحديث الذى قبله ، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الاستعاذة : باب الاستعاذة من الحزن ٤/ ٤٤٩ رقم (٧٨٩٠) من حديث أنس مرفوعًا به ، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٥٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠ من حديث أنس بن مالك مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فى الاستعاذة ٢/ ٩٣ رقم (١٥٥٥) من حديث أبى سعيد الخدرى ، عن أبى أمامة ـ رجل من الأنصار ـ فى قصة طويلة مشهورة أن النبى ﷺ قال له : « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم . . . » الحديث ، إلا أن فى إسناده غسان بن عوف وهو بصرى وقد ضعف .

غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾ [يوسف]، ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء].

٥ ـ طول الأمل مع نسيان الموت والدار الآخرة :

وقد يكون طول الأمل مع نسيان الموت والدار الآخرة من الأسباب التى تؤدى إلى التسويف .

يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى تصوير هذا السبب : « اعلم أن من له أخوان غائبان، وينتظر قدوم أحدهما فى غد ، وينتظر الآخر بعد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غدًا ، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار ، فمن انتظر مجىء الموت بعد سنة ، اشتغل بالمدة ، ونسى ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم ، وهو منتظر للسنة بكمالها ، لا ينقص منها اليوم الذى مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً ، فإنه أبدًا يرى لنفسه متسعًا فى تلك السنة ، فيؤخر العمل »[1].

ويقول الحافظ ابن الجوزى فى تصوير نفس السبب : « يجب على من لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا ، ولا يغتر بالشباب ، والصحة ، فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشبان ، ولهذا يندر من يكبر ، وقد أنشدوا :

يُعَمَّر واحد ، فَيَغُرُّ قومًا   ويُنْسَى من يموت من الشباب

ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه ، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلا ، وإنما يقدم المعاصى ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، وتبادر الشهوات ، وتنسى الإنابة لطول الأمل »[2] .

ولعل هذا السبب يفسر لنا تحذيره ﷺ من طول الأمل ، والركون إلى الدنيا ، والغفلة عن الآخرة ، فقد خط ﷺ خطا مربعًا ، وخط خطا فى الوسط خارجًا منه ، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط ، وقال : «هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، أو قد أحاط به ، وهذا الذى هو خارج أمله،

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ٣٩١ ، وعنه نقل خلدون الأحدب فى : سوانح وتأملات فى قيمة الزمن ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) انظر : صيد الخاطر لابن الجوزى ص ١٧٨، ١٧٩ .

وهذه الخطط الصغار الأعراض[١] ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا »[٢] .

٦ ـ الاستهانة بالأمر مع اعتماد المرء على بعض ما وهبه الله من حول وقوة :

وقد تكون الاستهانة بالأمر مع اعتماد المرء على بعض ما وهبه الله من حول وقوة هى السبب فى التسويف .

ولعل خير ما يشرح هذا السبب ويجليه، قصة كعب بن مالك ﷺ وتخلفه عن غزوة تبوك ، إذ يحكى عن نفسه ، فيقول : « . . . كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ، ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ فى حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومغازاً ، وعدوا كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار، والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئًا ، فأقول فى نفسى أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى، حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئًا ، فقلت : أتجهز بعده بيوم ، أو يومين، ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئًا ثم غدوت ، ثم رجعت ، ولم أقض شيئًا ، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتنى فعلت ـ فلم يُقدر لى ذلك »[٣] .

---

(١) الأعراض: هى الآفات العارضة للإنسان، بحيث إذا سلم من آفة لم يسلم من الأخرى، وإن سلم من الجميع لم يسلم من مباغتة الأجل أو الموت ، انظر : فتح البارى لابن حجر ١١/ ٢٣٨.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب الأمل وطوله ٨/ ١١٠، ١١١، والترمذى فى : السنن : كتاب القيامة : باب منه ٤/٥٤٨ رقم (٢٤٥٤)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب الأمل والأجل ٢/ ١٤١٤ رقم (٤٢٣١)، والدارمى فى : السنن : كتاب الرقاق : باب فى الأمل والأجل ٢/ ٣٠٤ ، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٨٥ كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا ، واللفظ للبخارى ، وعقب الترمذى على روايته قائلا : « هذا حديث صحيح » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب من أراد غزوة فورّى بغيرها ٤/٥٨، ٥٩، وكتاب المغازى : باب غزوة تبوك ٥/٣ ـ ٩، ومسلم فى: الصحيح: كتاب التوبة : باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٤/ ٢١٢٠ ـ ٢١٢٩ رقم (٢٧٦٩)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد: باب المكر فى الحرب ٣/ ٤٣ رقم (٢٦٣٧)، والدارمى فى: السنن : كتاب السير : باب فى الحرب خدعة ٢/٦٦٧ رقم (٢٣٥٩) كلهم من حديث كعب بن مالك ﷺ مطولا ومختصراً .

٧ ـ التعويل على عفو الله ومغفرته مع نسيان شدة أخذه وعقابه :

وقد يكون التعويل على عفو الله ، ومغفرته ، مع نسيان شدة أخذه سبحانه ، وعقابه ، هو السبب فى الوقوع فى آفة التسويف ، وقد سبق الحافظ ابن الجوزى إلى هذا السبب ، فقال ـ بعد أن ذكر سببين للتسويف :

(... والثالث: رجاء الرحمة، فيرى العاصى يقول: ربى رحيم وينسى أنه شديد العقاب ، ولو علم أن رحمته ليست رقة ، إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفور، ولا آلم طفلا، وعقابه غير مأمون، فإنه شرع قطع اليد الشريفة بسرقة خمسة قراريط)[١] .

٨ ـ عدم المتابعة والمحاسبة من الآخرين :

وقد يكون السبب فى التسويف إنما هو عدم المتابعة والمحاسبة من الآخرين ، ذلك أن المسلمين بعضهم أولياء بعض ، ومقتضى هذه الولاية أن ينصح بعضهم بعضًا ، وأن يتابع بعضهم بعضًا بل أن يحاسب بعضهم بعضًا ، وهذا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المشار إليهما فى قوله سبحانه : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

وعندما تغيب هذه الولاية من حياة المسلمين، فلا تكون متابعة ، ولا محاسبة، يتجرأ الناس على الإهمال ويقع التسويف .

٩ ـ الانغماس فى المعاصى والسيئات :

وقد يكون الانغماس فى المعاصى والسيئات إنما هو السبب فى التسويف، ذلك أن كثرة المعاصى والسيئات ، تقسى القلب ، وتهون من شأن هذه المعاصى ، وتلك السيئات ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى الإهمال ، والوقوع فى التسويف .

ولقد ألمح إلى ذلك رسول الله ﷺ عندما قال : « ... وإن الفاجر يرى ذنوبه، كذباب مر على أنفه فقال به هكذا »[٢] .

١٠ ـ عدم تقدير العواقب والآثار المترتبة على التسويف :

وأخيراً ، قد يكون عدم تقدير العواقب والآثار المترتبة على التسويف إنما هو السبب

---

(١) انظر : صيد الخاطر لابن الجوزى ص ٣٠٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب التوبة ٨/ ٨٣ ، ٨٤ ، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٦٨ رقم (٢٤٩٧) ، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٨٣. كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه به .

فى الوقوع فى هذا التسويف ، ذلك أن الإنسان مجبول على تأخير الشيء ، والتوانى فيه ، إذا لم يقدر عواقبه الوخيمة ، وآثاره السيئة ، ولعل ذلك من بين الأسباب التى أدت إلى أن تكون أكثر أحكام ديننا الحنيف معللة مقرونة بحكمة التشريع .

رابعًا : آثار التسويف :

وللتسويف آثار ضارة ، وعواقب وخيمة ، سواء على العاملين ، أو على العمل الإسلامى ، ودونك طرفًا من هذه الآثار ، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

أما آثار التسويف على العاملين فكثيرة ، نذكر منها :

١ ـ الحسرة والندم فى وقت لا تنفع فيه الحسرة والندم :

ذلك أن المسوف يقضى دهره متعديًا على حدود الله ، مفرطًا فى جنبه حتى إذا جاءه الموت ، وكشف عنه الغطاء ، وعاين الأمور على حقيقتها يتحسر ويندم ، ويتمنى التأخير ، أو الرجعة إلى الدنيا ليتدارك أمره ، وأنى له ذلك ، وقد ضاعت منه الفرصة وفات الأوان ، يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] ، ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون] ، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الانعام] .

٢ ـ الحرمان من الأجر والثواب :

وهو كذلك بتعديه على حدود الله ، وتفريطه فى جنبه سبحانه حرم نفسه من كثير من الأجر والثواب ، وما قيمة الإنسان غدًا إذا لقى ربه بغير أجر ولا مثوبة ، إن قيمته إذن أن يكون من أصحاب الجحيم ، وتلك هى الخسارة الحقيقية ، وصدق الله الذى يقول : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر] ، ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشورى] .

٣ ـ تراكم الذنوب ، وصعوبة التوبة :

والتسويف يؤدى إلى تراكم الذنوب ، وإذا تراكمت الذنوب ثقلت على المرء ، وحار حيرةً شديدة ، بأيها يبدأ ، وبأيها ينتهى ، الأمر الذى يؤول به إلى استثقال التوبة وصعوبتها وواقع العصاة والمذنبين فى كل عصر ومصر خير شاهد على ذلك.

٤ ـ تراكم الأعمال ، وصعوبة الأداء :

وقد يؤدى التسويف إلى تراكم الأعمال ، وتزاحم الأعباء ، فلا يدرى المرء أيها يقدم ، وأيها يؤخر ، ومن ثم يتشتت فكره ويضيع سعيه ، ويصبح أمره فرطًا ، ولا يمكن أن ينجز واجبًا من الواجبات .

٥ ـ ضياع الهيبة ، وعدم القدرة على التأثير فى الناس :

وهو بتعديه على حدود الله ، وتفريطه فى جنبه سبحانه وعدم قيامه بواجبه نحو ربه ، ونحو نفسه ، وذويه ، ونحو أمته ، تضيع هيبته من صدور الناس ، ولا يتمكن من إتقان أى عمل من الأعمال ، الأمر الذى يفقده القدرة على التأثير فى الناس ، وإذا ضاعت هيبة المسلم من صدور الناس فقد القدرة على التأثير فيهم ، واستوى معهم ، وكيف يستوى معهم ، والمفروض أنه إمامهم ، ورائدهم كما قال سبحانه :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣]، ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار التسويف على العمل الإسلامى فكثيرة أيضًا ، ونذكر منها :

١ ـ تطويق العمل الإسلامى :

الأمر الذى يؤدى إلى طول الطريق وكثرة التكاليف ، ذلك أن التسويف ينتهى بأصحابه إلى ضياع الهيبة ، وفقدان عنصر التأثير فى الناس كما قدمنا، الأمر الذى يطمع العدو ، ويقلل من الأنصار ، وبذلك يسهل تطويق هذا العمل ، وتكثر التكاليف وتطول الطريق .

٢ ـ الحرمان من العون والمدد الإلهى :

وذلك أن من سنته سبحانه فى خلقه أنه لا يمنحهم عونه ولا مدده وهم مسوفون،

متعدون على حدود الله ، مفرطون فى جنبه سبحانه ، وإذا حرم العمل الإسلامى عونه ومدده سبحانه ، فعلى هذا العمل السلام ، ولن يصل إلى مبتغاه ، وإن تعلق بأسباب السماء .

خامسًا : علاج التسويف :

وما دمنا قد وقفنا على ماهية ومظاهر وأسباب وآثار التسويف ، فإنه يسهل علينا الآن أن نسعى نحو العلاج ، والوقاية ، بل أن نصف هذا العلاج وهذه الوقاية، وذلك على النحو التالى :

١ ـ أخذ النفس بالحزم ، وقوة العزيمة ، ولأن تتعب النفس اليوم لتستريح غدًا، خير لها من أن تستريح اليوم ، وتتعب غدًا ، وأيضًا لأن مكر الله غير مأمون، والموت يأتى بغتة، وإذا لم يأت بغتة فإنه يسبقه المرض، ثم يكون الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر] .

٢ ـ تذكير النفس دومًا بأن التسويف عجز وضعف ، وخور ، وليس من سمات المسلم العجز، والضعف، والخور، بل إن الإنسان إذا كان معتزًا بإنسانيته فإنه يأبى عليها هذه الأوصاف، وإن مثل هذا التذكير إن كان صادقًا، وانفعلت به النفس، فإنه سيقودها حتمًا إلى التشمير، والمسارعة بترك المحظور والمكروه، وفعل المأمور والمحبوب، ورضى الله عن سيدنا عمر حين قال : « من القوة ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد » [1] .

٣ ـ دوام الدعاء والضراعة إلى الله ـ عز وجل ـ بالتحرر من العجز والكسل على نحو ما قدمنا فى دعاء وضراعة النبى ﷺ فى الصباح والمساء ، فإن الدعاء هو العبادة ، وهو سبحانه يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [البقرة] .

---

(١) الخبر سبق تخريجه فى الجزء الأول ، آفة : « التفريط فى عمل اليوم والليلة » .

٤ ـ أن تأخذ البيوت نفسها بالحزم والعزم حتى لا تفسد الناشئة من الأولاد ، وعلى الأولاد من جانب آخر أن يشبوا على تعلم وتعاليم الكتاب والسنة ، وأن يزنوا كل تصرف بهما، فما وافقهما فهو الحق ، وعليهم اتباعه، وما خالفهما فهو الباطل ، وعليهم اجتنابه .

٥ ـ الانسلاخ من صحبة الكسالى ، والمسوفين ، والارتماء بين يدى ذوى الحزم، والعزم ، والقوة ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على مجاهدة النفس وأخذها بالحزم ، والعزم ، والقوة .

٦ ـ دوام معايشة الكتاب والسنة ، فإن هذه المعايشة تكون سببًا فى معرفة الله حق المعرفة، وإذا عرف المسلم ربه حق المعرفة قضى عمره، وكأنما يمشى على الجمر، بحيث لا تمر عليه لحظة إلا وهو فيها مؤدى ما عليه ، مستعد للقاء الله ـ عز وجل .

٧ ـ الاحتراز من المعاصى والسيئات بألا يقع فيها المسلم أصلا ، وإن وقع بادر بالتوبة ، فإن أكثر التسويف مبعثه الانغماس فى المعاصى والسيئات على النحو الذى ذكرنا فى الأسباب ، بل ويشفع ذلك بمزيد من الطاعات : فرائض ، ونوافل حتى تلين الجلود ، والجوارح ، وترق القلوب بذكر الله ، فتنشط النفس من عقالها ، وتتخلص من التسويف .

٨ ـ تذكر الموت والدار الآخرة على الدوام ، فإن مثل هذا التذكر مما يقلل عمر الدنيا فى نظر المسلم ، ويهوِّن من شأن زخرفها ، وزهرتها ، وزينتها ، ويحمله على المبادرة بالتوبة ، وأداء الحقوق لذويها ، وإن ثقل الحمل، وعظمت التكاليف .

٩ ـ معايشة السلف فى نظرتهم إلى التسويف، ونفورهم منه نفوراً شديداً قولا، وفعلا ، فكرًا ، وسلوكًا ، وسبق قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « من القوة ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد » (١) .

وهذا عمر بن عبد العزيز ﷺ وقد فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك الخليفة الذى كان قبله ، وانتهى من الخطبة التى افتتح بها حكمه بعد أن بايعه الناس ، ينزل عن المنبر ويتجه إلى بيته ، ويأوى إلى حجرته يبتغى أن يصيب ساعة من الراحة بعد هذا الجهد ، وذلك العناء اللذين كان فيهما منذ وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك .

---

(١) الخبر سبق تخريجه فى الجزء الأول ، آفة : « التفريط فى عمل اليوم والليلة » .

وما يكاد يسلم جنبه إلى مضجعه حتى يقبل عليه ولده عبد الملك ـ وكان يومئذ يتجه نحو السابعة عشرة من عمره ـ ويقول له : ماذا تريد أن تصنع يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا بنى، أريد أن أغفو قليلا ، فلم تبق فى جسدى طاقة، فقال : أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أى بنى ، إنى قد سهرت البارحة فى عمك سليمان، وإنى إذا حان الظهر صليت فى الناس، ورددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله ، فقال : ومن لك يا أمير المؤمنين بأن تعيش إلى الظهر ؟ فألهبت هذه الكلمة عزيمة عمر ، وأطارت النوم من عينيه وبعثت القوة والعزم فى جسده المتعب ، وقال : ادن منى أى بنى ، فدنا منه ، فضمه إليه ، وقبل ما بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى ، من يعيننى على دينى ، ثم قام ، وأمر أن ينادى فى الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها [(١)] .

وقال لقمان لابنه : يا بنى ، لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف ، كان بين خطرين عظيمين ، أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينًا وطبعًا فلا يقبل المحو ، الثانى : أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو [(٢)] .

وعن أبى إسحاق قال : قيل لرجل من عبد القيس فى مرضه : أوصنا قال: أنذرتكم سوف [(٣)] .

وأوصى ثمامة بن بجاد السلمى قومه ، فقال : أى قوم ، أنذرتكم سوف أعمل ، سوف أصلى ، سوف أصوم [(٤)] .

ويقول الحسن البصرى ﷺ إياك والتسويف ، فإنك بيومك ، ولست بغدك ، قال : فإن يكن غد لك ، فَكِسْ فيه ـ أى اعمل عملا تكون به كَيِّسًا ـ كما كِسْت فى اليوم، وإلا يكن الغد لك،لم تندم على ما فرطت فى اليوم [(٥)] .

وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك ، بادرى قبل أن يأتيك، ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر. حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه، ولا يرانى [(٦)] .

---

(١) انظر : صور من حياة التابعين للدكتور عبد الرحمن الباشا ١/١٣٨ ـ ١٤٤ بتصرف .
(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٤/١٢ .
(٣) الأثر أخرجه ابن المبارك فى : الزهد : باب التحضيض على طاعة الله ـ عز وجل ـ ص ٥ بهذا اللفظ .
(٤) الأثر أخرجه ابن المبارك فى : الزهد ص ٥ بهذا اللفظ .
(٥) الأثر أخرجه ابن المبارك فى : الزهد ص ٤ بهذا اللفظ .
(٦) انظر: إحياء علوم الدين للغزالى ٤/٣٩٢، وعنه نقل خلدون الأحدب فى: سوانح وتأملات ص ٤٨.

واجتهد سيدنا أبو موسى الأشعرى ﷺ قبل موته ، اجتهاداً شديداً ، فقيل له : لو أمسكت ، أو رفقت بنفسك بعض الرفق ، فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها ، أخرجت جميع ما عندها ، والذى بقى من أجلى أقل من ذلك ، قال : فلم يزل حتى مات [(١)] .

١٠ ـ أن تقوم الأمَّة كلها على المستوى القيادى ، وغير القيادى ، فى متابعة ومحاسبة المسوفين ، فإن هذه المتابعة ، وتلك المحاسبة ، تقطع الطريق على النفس، وتحول بينها وبين التسويف، وهذا من حق الأمة على بعضها البعض وصدق الله العظيم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [التوبة: ٧١] .

١١ ـ عدم الاستهانة بأى أمر من الأمور ، وإن كان هذا الأمر بسيطًا ، واليقين بأن الأمر كله لله ، والفرصة التى فى يدك الآن قد تضيع منك غداً .

١٢ ـ التذكير الدائب بالعواقب والآثار المترتبة على التسويف ، فإن هذا التذكير من شأنه أن يشحذ الهمم ، والعزائم ، وأن يقضى على التسويف عند من كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ٣٩٢، وعنه نقل خلدون الأحدب فى: سوانح وتأملات ص ٤٨ .

الآفة العشرون
التشاؤم

والآفة العشرون التى أصابت، وتصيب نفراً من العاملين، بل ومن غير العاملين ولم يسلم منها إلا من حباه الله ـ عز وجل ـ إيمانًا صادقًا، ويقينًا تامًا، إنما هى : (التشاؤم) .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها، ويتوقاها من سلمه الله ـ تبارك وتعالى ـ منها، فإننا سنعرض لها من الجوانب التالية :

أولا : تعريف التشاؤم :

لغة : يطلق التشاؤم فى اللغة على معانٍ عدّة، وأهمها :

أ ـ التطير أو ما يقابل التيامن، يقال : تشاءم منه أى تطيّر، وتشاءم به أى عدّه شؤمًا لا يمن فيه ولا خير، وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا أرادوا أمراً من الأمور سفراً، أو زواجًا، أو سيراً نفروا الطير، وزجروه، فإن مال ناحية اليمين تفاءلوا، ومضوا لتنفيذ ما يريدون، وإن مال ناحية الشمال تشاءموا، وقعدوا عن إتمام وبلوغ ما قصدوه، وإن لم تمل لا إلى هذه، ولا إلى تلك، أعادوا تنفير الطير وزجره، وسمى هذا كله تطيراً، كما سمى القعود عن أداء الواجب نتيجة ميل الطير ناحية الشمال تطيراً أى تشاؤمًا، وكانوا فى أحايين أخرى يبنون أمور حياتهم على مجرد حركة الطير، أو الوحش، فإن كانوا سائرين فى طريقهم لإمضاء أمر ما، ورأوا الطير أو الوحش فجأة، أو كان الطير أو الوحش واقفًا، وحين رآهم ولى وأدبر، تطيروا، أى تشاءموا ورجعوا .

ب ـ توهم أو توقع الشرّ، يقال : تشاءم من الأمر أو من فلان أى توهم، وتوقع الشر من ناحيته، ومنه قيل لأهل النار : أصحاب المشأمة، للعذاب أو الشر الذى ينزل بهم، بسبب كفرهم، وسوء أعمالهم فى الحياة الدنيا، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾ [البلد] .

ومنه ما يحكى عن الأعاجم أنهم كانوا يتشاءمون عند الخروج بالغداة برؤية الصبي، يذهب به إلى المعلم، ويتيمنون إذا خرجوا للحاجة ورأوا صبيًا يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقاء، وعلى ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة، ويتشاءمون بالحبال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة، ويتيمنون بالحمال الذى وضع حمله، ويحكى، والدابة التى حطَّ عنها حملها .

جـ ـ إساءة الظن بكل شيء في الوجود خالقًا أو مخلوقًا، عاقلا أو غير عاقل[1].

وعندى أنه لا تعارض بين هذه المعانى اللغوية جميعًا، إذ التطير أو توقع الشر، والمكروه، ما هو إلا أثر من آثار سوء الظن بكل شيء فى الحياة .

اصطلاحًا : أما تعريف التشاؤم فى المصطلح الشرعى والدعوى فيتلخص فى : التطير أو توهم حصول الشر والمكروه بصورة تؤدى إلى القعود عن أداء الواجب، أو على الأقل الكسل والتوانى، والتراخى نتيجة إساءة الظن بكل شيء فى هذا الوجود، أو فى هذه الحياة .

ثانيًا : صور أو مظاهر التشاؤم مع بيان وضعه فى ميزان الإسلام :

وللتشاوم بهذا المعنى الذى قدمنا صور كثيرة، ومظاهر عدة، تدل عليه وبها يعرف، ونذكر منها :

١ ـ عدم الاستجابة للدعوة التى تنادى بالمشاركة فى العمل الجماعى من أجل التمكين لمنهج الله فى الأرض من جديد، على أساس أن الإسلام عقيدة، وعبادة، وخلق، وتشريع، أو هو دين ودولة، يشمل الحياتين جميعًا، الدنيا والآخرة، بدعوى أن عدونا يفوقنا عددًا، وعدة، وهو الآن الممسك بخناقًا، والموجه للحياة، وأين نحن إذن من هذا العدو ؟ لا مناص لنا إلا القعود، والاستسلام حتى الموت، أو أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

٢ ـ المشاركة فى العمل الجماعى القائم على تصور أنه لا دخل للإسلام فى السياسة، نظرًا لما يجره هذا التصور ـ وهو أن الإسلام دين ودولة ـ من محن، وشدائد، وابتلاءات شهد بها واقع الأمة المسلمة منذ سقوط الخلافة الإسلامية إلى اليوم .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١/ ٤٨٨ بتصرف، والمنهاج فى شعب الإيمان : للحليمى ٢/ ٢٠، وفتح البارى لابن حجر ١٠/ ٢١٢، ٢١٣ .

٣ ـ المشاركة فى العمل الجماعى للإسلام، على أساس أن هذا الإسلام دين ودولة، ولكن بهمَّة نازلة، وعزيمة ضعيفة، وإرادة فاترة، يأسًا، وقنوطًا من أننا مهما عملنا، فلا يمكن أبدًا أن نلحق بعدونا، فضلا عن أن نسبقه أو أن نفوقه .

٤ ـ التثبيط من همم وعزائم العاملين لدين الله بصدقٍ وجدية بدعوى الإشفاق والرحمة بهذا الصنف من الناس، وأنه لا داعى أن يتعب هؤلاء أنفسهم، وأن يجروا عليها من المحن والشدائد ما لا يعلمه إلا الله، ولاسيما وقد صار الأمر بأيدى أعدائهم، وأولئك اليوم هم حكام العالم، وساسته فى النظام العالمى الجديد، حسبهم أن يكونوا ـ هم، وأهلوهم، وأولادهم وذووهم ـ مسلمين فى أنفسهم، ولا شأن لهم بالآخرين، إذ الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

٥ ـ النظر لكل ما هو أجنبى من أشخاص، وأفكار، وإنتاج، بعين الإكبار، والإجلال، والاحترام، والتوقير، أما ما هو وطنى من أشخاص، وأفكار، وإنتاج، فينظر إليه بعين الاحتقار، والسخرية، والازدراء، والاستهزاء .

٦ ـ اليأس من رحمة الله، وعفوه، بسبب كثرة المعاصى والسيئات وتصور أن الله شديد العقاب فقط، وأنه لن يغفر، ولن يعفو، ولن يتجاوز بحال من الأحوال .

٧ ـ تصديق دعايات أعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية القائمة على الدجل، وقلب الحقائق، والنيل من الإسلام، والمسلمين والرفع من شأن الكفر، والكافرين، بحيث يسلم ذلك فى نهاية المطاف إلى القطيعة للمسلمين، والموالاة للكافرين .

٨ ـ الخوف من بعض الحوادث اليومية العادية، والتى هى جزء من قضاء الله وقدره، ككسر بعض الأوانى، أو انطفاء المصابيح، أو صراخ وبكاء بعض الأولاد بصورة مستمرة، أو وقوع مكروه عند ولوج بعض الأماكن المباركة كالمساجد مثلا، ثم القعود عن أداء بعض الواجبات بسبب ذلك .

٩ ـ الخوف من لقاء المعروفين بالحسد، أو بالسحر والكهانة، وعدم اتباع الحكمة فى دعوة هؤلاء، ومداواتهم كى يقلعوا عما هم فيه من شرٍّ، وباطل.

هذه هى أهم صور أو مظاهر التشاؤم .

أما عن وضع هذا التشاؤم فى ميزان الإسلام، فيتلخص من خلال النظر فى النصوص الشرعية : أن التشاؤم أو التطير إن كان مجرد توهم أو توقع حصول الشر

نتيجة حوادث معينة، أثبتت التجارب، والممارسة صحتها، أو صدقها، مع اعتقاد أن الأمر كله لله، وليس لهذه الحوادث أدنى أثر على النفس إلا بإذن الله، بل لم تصرفه هذه الحوادث عن المضى فى طريقه وتنفيذ مراده، إن كان الأمر كذلك، فلا شىء فيه، لأن مثل هذا التوهم أو التوقع شىء فطرى فى النفس الإنسانية وما من إنسان إلا ويخاف الشر، وينقبض منه، ويفرح بالخير ويهش، ويبش له، وبهذا المعنى جاءت النصوص، إذ يقول ﷺ: « ثلاثة لا يسلم منهن أحد، الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق » [(١)]، « إذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا » [(٢)]، « لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم، أو رجع من سفر تطيراً » [(٣)]، « الطيرة شرك - وما منا إلا تطير - ولكن الله يذهبه بالتوكل» [(٤)].

وقد علق الحافظ ابن حجر على الحديث الأخير بقوله: « وإنما جعل ذلك شركًا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعًا، أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وقوله: « ولكن الله يذهبه بالتوكل » إشارة إلى أن من وقع له ذلك، فسلم الله، ولم يعبأ بالطيرة، أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك » [(٥)].

---

(١) الحديث أخرجه عبد الرزاق فى: المصنف: كتاب الجامع: باب الطيرة ٤٠٣/١٠ رقم (١٩٥٠٤) عن معمر عن إسماعيل بن أمية قال: قال النبى ﷺ: « ثلاثة لا يعجزهن ابن آدم: الطيرة، وسوء الظن، والحسد » قال: « فينجيك من الطيرة ألا تعمل بها، وينجيك من سوء الظن ألا تتكلم به، وينجيك من الحسد ألا تبغى أخاك سوءاً »، وأورده الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ٢١٣/١٠، وعزاه إلى عبد الرزاق فى المصنف بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: « وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبى هريرة، أخرجه البيهقى فى الشعب ».

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ٢١٣/١٠، وعزاه إلى ابن عدى فى الكامل، قائلا: «وأخرج ابن عدى بسند لين عن أبى هريرة رفعه . . . الحديث ».

(٣) الحديث أورده الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ٢١٣/١٠، وعزاه إلى الطبرانى عن أبى الدرداء، رفعه، وعقب عليه بقوله: « ورجاله ثقات، إلا أننى أظن أن فيه انقطاعًا، وله شاهد عن عمران بن حصين، وأخرجه البزار فى أثناء حديث بسند جيد ».

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الطب: باب فى الطيرة ١٧/٤ رقم (٣٩١٠)، والترمذى فى: السنن: كتاب السير: باب فى الطيرة ١٣٧/٤، ١٣٨ رقم (١٦١٤)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الطب: باب من كان يعجبه الفأل ١١٧٠/٢ رقم (٣٥٣٨)، كلهم من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وعقب عليه الترمذى بقوله: « وهذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل » غير أن جملة « ولكن الله يذهبه بالتوكل » مدرجة فى الحديث من كلام ابن مسعود إذ يقول الترمذى: «وروى شعبة عن سلمة هذا الحديث قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول فى هذا الحديث: « وما منا. . . ولكن الله يذهبه بالتوكل » قال سليمان: هذا عندى قول عبد الله بن مسعود: « وما منا » .

(٥) انظر: فتح البارى ٢١٣/١٠ .

أما إن كان توهم أو توقع الشر لحوادث معينة دافعًا لصاحبه أن يقعد عن أداء دوره، والقيام بواجبه، اعتقادًا منه أن لهذه الحوادث أثرًا فيما يصيبه دون أن يرد الأمر كله لله، فذلك شرك، وهو حرام مذموم، يوجب لصاحبه عدم المغفرة، ومن ثم الخلود في النار إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

[النساء : ١١٦]

وإذ يقول ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة، الشؤم في ثلاث، في المرأة، والدار، والدابة»[(١)] ، « لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر »[(٢)] ، «لا طيرة، وخيرها الفأل»، قالوا: وما الفأل يا رسول الله ؟ قال: « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم »[(٣)]، « لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة »[(٤)] ، « العين حق،

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الطب : باب الطيرة، وباب لا عدوى ٧/ ١٧٤، ١٧٩، ومسلم في : الصحيح : كتاب السلام : باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم ٤/ ١٧٤٧ رقم (٢٢٢٥) كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا به، وأبو داود في : السنن : كتاب الطب : باب في : الطيرة ٤/ ١٩ رقم (٣٩٢١) من حديث سعد بن مالك مرفوعًا، وأحمد في : المسند ١/ ١٧٤، ١٨٠ من حديث سعد بن مالك مرفوعًا، ٢/ ١٥٣ من حديث ابن عمر مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الطب : باب لا هامة ٧/ ١٧٥، ومسلم في: الصحيح: كتاب السلام: باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة،ولا صفر ٤/ ١٧٤٣ رقم (٢٢٢٠)، وأبو داود في : السنن : كتاب الطب : باب في الطيرة ٤/ ١٧ رقم (٣٩١١)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وابن ماجه في : السنن : كتاب الطب : باب من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة ٢/ ١١٧١ رقم (٣٥٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا وقال عنه البوصيري في : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/ ٧٧، ٧٨ : « هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات، وأحمد في : المسند ١/ ٢٦٩، ٣٢٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، ٢/ ٢٢٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا، ولكن بلفظ: « لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق »، ٢/ ٢٦٧، ٣٢٧، ٤٢٠، ٤٣٤، ٤٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به، وبنحوه .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب السلام : باب الطيرة، وباب الفأل ٧/ ١٧٤، ١٧٥، ومسلم في : الصحيح : كتاب السلام : باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم ٤/ ١٧٤٥ رقم (٢٢٢٣)، وأحمد في : المسند ٢/ ٢٦٦، ٤٠٦، ٤٥٣ كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الطب : باب الفأل ٧/ ١٧٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، ومسلم في: الصحيح : كتاب الطب : باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم ٤/ ١٧٤٦ رقم (٢٢٢٣، ٢٢٢٤)، من حديث أنس بن مالك، وأبي هريرة كليهما مرفوعًا . وأبو داود في : السنن : كتاب الطب : باب في الطيرة ٤/ ١٨ رقم (٣٩١٦) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بلفظ : « لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح الكلمة الحسنة » وكأن هذه الرواية بيان لما أجمل في رواية البخاري من قوله : « ويعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة »، والترمذي في : السنن : كتاب السير : باب ما جاء في الطيرة ٤/ ١٣٨ رقم (١٦١٥) من حديث أنس مرفوعًا، وقال عنه : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه في : السنن : كتاب الطب : باب من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة ٢/ ١١٧٠ رقم (٣٥٣٧) من حديث أنس مرفوعًا ومختصرًا، وأحمد في: المسند ٢/ ٥٠٧ من حديث أبي هريرة مرفوعًا، ٣/ ١١٨، ١٣٠، ١٥٤، ١٧٣، ١٧٨، ٢٥١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا به، وبنحوه .

وأصدق الطيرة الفأل » [١] .

وذكرت الطيرة عندهﷺفقال : « خيرها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله » [٢] . وكانﷺيعجبه الفأل، ويكره الطيرة [٣] .

فهذه النصوص وغيرها قاطعة الدلالة فى حرمة الطيرة والتشاؤم ؛ لأن ذلك كله شرك، يجر على صاحبه خسارة الدنيا والآخرة .

غاية ما فى الأمر أنه قد يقال: كيف يكون هذا شركًا، وكيف يلحقه الذم، وقد أباح النبىﷺنوعًا منه، وهو التفاؤل، حيث قال : « وخيرها الفأل » أو «ويعجبنى الفأل الصالح » ؟ .

والجواب : أن هذا ليس إباحة للطيرة، وإنما هو من باب قول العرب : «الصيف أحرُّ من الشتاء » يعنى : الفأل فى بابه أبلغ من الطيرة فى بابها، وباب الفأل هو التيامن، كما أن باب الطيرة هو التشاؤم [٤] .

ويقوى ذلك الأحاديث الكثيرة الدالة على حرمة التطير وقد مضت، والأحاديث الدالة على إباحة التفاؤل ومنها : أنهﷺكان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع : « يا نجيح، يا راشد » [٥] ، وأنهﷺكان لا يتطير من شىء، وكان إذا بعث عاملا يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤى كراهة ذلك فى وجهه، وإذا

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الطب : باب ما جاء أن العين حق، والغسل لها ٣٤٧/٤ رقم (٢٠٦١) من حديث حابس التميمى أنه سمع رسول اللهﷺيقول : « لا شىء فى الهام، والعين حق» وأورده الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١٠/ ٢١٤،وعزاه إلى الترمذى ولكن بلفظ : « العين حق، وأصدق الطيرة الفأل »، ولعله نقله من حفظه، وإلا فقد تقدم لفظ الترمذى .

(٢) الحديث اخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الطب : باب فى الطيرة ١٩/٤ رقم (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر القرشى، ولا صحبة له تصح، فعلى هذا يكون الحديث مرسلا .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الطب : باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ٢/ ١١٧٠ رقم (٣٥٣٦)، وقال عنه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٧٧/٤ « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٤) انظر : فتح البارى ١٠/ ٢١٤ بتصرف .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب السير : باب ما جاء فى الطيرة ١٣٨/٤ رقم (١٦١٦) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .

دخل قرية سأل عن اسمها . . . الحديث [١] .

يقول الإمام الحليمى صاحب المنهاج فى شعب الإيمان : « وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل ؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال » [٢] .

ويقول الإمام الطيبى: «معنى الترخص فى الفأل، والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئًا، فظنه حسنًا محرضًا على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بغير ذلك فلا يقبله، بل يمضى لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضى فهو الطيرة التى اختصت بأن تستعمل فى الشؤم » [٣] .

ثالثًا : أسباب التشاؤم :

وللتشاؤم أسباب كثيرة تؤدى إليه، وبواعث عدة توقع فيه، وأهم تلك الأسباب، وهذه البواعث :

١ ـ عدم معرفة الله حق المعرفة :

ذلك أن المرء إذا لم يعرف ربه حق المعرفة من أنه ـ سبحانه ـ موصوف بالكمال، والجلال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن]، فهو الخالق، المالك، المدبر، الناصر لأهله، وأوليائه، الرحيم بهم، المنتقم من أعدائه، المذل لكبريائهم، الذى يمهل ولا يهمل، إلى غير ذلك من الصفات، إذا لم يعرف المرء هذا فإنه يسىء ظنه بربه، ولا يثق به، ويتصور أنه مأخوذ بذنبه لا محالة، فلا عفو ولا صفح، وأنه لن يؤيد، ولن ينصر، بل ربما انقلب هذا الظن، وما يجره من عدم الثقة بالله إلى أن يعتقد قدرة المخلوقات وارتباط الحوادث اليومية بالغيب، فيتولى هؤلاء المخلوقين من دون الله، ويكون التطير والتشاؤم .

ومن أجل حماية المسلم من مثل هذا الظن السيئ ألزم الله المسلم التأمل المستمر فى النفس، وفى الكون، وجعل هذا التأمل طريقًا لمعرفة الله حق المعرفة، وتمام الثقة واليقين، فقال ـ سبحانه : ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الطب : باب فى الطيرة ٤/ ١٩ رقم (٣٩٢٠) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعًا بهذا اللفظ، وحسنه ابن حجر فى فتح البارى ١٠/ ٢١٥ .

(٢، ٣) انظر : فتح البارى ١٠/ ٢١٥ .

[الذاريات] ، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل : ٩٣] .

كما تولى القرآن التعريف بالله بصورة تزرع الثقة واليقين به سبحانه وتعالى، وكان ذلك منذ بدأت آيات الوحى تتنزل على رسول الله ﷺ ، حتى ختم هذا الوحى، يقول سبحانه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق] ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ... ﴾ [سورة الفاتحة] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ ﴾ [الملك]، إلى غير ذلك من الآيات.

وتولى النبى ﷺ ذلك أيضًا، فقال فى بيان قدرته سبحانه : « بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها، فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث » فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم، فقال : « إنى أومن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر وما هما ثمَّ، وبينما رجل فى غنمه، إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا استنقذها منى، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعى لها غيرى»، فقال الناس: سبحان الله: ذئب يتكلم، قال: « فإنى أؤمن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر: وما هما ثمَّ »(١) .

وقال فى بيان إمهاله للظالمين، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر : « إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته »(٢) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب منه ٤/ ٢١٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبى بكر الصديق ﷺ ٤/ ١٨٥٧، ١٨٥٨ رقم (٢٣٨٨) كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التفسير : سورة هود ٦/ ٩٤، ومسلم فى : الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٧، ١٩٩٨، رقم (٢٥٨٣)، والترمذى فى: السنن: كتاب التفسير : باب ومن سورة هود ٥/ ٢٦٩ رقم (٣١١٠) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم (٤٠١٨) كلهم من حديث أبى موسى الأشعرى ﷺ مرفوعًا .

٢ ـ عدم معرفة النفس معرفة حقيقية :

وذلك أن المرء إذا لم يعرف نفسه معرفة حقيقية، وأن الله زود هذه النفس بطاقات وإمكانات هائلة تؤهلها لمهمة العبودية، والاستخلاف فى الأرض، كما نطق بذلك الحديث الشريف إذ يقول ﷺ:

« لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم، الحديد، قالت : يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم، النار، قالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم، الماء، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم، الريح، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم، ابن آدم، يتصدق بيمينه يخفيها من شماله »[(١)].

وأنه ما على هذا المرء إلا أن يجاهد نفسه، وأهواءه، ونزغاته، إذا لم يعرف المرء نفسه بهذه الصورة، فإنه ينهزم من داخله، ويحتقر هذه النفس، ولا سيما فى هذه الآونة التى نعيشها اليوم والتى أمسك فيها العدو بخناقنا، وأكثر علينا من الدعايات والأكاذيب أنَّا ضعفاء، وأنَّا لم نعد نحسن شيئًا، وحين ينهزم المرء من داخله، ويحتقر نفسه يكون التشاؤم من أقل شيء، ومن أدنى حادث .

ولعل هذا هو السر فى تحذيره ﷺمن الانهزام النفسى، والاستسلام، والضعف، والخور، إذ يقول ﷺ:

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز ... » الحديث[(٢)]، « لا يحقرن أحدكم نفسه » قالوا : يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أمرًا لله عليه فيه

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٣/ ١٢٤ من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب فى الأمر بالقوة، وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله ٤/ ٢٠٥٢ رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب فى القدر ١/ ٣١ رقم (٧٩) كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ، وزاد ابن ماجه فى : كتاب الزهد : باب التوكل واليقين ٢/ ١٢٩٥ رقم (٤١٦٨) رواية أخرى عن أبى هريرة بنحو ما تقدم، غير أنَّه قال فيها: « ... فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء الله فعل، وإياك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان » .

مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله ـ عز وجل ـ له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فيَّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى »(١) .

٣ ـ عدم معرفة الكون معرفة حقيقية :

وذلك أن المرء إذا لم يعرف حقيقة هذا الكون الذى يعيش فيه وأنه من خلق الله، وتدبيره، وأنه سخره لنا، وضمن استمرار هذا التسخير بالطاعة، وانقطاعه بالمعصية، فقال ـ سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ﴾ [الرعد]، **﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ㉜ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ㉝ ﴾** [إبراهيم]، **﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑫ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑬ ﴾** [الجاثية]، **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ㊾ ﴾** [الأعراف] .

وإن فى واقع البشرية نماذج عملية تشهد بهذه الحقيقة، وتؤكد هذه السنة، فهذا داود عليه السلام يلين الله له الحديد بطاعته لله : **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾** [سبأ] .

وهذا ولده سليمان يسخر الله له الريح، والطير، والوحش، والإنس، والجن بطاعته لله كذلك : **﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ⑫ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾** [سبأ] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٢٨ رقم (٤٠٠٨)، وقال عنه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ١٨٢ : « هذا إسناد صحيح »، وأحمد فى : المسند ٣/ ٣٠، ٤٧، ٤٨، ٧٣، ٩١، ٩٢ كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ لابن ماجه .

وهذا محمد ﷺ ينصره الله ـ عز وجل ـ ومن معه في غزوة الأحزاب، بالريح، والملائكة، فيقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ [الأحزاب]، بينما يسلط هذه الريح على عاد قوم هود عندما طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وقالوا : من أشد منا قوة، فقال : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] .

ويرسل الحجارة على قوم لوط عندما أصروا على إتيان الرجال، وقطع السبيل، وفعل المنكرات : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) ﴾ [الحجر] .

ويغرق بالماء فرعون وقومه حين طغى، وبغى، وقال : أنا ربكم الأعلى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزخرف] .

إذا لم يعرف المرء حقيقة الكون، وكيفية التعامل معه على النحو الذى شرحنا، فإنه يسوء ظنُّه بكل شيء فيه، ويعاديه، ويكون التطير، والتشاؤم .

٤ ـ عدم معرفة العدو على حقيقته :

وذلك أن المرء إذا لم يعرف عدوه على حقيقته، وأن عداوته قديمة منذ أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر، وكان من الكافرين، وأن هذا العدو لا يفتأ يكيد بكل ما أوتي من أساليب ووسائل : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف] .

وأنه لا وزن لهذا الكيد ما دامت الصلة قوية بالله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ [الحجر]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩]، ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت]، ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران] .

إذا لم يعرف المرء حقيقة عدوه على الصورة التى شرحنا، فإنه يهابه ويخافه، ويستجيب لدعاياته، وأكاذيبه، ويكون التطير والتشاؤم من أدنى شيء، ومن أي حادث من الحوادث .

٥ ـ عدم فقه ماهية الجهاد والنصر فقهًا حقيقيا :

وذلك أن نفرًا من المسلمين قد فقهوا الجهاد بمعناه العرفى وهو ملاقاة العدو بالقوة، ممثلة فى الضرب بالسيوف أو الطعن بالرماح، أو الرمى بالسهام، أو ما يقوم مقام ذلك مما ابتكرته مدنية العصر من استخدام البنادق، والمدافع، والدبابات، والمصفحات، والطائرات، والغواصات ونحوها .

وغاب عن بالهم معناه الاصطلاحى، وهو بذل أقصى ما فى الطاقة والوسع من أجل تحرير الأرض كلها من أى سلطان مناوئ لسلطان الله ـ عز وجل ـ بحيث يشمل جهاد النفس، وجهاد العدو باليد، وباللسان، وبالقلب، وكذلك يتناول تجهيز الغزاة، والقيام بحاجة أهليهم، وأولادهم سواء رجعوا إليهم، أو لقوا ربهم شهداء، بل إنه ليتناول ما هو أبعد من ذلك، من مثل دعوة الناس، وتعليمهم، وحضهم على الجهاد واستحضار نية الغزو، ما دامت هناك عين تطرف أو عرق ينبض، مع أخذ الأهبة والاستعداد لتحويل هذه النية إلى واقع حى متحرك فى دنيا الناس، وطبيعة الظروف التى يعيشها المسلم هى التى تحدد نوع الجهاد الواجب والرباط المطلوب .

وكذلك فقه هذا النفر النصر بمعناه العرفى وهو تحرير الدار والأرض من سيطرة الغاصب المحتل، وغاب عن بالهم معناه الاصطلاحى وهو التحرر من سيطرة الباطل، سواء أكان ذلك فى النفس أم فى واقع الحياة .

فقهوا الجهاد والنصر بالمعنى العرفى الضيق، لا بالمعنى الاصطلاحى الواسع، وحين لم يتحقق لهم شىء من هذين تطيروا وتشاءموا، وهكذا كل من لم يفقه الجهاد والنصر الفقه الصحيح يقع فى التطير والتشاؤم .

٦ ـ كثرة المحن والابتلاءات مع الغفلة عن أسرار هذه المحن وتلك الابتلاءات :

وذلك أن المسلم إذا نظر إلى واقعه، وواقع أمته اليوم، ورأى كثرة وتتابع المحن، والابتلاءات، فى نفسه، وفى أهله، وولده، وذويه، وإخوانه، وماله، وغفل عن أسرار هذه المحن وتلك الابتلاءات، من أنها قد تكون لتقويم العوج : ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

وقد تكون لتمحيص المؤمنين ومحق الكافرين ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** (١٤١) ﴾ [آل عمران]، ﴿ **مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ**

﴿ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد] .

وقد تكون تكفيرًا للسيئات، ورفعًا للدرجات بالنسبة للمؤمنين مصداقًا لقوله ﷺ :

« ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه »[١] ، « إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله فى جسده، أو فى ماله، أو فى ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له منه »[٢] ، وقد تكون لغير ذلك .

إذا رأى المسلم المحن والبلايا بهذه الكثرة، وغفل عن فقه أسرارها، أصيب بالانهزام النفسى وما يتبعه من التطير والتشاؤم .

٧ ـ العيش فى وسط متشائم :

وقد يعيش المسلم فى وسط مريض بالتشاؤم، ولا سيما إذا كان هذا العيش قبل النضج، وكمال التربية، وحينئذ يتأثر بهذا الوسط، ويصاب هو الآخر بمرض التشاؤم .

٨ ـ الغفلة عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل :

وقد يغيب عن بال المسلم طبيعة الصراع بين الحق والباطل، ويرى اليوم نشوة الباطل، وانتفاخه، وقوة صولجانه، وضعف الحق، وقلة أنصاره، وانزواءه، فيظنها سنة عامة مضت بها كل العصور، وستبقى كذلك إلى آخر الزمان، وحينئذ يبتلى بالتشاؤم .

ولعل هذا هو السر فى اشتمال القرآن الكريم على قصص الماضين وما يحمله هذا القصص من عظات وعبر، بل ودعوته إلى التدبر والتفكر فى هذا القصص ونتائجه، إذ يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف] ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) ﴾

[آل عمران]

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة : « ضعف أو تلاشى الالتزام » .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٢٧٢ قال: حدثنا حسين بن محمد، ثنا أبو المليح، عن محمد بن خالد، عن أبيه، عن جده ـ وكان لجده صحبة ـ أنَّه خرج زائرًا لرجل من إخوانه، فبلغه شكاته، قال : فدخل عليه، فقال : أتيتك زائرًا، عائدًا ومبشرًا، قال : كيف جمعت هذا كله، قال : خرجت وأنا أريد زيارتك، فبلغتنى شكاتك، فكانت عيادة، وأبشرك بشىء سمعته من رسول الله ﷺ قال : « إذا سبقت للعبد من الله منزلة . . . » الحديث .

٩ ـ قياس واقع الأمة بحاضرها دون النظر إلى الماضى :

وقد يقيس البعض واقع الأمة اليوم بما هى فيه من حاضر فيرى الشرور، والآثام، والفساد المنتشر هنا وهناك والحروب الضروس الموجهة للإسلام وأهله، وممن ؟ من أبناء جلدتنا، والناطقين بلغتنا، والمسمين بأسمائنا .

يقيس هذا الواقع بالنظر إلى هذا الحاضر المرير، وينسى الماضى، والماضى القريب، وكيف تنصَّلت الأمة من إسلامها أو هكذا أريد لها أن تتنصل من إسلامها؟ حيث كانت الصحف والمجلات، وباقى وسائل الإعلام لا همَّ لها إلا الطعن فى الإسلام ونشر موجة الإلحاد، والإباحية بين الناس، وعضدها وساعدها نفر من الكتاب تربيتهم وتوجيههم غربى، بل فرض ذلك فرضًا بقوة السلطان وكانت الثمرة سقوط الخلافة الإسلامية، وتقسيم الدولة إلى دويلات وشيوع الموبقات من الشرك بالله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والعقوق، والقطيعة، ونبذ منهج الله والتحاكم إلى المناهج الوافدة من هنا وهناك، والمصنوعة بأيدى البشر، وبمثل هذا المقياس يمكن أن يكون الوقوع فى غوائل التطير، والتشاؤم .

١٠ ـ عدم إدراك عواقب التشاؤم :

وأخيراً قد يكون عدم إدراك عواقب التشاؤم الدنيوية والأخروية الفردية والجماعية، هى السبب فى الوقوع فى آفة التشاؤم .

رابعًا : آثار التشاؤم :

وللتشاؤم آثاره السلبية، وعواقبه المهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار التشاؤم على العاملين :

١ ـ التراخى مع النفس ربما إلى حد التطاول على حدود الله ، والوقوع فى حبائل الشرك والعياذ بالله : وقد رأينا أقوامًا ملء السمع والبصر فى العمل الإسلامى، ثم سيطر عليهم التشاؤم، فإذا هم خارج دائرة العمل الإسلامى، وإذا الشياطين قد اغتالتهم، ففرطوا وأسرفوا على أنفسهم، وتطاولوا على حدود الله، وتحول ولاؤهم للشيطان وحزبه، بعد أن كان ولاؤهم لله ولرسوله، وللمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم راكعون، بل لقد حدثنى من أثق به أن أحدهم كان

يبكى الناس بحديثه، وتلاوته لآيات الله، وقد خاض محنة قاسية شديدة اضطرته إلى الهجرة، والعيش فى ديار الغربة، ثم ابتلى بالدنيا بعدها، وسيطر عليه التشاؤم من أن العمل الإسلامى سيظل هكذا فى مكانه، ولن يصل إلى ما يريد، وكان أن تُرِك، وأصبح ذيلا أو ذنبًا، أو ظلا للملك من ملوك الأرض يرى ما تراه عينه وما يريد، فيفتى به، وضاع مع الضائعين .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى : وذلك لما قدمنا من أن التطير أو التشاؤم شرك، وقد آلى الله ـ عز وجل ـ على نفسه أن ينتزع من قلوب أولئك الأمن والأمان، والطمأنينة، كما يفهم من قوله سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)** ﴾ [الانعام] ، ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)** ﴾ [الزمر] .

وكما جاء صريحًا فى قوله سبحانه : ﴿ **وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)** ﴾ [الجن] ، ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه : ١٢٤] .

٣ ـ تعريض النفس لغضب الله وسخطه : وذلك أن التشاؤم إذا وصل إلى حد القعود عن أداء الواجب فقد صار لونًا من ألوان الشرك، يجر إلى كثير من المعاصى والسيئات، والمعاصى والسيئات توجب غضب الله، وسخطه، وماذا يجنى من حل عليه غضب الله وسخطه، سوى الضياع والعذاب، وصدق الله : ﴿ **وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)** ﴾ [طه] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار التشاؤم على العمل الإسلامى فكثيرة، نذكر منها :

١ ـ التثبيط والتعطيل للآخرين :

وذلك أن قعود المتشائم قد يؤدى إلى تثبيط همم الآخرين وقعودهم مثله، ولا سيما فى صفوف الناشئة الذين ليست لديهم الحصانة، وحينئذٍ يتحمل هذا المتشائم إثمين :

الأول : إثم تشاؤمه وقعوده عن أداء دوره، والقيام بواجبه .

والآخر : إثم تثبيط همم الآخرين، وتعطيلهم عن المضى فى الطريق .

٢ ـ الحرمان من العون والمدد الإلهى :

وذلك أن سنة الله ـ سبحانه ـ فى خلقه مضت أن يمنح التأييد التام، والعطاء الكامل لمن وصلوا أنفسهم به، فحسنوا الظنَّ ومضوا على الطريق مجاهدين، لا يلوون على شيء إلا على مغفرته ورضوانه، أما إن أساءوا، وتشاءموا، فإنه يقطع عنهم عونه، ومدده، وإن كان فلا يكون كاملا، وربما يكون من باب : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الأعراف] .

٣ ـ طول الليل مع استمرار حياة الذل والهوان :

وذلك أن التشاؤم إذا انتهى إلى القعود عن أداء الواجب، والحرمان من العون والمدد الربانى، فإن أعداء الله يحكمون القبضة ويطول الليل، وتستمر حياة الذل والهوان، وهذا ما نعيشه نحن المسلمين اليوم، فالمتشائمون فينا قعدوا، وأقعدوا، وحرمنا بسببهم العون الكامل، والنصير من البشر، فطوَّق العدو أعناقنا، وطال الليل، وصرنا إلى ذلٍّ لا ذلَّ بعده، وهوان لا يعدله هوان .

خامسًا : علاج التشاؤم :

ونستطيع بعد وقوفنا على ماهية وصور التشاؤم، وموقف الإسلام منه وكذلك بعد معرفتنا لأسبابه، وبواعثه، وآثاره المهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، أن نرسم طريق العلاج والوقاية من هذه الآفة، وتتلخص فى الخطوات التالية :

١ ـ التعريف بالله تعريفًا يورث الثقة واليقين : وطريق ذلك التأمل فى النفس وفى الكون : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] .

وأيضًا معايشة الكتاب والسنة، إذ ليس فى الدنيا مصدر يعدلهما ثقة، وعصمة، وفيهما الدواء، والغذاء إن شاء الله .

ثم النظر فى سير أصحاب الدعوات ، ومن تابعوهم على الطريق وكيف كان جهادهم، وصبرهم، وتحملهم، وتفاؤلهم حتى أعزَّهم الله بعزه، وأمدهم بجنده، ومكن لهم فى الأرض كما قال سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة] ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] .

٢ ـ التعريف بالنفس تعريفًا يدفعها إلى مقاومة التشاؤم، والانهزام النفسى، والثقة بأنها قادرة بعون الله ومدده على الكثير، شريطة أن تتجرد من حظوظها، وأن تتواضع لربها، وأن تستسلم له وتخضع، وتنقاد: « لا يحقرن أحدكم نفسه... » الحديث[1] ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] .

٣ ـ التعريف بالكون تعريفًا يبصرنا بكيفية الإفادة منه لخير البلاد والعباد، وذلك يلفت النظر إلى أن هذا الكون مسخر لنا، وقد خلق لمصلحتنا، وأن علينا أن نواظب على الطاعة والاستقامة لله ـ عز وجل ـ حتى يظل هذا الكون منسجمًا معنا، غير متمرد علينا ، دائم العطاء لنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن] .

ولا شك أن انسجام الكون معنا، وعدم تمرده علينا، وديمومة عطائه لنا بسبب استقامتنا مع ربنا، وطاعتنا له ـ تبارك وتعالى ـ مما يفتح باب الأمل، والتفاؤل أمام المتشائمين، ويجعلهم يوقنون أن مزيدًا من الطاعة والاستقامة يجعل كل ما فى الكون معنا حربًا ونارًا على كل من يحادون الله ورسوله، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، كما شهد بذلك تاريخ البشرية الطويل .

٤ ـ التبصير بواقع العدو ولاسيما من الناحية النفسية، وذلك يلفت النظر إلى أن هذا العدو غير عفيف، ولا نزيه فى حربه مع الحق، وأنه لا يتورع من استخدام أى أسلوب يحقق له ما يريد، وإن كان يتنافى مع القيم، والآداب والأخلاق لأن من منطلقاته الثابته التى لا تتغير ولا تتبدل أبدًا : أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الكذب والدجل وقلب الحقائق هو جوهر هذه الأساليب، وأنه وإن كان يبدو متماسكًا مترابط الجأش أمامنا، إلا أنه فى حقيقة أمره، خائف، وجل من داخله، يعانى الكثير والكثير، كما قال سبحانه : ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾

[النساء : ١٠٤]

وأنه حاقد من داخله لا يحب أحدًا، حتى أبناء جلدته كما قال سبحانه : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر : ١٤] .

وأنه ليس له من مولى يعتمد عليه فى حربه لنا سوى الشيطان، والشيطان لا حول له ولا قوة، فى جنب حول وقوة خالقه، وباريه، والممسك بناصيته: ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٣٣ .

إذا تبصر المسلم ذلك، وتبصر أن الله مولاه، وقد وعد بنصر المؤمنين ودحض المبطلين والمجرمين، كما قال سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد] ، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة] ، ووصلت هذه البصيرة لديه إلى حد اليقين، فإنه يتحرز من التشاؤم، ويفتح أمامه باب الأمل، والتفاؤل، والتيامن .

٥ ـ إحياء الفقه الاصطلاحى لا العرفى لكل من الجهاد والنصر، كى يطمئن المعلم، والمربى، والطبيب، والمهندس، والفلكى، والجيولوجى، والتاجر، والصانع، والزارع وغيرهم أنهم بعملهم هذا حين يقصدون به وجه الله، وامتثال أوامره، وإعزاز الأمة، وتحريرها من أن تبقى عالة على عدوها يتحكم فيها كما يشاء، وكيفما شاء، فإنهم مجاهدون كالمحارب فى ميدان القتال سواء بسواء، وأنهم كذلك بثباتهم على منهجهم فى وجه الامتحانات والابتلاءات سواء أكانت شدة أم رخاء، بل حتى موتهم وهم ثابتون على هذا المنهج، عاملون له، يكتبون فى سجل المنتصرين، ورضى الله عن هذا الصحابى الجليل، الذى جاءته ضربة مسددة من قبل عدوه دخلت فى ظهره، فخرجت من صدره فهتف بأعلى صوته قائلا: «فزت ورب الكعبة، فزت ورب الكعبة»، إن إحياء مثل هذا الفقه، له دور كبير فى القضاء على التشاؤم وملء النفس بالتفاؤل، والتيامن .

٦ ـ التأكيد على فقه المحن والابتلاءات، وأنها ليست أبدًا دليل عدم الرضا من الله، فقد سئل رسول الله ﷺ ـ كما قدمنا ـ : أى الناس أشد بلاءً ؟ قال : « الأمثل، ثم الأمثل، فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء، حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة » [١] ، وإنما قد تكون لحكمة يعلمها الله، وهى فى النهاية لصالح المسلم، إن مثل هذا الفقه يقتلع التشاؤم من أغوار النفس، ويزرع مكانه الأمل، والتفاؤل .

٧ ـ الانسلاخ من صحبة المتشائمين ، والارتماء فى أحضان المتفائلين الواثقين بربهم، وبمنهجهم ، وبقدوتهم ، وبأنفسهم ، وبأمتهم الآخذين من ماضيهم العبرة

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى الصبر على البلاء ٤/ ٥٢٠ رقم (٢٣٩٨) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى : الكبرى : كتاب الطب : باب أى الناس أشد بلاء ٤/ ٣٥٢ رقم (٧٤٨١)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الصبر على البلاء ٢/ ١٣٣٤ رقم (٤٠٢٣)، وأحمد فى : المسند ١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥، كلهم من حديث سعد بن أبى وقاص ﷺ به .

حاضرهم، فإن مثل هذا الانسلاخ له دور كبير في علاج التشاؤم، وتحلية النفس بالتفاؤل والتيامن .

٨ ـ دوام النظر في قصص الماضين مكذبين ومصدقين، وطبيعة الصراع بينهم، والنتيجة التى أسفر عنها هذا الصراع، فإن ذلك يطمئن المؤمنين، ويريحهم من داخلهم أن العاقبة لهم مصداقًا لقوله سبحانه :

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص] ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] ، ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) ﴾ [فاطر] ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران] .

٩ ـ الموازنة المستمرة بين حاضر هذه الأمة، وماضيها القريب، ولا سيما هذا الماضى الذى اقترن بسقوط الخلافة الإسلامية، وسيظهر من هذه المقارنة أنه بعد أن كان الالتزام بالشعائر التعبدية أو بالعبادات المخصوصة من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وعمرة، وحفظ وتلاوة لكتاب الله، والذكر، والدعاء، والاستغفار، والحفاظ على الحجاب والزى الإسلامى، سمة واضحة من سمات كبار السن الذين أحيلوا إلى التقاعد عن العمل أو هدهم المرض، فوهنت قواهم وضعفت بنيتهم، فلا يصلى إلا العجوز رجلا أو امرأة، ولا يرسل اللحية إلا الكبير الطاعن فى السن، ولا تلتزم بالحجاب والزى الإسلامى إلا العجوز التى صارت من القواعد، ولا يحج، ولا يعتمر إلا العجائز، ولا يصوم إلا الكبير . . . وهكذا حتى كان الشاب الذى يحاول الالتزام بهذه الشعائر محل سخرية واستهزاء من الآخرين .

بعد هذا كله تبدلت الصورة، وصار الالتزام بهذه الشعائر هو السمت العام فى الأمة، ولاسيما فى صفوف الشباب، وخير دليل على ذلك : المساجد فى أيام رمضان، ولاسيما فى العشر الأواخر، عشر الاعتكاف، حيث تغص هذه المساجد بالشابات والشباب كل فى مصلاه، وصلاة العيد، حيث تمتلئ الساحات بالشباب، والشابات، والأطفال كل فى مصلاه، والحج والعمرة حتى أصبحت نسبة الشباب والشابات إلى العجائز كبيرة جدًا ربما تجاوز السبعين فى المائة، وكذلك الالتزام بالحجاب والزى الشرعى صار هو السمة العامة فى الأمة، حتى المتبرجات اللائى يرغبن فى الزواج صرن على يقين أن الشباب لا يرغب فيهن، وهن هكذا متبرجات، ومن ثم يرتدين الحجاب، وإن لم يكن كاملا، ولكنه خطوة على الطريق، ودليل أن الأمة قطعت شوطًا لا بأس به

على طريق العودة إلى الإسلام، وانتشرت أيضًا مدارس، ومعاهد، وحلقات القرآن، والحديث حفظًا، وترتيلا، وفقهًا، وتدبرًا، حتى فى قعر أوربا الشرقية والغربية وأمريكا.

وبعد أن كانت اللامبالاة، وعدم التفريق بين الحلال والحرام فى المطاعم والمشارب، والملابس، والمراكب، والسكن هى السمة العامة فى الأمة، حتى انتشرت البنوك الربوية في كل بلاد المسلمين، وحتى عمت وشاعت الرشوة، والغش، والاحتكار، والسلب والنهب هنا وهناك، بعد هذا كله صارت الدقة فى تحرى الحلال والحرام هى الأساس والأصل، فكانت البنوك والمصارف الإسلامية الموزعة فى كل أنحاء العالم، والتى جاوزت الخمسين حتى الآن، وصار الإقبال عليها من المسلمين عديم النظير، حتى لو لم يحصلوا عليها عائدًا أو فائدة، حسبهم أنها خالية من الربا، وكان السؤال بإلحاح عن كل شىء، أهو حلال أو حرام، حتى سألت امرأة أن زوجها يمشى لزيارة أقاربه، وأموال هؤلاء الأقارب كلها ربا فى ربا وهو يأكل عندهم، ثم يعود فيعاشرها، فهل يصيبها شىء من هذا الحرام ؟ وحتى أصبح الناس، ولاسيما الشباب والشابات يسألون عن العمل مع هذه الأنظمة التى تحكم بغير ما أنزل الله، وفى ظلها، ولاسيما فى الشرطة والجيش والبنوك، وغيرها، وعن العائد المالى من وراء العمل فى هذه المؤسسات.

وبعد أن كان الساسة، والحكام والحزبيون وغيرهم يعلنون فى إصرار ألا دخل للدين فى السياسة، ولا دخل للسياسة فى الدين، صارت السمة العامة لأولئك - إرضاءً للشعوب المسلمة التى لا يرضيها إلا أن تحكم بشرع الله - أن الإسلام دين ودولة، صحيح هم يقولونها بأفواههم، ولا تؤمن بها قلوبهم، لكن لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، وهى كذلك خطوة على الطريق .

وبعد أن كان التعليم ينطلق من العلمانية التى تفصل بين التعليم المدنى والتعليم الشرعى، حتى خرج لنا طائفة من الملحدين الذين يحادون الله ورسوله، وتولوا هم بأنفسهم بذر بذور الشر والفساد فى الأمة، أصبح التعليم فى كثير من المدارس، والمعاهد، والجامعات ينطلق من منطلق إسلامى، ألا وهو عدم الفصل بين التعليم الشرعى والتعليم المدنى، بل هناك قدر من العلوم العينية وهو ما تصح به العقيدة، والعبادة، والسلوك، وتضبط به النظم والتشريعات تتعلمه الأمة كلها رجالا ونساءً، صغارًا، وكبارًا، ثم يكون التخصص فى فرع أو أكثر من فروع المعرفة التى بها تعز الأمة، وتسود، ولقد أثمر التعليم بهذا المنطلق الجديد حتى صرنا نرى طبيبًا أو مهندسًا أو فلكيًا يحدثك فى الإسلام حديثًا يفوق به المتخصصين فى العلوم الشرعية، إن هذه الموازنة ضرورية لاقتلاع جذور التشاؤم من النفس، وصبغها بصبغة الأمل، والتفاؤل .

١٠ ـ التذكير المستمر بعواقب التشاؤم الدنيوية، والأخروية، الفردية والجماعية على النحو الذى شرحنا، فإن ذلك أيضًا له دور كبير فى علاج التشاؤم، واستبداله بالتفاؤل والتيامن، إذ الإنسان كثيرًا ما ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير الدائم: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] ، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الاعلى] .

١١ ـ الحرص على حضور التجمعات الإسلامية فى موسم الحج، وفى المؤتمرات، وفى الندوات، والمحاضرات، وفى رمضان، وفى العيدين، فإن رؤية جموع المسلمين، وإقبالهم على دينهم مما يزرع فى النفس الثقة والتفاؤل، ويخلصها مما تعانى من التشاؤم.

١٢ ـ الوقوف طويلا عند الحركات الجهادية التى انطلقت الآن فى كل مكانٍ فى العالم، ولاسيما فى أفغانستان وفلسطين باذلةً النفس والنفيس من أجل زحزحة وإزاحة الباطل من طريق الناس، والتمكين لمنهج الله فى الأرض، ولقد لاحت بشائر النصر، فها هى أفغانستان يقوم فيها ـ بمشيئة الله تعالى ـ بعد جهاد دام قريبًا من خمسة عشر عامًا حكم إسلامى يطبق القرآن، وهدى النبى الأمين محمد ﷺ، فضلا عن أن سقوط الشيوعية الحمراء الملحدة التى كانت تحكم نصف العالم كان ثمرة مباشرة من ثمار هذا الجهاد الأفغانى، وها هم أطفال الحجارة فى فلسطين يدوخون اليهود والصهاينة فى إسرائيل ويجعلونهم يدورون حول أنفسهم متسائلين : أين طريق الخلاص ؟ إن الوقوف عند مثل هذه الحركات الجهادية المنتشرة هنا وهناك فى كل أنحاء العالم ، ولاسيما العربى والإسلامى له دور كبير فى زرع الثقة والتفاؤل فى النفس ، وتحريرها من التطير والتشاؤم .

الآفة الحادية والعشرون
التنطع أو الغلو فى الدين

والآفة الحادية والعشرون التى أصابت، وتصيب نفراً من العاملين لدين الله، وتكاد تهوى بأصحابها فى أودية الهلاك، ومهاوى الضلال إنما هى : « التنطع أو الغلو فى الدين » .

وحتى يكون لدينا تصور واضح، أو قريب من الواضح عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، فإننا سنعرض لها على النحو التالى :

أولا : ماهية التنطع أو الغلو فى الدين :

لغة : التنطع فى أصل وضعه اللغوى، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى فى الفم، أو الجلدة الملتزقة بآخر الفك العلوى من الفم، وبها آثار كالتحزيز، وعندها موقع اللسان فى الحنك . ثم استعمل فى كل تَعَمُّقٍ قولا، وفعلا، يقال : تنطع فى الكلام وتنطس، إذا تأنق فيه، ونشدق، وتعمق، وتنطع فى الفعل إذا تكلف فيه، وأتى بما يشق به على نفسه، وعلى غيره[1] .

والغلو لغة : هو الارتفاع، أو الإفراط، ومجاوزة الحد أو القدر فى كل شىء، تقول : غلا فى الدين، وغلا فى الأمر غلواً، جاوز حده، وفى التنزيل : ﴿ **لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** ﴾ [النساء : ١٧١] أى لا تفرطوا فيه، ولا تتجاوزوا حد الاعتدال، أو حد التوسط[2] .

اصطلاحا : أما معنى التنطع أو الغلو فى الدين فى الاصطلاح الإسلامى فإنما هو : التعمق، أو الإفراط، أو مجاوزة الحد فى الأقوال والأعمال[3] ، وبعبارة أخرى : هو

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ١٥٣، ولسان العرب لابن منظور ٨/ ٣٥٧، مادة (نطع) بتصرف .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١٦٩، ولسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٣١، ١٣٤ بتصرف كثير .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووى ١٦/ ٢٢٠ .

تحميل الأقوال، أو الكلمات والأعمال فوق ما تحتمل، والتنطع بهذا المعنى يساوى الغلو، كما يساوى التشدد فى الدين، وقد جاء التحذير من هذا كله فى كتاب الله، وعلى لسان النبى ﷺ وصحابته، وسائر السلف، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ محذراً أهل الكتاب من الغلو فى الدين : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾ [النساء]، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾ [المائدة] .

ويقول النبى ﷺ: « هلك المتنطعون »[(١)]، قالها : ثلاثًا .

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : والذى لا إله إلا هو، ما رأيت أحداً كان أشدَّ على المتنطعين من رسول الله ﷺ، وما رأيت أحداً كان أشد عليهم من أبى بكر، وإنى لأرى عمر كان أشدَّ خوفًا عليهم، أو لهم [(٢)] .

ويقول أيضًا : عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب بأصحابه، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إليه، أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق [(٣)] .

ويقول نافع مولى عبد الله : إن صبيغًا العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص، إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه، فقال : أين الرجل ؟ فقال : فى الرحل، قال عمر : أبصر أن يكون ذهب، فتصيبك منى العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر : تسأل

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥ رقم (٢٦٧٠)، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب فى لزوم الجماعة ٤/ ٢٠١ رقم (٤٦٠٨)، وأحمد فى : المسند ١/ ٣٨٦ كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع ١/ ٥٣ من حديث عبد الله بن مسعود موقوفًا عليه بهذا اللفظ .

(٣) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع، والتبدع ١/ ٥٤ من حديث أبى قلابة موقوفًا على ابن مسعود بهذا اللفظ .

محدثة؟ فأرسل إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبره[١] ، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، قال : فقال صبيغ : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداوينى، فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى ألا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته[٢] .

ويقول مسروق: كنت أمشى مع أبى بن كعب، فقال فتى: ما تقول يا عماه، كذا، وكذا، فقال: يا ابن أخى، أكان هذا ؟ قال: لا، قال: فاعفنا حتى يكون[٣] .

ويقول الصلت بن راشد : سألت طاووسًا عن مسألة، فقال لى : كان هذا ؟ قلت: نعم، قال : آلله ؟ قلت : آلله، ثم قال : إن أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل، أنه قال : أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فيذهب بكم هنا وهنا، فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، وإذا قال وفق[٤] .

ويقول إسماعيل بن أبى خالد، سمعت عامرًا يقول : استفتى رجل أبىَّ ابن كعب فقال: يا أبا المنذر، ما تقول فى كذا وكذا ؟ قال: يا بنى أكان الذى سألتنى عنه ؟ قال : لا، قال : أمَّا لا، فأجلنى حتى يكون، فنعالج أنفسنا، حتى نخبرك[٥] .

ويقول حماد بن يزيد المقرئ : حدثنى أبى، قال : جاء رجل يومًا إلى ابن عمر، فسأله عن شىء لا أدرى ما هو، فقال ابن عمر : لا تسأل عما لم يكن، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يلعن من يسأل عما لم يكن[٦] وغير هذا كثير .

---

(١) دبره : أى قرحةً، إذ الدبر بالتحريك هو الجرح الذى يكون فى ظهر البعير، انظر : النهاية ٢/ ١١ .

(٢) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٥، ٥٦ من حديث ابن عجلان، عن نافع مولى ابن عمر، موقوفًا على عمر بهذا اللفظ.

(٣) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث مسروق موقوفًا على أبى بن كعب بهذا اللفظ .

(٤) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث طاووس موقوفًا على معاذ بهذا اللفظ .

(٥) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٦ من حديث عامر موقوفًا على معاذ بن جبل بهذا اللفظ .

(٦) الخبر أخرجه الدارمى فى : السنن : المقدمة : باب من هاب الفتيا، وكره التنطع والتبدع ١/ ٥٠ من حديث حمَّاد بن يزيد المقرئ، عن أبيه موقوفًا على ابن عمر بهذا اللفظ .

ثانيًا : مظاهر التنطع أو الغلو فى الدين :

ومظاهر التنطع أو الغلو فى الدين كثيرة، نذكر منها :

١ ـ كثرة الافتراضات، والسؤالات عما لم يقع، أو عما عفا الله ـ عز وجل ـ عنه، وسكت، حيث يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾ [المائدة] .

٢ ـ المبالغة فى التطوع المفضى إلى ترك الأفضل، أو تضييع الواجب، كمن بات يصلى الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه فى آخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة .

٣ ـ العدول عن الرخصة فى موضعها إلى العزيمة، كمن يباح له التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيترك التيمم، ويصر على استعمال الماء فيفضى به ذلك إلى ضرر فى بدنه .

٤ ـ الاشتغال بمسائل الفروع على حساب الأصول، أو استفراغ الجهد فى المختلف فيه، مع إهمال المجمع، أو المتفق عليه، كمن يركز على مسائل السواك، أو قصر الثوب، والعذبة ونحوها، ويهمل قضية تعطيل شرع الله فى الأرض، أو كمن يقضى وقته فى قضية الجهر بالبسملة، أو الإسرار بها، وكذلك قضية وضع اليدين فى الصلاة: هل على السرة، أو فوقها، أو تحتها ؟ ويهمل الحديث عن انتشار الخمور، وتفشى البغاء، وسفك الدماء، وتتبع العورات، والإفساد فى الأرض .

٥ ـ التكفير بالمعصية، أو بالكبيرة، بل تكفير من لم يكفر الكافر، وكذلك جعل الأصل فى الأشياء الحظر، أو الحرمة، مع أن القاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة، أو الحل، إلا ما جاء النص بخلافه .

٦ ـ إحياء الكلام فى المسائل التى فرضتها ظروف معينة، ثم انتهت بانتهاء هذه الظروف، مثل الكلام فى مسائل الصفات، وخلق القرآن، والخلاف الذى نجم بين الصحابة، ونحو ذلك [1] .

---

(١) انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالى : المقدمة ص ٧ ـ ١٢ بتصرف كثير .

ثالثًا : أسباب التنطع، أو الغلو فى الدين :

ويوقع في التنطع أو الغلو فى الدين أسباب عدَّة، وبواعث كثيرة نذكر منها :

١ ـ البيئة :

فقد ينشأ الإنسان فى بيئة شأنها الغلو، أو التنطع سواء أكانت بيئة قريبة، ونعنى بها البيت، أم بيئة بعيدة، ونعنى بها مجتمع الأصحاب، والأصدقاء، وليست لديه حصانة فكرية، فيحاول الاقتداء، والتأسى، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وحينئذ يقع فى آفة التنطع أو الغلو .

٢ ـ التكوين النفسى والفكرى :

وقد يكون التكوين النفسى والفكرى لنفر من الناس من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، كأن يحرم هؤلاء من المربى أو الموجه الذى يرشدهم، ويوجههم إلى بعد النظر، واتساع الأفق، فينشئون على الوقوف عند الشكليات والقشور، مهملين اللباب والجوهر، وذلك هو عين التنطع، أو الغلو .

٣ ـ الذكاء مع الفراغ، وعدم البصيرة بالأولويات :

وقد يمن الله ـ عز وجل ـ على إنسان ما، بقدر من الذكاء الفطرى ولكنه يعيش فى فراغ، مع عدم البصيرة بالأولويات، ويحاول ـ شأنه شأن أى إنسان آخر ـ توظيف هذا الذكاء، وشغل ذلك الفراغ، وحينئذ يكون فريسة آفة التنطع، أو الغلو، إذ أن من سمات النفس البشرية أن صاحبها إن لم يشغلها بالحق، شغلته بالباطل .

٤ ـ الاعتماد على النفس من أول الأمر فى تحصيل العلم، أو المعرفة:

وقد تكون لدى المسلم الرغبة فى تحصيل العلم، أو المعرفة، ولا دراية له بالطريق فيأخذ فى الاعتماد على نفسه من أول الأمر فى تحصيل هذا العلم، أو هذه المعرفة، ويجعل جلَّ اهتمامه الكتب، فتجنح به هذه الكتب نحو التنطع أو الغلو، نظرًا لأن الكتاب وجهة، أو وجهات نظر صامتة، لا تملك القدرة على رد التساؤلات التى تثيرها قراءة هذا الكتاب أو الاطلاع عليه، أو التى يثيرها الواقع نفسه .

بينما لو كان تحصيل هذا العلم، أو هذه المعرفة بواسطة مربٍّ أو موجهٍ فإن هذا المربى، أو هذا الموجه لسعة اطلاعه، وتجربته، وبصيرته النافذة يمكنه الردَّ علىَ كل هذه التساؤلات، بل حتى على الشبهات إن وجدت .

٥ ـ الأخذ أو التلقى عن الجاهلين :

وقد تكون لدى المسلم الرغبة فى تحصيل العلم أو المعرفة، ولا يعرف على يد من يكون الأخذ، أو التلقى، وتلقى به المقادير فى أيد الجاهلين وتصير العاقبة الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

ولعل هذا هو ما أشار إليه النبى ﷺ حين قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رءوسًا جهالا فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا »[1] .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أن المراد بالجهل بالدين ليس هو الجهل المطلق، إذ هذا الجهل المطلق يفضى بصاحبه عادةً إلى الانحلال والتسيب لا إلى التنطع أو الغلو، وإنما المراد به الجهل بالاجتهاد وأسلوبه أو طريقته، إذ هو المفضى إلى التنطع أو الغلو .

٦ ـ خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك:

وقد يكون خلو الساحة أو الميدان من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور بل والسلوك، هو السبب فى الوقوع فى آفة التنطع، أو الغلو، ولاسيما إذا كانت هناك حماسة أو قوة إيمان وعاطفة تدفع إلى العلم لدين الله، والتمكين له فى الأرض، على نحو ما وقع لنفر من شباب الصحوة الإسلامية اليوم، فقد شاهدوا انكماش العلماء، وغيابهم من الميدان أو الساحة إيثاراً للعافية، والسلامة، وتقدموا هم لحمل الراية، واعتمدوا على أنفسهم فى الفقه أو الاستنباط، فكان الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

٧ ـ تعطيل شرع الله فى الأرض :

وقد يكون تعطيل شرع الله فى الأرض، وما نتج عنه من انتشار أو ذيوع الشر والفساد وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، كرد فعل مضاد لذلك، على نحو ما وقع لنفر من أبناء أمتنا المسلمة فى هذا العصر، فقد رأى شرع الله معطلا، والشر والفساد

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب كيف يقبض العلم ١/ ٣٣، ٣٤، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يذكر من ذم الرأى، وتكلف القياس ٨/ ١٤٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب العلم : باب رفع العلم وقبضه ٤/ ٢٠٥٨، (٢٦٧٣)، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب منه ٥/ ٣١ رقم (٢٦٥٢)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب اجتناب الرأى والقياس ١/ ٢٠ رقم (٥٢)، كلهم من حديث عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو، مرفوعًا، واللفظ للبخارى، وعقَّب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح » .

على أشده، فحمله حبه لدينه، وحرصه على مرضاة ربه، أن ينبرى وحده للعمل دون أن يكون معه موجه أو مرب، فتردى فى آفة التنطع أو الغلو .

٨ ـ الحظوظ النفسية :

وقد تكون الحظوظ النفسية من حب الذيوع والشهرة،أو الثناء والمحمدة، أو المغنم والجاه، من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، من منطلق أن التنطع أو الغلو يحمل فى طياته غالبًا كل شاذٍّ وغريب، والشواذ والغرائب من بين ما يكسب الذيوع والشهرة، أو الثناء والمحمدة، بل ربما توصل إلى المغنم والجاه، تطبيقًا لمبدأ : « خالف تعرف، وتغنم » .

٩ ـ الرغبة فى تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق :

وقد تكون الرغبة في تحقيق مزيد من القرب من الله مع الغفلة عن أبعاد ومعالم الطريق، من وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو .

وقد نقل عن نفر من الصحابة ما يؤكد ذلك، إذ جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فى السر، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر ؟ قال أحدهم: أمَّا أنا فأصلى الليل أبدًا، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر لا أفطر، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا، وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» (١) .

١٠ ـ الإغراء بالدنيا :

وقد يكون الإغراء بالدنيا ممثلةً فى الجاه، والمركز، والمنصب، أو فى المال، أو فى تذليل صعوبة من الصعوبات، أو تخطى عقبة من العقبات، أو نحو ذلك، قد يكون ذلك كله من العوامل التى توقع فى آفة التنطع أو الغلو، ولاسيما إذا كان هذا الإغراء لأناس ليست لديهم الحصانة الفكرية، والنفسية، على نحو ما ذكر الأستاذ المرحوم عمر التلمسانى فى بعض أحاديثه من أن السلطات فى بعض البلاد الإسلامية والعربية قد أقطعت بعض الجماعات الغالية أو التى لديها استعداد للغلو، أقطعتها أرضًا لفلحها، وزراعتها ، والانتفاع بخيرها بهدف تشجيع التنطع أو الغلو ، فى مواجهة التوسط

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

والاعتـدال الذى عرفت به الجمـاعة التى هى كبـرى الحركات الإسـلاميـة فـى العصر الحديث .

١١ ـ الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبِّه :

وقد تكون الكراهية للإسلام مع التظاهر بحبه وراء الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، على نحو ما وقع من عبد الله بن سبأ اليهودى، ومغالاته فى شأن سيدنا على ﷺ من أنه حلَّ فى الإله، أو هو الإله، وأنه لم يمت، وإنما رفع إلى السماء، وأن الرعد صوته، والبرق نوره وسناؤه، وما تبع ذلك من الغلو فى شأن الأئمة، وادعاء العصمة لهم .

١٢ ـ الشدة أو الإكراه والضغط :

وقد تكون الشدة، أو الإكراه، والضغط ـ سواء من البيت، أو المجتمع، أو الدولة ـ من بين العوامل، أو البواعث التى تدفع إلى الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو، على نحوٍ ما وقع لنفر من أبناء الحركة الإسلامية اليوم، فقد رأوا الجلادين يصنعون بهم ما يجلُّ عن الوصف، وما جعل الكلاب البوليسية، تتحول إلى عض، وإيذاء هؤلاء الجلادين لأولئك الأبرياء، لا لشىء إلا لأنهم قالوا : ربنا الله، فانقلبوا يحكمون على هؤلاء، بل على المجتمع كله لسكوته على هذا المنكر، أو هذا الصنيع بالكفر، فوقعوا فى آفة التنطع أو الغلو .

١٣ ـ الهجوم العلنى والتآمر الخفى على الأمة الإسلامية :

ذلك أن الأمة الإسلامية فى كل أقطار الأرض لقيت، وما زالت تلقى هجومًا شرسًا عليها، وعلى حرماتها، ومقدساتها، مرة فى صورة علنية، وأخرى فى صورة سرية أو خفية، ويشارك فى هذا الهجوم كل القوى غير المسلمة من يهودية وصليبية، وشيوعية، ووثنية، وذيول هؤلاء وأذنابهم من أبنائنا نحن المسلمين من كلٍّ من غرهم بريق المادية فى الشرق أو فى الغرب، ولا يسع مسلمًا يؤمن بالله والدار الآخرة، ويوقن بالأخوة الإسلامية، ويعتز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، ويفهم أن المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ـ أقول : لا يسعه أن يسمع، ويرى مآسى أمته فى كل مكان، وما يلقاه إخوانه هنا وهناك من إبادة مادية تتمثل فى التقتيل والتنكيل، أو معنوية تتمثل فى التنصير أو على الأقل : التجهيل والتضليل، ثم يمسى، ويصبح قرير العين، ضاحكًا ملء سنه، نائمًا ملء جفنيه، بل لا بد أن يخامره شعور قوى وأكيد بضرورة التصدى ، والمواجهة ، وحين يأخذ فى التصدى ، والمواجهة يصيبه

ما يصيب أى إنسان يبصر أمته وقد تكالب عليها الأعداء من كل مكان تكالب الأكلة على القصعة، من التنطع أو الغلو .

١٤ ـ التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج :

وقد يكون التصدر للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء وكمال النضج: من ضرورة ربط الجزئيات بالكليات، ورد المتشابهات إلى المحكمات، وتحاكم الظنيات إلى القطعيات، والقدرة على الجمع بين المختلفات عند التعارض أو

الترجيح، وعدم الأخذ بظاهر النص، إلا بعد التغلغل فى فهم فحواه، ومعرفة أهدافه ومقاصده، قد يكون ذلك من أسباب الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين .

١٥ ـ نسيان العواقب المترتبة على الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين :

وقد يكون نسيان العواقب المترتبة على الوقوع فى آفة التنطع أو الغلو فى الدين من بين الأسباب التى توقع فى هذا التنطع أو الغلو، إذ الإنسان إذا نسى عاقبة الشيء تجرأ على فعله، وتعاطيه، وإن كان فيه حتفه وهلاكه، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] .

رابعًا : آثار التنطع أو الغلو فى الدين :

وللتنطع أو الغلو فى الدين آثار ضارة، وعواقب مهلكة، سواء على العاملين أو العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

أما آثار التنطع أو الغلو فى الدين على العاملين، فكثيرة، نذكر منها :

١ ـ كراهية الناس، ونفورهم من المتنطع أو المغالى فى الدين :

ذلك أن المتنطع أو المغالى فى الدين، إنما هو واقف فى الطرف بعيدًا عن الوسط، فكرًا كان ذلك أو سلوكًا، ومثل هذا لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم، لم يصبر عليه جمهورهم، وحينئذ يكون النفور، وتكون الكراهية .

ولعل هذا الأثر هو ما أشار إليه النبىﷺ فى حديث أبى مسعود إذ قال : إن رجلا قال : يا رسول الله، إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا، فما رأيت رسول اللهﷺ فى موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال : « إن منكم

منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف، والكبير وذا الحاجة»[١] ، وما أشار إليه عمر ﷺ بقوله : « لا تُبغِّضُوا الله إلى عباده، فيكون أحدهم إمامًا، فيطوِّل على القوم الصلاة حتى يُبَغِّض إليهم ما هم فيه »[٢] .

٢ ـ الفتور أو الانقطاع :

ذلك أن التنطع، أو الغلو قصير العمر، والاستمرار عليه في العادة غير متيسر إذ الإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يومًا على التشدد والتعسر فسرعان ما تكل دابته، أو تحرن عليه مطيته في السير، ونعني بها جهده البدني، والنفسي، فيسأم، ويدع العمل حتى القليل منه أو يأخذ طريقًا آخر، على عكس الطريق الذى كان عليه، أى ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسيب .

ولعل هذا هو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل »[٣] . وحديث ابن عباس : قال : كانت مولاة للنبي ﷺ تصوم النهار، وتقوم الليل، فقيل له : إنها تصوم النهار، وتقوم الليل فقال ﷺ : « إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى »[٤] .

٣ ـ تضييع العمر، وتبديد الجهد في غير ما طائل ولا فائدة :

وذلك أن جهد المتنطع أو المغالي إنما هو مصروف إلى ثانويات الأمور فكرًا أو سلوكًا، دون أصولها، وهو بهذا يضيع عمره، ويبدد جهده في غير ما طائل ولا فائدة،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب العلم: باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره ١/ ٣٣، ٣٤ : وكتاب الصلاة : باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود، وباب من شكا إمامه إذا طوَّل ١/ ١٨٠، وكتاب الأدب : باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ٨/ ٣٣، وكتاب الأحكام : باب هل يقضي الحاكم، أو يفتي وهو غضبان ٩/ ٢، ومسلم في : الصحيح: كتاب الصلاة: باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ١/ ٣٤٠، ٣٤١ رقم (٤٦٦)، والنسائي في : السنن الكبرى : كتاب العلم : باب الغضب عند الموعظة والتعليم إذا رأى العالم ما يكره ٣ / ٤٤٩ رقم (٥٨٩١)، وابن ماجه في: السنن : كتاب الصلاة : باب من أمَّ قومًا فليخفف ١/ ٣١٥ رقم (٩٨٤) كلهم من حديث أبي مسعود البدري ﷺ مرفوعًا .

(٢) الأثر أورده البيهقي في : شعب الإيمان، موقوفًا على عمر، وعنه نقل الحافظ ابن حجر في: فتح الباري ٢/ ١٩٥ قائلا : « وروى البيهقي في الشعب بإسناد صحيح، عن عمر » وساق الحديث . وأورده الدكتور يوسف القرضاوي في الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٣٠ دون أن يعزوه إلى أحد .

(٣) الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

(٤) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الصلاة : باب الاقتصاد في العمل والدوام عليه ٢/ ٢٥٨، ٢٥٩ من حديث ابن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ وعزاه إلى البزار قائلا: « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

وصدق الله الذى يقول: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف] ، إذ يفسر الحافظ ابن كثير هذه الآية، فيسوق طائفة من الأخبار عن السلف حول معناها قائلا: « قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن مصعب، قال: سألت أبى - يعنى : سعد بن أبى وقاص - عن قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا، هم : اليهود، والنصارى، أما اليهود، فكذبوا محمدًا ﷺ وأما النصارى، فكفروا بالجنة، وقالوا : لا طعام فيها، ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، وقال على بن أبى طالب، والضحاك، وغير واحد هم الحرورية » [1] .

ثم يبدى رأيه فيها بعد ذلك، فيقول : « ومعنى هذا عن على رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية، كما تشمل اليهود، والنصارى، وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هى أعمُّ من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود . . . » [2] .

٤ - التقصير فى حقوق الآخرين :

وذلك أن المتنطع أو المغالى إنما يدور فى فلك معين من الفكر والسلوك الأمر الذى ينتهى به إلى التقصير فى حقوق يجب أن تراعى، وواجبات ينبغى أن تؤدى.

ولعل ذلك هو ما حدا برسول الله ﷺ أن يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص - وقد بلغه انهماكه فى العبادة، انهماكًا أنساه حق أهله عليه : « ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل ؟ »، ويجيبه عبد الله بقوله : بلى يا رسول الله، ويرد عليه النبى ﷺ ناصحًا، وموجهًا: «لا تفعل: صم، وأفطر، وقم، ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا » [3] .

(١، ٢) انظر : تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/١٠٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب حق الجسم فى الصوم، وباب حق الأهل فى الصوم ٣/ ٥١، ٥٢، ومسلم فى الصحيح : كتاب الصيام : باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوّت به حقًا ٢/ ٨١٣ - ٨١٨ رقم (١١٥٩)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الصوم : باب صوم يوم وإفطار يوم ٢/ ١٢٨ رقم (٢٦٩٩)، وباب صوم عشرة أيام من الشهر ٢/ ١٣٢ رقم (٢٧٠٩) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

٥ ـ القلق والاضطراب النفسى :

وذلك أن المتنطع أو المغالى إنما يريد حمل الآخرين على ما يوافق هواه وما يريد، وما الآخرون بمستجيبين له، ولا بموافقيه فيما يهوى، وفيما يريد، وتكون العاقبة حينئذ القلق، والاضطراب النفسى، بل العدوان على الآخرين، حيث لم تتحقق رغبته، ولم تجب طلبته .

وإن الواقع المعاش ليشهد بذلك، حتى إنا لنرى المتنطعين أو المغالين أضيق الناس صدرًا، وأشدهم قلقًا واضطرابًا، وأكثرهم فورانًا وغضبًا، بل ربما استخدامًا للقوة، لحمل الآخرين على ما يريدون .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثاره على العمل الإسلامى فكثيرة، نذكر منها :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن المغالين أو المتنطعين ؛ لقصور الفهم لديهم، لا يلتقون على رأى واحد، ولا يقبل الآخرون رأيهم ، وحينئذ تكون الفرقة ، ويكون التمزق ، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن عباس ﷺ إذ خلا عمر ﷺ ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد ؟ فأرسل إلى ابن عباس ﷺ فقال : كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد ؟ فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين، إنما أنزل علينا القرآن، فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأى، فإذا كان كذلك اختلفوا . وفى رواية: فيكون لكل قوم فيه رأى، فإذا كان لكل قوم فيه رأى اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا . فزجره عمر، وانتهره على ... فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه وقال : أعد على ما قلته، فأعاد عليه، فعرف قوله : وأعجبه [١] .

٢ ـ كثرة التكاليف، وطول الطريق :

ذلك أن التنطع أو الغلو مكروه منفر، الأمر الذى يعطى المتربصين بالعمل الإسلامى الفرصة لتوجيه الضربة بعد الضربة من أجل القضاء على هذا العمل أو على الأقل إجهاضه بحجة التشدد، أو التزمت، وحينئذ تكثر التكاليف وتطول الطريق .

---

(١) الأثر أورده الشاطبى فى : الاعتصام ١٨٣/٢، وعنه نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٨٧ .

٣ ـ الحيلولة دون كسب الأنصار :

ذلك أن العنف أو الشدة التى هى من لوازم التنطع أو الغلو، تحول دون كسب الانصار، فقد جبلت النفوس على حبٍّ من أحسن إليها، ورفق بها، وعلى بغض من أساء إليها، وقسا عليها، وحسبنا أن نجاحهﷺ فى دعوته، ما كان إلا بالرفق، واللين: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

خامسًا : علاج التنطع أو الغلو فى الدين :

وعلى ضوء ما قدمنا من أسباب للتنطع، أو الغلو فى الدين ندرك طريق العلاج وتتلخص فى الخطوات التالية :

١ ـ تطبيق حكم الله فى الأرض: عقيدة، وعبادة، أخلاقًا، ونظمًا، أو تشريعات، فكرًا وسلوكًا، وعلى كل المستويات : الفردية، والجماعية، الشعبية والقيادية، فإن هذا من شأنه أن يشبع الميول الفطرية الكامنة عند هؤلاء، فيستريحوا من القلق والاضطراب النفسى، بل من محاولة التنفيس عن هذا القلق وذلك الاضطراب بواسطة العنف والقوة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه سيقضى على كل مظاهر الشر والفساد التى تثير هؤلاء، وتميل بهم نحو التنطع أو الغلو : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [الروم]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ [المائدة] ، ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف] ، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة] .

٢ ـ تشجيع العلماء العاملين، والدعاة المجاهدين، على أداء دورهم، والقيام بواجبهم نحو الإسلام،والمسلمين بعامة،والمعروفين بالتنطع أو الغلو، وذلك برفع سوط الملاحقة، والمتابعة من فوق ظهور هؤلاء ومنحهم حرية التعبير عما تفرضه عليهم الأمانة التى كلفهم الله ـ عز وجل ـ بها، وحملهم إياها، فإن ذلك له دور كبير فى القضاء على التنطع أو الغلو فى الدين .

٣ ـ التبصير بفقه العبودية، والدعوة إلى الله، والفتوى، من ترتيب الأولويات، ومن معرفة بمقاصد الشريعة، وكلياتها، ومن فهم للنصوص فى ضوء بعضها البعض، ومن إلمام بمراتب الأحكام، وطريق ثبوتها، والعلاقة بينها عند التعارض، ومن رعاية لأدب الخلاف، وعن العلم بقيم الأعمال، ومراتبها، ومراتب المأمورات، والمنهيات، بل

مراتب الناس مع الأعمال، وتقدير ظروف الناس، وأعذارهم، ومن الإلمام بسنن الله فى خلقه : الكونية منها، والشرعية، ولاسيما سنن وشروط النصر، فإن هذا التبصير كاف فى القضاء على التنطع، أو الغلو، وقد أمر الله ـ عز وجل ـ بهذا فقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

٤ ـ دوام النظر فى التاريخ البشرى بعامة، والإسلامى بخاصة، فإن هذا التاريخ حافل بالنماذج الحية من المتنطعين أو المغالين فى الدين والآثار السيئة التى جناها هؤلاء من وراء التنطع أو الغلو، وهى حافلة كذلك بكيفية التعامل مع هذه الظاهرة والقضاء عليها ومن أبرز هذه النماذج : أهل الكتاب، الحركة السبئية، الحركة الشيعية .

٥ ـ معاملة هؤلاء المتنطعين أو المغالين فى الدين بروح الأبوة، والأخوة من الحنو، والرحمة، والحب، والشفقة، فنخالطهم، ونتعرف عليهم من قرب: كيف يفكرون، وكيف يشعرون، وكيف يسلكون، وكيف يتعاملون، ولا نحكم على الكثرة بحكم القلة، ولا على الواحد بما يقع منه من تصرف، أو تصرفين، وإنما بمجموع تصرفاته، فمن رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته، فهو من أهل الخير، كما يعامل الله سبحانه عباده : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) ﴾ [المؤمنون] .

وألا نبالغ فى تصوير، أو مخالفات هؤلاء، على حين نسكت عن أخطاء غيرهم من كل ما يعرف بالتفريط، أو بالتطرف اللاديني، وأن نشيع جو الحرية، ونرحب بالنقد، ونحيى روح النصيحة فى الدين، ونقول ما قال عمر ﷺ : مرحبًا بالناصح أبد الدهر، مرحبًا بالناصح غدوًا وعشيًا . . رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى .

ونحاكيه عمليًا، إذ قال له رجل : اتق الله يا أمير المؤمنين، فأنكر عليه بعض الحاضرين، ورد عليه عمر بقوله : « دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

وأن نتجنب اللجوء إلى القوة، والبطش لتصفية هذا الفكر، ومطاردة أهله، فإنه يختفى بالاضطهاد، ولا يموت، ويكمن كمون النار فى الكبريت، ولا يزول .

٦ ـ لفت النظر إلى الآثار والعواقب المترتبة على التنطع أو الغلو، سواء منها على العاملين، أو على العمل الإسلامى، فلعل ذلك يساعد فى التخلص من هذه الآفة، ومجاهدة النفس لئلا تبتلى بها مرة أخرى .

٧ ـ شغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد من خلال وضع وتنفيذ برامج تعليمية وإعلامية، وترفيهية، وتدريبية، بحيث تتجاوب هذه مع الفطرة ولا تتعارض مع شرع الله ـ تبارك وتعالى ـ فإن هذا من شأنه أن يمتص الطاقات الكامنة عند هؤلاء، فلا يبقى هناك مجال لتنطع أو غلو [١] .

(١) انظر فى هذه الآفة : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوى بتصرف كثير، والتطرف المنسوب إلى الإسلام للدكتور يحيى هاشم بتصرف كثير .


الجزء الرابع

الآفة الثانية والعشرون
المراء أو الجدل

الآفة الثانية والعشرون التى قد يبتلى بها نفر من العاملين، بل لقد ابتلوا بها بالفعل، وكانت وراء كثير مما نعانى نحن المسلمين العاملين لدين الله اليوم إنما هى : «المراء أو الجدل» .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتُلى بها، ويتوقاها من سلَّمه الله ـ عز وجل ـ منها، فإنه لابد من الوقوف على حقيقة أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال الجوانب الآتية :

أولا : تعريف المراء أو الجدل :

لغة : يطلق المراء فى لغة العرب على معان عدة، أهمها :

أ ـ الشك، تقول : امترى فى الشىء : تعنى شك فيه، ومنه قوله سبحانه فى التنزيل : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة] .

ب ـ مخالفة الغير والتّلوِّى عليه أو عدم الوضوح معه، تقول : مارى فلان فلانا، أى خالفه وتلوَّى عليه، أو لم يكن واضحا معه .

جـ ـ المناظرة والجدل، تقول : مارى فلان فلانا، أى ناظره وجادله، ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف : ٢٢] .

د ـ استخراج الشىء من مكمنه، تقول : امترى الشىء، أى استخرجه من مكمنه، وامترى الناقة، أى حلبها واستخرج اللبن من ضرعها .

هـ ـ التَزين والتجمل، تقول : تمرَّى بالشىء، أى تجمل وتزين (١) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، فإن المناظرة أو المجادلة قد تكون فى ظاهرها

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ٦ / ٤١٨٨ ـ ٤١٩١، مادة : « مرا » بتصرف كثير، والمعجم الوسيط ٢ / ٩٠٠، ٩٠١ .

قائمة على التجمل والتزين، ولكنها فى باطنها تقوم على أساس استخراج ما عند الغير ومخالفته، بل والشكك فيما يصدر عنه .

والجدل لغة : يطلق على معان عدة وأهمها :

أ ـ الصَّرْعُ والغلبة، تقول : جدل الرجل، أى صرعه، وغلبه فى الجدل .

ب ـ الإتقان والحسن، تقول : جدل الحبل جَدْلا، أى أحكم فتله وأتقن، وجارية مجدولة الخَلْق، أى حسنته .

جـ ـ شدة الخصومة والمناقشة، تقول : جادله مجادلة وجدالا : ناقشه، وخاصمه، ومنه قوله سبحانه فى التنزيل : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت] . ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] .

د ـ مقابلة الحجة بالحجة، تقول : جادل فلان فلانا : قابل حجته بحجة من عنده(١) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا، فإن إتقان وحسن الخصومة والمناقشة ينتهى إلى الصرع والغلبة غالبا .

اصطلاحا : أما معنى المراء فى اصطلاح الدعاة ، فقد عرَّفه الغزالى فى إحياء علوم الدين بقوله : « كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إمَّا فى اللفظ وإمَّا فى المعنى، وإمَّا فى قصد المتكلم » (٢) .

كما عرف الجدل بقوله: « قصد إفحام الغير، وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه »، وهو غالبا ما يكون فى المسائل العلمية، أما المراء فهو عام فى المسائل العلمية وغيرها (٣) .

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ١ / ٥٦٩ ـ ٥٧١، والمعجم الوسيط ١ / ١١١ ، مادة : « جدل » بتصرف كثير .

(٢ ـ ٣) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ١١٤ .

ثانيًا : صور المراء أو الجدل ، ووضعهما فى ميزان الإسلام :

وللمراء أو الجدل صور أو أمارات يعرف بها كل واحد منهما وأهمها :

١ ـ الطعن فى كلام الغير من حيث اللفظ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو، أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير.

٢ ـ الطعن فى كلام الغير من حيث المعنى، بأن يقول الممارى : ليس الكلام كما تقول، وقد أخطأت فيه من وجه كذا، وكذا .

٣ ـ الطعن فى كلام الغير من حيث القصد ، بأن يقول الممارى لخصمه : هذا الكلام حق، ولكن ليس قصدك منه الحقَّ، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجرى مجراه (١) .

والمراء أو الجدل على هذا النحو مذمومان، وذلك للنصوص الكثيرة الدالة على هذا، ومنها قوله تعالى :

﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] . ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشورى] . ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم]. ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحجر]. ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم]. ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم]. ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر] . ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء]. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام] . ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال رسول الله ﷺ: « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه »(٢) ، «ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »، ثم تلا

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ١١٤ .

(٢) الحديث اخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى حُسْن الخلق ٤/ ٢٥٣ رقم (٤٨٠٠) من حديث أبى أمامة ﷺ مرفوعا، وأورده الشيخ ناصر الدين الألبانى فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٧٣) ، وعزاه إلى أبى داود، وساق له شاهدا يرتقى به إلى درجة الحسن كما قال .

رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف][1] ، « أبغض الرجال الألدُّ الخصم »[2] ، إلى غير ذلك من النصوص الدالة بصراحة ووضوح على ذمّ المراء أو الجدل .

وهذا لا يمنع أن هناك نوعا من الجدل محمود ، وهو ما كان دعوة إلى حقٌ أو إيضاحا وبيانا ودفاعا عن حق، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] . ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] . ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾ [النحل] . ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) ﴾ [هود] .

ثالثًا : أسباب الوقوع فى المراء أو الجدل :

وهناك أسباب أو بواعث توقع فى المراء أو الجدل ونذكر منها :

١ ـ عدم رعاية آداب النصيحة :

وذلك أن للنصيحة فى الإسلام آدابا، وأهمها : أن تكون فى السرّ ما لم يجاهر بها صاحبها، وأن تكون بالأسلوب المناسب وفى اللحظة المناسبة، وأن تكون بنيّة الإصلاح والتغيير إلى ما هو أحسن، وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته . وعدم رعايته هذه الآداب قد يولد فى نفس المنصوح نوعًا من العزّة بالإثم، ويحاول التعبير عنها فى شكل مراء أو جدل ليبرّر به ما هو عليه من خطأ، ولا يقبل النصيحة .

٢ ـ عدم الحظوة بثقة واحترام الآخرين :

وذلك أن المرء قد لا يحظى لسبب أو لآخر بثقة واحترام الآخرين سواء أكان ذلك فى البيئة القريبة ـ ونعنى بها البيت ـ أم فى البيئة البعيدة ـ ونعنى بها المجتمع ـ ويكون

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥ / ٢٥٢، ٢٥٦، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة الزخرف ٥ / ٣٥٣ رقم (٣٢٥٣) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه في :السنن : المقدمة : باب اجتناب البدع والجدل ١ / ١٩ رقم (٤٨) ، كلهم من حديث أبى أمامة الباهلى ﷺ مرفوعا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٦ / ٥٥، ٦٣، ٢٠٥ من حديث عائشة ﷺ مرفوعا بهذا اللفظ .

هذا منزلقا أو مدخلا خطيرا للوقوع فى المراء أو الجدل، كرد فعل يحاول به إثبات وجوده، وحمل الآخرين على الثقة به واحترامه .

ولعل هذا هو السرُّ فى منع الإسلام الكذب ولاسيما على الصغار ؛ لأنه يؤدى إلى سحب الثقة، أو نزع الهيبة والاحترام من نفوس الآخرين، يقولﷺ :

« عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا »(١) . « مَنْ قال لصبىٍّ : تعال هاك، ثم لم يعطه فهى كذبة » (٢) .

وعن رجل من موالى عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوى، أن عبد الله بن عامر حدثه فقال : دعتنى أمى يومًا، ورسول اللهﷺ قاعد فى بيتنا، فقالت : ها تعال أعطيك، فقال لها رسول اللهﷺ : « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : أعطيه تمرا، فقال لها رسول اللهﷺ: « أما إنك لو لم تعطيه شيئا كُتبت عليك كذبة » (٣) .

٣ ـ الميل إلى الغلبة وعدم قبول الهزيمة :

وقد يكون الميل إلى الغلبة، وعدم قبول الهزيمة سببًا من أسباب الوقوع فى المراء أو الجدل ؛ ذلك أن المرء قد يكون ميالا بطبعه إلى الغلبة، ولا يقبل الهزيمة، ويستخدم فى سبيل تحقيق هذا الميل كل ما يتاح له من أسباب ووسائل، ويكون المراء أو الجدل واحدًا من هذه الأساليب، وتلك الوسائل .

ولعل هذا هو السرُّ فى دعوة الإسلام إلى الإنصاف من النفس، إذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٨/ ٣٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم النميمة : وباب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله ٤ / ٢٠١٢، ٢٠١٣ رقم (٢٦٠٧)، كلاهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٢ / ٤٥٢ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى التشديد فى الكذب ٢٩٨/٤ رقم (٤٩٩١) من حديث مولى من موالى عبد الله بن عامر بن ربيعة العدوى، عن عبد الله بن عمر بن عامر رضي الله عنه قال: دعتنى أمى يومًا ... الحديث، غير أن مولى عبد الله مجهول .

إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [المائدة].

ويقول النبيﷺ : « ثلاثٌ مَنْ جمعهُنَّ فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار »[(١)] .

٤ ـ البيئة المحيطة بالمرء :

وقد تكون البيئة التى ينشأ فيها المرء، قريبة كانت هذه البيئة ـ ونعنى بها البيت ـ أو بعيدة ـ ونعنى بها المجتمع ـ هى السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل ؛ ذلك أن المرء كثير ما يتأثر بالجو المحيط به، ولاسيما إذا لم يكن قد أخذ حظه من التربية على كتاب الله وسنة رسوله محمدﷺ ، وتشيع هذه الآفة فى هذا الجو، وحينئذ يقع فريسة لها، ويصير من أخلاقه : المراء أو الجدل .

٥ ـ التشويش على الحقِّ والصَّواب :

وقد يكون التشويش على الحق والصواب، هو السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل، ذلك أن المرء قد يكون على باطل أو خطأ، ويرى شمس الحق ونور الصواب يغزوان هذا الباطل وذلك الخطأ، ويحاولان اقتحام العقل والقلب معا، وهو لا يريد ذلك لسبب أو لآخر، وحينئذ يجعل من المراء أو الجدل سبيلا للتشويش على الحق والصواب، على نحو ما قال المشركون لبعضهم البعض، وهم يتشاورون على كيفية مواجهة الوحى الذى أوحاه الله إلى رسوله محمدﷺوقد حكاه القرآن عنهم فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت] .

وعلى نحو ما يصنعه الملحدون والعلمانيُّون والمشركون فى مواجهتهم للإسلام فى العصر الحاضر من استخدام المراء أو الجدل سبيلا لقلب الحقائق وإدانة الأبرياء، وتبرئة

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب إفشاء السلام من الإسلام (معلقا) ١/ ١٤ قائلا : « وقال عمار : « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان » . . . الحديث، وقد وصله الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ١/ ٨٢ قائلا : « وأثره هذا ـ اى أثر عمار بن ياسر أحد السابقين الأولين ـ أخرجه أحمد بن حنبل فى كتاب الإيمان من طريق سفيان الثورى، ورواه يعقوب بن شيبة فى مسنده من طريق شعبة وزهير بن معاوية، وغيرهما، كلهم عن أبى إسحاق السبيعى، عن صلة بن زفر، عن عمار، ولفظ شعبة : « ثلاث مَنْ كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان » . وهو بالمعنى، وحدَّث به عبد الرزاق بآخره، فرفعه إلى النبىﷺ. . . حتى قال : وله شواهد أخرى بيَّنْتُها فى : تغليق التعليق » .

المتهمين، انطلاقا من قاعدتهم المعروفة : « واجه خصمك بالتشويش والتهويش تُصب منه ولو إلى حين » .

٦ ـ الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة قبل التحصن بالكتاب والسنة :

وقد يكون الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة من المنطق والفلسفة، هو السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل ولا سيما قبل التحصُّن بالكتاب والسنة، ذلك أن هذه العلوم قائمة على الجدل، وتضييع الأوقات بغير طائل، أو بغير جهد يذكر، ومن اشتغل بها قبل أن يحصِّن نفسه بكتاب الله وسنة رسوله محمدﷺ، يبتلى لا محالة بداء المراء أو الجدل .

ولعل هذا هو سر اختلاف علماء المسلمين فى حكم تعلم الفلسفة، والمنطق، فمن قائل بالجواز، وهو سيف الدين الآدمى، انطلاقا من أن الإنسان لديه عقل منحه الله إياه، يستطيع أن يزن به الأمور، وأن يميز به بين الحق والباطل، النافع والضار، ومن قائل بالمنع، وهو الحافظ أبو عمرو المعروف بابن الصلاح، انطلاقا من أن هذه العلوم تُعلِّم المراء أو الجدل، وتنتهى بالإنسان إلى الشك وربما إلى الإلحاد والعياذ بالله، ومن متوسط يجيزها إذا صارت لدى المسلم حصانة من كتاب الله، وسنة نبيه محمدﷺ ، ويمنعها إذا لم تتحقق هذه الحصانة حيث يخشى على المسلم حينئذ الشطط والفتنة فى الدين، وهو قول الإمام النووى ـ رحمه الله تعالى.

٧ ـ الإعجاب بالنفس بل الغرور والتكبر :

وقد يكون الإعجاب بالنفس بل الغرور والتكبُّر، هو السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل ؛ ذلك أن مَنْ كان مُعجبًا بنفسه، بل مغرورا متكبرا يلجأ إلى كثير من الأساليب والوسائل ليحتفظ بما ارتضاه لنفسه من هذه الأمراض والآفات .

ويعدُّ المراء أو الجدل من أهم هذه الأساليب وتلك الوسائل، وهذا هو الذى صنعه إبليس ـ لعنه الله ـ عندما أُمر مع الملائكة بالسجود لآدم ﷺ، وامتنع، وقال له ربه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] عند ذلك ردَّ على ربه فى مراء وجدل قائلا : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص].

ولعل ذلك هو ما أشار إليه ربُّ العزة حين قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر : ٥٦] .

٨ ـ فراغ القلب من معرفة الله وتقواه :

وذلك أن القلب إذا فرغ من معرفة الله وتقواه، بمعنى مُراقبته وخوفه ورجائه، بصورة تحمل على الاستقامة، دخلت الدنيا هذا القلب، وتربَّعت على عرشه، ووسوس الشيطان، وبرزت النفس الأمَّارة بالسوء، وهنا يكون الاشتغال بما لا يسمن ولا يغنى من جوع من المراء أو الجدل، ومن الخصومة بالباطل وهكذا، ولهذا دعا ربُّ العزة عباده إلى مقاومة الفراغ بتنويع العبادة لئلا تسأم النفس أو تملَّ، ويكون الفتور أو القعود، الأمر الذى ينتهى بالوقوع فى حبائل المراء أو الجدل فقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾ [الشرح] .

يقول الحافظ ابن كثير ـ تعليقا على هاتين الآيتين وتفسيرا لهما بما أُثر عن السلف:

« أى إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطا فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة، وقال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل، وفى رواية عنه : فانصب بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال ابن عباس: فإذا فرغت فانصب فى الدعاء، وقال الضحاك : فإذا فرغت، أى من الجهاد، فانصب، أى فى العبادة . وإلى ربك فارغب : قال الثورى : اجعل نيتك، ورغبتك إلى الله عز وجل» [(١)] .

ويقول العلامة الألوسى ـ رحمه الله : « وأشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد أن يستغرق أوقاته بالعبادة . . . وذكروا أن قعود الرجل فارغا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه فى دينه أو دنياه من سفه الرأى وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة. وعن عمر رضي الله عنه : إنى لأكره أن أرى أحدكم فارغا سبهللا لا فى عمل دنياه ولا فى عمل آخرته . وروى أن شريكا مرَّ برجلين يصطرعان، فقال : ما بهذا أمر الفارغ » [(٢)] .

٩ ـ عدم وجود برنامج يواكب ويمتصُّ الطاقات :

وقد يكون عدم وجود برنامج يواكب ويمتص الطاقات لدى المرء، هو السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل ؛ ذلك أن نفس المرء إن لم يشغلها بالنافع شغلته بالضار .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٥٢٨ .

(٢) انظر : روح المعانى للألوسى ٣٠ / ١٧٢ .

وقد حدد الإسلام برنامجا يستوعب حياة المسلم فى اليوم والليلة، وفى الأسبوع، وفى الشهر، وفى السنة، وفى العمر كله بحيث إذا حافظ عليه لم تبق لديه دقيقة تُستغلُّ فى مراء أو جدل، كما شدد الإسلام على الأئمة أن يستفرغوا كل ما فى وسعهم وكل ما فى طاقتهم، من أجل أن يستنبطوا ما يملأ على المسلم حياته بالعمل الجاد المثمر وإلا حرموا الجنة، فقال ﷺ: « ما من أمير يلى أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة » (١) .

١٠ ـ الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على المراء أو الجدل :

وأخيرا، قد تكون الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على المراء أو الجدل هى السبب فى الوقوع فى المراء أو الجدل، فإن مَنْ غَفِلَ عن الآثار الضارة، والعواقب المهلكة لأى أمر من الأمور أدت به هذه الغفلة إلى الوقوع فى هذا الأمر .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها تأتى أحكام كثيرة فى التشريع الإسلامى مقرونة بحكمة التشريع، ولعل هذا هو السر كذلك فى كثرة التكرار ودوام التذكير، بل الأمر به فى قوله سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات]. ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] .

رابعًا : آثار المراء أو الجدل :

وللمراء أو الجدل آثار ضارة وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار المراء أو الجدل على العاملين :

١ ـ قسوة القلب :

ذلك أن المراء أو الجدل مبنى على الكلام الكثير الذى لا فائدة ترجى من ورائه، ولا طائل تحته سوى إفحام الخصم، والغلبة عليه ولو بالباطل . وكثرة الكلام بغير ذكر الله فيها قسوة للقلب، فكيف لو كانت بالباطل، وقد جاء فى الحديث : « لا تكثروا

(١) سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة « الاستعجال » .

الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي »[(١)] .

وقال مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ إمام دار الهجرة : « المراء يقسّي القلوب. . . »[(٢)] .

٢ ـ إغضاب الآخرين ، الأمر الذي يؤدي إلى البغض والقطيعة والتآمر :

وذلك أن مَنْ يشتغل بالمراء أو الجدل ينسى العمل ويركّز على القول، ولا بركة في قول لا يصحبه عمل،كما قال الله عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾ [الصف] . إذ في ذلك قطع للعبد عن ربه، فيقسو القلب، ويكون الغضب، بل البغض والقطيعة والتآمر من الآخرين .

وقد وعى هذا الأثر لقمان الحكيم فقال يوصي ولده : « يا بني، لا تجادل العلماء فيمقتوك . . . »[(٣)] .

كما وعاه الإمام مالك فقال: « المراء يقسي القلب، ويورث الضغائن » .

ووعاه سفيان الثوري فقال : « لو خالفتُ أخي في رُمَّانة، فقال : حلوة، وقلت : حامضة لسعى بي إلى السلطان »[(٤)] ، وقال أيضا : « صافِ مَنْ شئتَ ثم أغضبه بالمراء، فليرمينَّك بداهية تمنعك العيش »[(٥)] .

٣ ـ ضياع الهيبة وسقوط المروءة :

وذلك أن المراء أو الجدل يحمل صاحبه على أن يكشف عن كل أوراقه، ويرمي خصمه بكل ما يستطيع، وإذا كشف المرء عن كل أوراقه، ورمى خصمه بكل ما يستطيع ضاعت هيبته، وسقطت مروءته لا محالة، إذ المرء كما قيل : مخبوء تحت لسانه، وفي هذا يقول عيسى ﷺ : « مَنْ كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته . . . »[(٦)] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن : كتاب الزهد : باب (٦١) ٤ / ٥٢٥ رقم (٢٤١١] من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذي بقوله: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب » .

(٢ ـ ٥) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ١٧٦ .

(٦) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ١٧٦ .

٤ ـ عدم أمن الفتنة فى الدين :

وذلك أنه كثير ما تعترض الشبهات طريق المرائى أو المجادل وقد لا يتمكن من الرد على هذه الشبهات، وحينئذ يتسرب الشك إلى نفسه، وقد يقوى هذا الشك إلى حد الفتنة وترك الدين والعياذ بالله، وماذا بقى للمرء بعد الفتنة وضياع الدين ؟!

وقد وعى هذا الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود فقال : « ذروا المراء، فإنه لا تفهم حكمته، ولا تؤمن فتنته . . . »[1] .

كما وعاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إذ قال : « مَنْ جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل »[2] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومِنْ آثاره على العمل الإسلامى :

١ ـ الفرقة والتمزق :

وذلك أن مَنْ أورثه المراء أو الجدل : قسوة القلب، وإغضاب الآخرين إلى حدِّ البغض والقطيعة، والتآمر، وضياع الهيبة، وسقوط المروءة، وعدم أمن الفتنة فى الدين، لا يمكن أن يتآلف قلبه مع قلوب العاملين لدين الله ممَّن سلَّمهم الله من هذه الآفة فتكون القطيعة والفرقة .

٢ ـ تمكّن العدو مع طول الطريق وكثرة التكاليف :

وحين تكون القطيعة والفرقة يتمكن العدوُّ منَّا، وتطول الطريق، وتكثر التكاليف، سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وواقع العاملين اليوم يشهد بذلك، إذ الاختلاف حول أسلوب العمل إلى حدِّ المراء أو الجدل هو الذى أدى إلى القطيعة والفرقة، ومِنْ ثمَّ تمكن الأشرار، وطالت الطريق، وكثرت التكاليف .

---

(١) الحديث أورده الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣ / ١٧٥، وعلق عليه العراقى فى المغنى بهامش الإحياء ٣/ ١٧٥ قائلا: «أخرجه الطبرانى عن أبى الدرداء، وأبى أمامة، وأنس بن مالك، وواثلة بن الأسقع بإسناد ضعيف دون قوله : « لا تفهم حكمته » ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود » .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ١٧٦ .

خامسا : طريق العلاج بل الوقاية من المراء أو الجدل :

وعلى ضوء ما قدمنا يمكن رَسْمَ طريق العلاج بل الوقاية من المراء أو الجدل على النحو التالى :

١ ـ ملء القلب بمعرفة الله وتوحيده وتقواه، فإن ذلك من شأنه أن يقضى بل يقى النفس من الوقوع فى سائر الآفات، ومنها هذه الآفة، ويعين على ذلك التدبُّر فى نعم الله التى تغمرنا من أعلى إلى أدنى،ظاهرةً كانت أو باطنة، وذلك من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكذلك من خلال النظر فى الكون.وفى القرآن الكريم ما يؤكد هذه الوسيلة إذ يقول ـ سبحانه: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل] . ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، كما يعين على ذلك الاستقامة المتمثلة فى ترك المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ثم المحافظة على الفرائض، والمواظبة على النوافل .

٢ ـ رعاية الآداب الإسلامية التى لابدَّ منها فى النصيحة من ضرورة أن تكون فى السرِّ لمن لم يجاهر بها، وأن تكون بالأسلوب المناسب وفى اللحظة المناسبة، وأن تكون بنية الإصلاح والتغيير لما هو أحسن، وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، إلى غير ذلك من الآداب التى يجمعها قوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] . ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]. ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

فإن رعاية هذه الآداب من شأنها أن تقضى على المراء أو الجدل، والقصة التالية خير ما يشرح ذلك :

« أصاب المأمون بخراسان كانونا من ذهب مُرَصَّعا بجواهر كثيرة، قيل : إنه كان ليزدجر بن شهريار الفارسى، لا تعرف قيمته لكثرتها، فقال ذو الرِّياستين : الفضل بن سهل الصولت ـ وكان من دعاة الشعوبية : يا أمير المؤمنين، الرأى أن تجعله فى الكعبة يوقد عليه العود، والنَّد بالليل والنَّهار، فقال المأمون : أفعل، وأمر بحمله إلى مكة، واتصل الخبر بيزيد بن هارون المحدِّث، فأمر مستمليه أن يقف يوم الخميس عند اجتماع الناس، وأصحاب الحديث فيشكر المأمون، ويدعو له، ويخبر بخبر الكانون، ففعل المستملى ذلك، فلما سمع يزيد كلامه، صاح وانتهره، وقال له : ويلك، اسكت، إن

أمير المؤمنين أجل قدرا، وأعلم بالله ـ عز وجل ـ من أن يجعل بيته بيت نار ، فكتب أصحاب البريد إلى المأمون، فأمر بكسر الكانون، وبطل ما دبره ذو الرِّياستين » [١] .

٣ ـ إشعار الغير بالاحترام والتوقير حتى مع اختلاف الفكر وتعارض الرأى، فإن ذلك من شأنه أن يقضى على الإصرار أو العناد المتمثل فى المراء أو الجدل، وحسبنا أن النبى ﷺ ردَّ على عُتبة بن ربيعة لما جاء رسولا من قِبَل قريش يريد إثناءه ﷺ عن دعوته، عن طريق الاحتواء بواسطة الدنيا ممثَّلة فى الشرف والسؤدد، والوجاهة والملك، والمال، والمداواة من الأمراض والعلل إن كانت هى مصدر ما يحدِّثهم به من شئون الوحى، رد عليه ﷺ فى أدب واحترام وتوقير، مع اختلاف فكر، ورأى كل واحد منهما على الآخر بقوله : « قل أبا الوليد أسمع لك »، « أفرغت أبا الوليد ؟ » الأمر الذى كان سببا فى امتصاص ما عند عتبة من إصرار أو عناد أو ما نسميه بالمراء أو الجدل حتى إذا سمع آيات من كتاب الله، وفى آخرها إنذار بالعذاب على نحو ما وقع لعاد وثمود خاف وأمسك بفى رسول الله ﷺ وهو يقول : ناشدتك الله والرَّحم إلا ما أمسكت، فإنى أخشى أن تنزل علىَّ هذه الصاعقة [٢] .

ثم عاد إلى قومه يطلب منهم أن يخلوا بين النبى وبين ما يقول، إذ لا يمكن أن يكون ما سمع من قول البشر .

وحسبنا أيضا موقف الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ من كثير من مخالفيه ومعارضيه من أبناء عصره، ولاسيما الدكتور طه حسين، حيث كان يمنحهم مع اختلافه معهم حقهم من الاحترام والتقدير، الأمر الذى قطع عليهم طريق المراء أو الجدل .

إذ يذكر المعاصرون للشيخ حسن البنا : أنه لما نشر طه حسين كتابه : «مستقبل الثقافة فى مصر »، وضمَّنه ما يجب أن تتجه إليه الثقافة فى مصر من ضرورة الأخذ بالحضارة الغربية: خيرها وشرها، حلوها ومرها، هاجت الدنيا وماجت، وتناولت أقلام النقاد الكاتب بين قادح ومادح، ولم يكترث طه حسين بكل ما كتب وصمم على وضع آرائه فى الكتاب موضع التنفيذ باعتباره مستشار وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن)، وهنا اتصل بعض الغيورين من أصدقاء الشيخ حسن البنا به، وطلبوا إليه أن يكتب نقدا للكتاب، ورد الشيخ حسن البنا بأنه لم يطلع على الكتاب لضيق وقته وكثرة الصوارف،

(١) انظر : القلائد مِنْ فرائد الفوائد للدكتور : مصطفى السباعى ص ٩٨ نقلا عن الفرغانى .

(٢) انظر : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحى ٢ / ٤٤٧ ـ ٤٥٠ بتصرف كبير .

وألحُّوا عليه فى ضرورة قراءة الكتاب، وبيان كلمة الإخوان قبل أن يوضع الكتاب موضع التنفيذ، لاسيما وأنه سيؤدى إلى تغيير جذرى فى سياسة البلد الثقافية، ولم يكتفوا بذلك، بل أخبروه أنهم حددوا موعدًا لبيان ذلك فى دار الشبان المسلمين وطبعوا الدعوات، وكان الموعد بعد خمسة أيام، يقول الشيخ حسن البنا : ولم أكن أستطيع التحلل من مواعيد كنت مرتبطا بها فى خلال هذه الأيام الخمسة، وعليه فما كنت أجد وقتا لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبى الترام فى الصباح إلى مدرستى، وفترة رجوعى منها فى الترام ـ وكان يعمل فى مهنة التدريس ـ وقدَّر الله، وأتيت على الكتاب من أوله إلى آخره ؛ لأنه لم يكن كبير الحجم، وكنتُ أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة، ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله، وفى الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان، فوجدتها على غير عادتها غاصَّة، والحاضرون هم رجالات العلم،والأدب، والتربية فى مصر، ووقفت على المنصة، واستفتحت بحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبجانبى الدكتور يحيى الدرديرى السكرتير العام للشبان المسلمين، ورأيت الكتاب كله منطبعا فى خاطرى بعلاماتى التى كنت علمتها بالقلم الرصاص .

قال: وبدأت أول ما بدأت، فقلتُ: إننى لن أنقد هذا الكلام من عندى وإنما سأنقد بعضه ببعض، وأخذت ـ ملتزما بهذا الشرط ـ أذكر العبارة من الكتاب، وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب، ولاحظ الدكتور الدرديرى أننى فى كل مرة أقول: يقول الدكتور طه فى الكتاب فى صفحة كذا، وأقرأ العبارة بنصها من خاطرى، ثم أقول: ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول فى صفحة كذا ، وأقرأ العبارة بنصها أيضا من خاطرى، فاستوقفنى الدكتور الدرديرى، وطلب إلىَّ أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معى النصوص والصفحات لأنه قرأ الكتاب، ولم يلاحظ فيه هذا التناقض، وكأنه لم يقرأ العبارات التى يسمعها الآن، وجيء له بالكتاب وظل يتابعنى، فيجد العبارات لا تنقص حرفا ولا تزيد حرفا، ويجد الصفحات كما أحددها تماما، فكاد الدكتور الدرديرى يجن، كما ساد الحاضرين جوٌّ من الدهشة والذهول، والكل يتجه ـ كلما قرأت من خاطرى عبارتين متناقضتين ـ إلى الدكتور الدرديرى، كأنهم يسألونه : أحقا هذه العبارات فى الكتاب ؟ فيقول الدكتور الدرديرى فى كلِّ مرَّة : بالنصوص والصفحات .

وهكذا حتى انتهى الكتاب وانتهت المحاضرة، وقام الجميع وفى مقدمتهم الدكتور : الدرديرى بين معانق ومُقَبِّل، يقول الشيخ حسن البنا : ولما هممت بالانصراف رجانى

الدكتور الدرديرى أن أنتظر برهة ؛ لأنه يريد أن يسرَّ حديثا، واقترب منى وأسر فى أذنى سرّا تعجبت له. قال: لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بى الدكتور : طه حسين، وطلب إلىَّ أن أعدَّ له مكانا فى هذه الدار يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها دون أن يراه أو يعلم بوجوده أحد، فأعددنا له المكان، وحضر المحاضرة من أوَّلها إلى آخرها ثم خرج دون أن يراه أو يعلم به أحد .

وفى اليوم التالى : طلب الدكتور طه حسين من أحد موظفى وزارة المعارف، وكان على صلة وثيقة بالشيخ حسن البنا، أن يُرتِّب له اجتماعا مع الشيخ حسن البنا فى أى مكان بحيث لا يكون معهما أحد، وبحيث لا يعلم بهما أحد، وليكن هذا المكان فى بيته أو بيتى، أو فى مكتبى هنا، ووافق الشيخ حسن البنا ورأى أن يكون الاجتماع فى مكتبه بالوزارة، وتم الاجتماع، وبدأه الدكتور طه حسين بقوله : لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأننى حضرت محاضرتك، وبأننى كنت حريصا على حضورها، وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها، لأننى أعرف من هو حسن البنا، وأقسم لك لو أن أعظم عظيم فى مصر كان فى مكانك ما أعرته اهتماما، قال الشيخ حسن البنا : فشكرته ثم سألته عن رأيه فى المواضع التى وجهتُ النقد إليها فى الكتاب، وهل لديه مِنْ ردٍّ عليها ؟

قال الدكتور طه حسين : ليس لى ردٌّ على شىء منها، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك، وهذا هو ما عنانى مشقة الاستماع إليك، ولقد كنت أستمع إلى نقدك لى، وأطرب ... وأقسم يا أستاذ حسن لو كان أعدائى شرفاء مثلك لطأطأت رأسى لهم، لكن أعدائى أخسَّاء، لا يتقيَّدون بمبدأ ولا بشرف، إن أعدائى هم الأزهريون وقد ظنُّوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمى من التاريخ، وقد كرست حياتى لإحباط مكايدهم، وهأنذا بحمد الله فى الموضع الذى تتقطع أعناقهم دونه ... ليت أعدائى مثل حسن البنا ؟ إذن لمددت لهم يدى من أول يوم »[1] .

أرأيت كيف يصنع الاحترام والتقدير للآخرين حتى مع اختلاف الفكر، وتباين الرأى ؟ إنه يمتص من نفوسهم المراء أو الجدل على النحو الذى نطق به هذا المثال .

٤ ـ تدبُّر نظرة الإسلام إلى المراء أو الجدل، وذلك بدوام النظر فى الآيات

---

(١) انظر : الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ١ / ٢٣٩ ـ ٢٤٢ .

والأحاديث الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ حول هذه الآفة، فإن لذلك دورًا كبيرًا فى علاج النفس بل حمايتها من المراء أو الجدل .

٥ ـ تحرِّى العيش فى وسط سليم من المراء أو الجدل، فإن ذلك يعين النفس بل يحفظها من الوقوع فى غوائل هذه الآفة .

٦ ـ قيام الأمة وولىٌّ الأمر بواجبهما نحو هذا الصنف من الناس، كلٌّ بما يتناسب مع طاقاته وإمكاناته، فالجميع ينصحون، وينكرون بألسنتهم، ووليُّ الأمر يتولى التعزير إن اقتضى المقام ذلك، والأمة تعتزل وتقاطع، حتى تستقيم حال هؤلاء، وقصة عمر من صبيغ بن عِسْل برهانٌ عملى على صحة ما نقول، إذ تحكى كتب التاريخ : أن صَبِيغ بن عِسْل جعل يسأل عن متشابه القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو ابن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه، فقال: أين الرجل ؟ أبصر لا يكون ذهب فتصيبك منى العقوبة الوجيعة .

فأتى به، فقال عمر : « سبيل مُحْدَثَة » أى بدعة جديدة، فأرسل إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دَبَرة (أى قرحة) ، ثم تركه حتى برئ ثم عاد له، ثم تركه حتى برئ، فدعا به ليعود .

فقال صبيغ : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداوينى فقد والله برئتُ، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : ألا يجالسه أحد من المسلمين .

قال أبو عثمان النهدى : فلو جاءنا ونحن مائة لتفرقنا عنه .

وقال زرعة : رأيت صبيغا كأنه أجرب، يجىء إلى الحلقة ويجلس وهم لا يعرفونه، فتناديهم الحلقة الأخرى : عزمة أمير المؤمنين عمر، فيقومون، ويدعونه، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر، أنه قد حسن أمره، فكتب إليه عمر : أن ائذن للناس بمجالسته [(١)] .

٧ ـ مجاهدة الآباء والأمهات أنفسهم كى يتطهروا من هذه الآفة إن كانوا مصابين بها، فإن عجزوا مع أنفسهم، فليكن ظهورها فى أضيق الحدود وبعيدا عن أعين الأبناء

---

(١) انظر : تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران ٦ / ٣٨٥ وعنه نقل الطنطاويان فى : أخبار عمر ص ١٩٠، ١٩١ .

لئلا تتسرب العدوى إليهم ، فيكونون من الدعاة إلى الشرّ والضلالة، يحملون إثم أنفسهم وإثم مَنْ اقتدى بهم، إذ يقولﷺ : « . . . ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[1] .

٨ ـ علاج أو مداواة النفس من الإعجاب، بل الغرور، بل التكبر على نحو ما جاء في طريق الخلاص من هذه الآفات فى الجزء الأول، فإن النفس إذا سلمت من هذه الآفات، تداوت أو عولجت من كلّ ما يترتب عليها من آثار ولا سيما المراء أو الجدل .

٩ ـ البعد عن الاشتغال بعلوم الجدل والمناظرة، وإذا كان ولابد من الاشتغال بهذه العلوم، فليكن بعد التحصُّن، والتحصُّن الشديد بكتاب الله وسنة رسوله محمدﷺ ، فإنهما عصمة وأمان من كل شر أو فتنة .

١٠ ـ التحرُّك من خلال منهج يَسُدُّ الفراغ، ويُعْمِلُ الطاقات، ويربط النفس بربها: باريها، ومالكها، والمتصرف فيها حتى لا توجد لحظة فراغ تستغل مِنْ قِبَل شياطين الجن والإنس فى تدنيس النفس بهذه الآفة، ولا سبيل لذلك بصورة تامة دقيقة إلا فى حضن جماعة مسلمة جامعة لصفات وضوابط الجماعة المسلمة حقا .

١١ ـ مجاهدة النفس، وتعويدها على الجرأة والشجاعة فى الاعتراف بالخطأ وقبول الحق من الغير وإن كان مُرّا، إذ الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل، والمهمّ هو ظهور الحق بغض النظر : على لسان مَنْ ظهر هذا الحق ؟ فإن مثل هذه المجاهدة تساعد كثيرا فى علاج بل سلامة النفس من هذه الآفة .

١٢ ـ تذكر العواقب والآثار المترتبة على المراء أو الجدل، فإن المرء إذا أدرك العواقب الضارة والآثار المهلكة لأى عمل من الأعمال امتنع عن الإتيان بهذا العمل، خشية أن تصيبه هذه العواقب وتلك الآثار .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى مختصرا فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب إثم مَنْ دعا إلى ضلالة أو سنَّ سنَّة سيئة ٩ / ١٢٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، ومَنْ دعا إلى هدى أو ضلالة ٤ / ٢٠٦٠ رقم (٢٦٧٤) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب فى لزوم السنة ٤ / ٢٠١ رقم (٢٦٠٩) ، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى . . . إلخ ٥ / ٤٢ رقم (٢٦٧٤) ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة ١ / ٧٥ رقم (٢٠٦) ، وأحمد فى : المسند ٢ / ٣٩٧، ٥٠٥ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به، وبنحوه، وأوله كما فى مسلم : « مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . . . » الحديث .

١٣ ـ الاستعانة التامة بالله عز وجل عن طريق ذكره الدائم المستمر، بالعقل، وباللسان، وبالقلب، وبالجوارح وبالسلوك، فإن الله بيده مقاليد السموات والأرض، وهو سبحانه يعين من استعان به ولجأ إليه إن كان صادقا فى هذه الاستعانة وفى هذا اللجوء. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ... ﴾ [المؤمنون] . ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ... ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

١٤ ـ دوام النظر فى سير السَّلف، وكيف كان بعدهم عن المراء أو الجدل، بل كراهيتهم، ومقاطعتهم لمن ابتلوا بذلك، ولكن بعد الإرشاد وبذل النصيحة .

١٥ ـ معاملة مَنْ يخالفوننا فى الرأى على أن رأينا صواب يحتمل الخطأ، وأن رأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فإن المعاملة بهذه الصورة من شأنها أن تستلَّ الأحقاد من الصدور، وأن تقضى على المراء أو الجدل .

١٦ ـ رؤية الكلام على أنه من العمل، فإن من يرى كلامه مِنْ عمله يقل كلامه إلا فيما يعنيه، وبذلك يُغلق باب واسع من أبواب المراء أو الجدل .

الآفة الثالثة والعشرون
القعـود

والآفة الثالثة والعشرون التى قد يُبْتَلى بها نفرٌ من العاملين لدين الله بل لقد أصيب بها بالفعل نفر من هؤلاء، وكانت وراء تمكّن الباطل وإحكامه القبضة حول أعناقنا إنما هى : « القعود » .

وحتى يتطهَّر منها مَنْ ابتلى بها، ويقى نفسه مَنْ سلَّمه الله ـ عز وجل ـ منها، فإنه لابد من إعطاء تصور صحيح واضح عنها، وذلك على النحو التالى :

أولا : تعريف القعود :

لغة : يأتى القعود فى لغة العرب على معان، منها :

أ ـ الجلوس بعد قيام، نقول : قعد فلان : جلس بعد أن كان قائما .

ب ـ الانقطاع والترك للأمر، أو التأخر عنه، نقول : قعدت المرأة عن الحيض والولد : انقطعت، وقعد عن الأمر : تركه أو تأخر عنه .

جـ ـ الاحتباس عن الشىء ، نقول : ما قَعَّدك عن الأمر ، وأقعدك ، أى ما حبسك.

د ـ عدم الاهتمام بالأمر، نقول : قعد عن الأمر : ليس مهتما به .

هـ ـ الداء يصيب الجسد فيقعده، وقيل : داء يأخذ فى أوراك الإبل، فيميلها إلى الأرض، أو هو الزَّمِن الذى لا يشفى .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا، فإنَّ الداء حين يصيب الجسد ويتمكن منه، يعوق صاحبه عن مواصلة السير، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر مع عدم اكتراث واهتمام[1] .

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ٣/٣٥٧ ـ ٣٦٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٤٨، ٧٤٩، مادة : « قعد » بتصرف كثير .

اصطلاحا : والقعود فى اصطلاح الدعاة العاملين لدين الله : مرض يصيب الداعية من داخله يعوقه عن مواصلة السير فى الطريق إلى نهايتها، فإذا هو قاعد أو منقطع، أو على الأقل متأخر عن الركب دون اكتراث أو مبالاة واهتمام .

يقول ابن عطية ـ رحمه الله ـ فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ [التوبة] : « والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخى كما فى قول الشاعر :

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى» [(١)]

ويقول العلامة الألوسى ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : « تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود فيهم، وإلقائه سبحانه كراهة الخروج فى قلوبهم بالأمر بالقعود، أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك، فليس هنا قول حقيقة، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُم﴾ [البقرة : ٢٤٣] ـ أى أماتهم ـ ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول ﷺ لهم فى القعود، فالقول على حقيقته . والمراد بالقاعدين : الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت كالنساء، والصبيان، والزَّمنى ـ أى المرضى مرضا مقعدا ـ أو الرجال الذين يكون لهم عذر يمنعهم عن الخروج، وفيه على بعض الاحتمالات من الذَّم ما لا يخفى على متدبر » [(٢)] .

وواضح أن بعض الاحتمالات التى توجب الذم فى نظر الألوسى ما عبر عنه بقوله: « ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض » .

ثانيًا : مظاهر القعود ، وقيمته فى ميزان الإسلام :

وللقعود مظاهر وصور تدل عليه، وأهم هذه المظاهر، وتلك الصور :

١ ـ ترك منهج الله بالمرَّة، والتحاكم إلى مناهج البشر، وهذا وإن كان قليلا لكنَّه ـ كما يشهد الواقع ـ موجود .

٢ ـ ترك الدعوة إلى الله، مع الاستقامة فى النفس والأهل والولد .

٣ ـ التفرغ لإيذاء العاملين لدين الله : تارةً بانتقاصهم، والطعن فى أشخاصهم، وذواتهم، وتارة بانتقاصهم، والطعن فى منهاجهم، وتارة بتأييد مَنْ ينتقصونهم،

---

(١) انظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٨ / ١٩٥ .

(٢) انظر : روح المعانى ١٠ / ٤ / ٢٢٢ .

ويطعنون فيهم تلويحا أو تصريحا، وتارة بغير ذلك من السباب، والشتائم، بل ربما الإيذاء البدني .

٤ ـ السعى لتمزيق صفِّ العاملين لدين الله : تارة بوضع منهاج يوافق منهج الله فى الشكل، ويجافيه ويختلف معه فى المضمون والجوهر، ثم دعوة الناس لاسيما الشباب للانضواء تحت لواء هذا المنهاج المبتدع، وتارةً بالدخول فى هذا المنهج، ثم بالخروج منه، والإشاعة بين الناس أنه ما خرج إلا لفساد المنهج .

٥ ـ الركون إلى الظالمين بصورة أو بأخرى، ثم الدفاع عن هؤلاء الظالمين بكل الأساليب، والوسائل .

٦ ـ الاطلاع على بعض أخطاء العاملين ـ « وكل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » ـ ثم نشر هذه الأخطاء، وإعلانها على الملأ من الناس .

٧ ـ لىُّ أعناق النصوص، أو استخدامها فى غير موضعها، أو نقلها نقلا مشوَّها بصورة تعبر عن مكنون ما فى النفس من الحقد والكراهية لدين الله، وللعاملين بهذا الدين ولهذا الدين، إلى غير ذلك من المظاهر والصور .

والقعود بهذه المظاهر، وتلك الصور، مذموم فى دين الله، ويكفيه ذمّا أن الله جعله من صفات وخصائص المنافقين إذ يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨) ﴾ [آل عمران] .

أخرج ابن جرير عن السدِّى قال : « خرج رسول الله ﷺ يوم أحد فى ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبى فى ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر السُّلمى يدعوهم ، فلما غلبوه ، وقالوا له : ما نعلم قتالا ، ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا ، قال : فذكر الله أصحاب عبد الله بن أبى بن سلول ، وقول عبد الله أبى جابر بن عبد الله الأنصارى حين دعاهم، وردَّهم، فقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ الآية [1] .

وأخرج ابن جرير أيضا، وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ الآية، قال : « ذكر لنا أنها نزلت فى عدوِّ الله، عبد الله بن أبى » [2] .

(١، ٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ٣/ ١١١/٤، ١١٢، وعنه نقل السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٣٧٠ .

ويقول سبحانه ـ حكاية عن قوم موسى مع موسى حين طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدَّسة، ولا يترددوا، فخافوا، وامتنعوا ـ قال : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة] .

يقول الألوسي : « فاذهب ـ أى إذا كان الأمر كذلك فاذهب ـ أنت وربك فقاتلا ـ أى فقاتلاهم، وأخرجاهم حتى ندخل الأرض، وقالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه، وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وعدم مبالاة، وقصدوا: ذهابهما، حقيقة، كما ينبئ عنه غاية جهلهم، وقسوة قلوبهم، والمقابلة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ » [١] .

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) ﴾ [التوبة] .

يقول ابن جرير الطبرى : « يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدﷺفإن ردَّك الله يا محمد إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، فاستأذنوك للخروج معك فى أخرى غيرها، فقل لهم : لن تخرجوا معى أبدا، ولن تقاتلوا معى عدوّا، إنكم رضيتم بالقعود أول مرَّة، وذلك عند خروج النبىﷺ، لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم، واعملوا مثل الذى عملوا من معصية الله فإن الله قد سخط عليكم » [٢] .

وأيد ما قال بالمأثور، قائلا : « حدَّثنى محمد بن سعد قال : حدثنى أبى، قال : حدثنى عمِّى، قال حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر فى الحرِّ، وذلك فى غزوة تبوك، فقال الله: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾. فأمره الله بالخروج، فتخلف عنه رجال، فأدركتهم نفوسهم، فقالوا: والله ما صنعنا شيئا، فانطلق منهم ثلاثة، فلحقوا برسول اللهﷺفلما أتوْهُ تابوا ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فأنزل الله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ فقال رسول اللهﷺ: «هلك الذين تخلَّفوا »، فأنزل الله عذرهم لما تابوا، فقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ » [٣] ، ثم ساق آثارا أخرى فى غير هذا المعنى، وعاد فقال : « والصواب من التأويل فى قوله : ﴿الْخَالِفِينَ ﴾ ما قال ابن عباس » [٤] .

---

(١) انظر : روح المعانى ٦ / ٢ / ١٠٨ .

(٢) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٠، ١٤١ .

(٣، ٤) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٠، ١٤١ .

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة] .

يقول ابن جرير: « يقول تعالى ذكره : وإذا أنزل عليك يا محمد سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ يقول: صدِّقوا بالله، ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ، استأذنك أهل الغنى والمال منهم فى التخلف عنك، والقعود فى أهله، ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا ﴾ يقول: وقالوا لك: دعنا نكن ممن يقعد فى منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم، ومَنْ لا يقدر على الخروج معكفى السفر »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [التوبة] .

ويقول سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء] .

يقول ابن جرير الطبرى : «يعنى جلّ ثناؤه بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾: لا يعتدل المتخلِّفون عن الجهاد فى سبيل الله من أهل الإيمان بالله، وبرسوله، المؤثرون الدِّعة والخفض والقعود فى منازلهم على مقاساة حرِّ الأسفار، والسير فى الأرض، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم فى ذات الله، وقتالهم فى طاعة الله، لا أهل العذر منهم، بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التى لا سبيل لأهلها، للضرر الذى بهم، إلى قتالهم وجهادهم فى سبيل الله ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ومنهاج دينه، لتكون كلمة الله هى العليا، المستفرغون طاقتهم فى قتال أعداء الله، وأعداء دينهم ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ إنفاقا لها فيما أوهن كيد أعداء أهل الإيمان بالله، وبأنفسهم مباشرة بها قتالهم بما تكون به كلمة الله هى العالية وكلمة الذين كفروا السافلة »[2] .

ويقول رسول الله ﷺ : « مَنْ رابط يومًا أو ليلة كان له كصيام شهر للقاعد، ومَنْ مات مرابطًا فى سبيل الله، أجرى الله له أجره، والذى كان يعمل : أجر صلاته

---

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٤٣ .

(٢) انظر : جامع البيان ٥ / ٤ / ١١٤ .

وصيامه، ونفقته، ووقى مِنْ فتّان القبر، وأمن من الفزع الأكبر »[(١)] . إلى غير ذلك من النصوص .

والآيات وإن كان أكثرها فى المنافقين إلا أنها توحى من طرف خفى بذمِّ القعود مطلقا بغير عذر مقبول، سواء انتهى بصاحبه إلى أن يكون منافقًا كهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآيات، أو انتهى به إلى أن يكون مسلمًا مرتكبًا إثمًا عظيمًا .

ثالثًا : أسباب القعود :

وللقعود عن العمل لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث :

١ ـ المعصية :

ذلك أن المرء إذا تلطخ بالمعصية بكل أشكالها وصورها : الظاهرة منها والباطنة، الصغيرة منها والكبيرة، ولم يبادر بالتوبة، والإنابة والرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن هذه المعصية تؤدى إلى مرض القلب، بل موته، وحينئذ لا يكون للقلب سيطرة على الجوارح، ويجد شياطين الإنس والجن، وكذلك الدنيا ببريقها وزخارفها وزيناتها، الطريق مفتوحة للوسوسة والإغواء والإغراء بكل ما يغضب الله ورسوله، ومنه القعود عن العمل لدين الله بصورة أو بأخرى على النحو الذى قدَّمنا .

وقد نبَّه الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ إلى أن المعصية تقود إلى كلِّ شرّ من خلال ما حكاه عن بعض جرائم بنى إسرائيل، وأن المعصية إنما كانتْ السبب فى ارتكاب هذه الجرائم، حيث يقول سبحانه : ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** (٦١) ﴾ [البقرة] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ فى إجمال تفسير هذه الآية : « ومعنى الكلام : فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمرى، وتجاوزوا حدِّى إلى ما نهيتهم عنه»[(٢)] . كما نبَّه إليه رسول الله ﷺ بقوله : « تعرض الفتن كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٤٤٠ من حديث سلمان مرفوعا بهذا اللفظ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب فى الرباط ٥/ ٢٩٣ من حديث سلمان بنحوه، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى وفيه مَنْ لم أعرفهم » .

(٢) انظر : جامع البيان ١ / ٢٥٢ .

قلبين، على أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه »[(١)] .

ولابن قيم الجوزية تصويران لأثر المعصية على العبد ؛ أحدهما واسع مطول يكفى أن نحيل القارئ عليه[(٢)] ، والآخر موجز يقول فيه : « والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح، ومدد يمد بها العبد أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل : ما يبلغ الأعداء من جاهل، ما يبلغ الجاهل من نفسه »[(٣)] .

٢ ـ التوسع فى المباحات :

وذلك أن الله عز وجل لم يمنع عباده من نصيبهم من المباحات ولكنّه حمايةً لهم ورحمةً بهم طلب منهم أن يكون أخذها بتوسط واعتدال فقال سبحانه : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الاعراف] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) ﴾ [المائدة] .

ويوم تغيب هذه الحقيقة عن بال المسلم ويتوسع فى المباحات، ينتهى به هذا التوسع إلى القعود، وترك العمل لدين الله، لاسيما وطريق الله ليست مفروشة بالحرير والورود، وإنما محفوفة بالمخاطر والمتاعب، والآلام، ومفروشة بالأشواك، ومروية بالدموع، ومزدانة بالدماء والجماجم .

وقد تنبه سلف الأمة إلى هذا السبب، فحذروا من الوقوع فيه . هذه عائشة رضي الله عنها تقول : « أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها : الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم »[(٤)] .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: « إياكم والبطنة فى الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه »[(٥)] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة : « اتباع الهوى » .

(٢) انظر : الداء والدواء ، أو الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى : فصل : المعاصى عدو لدود ص ١٣٨ ـ ١٤٩ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١٨٣، ١٨٤ .

(٤، ٥) سبق تخريج هذه الآثار فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

وإذ يقول أبو سليمان الدارانى : « من شبع دخل عليه ست آفات : فَقَدَ حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق ـ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ـ وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل» (١) .

٣ ـ تمكن الدنيا من القلوب :

وذلك أن الدنيا إذا تمكنت من القلوب حملت صاحبها حملا على الركون إليها، والاطمئنان والرضا بها، والغفلة عن الآخرة وترك العمل لهذه الآخرة، وهذا هو القعود بعينه .

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى فى كتابه هذا السبب حين قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾

[التوبة : ٣٨]

يقول ابن عطية ـ رحمه الله : « هذه الآية هى بلا خلاف، نازلة عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺفى غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم فــى عشرين ألفا بين راكب وراجل وتخلف عنه قبائل من الناس، ورجال من المؤمنين كثير، ومنافقون، فالعتاب فى هذه الآية هو للقبائل، وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية بذلك التأنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر، وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة حسب ما يأتى » (٢) .

ويقول أيضًا : « وقوله: ﴿ أَرَضِيتُم ﴾ تقرير، يقول: أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة، وحظها الأسعد » (٣) .

وكذلك نبَّه ربُّ العزة إلى هذا فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ٧٧] .

يقول ابن عطية : « ومعنى : ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ : أمسكوا عن القتال ، وقوله :

---

(١) سبق تخريج هذا الأثر فى الجزء الأول، آفة : « الفتور » .

(٢، ٣) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١٨٣، ١٨٤ .

﴿يخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يعنى : أنهم كانوا يخافون الله فى جهة الموت ؛ لأنهم لا يخشون الموت إلا منه، فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم فخشوهم فى جهة الموت كما كانوا يخشون الله »(١) .

ويقول أيضا : « ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ : الأجل القريب : يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قاله المفسرون ، وهذا يحسن إذا كانت الآية فى اليهود أو المنافقين ، وأما إذا كانت فى طائفة من الصحابة، فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلا، وكثرة عددهم »(٢) .

ونبه إليه أيضا فى قوله سبحانه : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ [النحل] .

يقول ابن عطية : « ولما فعلوا فعل من استحب ألزموا ذلك، وإن كانوا غير مصدقين بآخرة لكن الأمر فى نفسه بين، فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحب غيره»(٣) .

ويقول العلامة الألوسى ـ رحمه الله : « ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أو المذكور من الغضب والعذاب ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ ، أى بسبب أن الشارحين صدورهم بالكفر ﴿ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى آثروها ، وقدموها ، ولتضمن الاستحباب معنى الإيثار قيل : ﴿ عَلَى الآخِرَةِ﴾ فَعُدِّى بعلى ، والمراد على ما فى البحر ـ أى على ما جاء فى تفسير البحر المحيط لأبى حيان ـ أنهم فعلوا فعل المستحبين ذلك ، وإلا فهم غير مصدقين بالآخرة »(٤) .

وكذلك نبه إليه فى قوله سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النجم] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ١٧٨ .
(٢) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ١٧٩ .
(٣) انظر : المحرر الوجيز ١٠ / ٢٣٨ .
(٤) انظر : روح المعانى ١٠ / ١٤ / ٢٣٨، ٢٣٩ .

يقول ابن عطية : « وقوله : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ معناه : لا يصدق بغيرها، فسعيه كله وعمله إنما هو لدنياه »[(١)] .

ويقول الألوسى: « فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق، وهو القرآن العظيم المنطوى على بيان الاعتقادات الحقة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين، المذكر للآخرة ، وما فيها من الأمور المرغوب فيها، والمرهوب عنها، والمراد بالإعراض عنه : ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به، وقيل : المراد بالذكر : الرسول ﷺ ، وبالإعراض عنه: ترك الأخذ بما جاء به، وقيل: المراد به الإيمان، وقيل : هو على ظاهره، والإعراض عنه : كناية عن الغفلة عنه ـ عز وجل ـ ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾: راضيا بها، قاصرا نظره عليها، جاهدًا فيما يصلحها كالنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمراد من الأمر المذكور: النهى عن المبالغة فى الحرص على هداهم، كأنه قيل: لا تبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى الدنيا بحيث كانت منتهى همته، وقصارى سعيه »[(٢)] .

٤ ـ عدم استصحاب نية المضى إلى آخر الطريق وعدم العمل بمقتضى هذه النية :

وذلك أن سنته سبحانه فى خلقه مضت بأن من نوى الخير وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يوفقه ويؤيده حتى يصل إلى ما يريد، ومن نوى الشر وعمل بمقتضى هذه النية، فإنه سبحانه يتخلى عنه ويخذله فلا يوفق إلى الخير أبدا، ويضيع، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] ، ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] ، ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٥]، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] .

وانطلاقا من هذه السنة لله فى خلقه فإن من لا يستصحب نية المضى فى الطريق إلى نهايتها، ويترك العمل بمقتضى هذه النية، تكون عاقبته الحرمان من توفيق الله وتأييده، ويكون القعود، وقد نبه رب العزة إلى هذا السبب وهو يتحدث عن المنافقين الذين قعدوا عن شهود تبوك مع النبى ﷺ بأعذار واهية، وأن السبب الحقيقى إنما هو عدم استصحاب نية الجهاد، والخروج مع رسول الله ﷺ ، وآية ذلك أنهم لم يعملوا بمقتضى هذه النية ، فكانت العاقبة أن كره الله خروجهم فخذلهم ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ١٥ / ٢٧١ .

(٢) انظر : روح المعانى ١٠ / ٢٧ / ٦٠ .

يقول ابن عطية: « وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ الآية حجة على المنافقين، أي ولو أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا في ذلك، واستعدوا له قبل كونه »[(١)] .

ويقول الألوسي : « ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ ، أي أهبة من الزاد والراحلة ، وسائر ما يحتاج إليه المسافر في السفر الذي يريده »[(٢)] .

٥ ـ العيش وسط القاعدين :

وذلك أن المرء كثيراً ما يتأثر بالوسط الذي يعيش فيه سواء أكان هذا الوسط قريبًا ـ وهو البيت ـ أم بعيدا ـ وهو المجتمع ـ لاسيما إذا لم تكن لديه الحصانة الكافية التي يقاوم بها هذا الوسط القاعد، وكان هذا الوسط حريصا على إقعاده بطريق أو بأخرى من سخرية واستهزاء، إلى إغواء وإغراء، إلى تخويف وتثبيط، إلى غير ذلك، وليست له من تهمة ولا جريرة إلا أنه عامل متحرك بدين الله عز وجل، وتكون العاقبة التخلف والقعود ؛ ولذا جاء عنهﷺ قوله : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[(٣)] ، « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي »[(٤)] .

٦ ـ عدم اليقين بوعد الله ورسوله :

وذلك أن الله وعد المؤمنين العاملين الاستخلاف والتمكين، والأمن والأمان، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور] . ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] . ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ [الفتح] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١٩٤ .

(٢) انظر : روح المعاني ١٠ / ٤ / ١١١ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن : كتاب الأدب : باب من يؤمر أن يجالس ٤/ ٢٥٩ رقم (٤٨٣٣) ، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب منه ٤ / ٥٠٩ رقم (٢٣٧٨) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب »، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس ٤ / ٢٥٩ رقم (٤٨٣٢) ، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء في صحبة المؤمن ٤ / ٥١٩ رقم (٢٣٩٥) وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه » ، والدارمي في: السنن : كتاب الأطعمة : باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء ٢ / ١٠٣، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ⑨ ﴾ [الصف] .

وأكد النبى ﷺ ذلك فقال : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذلبه الكفر»[١] ، « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا ـ وفى رواية : عضوضا ـ فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » [٢] ، « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين، والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » [٣] إلى غير ذلك من الأحاديث .

ومن لم يوقن بهذا الوعد، فإنه يقعد لا محالة، ويترك العمل لدين الله من الدعوة والجهاد .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ١٠٣، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب المغازى والسير : باب علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه ٦ / ١٧ وعقب عليه بقوله : « رجال أحمد رجال الصحيح »، والبيهقى فى : الكبرى : كتاب السير : باب إظهار دين النبى ﷺ على الأديان ٩ / ١٨١، والحاكم فى : المستدرك ٤/ ٤٣٠، ٤٣١ وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى، كلهم من حديث تميم الدارى رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤ / ٢٧٣ من حديث حذيفة مرفوعا، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب كيف بدأت الإمامة وما تصير إليه والخلافة والملك ٥ / ١٩١، ١٩٢ من حديث حذيفة مرفوعا، وعقب عليه بقوله: « رجاله ثقات » وعن الهيثمى نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى : ثقافة الداعية ص ٦٧، ٦٨ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥ / ١٣٤ من حديث أبى بن كعب مرفوعا بلفظ : « بشر هذه الأمة بالسناء والتمكن فى البلاد والنصر والرفعة فى الدين، ومن عمل منهم بعمل الأخرة للدنيا، فليس له فى الآخرة نصيب » وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب إخلاص النية واتباع الكتاب والسنة : باب الترهيب من الرياء أو ما يقوله من خاف شيئا منه ١/١٠٧ رقم (١٥) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى، انتقاء الدكتور يوسف القرضاوى، من حديث أبى بن كعب مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله : « رواه أحمد، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم، والبيهقى، وقال الحاكم : صحيح الإسناد » .

وقد أقره الذهبى على ذلك فى : التلخيص ٤/٣١١ وعاد فعقب عليه فى ٤/٣١٨ بقوله: « فيه من الضعفاء محمد بن الأشرس السلمى وغيره » . والسر فى هذا الاختلاف : أن الإسناد الأول صحيح والآخر ضعيف، كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى .

ولقد نبه رب العزة إلى هذا السبب، وهو يتحدث عن قعود المنافقين بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٩٠] .

يقول ابن جرير الطبرى : « يقول تعالى ذكره : وجاء رسول الله ﷺ المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فى التخلف، وقعد عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه الذين كذبوا الله ورسوله، وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل »[1] .

٧ ـ مباغتة معوقات الطريق مع عدم الفطنة والاستعداد لهذه المعوقات :

ذلك أن هناك معوقات على الطريق من النفس الأمارة بالسوء إلى شياطين الجن، إلى شياطين الإنس، إلى الدنيا ببريقها وزيناتها، ممثلة فى الزواج، والأولاد، والأموال، والمناصب، والوجاهة، والسلطان، ونحوها، إلى طول الطريق نفسها، وما لم يكن المرء فطنا مستعدا لهذه العقبات، وتباغتها، فإنه يصاب بالقعود لا محالة إلا أن يتغمده الله سبحانه وتعالى بفضل منه ورحمة .

وفى قصة الذى كان يعرف بحمامة المسجد، وطلب من النبى ﷺ أن يدعو الله له بالغنى، ونصحه النبى ﷺ بقوله : « قليل تؤدى شكره خير من كثير يطغيك »، وألح حتى دعا النبى ﷺ ربه له بالغنى، وجاءته الدنيا، وما كان فطنا مستعدا، فضاع، وفيه نزل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ [التوبة] .

هذه القصة تشرح لنا هذا السبب بجلاء ووضوح .

يقول الإمام الطبرى معلقا على الآيات المذكورة : « يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾، يقول: أعطى الله عهدا ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ يقول : لئن أعطانا الله من فضله، ورزقنا مالا، ووسع علينا من عنده، ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ يقول : لنخرجنَّ الصدقة من ذلك المال الذى رزقنا ربنا، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يقول : ولنعملنَّ فيها بعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به، وإنفاقه فى سبيل الله، يقول الله تبارك وتعالى : فرزقهم الله، وآتاهم من

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ١٤٤ .

فضله، فلمَّا آتاهم الله منْ فضله بخلوا به بفضل الله الذى آتاهم، فلم يَصَّدَّقوا منه ولم يصلوا منه قرابة، ولم ينفقوا منه فى حقِّ الله، ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ يقول : وأدبروا عن عهدهم الذى عاهدوه الله ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عنه، فأعقبهم الله نفاقا فى قلوبهم ببخلهم بحقٍّ الله الذى فرضه عليهم، فيما آتاهم منْ فضله، وإخلافهم الوعد الذى وعدوا الله، ونقضهم عهده فى قلوبهم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ من الصدقة والنفقة فى سبيله، ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فى قيلهم، وحرمهم التوبة منه؛ لأنَّه جلَّ ثناؤه اشترط فى نفاقهم أنه أعقبهم إياه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم، وخروجهم من الدنيا »(١) .

٨ ـ التأخير إلى موقع الجندية بعد القيادة :

وذلك أن الواقع قد شهد بأن بعض الناس حين يكون فى موقع القيادة، ولسبب أو لآخر يُردُّ إلى موقع الجندية، تكبر عليه نفسه، لاسيما إذا نظر إلى القيادة على أنها تشريف لا تكليف، غنائم لا تبعات، وحينئذ لا يكون منه إلا القعود، والتخلِّى عن أداء الواجب، وقد شاهدت بعينى رأسى شابّا نشطا عاملا لدين الله،وبلغ به نشاطه أن كانت له حلقة علمية، يحضرها كثيرون، ولسبب أو لآخر طلب منه أن يكون تلميذا لا أستاذا، جنديا لا قائدا فورمت أنفه، وشرق بريقه، وقعد عن العمل لدين الله، وترك الواجبات المنوطة به، وحين فوتح فى ذلك أجاب بأن الجندية خنق وقتل للمرء، والقيادة حرية وانطلاق، فكيف تضيع منى القيادة، وأرضى بالجندية، وبينهما من الفرق ما بينهما، فكان الردُّ على الفور : « رحم الله أبا سليمان خالد بن الوليد، فقد جاءه كتاب العزل من أمير المؤمنين عمر لمصلحة رآها عمر، وكان هو القائد المظفَّر، فنفَّذ ما فى الكتاب وكله فَرَحٌ وسرور، وأخذ مكانه جنديا بين الجنود، وقال مقولته المشهورة : والله لو ولَّى علىَّ عمرُ عبدا أسود اللون لسمعتُ وأطعتُ ما دام يقودنى بكتاب الله ».

٩ ـ الاغترار بوعود الباطل :

وذلك أن الباطل يحاول بطريق أو بأخرى تكثير سواد القاعدين من المسلمين الدعاة العاملين لدين الله، وله فى ذلك أساليب كثيرة، ومنها الوعود البرَّاقة بمال، أو بمنصب، أو بوجاهة مثلما حاول عتبة بن ربيعة مع رسول الله ﷺ ، ومن الناس من تنطلى عليه هذه الوعود، وينساق وراءها تاركا الالتزام بمنهج الله، والعمل لدينه من أجل الظفر

(١) انظر : جامع البيان ١٠ / ٦ / ١٣٠ .

بهذه الوعود، وقد شاهدنا فى تاريخ الحركة الإسلامية فى العصر الحاضر نفرا زيَّن لهم أهل الباطل القعود حين منحوهم بعض المناصب العليا فقعدوا، ثم ألقى بهم هؤلاء فى العراء عند أول تغيير لمن يشغلون هذه المناصب، وما أغنت عنهم هذه الوعود من الله شيئا، بل على العكس لقد أغضبوا ربهم حين ركنوا إلى الظالمين وآزروهم،أو أعانوهم على ظلمهم، وبغيهم فى الأرض بغير الحق .

وفى الأدب الرمزى : قصة الذى غضب لله أول مرة ؛ لأن شجرة تعبد من دون الله، وعبَّر عن غضبه هذا بمحاولة قطع الشجرة، ومنَّاه الشيطان الذى تمثَّل له فى صورة بشر مدافع عن الشجرة ببعض المال من كل صباح، فقعد طمعا فى تحقيق هذا الوعد، وما هى إلا أيام حتى ذاب هذا الوعد، وصار سرابا وحاول قطع الشجرة هذه المرَّة، ولم ينجح ؛ لأن غضبه لم يكن لله، وإنما كان للوعد الذى أخلف ولم يتحقق، وهكذا يؤدى الاغترار بوعود الباطل إلى القعود والتخلِّى عن الواجب .

١٠ ـ عدم وجود منهاج يملأ الحياة ويقضى على الفراغ :

وذلك أن المسلم إذا لم يشغل نفسه بمنهاج يملأ حياته ويقضى على الفراغ، من تدبر وتفكر إلى عبادات مخصوصة، كصلاة ونحوها، إلى رعاية للآداب الاجتماعية، إلى قيام بحق الأهل والولد، إلى كسب للعيش، إلى اشتغال بدعوة وهداية الآخرين، إلى الوقوف فى وجه الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، إلى غير ذلك مما يعد جزءا من رسالة المسلم فى الأرض ـ إذا لم يشغل المسلم نفسه بمنهاج كهذا، فإن نفسه الأمارة بالسوء تملى عليه، بإغواء من شياطين الجنِّ والإنس، وبتأثير من زخرف الحياة الدنيا، منهاجا باطلا غير ما يريد الله ورسوله، ويأخذ فى تنفيذ هذا البرنامج، وذلك هو عين القعود .

١١ ـ عدم ملاءمة المنهاج للطاقات والإمكانات :

وذلك أن المسلم لا يبقى حيّا نشطا متحركا إلا فى ظل منهاج ملائم لطاقاته وإمكاناته، ويوم أن يخلو المنهاج من هذه الملاءمة ، كأن يكون فوق المستوى، أو دون المستوى، فإن العاقبة ستكون القعود والترك إلا من رحم الله .

ولعل هذا هو سر مخاطبته ﷺ لكل واحد من أصحابه بما يلائمه ويتناسب مع ميوله وإمكاناته وطاقاته، بل وعلله، وأمراضه، فقد كان يخاطب الجميع خطابا عاما، ويأتى إلى الخاصة ويخاطبهم خطابا فوق خطاب العامة .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْل، قال: « يا معاذ بن جبل »، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: « يا معاذ »، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثا) . قال: « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صِدْقًا من قلبه إلا حرَّمه الله على النَّار » .

قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به النَّاس فيستبشروا ؟ قال: « إذًا يتكلوا » وأخبر بها معاذ عند موته تأثما [(١)] .

١٢ ـ عدم إعطاء العامل حقه من الاحترام والتوقير :

وذلك أن المرء غالبا ما يظل مستمرا فى أداء واجبه، والقيام بما تفرضه عليه رسالته ما لم يُهَنْ أو يحتقر، فإن حدث، وحرم هذا المرء حقه من الاحترام والتوقير فى حدود الضَّوابط الشرعية، فإنه يردٌ على ذلك غالبا بالقعود، والتخلى عن أداء الواجب .

ولعل هذا هو سر دعوته ﷺ المسلمين أن يراعوا الآداب الاجتماعية فيما بينهم إذ يقول: « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر » [(٢)] . وفى رواية: « ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا، أو: حقّ كبيرنا » [(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا ١ / ٤٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١ / ٦١ رقم (٣٢) ، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى رحمة الصبيان ٤/ ٢٨٤ رقم (١٩٢١) ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب »، وأحمد فى: المسند ١ / ٢٥٧، كلاهما من حديث عكرمة عن ابن عباس مرفوعا، واللفظ للترمذى.

(٣) هذه الرواية أخرجها الترمذى أيضا فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى رحمة الصبيان ٢٨٤/٤ رقم (١٩٢٠) من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ، وساق الحديث بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: « وحديث محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب حديث حسن صحيح »، وأخرجها أحمد فى : المسند ٢ / ٢٠٧ من حديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « ليس منا من لم يعرف حق كبيرنا، ويرحم صغيرنا » ومعنى قوله ﷺ : « ليس منا » : ليس من سنتنا، ليس من أدبنا، هذا رأى نفر من العلماء، وقال على بن المدينى: قال يحيى بن سعيد : كان سفيان الثورى ينكر هذا التفسير ـ أى الذى قدمنا عن نفر من العلماء ـ ويقول : ليس منا : ليس من ملتنا ، هكذا ذكر التفسيرين الإمام الترمذى فى السنن ٤ / ٢٨٤، والتفسير الجامع بين التفسيرين المذكورين قياسا على ما ذكره ابن حجر فى فتح البارى ٩ / ١٠٤، ١٠٥ فى معنى قوله ﷺ فى حديث الرهط الذين عزموا على التبتُّل، وترك الزواج : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » هو أن نقول : إن كان عدم قيامه بحق الكبار، ورحمة الصغير ناشئا من تأويل مع ذهول وعدم انتباه، فالمراد المعنى الأول، وإن كان ناشئا من أعراض وتنطع عن الهدى النبوى بحجة أنه ليس بشىء، فالمراد المعنى الثانى، والله أعلم .

١٣ ـ تحميل النفس من الواجبات فوق ما تطيق :

وذلك أن أى عمل من الأعمال تكون له فى البداية حلاوة، وقد يلقى من العامل إقبالا، واستفراغا لكل ما فى وسعه، وما فى طاقته، وربما رأى ذلك مَنْ يحيطون به، فيلقون ببعض ما فى أيديهم من واجبات وتكاليف عليه، ولا يلتفت هو إلى ذلك، ويقبل منهم، ويمضى، وبعد فترة من الزّمان يجد نفسه قد أنهكه العمل وأضناه، فيفتر، وإذا لم يبادر بالعلاج والتخلص من هذه الحال يكون القعود، والانقطاع عن أداء الواجب، وفى آفة « الغلو فى الدين أو التنطع » من الجزء الثالث من هذا الكتاب صورة دقيقة لكيفية إيصال هذه الآفة صاحبها إلى القعود والترك .

١٤ ـ عدم تجاوز الآخرين عن أى هفوة من الهفوات :

وذلك أن المرء بطبيعته مجبول على الخطأ باستثناء الأنبياء والمرسلين لما أكرمهم الله عز وجل به من العصمة، والمحاسبة سبيل من سبل التخلص من هذا الخطأ .

ومن أساليب المحاسبة التجاوز أحيانا عن بعض الهفوات والزلات اليسيرة كيلا يسيطر اليأس والقنوط على النفس، وقد لا ينتبه البعض إلى هذا الأسلوب، ويحمله إتقان العمل وإجادته على المؤاخذة فى كل الأمور حتى لو كانت يسيرة بسيطة، وربما لا يتحمل العامل ذلك وتكون العاقبة القعود، والتخلى عن أداء الواجب .

ولعل هذا هو سرُّ دعوة الإسلام إلى العفو مع القدرة على الانتقام والبطش . إذ يقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]. ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الاعراف] . ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] .

١٥ ـ الظنُّ أن فى القعود سلامة وعافية :

وذلك أن الشيطان قد يسول لبعض الناس القعود وترك العمل لدين الله بحجة حماية نفسه، وغيره من المحنة، لاسيما فى عصرنا هذا الذى تَنَمَّر فيه الباطل، وتفرغ للعاملين لدين الله بحيث لم يعد لديه من شغل شاغل إلا هُم، ناسيا أو متناسيا أن السلامة والعافية مِنَّة ومحض فضل من الله سبحانه وتعالى، بيد أن سنته سبحانه وتعالى مضت أن يمنحهما للمتقين العاملين، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥]. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الانعام]. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] .

وربما يدخل الشيطان من مدخل آخر : إذ يقول للعامل : إنك تخطئ وترتكب كثيرا من المعاصى والآثام، وهذا يؤخر عون الله، وتأييده عن العاملين، بل ربما يكون سببا فى كارثة أو محنة تنزل بالجميع، وخير لك أن تبتعد من طريق هؤلاء البررة الأتقياء من عباد الله لتحل عليهم السلامة، وتصيبهم العافية، ناسيا أو متناسيا أنهم مثله يصيبون ويخطئون، غير أنه وهؤلاء لا يصرون على الخطأ بل يبادرون بالتوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله عز وجل .

١٦ ـ عدم استجابة الآخرين :

وذلك أن نفرا من الدعاة يتوهم أنه لا ينجح فى مهمته إلا إذا استجاب الآخرون، وقبلوا منه ما يقول، فإن لم يستجيبوا لما يقول كان منه القعود، والتخلى عن المضى فى الطريق إلى نهايتها ناسيا أو متناسيا أن قلوب العباد جميعا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء، وأن الله قال لنبيه : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى :٤٨] .

١٧ ـ الغفلة عن عاقبة القعود :

وأخيرًا قد تكون الغفلة عن الآثار والعواقب المترتبة على القعود ـ فردية كانت أو جماعية، دنيوية كانت أو أخروية ـ هى السبب فى القعود، وقد رأينا فى العصر الحاضر نفرا ممن قعدوا فى حال لا يحسدون عليها الآن، وهم يقولون: والله لو درينا أن القعود سيصل بنا إلى هذا المستوى، وإلى هذا الحال ما قعدنا .

رابعا : آثار القعود :

هذا وللقعود آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار والعواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار القعود على العاملين :

١ ـ تفرد الشياطين بهم ثم افتراسهم :

إذ مَنْ قعدوا عن الالتزام بالإسلام بالمرَّة صاروا موالين للشياطين من الجن والإنس، وأما الذين انفصلوا عن العاملين لدين الله، وعاشوا وحدهم ملتزمين فى أنفسهم وأهليهم بمنهج الله، فهؤلاء سمحوا للشياطين أن يتفردوا بهم، ثم يفترسوهم، كما قال النبى ﷺ : « ... فمن أحبَّ منكم بحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد »[1] .

٢ ـ مضاعفة الذنوب والآثام الأمر الذى ينتهى أن تكون الجحيم هى المأوى :

وذلك أن القاعدين يفتحون بابا واسعا أمام كثيرين من الضعفاء والعامة، ممن يقتدون بهم، فيقعدون قعودهم، وبهذا يحملون وزرين : وزر قعودهم، ووزر إقعاد غيرهم، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] .
﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾

[النحل]

وتتضاعف الذنوب والآثام بدوام القعود حتى تكون الجحيم هى المأوى والعياذ بالله.

٣ ـ الذل والهوان :

وذلك أنهم حين قعدوا عن نصرة دين الله لم يمنعهم هذا القعود من أن ينزل بهم قدر الله، وقد قدر الله حياة الذل والهوان فى الدنيا والآخرة على كل من تولى وأعرض عن ذكره سبحانه وتعالى، فقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]. ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] .

وقد عشنا وشاهدنا فى العصر الحاضر من قعد عن نصرة دين الله بعد أن كان شعلة نشاط، وما كان له من مبرر إلا الإبقاء على النفس، والأهل، والمال، والولد، ومضى قدر الله، ولم يظفر بما أراد، وعاد يندب حظه، ويقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴾ [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/ ٤٠٤ رقم (٢١٦٥) وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وأحمد فى : المسند ١ / ٢٦ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار القعود على العمل الإسلامى :

١ ـ إضعاف هذا العمل، وتعريضه للاغتيال أو على الأقل الإجهاض بحيث لا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل .

ذلك أن هذا الصنف من القاعدين لم يقتصر قعوده على نفسه، بل تعداه إلى قعود الآخرين اقتداء، وتأسيا، بل أبعد من ذلك أغلق الباب فى وجه من يريدون الالتزام بدين الله والعمل له لأول مرة، إيثارًا للسلامة والعافية بزعمهم، ولا شك أن هذا إضعاف للعاملين، وللعمل الإسلامى، ومعروف أن المبطلين لا يتمكنون من العاملين والعمل الإسلامى إلا فى مثل هذا الجو من الضعف والتفرق .

٢ ـ تعريض العاملين لدين الله لشدائد وامتحانات لا تطاق من انتهاك للأعراض، وسلب للأموال، وسفك للدماء، أو على الأقل التضييق والتعذيب، أو النفى والتشريد فى الأرض، وكل هذه الجرائم بسبب قعود القاعدين . وما لقيه أبناء الحركة الإسلامية فى مصر من التعذيب فى أوائل الخمسينات بسبب انسحاب نفر من العلماء من الصف، ومعهم ما لا يحصى من المتأثرين بهم، والواثقين فيهم ـ شاهد صدق على ما نقول، ويتحمل هذا النفر إثم ما نزل بهؤلاء إلا أن يعفو الله عنهم، ويتجاوز .

وما يلقاه العمل الإسلامى اليوم بعموم من انسحاب نفر من الميدان، وقبوله أن يكون سوطا فى يد الباطل يلهب به ظهور العاملين ويحرِّض عليهم، ويخيف الناس منهم ـ لهو شاهد صدق كذلك على ما نقول .

خامسا : علاج القعود :

وفى ضوء ما قدمنا من أسباب القعود وبواعثه يمكن رسم طريق الخلاص، بل طريق الوقاية من هذا القعود، ودونك معالم هذه الطريق :

١ ـ استشعار نعم الله التى أنعم بها علينا فى أنفسنا، وفى الكون المحيط بنا، ظاهرة كانت هذه النعم أو باطنة، حيث يقول سبحانه : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾** ﴾ [إبراهيم] . ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠]

وأن هذه النعم ينبغى أن تقابل بالشكر كى تدوم، وشكر النعمة إنما يكون بتوظيفها فيما خلقت له، لا باستخدامها فيما يغضب الله ويسخطه، فإنَّ مثل هذا الاستشعار قد يحرك النفس من داخلها ويحملها على النهوض من جديد .

٢ ـ استشعار القاعد مسؤوليته أمام الله يوم القيامة عما يلقاه المسلمون المضطهدون، الملاحقون فى كل مكان : فى البوسنة والهرسك، فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا، فى كشمير المسلمة، فى بورما، فى أريتريا، فى الفلبين، فى دول البلقان، فى إفريقيا، فى بلاد العرب، فى فلسطين، فيما لا نعلمه بسبب التعتيم الإعلامى المقصود، ويعلمه الله عز وجل .

وماذا سيكون جوابه لربه غدا يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، فإن هذا الاستشعار من شأنه أن يخيف صاحب الفطرة السليمة، والعقل الراشد فيجاهد نفسه على التحرر من القعود، ويعمل على النهوض من جديد .

٣ ـ التوسط فى تعاطى المباحات من غير إفراط أو تفريط، مع اليقين أن فى ذلك عافية لنا فى أبداننا، وعقولنا، وأرواحنا، وأن ما نحرم أنفسنا منه اليوم سنلقاه غدا فى أكمل وأبهى صورة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾ [الاعراف] .

٤ ـ إخراج حب الدنيا ـ بوسيلة أو بأخرى ـ من القلوب فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهذا لا يمنع أن تكون هذه الدنيا فى أيدينا نتبوأ منها حيث نشاء، شريطة أن تكون من حلال، وأن نؤدى حق الله فيها، بل أن نتنازل عنها جميعا لله إن اقتضت الحال ذلك، كما أثر عن أبى بكر الصديق ﷺ وأرضاه، فإن مثل هذا الصنيع مع الدنيا من شأنه أن يحمل القاعد على النهوض والاستمرار إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

اقتضت الحال ذلك، كما أثر عن أبى بكر الصديق ﷺ وأرضاه، فإن مثل هذا الصنيع مع الدنيا من شأنه أن يحمل القاعد على النهوض والاستمرار إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا .

٥ ـ دوام النظر فى كتاب الله، وسنة الرسول ﷺ للوقوف على أخبار القاعدين، المخلفين، وما صاروا إليه من ذل وهوان فى الدنيا والآخرة، فلعل مثل هذا النظر يخوف القاعد إن كان له قلب، فيبادر بترك القعود، ويحمل نفسه على النهوض حماية لها من أن تصير إلى ما صار إليه هؤلاء القاعدون من قبل، وأن يذيقها الله من الذل والهوان فى الدنيا والآخرة مثلما صنع بهؤلاء، وسورة النساء، والتوبة، والأحزاب، والفتح من أوسع سور القرآن حديثا عن هذا الصنف من الناس .

٦ ـ تأمل واقع هؤلاء القاعدين اليوم، وكيف صاروا أسهما فى كنانة أعداء الله، ورسوله والمؤمنين، يصوبونه إلى صدور العاملين، فتقوى بهم شوكة هؤلاء الأعداء، حتى إذا استنفذوا بغيتهم منهم خلعوهم من أقدامهم، وألقوا بهم فى مزبلة التاريخ، فخسروا الحياتين جميعا الدنيا والآخرة، وخسارة الآخرة أشد : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر] .

٧ ـ مجاهدة النفس من أجل أن تستصحب نية الجهاد والعمل لدين الله عز وجل، ثم تنفيذ ما تقتضيه هذه النية، ولكن مع الصدق والإخلاص، واتباع السنة، فلعل الله عز وجل بهذه النية يَمُنُّ على هذا الصنف القاعد من الناس وينتشله من وهدة القعود، إلى قمة النهوض والعمل، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] .

٨ ـ الانقطاع عن صحبة القاعدين إلا بالقدر الذى به يكون العمل على انتشال هؤلاء من قعودهم هذا، مع الارتماء وبسرعة فى وسط العاملين، فإن ذلك مما يقوّى العزيمة، ويعلى الهمة، ويثبت النفس، ويحملها على الاقتداء والتأسى، فإن لم يكن فالتشبه والمحاكاة .

٩ ـ دوام النظر فى وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر والغلبة والتمكين فى الأرض، وكيف حقَّق ذلك للمؤمنين أول مرة حين نهضوا، وما كانوا يوما من القاعدين، وسيظل هذا الوعد قائما إلى يوم الدين شريطة أن نكون مؤمنين حقا نرفض القعود، والذل، والهوان، ونمضى فى الطريق عاملين لا نلوى على شىء إلا على مرضاة الله، ورسوله، فإن مثل هذا النظر مما يحرك النفوس الأبية الكريمة ويحملها على النهوض، وترك القعود .

١٠ ـ الانتباه إلى معوقات الطريق من الأزواج، والأولاد، والأموال، والسلطان، والجاه، ونحوها كى نأخذ لها الأهبة والاستعداد، ونعلم أن هؤلاء لن يغنوا عنا من الله عز وجل شيئا . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون] .

١١ ـ المبادرة بعمل منهاج يستوعب الحياة بأشكالها وصورها، ويكون ملائما لطاقات وإمكانات الناس، ولا سيما هذا الصنف من القاعدين، على أن يكون كتاب الله وسنة رسوله هما الأساس والأصل فى وضع مثل هذا المنهاج .

فإن مثل هذا المنهاج من شأنه أن يقضى على كل لحظات الفراغ التى يمكن أن تستغل من قبل شياطين الجن وشياطين الإنس، ويفتح الباب أمام القاعدين للنهوض من جديد .

١٢ ـ مجاهدة النفس على احترام وتوقير الآخرين لاسيما أهل الفضل والدين، بل مجاهدتها على ألا تحمل من التكاليف والواجبات إلا ما تطيق، نظرًا لطول الطريق ومشقة التكاليف، فإن هذه المجاهدة من شأنها أن تحرك القاعدين فينهضون من جديد .

١٣ ـ التجاوز وقت المحاسبة عن بعض الهفوات والزلات التى لا يسلم منها بشر، والتى لا تصل إلى حد التطاول على حق الله وحقوق عباده، فإن مثل هذا التجاوز من شأنه أن يقضى على اليأس والقنوط، وأن يفتح باب الأمل والرجاء، فإذا القاعدون نهوض يعملون .

١٤ ـ استقبال تغيير الموقع ـ ولا سيما من الأعلى للأدنى، من القيادة إلى الجندية ـ بفرح وسرور، وراحة بال، وهدوء خاطر، فإنه كلما علت منزلة الإنسان فى المسؤولية كان الحساب أشد والمؤاخذة أعظم على حد قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] .

١٥ ـ مواجهة وسوسة شياطين الجن والإنس، وإغراء الحياة الدنيا بأن فى القعود سلامة وراحة وعافية بأن هذا هو الهلاك بعينه، كما قال سبحانه عن هؤلاء الذين تخلفوا عن تبوك فرارا من التكاليف، وإيثارا للراحة، والسلامة والعافية : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ [التوبة] . ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

[التوبة]

ولعل مما يوضح أن القعود هوالهلاك بعينه، هذه الآثار عن أبى عمران ﷺ قال : «كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل ـ يريد

فضالة بن عبيد ﷺ ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم،حتى دخل فيهم، ثم خرج علينا فصاح الناس إليه، فقالوا : سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصارى ﷺ صاحب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس، إنكم لتأوّلون هذه الآية على هذا التأويل، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، فقلنا ـ فيما بيننا بعضنا لبعض سرا من رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت فلو أقمنا فيها، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل يرد علينا ما هممنا به، فقال : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة :١٩٥] .

فكانت التهلكة فى الإقامة التى أردنا أن نقيم فى أموالنا نصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب ﷺ غازيا فى سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل»[١] .

ومن وجه آخر، عن أبى عمران ﷺ قال: «غزونا المدينة ـ يعنى القسطنطينية ـ وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس : مَهْ، مَهْ[٢] ، لا إله إلا الله، يلقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصارى ﷺ: إنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا : هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ، ونصلحها ، وندع الجهاد ، قال أبو عمران ﷺ : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية»[٣] .

ومن وجه ثالث، عن أبى عمران ﷺ قال: « حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صفِّ العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى ﷺ فقال ناس : ألقى بيده إلى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة البقرة ٥/ ١٩٦ رقم (٢٩٧٢) وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب » من حديث أسلم أبى عمران التجيبى بنحو هذا اللفظ، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ٦/ ٢٩٩ رقم (١١٠٢٩) من حديث أسلم أبى عمران . وأورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١/ ٤٧٠ نقلا عن البيهقى .

(٢) مَهْ : اسم فعل أمر مبنى على السكون بمعنى : اكفف . انظر : المعجم الوسيط ٢ / ٨٨٩ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن : كتاب الجهاد : باب فى الجرأة والجبن ٣/ ١٢، ١٣ رقم (٢٥١٢) من حديث أسلم أبى عمران التجيبى بهذا اللفظ، وأورده الشيخ محمد يوسف فى : حياة الصحابة ١/ ٤٧٠، ٤٧١ نقلا عن البيهقى .

التهلكة، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام، وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تخفيًا، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين، والأموال، والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا، وأولادنا فنقيم فيهم، فنزل فينا : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل، والمال، وترك الجهاد»[1].

١٦ ـ لا ينبغي أن يصرفنا عدم استجابة الآخرين إلى ما ندعوهم إليه عن الدعوة إلى الله، بل لابد من الاستمرار مع تخير أحسن وأنجح الأساليب، ونكل أمر القلوب بعد ذلك إلى الله، وهو سبحانه حين يرى منا الصدق والإخلاص، واستفراغ كل الأساليب والوسائل، لن يضيع علينا ثمرة جهدنا وعطائنا، وحسبنا الأجر والمثوبة : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [القصص : ٨٠] .

---

(١) الحديث أورده الشيخ محمد يوسف في : حياة الصحابة ١ / ٤٧١ نقلا عن ابن كثير في : تفسير القرآن العظيم .

الآفة الرابعة والعشرون
الشُّــح

والآفة الرابعة والعشرون التى أصابت وتصيب نفراً من العاملين وكانت سببًا فى كثير ممَّا نعانى نحن ـ المسلمين ـ اليوم إنما هى : « الشُّح » .

وحتى يتطهر منها من ابتلى بها ، ويتَّقيها مَنْ عافاه الله ـ عز وجل ـ منها ، فإننا سنقف على أبعادها ، ومعالمها من خلال هذه الفقرات .

أولا : تعريف الشح :

لغة : يطلق الشُّح لغةً على معانٍ منها :

أ ـ حرص النفس على ما تملك ، وبخلها به ، أو هو ضد الإيثار ، إذ المؤثر غيره على نفسه تاركٌ لما هو محتاج إليه ، والشحيح حريص على ما ليس بيده ، فإذا حصل بيده شحَّ ، وبخل بإخراجه، نقول : شح فلان بالشىء : بخل ، وشحَّ على الشىء : حرص ، فهو شحيح وشَحَّاح .

ب ـ القلة والعسر ، نقول : شحَّ الماء ونحوه ، شحًا : قَلَّ ، وعسُر ، وشحَّ الزَّناد : لم يور؛ أى لم يشتعل .

جـ ـ التسابق إلى الشىء والتنافس عليه ، نقول : تشاحوا فى الأمر وعلى الأمر: تسابقوا ، وتنافسوا ، وتشاح الخصمان : بدا حرصهما على الغلبة .

د ـ المخاصمة أو المماحكة والمجادلة، نقول: شاح فلانا : خاصمه ، وماحكه، ويقول العلماء : لا مشاحة فى الاصطلاح: لا مجادلة فيما تعارفوا عليه [(١)] .

وعندى أنه لا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ الشح: حرص أو بخل، يتلخص فى المنع، أو العطاء بقلة، وربما يحمل على التنافس والمخاصمة أو المجادلة.

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١ / ٤٧٤ بتصرف .

اصطلاحًا : له معنيان :

أحدهما عرفي : وهو البخل بالمال ، حتى صار معروفا بين الناس أنه لو أطلقت كلمة شح انصرفت مباشرة إلى إمساك المال وعدم بذله .

والآخر شرعي : وهو البخل بكل برٍّ ومعروف مالا أو غيره ، في يده أو في يد غيره ، ولهذا المعنى الشرعي شواهد وأدلة ، منها :

١ ـ قوله ﷺ : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »(١) .

وفي رواية : « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح : أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »(٢) .

٢ ـ قوله ﷺ : « البخيل مَنْ ذُكرتُ عنده فلم يصل عليَّ »(٣) .

٣ ـ وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقا(٤) وإنه قد آذاني ، وشق علي مكان عذقه ، فأرسل إليه النبي ﷺ فقال : « بعني عذقك الذي في حائط فلان » قال: لا، قال : « فهبه لي » قال : لا، قال : « فبعنيه بعذق في الجنة » قال : لا ، فقال النبي ﷺ : « ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام »(٥) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦ رقم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا بهذا اللفظ ، وأحمد في : المسند ٢ / ٤٣١ من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات عند الله يوم القيامة ، وإياكم والفحش ، فإن الله لايحب الفحش والتفحش ، وإياكم والشح ، فإنه دعا من قبلكم فاستحلوا محارمهم ، وسفكوا دماءهم ، وقطعوا أرحامهم » ، ٣ / ٣٢٣ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا بلفظ مسلم .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في : السنن : كتاب الزكاة : باب في الشح ٢/ ١٣٣ رقم (١٦٩٨) ، وأحمد في : المسند ٢ / ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعا ، واللفظ لأبي داود .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن : كتاب الدعوات : باب قول رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل » ٥ / ٥١٥ رقم (٣٥٤٦) وعقب عليه الترمذي بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب» ، وأحمد في : المسند ١ / ٢٠١ ، كلاهما من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب .

(٤) العِذْق : العرجون بما فيه من الشماريخ ، ويجمع على عذاق ، أما العَذْق بالفتح فهو النخلة، ومنه قوله ﷺ في الحديث : « كم من عَذْق مذلل في الجنة لأبي الدحداح » . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ٧٧ .

(٥) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٣ / ٣٢٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ .

إلى غير ذلك من النصوص الشرعية الدالة على أن الشح فى لسان الشرع: إنما هو البخل بكل بر ومعروف ، مالا أو غيره ، فى يده أو فى يد غيره .

ثانيًا : مظاهر الشح وقيمته فى ميزان الإسلام :

وللشح ـ بمعناه الشرعى الذى ذكرنا ـ مظاهر تدل عليه ، وأمارات يعرف بها ، وأهم هذه المظاهر ، وتلك الأمارات :

١ ـ البخل بالرئاسة، بأن يكون المرء صاحب رئاسة تعود على الدين والأمة بالخير، ثم يحبس هذه الرئاسة، فلا يصرفها فى خدمة الدين ومصالح الأمة .

٢ ـ البخل بالوجاهة ، بأن يكون المرء من بيت معروف بشرف ووجاهة يفيدان حماية الحق ومؤازرته ، ثم يحبس هذا الشرف وهذه الوجاهة عن أن يقفا مع هذا الحق ويؤازرانه .

٣ ـ البخل براحته ورفاهيته وإجمام نفسه عن أن تكون هذه جميعا فى مصلحة الغير مع قدرته على ذلك .

٤ ـ البخل بالعلم بمعنى حبسه عن الناس وإن سألوه ، أو حبس الجواب الكافى الشافى عند السؤال ، والاقتصار فى الجواب ، ولاسيما عند الفتيا ، بكتابة « نعم » أو « لا » .

٥ ـ البخل بنفع البدن فى أى صورة من الصور ، كالعدل بين الناس ومواساة ذوى الحاجة ، وإماطة الأذى عن الطريق ، وإرشاد الضال أو التائه إلى الطريق والإفساح فى المجلس ونحوه .

٦ ـ البخل بحسن الخلق من عدم مقابلة السيئة بمثلها، ومن العفو، وكف الأذى.

٧ ـ البخل بالنفس ، فلا يضحى بها ولا يبذلها فداءً لدين الله ، مع أنه يرى حرمة الدين تنتهك متمثلة فى نشر الشرك والإلحاد، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال ، والعدوان على المقدسات ونحوها .

٨ ـ البخل بالمال ، بمعنى حبسه عن صرفه فى أوجه الخير والاستحقاق .

٩ ـ البخل بما يقدمه الآخرون من نفس ومال خدمة لدين الله عز وجل ، على نحو ما يصنعه الرسميون اليوم من ملاحقة وإيذاء كل من يصنع ذلك ، متهمين إياه بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان بحجة تجفيف المنابع .

١٠ ـ لمز الآخرين فيما يقدمون على نحو ما قال المنافقون فى نفر من المؤمنين لم يجدوا ما يتصدقون به سوى جهدهم ، وحكاه الحق تبارك وتعالى فى كتابه فقال : ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾ [التوبة] ، وهلم جرًا .

والشح بكل صوره ، ومظاهره مذموم . فقد بين الله فى كتابه أن من طهرت نفسه من الشح فهو من المفلحين حقا، فقال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾

[الحشر، التغابن : ١٦]

وعن أبى الهياج الأسدى قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول: «اللهم قنى شح نفسى» لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: « إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق، ولم أزن ، ولم أفعل شيئا »، وإذا الرجل : عبد الرحمن بن عوف (١).

وعن ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ قال : « مَنْ وَقَى شحَّ نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئا ، ولم يقربه ، ولم يَدْعه الشح أن يحبس من الحلال شيئا فهو من المفلحين » (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ يقول : هوى نفسه ، حيث يتبع هواه ، ولم يقبل الإيمان » (٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ : أن يعمد إلى مال غيره فيأكله » (٤).

---

(١)الحديث أخرجه ابن جرير فى : جامع البيان ٢٨ / ١٢ / ٢٨ من حديث سعيد بن جبير عن أبى الهياج بهذا اللفظ ، وأورده السيوطى فى : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٨ / ١٠٨ ، وعزاه إلى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن عساكر .

(٢)الحديث أخرجه ابن جرير فى : جامع البيان ٢٨ / ١٢ / ٣٠ من طريق يونس قال : أخبرنا ابن وهب، عن ابن زيد ، وساقه بهذا اللفظ .

(٣)الحديث أخرجه ابن جرير فى : جامع البيان ٢٨ / ١٢ / ٨٢ من حديث أبى معاوية ، عن على ، عن ابن عباس ، وساق الحديث بهذا اللفظ .

(٤)الحديث أخرجه ابن جرير فى : جامع البيان ٢٨ / ١٢ / ٨٢ من حديث سفيان عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال ، عن ابن مسعود ، وساق الحديث بهذا اللفظ .

ويقول ابن جرير ـ رحمه الله : « وقوله: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يقول: فهؤلاء الذين وقوا شح أنفسهم المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم »[(١)] .

كما بين ـ سبحانه ـ أن الشحَّ على المؤمنين بالخير من البر والمعروف من صفات المنافقين ، وكفى بهذا ذما للشح ، فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الاحزاب] .

يقول أبو الحسن الماوردى :

« قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أشحة بالخير ، قاله مجاهد .

الثانى : بالقتال معكم ، قاله ابن كامل .

الثالث : بالغنائم أصابوها ، قاله السدِّى .

الرابع : أشحة بالنفقة فى سبيل الله ، قاله قتادة »[(٢)] .

ويقول أيضا : « قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ ، فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : على قسمة الغنيمة ، قاله يحيى بن سلام .

الثانى : على المال ينفقونه فى سبيل الله ، قاله السدى .

الثالث : على النبىﷺ بظفره »[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] .

وقالﷺ فوق ما ذكرنا من أحاديث فى تعريف الشح، وكلها فى ذمه : « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما

(١) انظر : جامع البيان لابن جرير الطبرى ٢٨ / ١٢ / ٨٢ .
(٢) انظر : النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردى ٣ / ٣١٢ .
(٣) انظر : النكت والعيون ٣ / ٣١٣ .

المنفق فلا ينفق إلا سبغت ، أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع»[1].

يقول الإمام الخطابي ـ رحمه الله: « هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ للجواد المنفق، والبخيل الممسك ، وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعًا يستجن بها ـ يعني يستتر ـ فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موضع الصدر والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه في كميها ، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سفلا ، فجعل ﷺ مثل المنفق مثل من لبس درعا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه ، وحصنته ، وجعل البخيل كرجل كانت يداه مغلولتين إلى عنقه ، ناتئتين دون صدره، فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينهما ، وبين أن تمر سُفلا على البدن ، واجتمعت فى عنقه ، فلزمت ترقوته ، فكانت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له ، أو تحصين لبدنه .

وحقيقة المعنى : أن الجواد إذا هم بالنفقة اتسع لذلك صدره، وطاوعته يداه فامتدتا بالعطاء والبذل ، وأن البخيل يضيق صدره ، وتنقبض يداه عن الإنفاق فى المعروف والصدقة .

وإلى هذا المعنى أشير ـ والله أعلم ـ فى قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] »[2] .

ثالثا : أسباب الشح :

وللشح أسباب توقع فيه وبواعث تدعو إليه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب مثل المتصدق والبخيل ٢ / ١٤٢، ١٤٣،وكتاب الجهاد: باب ما قيل فى درع النبى ﷺ والقميص فى الحرب ٤ / ٥٠ ، وكتاب الطلاق : باب الإشارة فى الطلاق والأمور ٧ / ٦٧ ، وكتاب اللباس : باب جيب القميص عند الصدر وغيره ٧/ ١٨٥ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب مثل المنفق والبخيل ٢ / ٧٠٨ ، ٧٠٩ رقم (١٠٢١)، والنسائى فى: السنن : كتاب الزكاة : باب صدقة البخيل ٥/ ٧٢ رقم (٢٥٤٨)، والكبرى : كتاب الزكاة : باب صدقة البخيل ٢ / ٣٧ ، ٣٨ رقم (٢٣٢٩] ، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٥٦ ، ٣٨٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

(٢) انظر : أعلام الحديث فى شرح صحيح البخارى ١ / ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، وعنه نقل الحافظ ابن حجر فى : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣ / ٣٠٦ بتصرف كثير .

١ ـ الوسط الذى يعيش فيه المسلم :

فقد يعيش المسلم فى وسط معروف بالشح ، ونعنى بالوسط هنا القريب ـ وهو البيت، والبعيد ـ وهو المجتمع. ولا تكون لدى هذا المسلم الحصانة الكافية ، وحينئذ يتأثر بهذا الوسط ، وتنتقل عدواه إليه ، فيبخل بكل بر أو معروف : مالا أو غيره ، فى يده أو فى يد غيره .

ولهذا المعنى وغيره أكد الإسلام على ضرورة نظافة وطهارة واستقامة الوسط الذى يعيش فيه المسلم .

وقد ذكرنا غير مرة ، وفى أكثر من آفة بعض النصوص الداعية إلى ذلك سواء فى البيت أو فى المجتمع .

٢ ـ حب الدنيا مع توهم الفقر :

وقد يكون حب الدنيا ببريقها وزخارفها وزينتها من الأسباب المؤدية إلى الشح، حيث يتوهم من ابتلاه الله بحب الدنيا أنه إن أعطى فسيخلوا جيبه ، وستضيع صحته وعافيته وسيريق ماء وجهه ، وتذهب مكانته ومنزلته بين الناس ، ويبدد أوقاته ، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية .

وخير له أن يمسك بره ومعروفه عن الناس كي تدوم دنياه ، ناسيا أو متناسيا أن الله يخلف على عبده كما قال : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ولعل هذا من بين الأسباب التى من أجلها ذم الله ـ عز وجل ـ حب الدنيا ، والمحبين لها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) ﴾

[القيامة]

يقول الماوردى : « قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) ﴾ فيه وجهان : أحدهما: تحبون ثواب الدنيا، وتذرون ثواب الآخرة ، قاله مقاتل، وثانيهما : تحبون عمل الدنيا ، وتذرون عمل الآخرة »[1] .

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) ﴾ [الإنسان] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم] . ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ [النحل] .

---

(١) انظر : النكت والعيون ٤ / ٣٦١ .

٣ ـ إهمال النفس من المجاهدة :

وقد يكون إهمال النفس من المجاهدة من بين الأسباب التى توقع فى الشح ؛ ذلك أن المرء مجبول بفطرته على الشح ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [العاديات] .

فقد فسر العلماء الخير هنا بالمال ، أو بالدنيا ، إذ يقول الماوردى : « قوله : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعنى الإنسان ، وفى « الخير » ها هنا وجهان: الأول: المال ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والثانى : الدنيا ، قاله ابن زيد، ويحتمل ثالثا : أن الخير ها هنا : الاختيار ، ويكون معناه ، وإنه لحب اختياره لنفسه شديد »[1] .

وكما قال النبى ﷺ : « لا يزال قلب الكبير شابا فى اثنتين: فى حب الدنيا، وطول الأمل »[2] . وفى رواية: « يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنتان: حب المال، وطول العمر »[3] .

فقد قال الإمام النووى ـ رحمه الله : « هذا مجاز ، واستعارة ، ومعناه : أن قلب الشيخ كامل الحب للمال ، متحكم فى ذلك ، كاحتكام قوة الشاب فى شبابه ، هذا صوابه ، وقيل فى تفسيره غير هذا مما لا يرتضى »[4] .

ونقل الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء بيان الحكمة فى التخصيص بهذين الأمرين، وخلاصته: «أن أحب الأشياء إلى ابن آدم نفسه، فهو فى بقائها، فأحب لذلك طول العمر، وأحب المال؛ لأنه من أعظم الأسباب فى دوام الصحة التى ينشأ عنها غالبا طول العمر، فكلما أحس بقرب نفاد ذلك اشتد حبه له ، ورغبته فى دوامه »[5] .

أجل ، إن المرء مجبول بفطرته على الشح ـ كما رأينا من هذه النصوص ـ وقد يستسلم هذا المرء إلى هذا الذى فطر عليه ، ولا يسوس نفسه ، ولا يجاهدها ، وتكون العاقبة تمكن هذا الشح من نفسه بصورة يصعب معها العلاج .

---

(١) انظر : النكت والعيون ٤ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر ٨ / ١١١ ، من حديث أبى هريرة مرفوعا بهذا اللفظ .

(٣) هذه الرواية أخرجها البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر ٨ / ١١١، وأحمد فى : المسند ٣ / ١١٥ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٥ ، كلاهما من حديث أنس بن مالك مرفوعا ، واللفظ للبخارى .

(٤ ، ٥) انظر : فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١١ / ٢٤١ .

٤ ـ الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق :

وقد يكون الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق من أسباب الوقوع فى الشح ؛ ذلك أن المستعلى ، أو المتكبر فى الأرض بغير الحق رسم لنفسه صورة معينة، وأحاطها بهالة خاصة ، ويملى عليه هواه ، وتوسوس له نفسه الأمارة بالسوء ، ويغريه أقرانه من شياطين الجن والإنس ، وتزين له الدنيا ـ أنه لا بد له كى يحتفظ بهذه الصورة التى رسمها لنفسه ، وتلك الهالة التى أحاطها بها ألا يأتى ما فيه عون ، وبر للآخرين ، إذ هم المطالبون أن يكونوا فى خدمته وحاجته لا أن يكون هو فى خدمتهم وحاجتهم ، وحينئذ يقع فى آفة الشح والعياذ بالله .

٥ ـ عدم اليقين بما عند الله :

وقد يكون عدم اليقين بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة هو الباعث على الشح.

ذلك أن من لم يصدق تصديقا لا يقبل الشك بحال أن الله يخلف على العبد أكثر مما يعطى هذا العبد، بل هو المانح ابتداء من غير حول من الخلق، ولا قوة ولا طول.

من لم يصدق بذلك يبخل ، بل يشح .

وقد لفت رب العزة النظر إلى هذا السبب حين قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل] .

يقول الماوردى : « وفى قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ وجهان : أحدهما : بخل بماله الذى لا يبقى ، قاله ابن عباس والحسن . والثانى: بخل بحق الله تعالى ، قاله قتادة ، ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ فيه وجهان : أحدهما : بماله، قاله الحسن . والثانى : عن ربه، قاله ابن عباس ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ فيه التأويلات السبعة ـ يعنى التى ذكرها فى قوله: ﴿وصدقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أحدها: كذب بتوحيد الله وهو قول: لا إله إلا الله، قاله الضحاك، الثانى: بموعود الله، قاله قتادة، الثالث : بالجنة، قاله مجاهد ، الرابع : بالثواب ، قاله خصيف ، الخامس : بالصلاة، والزكاة، والصوم، قاله زيد بن أسلم، السادس : بما أنعم الله عليه، قاله عطاء ، السابع : بالخلف عن عطائه، قاله الحسن ، ومعانى أكثرها متقاربة »[١] .

---

(١) انظر : النكت والعيون ٤ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

٦ ـ الحقد :

وقد يكون الحقد من بين الأسباب التى توقع فى الشح ، ذلك أن المرء إذا كان حاقدًا على غيره، فإنه سيسعى جاهدًا ألا ينفعه بنافعة من نفس، أو مال، أو هما معا .

وهذا أمر بدهى ألمح إليه رب العزة وهو يتحدث عن موقف الأنصار من المهاجرين ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الحشر] .

فقد بين ـ سبحانه ـ فى هذه الآية أن الذى حمل هؤلاء الأنصار على التضحية التى وصلت إلى حد الإيثار ، إنما هو الإيمان النابع من سلامة الصدر من الأحقاد ، والذى أثمر المحبة والمودة والموالاة .

يقول الماوردى : « قوله: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ فيه وجهان : أحدهما : غيرة وحسدا على ماقدموا به من تفضيل وتقريب ، وهو محتمل ، والثانى : يعنى حسدًا على ما خصوا به من مال الفيء ، وغيره ، فلا يحسدونهم عليه ، قاله الحسن »[(١)] .

٧ ـ الغفلة عن العواقب المترتبة على الشح :

وأخيرًا، قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الشح : دينية أو دنيوية، على العاملين ، أو على العمل الإسلامى هى السبب فى الوقوع فى الشح، فإن من جهل عاقبة الشيء الضارة ، وأثره المهلك ، تردى فى هذا الشيء وهو لا يدرى .

رابعًا : آثار الشح :

وللشح آثار ضارة ، وعواقب مهلكة، على العاملين والعمل الإسلامى ، ودونك طرفا من هذه الآثار ، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الشح على العاملين :

---

(١) انظر : النكت والعيون ٤ / ٢١٢ .

١ ـ حمل النفس على الوقوع فى كل إثم ورذيلة :

وخلاصة وفحوى هذا الأثر : أن من ابتلاه الله بداء الشح فبخل بكل بر ومعروف فى يده أو فى يد غيره ، لا بد له من عمل يشغل به نفسه ، وهذا العمل لا يخرج أن يكون توظيفا للنفس فى الإتيان بكل إثم ورذيلة ، من منطلق : « أن نفسك التى بين جنبيك ، إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » .

ولقد أرشدنا النبى ﷺ إلى الآثام والرذائل التى يثمرها البخل حين قال فى الحديث الذى تقدم فى تعريف الشح : « ... واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »[١] .

وفى رواية : « إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح : أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[٢] .

وقد فهم ذلك الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف ، إذ قدمنا عن أبى الهياج الأسدى قوله : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلا يقول : « اللهم قنى شح نفسى » . لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: « إنى إذا وقيت شح نفسى: لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئا » ، وإذا الرجل : عبد الرحمن بن عوف[٣] .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

والأثر الثانى الذى يتركه الشح على العاملين : إنما هو القلق والاضطراب النفسى، وذلك أن الشحيح صار غارقا بشحه فى الآثام والرذائل: صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها كما قدمنا،ومثل هذا الصنف من الناس يعاقبه الله بأشد العقاب فى الدنيا، وهو القلق والاضطراب النفسى، مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

٣ ـ العذاب الشديد فى الآخرة :

ولا يقف أثر الشح على العاملين عند حد العقاب فى الدنيا بالقلق والاضطراب النفسى ، بل يتعداه إلى عقاب الآخرة ، وهو العذاب الشديد فى نار جهنم ، وهذا هو الأثر الثالث .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما صفحة ٦٨ ، حاشية رقم (١ ، ٢) .

(٣) سبق تخريجه صفحة ٧١ ، حاشية رقم (١] .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء]. ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن].

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار الشح على العمل الإسلامى فكثيرة أيضا ، وأهمها :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن عملا كل المنتمين إليه والقائمين به أو أكثرهم معروف بالشح ، لا يمكن أن يجمع الله هؤلاء على قلب رجل واحد أبدا بحيث يصيرون الروح الواحد ، والفكر الواحد ، والمشاعر الواحدة ويصدرون عن رأى واحد ، وإن تعددت منهم الأجساد ، بل على العكس يمزقهم الله شر ممزق ، جزاء وفاقا .

٢ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

وإذا ابتلى العمل الإسلامى بالفرقة والقطيعة بين أهله،ومزقوا شر ممزق ، كانت النتيجة : تمكن العدو ، وإحكامه القبضة على أعناقنا ، وتضييق الخناق علينا، فتطول الطريق ، وتكثر التكاليف ، على النحو الذى نشهده ، ونعيشه نحن المسلمين اليوم .

خامسا : علاج الشح :

وما دمنا قد وقفنا على ماهية الشح ، ومظاهره ، وأسبابه ، وآثاره على العاملين ، وعلى العمل الإسلامى فقد أصبح من السهل علينا وصف الدواء ، بل الوقاية من هذا الداء ، وإليك السبيل :

١ ـ النظر فى العواقب والآثار المترتبة على الشح فى الدنيا والدين ، فإن مثل هذا النظر مما يخوف النفوس، ويحركها من داخلها، الأمر الذى ييسر عليها سبيل الإقلاع، والتخلص من هذا الداء .

٢ ـ اليقين التام بما عند الله من الأجر والمثوبة ، والنعيم المقيم : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] . ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى]. ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]. ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] .

٣ ـ العيش الطويل مع كتاب الله عز وجل للوقوف على خبر وعاقبة أهل الشح

والبخل، وكذلك خير وثواب أهل العطاء والجود، الأمر الذى ييسر علينا سبيل التخلص من أخلاق الأشحاء، ويحملنا على التحلى بأخلاق الأجواد ممن وصفنا .

٤ ـ دوام النظر فى سنة وسيرة وهدى نبينا محمد ﷺ مع النعمة التى أنعم الله بها عليه من مال أو غيره، وكيف كان من أحرص الخلق على إنفاق هذه النعمة ، وتوظيفها فى مرضاة الله عز وجل توظيفاً كاملا دون شح أو بخل ؛ إذ يقول ابن عباس رضي الله عنهما فى صفته ﷺ: كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن . فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة [1] .

قال الحافظ ابن حجر : « قوله : فيدارسه القرآن ، قيل : الحكمة فيه أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس ، والغنى سبب الجود ، والجود فى الشرع إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى ، وهو أعم من الصدقة » [2] .

ولقد ذكر ابن القيم فى كتابه (مدارج السالكين) مراتب عشرة للجود: مثل : الجود بالنفس ، والجود بالرياسة ، والجود بالجاه ، والجود بالراحة والرفاهية ، والجود بالعلم، والجود بالبدن، والجود بالبشر وبسط الوجه، والجود بالصبر، والجود بالعفو والصفح، والجود بكف الأذى، والجود بالمال والتعفف عما فى أيدى الناس [3] ، وما من شك فى أنه ﷺ كان مصدر هذه المراتب تلقاها عن ربه وَحيًا ،ثم حولها إلى واقع عملى فى دنيا الناس، أجل ، إنه لا بد من دوام النظر فى سنة وسيرة وهدى نبينا محمد ﷺ وما كان عليه من الجود بنعمة الله عليه ، وبذلها فيما فيه مرضاته ونفع عباده على النحو الذى

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الوحى : باب منه ١ / ٥ ، وكتاب الصوم : باب أجود ما كان النبى ﷺ يكون فى رمضان ٣/ ٣٣ ، وكتاب بدء الخلق : باب بدء ذكر الملائكة ٤ / ١٣٧، وكتاب المناقب : باب صفة النبى ﷺ ٤ / ٢٢٩ ، وكتاب فى فضائل القرآن : باب كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ ٦/ ٢٢٩، وكتاب الأدب : باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٨/ ١٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الفضائل : باب كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة ٤/ ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ رقم (٢٣٠٨) ، والنسائى فى : السنن : كتاب الصيام : باب الفضل والجود فى شهر رمضان ٤/ ١٢٥ (٢٠٩٥) ، والكبرى: كتاب الصيام: باب الفضل والجود فى شهر رمضان (٢٤٠٥) ، وأحمد فى : المسند ١/ ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٨٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، واللفظ للبخارى .

(٢) انظر : فتح البارى ١ / ٣١ .

(٣) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٦ بتصرف كثير .

بينا، فلعل ذلك يحرك نفوس الأشحاء، ويحملهم على التخلص من الشح، ثم التحلى بالجود اقتداء وتأسيا برسول الله ﷺ.

٥ ـ مطالعة أخبار الأجواد من البشر ، ولاسيما أبناء أمتنا المسلمة على نحو ما أثر عن قيس بن سعد بن عبادة ، وكان من الأجواد المعروفين : « أنه مرض مرة ، فاستبطأ إخوانه فى العيادة فسأل عنهم، فقالوا : إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال : أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه ، لكثرة من عاده .

وقالوا له يوما : هل رأيت أسخى منك ؟

قال : نعم ، نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت : إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم ؟

فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها . فقلنا : ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا اليسير ، فقال : إنى لا أطعم ضيفانى البائت ، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر ، وهو يفعل ذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا إليه ، ومضينا ، فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونى ثمن قراى ؟ ثم إنه لحقنا ، وقال : لتأخذنه أو لأطاعننكم برمحى ، فأخذناه وانصرف » (١) .

وعلى نحو ما حفظ عن مفتى الديار المصرية الأسبق المرحوم الشيخ محمد حسنين مخلوف ، إذ أوى فى داره واحدًا من أبناء الحركة الإسلامية الفارين من جحيم زعماء ثورة يوليو المصرية المباركة لعشر سنين ، وهو يعلم تمام العلم أنه لو كشف أمره ، فإن رقبته هى ثمن هذا الإيواء، ولكن جوده هو الذى حمله على ذلك مستعينا بالله. نعم، إن مطالعة أخبار هذا الصنف من البشر له دور كبير فى تحريك الأشحاء من داخلهم ، علهم يتوبون أو يذكرون .

٦ ـ الانسلاخ من الوسط المعروف بالشح ،والارتماء فى الأوساط المعروفة بالجود والسخاء ، فإن مثل ذلك يحمل الشحيح على الاقتداء والتأسى ، أو على الأقل المحاكاة والتشبه .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٢٩٢ .

٧ ـ التخلص من داء الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق، على نحو ما رسمنا فى الجزء الأول من هذه الآفات ، فإن من تحرر من الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق يسهل عليه أن يتحرر بعد ذلك من الشح على اعتبار أنه ثمرة من ثماره المرة .

٨ ـ تطهير الصدر من الأحقاد، فإن الصدر إذا طهر من الأحقاد سهل على صاحبه أن يتحرر من الشح ، وربما تجاوز ذلك إلى المواساة بل الإيثار ، على نحو ما جاء فى كتاب الله عن الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

٩ ـ مجاهدة النفس، وأخذها بالعزيمة، وحملها حملا على ترك الشح وأن تتحلى بالمواساة بل بالإيثار، ويحسن أن يأخذها صاحبها بالتدريج مع الترغيب تارة، والترهيب أخرى ، ويصبر على ذلك زمانًا ، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة توصل بسرعة إلى المراد، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت].

١٠ ـ كثرة الدعاء والضراعة إلى الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، فإن هذا الدعاء وهذه الضراعة إن كانا صادقين أجاب الله ، وأعان على النفس ، ورزق التخلص من هذا الداء، وكيف لايكون الأمر كذلك، والله سبحانه يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر] .

١١ ـ النظر إلى النعم التى أفاض الله علينا على أنها ليست ملكا لنا حتى نمنعها عن عباده ، وإنما هى ملك لله ، ونحن أمناء أو خزنة فقط على هذه النعم ، ومن واجب الأمين أو الخازن أن يتصدق وفق مراد صاحب النعمة ، وقد دعا صاحب النعمة إلى إنفاقها على عباده، وفى مرضاته، مع الوعد الحق بأنه سيخلف أضعافا مضاعفة، إذ يقول سبحانه: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ [الحديد] . ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

[سبأ]

١٢ ـ محاسبة النفس أولا بأول ، فإن المحاسبة لها دور كبير فى التخلص من هذا الداء ، ولاسيما إذا كان مع المحاسبة تأديب للنفس ، واستئصال لدائها عن طريق العقاب .

١٣ ـ التذكير الدائم بكل ما يتصل بهذه الآفة على النحو الذى ذكرناه، فإن الإنسان بفطرته ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير والتبصير، كما قال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] . ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] .

١٤ ـ فتح مجالات أو ميادين يمارس فيها الأشحاء صنوف البر والمعروف ، ويهون عليهم أن يوظفوا ما لديهم من طاقات وإمكانات .

١٥ ـ تشجيع هذا الصنف من الناس حين يأتى برًا أو معروفا بالثناء والمدح ، فإن المرء كثيرا ما ينجح مع نفسه بالثناء والمدح على نحو ما جاء فى حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فى مسألة غير الشح ، إذ يقول :

كنتُ غلاما شابا عزبا فى عهد النبى ﷺ وكنت أبيت فى المسجد ، وكان من رأى مناما قصه على النبى ﷺ فقلت : اللهم إن كان لى عندك خير ، فأرنا مناما يعبره لى رسول الله ﷺ فنمت ، فرأيت ملكين أتيانى ، فانطلقا بى ، فلقيهما ملك آخر فقال لى : لن تراع، إنك رجل صالح، فانطلقا بى إلى النار، فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفت بعضهم ، فأخذا بى ذات اليمين ، فلما أصبحت ذكرت ذلك لحفصة ، فزعمت حفصة أنها قصتها على النبى ﷺ، فقال : « إن عبد الله رجل صالح لو كان يكثر الصلاة من الليل » [(١)] .

فقد أثر هذا الثناء فى ابن عمر : قال الزهرى : وكان عبد الله بعد ذلك يكثر الصلاة من الليل .

١٦ ـ الوقوف على عواقب الأشحاء والبخلاء كأصحاب الجنة المذكورين فى سورة القلم ، ويمكن الاعتماد على كتاب البخلاء للجاحظ فى تغطية هذا الجانب ، فإن مثل ذلك مما يحمل العقلاء غالبا على تجنب ما يؤدى إلى هذه العواقب ، أعنى: الشح ، وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١)الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التهجد : باب فضل من تعار من الليل فصلى ٢/٦٩، وكتاب التعبير : باب الأمن وذهاب الروع فى المنام ، وباب الأخذ على اليمين فى النوم ٩ / ٥١ ، ٥٢، وكتاب فضائل الصحابة : باب مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ٥ / ٣٠ ، ٣١ ومسلم فى : الصحيح: كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٤ / ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ رقم (٢٤٧٨ ، ٢٤٧٩) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب تعبير الرؤيا : باب تعبير الرؤيا ٢ / ١٢٩١ رقم (٣٩١٩)، وأحمد فى : المسند ٢ / ١٤٦، كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا ، واللفظ للبخارى .

الآفة الخامسة والعشرون
الغضب

والآفة الخامسة والعشرون التى أصابت وتصيب نفرًا من العاملين وكانت سببًا فى كثير مما نشهده على ساحة العمل الإسلامى اليوم إنما هى : « الغضب » .

ولابد من أن نعمل جاهدين على التخلص بل التحصن ضد هذه الآفة، وبداية ذلك أن يكون فى أيدينا تصور واضح ودقيق عن أبعاد ومعالم هذه الآفة، وذلك من خلال هذه الجوانب :

أولا : تعريف الغضب :

لغة : يأتى الغضب فى اللغة على معان، منها :

أ ـ السخط، أو عدم الرضى بالشيء، وعن الشيء، نقول : غَضِب عليه غضبًا، ومَغْضَبَة : سخط أو لم يرض، وغضب له : سخطَ أو لم يرض على غيره من أجله .

ب ـ العضّ على الشيء، نقول : غضبت الخيل على اللجم : عَضَّتْ .

جـ ـ العبوس، نقول : ناقة غضوب، وامرأة غضوب : عبوس .

د ـ ورم ما حول الشيء، نقول : غَضِبَتْ عينه، وغُضِبَتْ : ورم ما حولها .

هـ ـ الكدر فى المعاشرة والخلق، نقول : هذا غُضَابى : كدر فى معاشرته وخلقه .

و ـ الجُنَّة، تتخذ من جلود الإبل، تلبس للقتال، والغضبة: جلد المسن من الوعول حين يسلخ(١) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا، إذ منها ما يعبر عن حقيقة الغضب، وهو المعنى الأول، ومنها ما يعبر عن مظاهره وأماراته الدالة عليه، وهو المعنى الثانى، والثالث، والرابع، ومنها ما يعبر عن آثاره وهو المعنى الخامس، ومنها ما يعبر عن هدفه، وغايته، وهو المعنى السادس والأخير .

---

(١) انظر : لسان العرب ٢ / ٦٤٨ ـ ٦٥١، والمعجم الوسيط ٢ / ٦٥٤، والصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٨١٩، مادة : « غضب » بتصرف كثير .

اصطلاحًا : أما فى الاصطلاح فهو : تغير داخلى أو انفعال يحمل على السطو والانتقام شفاء لما فى الصدر ، وأشد منه الغيظ حتى قالوا فى تعريفه : إنه شدة الغضب [(١)] .

ثانيًا : مظاهر الغضب ، وحقيقته فى الإسلام :

وللغضب مظاهر دالة عليه، وأمارات يعرف بها، ومنها :

١ ـ انتفاخ العروق والأوداج مع احمرار الوجه والعينين .

٢ ـ عبوس وتقطيب الوجه والجبين .

٣ ـ العدوان على الغير باللسان، أو باليد، أو بالرجل، أو ما يقوم مقام ذلك .

٤ ـ مقابلة العدوان بمثله وأشد مع عدم تقدير للعواقب الناجمة عن ذلك [(٢)] ، وهلم جرًا .

وحقيقة الغضب فى الإسلام: أن منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم .

* فما كان منه دفاعا عن نفس، أو عرض، أو مال، أو دين، أو حقوق عامة، أو نصرة مظلوم فمحمود . ويشهد بذلك أدلة كثيرة منها :

١ ـ أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة فى الأرض كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وحتى ينهض الإنسان بهذه المهمة خلق مكونا من روح، وعقل، وبدن، واقتضت حكمته سبحانه : أن يجعل البدن فى خدمة الروح، وأن يكون البدن فى هيئة تجعله صالحا لخدمة الروح مدة بقاء الإنسان فى الأرض، فخلق فيه قوتين :

الأولى : القوة الشهوية، ومهمتها جلب كل ما ينفع البدن ويغذيه .

الثانية : القوة الغضبية، ومهمتها دفع كل ما يضر البدن ويهلكه .

كما خلق له الأعضاء والجوارح لتكون فى خدمة كل من القوة الشهوية والقوة الغضبية، وخلق له العقل كذلك ليكون بمثابة مشير أو ناصح للروح، بحيث إن مالت كل من القوتين الشهوية والغضبية، عن حد الاعتدال، أشار العقل على الروح أو نصحه بضرورة اتخاذ موقف صارم مع القوة التى مالت، ليعود للإنسان توازنه وتكامله.

---

(١)انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٧، والتعريفات للجرجانى ص ١٦٢ بتصرف كثير .

(٢)انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٧ بتصرف كثير .

وعلم الله أن العقل قد يعتريه ما يحول بينه وبين بذل النصح والإرشاد لسبب أو لآخر، فأنزل له منهاجا يتمثل فى كتابه وسنة نبيه ﷺ ينير الطريق، ويهدى للحق، ويحفظ التوازن والتكامل بين سائر الجوانب التى يتكون منها الإنسان، كى تبقى شخصيته سوية مستقيمة، ليس بها خلل أو اعوجاج (١) .

فالغضب إذن خلق فى الإنسان ليدافع به عن كل ما تقدم، ويصون به الحرمات، والمقدسات .

٢ ـ وأن الله ـ عز وجل ـ أثنى على أصحاب نبيه ﷺ بأنهم أشداء على الكفار، فيقول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

والشدة على الكفار لا تنبعث إلا عن الحمية، والغضب، وهم لم يغضبوا فيما أخبر عنهم ربهم إلا له سبحانه وتعالى، حيث يقول : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ ﴾

[الحشر]

يقول ابن جرير ـ رحمه الله : « قوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ يقول تعالى ذكره : محمد رسول الله، وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار: غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم » (٢) .

٣ ـ وذكر الله ـ عز وجل ـ أن من صفات الصنف المرشح لحماية دين الله والتمكين له فى الأرض بعد إذ يعرض من يعرض، إنما هى العزة على الكافرين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله : « ويعنى بقوله : ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أشداء عليهم، غلظاء بهم، من قول القائل: قد عزنى فلان إذا أظهر العزة من نفسه له، وأبدى له الجفوة والغلظة » (٣) .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٧ بتصرف كثير .

(٢) انظر : جامع البيان ٢٦ / ١١ / ٦٩ .

(٣) انظر : جامع البيان ٦ / ٤ / ١٨٥ .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴾ [التوبة، التحريم : ٩] .

ومعلوم أن الغلظة على هؤلاء إنما تنبع من الغضب عليهم بسبب كفرهم ونفاقهم المؤدين إلى الصد عن سبيل الله، وإرادتها عوجا .

٥ ـ وجاء في صفته ﷺ أنه « ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها » (١) .

وعلى هذا النوع من الغضب يتنزل قول الشافعي رضي الله عنه : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (٢) .

* وما كان منه انتقاما لنفس فمذموم، وهو المقصود هنا، وبذمه جاءت الأخبار والآثار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ ٤/ ٢٣٠، وكتاب الأدب : باب قول النبي ﷺ : « يسروا ولا تعسروا »، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس ٨ / ٣٦، ٣٧، وكتاب الحدود : باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله ٨ / ١٩٨، ١٩٩ من وجهين عن مالك، ومن وجه عن عقيل، كلاهما عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به، ومسلم في : الصحيح : كتاب الفضائل : باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته ١٨١٣/٤، ١٨١٤ رقم (٢٣٢٧) من حديث ابن شهاب، وهشام بن عروة كلاهما عن عروة، عن عائشة به، وأبو داود في: السنن: كتاب الأدب: باب في التجاوز في الأمر ٤/ ٢٥٠ رقم (٤٧٨٥) من حديث ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به، ومالك في : الموطأ : كتاب حسن الخلق : باب ما جاء في حسن الخلق ص ٥٦٣، رقم (٢) من حديث ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة به، وأحمد في: المسند ٦ / ٨٥، ١١٤ ـ ١١٦، ١٣٠، ١٦٢، ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩١، ٢٠٩، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٦٢ من عدة أوجه عن ابن شهاب، وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة عن عائشة به، وبنحوه مطولا ومختصرا .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٢٤٧، وتوالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس لابن حجر العسقلاني ، الفصل السابع في سياق شيء من بليغ كلامه نظماً ونثراً : ذكر شيء من منثور كلامه ص ١٣٦ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح : كتاب الأدب : باب الحذر من الغضب ٣٤/٨، ومسلم في: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب ٤ / ٢٠١٤ رقم (٢٦٠٩)، ومالك في : الموطأ : كتاب حسن الخلق : باب ما جاء في الغضب ص ٥٦٥ رقم (١٢) ، وأحمد في : المسند ٢ / ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، واللفظ للبخاري ومسلم .

وعن أبى هريرة أيضا : أن رجلا قال للنبىﷺ: أوصنى، قال: « لا تغضب »، فردد مرارًا، قال : « لا تغضب » (١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبىﷺقال : « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ »، قلنا : الذى لا تصرعه الرجال، قال: « ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول اللهﷺ: ما ينقذنى من غضب الله ؟ قال : « لا تغضب » (٣) .

وقال أبو الدرداء : قلت : يا رسول الله، دلنى على عمل يدخلنى الجنة، قال: «لا تغضب » (٤) .

وقال عبد الله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع (٥) .

وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب، قال فى خطبته : « أفلح منكم من حفظ من الطمع، والهوى، والغضب » (٦) .

وقيل لعبد الله بن المبارك : أجمل لنا حسن الخلق فى كلمة، فقال : اترك الغضب (٧) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح :كتاب الأدب : باب الحذر من الغضب ٨ / ٣٥، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى كثرة الغضب ٤ / ٣٢٦ رقم (٢٠٢٠]، ومالك فى : الموطأ : كتاب حسن الخلق : باب ما جاء فى الغضب ص ٥٦٥ رقم (١١)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٦٢،٤٦٦، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ للبخارى، إلا مالكا، فإنه عنده مرسل من حديث حميد بن عبد الرحمن بن عوف، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٤ / ٢٠١٤ رقم (٢٦٠٨)، وأبو داود فى: السنن : كتاب الأدب: باب من كظم غيظا ٤ / ٢٤٨ رقم (٤٧٧٩) ، وأحمد فى: المسند ١ / ٣٨٢، ٣٨٣، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا، وأوله عند مسلم : أن رسول اللهﷺقال :« ما تعدون الرقوب فيكم » ـ يعنى المصاب بموت أولاده، قال:قلنا: الذى لا يولد له، قال : « ليس ذلك بالرقوب، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا »، قال : « فما تعدون الصرعة فيكم ؟ » . . . الحديث .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢ / ١٧٥، وأورده الغزالى فى إحياء علوم الدين ٣/ ٢٤٤، وعقب عليه العراقى فى : المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار بذيل الإحياء بقوله : « أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق، وابن عبد البر فى : التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن السائل عبد الله بن عمرو » .

(٤) الحديث أورده الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣ / ٢٤٥، وعقب عليه العراقى فى : المغنى بذيل الإحياء بقوله: « أخرجه ابن أبى الدنيا، والطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسن » .

(٥) هذا الأثر أورده الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣ / ٢٤٦ .

(٦، ٧) هذان الأثران أوردهما الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣ / ٢٤٦ .

تلك هى حقيقة الغضب فى الإسلام، وقد لخص هذه الحقيقة بأسلوب سهل ميسور الشيخ على محفوظ نقلا عن الغزالى فى الإحياء فقال :

« للغضب ثلاث درجات :

الأولى : درجة الاعتدال، بأن يغضب ليدافع عن نفسه، أو دينه، أو عرضه، أو ماله، أو ليدافع عن الحقوق العامة،ونصرة المظلوم، وتلك الحالة التى من أجلها خلق الغضب، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران، وطلبها نظام المجتمع الإنسانى، فإن التنافس فى هذه الحياة، والتزاحم على مرافقها يستدعى دفاعا قويا عن النفس، والدين، والمال، والعرض والحقوق العامة، ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى، وتقويض نظام الاجتماع ؛ لأن من لا يغضب لنفسه كان معرضا للزوال من هذا الوجود، أو معرضا لأن يسخره غيره تسخير الدواب التى لا تغضب لنفسها، ومن لا يغضب لدينه، فإنه يكون عرضة لتقليد القوى فى كل ما يراه ويستحسنه، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى، ومن لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه، وتختلط الأنساب، وتشيع الفاحشة فى طبقات الأمة، ويصبح الإنسان كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حمية، ومن لا يغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيرا معدما، وإذا فشا سلب المال تعطل نظام العمل، بل بطلت الأعمال التجارية، والصناعية، والزراعية، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضا، وذلك شر ووبال فى العاجل والآجل، ومن لا يغار للحقوق العامة، وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التى فطر الله الناس عليها، وفى مثله يقول الإمام الشافعى ـ رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ؛ أى بليد الطبع، فاقد الحمية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة] .

الثانية : درجة التفريط، وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال، بأن يضعف فى الإنسان، أو يفقد منه رأسا، وتلك الحالة مذمومة شرعا، وعقلا ؛ لأن من لا يغضب لنفسه، أو لدينه، أو لعرضه، أو لماله، أو للمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله فى خلقه .

وفى ذلك خطر عظيم على الاجتماع ؛ لأنه مثار الفوضى فى جميع مرافق الحياة كما علمت .

الثالثة : درجة الإفراط، وهى أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال، ويطغى على العقل والدين، ويندفع فى سبيل الشر اندفاعا قد يؤدى إلى الهلاك من حيث لا يدرى، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم، وشر الموبقات، ومعلوم أن الغضب فى تلك الحالة مذموم شرعا وعقلا، وتتفاوت درجات الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفا، فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر حجما، وأكثر ذما»(١) .

ثالثا : أسباب الغضب :

وللغضب أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث :

١ ـ البيئة المحيطة بالمرء :

والسبب الأول الذى يؤدى بالمرء إلى الغضب إنما يرجع إلى البيئة المحيطة بهذا المرء، أعمَّ من أن تكون قريبة ـ وهى البيت، أو بعيدة ـ وهى المجتمع ؛ إذ قد تحيط بالمرء بيئة مليئة بأشرار يحسبون التهور شجاعة، وطغيان الغضب الموجب للظلم رجولةً، فتتأثر نفسه بذلك، وتصبح سرعة الغضب عادةً له، وشعارا .

٢ ـ المراء أو الجدل :

والسبب الثانى المؤدى إلى الغضب إنما يرجع إلى المراء أو الجدل بالباطل؛ ذلك أن كلا من المتخاذلين يريد الانتصار على الآخر، ولو بالباطل، وحين لا يتم له ذلك يغضب ويثور، قاصداً السطو أو الانتقام، لاسيما إذا كان يرى نفسه أقوى وأشد ممن يناظره أو يجادله .

ولعل هذا هو السبب فى التحذير من المراء أو الجدل بالباطل على النحو الذى قدمنا فى آفة: «المراء أو الجدل» من هذه السلسلة أعنى سلسلة: «آفات على الطريق».

٣ ـ المزاح بالباطل :

والسبب الثالث المؤدى إلى الغضب إنما يعود إلى المزاح بالباطل ؛ ذلك أن المزاح إذا تجاوز حدود الحقِّ إلى الباطل أدَّى إلى الخصومة، وتنتهى الخصومة إلى إشعال نار الغضب فى القلب بصورة تنعكس على الجوارح، فإذا هى ساعية إلى السَّطو والانتقام.

---

(١) انظر : هداية المرشدين ص ٢٦٣، ٢٦٤ .

ولعل هذا هو السبب فى أنه ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقا، وأنه نهى عن المزاح بالباطل، إذ يقول: « لا تمارِ أخاك ولا تمازحه، ولا تعدْهُ مَوْعِدَةً فتخلفه »(١) .

٤ ـ عدوان الآخرين بأى لون من ألوان العدوان :

والسبب الرابع الذى يؤدى إلى الغضب إنما يرجع إلى عدوان الآخرين بأىِّ لون من ألوان العدوان، ذلك أن المرء إذا وقع عليه عدوان من الآخرين بأى لون من ألوان العدوان : سخرية، أو استهزاء، أو تجسسا وتتبعا لعوراته، أو غيبة، ونميمة، أو سبًّا وتجريحا، أو اعتقالا وسجنا، أو ضربا وتعذيبا، على نحو ما تصنعه أكثر حكومات العالم الإسلامى ـ بل العربى على وجه الخصوص ـ مع بعض الشباب المتدين الغيور الذى أخطأ الطريق، الأمر الذى يثيره من داخله، ويحمله على الرد بصورة أو بأخرى .

ولعل هذا هو السبب فى تحذير الله ورسوله من العدوان على الآخرين دون مبرر يقتضى ذلك، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « إياكم والظن، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله ... » الحديث (٢) .

٥ ـ الاستعلاءُ والتكبُّر فى الأرض بغير الحق :

والسبب الخامس الذى يؤدى إلى الغضب إنما يرجع إلى الاستعلاء والتكبُّر فى الأرض بغير الحق ؛ ذلك أن المستعلى المتكبر فى الأرض بغير الحق يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقى عظمته ومنزلته بين الناس، فإذا طالبه أحد بحق استشاط غضبه،

(١) الحديث أخرجه الترمذىُّ فى : السُّنن : كتاب البرِّ والصلة : باب ما جاء فى المراء ٤ / ٣١٦ رقم (١٩٩٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثالث، آفة « سوء الظن » .

وكذا إذا نهاه عن رذيلة، أو عارضه فى أىِّ أمرٍ كان، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات، فلا يصح لأحد أن يأمره، أو ينهاه، أو يقف في سبيله، وهو فى الواقع ناقص من كل وجه، يحاول أن يجبر نقصه باستعلائه، وتكبُّره .

٦ ـ نسيان النفس من المجاهدة :

والسبب السادس الذى يؤدى إلى الغضب إنما يعود إلى نسيان النفس من المجاهدة؛ ذلك أن أىَّ داء يبتلى به الإنسان يتفاقم ويعظم، ويصبح كأنَّه قطعة من جبلة الإنسان حين يهمله، ولا يجاهد نفسه أن تقلع عنه، وتتخلص منه .

ولهذا دعا الله ـ كما قدمنا غير مرَّة ـ إلى المجاهدة، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت] .

٧ ـ عدم قيام الآخرين بواجبهم نحو مَنْ ابتلى بالغضب :

والسبب السابع الذى يؤدى إلى الغضب إنما يرجع إلى عدم قيام الآخرين بواجبهم نحو مَنْ ابتُلى بالغضب ؛ ذلك أن الإنسان قد يَعْرِفُ عيبه وآفته، ولكنه لضعفه أمام نفسه، وأمام إغراءات شياطين الإنس والجن، وزينة الحياة الدنيا، يعجز عن التخلص من هذا العيب، وهذه الآفة، وحينئذ لابدَّ له من عون الآخرين، ووقوفهم بجانبه حتى يتخلص من عيبه بالغضب، فإن هذا الغضب يتفاقم، ويعظم حتى يصبح وكأنه جزء من شخصية صاحبه لا ينفكُ عنه بحال .

٨ ـ الوصف بما يراه المرء منقصة له أو عيبا :

والسبب الثامن الذى يؤدى إلى الغضب إنما يرجع إلى الوصف بما يراه المرء منقصة له أو عيبا ؛ ذلك أن الإنسان إذا وصف بأوصاف يرى فيها انتقاصا له، ونيلا من كرامته بأن يقال له : لو كنت رجلا للقيت فلانا وفلانا، وأظنُّ أنك ما تريد أن تلقى فلانا إلا فرقا أو خوفا من بأسه، وهكذا، الأمر الذى يحركه من داخله وينعكس ذلك على جوارحه فإذا هو محمر الوجه والعينين، مرغيا، مزبدا، ساعيا إلى السطو والانتقام على نحو ما جاء فى سبب خروج أميَّة بن خلف إلى مصرعه يوم بدر :

إذ يروى عبد الله بن مسعود ﷺ فيقول : « انطلق سعد بن معاذ معتمرا، فنزل على أميَّة بن خلف أبى صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة نزل على سعد، فقال أميَّة لسعد : انتظر، حتى إذا انتصف النهار، وغفل الناس، انطلقت فطُفْتَ، فبَيْنا

سعدٌ يطوف إذا أبو جهل، فقال : مَنْ هذا الذى يطوف بالكعبة ؟ فقال سعدٌ : أنا سعدٌ، فقال أبو جهل : تطوف بالكعبة آمنا، وقد آويْتم محمدا وأصحابه، فقال : نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم، فإنه سيد أهل الوادى، ثم قال سعد : والله، لئن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعنَّ متجرك بالشام، قال : فجعل أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال : دعنا عنك، فإنى سمعتُ محمدا ﷺ يزعم : أنه قاتلك، قال : إيَّاى ؟ قال : نعم، قال : والله، ما يكذب محمد إذا حدَّث، فرجع إلى امرأته، فقال : أما تعلمين ما قال أخى اليثربى ؟ قالت : وما قال ؟ قال : إنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلى، قالت : فو الله ما يكذب محمدٌ، قال : فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصرِّيخ، قالت له امرأته : أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربى، قال : فأراد ألا يخرج، فقال أبو جهل : إنك من أشراف الوادى، فسِرْ يوما أو يومين، فسار معهم، فقتله الله »(١) .

وفى رواية عن ابن إسحاق، قال : وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح : « أن أميَّة بن خلف كان أجمع القعود، وكان شيخًا جليلا، جسيما ثقيلا، فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال : يا أبا على، استجمر، فإنما أنت من النِّساء، قال : قبحَّك الله، وقبَّح ما جئت به، قال : ثم تجهَّز، وخرج مع الناس »(٢) .

وفى رواية : « أن أبا جهل هو الذى ما زال به يدفعه ويحرِّضه حتى قال : أما إذ غلبتنى لأشترينَّ أجود بعير بمكة »(٣) .

فانظر كيف استطاع عقبة بن أبى معيط أو أبو جهل إغضاب أميَّة بن خلف إغضابا حمله على شراء أجود بعير ليشاركهم الخروج إلى بدر، وكانت وسيلة كلٍّ منهما فى ذلك إنما هى وصف أمية بن خلف بما اعتبره انتقاصا، وعيبا، وإهانة له، ورأى أن أحسن وسيلة للرد على كلٍّ هذه الأوصاف، إنما هى الخروج مع القوم على أجود راحلة .

٩ ـ التذكير بالعداوات والثارات القديمة :

والسبب التاسع الذى يؤدى إلى الوقوع فى الغضب إنما يرجع إلى التذكير

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المناقب : باب علامات النبوة فى الإسلام ٤ / ٢٤٩، ٢٥٠ من حديث عبد الله بن مسعود بهذا اللفظ .

(٢) انظر : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ١ / ٢٩٤ نقلا عن ابن إسحاق .

(٣) هذه الرواية أوردها الصالحى فى : سبل الهدى والرشاد ٤ / ٧٢ نقلا عن البخارى .

بالعداوات والثارات القديمة ؛ ذلك أن المرءَ قد يكون له ثأرٌ عند آخرين، ويتنازل عنه ديانةً أو إيماناً، وتلتقي القلوب ويكون الحُبُّ والإخاء، وهنا يعمل الحاقدون والحسَّاد على تسويد هذه القلوب، والنيل من الأخوة بوسيلة أو بأخرى، ويتخذون من التذكير بالثارات القديمة وسيلة من أنجح الوسائل لذلك .

على نحو ما جاء في علاقة الأنصار ـ أوسهم وخزرجهم ـ فقد كانت بينهم حروبٌ وثاراتٌ في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أبطل هذه الثارات، وألَّف بين قلوبهم، وجمع كلمتهم .

وغاظ ذلك اليهود، فحاولوا الوقيعة بينهم ـ على ما أورده ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

إذ يقول : « وقد ذكر أن هاتين الآيتين من قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ والآيات بعدهما إلى قوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نزلت في رجل من اليهود حاول الإغراء بين الحيَّين من الأوس والخزرج بعد الإسلام ليراجعوا ما كانوا عليه في جاهليتهم من العداوة والبغضاء، فعنَّفه الله بفعله ذلك، وقبَّح له ما فعل، ووبَّخه عليه، ووعظ أيضا أصحاب رسول الله ﷺ ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وأمرهم بالاجتماع والائتلاف وذكر الرواية بذلك فقال : حدثنا ابن حميد، قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، قال : حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال : مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخا قد عسا في الجاهلية ـ يعني : كبر ـ عظيم الكفر، شديد الضِّغن على المسلمين، شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ـ يعني أمّهم، وكانت تسمى قيلة ـ والله ما لنا معهم ـ إذا اجتمع ملؤهم ـ بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود، وكان معه، فقال : اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكِّرهم يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر

فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيَّين على الركب، أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبَّار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة . وغضب الفريقان، وقالوا : قد فعلنا، السِّلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة الحرَّة ـ فخرجوا إليها، وتحاور الناس، فانضمَّتْ الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج : بعضها إلى بعض، على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، فبلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال : « يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم اللهُ إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا »، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد مِنْ عدوِّهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجالُ من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدو الله شاس بن قيس، وما صنع، فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [آل عمران] ، وأنزل الله ـ عز وجل ـ فى أوس بن قيظى ، وجبار بن صخر ، ومَنْ كان معهما مِنْ قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ممَّا أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ إلى قول: ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران] » [1] .

١٠ ـ الغفلة عن العواقب المترتبة على الغضب :

وأخيرا، قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الغضب فردية أو جماعية، دنيوية أو أخروية، هى السبب فى الوقوع فى الغضب ؛ ذلك أن المرءَ إذا غَفِلَ عن الآثار والعواقب المترتبة على أمْرٍ ما وقع فى ذلك الأمر مِنْ حيث لا يدرى، ولا يشعر .

(١) انظر : جامع البيان ٤ / ٣ / ١٦، ١٧ .

ولعل هذا هو السرُّ فى دعوة الشارع الحكيم إلى الفقه فى الدين إذ يقول الله عز وجل فى أول آيات الوحى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] . ويقول: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة] . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه] .

ويقول النبىﷺ : « مَنْ يُرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . . . » الحديث [(١)] .

رابعا : آثار الغضب :

وللغضب آثار ضارة، وعواقب مهلكة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، ودونك طرفا مِنْ هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الغضب على العاملين :

١ ـ الإضرار بالبدن :

ذلك أن الغضب ينشأ من غليان الدَّم فى القلب، ثم اندفاعه فى العروق، كما يظهر من احمرار الوجه والعينين، وتكرار ذلك ينشأ عنه غالبا ضغط الدم، وربما تصلُّب الشرايين، ثم الشلل والعياذ بالله، وهكذا ينتهى الغضب إلى الإضرار بالبدن .

٢ ـ نقصان الدين :

وذلك أن الغضب قد يؤدى بصاحبه إلى غيبة الآخرين، وربما إلى انتهاك أعراضهم، وسلب أموالهم وسفك دمائهم، وذلك كله إثم، ونقصان فى الدين .

٣ ـ عدم القدرة على الإمساك بزمام النفس :

ذلك أن العقل فى ساعة الغضب يكون كالمستور أو كالمغطى، وإذا ستر العقل أو غطى صار الإنسان غير قادر على الإمساك بزمام النفس، وحينئذ يصدر منه مالا يحمد عقباه، وما يؤدى إلى الندم، ولكن بعد فوات الأوان .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة « الإعجاب بالنفس » .

وقد قال سليمان بن داود عليهما السلام : « إياك وكثرة الغضب، فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم »[(١)] .

وعن وهب بن منبه : « أن راهبا كان فى صومعته، فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه، فقال له : افتح، فلم يجبه، فقال : افتح فإنى إذا ذهبتُ ندمتَ، فلم يلتفتْ إليه . . . قال : فولى مدبراً، فقال الرَّاهب : ألا تسمع؟ قال : بلى، أخبرنى أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟ فقال : الحدَّة، إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة »[(٢)] .

وقال بعضهم لولده : « يا بنيّ، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحيِّ فى التنانير المسجورة، فأقل الناس غضبا أعقلهم، فإن كان للدنيا كان دهاءً ومكراً، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً، فقد قيل : الغضب عدو العقل، والغضب غولُ العقل »[(٣)] .

٤ ـ الوقوع فى مذلة الاعتذار :

ذلك أن المغضب يقع منه حال الغضب مالا يدرى ولا يشعر به، وهذا بدوره يوقعه فى مذلة الاعتذار .

وقد نهى النبى ﷺ عن ارتكاب كل ما يؤدى إلى الوقوع فى مذلة الاعتذار، فقال: « إياك وكل ما يعتذر منه »[(٤)] .

وكان بعضهم يقول: « إياك والغضب، فإنَّه يصيرُك إلى ذِلَّة الاعتذار »[(٥)] .

٥ ـ العذاب الشديد :

إذ الغضبان كثير الخطأ، والوقوع فى المعاصى والسيئات، وهذه توجب العذاب الشديد فى الآخرة فقط، أو فى الدنيا والآخرة جميعا، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

(١، ٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٥، ٢٤٦ .

(٤) الحديث أورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول : الجزء الرابع ص ٧٧ حديث رقم (٣٥٤) نقلا عن الضياء المقدسى فى : المختارة من حديث شبيب بن بشر عن أنس بن مالك مرفوعا بهذا اللفظ،وعقب عليه بقوله : « قلت : وهذا سند حسن رجاله ثقات، وفى شبيب كلام لا يضر » .

(٥) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ٣ / ٢٤٦ .

وصدق النبي ﷺ إذ يقول ـ وقد سأله عبد الله بن عمرو بن العاص : ما ينقذني من غضب الله ؟ «لا تغضب »[١] ، وإذ يقول ـ وقد سأله أبو الدرداء ؟ قائلا : دلّني على عمل يدخلني الجنة ؟ : « لا تغضب »[٢] .

ب ـ على العمل الإسلامي :

ومن آثار الغضب على العمل الإسلامي :

١ ـ قلة كسب الأنصار والمؤيدين :

ذلك أن النفوس تألفُ العاقل المنضبط الحكيم في تصرفاته وتقبل عليه، وتلتفُّ حوله، وتعينه وتؤازره ما استطاعت أما الطائش الأرعن في سلوكياته وتصرفاته، فإنها تُعرض وتنفضُّ عنه، وعليه فإذا كان العاملون لدين الله ممن يغضبون لأنفسهم ويطيرون لكلِّ هيعة، ويستجيبون لكل مثير دون تقدير للنتائج أو العواقب، فإن الناس لن يقبلوا على هؤلاء العاملين، ولن يؤازروهم، ويخسر العمل الإسلامي بذلك كثيراً من الأنصار والمؤيدين .

٢ ـ الفرقة والتمزق :

وثمة أثر ثان على العمل الإسلامي من وراء الغضب، ألا وهو الفرقة والتمزق؛ ذلك أن الغضب للنفس يعني أن العمل لغير الله، وكل ما كان كذلك فلن يرجى مِنْ ورائه مَوَدَّةٌ، أو ترابط، بل على العكس تكون الفرقة والتَمزُّق .

فقد جاء في الحديث قوله ﷺ : « والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف »[٣] .

٣ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

والأثر الأخير للغضب على العمل الإسلامي ، إنما هو طول الطريق وكثرة التكاليف، وهذا أمر بدهي، إذ أن قلة كسب الأنصار، والمؤيدين، مع شيوع الفرقة والتمزق ينتهيان حتما بهذا العمل إلى طول الطريق وكثرة التكاليف .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٩٤، حاشية رقم (٢) .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٩٤، حاشية رقم (٣) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح : كتاب الأنبياء : باب الأرواح جنود مجندة ٥/ ١٦٢ من حديث عائشة رضي الله عنها ، ومسلم في الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ٢٠٣١ رقم (٢٦٣٨) ، وأحمد في : المسند ٢ / ٢٩٥، ٥٢٧، كلاهما من حديث أبي هريرة .

خامسا : علاج الغضب :

وما دمنا قد وقفنا على ماهية الغضب، وحقيقة موقف الإسلام منه، والأسباب الحاملة عليه، وآثاره على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، فقد صار سهلا وميسورا أن نرسم طريق العلاج، بل طريق الوقاية من هذا الغضب، وتتلخص هذه الطريق فى:

١ ـ التبصير بالآثار الضارة والعواقب المهلكة المترتبة على الغضب، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامى، دنيوية كانت أو أخروية، فإن مثل هذا التبصير يفيد فى تحريك النفس من داخلها، فإذا هى ساعية فى طريق العلاج، بل الوقاية من هذا الداء .

٢ ـ تطهير البيئة التى يعيش فيها المرء فى البيت أو فى المجتمع من هذا الداء ما أمكن، وإلا لزم التحول إلى بيئة أو إلى وسط آخر نظيف، يساعد فى التخلص بل الوقاية من هذا الداء .

٣ ـ التداوى من المراء أو الجدل، وكذلك من المزاح بالباطل، فإن التداوى منهما يقضى على رافدين فى غاية الأهمية بالنسبة للغضب، من باب أن القضاء على الداء ينبع من القضاء على أسبابه .

٤ ـ عدم العدوان على الآخرين ظلما وعدوانا، فإن مثل هذا العدوان يحمل على الرد مهما تكن التكاليف والتضحيات، وهناك ألف طريق وطريق لعلاج الخطأ، وآخرها العدوان من باب : أن آخر الدواء الكى .

٥ ـ التحرر من الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق، مع التحلى بنقيضهما، وهو التواضع، فإن ذلك من شأنه أن يحمل المعروفين بالغضب عند رؤية هؤلاء، وقد تحرروا من أمراضهم أو أدوائهم، أن يتخلصوا بل أن يتوقوا هذا الغضب .

٦ ـ قيام الأمة ـ حكاما ومحكومين ـ بواجبها نحو المعروفين بالغضب، مرةً بالنصيحة، ومرةً بالإنكار، ومرة بالتخويف، ومرة بالثواب ومرةً بالهجر والمقاطعة، وهكذا فإن القيام بمثل هذا الواجب يفيد كثيرا فى التخلص بل الوقاية من هذا الداء .

٧ ـ إنزال الناس منازلهم، وإعطائهم حقهم من الاحترام، والتقدير، وتجنب وصفهم بما لا يليق أو بما لا ينبغى، فإن هذا من شأنه أن يحمل على التخلص بل الوقاية من هذا الداء .

٨ ـ عدم إثارة العداوات أو الثارات القديمة، فإن ذلك من شأنه أن يقضى، بل يقى الوقوع فى هذا الداء .

٩- تغيير الحال التى يكون عليها الإنسان ساعة الغضب بأن يتوضأ أو يغتسل، ويجلس إن كان قائما، ويمرِّغ خده ووجهه فى التراب إن كان جالسا، ويكثر من ذكر الله دعاءً، وتوبةً واستغفاراً، وثناءً على الله - تبارك وتعالى - أو يمشى إن كان واقفا، وهكذا حتى تهدأ ثائرته، ويعود إلى رشده وصوابه .

ولقد أرشدنا النبى ﷺ إلى هذا الدواء، إذ يقول سليمان بن صُرَد : استبَّ رجلان عند النبى ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه، مغضبا قد احمرَّ وجهه، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول النبىُّ ﷺ ، قال : إنى لست بمجنون (١).

ويقول ﷺ فى حديث طويل : « .... ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمَنْ أحسَّ بشىء من ذلك فلْيَلْصَق بالأرض » الحديث (٢) .

وعن أبى حرب بن أبى الأسود، عن أبى ذرٍّ قال : إن رسول الله ﷺ قال لنا : «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع»(٣) .

وعن أبى وائل القاص قال : دخلنا على عروة بن محمد السعدى، فكلمه رجل فأغضبه، فقام، فتوضأ، ثم رجع وقد توضأ، فقال : حدثنى أبى، عن جدِّى عطية، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب صفة إبليس وجنوده ٤ / ١٥٠، ١٥١، وكتاب الأدب : باب الحذر من الغضب ٨ / ٣٤، ٣٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأىِّ شىء يذهب الغضب ٤ / ٢٠١٥ رقم (٢٦١٠) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما يقال عند الغضب ٤ / ٢٤٩ رقم (٤٧٨١)، كلهم من حديث سليمان بن صُرد مرفوعا، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب الفتن: باب ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ٤ / ٤١٩، ٤٢٠ رقم (٢١٩١) ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « وهذا حديث حسن صحيح »، وأحمد فى : المسند ٣ / ١٩، ٦١، كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما يقال عند الغضب ٤ / ٢٤٩ رقم (٤٧٨٢، ٤٧٨٣) بإسنادين إلى النبى ﷺ ، الأول مسند متصل، والآخر مرسل، وقال عن الآخر: «هذا أصح الحديثين » .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما يقال عند الغضب ٤ / ٢٤٩ رقم (٤٧٨٤) بالإسناد المذكور، وبهذا اللفظ، وهو مرسل .

١٠ ـ تذكير الغضبان بحاله وقت الغضب، وأنه أشبه ما يكون بالمجانين، أو بالوحش الهائج ، وأن مثل هذا مالا يليق بإنسان خلقه ربُّه فى أحسن تقويم ، وفضله على كثير من خلقه إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء] . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين]، فلعل مثل هذا التذكير يفيد فى العلاج بل الوقاية من الغضب .

١١ ـ لفت النظر إلى ضرورة مجاهدة النفس ضد الغضب، وأنَّ هذه المجاهدة دليل القوة والشجاعة حقا، إذ يقول ﷺ : «ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[1] .

فإن مثل هذا الأسلوب كثيرا ما يفيد فى العلاج بل الوقاية من الداء .

١٢ ـ بيان الأجر الذى ينتظر المسلم حين يجاهد نفسه، ويكظم غيظه، إذ يقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] . ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران] .

وإذ يقول ﷺ : «ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى»[2] ، « مَنْ كتم غيظا، وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّره من الحور العين، يزوِّجه منها ما شاء »[3] .

فإن من لاح له بريق الأجر هانت عليه مشقة التكليف .

١٣ ـ دوام المعايشة لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ، فإنها تبصِّر الطريق، وتربى ملكة التقوى، وهما خير ما يعين على التخلص بل الوقاية من الغضب .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٩٣ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب الحِلْم ٢ / ١٤٠١ رقم (٤١٨٩)، وأحمد فى : المسند ٢/ ١٢٨، كلاهما من حديث ابن عمرو مرفوعا، وأورده البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ٤/ ٢٣٣ وعقب عليه بقوله: « هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن عمر أيضا » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب مَنْ كظم غيظا ٤ / ٢٤٨ رقم (٤٧٧٧) من حديث سهل بن معاذ عن أبيه به مع اختلاف يسير، والترمذى فى السنن : كتاب البر والصلة : باب فى كظم الغيظ ٤ / ٣٢٦، ٣٢٧ رقم (٢٠٢١)، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب »، وأحمد فى : المسند ٣ / ٤٣٨، ٤٣٩، ٤ / ١٤، وأورده الألبانى فى : صحيح الجامع الصغير ٥/ ٣٥١ من حديث معاذ بن أنس مرفوعا بهذا اللفظ .

١٤ ـ النظر فى تاريخ مَنْ عُرف عنهم كظم الغيظ والتحلى بالحلم والعفو كالأحنف ابن قيس ، وعمر بن عبد العزيز ، والشافعى وغيرهم ، فإن هذا النظر يحمل على الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبه .

١٥ ـ الدعاء إلى الله أن يشفى القلوب مما بها من غيظ، وأن يسكب فيها الرضا، والرحمة، والشفقة على عباد الله، فإن الدعاء سهام نافذة لا تكاد تخطئ، بل هو العبادة حقًا .

الآفة السادسة والعشرون
الحقـــد

والآفة السادسة والعشرون التى قد ابتلى بها نفر من العاملين، بل لقد ابتلى بها كثيرون بالفعل، وكانت سببا فيما نشهده على الساحة اليوم من كيل الاتهامات للمجاهدين الصادقين إنما هى : « الحقد » .

وحتى يتطهر منها من ابتلى بها، ويسلم منها من عافاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابد من إعطاء تصور دقيق، وواضح عنها على النحو التالى :

أولا : تعريف الحقد :

لغة : الاحتباس والمنع، يقال : حقِدَ المطر حَقْدا، وأحقد : احتبس ومنع .

وقال ابن الأعرابى : حقد المعدن وأحقد: إذا لم يخرج منه شىء، وذهبت منالته، ومعدن حاقد: إذا لم ينل شيئا، وأحقد القوم : إذا طلبوا من المعدن شيئًا، فلم يجدوا، والحقود : كثير الحقد [1] ، والأحقاد: التصيير إلى الحقد، نقول : أحقده الأمر، وأحقده غيره، صيره حاقدًا .

والضغن لغة :

أ ـ الميل أو الجور نقول : ضغنوا عليه : مالوا عليه، واعتمدوا بالجور، وقال ابن الأعرابى : ضغنت إلى فلان : ملت إليه، كما يضغن البعير إلى وطنه، وإذا قيل فى الناقة : هى ذات ضغن، فإنما يراد نزعها ـ أى الشوق إلى وطنها ـ وربما استعير ذلك فى الإنسان .

ب ـ الانطواء على الحقد، نقول: تضاغن القوم واضطغنوا: انطووا على الأحقاد.

جـ ـ الامتناع عن إعطاء كل ما فى النفس لسبب ما، نقول : فرس ضاغن، وضغن: لا يعطى كل ما عنده من الجرى حتى يضرب، وقال أبو عبيدة : فرس ضغون ـ الذكر والأنثى فيه سواء ـ وهو الذى يجرى كأنما يرجع القهقرى، وفى حديث عمر :

«والرجل يكون فى دابته الضغن فيقومها جهده، ويكون فى نفسه الضغن فلا يقومها»، والضغن فى الدابة أن تكون عسرة الانقياد . ولا تعارض بين هذه المعانى الثلاثة؛ إذ هو الانطواء على الحقد [(١)] ، المعبر عنه أحيانا بالميل أو الجور بصورة تمنع من إعطاء كل ما فى النفس .

والوغر لغة :

أ ـ شدة توقد الحر أو الاحتراق من الغيظ، تقول : فى صدره علىَّ وغر ـ بالتسكين : ضغن، وعداوة، وتوقد من الغيظ، والمصدر الوغر بالتحريك .

ب ـ الامتلاء غيظا، تقول : وغر صدره عليه، يوغر وغرا، ووغر يغر : إذا تجرع أو امتلأ غيظا وحقدا، والتوغير : الإغراء بالحقد، وأوغرت صدره على فلان : أوقدته، وأحميته من الغيظ .

جـ ـ الصوت، وهو مشتق من إيغار الخراج، وهو أن يؤدى الرجل خراجه إلى السلطان الأكبر فرارا من العمال . ولا تعارض ؛ إذ هو امتلاء القلب غيظا وحقدا، بصورة توقده وتحرقه [(٢)] .

والدَّوى لغة : الضغن أو المرض والسل، أو هو داء باطن فى الصدر يقال : تركت فلانا دوى ، ما أرى به حياة، وفى حديث أم زرع : كل داء له داء، أى كل عيب يكون فى الرجال فهو فيه ، فجعلت العيب داء، وقولها : له داء : خبر لكل ، ويحتمل أن يكون صفة لداء، وداء الثانية خبر لكل، أى كل داء فيه بليغ متناه، كما يقال: إن هذا الفرس فرس [(٣)] .

والغل لغة : الغش أو الضغن والحقد، تقول : غل صدره غلا وغليلا : كان ذا غش، أو ضغن، وحقد [(٤)] ، ومنه قوله سبحانه فى التنزيل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف : ٤٣، الحجر : ٤٧] .

اصطلاحًا : أما فى الاصطلاح فإن الحقد وما فى معناه من : الضغن، والوغر، والدوى والغل يعنى : حبس أو إمساك العداوة والبغضاء فى الصدر للعجز عن التشفى

(١) انظر : لسان العرب ٤ / ٢٥٩٢، ٢٥٩٣، وتاج العروس ٩ / ٢٦٤، مادة : « ضغن » .
(٢) انظر : لسان العرب ٦ / ٤٨٧٨، ٤٨٧٩، وتاج العروس ٣ / ٦٠٤، مادة : « وغر » .
(٣) انظر : لسان العرب ٢ / ١٤٦٣ ـ ١٤٦٥، مادة : « دوا » بتصرف كثير .
(٤) انظر : المعجم الوسيط ٢ / ٦٥٩، ٦٦٠ بتصرف كثير .

حالا مع التربص أو التحين للتعبير عنها بصورة من الصور، أو شكل من الأشكال مآلا، وعرفه الشريف الجرجانى بقوله : « الحقد : هو طلب الانتقام، وتحقيقه أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدا »[١]، أو هو : « سوء الظن فى القلب على الخلائق لأجل العداوة »[٢]، والتعريف الأول الذى نقلناه عن الجرجانى لا يختلف كثيرا عن التعريف الذى ذكرناه، أما التعريف الثانى فإنه تعريف للحقد ببيان آثاره .

وقال الغزالى : « ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، وأن يدوم ذلك ويبقى »[٣] .

ويعرفه الشيخ عبد الرحمن الميدانى بقوله: « والحقد هو العداوة الدفينة فى القلب، والعداوة هى كراهية يصاحبها رغبة بالانتقام من الشخص المكروه إلى حدٍّ إفنائه وإلغائه من الوجود، ومن مرادفات الحقد تقريبا : كلمة الغل، فالغل هو العداوة المتغلغلة فى القلب، ومن مرادفاته أيضا : الضغن، والشحناء، فهى جميعا كلمات تدور حول معنى واحد أو معان متقاربة، ترجع بوجه عام إلى معنى العداوة، مع بعض فروق فى الدلالات »[٤] .

ثانيًا : صور الحقد وحقيقته فى الإسلام :

وللحقد صور تدل عليه، وأمارات يعرف بها، منها :

١ ـ تشويه صورة وسمعة البررة المجاهدين الذين وقفوا حياتهم على دين الله فعاشوا وماتوا لهذا الدين، وعلى هذا الدين، وما كان لهم من جريرة أو ذنب إلا أنهم يقولون : ربنا الله، وأن سمعتهم، ودعوتهم طارت فى الخافقين .

٢ ـ الوقوف عند بعض الأخطاء التى تاب منها أصحابها، وانتشرت هذه التوبة فى كل الأوساط حتى عرفها العام والخاص، والقاصى والدانى، ثم إشاعة هذه الأخطاء بين الناس فى كتب ومؤلفات أو أشرطة كاسيت، لتشويه صورة أصحابها، والتشويش على المنهج الذى يعتنقون، والدعوة التى لها يعملون، مثل التعليق المستمر على موقف الأستاذ سيد قطب من بعض الصحابة مع أنه تاب ورجع عن ذلك .

(١، ٢) انظر : التعريفات ص ٩١ نقلا عن الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣ / ٢٦٦ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ٣ / ٢٦٦ .

(٤) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ٨٧٥ .

٣ ـ تفسير بعض المواقف التى أملتها وتمليها حكمة الدعوة إلى الله من بعض الدعاة على أنها عمالة، وجاسوسية، وعلى أن أهلها ماسونيون أو رافضة، أو كفار مبتدعون .

٤ ـ الحط على كل من لا يذعن لهم بالولاء، أو يخالفهم المذهب والمشرب، أو كان سببا فى تعريتهم، وكشف سوءاتهم على الملأ من الناس .

٥ ـ الامتناع عن الجهاد بالنفس أو المال، أو بهما معا. قال تعالى: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [محمد] .

يقول الماوردى: « قوله تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الإحفاء أخذ الجميع، قاله ابن زيد، وقطرب، والثانى : أنه الإلحاح وإكثار السؤال، مأخوذ من الحفاء، وهو المشى بغير حذاء، قاله ابن عيسى، الثالث: أن معنى ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ ،أى فيجدكم تبخلوا، قاله ابن عيينة .

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُم ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : يظهر بامتناعكم ما أضمرتموه من عدوانكم،والثانى: يظهرون عند مسألتكم ما أضمرتموه من عداوتكم» [1] .

والحقد وما فى معناه من الضغن، أو الوغر أو الدوى أو الغل، إن كان مصوبا نحو أهل الصلاح والتقوى فهو قبيح مذموم .

دلنا على قبحه وذمه : أن الله مدح صنفا من الناس أنه كان إذا دعا ضمن دعاءه سؤال ربه أن يطهر قلبه من هذا المرض فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

[الحشر]

يقول ابن كثير ـ رحمه الله : « وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال فى آية براءة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم

(١) انظر : النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردى ٤ / ٥٤ .

في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أي بغضا وحسدا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك ـ رحمه الله ـ من هذه الآية الكريمة : أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء »[1] .

وبين الله أن من تمام منته، وفضله على أهل الجنة أنه طهر قلوبهم من الغل، فلا يبغض بعضهم بعضا، ولا يكره بعضهم بعضا، قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

[الأعراف : ٤٣]

يقول الماوردي : « قوله عز وجل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها : الأهواء والبدع ، قاله سهل بن عبد الله ، والثاني : التباغض والتحاسد، والثالث: الحقد، والرابع : نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم .

وفي نزعه وجهان : أحدهما : أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه، والثاني: أن ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزعه من صدورهم، وفي هذا الغل قولان : أحدهما : أنه غل الجاهلية، قاله الحسن، والثاني : أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان، وقد روى عن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : إني لأرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وقيل : إنها نزلت في أهل بدر، ويحتمل قوله : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ وجهين : أحدهما : هدانا لنزع الغل من صدورنا، والثاني : هدانا بثبوت الإيمان في قلوبنا حتى نزع الغل من صدورنا، وفيه وجه ثالث قال جويبر : هدانا لمجاوزة الصراط ودخول الجنة »[2] .

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر] .

يقول الماوردي : « قوله عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ فيه وجهان: أحدهما: نزعنا بالإسلام ما في صدورهم من غل الجاهلية ، قاله علي بن الحسين ،

---

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٣ / ٤٧٥ .

(٢) انظر : النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي ٢ / ٢٨، ٢٩ .

الثانى : نزعنا فى الآخرة ما فى صدورهم من غل الدنيا قاله الحسن ، وقد رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا »[١] .

وبين سبحانه أنه قادر على فضح المنافقين بإبراز ما فى قلوبهم من ضَغَن وحقد فقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد] .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : شك، قاله مقاتل، الثانى : نفاق، قاله الكلبى .

وقوله تعالى : ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها : غشهم، قاله السدى، الثانى : حصدهم، قاله ابن عباس، الثالث : حقدهم، قاله ابن عيسى، الرابع : عدوانهم، قاله قطرب، وأنشد :

قل لابن هند ما أردت بمنطق ساء الصديق، وسرَّ ذا الأضغان[٢]

وعن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال : « ثلاث من لم يكن فيه غفر له ما سواه لمن شاء : من مات لا يشرك بالله شيئا، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة، ولم يحقد على أخيه »[٣] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة »، فطلع رجل من الأنصار تنطف[٤] لحيته من وضوئه، وقد تعلق بعلقة بيده الشمال، فلما كان الغد، قال النبى ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو، فقال : إنى لاحيت أبى، فاقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى، فعلت، قال : نعم، قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله ـ عز وجل ـ وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر .

قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث الليالى،

(١) انظر : النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردى ٢ / ٣٧٠، ٣٧١ .

(٢) انظر : النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردى ٤ / ٥٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الأدب المفرد، باب الشحناء ص ١٨١، ١٨٢ رقم (٤٣١) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، وفى إسناده أبو شهاب الخياط صدوق له أوهام كما فى: تقريب التهذيب ١ / ٤٧١ .

(٤) تنطف : تقطر، يقال : نطف الماء ينطف : قطر. انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤ / ١٥٤.

وكدت أن أحتقر عمله، قلت : يا عبد الله، لم يكن بينى وبين أبى غضب، ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة »، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوى إليك فأنظر : ما عملك، فأقتدى بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت، قال : فلما وليت دعانى، فقال : ما هو إلا ما رأيت، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك، وهى التى لا نطيق »[1] .

وهكذا تكشف لنا هذه النصوص عن قبح وذم الحقد، وما فى معناه، لاسيما إذا كان منصبا على واحد من المسلمين أهل التقوى والصلاح .

ثالثا : أسباب الحقد :

وللحقد أسباب توقع فيه ، وبواعث تؤدى إليه ، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

١ ـ الحرمان :

وذلك أن الحق تبارك وتعالى قد يحرم المرء نعمة من النعم من مال، أو حرفة، أو سلطان، أو وجاهة، أو لسان، أو صحة، أو عقل وذكاء، أو زوجة وضيئة، أو ولد، أو عشيرة، أو هيبة ووقار، أو قبول ونحو ذلك، ويعطيها غيره، ويقف المرء عند هذا الحرمان ناسيا أو متناسيا أن الله عز وجل يقسم النعم على عباده تبعا لما سبق فى علمه، وفى كتابه، وحسب عمل كل منهم ونواياه، حيث يقول سبحانه فى نعمة المال مثلا : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى] .

وحيث يقول فى الحديث القدسى : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٣/١٦٦ من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وهذا لفظه، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب فى سلامة الصدر من الغش والحسد ٨ / ٨١، ٨٢ من حديث أنس بهذا اللفظ، وعزاه إلى أحمد والبزار، وعقب عليه بقوله : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) الحديث أورده ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم (٣ / ٢٧٨ مختصر تفسير ابن كثير للصابونى] بغير إسناد .

وحين يقف المرء عند حدٍّ هذا الحرمان ناسيا حكم الله فى خلقه، يمتلئ حقدا وغلا من داخله، ويظل ينتهز الفرصة للتعبير عن هذا الحقد، وذلك الغل فى صورة من الصور، أو شكل من الأشكال .

٢ ـ سوء التوزيع والتفريق فى المعاملة :

وقد يكون سوء التوزيع للثروة وكذلك التفريق فى المعاملة بين أفراد البيت الواحد، والعشيرة الواحدة، وبين أبناء الوطن، أو المجتمع الواحد، وكذلك الأمة الواحدة، من الأسباب التى توقع فى الحقد لا سيما والتوزيع والمعاملة ما باتا يقومان الآن على أساس المواهب والطاقات والإمكانات كما كان فى العصور الإسلامية الزاهرة، وإنما أصبحا يقومان على اتباع الهوى والمحاباة والمجاملة .

ولعل هذا هو السر فى تأكيد الإسلام على العدالة فى التوزيع ، والتسوية فى المعاملة من مستوى الأسرة البسيطة إلى مستوى الإمارة والدولة ، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام : ١٥٢]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [المائدة].

وإذ يقول النبى ﷺ لبشير، وقد أراد تفضيل ولده من عمرة بنت رواحة بطلب منها، على إخوانه من غيرها : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم »[(١)]، وفى رواية : «قاربوا بين أولادكم »[(٢)] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الهبة : باب الإشهاد فى الهبة ٣ / ٢٠٦، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الهبات : باب كراهية تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ٣ / ١٢٤١ ـ ١٢٤٤ رقم (١٦٢٣) ، وأبو داود فى السنن : كتاب البيوع : باب فى الرجل يفضل بعض ولده فى النحل ٣ / ٢٩٢، ٢٩٣ رقم (٣٥٤٢، ٣٥٤٤) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب النحل والتسوية بين الولد ٣/ ٦٤٩ رقم (١٣٦٧) وعقَّب عليه الترمذى بقوله: « هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى : السنن : كتاب النحل : باب اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر النعمان بن بشير فى النحل ٦/٢٥٨ ـ ٢٦٢ رقم (٣٦٧٢ ـ ٣٦٨٧) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الهبات : باب الرجل ينحل ولده ٢ / ٧٩٥ رقم (٢٣٧٥، ٢٣٧٦)، كلهم من حديث النعمان بن بشير عن أبيه مرفوعا، ولفظه كما فى مسلم : أن النعمان بن بشير قال : تصدَّق علىَّ أبى ببعض ماله، فقالت أمى عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبى إلى النبى ﷺ ليشهد على صدقتى، فقال له رسول الله ﷺ: « أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ » قال : لا، قال : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم » .

(٢) هذه الرواية أخرجها مسلم فى : الصحيح : كتاب الهبات : باب كراهية تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ٣ / ١٢٤٤ رقم (١٦٢٤] من حديث جابر مرفوعا .

٣ ـ الكبت والقهر :

وقد يكون الكبت والقهر وراء الوقوع فى آفة الحقد ؛ ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما يجيش بصدره، وما يجول بخاطره وأضيف إلى ذلك القهر على أى صورة كان: من سبّ، وتجريح، إلى سخرية واستهزاء، إلى اعتقال أو تحديد للإقامة، إلى سجن وتجويع، وضرب وتخويف، ودام هذا الكبت وذلك القهر زمانا طويلا، فإن المرء يظل يختزن كل ذلك، فى صورة عداوة تملأ الصدر، ويتحين الفرص والمناسبات ليعلن عما بداخله وهذا هو الحقد .

ولعل هذا هو السر فى دعوة الإسلام، وأمره بالشورى، وتحريم جلد الظهور، وسلب الناس أموالهم، والسخرية أو الاستهزاء بهم، إذ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وإذ يقول النبى ﷺ : «رجلان من أمتى لا تنالهما شفاعتى: سلطان ظلوم غشوم، وآخر غال فى الدين، مارق منه»[١]، وفى رواية: «صنفان من أمتى لا تنالهما شفاعتى: سلطان ظلوم غشوم، وغال فى الدين يشهد عليهم ويتبرأ منهم»[٢]، «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا، فإن الله ـ عز وجل ـ محسن يحب المحسنين »[٣] ، «كل المسلم على المسلم حرامه دمه وماله، وعرضه »[٤] .

ولعل ما نشهده على الساحة الإسلامية اليوم من القيام فى وجه أصحاب السلطان فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى بل العربى : مرده إلى حالات الكبت والقهر المفروض على الناس، والتى لا أمل فى زوالها، أو على الأقل التخفيف من حدتها ولو على المدى البعيد .

٤ ـ عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية :

وقد يكون عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية من : المواساة بالنفس وبالمال، ومن إظهار الفضائل والمحاسن، وإخفاء المعايب والرذائل، ومن الوفاء بحق الصحبة، ومن

(١ ، ٢) الحديث بروايتيه أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب فى أئمة الظلم والجور وأئمة الضلالة ٥/ ٢٣٨، ٢٣٩ من حديث معقل بن يسار مرفوعا، وعقب عليه بقوله: « رواه الطبرانى بإسنادين فى أحدهما منيع، قال ابن عدى : له أفراد، وأرجو أنه لا بأس به، وبقية رجال الأول ثقات » .

(٣) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الخلافة : باب فى العدل والجور ٥ / ٢٠٠ من حديث أنس ﷺ مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط، ورجاله فى الثقات » .

(٤) جزء من حديث طويل سيأتى تخريجه فى الحاشية القادمة .

الدعاء بظهر الغيب، ومن ترك التكلف، ونحوها، من وراء الوقوع في آفة الحقد ؛ ذلك أن المسلم إذا رأى أخاه في النعمة، ولا يواسيه بنفس، أو مال، ولا يبرز فضائله ومحاسنه حين تقتضي الظروف ذلك، ولا يخفي عيبه ورذيلته، ويحاول التشهير به، ولا يفي له بحق الصحبة ويعرض عنه، ويتكلف له في اللقاء، والتوديع، والضيافة ونحوها، يتغير من داخله عليه، وبمرور الزمن يتولد لديه الكراهية والبغضاء والعداوة، ويكون الحقد .

ولعل هذا هو السر في تأكيد المنهج الإلهي على رعاية حقوق الأخوة الإسلامية، إذ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] . ويقول في وصف أصحاب رسول الله ﷺ مهاجرين وأنصار: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] . ويقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ ﴾ . [الحجرات] .

وإذ يقول النبي ﷺ : « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (١) ، وفي رواية : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه»(٢). « مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٣) .

(١، ٢) الحديث أخرجه البخاري : في الصحيح : كتاب الأدب : باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر : وباب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ٨ / ٢٣، ومسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظن والتجسس ٤ / ١٩٨٥، ١٩٨٦ رقم (٢٥٦٣، ٢٥٦٤]، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب، باب في الظن ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٧]، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعا، هذا وللحديث تخريج أوسع وجامع لكل الألفاظ التي روى بها في كتابنا : « غاية البيان في شرح مختارات من السنن ١/ ٦٧ » فليراجعه من أراد .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب رحمة الناس والبهائم ٨ / ١٢، ومسلم في : الصحيح : كتاب البرّ والصلة والآداب : باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤ / ١٩٩٩، ٢٠٠٠ رقم (٢٥٨٦) ، كلاهما من حديث النعمان بن بشير ﷺ مرفوعا .

٥ ـ غرور بل تكبر الآخرين :

وقد يكون غرور بل تكبر الآخرين مما يوقع فى آفة الحقد ؛ذلك أن المغرور هو المعجب بنفسه إلى حدٍّ احتقار واستصغار كل ما يصدر عن الآخرين فى جنب ما يصدر عنه، والمتكبر هو ما يصنع ذلك من النيل من ذوات الآخرين، والترفع على أشخاصهم، ولا شك أن هذا مما يترك آثاره فى النفوس، فإذا هى مليئة من داخلها بالعداوة والبغضاء، وما هذه العداوة، وتلك البغضاء إلا الحقد، ولعل من حرص الإسلام وتأكيده على طهارة النفوس من الغرور والتكبر إنما هو العمل على حماية الآخرين من الوقوع فى هذه الآفة بذمها والتحذير منها على النحو الذى ذكرنا فى علاج كل من الغرور والتكبر [١] .

٦ ـ استغلال الآخرين :

وقد يكون استغلاء الآخرين للمرء، ولاسيما فى أوقات الشدائد والمحن، من الأسباب الحاملة على الحقد، فقد تنزل بالمرء شدة أو ضائقة، ويتلفت فلا يجد عونا من الآخرين إلا إذا كانت هناك منفعة مادية بحتة، وتحت وطأة الحاجة يقبل، ولكنه والحالة هذه لا يسلم صدره من العداوة والبغضاء بل يتحين الفرصة للانتقام، وهذا هو الحقد .

ولعل هذا هو السر فى مجىء النصوص الكثيرة التى تحظر على المسلم استغلال الآخرين فى أى صورة من صور الاستغلال كالربا، والاحتكار، والغبن، وأكل أموال اليتامى ظلمًا ونحوها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾ [النساء] .

وإذ يقول ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل ـ وهو يعلم ـ أشد عند الله من ست وثلاثين زنية »[٢] ، « لا تلقوا البيوع، ولا يبع بعض على بعض، ولا يخطب أحدكم ـ

(١) راجع هاتين الآفتين فى الجزء الأول من هذا الكتاب « آفات على الطريق » .

(٢) الحديث أورده الألبانى فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣ / ٢٩ رقم (١٠٣٣) ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط والدارقطنى فى : السنن، وأحمد فى : المسند من حديث ابن أبى مليكة عن عبد الله بن حنظلة الراهب موقوفا ومرفوعا، ثم عقب بقوله : « ثم إن الموقوف فى حكم المرفوع ؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأى كما لا يخفى » .

أو أحد ـ على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب الأول أو يأذنه فيخطب »(١) .

٧ ـ التفريط فى حق الجار :

وقد يكون التفريط فى حق الجار مسلما أو غير مسلم، قريبا أو غير قريب، من الأسباب المؤدية إلى الحقد ؛ ذلك أن المرء إذا رأى جاره لا يرعى حقوق الجار، وأبسط شىء فى ذلك المواساة بالنفس والمال، فإنه يبغضه، ويظل هذا البغض ينمو حتى يصل إلى أن يصير حقدا .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها دعا الإسلام إلى رعاية حق الجوار، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** (٣٦) ﴾ [النساء] .

وإذ يقول النبى ﷺ : «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٢) ،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢ / ١٥٣ من حديث نافع عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ ان يبيع حاضر لباد، وكان يقول : « لا تلقوا البيوع ... » الحديث، وأورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣ / ٢٧ رقم (١٠٣٠) ، وعزاه إلى أحمد فى : المسند عن ابن عمر، وعقب عليه بقوله : « قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجاه بنحوه مفرقا .. » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب الوصاة بالجار ٨/١٢، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب : باب الوصية بالجار والإحسان إليه ٤/٢٠٢٥ رقم (٢٦٢٤، ٢٦٢٥)، كلاهما من حديث ابن عمر وعائشة مرفوعا، وأبو داود فى: السنن : كتاب الأدب، باب فى حق الجوار ٤ / ٣٣٨، ٣٣٩ رقم (٥١٥١، ٥١٥٢)، ولفظ حديث ابن عمرو : أنه ذبح شاة، فقال : أهديتهم لجارى اليهودى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل »، وساق الحديث، والترمذى فى : السنن: كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى حق الجوار ٤ / ٢٩٣، ٢٩٤ رقم (١٩٤٢) من حديث عائشة مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ورقم (١٩٤٣) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا بلفظ أبى داود المتقدم، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى هذا الحديث عن مجاهد، عن عائشة وأبى هريرة عن النبى ﷺ أيضا »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الأدب، باب حق الجوار ٢/١٢١١ رقم (٣٦٧٣) من حديث عائشة مرفوعا، ورقم (٣٦٧٤) من حديث أبى هريرة وعقب عليه البوصيرى فى: مصباح الزجاجة: كتاب الأدب: باب حق الجار ٤/١٠٢ بقوله : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، رواه ابن حبان فى صحيحه من طرق داود ابن فراهيم، عن أبى هريرة به، وله شاهد فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة، وأبى شريح، ورواه البخارى من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذى فى الجامع من حديث عبد الله بن عمرو»، وأحمد فى: المسند ٢/٨٥ من حديث ابن عمر مرفوعا ٢ / ١٦٠ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا، ٢/٢٥٩ من حديث أبى هريرة، وفى رواية أخرى ٢ / ٣٠٥ أن النبى ﷺ قال : « أتانى جبريل عليه السلام، فقال : إنى كنت أتيتك الليلة، فلم يمنعنى أن ادخل عليك البيت الذى أنت فيه إلا أنه كان فى البيت =

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ... » الحديث[(١)] . إلى غير ذلك من النصوص .

٨ ـ تفكك الأسرة مع عدم سعى الأمة فى علاج هذا التفكك :

وقد يكون تفكك الأسرة بسبب موت العائل أو الطلاق، والزواج بأخرى فى ضوء غياب القيم، والضوابط الشرعية، ومع عدم سعى الأمة، حكاما، ومحكومين فى القيام بواجبها نحو علاج هذا التفكك، من بين الأسباب المؤدية إلى الحقد ؛ ذلك أن الأسرة هى المحضن الأساسى فى تخريج وحماية الأجيال . ويوم يطرأ على الأسرة ما يؤدى إلى تفككها على النحو الذى ذكرنا، وينساها المجتمع، فإن الأولاد يتعرضون لحرمان وتشريد ينتهى بهم إلى الحقد على كل أجناس وطبقات المجتمع .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها أوجب الإسلام الولاية بين المؤمنين بعضهم بعضا، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

كما أوجب العدل عند تعدد الزوجات، وكذلك كفالة اليتامى وحذر من إهمالهم، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣] . ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا

= تمثال رجل ... » الحديث، وفى آخره: «وما زال يوصينى بالجار حتى ظننت، أو رأيت أنه سيورثه »، ٢/ ٤٤٥، ٤٥٨، ٥١٤ من حديث أبى هريرة أيضا، ٥ / ٣٢، ٣٦٥ من حديث رجل من الأنصار قال: خرجتُ من أهلى أريد النبىﷺ فإذا أنا به قائم ، ورجـل معه مقبل عليـه ، فظننت أن لهما حاجة ، فقال الأنصارى : والله لقد قام رسول اللهﷺ حتى جعلت أرثى لرسول الله من طول القيام، فلما انصرف قلت : يا رسول الله : لقد قام بك الرجل، حتى جعلت أرثى لك من طول القيام، قال: «ولقد رأيته ؟ » قلت: نعم: قال :« أتدرى من هو ؟ » قلتُ : لا، قال : « ذاك جبريل عليه السلام ما زال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »، ثم قال: « أما إنك لو سلمت عليه رد عليك السلام »، ٦/ ٥٢، ٩١، ١٢٥، ١٨٧، ٢٣٨، من حديث عائشة مرفوعا .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٨/ ١٣، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان : باب الحث على إكرام الجار... إلخ ١ / ٦٩ رقم (٤٨) من حديث أبى شريح العدوى الخزاعى مرفوعا، ١/ ٦٨، ٦٩ ورقم (٤٧) من حديث أبى هريرة مرفوعا، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الأدب: باب حق الجوار ٢ / ١٢١١ رقم (٣٦٧٢) من حديث أبى شريح الخزاعى مرفوعا، والدارمى فى : السنن : كتاب الأطعمة : باب فى الضيافة ٢/ ٩٨ من حديث أبى شريح الخزاعى مرفوعا، ومالك فى : الموطأ : كتاب صفة النبىﷺ : باب جامع ما جاء فى الطعام والشراب ص ٥٧٨ رقم (٢٢) من حديث أبى شريح الكعبى مرفوعا .

يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة] . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

٩ ـ السماع للوشاة من غير تثبيت :

وقد يكون السماع للوشاة من غير تثبيت هو السبب فى الحقد ؛ ذلك أن المرء كثيرا ما يتأثر بما يسمع، وإذا لم يكن عاقلا، وتبين أو تثبت من كل ما يسمع، فإنه يبنى على ذلك أحكاما قد يكون من بينها العداوة والبغضاء والحقد .

وخير ما نستدل به على ذلك : ما يلقيه أعداء الله على حكام المسلمين من أن الإسلاميين يريدون أخذ الكرسى والسلطة منهم ويصدقهم الحكام من غير تبين أو تثبت، وتكون العاقبة الحقد والسعى للانتقام، والتنكيل بهؤلاء .

ومن هذا الباب أيضا : ما يصنعه نفر من الجماعات الإسلامية تجاه جماعة أخرى أكثر ظهورا وانتشارا وقبولا فى الناس، واستقامة على منهج الحق، إذ يلقون فى روع خالى الذهن من أى تصور عن هذه الجماعات أن الجماعة ذا السمت الفلانى جماعة مبتدعة بل كافرة، ذات صلة بالاستعمار والصهيونية، والرافضة، ويظلون يكيلون مثل هذه التهم، ولا يطالبهم المخاطب بالدلائل الواضحات القطعيات البينات، بل ربما يأخذون عليهم العهد والميثاق ألا يتصلوا بأى واحد له انتماء لهذه الجماعة، وألا ينظروا فى فكرهم، وألا يشهدوا أى تجمع لهم، وألا يسمعوا لأى متحدث فيهم، وتكون النتيجة العداوة والبغضاء أو الحقد.

ومن أجل هذا وغيره دعانا الله ـ عز وجل ـ إلى التثبيت أو التبين فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] .

١٠ ـ القطيعة أو الهجر الطويل :

وقد تكون القطيعة أو الهجر الطويل من بين الأسباب التى تؤدى إلى الحقد ؛ ذلك أنه قد يختلف المرء مع غيره لسبب أو لآخر، وربما تكون النتيجة القطيعة أو الهجر، ولا ضير فى قطيعة خفيفة، أو هجر يسير ريثما تهدأ النفوس، وتكون المراجعة، وعودة المياه

إلى مجاريها، لكن أن تدوم القطيعة، وأن يطول الهجران، فذلك هو الخطر بعينه ؛ لأنه مع كل يوم يتعمق البغض، وترسخ البغضاء، وتكون العاقبة الوقوع فى الحقد، والعياذ بالله .

ولعل هذا هو سر تحريم طول القطيعة أو الهجران بين المتخاصمين ، إذ يقول النبى ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام »(١) . « لا هجر بعد ثلاث »(٢) .

١١ ـ المراء أو الجدل :

وقد يؤدى المراء أو الجدل إلى الوقوع فى الحقد ؛ ذلك أن كلا من المتجادلين أو المتمارين يكون حريصا على إفحام الآخر وغلبته، وحين ينهزم أحدهما أمام الآخر، ويكون غير قادر على الانتقام، يضمر فى نفسه الحقد، والعداوة، والبغضاء .

وفى هذا يقول المناوى : الحقد من البلايا التى ابتلى بها المناظرون، قال الغزالى : لا يكاد المناظر ينفك عنه، إذ لا تكاد ترى مناظرا يقدر على ألا يضمر حقدا على من يحرك رأسه عند كلام خصمه، ويتوقف فى كلامه، فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضمر الحقد، ويربته فى النفس .

١٢ ـ البيئة المحيطة بالمرء :

وقد تكون البيئة التى يوجد فيها المرء قريبة كانت كالبيت، أو بعيدة كالمجتمع هى

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب الهجرة، وقول رسول الله ﷺ : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث » ٨ / ٢٦، وكتاب الاستئذان : باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٨ / ٦٥، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعى ٤/ ١٩٨٤ رقم (٢٥٦٠) ، كلاهما من حديث أبى أيوب الأنصارى مرفوعا بهذا اللفظ ورقم (٢٥٦١) من حديث ابن عمر بلفظ : « لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فيمن يهجر أخاه المسلم ٤ / ٢٧٨، ٢٧٩ رقم (٤٩١١) من حديث أبى أيوب مرفوعا، ورقم (٤٩١٢، ٤٩١٤) من حديث أبى هريرة بنحوه، ورقم (٤٩١٣) من حديث عائشة بنحوه، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى كراهية الهجر للمسلم ٤ / ٢٢٨، ٢٨٩ رقم (١٩٣٢) من حديث أبى أيوب مرفوعا، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وأحمد فى : المسند ١ / ١٧٦، ١٨٣ من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا بلفظ : « قتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »، ٣ / ١١٠، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٥ من حديث أنس مرفوعا بنحوه ، ٤ / ٢٠ من حديث هشام بن عامر بنحوه، ٤ / ٣٢٧، ٣٢٨ من حديث عائشة مرفوعا بنحوه، ٥ / ٤١٦، ٤٢١، ٤٢٢ من حديث أبى أيوب مرفوعا .

(٢) هذه الرواية بهذا اللفظ أخرجها مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعى ٤ / ١٩٨٤ رقم (٢٥٦٢) من حديث أبى هريرة مرفوعا .

السبب في الوقوع في الحقد ؛ ذلك أن المرء كثيرا ما يتأثر بالوسط الذى يعيش فيه، وإذا كان هذا الوسط مبتلى بالحقد، فإنه يعمل على توريثه للمستعدين لذلك ممن يعيشون معه، وقد رأينا كثيرين ورثوا الحقد من آبائهم أو من مجتمعهم قيادة، وجندية، كما نبهنا على ذلك غير مرة فيما سبق من آفات .

١٣ ـ الجهل بالعواقب المترتبة على الحقد :

وأخيرا قد يكون الجهل بالعواقب المترتبة على الحقد، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ـ كما سنذكر هذه العواقب بعد قليل ـ هو السبب فى الوقوع فى الحقد، فإن المرء إذا جهل العواقب الضارة، والآثار المهلكة المترتبة على أمر ما، فإنه يقع فى هذا الأمر ، بل ربما كان نصيراً له مدافعًا عنه ، وهذا شأن كثير من الناس ؛ ولهذا دعا الله إلى الفقه في الدين، وجعله من الجهاد فقال : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (١٢٢) ﴾ [التوبة] . وقال لنبيه ﷺ : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

رابعا : آثار الحقد :

وللحقد آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الحقد على العاملين :

١ ـ القلق والاضطراب النفسى :

وذلك أن كراهية الناس إلى حد الحقد عليهم بغير موجب ولا مبرر مع عدم السعى فى التطهر منها، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسى، وكفى بذلك عقابا، إذ قد ينتهى بصاحبه إلى الموت كما حكى سبحانه عن صنف من المنافقين لم يكن لهم من عمل إلا الحقد على المؤمنين: ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٢٠]. ﴿ **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** (١١٩) ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ الحسد :

وذلك أن الحاقد ممتلئ عداوة وبغضا من داخله، ويحاول التنفيس عن هذا الذى بداخله، ويرى الحسد ـ وهو تمنى زوال نعمة من يحقد عليه ـ ميدانا واسعا من ميادين

هذا التنفيس، فيأخذ به، والحسد مما يحبط العمل، ويبطله كما سيظهر من خلال الحديث عن هذه الآفة مستقبلا إن شاء الله تعالى .

٣ ـ الشماتة بالغير :

وذلك بالسرور والفرح حين تلم بالمحقود عليه مصيبة أو تنزل به كارثة، كما قال سبحانه عن المنافقين : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] . والمسلم منهى عن الشماتة بالمسلمين، إذ يقول النبى ﷺ : « لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك »[١] .

٤ ـ تضييع ما تبقى من حقوق الأخوة الإسلامية :

وذلك أنه قد مضى معنا أن من أسباب الوقوع فى الحقد : عدم رعاية الأخوة الإسلامية، ويحاول الحاقد الرد على ذلك بأن يضيع هو الآخر ما تبقى من حقوق الأخوة الإسلامية، فيكون منه الهجران والقطيعة، والاحتقار والاستهزاء والسخرية، والنيل منه بما لا يحل من سوء الظن، وتتبع العورات، والغيبة والنميمة، وقد يتفاقم هذا الحقد، فيصل إلى حد الإيذاء البدنى بالضرب ونحوه، ومنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، أو نصرته في وقت يوجب النصرة، وذلك كله حرام يأكل الحسنات ويؤدى إلى عذاب جهنم والعياذ بالله .

٥ ـ الحرمان من الأجر والثواب :

وذلك أن الحاقد يخاف الوقوع فى العواقب المذكورة آنفا نظراً لما يترتب عليها من الإثم والعذاب، فيجاهد نفسه ويبتعد عنها غير أنه لا يتجاوز ذلك إلى ما يوجب الفضل العظيم والثواب الجزيل من البشاشة، والرفق، والإفساح فى المجلس، وإظهار المحاسن والفضائل والتحريض على البر والمواساة بل والإيثار .

يقول أبو حامد الغزالى عن آثار الحقد التى ذكرنا فى إجمال : « والحقد يثمر ثمانية أمور :

الأول : الحسد، وهو أن يحملك على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسر بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين، وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٥٤) ٤/ ٥٧١ رقم (٢٥٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا بهذا اللفظ ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب » .

الثاني : أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث : أن تجهره، وتصارمه، وتنقطع عنه، وإن طلبك، وأقبل عليك .

الرابع : وهو دونه، أن تعرض عنه استصغارا له .

الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب، وغيبة، وإفشاء سر، وهتك ستر، وغيره .

السادس : أن تحاكيه استهزاء به، وسخرية منه .

السابع : إيذاؤه بالضرب، وما يؤلم بدنه .

الثامن : أن تمنعه حقه من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد : أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به، ولكن تستثقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة، والرفق، والعناية، والقيام بحاجاته، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى، والمعاونة على المنفعة له، أو بترك الدعاء له، والثناء عليه، والتحريض على بره ومواساته، فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم، وثواب جزيل، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله »[1] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار الحقد على العمل الإسلامى فتتلخص فى :

١ ـ قلة كسب الأنصار :

وذلك أن الحاقد قد أتى من المعاصى والآثام ما يوجب نفرة الآخرين منه، بل عدم تأثرهم بما يصدر عنه، إذا لم يجدوا فيه النموذج الذى ينبغى الاقتداء أو التأسى به، فيتولون عنه ويخسر العمل الإسلامى سواعد تشارك فى حمل الأمانة وإبلاغها للناس، وحمايتها من كيد الكائدين، وعبث العابثين أو على الأقل تؤيد ولو بالدعاء من يحملون هذه الأمانة ويحاولون الخروج من هذه التبعة وتلك المسؤولية .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٦ .

وقد جاء فى الحديث : « ... والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف » (١) .

٢ ـ الفرقة والتمزق :

وكذلك تكون عاقبة الحقد على العمل الإسلامى الفرقة والتمزق ذلك أنه إذا شاع الحقد فى هذا الوسط، فإنه يثمر عدم رعاية حقوق الأخوة الإسلامية، وتكون العاقبة الفرقة والتمزق الأمر الذى يفتح الطريق أمام أعداء الله فيمسكون بخناقنا، ويضيفون هذا الخناق حول أعناقنا يوما بعد يوم ويحرمنا الله عز وجل تأييده ونصره، فتطول الطريق وتعظم التكاليف .

خامسا : علاج الحقد :

وما دمنا قد عرفنا حقيقة الحقد، ومظاهره، وموقف الإسلام منه، وأسبابه، وآثاره، فقد سهل علينا تحديد سبيل العلاج بل الوقاية، وتتلخص هذه السبيل فى هذه الخطوات :

١ ـ اليقين التام بأن الله عز وجل عليم حكيم، يعطى العباد من النعم تبعا لما سبق فى علمه، وما اقتضته حكمته، وما فيه مصلحة للعبد، فإن هذا اليقين يحمل صاحبه على الرضا بما قسم الله وأعطى من النعمة، أعم من أن تكون هذه النعمة له، أو للآخرين .

٢ ـ الحرص على العدالة فى التوزيع، والتسوية فى المعاملة من الأب لأولاده، ومن الأخ لإخوانه، ومن الحاكم للرعية، فإن ذلك له دور كبير فى اقتلاع جذور الحقد من النفس، وأن يحل محله العفو، والصفح، والإحسان .

٣ ـ إعطاء الغير الحق فى التعبير عما يدور بداخله، ومنع جلد الظهور، والاعتداء على الدماء، والأموال والأعراض، فإن هذا مما يساعد كذلك فى تطهير النفس من الحقد، وصبغها بصبغة العفو والتسامح .

٤ ـ رعاية حقوق الحقوق الإسلامية ـ على النحو الذى شرحنا ـ فإن هذا له دور كبير فى القضاء على هذا الحقد، وآثاره، وأن يعيش المسلمون أعزة كرماء، وفى رفاهية ورخاء .

---

(١) سبق تخريجه .

٥ ـ التخلص من أمراض الإعجاب بالنفس، والغرور، والتكبر على النحو الذى تقدم فى الجزء الأول من هذه الآفات، فإنه بالتخلص من هذه الأمراض تكون طهارة النفس من الحقد .

٦ ـ التحذير بعدم استغلال الآخرين فى أى صورة من الصور ببيان أن هذا الاستغلال تكون له عواقب وخيمة، ومنها الحقد، فلعل هذا التحذير يؤدى إلى تلاشى الاستغلال، وأن يحل محله الرحمة، والمواساة بل والإيثار .

٧ ـ التأكيد على رعاية حقوق الجار بغض النظر عن عقيدة وجنسية هذا الجار، فإنه إذا روعيت هذه الحقوق وكانت صادقة أثمرت اقتلاع جذور العداوة والبغضاء والحقد .

٨ ـ السعى لحل المشكلات الأسرية، ورعاية العدالة عند تعدد الزوجات، وكفالة اليتامى حين يموت عائلهم كفالة تحميهم من سائر العلل والأمراض الظاهرة والباطنة، فلعل هذا يسهم فى اقتلاع جذور الحقد من النفس .

٩ ـ التثبت من كل ما نرى، وما نسمع، فإن هذا له دور كبير فى عدم الوقوع فى الحقد أصلا، ومن باب أولى التخلص منه، إن كان قد ألقى بجرانه فى الصدر.

١٠ ـ السعى لقطع الهجران بطريق أو بأخرى، فإن هذا له دور كبير فى اقتلاع بذور الحقد من النفس، قبل أن تنبت وتثمر، والقصة التالية تشرح ذلك :

«جاء عن عوف بن مالك بن الطفيل ـ هو ابن الحارث ـ وهو ابن أخى عائشة زوج النبىﷺ لأمها : أن عائشة حدثت أن عبد الله بن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها، فقالت : أهو قال هذا ؟ قالوا : نعم، قالت: هو لله على نذر، ألا أكلم ابن الزبير أبداً، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة ، فقالت : والله لا أشفع فيه أبداً ولا أتحنث إلى نذرى ، فلما طال ذلك على ابن الزبير، كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ـ وهما من بنى زهرة ـ وقال لهما : أنشدكما بالله لما أدخلتمانى على عائشة، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتى، فأقبل به المسور، وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على عائشة، فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل ؟ قالت عائشة : ادخلوا : قالوا : كلنا ؟ قالت: نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا : دخل ابن الزبير الحجاب، فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ، ويبكى ، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا ما كلمته، وقبلت منه ويقولان : إن النبىﷺ نهى عما قد

علمت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة، والتحريج طفقت تذكرهما، وهى تبكى، وتقول : إنى نذرت، والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير وأعتقت فى نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك، فتبكى حتى تبل دموعها خمارها »[1] .

١١ ـ تنقية المحيط الذى يعيش فيه المرء، قريبا كالبيت أو بعيدًا كالمجتمع، من الحقد، بل تهيئة الأجواء الطاهرة النظيفة القائمة على سلامة الصدر من الأحقاد، بل المواساة والإيثار فإن ذلك له دور كبير فى العلاج من الحقد، بل والتحصن ضده.

١٢ ـ دوام العيش مع كتاب الله وسنة وسيرة النبى ﷺ وكيف جاء الذم للغل، والبغضاء، والدغل، والضغن، ونحوها مما يصب فى النهاية فى إناء الحقد فإن ذلك يساعد أولا على مجاهدة النفس والتطهر أو التخلص من الحقد، وثانيا يقوى الإيمان فى النفس، بحيث تسد الطريق فى وجه الحقد، فلا يدخل إلى هذه النفس مرة أخرى .

١٣ ـ محاسبة النفس أولا بأول، وإفهامها أن الحقد على الآخرين ؛ لأنهم أوتوا من النعمة ما حرمت منه يعنى الاعتراض على الله وعدم الرضا بقضائه وقدره، وهذا خدش فى أصل الإيمان يوجب أن يحبط العمل، وأن يحل غضب الله فى الدنيا والآخرة .

١٤ ـ دوام المطالعة فى التاريخ الإسلامى، والسماع والنظر فيما جاء عن السلف فى علاج الحقد عند الآخرين، حيث كانوا يقابلون السيئة بالحسنة، فيقدمون لهؤلاء النفقة، والهدية، ويحسنون جوارهم، وضيافتهم، ويتفقدونهم، ويشاركونهم أفراحهم ولا يؤذونهم فى غياب أو حضور، ويدعون لهم بظهر الغيب وهكذا، وحسبنا هنا موقف الصديق من مسطح بن أثاثة، وكان قريبا له، وكان الصديق يتعهده بالنفقة، وحين تورط فى حادثة الإفك حلف الصديق أن يمنع عنه رفده وعطاءه، فنزل القرآن يقول : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب الهجرة، وقول الرسول: « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث » ٨/ ٢٥ من حديث عوف بن مالك بن الطفيل عن عبد الله بن الزبير بهذا اللفظ.

وحين سمع الصديق ذلك قال : بلى يا رب أحب أن تغفر لى، وعاد إلى النفقة عليه وكفر عن يمينه [(١)] .

وهذا الفاروق عمر كان يرى عدم قسمة أراضى سواد العراق والشام ومصر ونحوها محتجا بأن مثل هذا الفتح لا يكون كل يوم، وأنه إذا قسمت هذه الأراضى بين المقاتلين لم يبق شيء لمن بعدهم، ولم يبق لبيت المال مورد ثابت، كما استند إلى آيات سورة الحشر : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑩﴾

[الحشر]

قائلا : « قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفيء، ودمه فى وجهه - يعني كرامته مصونة، إذ يقال لمن يسأل الناس : أراق ماء وجهه » [(٢)] .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى معقبا على هذه الآيات، وفقه عمر هذا :

« وقررت الآيات توزيع عائد الفيء توزيعا عادلا، لا زال غرة فى جبين الإنسانية، فجعلت نصيبا فيه للجيل الحاضر من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم،

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشهادات : باب تعديل النساء بعضهن بعضا ٣/ ٢٢٧ - ٢٣١، وكتاب المغازى : باب حديث الإفك ٥/ ١٤٨ - ١٥٤، وكتاب التفسير : سورة النور: باب منه ٦/ ١٢٧ - ١٣٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب فى حديث الإفك وقبوله توبة القاذف ٤ / ٢١٢٩ - ٢١٣٧ رقم (٢٧٧٠)، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة النور ٥/ ٣١٠ - ٣١٤ رقم (٣١٨٠) ، وأحمد فى: المسند ٦/ ٥٩ - ٦١، ١٩٤ - ١٩٧، كلهم من حديث عائشة ﵂ وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب، من حديث هشام بن عروة، وقد رواه يونس بن يزيد، ومعمر وغير واحد عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص الليثى، وعبيد الله بن عبد الله، عن عائشة هذا الحديث أطول من حديث هشام بن عروة، وأتم » .

(٢) انظر : الخراج لأبى يوسف ص ٢٣، ٢٤، وعنه نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى : فقه الزكاة .

وصودرت ملكياتهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله، ومن الأنصار الذين فتحوا صدورهم، ودورهم لإخوانهم المهاجرين، فآووا ونصروا، وآثروا على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، وأشركت مع هذا الجيل الذى بذل، وضحى أجيالا أخرى، عبر عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر : ١٠] .

وبهذا علمتنا الآيات الكريمة : أن الأمة كلها وحدة متكاملة على اختلاف الأمكنة، وامتداد الأزمنة، وأنها ـ على مر العصور ـ حلقات متماسكة، يعمل أولها لخير آخرها، ويغرس سلفها ليجنى خلفها، ثم يأتى الآخر، فيكمل ما بدأه الأول، ويفخر الأحفاد بما فعله الأجداد، ويستغفر اللاحق للسابق، ولا يلعن آخر الأمة أولها، وبهذا التوزيع العادل تفادى الإسلام خطأ الرأسمالية التى تؤثر مصلحة الجيل الحاضر، ومنفعته مغفلة ـ فى الغالب ـ ما وراءه من الأجيال، كما تجنب خطأ الشيوعية التى تتطرف كثيرا إلى حد التضحية بجيل، أو أجيال قائمة فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبوب الحياة .

ولهذا قال الفقيه الجليل معاذ بن جبل لأمير المؤمنين عمر ـ حين هم بقسمة الأرض أول الأمر على الفاتحين ـ : والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها اليوم صار الريع العظيم فى أيدى القوم، ثم يبيدون، فيصير إلى الرجل الواحد، والمرأة، ثم يأتى بعدهم قوم يسدون من الإسلام سدا ـ يعنى يدافعون عنه ـ وهم لا يجدون شيئا، فانظر أمرا يسع أولهم، وآخرهم، قال : فصار عمر إلى قول معاذ .

ومن هنا قال عمر لبلال وغيره ـ ممن عارض وقف الأرض على الأمة كلها ـ : تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شيء » (١) .

وبالجملة فإن عمر كان يرى أن بقاء هذه الأرض ملكا للأمة كلها دون قسمة لها على الأجيال الحاضرة، مما يتفق وجوهر هذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] .

١٥ ـ التذكير الدائم بهذا الداء وخطورته على الفرد والجماعة، وأسبابه وسبيل الوقاية منه، فإن الإنسان ينسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير .

١٦ ـ كثرة الدعاء والتبتل والضراعة إلى الله ـ عز وجل ـ أن يطهر القلوب من هذا الداء، وخير ما ندعو به فى هذا المقام ما قدمنا مما علمنا الله فى كتابه .

الآفة السابعة والعشرون
تنافس الدنيا

والآفة السابعة والعشرون التى يمكن أن تصيب العاملين لدين الله، بل لقد أصابت بالفعل نفرًا منهم، وخلفت وراءها آثارا خطيرة وعواقب مهلكة إنما هى «تنافس الدنيا».

وحتى يداوى منها من أصيب بها، ويسلم من شرها وغوائلها من عافاه الله - عز وجل - منها، فإننا سنعطى تصورا صحيحا وواضحا عنها من خلال هذه الجوانب :

أولا : تعريف تنافس الدنيا :

« تنافس الدنيا » مركب إضافى مؤلف من كلمتين هما : « تنافس » و « دنيا »، والأمر يقتضى معرفة ماهية كل منهما على حدة، كى يسهل تعريف هذا المركب «تنافس الدنيا »، ودونك ذلك :

التنافس لغة : يأتى التنافس فى اللغة على معان، منها :

أ - محبة الشىء، والرغبة فيه، وأصله من الشىء النفيس فى نوعه يقال : نافست فى الشىء منافسة، ونفاسة، ونفاسا، ونفس الشىء بالضم نفاسة، صار مرغوبا فيه محبوبا .

ب - الضن بالشىء أو البخل به، يقال : نفست عليه الشىء بالكسر أنفسه نفاسة: ضننت أو بخلت عليه به، وما أحب أن يصل إليه .

جـ - رؤية الغير فاقد الأهلية للشىء مع حسده عليه، نقول : تنافس الشىء، وبالشىء على فلان : لم يره أهلا لهذا الشىء وحسده عليه .

د - التسابق، والتبارى فى الشىء من غير إلحاق الضرر به - أى بالمتنافس - نقول: نافس فلان فلانا فى كذا: سابقه وباراه من غير أن يلحق الضرر به، وتنافس القوم فى كذا: تسابقوا فيه، وتباروا دون أن يلحق بعضهم الضرر ببعض[1]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين] .

---

(1) انظر: لسان العرب ٦ / ٢٣٨، ومختار الصحاح ص ٤٥١، ٤٥٢، والمعجم الوسيط ٢ / ٩٤٠، مادة : « نفس »، وانظر كذلك : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ٥ / ٤٢٧، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى ١١ / ٢٤٥ بتصرف كثير .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعا فإن رؤية الغير ليس أهلا للشيء أو للأمر قد تحمل أو تقود إلى التسابق والتبارى فى تحصيله رغبة فيه، ومحبة له، وضنا به على هذا الغير .

« **الدنيا** » **لغة** : والدنيا لغة، مؤنث الأدنى، يعنى : الأقرب الألصق، يقال : هو ابن عمى دنيا (منون، وغير منون) قريب لاصق النسب، ثم صارت تطلق على الحياة الحاضرة أو العاجلة التى تسبق الحياة الغائبة أو الآجلة، وسميت بذلك لدنوها، أى لقربها منا، إذ يقال : دنا من الشيء دناوة، فهو دان : قرب، أو لخستها، وحقارتها، إذا طلبت لذاتها، يقال : هذا دنيء : خسيس دون، أو لنقص وقصر عمرها فى جنب عمر الآخرة، نقول : أعطى الدنية فى دينه : النقيصة [١] .

« **تنافس الدنيا** » **لغة** : وإذ عرفنا معنى كل من: « التنافس » و « الدنيا » على حدة، ونقول: إن « تنافس الدنيا » لغة : رؤية الغير أنه ليس أهلا للدنيا بصورة تحمل على التسابق والتبارى فى تحصيلها، رغبة فيها، ومحبة لها، وضنا بها على هذا الغير .

« **تنافس الدنيا** » **اصطلاحا** : أما « تنافس الدنيا » اصطلاحا فهو ـ كما يقول الإمام النووى ـ رحمه الله ـ : «التبارى فى الرغبة فى الدنيا، وأسبابها وحظوظها » [٢] ، ولعله يريد : « على وجه الانفراد، والاستئثار بها » على نحو ما جاء لغة، وواضح من هذا التعريف أنه لا يختلف كثيرا عن المعنى اللغوى .

ثانيا : بعض مظاهر تنافس الدنيا وموقف الإسلام من هذا التنافس :

وهناك مظاهر وسمات تدل على تنافس الدنيا، وأهم هذه المظاهر وتلك السمات:

١ ـ إهمال أو إهدار الورع فى المطاعم، والمشارب، والملابس، والمراكب ونحوها.

٢ ـ بغض طلاب الآخرة، والنيل منهم، بل والتظاهر والتحريض عليهم بوسيلة أو بأخرى .

٣ ـ بغض أو معاداة كل من يسبقه فى الدنيا، ولا يستطيع اللحاق به .

٤ ـ ازدراء نعمة الله وعدم الرضى بها وبقضاء الله وقدره .

٥ ـ المخاصمة المستمرة على الدنيا وما فيها من متاع أو عرض زائل .

---

(١) انظر : لسان العرب ١٤ / ٢٧١ ـ ٢٧٥، والمعجم الوسيط ١ / ٢٩٨، ٢٩٩ بتصرف كثير .

(٢) انظر : المنهاج للنووى ٥ / ٤٢٧، وعنه نقل ابن حجر فى فتح البارى ١١ / ٢٤٥ .

٦ ـ التشتت الدائم مع كثرة الهموم والأحزان ، ولا سيما عند فوات شيء من الدنيا.

٧ ـ الاشتغال الدائم بالسعي في طلب الدنيا مع نسيان الآخرة بالمرة أو مع تذكرها، ولكن بتهاون وفتور .

٨ ـ الحديث الدائم عن الدنيا ، وزخارفها ، وزيناتها ، وسبل اقتناصها . . . وهلم جراً .

وتنافس الدنيا للدنيا مع نسيان أو إهمال الآخرة قبيح مذموم، كما شهدت بذلك نصوص الكتاب والسنة .

أما نصوص الكتاب فقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك]. ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]. ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] . ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]. ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

[الحديد]

إن هذه النصوص حين تتحدث عن الآخرة، تدعو صراحة إلى المنافسة والمسارعة، والمسابقة، والسعي، وحين تتحدث عن الدنيا تدعو صراحة إلى المشي الهوينا،والانتشار في الأرض، وعدم التكالب أو التنافس في طلب هذه الدنيا .

ومن نصوص الكتاب ـ كذلك ـ قوله سبحانه : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر : ٨٨] . ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله : «يقول تعالى لنبيه محمدﷺ لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم، ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هى زهرة زائلة، ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور »[(١)] .

وأما نصوص السنة النبوية فقولهﷺ : « فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[(٢)] ، «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أى قوم أنتم؟»، قال عبد الرحمن ابن عوف: نقول كما أمرنا الله [(٣)] ، قال رسول اللهﷺ : « أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون فى مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»[(٤)] ، « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه من المال ، والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » [(٥)] ، « انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله »[(٦)] .

---

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٤٩٩ .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجزية والموادعة : باب منه ١١٧/٤، ١١٨، وكتاب المغازى: باب منه ١٠٨/٥، وكتاب الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ١١٢/٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب منه ٢٢٧٣/٤ رقم(٢٩٦١)، والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب(٢٨) ٥٥٢/٤، ٥٥٣ رقم(٢٤٦٢) وعقب الترمذى على روايته بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ١٣٢٤/٢، ١٣٢٥رقم(٣٩٩٧) وأحمد فى : المسند ١٣٧/٤، ٣٢٧ كلهم من حديث عمرو بن عوف الأنصارى ـ وهو حليف لبنى عامر بن لؤى وكان شهد بدراً ـ أن رسول اللهﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول اللهﷺقد صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبىﷺ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له فتبسم رسول اللهﷺحين رآهم، وقال : «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشىء؟» قالوا: أجل يا رسول الله،قال:«فأبشروا. . .» الحديث.

(٣) (نقول كما أمرنا الله) أى : نحمده، ونشكره ، ونسأله المزيد من فضله، انظر : تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى على صحيح مسلم ٤ / ٢٢٧٤ نقلا عن المنهاج للنووى .

(٤) « فتجعلون بعضهم على رقاب بعض » أى فتجعلون بعضهم أمراء على بعض انظر : تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى على صحيح مسلم ٤ / ٢٢٧٥ نقلا عن المنهاج للنووى، والحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب منه ٢٢٧٤/٤، ٢٢٧٥ رقم (٢٩٦٢)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤ رقم (٣٩٩٦) كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا واللفظ لمسلم .

(٥، ٦) الحديث بروايته أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب منه ٤ / ٢٢٧٥ رقم (٢٩٦٣) ، والترمذى فى : السنن : كتاب اللباس : باب ما جاء فى ترقيع الثوب ٢١٥/٤، ٢١٦ رقم (١٧٨٠) ، وكتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب (٥٨) ٤/ ٥٧٤ رقم (٢٥١٣) وعقب الترمذى على إحدى هاتين الروايتين بقوله : « هذا حديث صحيح »، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد : باب القناعة ٢ / ١٣٨٧ رقم (٤١٤٢) ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، واللفظ لمسلم .

وعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال : « إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها »(١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا »، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : «بركات الأرض . . . » الحديث (٢) .

وعن الحسن أنه قال : من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره » (٣) ، « والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا، أو ذهبت إلى ذا »(٤).

أما إذا كان التنافس في الدنيا من أجل إحراز سبق أو كفاية يستغني بها المسلمون، كابتكار علمي، أو سبق اقتصادي، ولا يبقون عالة على أعدائهم، مع نية التقرب بذلك إلى الله، والطمع في جنته ورضوانه، ومع الاهتمام بكل أعمال الآخرة الأخرى والمتمثلة في النزول على حكم الله ـ عز وجل ـ في كل ما يأتي المرء وما يدع، فذلك حسن ومحمود؛ لأنه لا يخرج عن أن يكون من عمل الآخرة .

وقد أمرنا الله ـ عز وجل ـ أن تكون الدنيا التي في أيدينا موجهة نحو عمل الآخرة، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الجنائز : باب الصلاة على الشهيد ٢ / ١١٤، ١١٥، وكتاب المناقب : باب علامات النبوة في الإسلام ٤ / ٢٤٠، وكتاب المغازي : باب غزوة أحد، وباب أحد جبل يحبنا ٥/ ١٢٠، ١٣٢، وكتاب الرقاق : باب في الحوض ٨/١٥١، ومسلم في : الصحيح : كتاب الفضائل : باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ٤ / ١٧٩٥، ١٧٩٦ رقم (٢٢٩٦) ، وأحمد في: المسند ٤ / ١٤٩، كلهم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ للبخاري .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب الصدقة على اليتامى ٢/١٤٩ ، ١٥٠، وكتاب الجهاد : باب فضل النفقة في سبيل الله ٤/٣٢، ومسلم في : الصحيح : كتاب الزكاة: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ٢/٧٢٧ ـ ٧٢٩ رقم (١٠٥٢)، والنسائي في السنن: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم ٥/ ٩٠، ٩١ رقم (٢٥٨١)، والكبرى: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم ٢ / ٤٨ رقم (٢٣٦٢)، وابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/١٣٢٣ رقم (٣٩٩٥)، وأحمد في : المسند ٣/٧، ٢١، ٩١، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا واللفظ للبخاري .

(٣، ٤) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٣٠٤، ٣٠٧ .

ثالثا : أسباب تنافس الدنيا :

ولتنافس الدنيا أسباب توقع فيه، وبواعث تؤدى إليه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث :

١ ـ الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجرى بالمقادير :

فقد تكون الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجرى بالمقادير من الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن الله ـ عز وجل ـ قدر أزلا حظ كل واحد من هذه الدنيا، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

يقول العلامة ابن جرير الطبرى ـ رحمه الله : « وقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول تعالى ذكره : بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولا، ومن أردنا صديقا، ونتخذ من أردنا خليلا، كما قسمنا بينهم معيشتهم التى يعيشون بها فى حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنيا، وهذا فقيرا، وهذا ملكا، وهذا مملوكا، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك، حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢] : فتلقاه ضعيف الحيلة، عيى اللسان، وهو مبسوط له فى الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، سليط اللسان وهو مقتور عليه »[1] .

بل أبرز ذلك للملك الذى يتولى نفخ الروح فى كل إنسان بإذنه سبحانه حيث يؤمر: أن يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيًا أم سعيداً .

عن ابن مسعود ﷺ قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

« إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، فو الذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه

---

(١) انظر : جامع البيان ٢٤/١١/٤١، وعنه نقل السيوطى فى : الدر المنثور ٧/٣٧٥ مع تقديم وتأخير .

الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[(١)] .

ومهما تبارى الناس ، وتسابقوا فلن يغيروا شيئا مما قضى الله وقدر كما قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : ١٨] .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله: « يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله، وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ »[(٢)] .

ومن ينسى ما قدمنا من أن حظوظ الدنيا تجرى بالمقادير يبتلى لا محالة بداء التنافس فى الدنيا .

٢ ـ الغفلة عن حقيقة الدنيا :

وقد تكون الغفلة عن حقيقة الدنيا هى السبب فى الوقوع فى آفة تنافس هذه الدنيا؛ ذلك أن الله خلق الحياة الدنيا لتكون معبرا أو قنطرة يمر الناس من فوقها إلى الدار الآخرة، ولكنه سبحانه جعلها بما فيها من زخارف وزينات، وشهوات دار امتحان وابتلاء، من ركن إليها ونسى آخرته فقد ضيع نفسه، إذ ركن إلى حقير قصير، ومن انتبه إليها وأخذ منها بالقدر الذى يسلمه من شرها، ويوصله إلى آخرته سلم، ونجا، بل غنم .

فقال سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ٤ / ١٣٥، وكتاب الأنبياء: باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ٤ / ١٦١، ١٦٢، وكتاب القدر : باب منه ٨ / ١٥٢، وكتاب التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ٩ / ١٦٥، ١٦٦، ومسلم فى: الصحيح : كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ٤ / ٢٠٣٦، ٢٠٣٧ رقم (٢٦٤٣) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب فى القدر ٤/ ٢٢٨ رقم (٤٧٠٨) ، والترمذى فى : السنن : كتاب القدر : باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم ٤ / ٣٨٨، ٣٨٩ رقم (٢١٣٧) ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب التفسير : باب قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ٦/ ٣٦٦ رقم (١١٢٤٦)، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب فى القدر ١/ ٢٩ رقم (٧٦)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٨٢، ٤١٤، ٤٣٠، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعا، واللفظ للبخارى .

(٢) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٣٧١ .

أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران] . ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] . ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] . ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء] . ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة] . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس] . ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود] . ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] . ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] . ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص : ٧٧] . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [فاطر : ٥] إلى غير ذلك من الآيات .

تلك هى حقيقة الحياة الدنيا، ومن غفل عن هذه الحقيقة، ركن إلى الحياة الدنيا وحرص عليها، وحمله هذا الركون وذلك الحرص إلى تنافس الدنيا .

٣ ـ العيش فى وسط حريص يتنافس الدنيا :

وقد يكون الوسط الذى يعيش فيه المرء : قريبا ـ وهو البيت ـ أو بعيدا ـ وهو المجتمع ـ من بين أسباب تنافس الدنيا ؛ ذلك أن المرء إذا وجد فى وسط شغله الشاغل التسابق والتبارى فى حيازة الدنيا، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التى تحميه من التأثر بهذا الوسط، فإنه يبتلى ـ لا محالة ـ بتنافس الدنيا .

يقول الغزالى فى التحذير من صحبة الحريص على الدنيا المتنافس فيها : « وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل ؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة »[1] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٢ / ٢٥١ .

٤ ـ حب الدنيا :

وقد يكون حب الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على التبارى والتسابق فيها من غير شبع أبدًا ، كما قال النبى ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب »[(١)] .

٥ ـ إقبال الدنيا :

وقد يكون إقبال الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا . ذلك أن الدينا إذا أقبلت، وغابت معايير وضوابط تعاطى هذه الدنيا تبارى الناس فيها، وتنافسوها خشية أن تضيع أو تنتهى كما يتصورون . ولقد نبَّه النبى ﷺ إلى هذا السبب حين قال فى الحديث الذى ذكرناه آنفا: « . . . فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم »[(٢)] ، « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم مِنْ زهرة الدنيا » ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : « بركات الأرض. . . » الحديث[(٣)] .

٦ ـ الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق :

وقد يكون الاستعلاء والتكبر فى الأرض بغير الحق مِنْ بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا ؛ ذلك أن المستعلى والمتكبر فى الأرض بغير الحق تسوِّل له نفسه الأمارة بالسوء، بإغراء من شياطين الجن والإنس،أنه لن يحتفظ لهذه النفس بما حصَّلته من علوٍّ وتكبُّر، ومنزلة فى نفوس الآخرين إلا بأن يكون صاحب النصيب الأوفى، والحظ الوافر من هذه الدنيا، وهذا بدوره يحمله على التسابق والتبارى فى طلب هذه الدنيا وهذا هو تنافس الدنيا.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب ما يتقى من فتنة المال ٨ / ١١٥ من حديث ابن عباس، وابن الزبير، وأنس بن مالك مرفوعا، ومسلم فى: الصحيح : كتاب الزكاة : باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا ٢ / ٧٢٥، ٧٢٦ رقم (١٠٤٨ـ ١٠٥٠) من حديث أنس بن مالك، وابن عباس، وأبى موسى الأشعرى مرفوعا، والدارمى فى السُّنن : كتاب الرقاق : باب لو كان لابن آدم واديان مِنْ مال ٢ / ٣١٨، ٣١٩ من حديث أنس بن مالك مرفوعا، وأحمد فى : المسند ٣ / ٣٤١، ٣٤٧ من حديث أنس ابن مالك بمثله، ومن حديث جابر بن عبد الله بنحوه، ٥ / ١١٧ من حديث ابن عباس، ١٣١، ١٣٢ من حديث أُبى بن كعب، ٢١٩ من حديث أبى واقد الليثى .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

٧ ـ طول الأمل :

وقد يكون طول الأمل من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن مَنْ يطول أمله في الدنيا يحرص على أن يجمع من هذه الدنيا ما يغطى هذا الأمل، ولا يتأتى له ذلك إلا بالتسابق والتبارى فى طلب الدنيا، يعنى : التنافس فيها، ولعلَّ هذا هو سرُّ التحذير من الاسترسال فى طول الأمل ؛ إذ يقول عبد الله بن مسعود ﷺ : خط النبىُّ ﷺ خطا مربعًا، وخط خطًا فى الوسط خارجا منه، وخط خططا صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط مِنْ جانبه الذى فى الوسط، وقال : « هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذى هو خارج : أمله، وهذه الخطط الصِّغار : الأغراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا » [(١)] .

وعن أنس رفعه : « أربعة من الشقاء : جمود العين، وقسوة القلب وطول الأمل، والحرص على الدنيا » [(٢)] .

قال ابن حجر : « ويتولد من طول الأمل : الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة فى الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة فى القلب » [(٣)] .

٨ ـ الغفلة عن الموت والدار الآخرة :

وقد تكون الغفلة عن الموت والدار الآخرة من أسباب الوقوع فى تنافس الدنيا ؛ ذلك أنَّ مَنْ بقى متذكرا أنه مهما طال به الأجل، وامتد به العمر، فإنه ميت لا محالة، وأنه راحل عن هذه الدار إلى الدار الآخرة حيث يلقى ربه، ويُسأل عن كل شيء، حتى عن النقير، والقطمير، بل وعن الكحل لم وضعه فى عينيه، والذر لم فتَّه .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪ ﴾ [السجدة]. ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ⑪⑤ ﴾ [المؤمنون]. ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ⑨② عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑨③ ﴾ [الحجر] . ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧ ﴾ [التكاثر]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الرِّقاق : باب فى الأمل وطوله ٨/ ١١٠، ١١١، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٢٢) ٤/ ٦٣٥، ٦٣٦ رقم (٢٤٥٤) وعقَّب الترمذى على روايته قائلا: «هذا حديث صحيح »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب الأمل والأجل ٢/ ١٤١٤ رقم (٤٢٣١)، والدارمى فى: السنن : كتاب الرِّقاق : باب فى الأمل والأجل ٢/ ٣٠٤، وأحمد فى المسند ١/ ٣٨٥، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا، واللفظ للبخارى .

(٢)الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الزهد: باب فى جمود العين وقسوة القلب ١٠/ ٢٢٩ وقال : « رواه البزار، وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف » .

(٣)انظر : فتح البارى ١١ / ٢٣٧ .

ويقول ﷺ : « يا معاذ، إن المرء يُسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن فتات الطين في أصبعه، فلا ألفينّك يوم القيامة، وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » [١] ، «ما فوق الإزار، وظلّ الحائط، وخبز يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يُسأل عنه » [٢].

وقال الصحابة يوما لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟

قال :« هل تُضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليستْ في سحابة ؟ » قالوا: لا، قال: « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟» قالوا: لا، قال: « فو الذي نفسي بيده، لا تُضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما »، قال : « فيلقى العبد، فيقول : أيْ فُلْ - يعني : يا فلان - ألم أكرمك، وأسوِّدك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع ؟ [٣] ، فيقول : بلى »، قال: « فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول : أي فُلْ، ألم أكرمك وأسوِّدك، وأزوِّجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع ؟ فيقول : بلى أي ربِّ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له : مثل ذلك، فيقول : يا رب آمنتُ بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليتُ، وصمتُ وتصدَّقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول : هاهنا إذا »، قال : « ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه : مَنْ ذا الذي يشهد عليَّ ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه، ولحمه، وعظامه : انطقي، فتنطق فخذه،ولحمه، وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه » [٤] .

مَنْ بقي متذكرًا هذه الحقيقة فإنه يضع الدنيا في يديه، وتحت قدميه، ولا يبالي أقبلت أو أدبرت .

---

(١) الحديث أورده ابن كثير في : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٥٩ من حديث معاذ بن جبل مرفوعا به، وعزاه إلى ابن أبي حاتم .

(٢) الحديث أورده ابن كثير في : تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٤٧ من حديث ابن عباس مرفوعا، وعزاه إلى أبي بكر البزار، وأنه - أي البزار - عَقَّبَ عليه قائلا : « لا نعرفه إلا بهذا الإسناد » .

(٣) تربع، يعني تأخذ ربع الغنيمة، يقال: ربعتُ القوم أربعهم : إذا أخذتَ ربع أموالهم، يريد الحق سبحانه: ألم أجعلك رئيسا مطاعا لأن المَلِكَ كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٦٠ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٩، ٢٢٨٠ رقم (٢٩٦٨) ، والترمذي في : السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٦) ٤/ ٥٣٤، ٥٣٥ رقم (٢٤٢٨) وعقب الترمذي عليه بقوله : « هذا حديث صحيح غريب »، وأحمد في : المسند ٢/ ٤٩٢ كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لمسلم .

أما مَنْ نسى هذه الحقيقة فإنه يقيم للدنيا وزنا، ويعمل لها حسابا ويبذل قصارى جهده فى تحصيلها ولو كان بالتسابق والتبارى فيها، ولعل هذا من بين الأسباب التى من أجلها دعا النبى ﷺ إلى دوام ذكر الموت والاستعداد للدار الآخرة قائلا : « أكثروا ذكر هاذِم اللذات ـ يعنى الموت » [1] ، « الكيِّس مَنْ دانَ نفسه، وعَملَ لما بعد الموت، والعاجز مَنْ أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله » [2] .

٩ ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا :

وأخيرا قد تكون الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا دنيوية أو أخروية، فردية أو جماعية، هى السبب فى الوقوع فى هذا التنافس، انطلاقا من مبدأ : أن مَنْ غفل عن الآثار الضارة المترتبة على أمر ما، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التى تحميه من الوقوع فى هذا الأمر : فإنه يقع فيه لا محالة، ومن هنا كانت الدعوة إلى الفقه فى الدين على النحو الذى قدَّمنا غير مرَّة فيما مضى من آفات .

رابعا : آثار تنافس الدنيا :

ولتنافس الدنيا آثار ضارة، وعواقب مهلكة دنيوية وأخروية سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامى .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى ذكر الموت ٤/ ٤٧٩ رقم (٢٣٠٧) وعقب الترمذى عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب »، من حديث أبى هريرة مرفوعا بهذا اللفظ، كما أخرجه على أنه جزء حديث طويل فى : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٢٦) ٤/ ٥٥١ رقم (٢٤٦٠) وعقب عليه الترمذى بقوله : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه » من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : دخل رسول الله ﷺ مُصَلاه فرأى أناسا يكتشرون (يعنى : تظهر أسنانهم من الضحك) ، قال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى، الموتُ، فأكثروا من ذكر هاذم اللذات، الموت . . . » الحديث، والنسائى فى : السنن : كتاب الجنائز : باب كثرة ذكر الموت ٤/ ٤ رقم (١٨٢٤) والكبرى : كتاب الجنائز وتمنى الموت: باب كثرة ذكر الموت ١/ ٦٠٠، ٦٠١ رقم (١٩٥٠) من حديث أبى هريرة مرفوعا، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٢ رقم (٤٢٥٨) من حديث أبى هريرة مرفوعا، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا، وقوله « هاذم اللذات » بالذال المعجمة بمعنى قاطعها، أو بالمهملة من هدم البناء، والمراد الموت، وهو هادم اللذات، إمَّا لأن ذكره يُزهِّده فيها، أو لأنه إذا جاء ما يُبقى من لذائذ الدنيا شيئا، والله تعالى أعلم، قاله الحافظ السيوطى فى : زهر الرُّبى ٤/ ٤ بهامش المجتبى .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع : باب (٢٥) ٤/ ٥٥٠ رقم (٢٤٥٩) وعقب الترمذى عليه بقوله : « هذا حديث حسن »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ رقم (٤٢٦٠)، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٢٤، كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعا بهذا اللفظ .

ودونك طرفا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار تنافس الدنيا :

١ ـ القلق والاضطراب النفسى :

وذلك أن مَنْ سيطرت عليه الدنيا، وابتلى بجمعها، والتنافس فيها فيصاب لا محالة بالقلق والاضطراب النفسى، خوفا من أن تضيع عليه هذه الدنيا، بل خوفا من ألا يحصِّل الكثير منها، ويحق فيه قول الحقّ ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن]

٢ ـ إهدار حقوق الأخوة الإسلامية :

ذلك أن تنافس الدنيا سيجر صاحبه حتما إلى الظنون الكاذبة وما تؤدى إليه من تتبع للعورات، والغيبة، والنميمة، والسخرية والاستهزاء والمزايدة على أخيه المسلم فى بيع أو شراء أو نكاح، بل ربَّما تصل الأمور إلى حد الكيد والتآمر، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وسلب الأموال لئلا يسبق فى تحصيل الدنيا، وهذا شر .

٣ ـ الانصراف عن أعمال الآخرة :

ذلك أن مَنْ جعل الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، وسعى إلى سبق ومباراة الآخرين فى تحصيلها ينصرف لا محالة عن أعمال الآخرة، وربما لا يجد من الأوقات والتفكير ما يعينه على إتيان هذه الأعمال .

٤ ـ كراهية الموت والدار الآخرة :

ومن انصرف عن أعمال الآخرة، واشتغل بالدنيا، وبالتسابق والتبارى فى تحصيلها يكره الموت والدار الآخرة ؛ لأنهما يقطعانه عمَّا هو مشتغل متعلق متلذذ به، فضلا عن أنه لم يقدِّم شيئا يسعى إليه فى الآخرة .

ولعل هذا هوما فقهه ذلك العالم الجليل أبو حازم الأعرج وقد سأله سليمان بن عبد الملك قائلا : يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت ؟

فأجاب : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فكرهتم الانتقال من العمران إلى الخراب[١] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأمَّا آثار تنافس الدنيا على العمل الإسلامى فأهمها :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن التنافس على الدنيا يؤدى إلى الخصومات، وهى بدورها تؤدى إلى العداوة، والكراهية، والبغضاء، وحينئذ لا يكون وحدة ولا اجتماع ولاترابط، وهذه هى قاصمة الظهر حقا .

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

ذلك أنه حين ينتهى الأمر بالعمل لدين الله إلى حد الفرقة، تفسح الطريق أمام العدو فيمتطى الظهور، ويطوّق الأعناق، ويشدد الخناق، فتعظم التكاليف، وتطول الطريق، وينتفش الباطل، وينتشى، ويعود من جديد لبذر بذور الشرّ والفساد .

ولقد أشار النبى ﷺ إلى كلٍّ هذه الآثار سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، ولكن فى إجمال حين قال : « . . . فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم ، كما بُسطتْ على مَنْ قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم »[٢] ، «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا . . . » الحديث[٣] .

خامسا : علاج تنافس الدنيا :

وإذ قد فرغنا من تعريف تنافس الدنيا، وتحديد مظاهره وموقف الإسلام منه، والأسباب المؤدية إليه، والآثار المترتبة عليه، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى، فإن من السهل بعون الله وتوفيقه رسم طريق العلاج، وتتلخص هذه الطريق فى :

١ ـ اليقين التام بأن حظوظ الدنيا تجرى بالمقادير، وأنه مهما أتعب المرء نفسه، وتكالب على الدنيا، وتبارى مع الآخرين فى تحصيلها أو نيل حظٍّ منها، فإنه لن يصل

---

(١) انظر : تهذيب تاريخ دمشق للشيخ عبد القادر بن بدران ٦/ ٢٢٠، ٢٢١ .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١٥١ . (٣) الحديث سبق تخريجه ص ١٥٢ .

إلى شيء فوق ما قسم الله، إذ قد يقود اليقين صاحبه إن كان صادقا أن يمشي الهوينا، وأن يأخذ بالأسباب البشرية فقط، ويدع ما قسم الله له، والله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين .

٢ ـ والبصيرة التامة بحقيقة الدنيا، وأنها ليست غاية أو هدفا، وإنما هي وسيلة لغاية وهدف، وعليه فلا يصح أن يقف عندها طويلا أو يركن إليها، ويسابق الآخرين في جمعها وتحصيلها .

٣ ـ وأن ينزع المسلم نفسه أو أن ينتزعه الآخرون من الوسط الحريص على الدنيا المتنافس فيها، ثم يلقى بنفسه في وسط مَنْ يريدون الله ورسوله، والدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، فلعل ذلك يسهم في اقتلاع الدنيا من القلوب ويجعلها في الأيدي، وبذلك يقضي على سبب رئيسي من أسباب تنافس الدنيا .

٤ ـ وأن يوقن أن المرء مهما حصَّل من الدنيا فلن يشبع أبدا، إذ لو كان لابن آدم واديان مِنْ مال، لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَنْ تاب، كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح .

٥ ـ وأن يعدِّل من نظرته إلى إقبال الدنيا بحيث لا يراها مجالا للتنافس، وإنما يراها فتنة يخاف على نفسه منها كما قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء] . ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] .

٦ ـ وأن يداوي المرءُ نفسه من آفات الإعجاب بالنفس، والغرور والتكبر، فيقضي بذلك على باب كبير يمكن أن يؤدي إلى التسابق والتباري في تحصيل الدنيا .

٧ ـ وأن يخفِّفَ من طول الأمل ما استطاع ذلك سبيلا ، و اضعًا في حسابه أنَّ طول الأمل لا يليق بعبد ضعيف جاهل لا يدري متى الرحيل عن هذه الدار، ولا ما يكون بعد هذا الرحيل .

٨ ـ وأن ينعم النظر في كتاب الله وسنة وسيرة نبينا محمد ﷺ ، ليرى ماهية وحقيقة الدنيا في جنب ماهية وحقيقة الدار الآخرة، ولعل هذه الرؤية تولد لديه قناعة ويقينا أن الدنيا أقل وأحقر من أن يتكالب الناس عليها، ويتنافسوها .

٩ ـ دوام تذكر الموت والدار الآخرة، وحاله عند سكرات الموت، وعند دخوله قبره، وقد انقطع عنه كل شيء، وأوله هذه الدنيا، تلك التي أفنى عمره في طلبها، والتكالب عليها، والتنافس فيها، ثم حاله عند السؤال، وما يكون بعده من نعيم

وراحة، أو شقوة وتعب، وحاله عند البعث والنشور، والحشر والعرض على الله، إلى غير ذلك مما يكون يوم القيامة حتى يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، ولعل تذكر ذلك يخوِّفه من داخله، ويحمله على أن يخرج حب الدنيا من القلب، ويجعلها في اليد، وينسيه التسابق والتبارى فى طلبها وحيازتها .

١٠ ـ طول النظر فى سيرة سلف هذه الأمة، وكيف كان تواصيهم فيما بينهم، وأخذهم أنفسهم بمنهج : أن الدنيا أقل وأحقر من أن يفنوا أعمارهم فى طلبها والتنافس فيها لذاتها مستخدمين معها قول الله ـ عز وجل : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

هذا الحسن يقول : « مَنْ نافسك فى دينك فنافسه، ومَنْ نافسك فى دنياك فألقها فى نحره » (١) .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، يقدم عليه أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج، فيعرفه عمر، وأبو حازم لا يعرفه، فيقول له عمر : ادن منِّى يا أبا حازم، وحين يدنوا منه يعرفه، فيقول له : أنت أمير المؤمنين ؟ فيقول عمر : نعم، فيقول : ألم تكن بالمدينة بالأمس أميرا ؟ قال : نعم، قلتُ : كان مركبك وطيئا، وثوبك نقيّا، ووجهك بهيّا، وطعامك شهيّا، وحرسك كثيرا، فما الذى غيّر ما بك، وأنت أمير المؤمنين ؟ فبكى، ثم قال : يا أبا حازم، كيف لو رأيتنى بعد ثالثة فى قبرى، قد سالت حدقتاى على وجنتي، وانشق بطنى، وجرت الديدان فى بدني، لكنت أشد إنكارا لى من يومك هذا، أعِدْ علىَّ الحديث الذى حدثتنيه بالمدينة، قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، سمعتُ أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن بين أيديكم عقبة كؤودا مضرسةً، لن يجوزها إلا كلُّ ضامر مهزول »، فبكى، ثم قال : تلومني يا أبا حازم أن أضمر نفسى لتلك العقبة ، لعلِّى أنجو منها ، ما أظننى بناجٍ منها (٢) .

وقال أبو حازم هذا : « نعمة الله فيما زوى عنِّى من الدنيا أفضل من نعمته فيما أعطانى منها، إنى رأيته أعطاها قوما فهلكوا »، « رأيتُ الدنيا شيئين : شيئا منها هو لى فلن أعجله قبل أجله، ولو طلبته بقوة السموات والأرض،وشيئا منها هو لغيرى، فذاك ما لم أنله فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقى، يمنع الذى لغيرى منى، كما يمنع الذى

---

(١) الأثر سبق تخريجه ص ١٥٣ .

(٢) انظر : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦ / ٢١٩ .

لى من غيرى، ففى أىِّ هذين أفنى عمرى ؟ » ، « الناس عاملان : عامل فى الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على مَنْ يخلف الفقر، ويأمنه على نفسه، فيفنى عمره فى بغية غيره، وعامل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذى له من الدنيا بغير عمل، فأصبح ملكا عند الله، لا يسألُ الله شيئا فيمنعه » .

ومِنْ قبل كتب عـمر بن الخطاب ﷺ لسعد عندما فتح الله عليه : أما بعد، فأعرض عن زهرة ما أنت فيه حتى تلقى الماضين الذين دفنوا فى أسمالهم [(١)] ، لاصقة بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب، لم تفتنهم الدنيا، ولم يفتتنوا بها، أرغبوا فطلبوا، فما لبثوا أن لحقوا، فإذا كانت الدنيا تبلغ مِنْ مثلك هذا فى كبر سنِّك، ورسوخ علمك، وحضور أجلك، فمن يلزم الحدث فى سنِّه، الجاهل بعلمه، المأفون [(٢)] فى رأيه، المدخول فى عقله، إنا لله وإنا إليه راجعون » [(٣)] .

إلى غير ذلك من أخبار هؤلاء فى هذا الباب .

ولعل طول هذا النظر يولِّد فى النفس معنى الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبه .

١١ ـ دوام التذكير والتبصير بالدنيا، والتنافس فيها، فإن الإنسان كثيرا ما ينسى وعلاج هذا النسيان، إنما يكون بالتذكير والتبصير، ولهذا يقول الحقُّ ـ تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات] ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى]

١٢ ـ دوام مراقبة الله فى الدخول والخروج، فى السرِّ والعلانية، فى كل الظروف وفى سائر الأحايين، فإنها إن كانت صاقة تحجز عن كل شر، وتدفع إلى كل خير، ثم يكون مع المراقبة، المشارطة، والمحاسبة، وتصحيح الخطأ بالإنابة والتوبة النصوح، ولعل هذه الخطوات بمرور الزمن، مع الجدية وأخذ الأمر بحزم وقوة، تفيد فى القضاء أو على الأقل التخفيف من تنافس الدنيا .

---

(١) أسمالهم: جمع سَمَل وهو: الخَلَق من الثِّياب . انظر:النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ١٨٣ .

(٢) المأفون : ناقص العقل، يقال : رجل أفين، ومأفون : ناقص العقل . انظر : النهاية فى غريب الحديث ١ / ٣٦ .

(٣) انظر هذه الأخبار فى : تهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٢٢٦، ٢٢٧ .

الآفة الثامنة والعشرون
الاحتقار أو الانهزام النفسي

والآفة الثامنة والعشرون التي يبتلى بها كثيرٌ من المسلمين، وكانت من بين أسباب كثير ممَّا نعاني نحن المسلمين اليوم، إنما هي : « الاحتقار أو الانهزام النفسي » .

وحتى يبرأ من هذه الآفة مَنْ ابتلى بها، ويبقى صحيحًا معافى مَنْ سَلَّمَه الله ـ عز وجل ـ منها، فإننا سنتناولها من خلال هذه الجوانب :

أولا : تعريف الاحتقار أو الانهزام النفسي :

الاحتقار لغة : والاحتقار لغة : الإذلال، والإهانة، والتصاغر، يقال : احتقره، حَقَره وَحقُر الشيء حَقْرا، وحقارةً، فهو حقير : ذلَّ، وهانَ، وصغر [1] . وفي الحديث : « إياكم ومحقَّرات الذنوب » [2] : صغائر، واحدتها : محقَّرة.

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ٤/٢٠٧، ٢٠٨، والمعجم الوسيط ١/١٨٧، مادة: «حقر» بتصرف.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في : المسند ١/٤٠٢، ٤٠٣ من حديث عبد الله بن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا فأجَّجوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها»، ٥/٣٣١ من حديث سهل بن سعد رفعه : « إياكم ومحقرات الذنوب، وإنما مثل محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاؤوا بعود، وجاؤوا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » وإسناده ـ كما يقول ابن حجر في : فتح الباري ١١/٣٢٩ : « حسن »، ٦/٧٠، ١٥١، من حديث عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله ـ عز وجل ـ طالبا » .

وأخرج ابن ماجه في : السنن: كتاب الزهد : باب ذكر الذنوب ٢/١٤١٧ رقم (٤٢٤٣) نحوه من حديث عائشة قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشة، إياك ومحقَّرات الأعمال، فإن لها من الله طالبا »، وعقب عليه البوصيري في : مصباح الزجاجة ٤/٢٤٥ بقوله : « هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات »، والدارميُّ في : السُّنن : كتاب الرقاق : باب في المحقرات ٢/٣٠٣ من حديث عائشة بلفظ أحمد، وأورده ابن حجر في فتح الباري ١١/٣٢٩ من حديث سهل بن سعد رفعه، وعقب عليه بقوله : «أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد، والطبراني مِن حديث ابن مسعود، وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة ؛ أن النبي ﷺ قال لها : « يا عائشة، إياك ومحقَّرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا»، وصححه ابن حبان .

والانهزام لغة :الانهزام لغة : الانكسار والتشقق، نقول : انهزم العدوُّ : انكسرت شوكته، وشُقَّ صفُّه، وانتصر عليه، فهو منهزم، ومهزوم، والهزيمة فى القتال : الكسرُ، والفل (١) .

اصطلاحا : أما الاحتقار أو الانهزام النَّفسى فى الاصطلاح، فهو : استصغار النفس الخيِّرة، واستذلالها، والاستهانة بها أو انكسارها أمام ما يمليه عليه أعداؤها من النفس الأمارة بالسوء، ومن شياطين الإنس والجن، ومن الدنيا بشدائدها، وامتحاناتها، ببريقها، وزخارفها وزيناتها، بصورة تشعرها أنها ليست أهلاً لعمل أى برٍّ أو معروف، حتى وإن كان هذا البرُّ وذلك المعروف بسيطا أو يسيرا .

ثانيا : بعض مظاهر الاحتقار أو الانهزام النفسى مع بيان حكمه في ميزان الإسلام :

وللاحتقار أو الانهزام النفسى صور يعرف بها، ومظاهر تدلُّ عليه وأهم هذه الصُّور، وتلك المظاهر :

١ ـ القعود عن العمل لدين الله ـ عز وجل ـ من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، بدعوى أن الشر قد تفشى وانتشر، وأن المنكر قد استفحل وتمكن، ومهما عملنا فلن نغيِّر شيئا، ولن نجنى سوى التعب والمشقة .

٢ ـ اعتزال المجتمع بل الهجرة إلى الشِّعاب والأودية ورءوس الجبال اعتمادا على الدعوى التى قدمنا، واحتجاجا بقوله ﷺ: « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن » (٢) .

٣ ـ الخضوع والانقياد والاستسلام للأهواء، وما يمليه شياطين الجن والإنس، والدنيا ببريقها وزخارفها، بدعوى عدم القدرة على المواجهة .

٤ ـ الخوف من الباطل، والانقياد له فى كل ما يقول، وما يفعل، بدعوى أنه

---

(١) انظر: لسان العرب ١٢/٦٠٨ ـ ٦١١، والمعجم الوسيط ٢/٩٨٥، مادة : « هزم » بتصرف كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح :كتاب الإيمان : باب من الدين الفرار من الفتن ١/١١، وكتاب بدء الخلق : باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٤/١٥٥، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن: باب العُزلة ٢/١٣١٧ رقم (٣٩٨٠)، ومالك فى: الموطأ : كتاب الاستئذان: باب ما جاء فى أمر الغنم ص ٦٠١ رقم (١٦)، وأحمد فى : المسند ٣/٦، ٣٠، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعا .

يملك كل شيء، ونحن مهما أوتينا مِنْ قوة، ومن سلطان فلن نعمل شيئا، وبالتالى فلن نغير شيئا .

٥ ـ رفض أيّ مسئولية قيادية حتى وإن كانت فى أمر جزئى بسيط، بدعوى عدم الفقه فى المسئوليات، بل عدم القدرة على ما تتطلبه هذه المسئوليات من أعباء، وتبعات، وهلم جرًا .

والاحتقار بالمعنى الذى ذكرنا من استصغار النفس ، والاستهانة بها أمام دور الإنسان ، بل المسلم ورسالته فى هذه الأرض ، قبيح مذموم نهى عنه الشارع الحكيم ، إذ يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [آل عمران]. ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] . ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾ [محمد]. ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٠] . ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران]. ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الاحزاب] .

وإذ يقول ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا : يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله ـ عز وجل ـ له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا، وكذا ؟ فيقول : خشية الناس، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى » [1] ، « احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز . . . » الحديث [2] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ١٣٢٨/٢ رقم (٤٠٠٨)، وعقب عليه البوصيرى ١٨٢/٤ بقوله: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وأحمد فى: المسند ٣/ ٣٠، ٤٧، ٤٨، ٧٣، ٩١، ٩٢ كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه مرفوعا، واللفظ لابن ماجه، ولأحمد فى بعض رواياته .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب القدر : باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٢٠٥٢/٤ رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه فى: السنن : المقدمة: باب =

وانطلاقا من نهى الشارع الحكيم عن الاحتقار أو الانهزام النفسى زكى يوسف الصديق ﷺ نفسه، فقال: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف].

يقول ابن عطية ـ رحمه الله : « وطلب يوسف للعمل إنما هى حِسْبة منه ﷺ لرغبته فى أن يقع العدل . . . فجائز للفاضل أن يعمل، وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عوض عنه، وجائز أيضا للمرء أن يثنى على نفسه بالحق إذا جهل أمره » (١) .

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله : « وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان فى يد الجائر أو الكافر » (٢) .

ويقول الألوسى ـ رحمه الله : « وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق إذا جُهل أمره، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلا ، وكان متعينا لذلك ، وما فى الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها »، وارد فى غير ما ذكر » (٣) .

ومدح النبى ﷺ نفسه بقوله: «أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له. . .»(٤)،

= فى القدر ١/ ٣١ رقم (٧٩)، وكتاب الزهد : باب التوكل واليقين ٢/ ١٣٩٥ رقم (٤١٦٨)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٦٦، ٣٧٠، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعا، ولفظه عند مسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل الخير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا، وكذا، ولكن قل : قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان »، كلهم من حديث أبى هريرة ؓ .

(١) انظر : المحرر الوجيز ٩/ ٣٢٤، ٣٢٥ .

(٢) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٤ و تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/ ٢/ ٢٨٦ .

(٣) انظر : روح المعانى ١٣/ ٥/ ٥ .

(٤) جزء من حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب النكاح : باب الترغيب فى النكاح ٧/ ٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ٢/ ١٠٢٠ رقم (١٤٠١)، والنسائى فى : السنن : كتاب النكاح : باب النهى عن التبتل ٦/ ٦٠ رقم (٣٢١٧)، والكبرى: كتاب النكاح: باب النهى عن التبتل ٣/ ٢٦٤ رقم (٥٣٢٤)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٢٤١، ٢٥٩، ٢٨٥، كلهم من حديث أنس بن مالك ؓ مرفوعا، ولفظه كما عند البخارى : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم =

« أنا سيد الناس يوم القيامة » [١] ، « أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة » [٢] إلى آخر ما جاء عنه فى هذا الشأن .

ومدح عثمان رضي الله عنه نفسه بقوله : ... ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من حفر بئر رومة فله الجنة »، فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : « من جهز جيش العسرة فله الجنة »، فجهزتها ؟ قال : فصدقوه بما قال [٣] .

يقول ابن حجر فى شرح هذا الحديث : « وفيه جواز تحدث الرجل بمناقبه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة، والمكاثرة، والعجب » [٤] .

= تقالوها، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا، فأنا أصلى الليل أبدا، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدا،فجاء رسول الله ﷺ فقال:« أنتم الذين قلتم :كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى:الصحيح:كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ٤/١٦٣، ١٦٤، وكتاب التفسير : باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ٦/١٠٥ ـ ١٠٧، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/١٨٤ ـ ١٨٦ رقم (١٩٤)، وكتاب الفضائل : باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٤/١٧٨٢ رقم (٢٢٧٨)، والترمذى فى:السنن : كتاب صفة القيامة والرقائق والورع :باب ما جاء فى الشفاعة ٤/٥٣٧ ـ ٥٣٩ رقم (٢٤٣٤)، والدارمى فى : السنن: المقدمة :باب ما أعطى النبى ﷺ من الفضل ١/٢٧، ٢٨، وأحمد فى: المسند ١/٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢/٤٣٥، ٤٣٦، ٥٤٠، ٣/٢، ١٤٤، كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا، إلا الدارمى فإنه عنده من رواية أنس بن مالك، وزاد أحمد رواية له من طريق ابن عباس، وأخرى من طريق أنس بن مالك .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ : « أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا » ١/١٨٨ رقم (١٩٦) من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعا بهذا اللفظ، وأخرج نحوه ابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد : باب ذكر الحوض ٢/١٤٣٨ رقم (٤٣٠١) من حديث أبى سعيد الخدرى : أن النبى ﷺ قال : « إن لى حوضا ما بين الكعبة وبيت المقدس، أبيض مثل اللبن، آنيته عدد النجوم، وإنى لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة » إلا أن فى إسناده عطية العوفى وهو ـ كما يقول ابن حجر فى التقريب ٢/٢٤ رقم (٢١٦):صدوق يخطئ كثيرا كان شيعيا مدلسا، يعنى بهذا: أنه ضعيف كما ذكر الشهاب البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/٢٥٩، وأحمد فى : المسند ٢/٣٤١، ٤٥١ من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ : « ما من الأنبياء نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوصايا : باب إذا وقف أرضا أو بئرا واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين ٤/١٥ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه حين حوصر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم، ولا أنشد إلا أصحاب النبى ﷺ ألستم تعلمون : أن رسول الله ﷺ قال : « من حفر رومة فله الجنة »، فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتها ؟ قال : فصدقوه بما قال .

(٤) انظر : فتح البارى ٥/٤٠٨ .

واستأذن أبو موسى الأشعرى على عائشة ﵂ فأذنت له ، فقال لها : يا أماه ، أو يا أم المؤمنين، إنى أريد أن أسألك عن شىء، وإنى استحييك فقالت : لا تستحى أن تسألنى عما كنت سائلا عنه أمك التى ولدتك، فإنما أنا أمك، قلت : فما يوجب الغسل ؟ قالت : على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ : « إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان، فقد وجب الغسل »(١) .

وقال ابن مسعود ﵁ ثقة بنفسه،وتقديراً لها : والله الذى لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »(٢) .

قال ابن حجر تعليقا على كلام ابن مسعود هذا : « وفى الحديث جواز ذكر الإنسان نفسه بما فيه من الفضيلة بقدر الحاجة، ويحمل ما ورد من ذم ذلك على من وقع ذلك منه فخرا أو إعجابا »(٣) .

وهؤلاء المشاهير علماء المسلمين ولاسيما المؤلفون منهم يثقون بأنفسهم فيمدحونها، حتى يقول الواحد منهم عن نفسه : « ما رأيت مثل نفسى » وهكذا .

أما الاحتقار أو الانهزام النفسى أمام نعمة الله وعظمته، فمرغوب فيه محمود، وهو التواضع الذى مدحه الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات] ، ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الحيض : باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين ١/ ٢٧١، ٢٧٢ رقم (٣٤٩) من حديث أبى موسى الأشعرى عن عائشة مرفوعا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب فضائل القرآن : باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ٦/ ٢٣٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﵄ ١٩١٣/٤ رقم (٢٤٦٣) ، كلاهما من حديث مسروق عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه، وقد بين ابن حجر فى : فتح البارى ٩/ ٤٨ بواسطة المنقول سبب قول ابن مسعود هذا، وخلاصته : أنه طلب منه أن يقرأ على قراءة زيد بن ثابت، فقال : « وكيف تأمروننى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من فى رسول الله ﷺ مثله »، واللفظ للبخارى .

(٣) انظر : فتح البارى ٩/ ٥١ .

ومدح النبي ﷺ ذلك في قوله : « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني » [(١)] .

وانطلاقا من دعوة الشارع الحكيم إلى هضم النفس، وأنها لا تساوى شيئا فى جنب عظمة الله، ونعمته، جاءت الأخبار عن السلف بهضم النفس، والتواضع لله، وعدم الترفع على عباده بحال، يقول بكير بن الأشج : إن عبد الله بن سلام خرج من حائط له بحزمة حطب يحملها، فلما أبصره الناس، قالوا : يا أبا يوسف، قد كان ـ يعنى فى ولدك، وعبيدك ـ من يكفيك هذا، قال : أردت أن أجرب قلبى هل ينكر هذا [(٢)] .

ويقول المبارك بن فضالة: إنه سمع الحسين يقول: يا ابن آدم، طأ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قبرك، وأنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك [(٣)] .

وأثر عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) : أن أمراء المماليك الذين اشتراهم الملك نجم الدين أيوب لا زال حكم الرق مستصحبا عليهم لبيت مال المسلمين، وأنه لابد من تصحيح هذا الخطأ الشنيع، وذلك ببيعهم، وشرائهم،ثم عتقهم مرة ثانية. وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة، فغضب عليه لهذا الأمر لما فيه من إهانة بعد أن أصبحوا ذوى مناصب فى الدولة، وقد استدعى نائب السلطنة الشيخ عز الدين فلم يجبه، فانزعج نائب السلطنة لذلك وقصد بيته مع جماعة لقتله، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فأخبر أباه، فما اكترث لذلك ، ولا تغير ، وقال : يا ولدى، أبوك أقل من يقتل فى سبيل الله، وخرج الشيخ وهو مطمئن، فحين وقع بصره على النائب يبست يده ووقع السيف منها، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعوا له، وخضع لرأيه فى البيع، وقال له: ففيم تصرف ثمننا ؟ قال فى مصالح المسلمين، قال: من يقبضه ؟ قال : أنا، فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً فى المزاد العلنى، وغالى فى ثمنهم، وقبضه، وصرفه فى وجوه الخير، ثم أعتقهم بعد ذلك، رحمه الله، ورضى عنه [(٤)] ، وعلى أثرها لقب الشيخ ببائع الملوك .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٦٢ .

(٢) الخبر أورده ابن المبارك فى : كتاب الزهد : باب التواضع ص ٢٨٧ رقم (٨٣٣) من حديث بكير بن الأشج عن عبد الله بن سلام بهذا اللفظ، غير أن فيه ابن لهيعة المصرى، وهو ـ كما يقول ابن حجر فى: التقريب ١/ ٤٤٤ رقم (٥٧٤) : صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما، وله فى مسلم بعض شىء مقرون .

(٣) الخبر أورده ابن المبارك فى : كتاب الزهد : باب التواضع ص ٢٩٢ رقم (٨٥٢) من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن بهذا اللفظ .

(٤) انظر : طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ٨/ ٢١٦ بتصرف كثير، وعنه أوردها رضوان مختار بن غربية فى مقدمته لكتاب : الإمام فى بيان أدلة الأحكام لعز الدين بن عبد السلام ص ٢٦، ٢٧ .

وفحوى هذه القصة : احتقار الشيخ عز الدين نفسه أمام حماية دين الله ومنهجه، وهى من جانب آخر دليل على ما ينبغى أن يكون عليه المسلم من الثقة التامة بالنفس، وعدم احتقارها فى مواجهة المنكر، ومجاهدة الباطل .

ثالثا : أسباب الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وللاحتقار أو الانهزام النفسى أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، وأهم هذه الأسباب، وتلك البواعث :

١ ـ إهمال المرء من التعويد على المسؤولية بل من التشجيع :

فقد يكون إهمال المرء من التعويد على المسئولية، بل من التشجيع من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسى ؛ ذلك أن التعويد على المسئولية، بل التشجيع يمنح المرء ثقة بنفسه، واحتراما وتقديراً لها، بحيث يوقن أنه ليس فى الدنيا ما يكون صعبا، أو بعيد المنال، وحين يهمل المرء من التعويد على المسئولية، ومن التشجيع يوسوس له الشياطين، وتسول له النفس الأمارة بالسوء أنه ما أهمل بهذه الصورة إلا لأنه لا يحسن أو لا يجيد شيئا، فيفقد الثقة بنفسه، بل يأخذ فى احتكارها، ويكون الانهزام النفسى .

ولا جرم أن نشير هنا إلى أننا لا نعنى بالمسئولية القيادة، بقدر ما نعنى بها التكليف بما يوجب التبعة، والمساءلة، وهذا الذى نعنيه من العموم بحيث يشمل الحياتين جميعا الدنيا والآخرة ، فتكليف المرء بالاهتمام ببدنه ، وروحه ، وعقله ، وخلقه ، ودعوة الآخرين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، هذه وغيرها مسئولية .

وكذلك لا نعنى بالتشجيع الثناء أو المدح دون قيود أو ضوابط، بل لابد أن يكون محفوفا بالقيود، والضوابط الشرعية، وأهمها : الخلو من الكذب والمبالغة، وأن يكون مبنيًا على الظن أو التخمين الغالب لا على اليقين والقطع، فذلك مرده إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بأن يقول : أحسب فلانا كذا، والله حسيبه ولا أزكى على الله أحدًا، وخير ما يشهد بصحة هذا السبب حركة التاريخ والواقع :

أما حركة التاريخ : فقد طالعتنا من قديم : أن آباءنا وأجدادنا ولا سيما عرب الجزيرة العربية ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الثقة بالنفس، والعزة والإباء والشمم، تلك التى عرفوا بها قبل الإسلام إلا بالتعويد على المسئولية منذ نعومة أظفارهم بل

والتشجيع المستمر، وجاء الإسلام وأكد على هذا، بل حوله من مجرد أن يكون عادة وعرفا إلى أن يكون شرعة ودينا، فقال الحق ـ سبحانه : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة] ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر] .

وعرفنا من سيرته ﷺ أنه عمل فى صباه فى رعى الغنم، وفى التجارة، وساعد فى تجديد الكعبة، وشارك فى حرب الفجار، وحلف الفضول، وأن هذه الأعمال أسهمت فى إعداده وتهيئته لحمل أمانة الدعوة، والبلاغ، والجهاد بعد ذلك .

وقد أفتى الحنفية بأن للأب أن يؤاجر ابنه الصغير فى عمل من الأعمال . . . من باب النظر ـ أى رعاية المصالح ـ ولأن ذلك من باب التأديب والتهذيب والرياضة، ومثل الأب فى ذلك الوصى، والقاضى [(١)] .

ولعل سندهم فى هذا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : خدمت رسول الله ﷺ يوما، حتى إذا رأيت أنى قد فرغت من خدمتى، قلت: يقيل ـ أى ينام بعد الظهر ـ ويعنى به رسول الله ﷺ فخرجت إلى صبيان يلعبون قال : فجئت أنظر إلى لعبهم، قال : فجاء رسول الله ﷺ فسلم على الصبيان وهم يلعبون، قال : فدعانى رسول الله ﷺ فبعثنى إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله ﷺ فى فىء ـ أى ظل ـ حتى أتيته ، واحتبست عن أمى عن الإتيان الذى كنت آتيها فيه ، فلما أتيتها قالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثنى رسول الله ﷺ فى حاجة له، قالت : وما هى ؟ قلت : هو سر، قالت : فاحفظ على رسول الله ﷺ سره ، قال ثابت ـ راوى الحديث عن أنس : قال لى أنس : لو حدثت به أحدًا من الناس ـ أو لو كنت محدثا به ـ لحدثتك به يا ثابت [(٢)] .

وأما الواقع : فهو ما نرى وما نشاهد من أن أبناء البادية والقرى غالبا ما يكونون أكثر ثقة بأنفسهم من أبناء المدينة أو الحاضرة ؛ نظرا لأن قسوة البادية والقرية أوجبت عليهم أن يدربوا على المسئولية فى حال الصبا، والأولاد فى الغرب الآن يوضعون على المحك، وهم لا يزالون صغارا حتى إذا ماشبوا كان منهم القادة، والمبتكرون،

---

(١) انظر : بدائع الصنائع للكاسانى ٤/١٧٨، ١٧٩ بتصرف .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ٤/١٩٢٩ رقم (٢٤٨٢)، وأحمد فى : المسند ٣/١٠٩، ١٧٤، ١٩٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٥، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، واللفظ لأحمد فى إحدى رواياته .

والمخترعون، وهكذا فإن التعويد على المسئولية بل التشجيع يولد الثقة بالنفس، وإهمال ذلك ينشأ عنه الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٢ ـ انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام :

وقد يكون انتقاص الآخرين وتحقيرهم للمرء على الدوام من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ ذلك أن المرء إذا رأى كل من حوله لا يستحسنون منه شيئا، بل يلاحقونه على الدوام بالانتقاص، والاحتقار، والفشل، فإنه غالبا ما يتأثر بذلك، لا سيما إذا كان فى المراحل الأولى من حياته أو كان مكلفا بالأمر لأول مرة، وتكون العاقبة أن يصاب بالإحباط، والاحتقار أو الانهزام النفسى .

ولعل هذا من بين الأسرار التى من أجلها نهى الشارع الحكيم أن يحقر المسلم أخاه المسلم أو ينال منه بحال، إذ يقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . . . » الحديث [(١)] .

٣ ـ العيش فى وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس :

وقد يكون عيش المرء فى وسط معروف بالانهزام واحتقار النفس من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار، والانهزام النفسى، أعم من أن يكون هذا الوسط قريبا وهو البيت، أو بعيدًا وهو المجتمع، ذلك أن المرء شديد التأثر بالوسط الذى يعيش فيه، وعليه فإذا كان هذا الوسط محتقرًا لنفسه أو منهزما أمامها سرت عداوة إلى الآخرين، وأصيبوا هم كذلك بالاحتقار والانهزام النفسى، وقد نبهنا غير مرة فى هذه الآفات إلى ضرورة طهارة ونظافة الوسط الذى يعيش فيه المرء ليسلم من شره، بل ليتداوى إن كانت عدوى الأوساط العفنة قد سرت إليه، وأفسدته .

٤ ـ تمكن حب الدنيا من القلوب :

وقد يكون تمكن حب الدنيا من القلوب من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

الانهزام النفسى، ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على الوقوع فى المعاصى والسيئات لا محالة ، وأقل هذه المعاصى وتلك السيئات ، الشح أو البخل بهذه الدنيا .

وحين يقع المرء فى المعاصى والسيئات على الدوام يسود قلبه، ويصير عليه ران، وربما انتهت الحال إلى قفل هذا القلب، بل الختم عليه والعياذ بالله، ويظهر أثر ذلك فى أمور كثيرة أهمها : القلق، والخوف، والاضطراب النفسى، وكذلك الاحتقار والانهزام النفسى . وواقع العصاة اليوم خير ما يشهد بذلك، ولهذا حذر الشارع الحكيم من الوقوع فى المعاصى والسيئات، وأرشد من وقع فى المعاصى والسيئات ـ لسبب أو لآخر ـ أن يبادر بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله .

فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة] . ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء] . ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر] . ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء] . ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن] . ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر] .

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهوكفارة له، ومن أصاب

من ذلك شيئا ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه »، فبايعناه على ذلك [١] .

٥ ـ دوام إخفاق المرء وفشله في كل ما يقصد :

وقد يكون دوام إخفاق المرء وفشله في كل ما يقصد من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسي ؛ ذلك أن للنجاح والتوفيق سننا لابد من رعايتها، وحين تهمل أو تهدر هذه السنن كلا يكون دوام الإخفاق والفشل، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وحين يرى المرء نفسه في إخفاق وفشل على الدوام يسقط في يده، وربما انتهى به ذلك إلى احتقار نفسه، وهزيمته أمامها، وخير ما يشهد بذلك واقعنا نحن المسلمين اليوم في صراعنا مع أعدائنا . ومن أجل حماية المسلم من أن تنتهي به الأمور إلى هذا الاحتقار وذلك الانهزام النفسي جاءت دعوة الشارع الحكيم إلى ضرورة الإعداد، والإتقان، والحذر أو أخذ الأهبة والاستعداد في الأمور البسيطة قبل المركبة، والسهلة قبل الصعبة .

قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ [الأنفال] . ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [البقرة] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) ﴾ [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح :كتاب الإيمان : باب (١١) ١/ ١١، وكتاب مناقب الأنصار : باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، وبيعة العقبة ٥/ ٧٠، وكتاب الحدود : باب الحدود كفارة، وباب توبة السارق ٨/ ١٩٨، ٢٠١، وكتاب الأحكام : باب بيعة النساء ٩/ ٩٩، وكتاب التوحيد : باب في المشيئة والإرادة ٩/ ١٦٩، ومسلم في: الصحيح: كتاب الحدود : باب الحدود كفارات لأهلها ٣/ ١٣٣٣، ١٣٣٤ رقم (١٧٠٩)، والنسائي في : السنن الكبرى : كتاب البيعة : باب البيعة على ترك عصيان الإمام ٤/ ٤٢٤، ٤٢٥ رقم (٧٧٨٤، ٧٧٨٥) : وباب البيعة على فراق المشرك ٤/ ٤٢٨ رقم (٧٨٠١) : وباب ثواب من وفى بما عاهد عليه ٤/ ٤٣٥ رقم (٧٨٣٥)، وكتاب الإيمان وشرائعه: باب البيعة على الإسلام ٦/ ٥٣١ رقم (١١٧٣٣)، والنسائي في : السنن : كتاب البيعة : باب البيعة على الجهاد ٧/ ١٤١، ١٤٢ رقم (٤١٦١) : وباب البيعة على فراق المشرك ٧/ ١٤٧، ١٤٨ رقم (٤١٧٨)، وكتاب الإيمان :باب البيعة على الإسلام ٨/ ١٠٨، ١٠٩ رقم (٥٠٠٢)، كلهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وقال ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ... » الحديث [(١)] . « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » [(٢)] .

٦ ـ منافسة ذوى الجد بالقول دون العمل :

وقد تكون منافسة ذوى الجد بالقول دون العمل من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار أو الانهزام النفسى، ذلك أن الحياة دنيوية كانت أو أخروية إنما تبنى أساسا على المنافسة والمسابقة، وقد يكون أحد الطرفين جادا يأخذ الأمور بحزم وعزم وقوة، وينتفع بكل مالديه من طاقات وإمكانات، ولا تضيع منه لحظة واحدة هباء أو بددا، ويكون الآخر لاهيا لاعبا لاهم له سوى الكلام والقول أما العمل فهو بمعزل عنه تماما، وبمرور الزمان يجد هذا الأخير نفسه أمام الأول عدما أو فى حكم العدم، وحينئذ لا يملك إلا أن يكون فريسة للاحتقار أو الانهزام النفسى .

ولعل واقعنا نحن المسلمين اليوم أمام واقع أعدائنا خير ما يشهد بصحة ما نقول، إذ عمل هؤلاء وما زالوا يعملون بالليل والنهار، منتفعين بكل ما منحهم الله من طاقات وإمكانات ومواهب، وقعدنا نحن المسلمين، بل غرقنا فى اللهو واللعب حتى سبقونا وتقدموا علينا، بل وأمسكوا بخناقنا، وضيقوا الخناق حول أعناقنا، ولما انتبهنا وأفقنا وأدركنا حقيقة هذا الواقع الأليم المرير واجهناه بالقول دون العمل، وحينئذ لم نستطع السباق أو اللحاق، وصرنا فريسة الاحتقار والانهزام النفسى، وقد جاء عن على رضي الله عنه خبر فيه راو مجهول إلا أن معناه صحيح موافق لضرورة مواجهة الأعداء بالعمل لا بالقول، وإلا ركب أعناقنا هؤلاء، وكان الاحتلال أو ما يعرف الآن بالاستعمار .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الصيد والذبائح : باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ١٥٤٨/٣ رقم (١٩٥٥)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأضاحى: باب فى النهى أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة ١٠٠/٣ رقم (٢٨١٥)، والترمذى فى: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فى النهى عن المثلة ١٦/٤ رقم (١٤٠٩) وعقب عليه الترمذى بقوه : « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الذبائح : باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ١٠٥٨/٢ رقم (٣١٧٠)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب الضحايا : باب الأمر بإحداد الشفرة ٦٢/٣، ٦٣ رقم (٤٤٩٤) : وباب حسن الذبح ٦٤/٣، ٦٥ رقم (٤٥٠١ ـ ٤٥٠٣)، والنسائى فى : السنن : كتاب الضحايا : باب الأمر بإحداد الشفرة ٢٢٧/٧ رقم (٤٤٠٥) : وباب ذكر المنفلتة التى لا يقدر على أخذها ٢٢٩/٧ رقم (٤٤١١) : وباب حسن الذبح ٢٢٩/٧، ٢٣٠ رقم (٤٤١٢ ـ ٤٤١٤) والدارمى فى : السنن : كتاب الأضاحى : باب فى حسن الذبيحة ٨٢/٢، كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعا .

(٢) الحديث أورده الألبانى ومعه سبب وروده فى : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٠٦/٣، ١٠٧ رقم (١١١٣) نقلا عن: مجمع الزوائد وأورد له شواهد يرتقى بها إلى درجة القبول .

إذ أخرج ابن أبى شيبة فى : المصنف من حديث الأعمش عن شهر، عن رجل قال : « كنت عريفـا فى زمن على، فأمرنا بأمر فقال : أفعلتم ما أمرتكم ؟ قلنا : لا، قال : والله لتفعلن ما تؤمرون به، أو لتركبن أعناقكم اليهود والنصارى » (١) .

٧ ـ الكبت أو الاستبداد والقهر :

وقد يكون الكبت أو الاستبداد والقهر من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار والانهزام النفسى، ذلك أن المرء إذا حيل بينه وبين التعبير عما بداخله، وفرض عليه على سبيل الاستبداد والقهر ما لا يقره ولا يرضاه، واستمرت الحال هكذا دون انفراج أو تنفيس أصابه اليأس والقنوط ثم الإحباط والاحتقار والانهزام النفسى .

ومن أجل الوقاية من الوقوع فى ذلك منع الشارع الحكيم القهر، فلا إكراه فى الدين، ولا إكراه فى تزويج المرأة، ولا إمامة لحاكم أو أمير، أو ذى سلطان إلا بمشورة وبيعة . . . وهكذا .

قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية : أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت له، فرد نكاحها (٢) .

٨ ـ عدم الثقة بالله وبمنهجه :

وقد يكون عدم الثقة بالله وبمنهجه، من بين الأسباب التى توقع فى الاحتقار والانهزام النفسى، ذلك أنه سبحانه ذو الكمال والجلال، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقد امتن على عباده بمنهاج معصوم فيه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [يونس] .

---

(١) انظر : كتاب الفتن ٥/١٢٦ رقم (١٩١٠٣)، وعنه نقل علاء الدين الهندى فى : كنز العمال ٥/ ٧٨٠ رقم (١٤٣٦٧) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب النكاح: باب إذا زوج ابنته وهى كارهة ٧/٢٣، وأبو داود فى: السنن: كتاب النكاح: باب فى الثيب ٢/ ٢٣٣ رقم (٢١٠١)، والنسائى فى: السنن: كتاب النكاح: باب الثيب يزوجها أبوها وهى كارهة ٦/٨٦ رقم (٣٢٦٨)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب من زوج ابنته وهى كارهة ١/٦٠٢ رقم (١٨٧٣)، كلهم من حديث الخنساء بنت خذام الأنصارية مرفوعا، واللفظ لأبى داود .

ووعد بإعلاء شأن هذا المنهج، والتمكين له فى العالمين، فقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] . ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] .

وطلب سبحانه منهم أن يصدقوا ذلك تصديقا لا شك فيه ولا ريب أبدًا ، فقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن] .

ومن شك فى الله وفى منهجه، ولم يثق بهما وكله الله إلى نفسه بحيث يبقى وحيدًا أمام حزب الشيطان، وحينئذ لا يسعه إلا أن ينهار وأن ينهزم نفسيا، وربما انقلب فصار من حزب هؤلاء الخاسرين .

٩ ـ عدم إدراك نعمة الله فى النفس وفى الكون :

وقد يكون عدم إدراك نعمة الله فى النفس وفى الكون، من بين الأسباب التى توقع فى الاحتقار والانهزام النفسى ؛ ذلك أن الله قد امتن علينا فى أنفسنا بنعم لا تعد ولا تحصى من السمع، والبصر، والفؤاد، واعتدال القامة، والأيدى، والأرجل، واللسان، والشفتين، ومن الأعضاء الداخلية ما لا يعلمه إلا هو، كما امتن علينا بمثلها فى الكون المحيط بنا من الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم،والشجر والدواب، والأنهار والبحار والهواء، والأرض والسماء، وهلم جرا فقال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل] . ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل] . ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] . ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠]. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤، النحل : ١٨] .

ومن غفل عن هذه النعم، أو لم يدركها إدراكا حقيقيا، ورأى انتفاع الأعداد واستثمارهم لها، فإنه يصاب لا محالة باليأس والإحباط أو الانهزام النفسى .

١٠ ـ الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وقد تكون الغفلة عن العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى من بين الأسباب المؤدية إلى الوقوع فى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ إذ من غفل عن العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر ما، وقع فى هذا الأمر لا محالة، ومن أجل هذا جاءت طائفة كبيرة من المنهيات والمحظورات مقرونة بعواقبها وآثارها، كى يخاف الناس، ويحذروا، بل ويتجنبوا الوقوع فى هذه المنهيات، وتلك المحظورات .

١١ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة :

وقد يكون الوقوع فى المعاصى والسيئات مع الإصرار وإهمال التوبة من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار أو الانهزام النفسى ؛ ذلك أن للمعصية مع الإصرار عليها وإهمال التوبة عواقب ضارة فى الدنيا والآخرة .

ولعل من أبرز العواقب الدنيوية الابتلاء بالاحتقار أو الانهزام النفسى، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] . ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج] .

١٢ ـ قياس واقع الأعداء اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا :

وقد يكون قياس واقع الأعداء واقع اليوم بحاضرنا مع الغفلة عن ماضينا من بين الأسباب المؤدية إلى الاحتقار، والانهزام النفسى ؛ ذلك أن واقع الأعداء اليوم بالقياس إلى حاضرنا ينطق بأنهم يتربعون على عرش البشرية، ويوجهونها كما يريدون، وأننا لا نعدو أن نكون ذيولا أوأذنابا لهم، ولكن هذا الواقع يتغير، ولا يتجاوز أن يكون صفرا بالإضافة إلى ماضينا المشرق الزاهر الذى يصوره الشاعر بقوله :

ملكنا هـذه الدنيـا قرونـا ... وأخضعها جـدود خـالدونـا
وسـطرنا صحـائف مـن ضيـاء ... فما نسي الزمـان ولا نسينـا
حملناها سيوفـا لامعـات ... غداة الـروع تأبـى أن تلينـا
إذا خـرجت من الأغمـاد يومـا ... رأيت الهـول والفتـح المبينـا
وكـنـا حـين يرميـنـا أنـاس ... نؤدبـهم أبـاة قادريـنـا
وكنا حـين يأخذنـا ولـى ... بطغيـان نـدوس له الجبينـا

تفيض قلوبنـــا بالـهـــدى بأسا فما نغضى عـن الظلـم الجفونا
بنينا حقبـــة فـــى الأرض ملـــكا يدعمـــه شبـــاب طامحـــــونا
شباب ذللـــوا سبل المعــــالى ومـــا عرفـــوا سـوى الإسلام دينا
تعهدهــــم فأنبتهـــم نباتـــــا كريمـا طاب فى الدنيـــا غصـــونا
هم وردوا الحيـــاض مباركـــات فسالت عندهـــم مــــاء معينـــا
إذا شـــهدوا الوغـــى كانوا كماة يدكـــون المعاقـــل والحصـــونا
وإن جـــن المساء فلا تــراهـــم مـــن الإشفـــاق إلا ساجـــدينا
شباب لـــم تحطمــــه الليالــى ولـم يسلم إلى الخصـم العرينا
ولم تشهدهـــم الأقـــداح يوما وقـــد ملأوا نواديهـــم مجـــونا
عرفـــوا الأغـــــانى مائعـــات ولكن العـــلا صنعـــت لحـــونا
وقد دانـــــوا بأعظمهم نضـــالا وعلمـــا ، لا بأجرثهـــم عيـونا
فيتحـــدون أخلاقـــا عـــــذابا ويأتلفـــون مجتمعـــا رزينـــا
فما عـــرف الخلاعة فى بنـــات ولا عـــرف التخنـث في بنيـــنا
ولم يتشدقـــوا بقشور عـــلـــم ولـــم يتقيـــوا فـــى الملحـــدينا
ولم يتبجحوا فى كـــل أمـــــر خطيـــر ، كــــى يقـــال مثقفونا
كذلك أخـــرج الإسلام قومـــى شبابًا مخلصـــًا حـــــرًا أمينـــا
وعلمه الكرامـــــة كيف تبنـــى فيأبى أن يقـــيد أو يـــهـــونا [1]

رابعًا : آثار الاحتقار أو الانهزام النفسى:

وللاحتقار أو الانهزام النفسى آثار ضارة وعواقب مهلكة، سواء على العاملين، أو على العمل الإسلامى :

أ ـ على العاملين :

أما على العاملين فكثيرة، وأهمها :

١ ـ مداهنة بل الارتماء فى أحضان الظالمين :

ذلك أن من ابتلى بالاحتقار أو الانهزام النفسى يتصور أن الظالمين والجبارين بمقدورهم أن يعملوا له شيئا، فيداهنهم بل ويرتمى فى أحضانهم، على نحو ما نشهده

(١) أبيات مختارة من قصيدة « شباب الإسلام » للشاعر : هاشم الرفاعى، ديوانه ص ٣٨٣، ٣٨٤ وقد ألقاها فى ندوة أقيمت بجمعية الشبان المسلمين بمصر مساء التاسع من فبراير سنة تسع وخمسين لمناقشة انحراف الشباب، وأبان فى هذه القصيدة عن : « خصائص شباب الإسلام » .

فى عالم المسلمين اليوم من مداهنة وانحناء قيادات، وتمريغها لوجهها وأنفها فى التراب لا لشىء إلا الخوف والرجاء من هؤلاء الظالمين المتجبرين، وأولئك فى حقيقة الحال لايملكون لأنفسهم ضراً ولانفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلا عن أن يملكوا ذلك لغيرهم من الخلق .

٢ ـ الغزو فى النفس ، وفى الحرمات :

ذلك أن الاحتقار أو الانهزام النفسى يفتح الطريق أمام الماكرين والمتربصين لغزو هؤلاء المحتقرين أو المنهزمين نفسيا، فى أنفسهم وفى حرماتهم، ومقدساتهم من دين، ونسل، وعرض، ومال، وأوطان، على نحو ما يصنعه أعداؤنا بنا اليوم فى فلسطين، وفى غيرها من كل بقاع العالم، وإذا غزى الإنسان فى نفسه، وفى حرماته فماذا بقى له، وما قيمة الحياة بعد ذلك ؟

٣ ـ زيادة الرصيد من الإثم :

وذلك أنه باحتقاره أو انهزامه نفسيا قد فتح الباب أمام كثيرين ممن لديهم استعداد للوقوع فى مثل هذه الآفة كى يحاكوه، ويصنعوا مثله لا سيما إذا كان هو فى موقع الأسوة والقدوة ويتحمل هو إثم هؤلاء جميعا انطلاقا من قولهﷺ : « . . . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[1] .

٤ ـ الخسران المبين فى الآخرة ما بقى الإصرار ولم تكن توبة :

إذ هو بتضييعه لنفسه ولغيره، قد حمل وزرًا وإثمًا عظيمًا ويلقى ربه بهذا كله، ولا إقلاع ولا توبة فتكون النار والعياذ بالله، وهذا هو الخسران المبين حقا، إلا أن تتداركه رحمة الله، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما على العمل الإسلامى فكثيرة أيضا، وأهمها :

١ ـ قلة كسب الأنصار والمؤيدين :

ذلك أن الناس يتأثرون ويقتدون بالأقوياء الواثقين من أنفسهم وبربهم ومنهاجهم، أما المحتقرون أو المنهزمون نفسيا فإن الناس لا يأبهون بهم، ولا يستجيبون لهم، وبذلك يقل حجم الأنصار والمؤيدين .

---

(١) سبق تخريجه .

٢ ـ الفرقة والتمزق :

إذ وجود الاحتقار أو الانهزام النفسى فى داخل الصف يحدث انقساما فى هذا الصف ما بين مؤيد نصير وظهير، وما بين معارض منكر وبعيد، الأمر الذى يفتح الباب أمام المتربصين من أعداء الله للولوج، والإطباق والتطويق .

٣ ـ كثرة التكاليف وطول الطريق :

وهذا شىء بدهى ونتيجة حتمية طبيعية لقلة كسب الأنصار والمؤيدين، ولشيوع الفرقة والتمزق .

خامسا : علاج الاحتقار أو الانهزام النفسى :

وفى ضوء ما قدمنا من أسباب وبواعث للاحتقار أو الانهزام النفسى، يمكن وصف العلاج بل الوقاية، وذلك على هذا النحو :

١ ـ شغل أوقات الفراغ، والقضاء على البطالة بكل ما هو نافع ومفيد، وميادين الحياة باتساعها وتنوعها تجعل لكل واحد فى الناس وظيفة وعملا، ومن لا يصلح لهذا العمل يصلح لذاك، وهكذا كانت سيرته ﷺ مع أصحابه، لا يدعهم فى بطالة أو فارغين من العمل، ويحرص أن يكون كل واحد فى العمل الذى يتناسب مع جهده، وطاقاته، وإمكاناته، وبهذا حماهم من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٢ ـ تجنب انتقاص الآخرين، وتحقيرهم ما أمكن، كى نغلق الباب بذلك فى وجه من يسولون أو يزينون للمرء الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٣ ـ الانسلاخ من الوسط المعروف بالاحتقار والانهزام النفسى، ثم الارتماء بين الوسط المعروف بالقوة، والشجاعة، والثقة بالله، وبمنهجه، وبرسوله، وبالنفس، فإن ذلك من شأنه، أن يعين على التخلص، بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٤ ـ العمل بكل وسيلة ممكنة على إخراج حب الدنيا من القلوب ولا بأس أن تصير هذه الدنيا فى اليد، ما دامت من حلال، وما دامت بعزة نفس، وبغير تكالب، وما دام تعاطيها وسطا بين الإسراف والتقتير، ولا يضيع حق الله فيها، فإن المرء إذا نجح مع نفسه فى هذا الباب، سهل عليه التخلص بل الوقاية من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٥ ـ مواجهة من يعملون على إضعافنا والنيل منا، بالعمل الدؤوب مع الإتقان والجد تجنبا للفشل والإخفاق من ناحية، ومقابلة للوسيلة العملية المتقنة عند هؤلاء بمثلها من ناحية أخرى .

٦ ـ منح الناس حقهم فى التعبير عن آرائهم، وعما بداخلهم، وتقديم ذلك على الطعام، والشراب، واللباس، والسكن، فإن هذا من شأنه أن يقضى على الاحتقار أو الانهزام النفسى، وربما أسهم فى غرس الثقة فى النفوس من جديد، وما ذلك على الله بعزيز .

٧ ـ التعرف عن قرب على الله، وعلى رسوله، وعلى منهجه، بدوام النظر فى آيات الله المنظورة، والمسطورة، فإن هذا من شأنه أن يزرع الثقة فى النفوس، بعد أن يخلصها من الاحتقار أو الانهزام النفسى .

٨ ـ استشعار نعمة الله فى الكون، وفى النفس الظاهر منها والباطن، الدقيق منها والجليل، والقرآن الكريم يقودنا عمليا إلى ما ينبغى أن نستشعره ونبصره من هذه النعم، بل يقودنا إلى الثمرة المرجوة من وراء ذلك، وهى معرفة الله، والثقة به، وبمنهجه، والنزول على حكم هذا المنهج فى كل شىء عن طواعية ورضا .

٩ـ الاحتراز من المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، مع الحرص على الإنابة، والتوبة عند اقتراف شىء منها، فإن هذا من شأنه أن يطهر النفس، ويزكيها، ويمنحها الثقة والقوة .

١٠ ـ دوام النظر فى قصص النبيين، وخاتمهم محمد ﷺ وأتباعهم من الدعاة والمجاهدين، وحسبنا قصة موسى عليه السلام حين خرج من مصر ومعه قومه من بنى إسرائيل وتبعهم فرعون وقومه وبوغتوا بالبحر، وأصبحوا محصورين بين البحر، وبين العدو، حتى قال قائلهم : إنا لمدركون، ولكن موسى بقى قويا ثابتا بتثبيت الله له، معلنا أن الله لن يتركه، ولن يتخلى عنه لحظة واحدة، وصدق الله ما أعلنه حين قال: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦) ﴾. وبقيت محلا للعظة والعبرة إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ [الشعراء] .

وحسبنا أيضا موقفه ﷺ يوم الهجرة حين قال الصديق : يا نبى الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا . فرد عليه قائلا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا ، وصدق الله ذلك فى قوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة] .

وموقفه كذلك من سراقة بن مالك يوم الهجرة حين قال له : « هل لك أن تكتم عنى، وأعدك سوارى كسرى وقيصر؟ » .

وقديما لما قدم ربعى بن عامر فى بساطته - لباسا ومركبا - على الفرس يريد الدخول على رستم، حين طلب رجلا يعرف منه ماذا يريد المسلمون، دخل فى سلاحه يدوس بفرسه البسط إلى أن انتهى إلى آخرها ونزل عنها وربطها بوسادتين، وأراد الدخول على رستم، فقالوا له : ضع سلاحك، فقال - فى عزة وإباء - : إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم، أنتم دعوتمونى، فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد، وإلا رجعت، فأخبروا رستم، فقال : ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد ؟

فأقبل يتوكأ على رمحه حتى خرق النمارق والبسط، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا : ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه، فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضى إلى موعود الله، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى، فقال رستم : لقد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه، وتنظروا ؟ قال : نعم، كم أحب إليكم ؟ يوما، أو يومين، قال : لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا، ورؤساء قومنا، فقال : ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر فى أمرك، وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل .

فقال رستم : أسيدهم أنت ؟ قال : لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شىء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه ؟

فقال : ويلكم، لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأى، والكلام، والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمآكل، ويصونون الأحساب [1] .

---

(1) انظر : حياة الصحابة للكاندهلوى ١/ ٢٢٠، ٢٢١، ٣/ ٦٨٨ - ٦٩٠ نقلا عن ابن جرير بتصرف كثير .

وما كان ربعى بن عامر فريدا فى هذه العزة والقوة النفسية، بل كان كل الصحابة هكذا، وتوارثها المسلمون كابرا عن كابر، حتى كانت عصور الضعف والانحطاط، فتغيرت الصورة، وتبدل الموقف، وجاءت الحركة الإسلامية، وإذا العزة تبعث من جديد، وإذ القوة النفسية هى الأصل والأساس فى الانتماء لهذه الحركة .

جاء في مذكرات الدعوة والداعية قول واضعها، ومشيد أركانها : تحت عنوان : «نماذج من تصرفات الرعيل الأول » :

(كان هؤلاء الإخوة مثلا رائعًا، ونماذج طيبة من التمسك بأحكام الإسلام الحنيف فى كل تصرفاتهم، والتأثر بأخلاقه، ومشاعره فيما يصدر عنهم، من قول أو عمل، سواء أكان ذلك مع أنفسهم، أم مع غيرهم من الناس، استدعى المسيو سولنت باشمهندس القنال ـ يعنى قناة السويس بمصر ـ ورئيس قسم السكسيكون : الأخ حافظ عبد الحميد ـ أحد الستة الأول الذين كانوا نواة الحركة الإسلامية فى مصر ـ فى ذى القعدة (١٣٤٧ هـ مارس ١٩٢٨) ليصلح له بعض أدوات النجارة في منزله، وسأله عما يطلب من أجر، فقال: ١٣٠ قرشا (بالعملة المصرية) ، فقال المسيو سولنت ـ بالعربى : أنت حرامى، فتمالك الأخ نفسه، وقال له بكل هدوء : ولماذا ؟ فقال : لأنك تأخذ أكثر من حقك، فقال له : لن آخذ منك شيئا، ومع ذلك، فإنك تستطيع أن تسأل أحد المهندسين من مرؤوسيك، فإن رأى أننى طلبت منك أكثر من القدر المناسب فإن عقوبتى أن أقوم بالعمل مجانا، وإن رأى أننى طلبت ما يصح أن أطلب فأسامحك فى الزيادة .

واستدعى الرجل فعلا مهندسا، وسأله، فقدر أن العمل يستوجب ٢٠٠ قرش، فعرفه المسيو سولنت، وأمر الأخ حافظ أن يبتدئ العمل، فقال له : سأفعل، ولكنك أهنتنى، فعليك أن تعتذر، وأن تسحب كلمتك، فاستشاط الرجل غضبا، وغلبه الطابع الفرنسى الحاد، وأخذته العزة بالإثم، وقال : تريد أن أعتذر لك، ومن أنت ؟ لو كان الملك فؤاد نفسه ـ يقصد حاكم مصر آنذاك ـ ما اعتذرت له، فقال حافظ على هدوء أيضا : وهذه غلطة أخرى يا مسيو سولنت، فأنت فى بلد الملك فؤاد، وكان أدب الضيافة وعرفان الجميل يفرضان عليك ألا تقول مثل هذا الكلام، وأنا لا أسمح لك أن تذكر اسمه إلا بكل أدب واحترام .

فتركه، وأخذ يتمشى فى البهو الفسيح، ويداه فى جيب بنطلونه، ووضع حافظ عدته، وجلس على كرسى، واتكأ على منضدة، وسادت فترة هدوء لا يتخللها إلا وقع أقدام المسيو الثائر الحائر، وبعد قليل، تقدم من حافظ، وقال له : افرض أننى لم أعتذر إليك فماذا تفعل ؟ فقال : الأمر هين، سأكتب تقريرا إلى قنصلكم هنا، وإلى سفارتكم

أولا، ثم إلى مجلس إدارة قناة السويس بباريس، ثم الجرائد الفرنسية المحلية والأجنبية، ثم أتراقب كل قادم من أعضاء هذا المجلس، فأشكوك إليه، فإذا لم أصل إلى حقى بعد ذلك، استطعت أن أهينك فى الشارع، وعلى ملأ من الناس، وأكون بذلك قد وصلت إلى ما أريد، ولا تنتظر أن أشكوك إلى الحكومة المصرية التى قيدتموها بسلاسل الامتيازات الأجنبية الظالمة، ولكنى لن أهدأ حتى أصل إلى حقى بأى طريق .

فقال الرجل : يظهر أننى أتكلم مع « أفوكاتو ـ أى محام ـ لانجار » .

ألا تعلم أنني كبير المهندسين فى قناة السويس، فكيف تتصور أن أعتذر لك ؟ فقال حافظ : وألا تعلم أن قناة السويس فى وطنى، لا فى وطنك، وأن مدة استيلائكم عليها مؤقتة، وستنتهى، ثم تعود إلينا، فتكون أنت وأمثالك موظفين عندنا، فكيف تتصور أن أدع حقى لك ؟ وانصرف الرجل إلى مشيته الأولى .

وبعد فترة عاد مرة ثانية، وعلى وجهه أمارات الثائر، وطرق المنضدة بيده فى عنف مرات، وهو يقول : أعتذر يا حافظ سحبت كلمتى، فقام الأخ حافظ بكل هدوء، وقال: متشكر يا مسيو سولنت، وزاول عمله حتى أتمه .

وبعد الانتهاء أعطاه المسيو سولنت ١٥٠ قرشا، فأخذ منها ١٣٠ قرشا ورد له العشرين، فقال له : خذها بقشيشا ـ أى إكراما ـ فقال : لا، لا، حتى لا آخذ أكثر من حقى، فأكون « حرامى »، فدهش الرجل، وقال : إنى مستغرب لماذا لا يكون الصناع أولاد العرب مثلك ؟ أنت : « فاميلى محمد ».

فقال حافظ : يا مسيو سولنت، كل المسلمين « فاميلى محمد » ولكن الكثير منهم عاشروا الخواجات، وقلدوهم ففسدت أخلاقهم، فلم يرد الرجل بأكثر من أن مد يده مصافحا، قائلا : متشكر، متشكر، كتر خيرك، وفيها الإذن بالانصراف) [١] .

وقال تحت عنوان: « الدعوة في جباسات البلاح » : «اتصل بعض عمال الجباسات الفضلاء بالإخوان بالإسماعيلية، فنقلوا عنه الفكرة إلى إخوانهم، ودعيت إلى زيارة الجباسات، وهناك بايعت الإخوان على الدعوة، فكانت هذه البيعة نواة الفكر فى هذا المكان النائى .

وبعد قليل طلب العمال إلى الشركة أن تبنى لهم مسجداً، إذ كان عددهم أكثر من ثلاثمائة عامل، وفعلا استجابت الشركة لمطلبهم، وبنى المسجد وطلبت الشركة من الجماعة بالإسماعيلية انتداب أخ من العلماء يقوم بالأمانة والتدريس .

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ٧٨، ٧٩ .

فانتدب لهذه المهمة فضيلة الأخ المفضال الأستاذ محمد فرغلى ـ المدرس بمعهد حراء آنذاك (أحد الذين أعدمتهم ثورة يوليو المباركة فى مصر عام ١٩٥٤ م بعد حادثة المنشية الملفقة) .

وصل الأستاذ فرغلى إلى البلاح، و تسلم المسجد، وأعد له سكنا خاص بجواره، ووصل روحه القوى المؤثر بأرواح هؤلاء العمال الطيبين، فلم تمض عدة أسابيع وجيزة حتى ارتفع مستواهم الفكرى، والنفسانى، والاجتماعى ارتفاعًا عجيبًا .

لقد أدركوا قيمة أنفسهم، وعرفوا سمو وظيفتهم فى الحياة، وقدروا فضل إنسانيتهم، فنزع من قلوبهم الخوف، والذل، والضعف، والوهن، واعتزوا بالإيمان بالله، وبإدراك وظيفتهم الإنسانية فى هذه الحياة، خلافة الله فى أرضه ـ فجدوا فى عملهم اقتداء بقول الرسولﷺ: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

ثم عفوا عما ليس لهم، فلم تأسرهم المطامع التافهة، ولم تقيدهم الشهوات الحقيرة، وصار أحدهم يقف أمام رئيسه عالى الرأس فى أدب، شامخ الأنف فى وقار، يحدثه فى حجة ومنطق، لا يقول ولا يقبل منه كلمة نابية، أو لفظة جافية، أو مظهرًا من مظاهر التحقير، والاستصغار، كما كان شأنهم من قبل .

وتجمعوا على الأخوة، واتحدوا على الحب، والجد والأمانة، ويظهر أن هذه السياسة لم تعجب الرؤساء، وقرروا أنه إذا استمر الحال على ذلك ستكون السلطة كلها لهذا الشيخ، ولن يستطيع أحد بعد ذلك أن يكبح جماحه، وجماح العمال .

ظن الرؤساء هذا فى الشركة، وفكروا فى إقصاء هذا الشيخ القوى الشكيمة عن العمل، وأرسل إليه الرئيس المباشر، فلما توجه إليه قال له : إن المدير أخبرنى بأن الشركة قد استغنت عن خدماتك، وأنها تفكر فى انتداب أحد العمال للقيام بعملكم فى المسجد، وهذا حسابكم إلى اليوم حسب أمر المدير .

فكان جواب الشيخ له بكل هدوء : ما كنت أظن يا مسيو فرانسوا أننى موظف بشركة جباسات البلاح، ولو كنت أعلم هذا ما قبلت العمل معها، ولكنى أعلم أننى موظف من قبل الإخوان المسلمين بالإسماعيلية، وأتقاضى مرتبى منهم محولا عليكم، وأنا متعاقد معهم لا معكم على هذا الوضع، وأنا لا أقبل منك مرتبًا، ولا حسابا، ولا أترك عملى فى المسجد، ولا بالقوة، إلا إذا أمرنى بذلك رئيس الجمعية التى انتدبتنى هنا، وهو أمامكم فى الإسماعيلية، فاتفقوا معه كما تريدون، واستأذن، وانصرف،

وسقط فى يد إدارة الشركة، وصبرت أياما، لعل الشيخ يطلب منها مرتبه، ولكنه كان قد اتصل بى فى الإسماعيلية، فأوصيته بالتمسك بموقفه، وألا يدع مكانه بحال، وحجته معقوله، ولا شيء لهم عنده .

لجأت الشركة إلى الإدارة، واتصل مديرها المسيو مانيو بمحافظ القنال الذى اتصل بدوره بالمأمور بالإسماعيلية، وأوصاه أن يقوم على رأس قوة لعلاج الموقف، وحضر المأمور بقوته، و جلس فى مكتب المدير .

وأرسل فى طلب الشيخ الذى اعتصم بالمسجد، وأجاب الرسول : لا حاجة لى عند المأمور، ولا عند المدير، وعملى بالمسجد، فإذا كان لأحدهما حاجة فليحضر لى، وعلى هذا فقد حضر المأمور إلى الشيخ، وأخذ يطلب إليه أن يستجيب لمطالب المدير، ويترك العمل ويعود إلى الإسماعيلية .

فأجاب بمثل ما تقدم، وقال له : تستطيع أن تأتينى من الإسماعيلية بكلمة واحدة فى خطاب، فأنصرف، ولكنك إذا أردت استخدام القوة، فلك أنه تفعل ما تشاء، ولكنى لن أخرج من هنا إلا جثة لا حراك بها، ووصل النبأ إلى العمال، فتركوا العمل فى لحظة واحدة، وأقبلوا متجمهرين صاخبين، وخشى المأمور العاقبة، فترك الموقف، وعاد إلى الإسماعيلية، واتصل بى للتفاهم على الحل .

ولكنى اعتذرت له بأننى مضطر إلى التفكير فى الأمر، وعقد مجلس إدارة الجمعية للنظر، ثم أجيبه بعد ذلك، وفى هذه الأثناء يؤسفنى أن أقول : إننى حضرت إلى القاهرة لمقابلة العضو المصرى الوحيد فى مجلس إدارة الشركة، فوجدت منه كل إعراض عن مصالح العمال، وكل انحياز إلى آراء الشركة ومديرها، وكل تجرد من أى عاطفة فيها معنى الغيرة الوطنية، قابلت بعد ذلك مدير الشركة، وسألته عما ينقمه من فضيلة الشيخ، فلم أجد عنده إلا أنهم يريدون شخصا يستسلم لمطالبهم، وكان من كلامه : إننى صديق لكثير من زعماء المسلمين، ولقد قضيت فى الجزائر عشرين سنة، ولكنى لم أجد منهم أحدا كهذا الشيخ الذى ينفذ علينا أحكاما عسكرية، كأنه جنرال تماما، فناقشته فى هذا الكلام وأفهمته أنه مخطئ وأن الشركات تقسوا على العمال، وتنقص من حقوقهم وتستصغر إنسانيتهم، وتبخل عليهم، وتقتر فى أجورهم، فى الوقت الذى يتضاعف ربحها، ويتكدس، وأن من الواجب علاج هذه الحال بعلاج نظم هذه الشركات، ووجوب قناعتها باليسير من الربح .

واتفقنا أخيرا على أن يبقى الأستاذ الشيخ فرغلى شهرين حيث هو، وأن تقوم الشركة بتكريمه عند انتهاء هذه المدة، وأن تطلب رسمياً من الإخوان من يحل محله من المشايخ، وأن تضاعف للشيخ الجديد راتبه، وتعنى بسكنه، ومطالبه وفى نهاية المدة عاد فضيلة الشيخ فرغلى وتسلم مكانه فضيلة الأستاذ الشيخ شافعى أحمد، واستمرت الدعوة تشق طريقها فى هذه الصحراء باسم الله مجريها، ومرساها [١] .

إن مثل هذا القصص يولد فى النفس معنى الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبه وبمرور الزمن يمكن القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى .

١١ ـ النظر بإمعان ودقة فى العواقب المترتبة على الاحتقار أو الانهزام النفسى، الدنيوية والأخروية، الفردية والجماعية، على النحو الذى أسلفنا، فربما كان لذلك دور كبير فى القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى .

١٢ ـ قيام ولى الأمر بواجبه من رعاية نفسه أولا، وتربيتها على الإسلام الصحيح الذى يمنح العزة، والكرامة، والثقة بالنفس، ثم فتح المجالات وحمايتها،ورعايتها لتربية الأمة جميعا على هذا الإسلام، فيسهم بذلك فى اقتلاع جذور الاحتقار أو الانهزام من داخل النفس، ويغرس مكانها الشجاعة، والقوة والعزة النفسية .

١٣ ـ عدم الانبهار بحاضر الأعداء فى مدنيتهم المادية التى يعيشونها الآن، وعدم تقليدهم كذلك فيما هم عليه من تأخر وانحطاط خلقى، مع اليقين أن هذا الحاضر إلى زوال لأنه مبنى على غير أساس صحيح، وماكان كذلك لا يدوم طويلا، وأن الخير للمسلم أن يعيش حاضره المتميز على أساس من كتاب الله، ومن سنة نبيه محمدﷺ ومن ماضيه المشرق الزاهر، ومن العمل الصادق الدؤوب بالليل والنهار حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا ، فإن لذلك دورا كبيرًا فى القضاء على الاحتقار أو الانهزام النفسى من جديد على معنى القوة والعزة الإسلامية .

١٤ ـ وأخيرا، الاستعانة بالله، ودوام الضراعة إليه أن يخلصه ويخلص كل مسلم من آفة الاحتقار أو الانهزام النفسى، وهو سبحانه يعين من يصدق فى الاستعانة به، واللجوء إليه، وفى الحديث أنهﷺكان كثيرا ما يدعوا بهذا الدعاء فى الصباح والمساء:

« اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم . . . » .

---

(١) ١٠٨ ـ ١١٠ نفس المصدر .

وفى رواية ثانية : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال » .

وفى رواية ثالثة : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[1] .

---

[1] سبق تخريجه فى الجزء الثالث، آفة « التسويف » .



الجزءان: الخامس والسادس

الآفة التاسعة والعشرون
رفض النقد والنصيحة

والآفة التاسعة والعشرون التي يكون الوقوع فيها سببًا في عواقب وخيمة ومخاطر جسيمة تكاد تهلك الحرث والنسل، وتحول دون النهوض والتقدم إنما هي: « رفض النقد والنصيحة ».

وحتى يتحرر منها مَنْ ابتُلى بها، ويتوقَّاها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من الأعباء والمسؤوليات تجمعها هذه السطور على هذا النحو :

أولا : تعريف «رفض النقد والنصيحة» لغة واصطلاحًا :

معلوم أنَّ «رَفْضَ النقد والنصيحة » مُركَّبٌ إضافى مُؤلف من كلمتين هما: «رفض»، و«نقد» أو «نصيحة»، والأمر يقتضى بيان معنى كلٍّ على حدة، قبل التركيب، ثم بيان معناهما بعد التركيب، ودونك البيان :

أ ـ الرفض لغة : الترك، تقول : رفضه يرفضه رَفْضًا، ورَفَضًا : تركه (1) .

الرفض اصطلاحًا : اسم للمعاندة أو القمع، وعند الفلاسفة لفظ مدرسىٌّ يستخدمه المحدثون للدلالة على معاندة الإرادة لدافع معيَّن، أو قمع فعل على وشك التحقق، إذا لم تقف الإرادة عقبة في سبيل ذلك (2) .

ب ـ النقد لغة : يأتى النقد لغة على معانٍ، منها:

١ ـ نقرُ الشيء لاختباره، أو لتمييز جيده من رديئه، تقول: نَقَدَ الطائر الفخَّ، ونقدْتُ رأسَه بأصبعى، ونَقَدَ الدراهم والدنانير، وغيرهما نقدًا، وتنقادًا: ميَّز جيدها من رديئها، وتقـول: نَـقَـدَ النثر والشعر: أظهر ما فيهما من عيب أو حُسْن.

٢ ـ العيب والاغتياب، تقول: فلان ينقد الناس: يعيبهم ويغتابهم.

---

(1) انظر: القاموس المحيط ٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩، الصحاح فى اللغة والعلوم، ص ٣٩٥، مادة: «رفض» بتصرف كثير.

(2) المرجع السابق.

٣ ـ وقوع الفساد فى الشَّىء ، تقول : نَقِدَ الشىءُ نَقَداً : وقع فيه الفساد ، ونَقِدَ الضِّرْسُ، أو القَرْن: تأكَّل وتكسَّر، ونَقِدَ الحافِرُ: تقشَّر.

٤ ـ المناقشة فى الأمر، تقول : ناقَدَهُ فى الأمر : ناقشه فيه (١) .

جـ ـ النقد اصطلاحًا : والنقد : اصطلاحًا : له إطلاقان :

١ ـ الأول : إظهار عيب الشىء، وفساده.

٢ ـ مناقشة الأمر لإظهار ما فيه من جودة ورداءة، وحسن وعيب (٢) .

د ـ النصيحة لغة : تأتى النصيحة لغة على معانٍ، منها :

١ ـ تخليص الشىء من شوائبه، تقول : نصح الشىءُ ، والشىءَ نصحًا ، ونصوحًا، ونصاحةً خَلَصَ، ونصحتْ توبتُه : خَلَصَتْ من شوائب العزم على الرجوع.

٢ ـ الآلة التى بها يخلص الشىء من شوائبه حسية كانت أم معنوية، كالإبرة مثلا فى حياكة الثوب وإصلاحه، وكالكلمة أو السلوك فى الإرشاد إلى فعل الخير، وتجنب الشرِّ.

٣ ـ الناصح والنَّصَّاح، وهو الذى يتولى تخليص الشىء من شوائبه وعيوبه(٣) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، فإنها قيام ناصح بتخليص الشىء من عيوبه وشوائبه بالآلة أو الوسيلة المناسبة.

هـ ـ النصيحة : اصطلاحًا : والنصيحة اصطلاحًا: الإرشاد بالأسلوب المناسب والوسيلة الملائمة إلى تخلِّى المرء عن كلِّ ما فيه عيب وفساد، مع تحليه ومحافظته على كلِّ ما ينبغى من خير وصلاح شريطة ألا يتعارض الأسلوب والوسيلة مع الشرع.

قال الخطابى : «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظِّ للمنصوح له، ويقال: إن هذه الكلمة من وجيز الأسماء، ومختصر الكلام، فإنه ليس فى كلام العرب كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، حتى يضمَّ إليها شىء آخر، كما قالوا فى الفلاح: إنه ليس فى كلام العرب أجمع لخير الدنيا والآخرة منه، حتى صار ليس يعدله

(١) انظر: القاموس المحيط ١/٦٤٢ ـ ٦٤٣ ، الصحاح فى اللغة والعلوم ص ١١٩٥، المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٤ مادة : «نقد» بتصرف كثير.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٤ بتصرف.

(٣) انظر: القاموس المحيط ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١، الصحاح فى اللغة والعلوم ص ١١٧١، المعجم الوسيط ٢/ ٩٢٥ مادة : «نصح» بتصرف كثير .

شىء من الكلام فى معناه، ولذلك قالوا: أفلح الرجل : إذا فاز بالخير الدائم الذى لا انقطاع له »(١) .

وواضح مدى الترابط بين المعنى اللغوى للنصيحة والمعنى الاصطلاحى، حتى قال الخطابى : « ويُقال: إن أصل النصيحة مأخوذ من قولهم: نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، والنِّصاح: الخيط، شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بفعل الخيَّاط فيما يَسُدُّه مِنْ خلل الثوب، وَ يَلأَمَه مِنْ فتوقه، ويجمعه من الصَّلاح فيه، وقيل: إنها مأخوذة مِنْ نصحتُ العسل إذا صفيته من الشمع: شبهوا تخليص القول والعمل مِنْ شوب الغش والخيانة، بتخليص العسل من الخلط الذى فيه »(٢) .

وحتى قال المازرى : « النصيحة تحتمل أن تكون مشتقة من نصحتُ العسل، إذا صفَّيْتُه، ويحتمل أن تكون من النصح، وهى الخياطة، والإبرة: المنصحة، والنِّصاح: الخيط الذى يُخاط به، والناصح: الخياط، فمعناه أنه يلم شعث أخيه كما تلمُّ المنصحة: خرَق الثوب »(٣) .

وانطلاقًا مما تقدم فإنَّ رفض النقد والنصيحة يعنى: عدم النزول على رأى الناقد والناصح، بل عدم قبول المناقشة فيما عساه يكون فيه من عيب أو خلل، حتى وإن استوفى كلٌّ من النقد والصيحة الضوابط والآداب المعروفة.

ثانيًا : موقف الشارع الحكيم من رفض النقد والنصيحة :

ويعيب الشارع الحكيم مَنْ يرفض النقد والنصيحة دون مبرر مقبول، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] .

يقول ابن عطية ـ رحمه الله :«لا أحد أظلم مِمَّن هذه صفته: أن يعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، ويطرح كبائره التى أسلفها، هذه غاية الإهمال »(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة].

(١) انظر: أعلام الحديث ١٠/ ١٨٩ ـ ١٩٠، وعنه نقل ابن حجر فى: فتح البارى ١/١٣٨ .
(٢) انظر: أعلام الحديث ١/ ١٩٠، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ١/ ١٣٨ .
(٣) انظر: المعلم بفوائد مسلم ١/ ٢٩٣، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ١/ ١٣٨ .
(٤) انظر: المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٩/٣٤٢ .

كما يحكى عن المكذبين رفضهم النقد والنصيحة فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة] .

ويحكي عن صالح خطابه لقومه حين رفضوا النصيحة، وكذَّبوهُ، فأهلكهم الله، فيقول: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف] .

كما يحكي مثل ذلك عن شعيب مع قومه فيقول : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾ [الاعراف] .

ويحكى رفض الماضين للنصيحة التى جاءتهم على ألسنة الأنبياء والمرسلين علَّ الرافضين لها منَّا يعتبرون، وينزجرون، فيقول : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾ [إبراهيم] .

ويجعل سبحانه ذلك من صفات المنافقين فيقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾ [البقرة] . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة] . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ

مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ [النساء]. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون] .

وتوعد ﷺ مَنْ لا يقوم بواجب النصيحة، ومَنْ لا يقبلها بقوله : «ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم ، ولا يُعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولايتفقهون، ولا يتعظون، والله ليعلمنَّ قوم جيرانهم: يفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وليتعلمنَّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنَّهم العقوبة»، وأعاد ذلك مراراً، حتى قال المعنِيُّون بالخطاب: أمهلنا سنة ليفقهوهم ، ويعلموهم ، ويعظوهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة][1] .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على ذمِّ مَنْ يوجه إليه نقد أو تُسدى له نصيحة، فلا يقبل.

وقد فهم السلف ذلك. حسبنا قول ابن مسعود رضي الله عنه : « إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله، فيقول: عليك نفسك أنت تأمرني؟ »[2] .

ثالثًا : أسباب أو بواعث رفض النقد والنَّصيحة :

ولرفض النقد والنَّصيحة أسبابٌ تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، ومنها:

١ ـ خلوُّ النقد والنصيحة من شروط وآداب القبول :

ذلك أن لقبول النقد والنصيحة شروطًا وآدابًا من: تخير أنسب الظروف، وأحسن الأحوال، وأجمل الألفاظ، وإبراز المحاسن، ودقة التحرِّى، والتثبُّت، ومراعاة السرِّية، وترك الجدل واللجاج، وإرادة وجه الله، ثم الخير للمنتقد أو المنصوح، دون الشماتة، والفضيحة.. وهلمَّ جرا .

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد: كتاب العلم: باب فى تعليم مَنْ لا يعلم ١/ ١٦٤، وعزاه إلى الطبرانى قائلا: « رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه : بكير بن معروف، قال البخارى: ارم به، ووثقه أحمد فى رواية، وضعَّفه فى أخرى، وقال ابن عدىٍّ: أرجو أنه لا بأس به ».

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد: كتاب الفتن: باب فيمن يؤمر بالمعروف فلا يقبل ٧/ ٢٧١، وعزاه إلى الطبرانى قائلا: «رواه الطبرانى، رجاله رجال الصحيح».

ويوم أن يخلو النقد أو النصيحة من هذه الشروط وتلك الآداب فإنه يكون محل رفض وعدم قبول .

ولذا رأينا ربَّ العزة سبحانه يقطع الطريق على فرعون حين يوصي موسى وهارون ـ عليهما السَّلام ـ أن يُحسنا التعامل معه في القول، فيقول لهما : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

ويقول لموسى عليه السلام : ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات] .

« والمعنى كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما لا تعنفاه في قولكما، وارفقا به في الدعاء، ويتحقَّق ذلك بعبارات شتَّى، منها ما سيأتى إن شاء الله تعالى قريبًا، وهو ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ، ومنها ما فى النازعات ، وهو ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، وهذا ظاهر غاية الظهور فى الرفق فى الدعاء فإنه فى صورة العرض والمشورة، وقيل: كنِّياه، واستدل به على جواز تكنية الكافر،وروى ذلك عن عليٍّ ـ كرم الله وجهه، وابن عباس رضي الله عنهما أيضًا ، وسفيان الثورى ، وله كنىً أربع : أبو الوليد ، وأبو مصعب، وأبو العبَّاس، وأبو مرَّة ، وقيل : عِداهُ شبابًا لا يهرم بعده، وملكًا لا يُنزع منه إلا بالموت، وأن يبقى له لذَّة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وعن الحسن: قولا له: إن لك ربًا، وإن لك معادًا ، وإن بين يديك جنَّة ونارًا، فآمن بالله تعالى يدخلك الجنَّة، ويقك عذاب النار » [1] .

وعن جرير رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنَّه قال : «مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ يُحْرَم الخير» [2] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة،إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه » [3] .

وعنها أيضًا أن النبى ﷺ قال : « إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » [4] .

---

(١) انظر: روح المعانى للألوسى ١٦/ ١٩٥ المجلد السادس.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب : باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٣ برقم (٢٥٩٢) بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ برقم (٢٥٩٣) بهذا اللفظ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح :كتاب البرِّ والصِّلة والآداب: باب فضل الرفق ٤/ ٢٠٠٤ برقم (٢٥٩٤)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء فى الهجرة وسكنى البدو ٣/ ٧ برقم (٢٤٧٨)، كلاهما من حديث عائشة مرفوعًا، واللفظ لمسلم.

٢ ـ الإعجاب بالنفس، بل الغرور، والتكبر :

وقد يكون الإعجاب بالنفس، بل الغرور والتكبر سببًا من أسباب رفض النقد أو النصيحة، ذلك أن المنتقد أو المنصوح يرى نفسه والحالة هذه أرفع وأكبر من أن يوجه إليه نقد أو تُسدى إليه نصيحة، ولا شك أن هذا خذلان وأي خذلان، قال تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

وحكى عن صنف من الناس تُوَجَّهُ إليه النصيحة أو النقد فتأخذه العزة بالإثم، ولا يقبل، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾ [البقرة] .

كما حكى نصيحة قوم قارون له وردَّه عليهم، فقال : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾

[القصص]

٣ ـ الخصومات أو العداوات :

وقد تكونُ الخصومات أو العداوات من أسباب عدم قبول النقد أو النصيحة، ذلك أن الخصوم أو الأعداء لا يقبلُ بعضُهم مِنْ بعض عادةً أو بداهةً.

فالمؤمنون لا يقبلون من الكافرين الدعوة إلى الإلحاد،أو الشرك والوثنية، والكافرون لا يقبلون من المؤمنين الدعوة إلى التوحيد والتزام الصدق والفضيلة إلا من رحم الله.

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم].

٤ ـ المراء أو الجدل بالباطل :

وقد يكون المراءُ أو الجدلُ بالباطل من بين الأسباب التى تحمل على رفض النقد أو النَّصيحة، ذلك أن الممارى أو المُجادل بالباطل ليس سهلا أو ميسوراً عليه أن يقبل النقد أو النَّصيحة، لأنه بذلك يشعر بالانهزام والحقيقة أنَّه لا يريد أن ينهزم.

حكى الحق سبحانه ردَّ قوم نوح عليه فى قوله : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود] .

٥ ـ اتباع الهوى :

وقد يكون اتباع الهوى من بين الأسباب التى تحمل على رفض النقد أو النصيحة، ذلك أن من يتبع هواه إنما يجعل إلهه هذا الهوى، وتبعًا لذلك لايقبل من غيره أىَّ نقد وإن كان حقًا، ولا نصيحة وإن كانت خيراً.

وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص] . ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾

[القصص]

٦ ـ البيئة التى ينشأ فيها المرء :

وقد تكون البيئة التى ينشأ فيها المرء ـ قريبةً كالبيت، أم بعيدةً كالمجتمع ـ من بين الأسباب التى تحمل على رفض النقد أو النصيحة، ذلك أن المرء إذا لم يُعلَّم فى بيته الذى نشأ وتربى فيه على قبول النقد والنصيحة، وكذلك إذا كان أترابه وأقرانه الذين يعيش معهم مِمَّنْ يرفضون النقد أو النصيحة فإنه ينشأ ويظلُّ هكذا إلا أن تتداركه مَعِيَّةُ الله ورحمته.

ولذلك كان الاهتمام باستقامة وصلاح البيئة التى ينشأ فيها المرء من أهم ما يساعد على استقامة وصلاح هذا المرء، والله يهدى مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

٧ ـ شعور المنتقد أو المنصوح دونية الناقد أو الناصح :

وقد يكون شعور المنتَقَد أو المنصُوح أن الناقد أو الناصح أدنى منه منزلةً أو سِنًا أو علمًا ونحو ذلك، فيحمله ذلك على رفض النقد أو النصيحة ولو درى المنتقد أو المنصوح أنَّ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها لقبلها ولو من الصغير، والأدنى منزلة، والأقل علمًا.

ها هو الداخلى شيخ البخارى ـ وهو مَنْ هو علمًا وفضلا ـ يقول يومًا فيما كان يقرأ للناس : « سفيان، عن أبى الزبير، عن إبراهيم » فيرد عليه البخارى وهو ابن إحدى عشرة سنة قائلا : « يا أستاذ ، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم » فانتهره ، فقال

له البخارى : « ارجع إلى الأصل إن كان عندك »، فدخل، فنظر فيه، ثم رجع، فقال: كيف هو يا غلام ؟ فقال البخارى : « هو الزبير، وهو ابن عدىٍّ، عن إبراهيم » فأخذ القلم، وأصلح كتابه، وقال: « صدقْتَ » [(١)] .

وهكذا كان المسلمون على مرِّ العصور يقبلون النقد أو النصيحة، ولو من الأدنى، ما دامتْ قد استوفتْ شروطها وآدابها.

٨ ـ ظن المنتَقد أو المنصوح تشهير الناقد والناصح وشماتته :

وقد يكون ظنُّ المنتَقَد أو المنصوح تشهير وشماتة الناقد أو النَّاصح من بين الأسباب التى تحمل على رفض النقد أو النصيحة، دون أن يكون هناك دليل أو برهان على مثل هذا الظن، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وقال النبى ﷺ : « إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث. . . » الحديث[(٢)] .

٩ ـ اعتقاد المنتَقَد أو المنصوح أنَّه فى غنى عن النَّقد أو النصيحة:

وقد يكون اعتقاد المنتقد أو المنصوح أنَّه بلغ الكمال فصار فى غنىً عن النقد أو النصيحة من بين الأسباب التى تحمل على رفض النقد أو النصيحة، ناسيًا أو متناسيًا أن الكمال لله وحده، وأنه لا عصمة لأحد من الخلق سوى مَنْ ضَمِنَ الله لهم العصمة، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة، والعاقل هو الذى يتهم نفسه ولا يبرِّئها من العيب أبدًا .

وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف] .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « الكيِّس مَنْ دانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت. . . » الحديث [(٣)] .

---

(١) انظر : هدى السارى مقدمة فتح البارى لابن حجر: باب ذكر نسب البخارى ومولده، ومنشئه، ومبدأ طلبه للحديث ص ٤٧٨ .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى : الجزء الثالث، آفة « سوء الظن » .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٥٥٠ رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ رقم (٤٢٦٠)، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٢٤ كلهم من حديث شداد بن أوس مرفوعًا، وتمامه: « والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله »، وعقَّب الترمذى بقوله: « هذا حديث حسن».

١٠ ـ الغفلة عن العواقب المترتبة على رفض النقد والنصيحة :

وأخيرًا قد تكون الغفلة عن العواقب المترتبة على رفض النقد أو النصيحة من بين الأسباب التي تحمل على هذا الرفض، وهذا حق، فإن مَنْ جهل شيئًا عاداه، أو المرء عدوٌّ ما يجهل. كما قال الله عز وجل : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾

[يونس : ٣٩]

رابعًا : آثار رفض النقد والنصيحة :

ولرفض النقد والنصيحة آثار خطيرة، وعواقب وخيمة على العاملين وعلى العمل الإسلامى، ودونك بعض هذه الآثار، وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار رفض النقد والنصيحة على العاملين :

١ ـ الاستمرار على الخطأ :

وربما يكون ذلك تكذيبًا بحقٍّ، أو عدوانًا على أبرياء، وحينئذ يكون الهلاك والعياذ بالله، وما خبر الرافضين للحق، المترفعين على النصيحة الذين أهلكهم الله بسبب ذلك عنَّا ببعيد، قال تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] .

والعياذ بالله، وما خبر الرافضين للحق، المترفعين على النصيحة الذين أهلكهم الله بسبب ذلك عنَّا ببعيد، قال تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت].

وقال فى ثمود بخصوصهم : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾

[الأعراف]

وحكى نصيحة صالح لهم بقوله : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف] .

وقال فى أهل مدين بخصوصهم : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾ [الأعراف] .

وحكى نصيحة شعيب لهم بقوله : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الاعراف] .

٢ ـ تعريض النفس للاحتقار والسخرية والطعن من الآخرين :

فإن الناس ينظرون إلى رافض النقد أو النصيحة على أنه امرؤ غير عارف قدر نفسه، مدَّعٍ اتصافها بما ليس فيها: الأمر الذى قد يحملهم على احتقاره والسخرية منه، بل والطعن فيه،ومَنْ وصل إلى هذا المستوى فأىُّ كرامة،أو منزلة له بين قومه . وصدق الله الذى يقول : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ...﴾ [الحج: ١٨] .

٣ ـ فتح الباب أمام الناشئة ومَنْ لا حصانة لديهم أن يتصفوا بهذه الآفة تقليداً ومحاكاةً :

الأمر الذى يُحمِّل رافض النَّقد أو النصيحة إثمين : إثم نفسه، وإثم مَنْ قلَّده، وحاكاه، ويصدق فيه قول النبى ﷺ : «. . .ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » الحديث [1] .

وقد شاهدنا ومازلنا نشاهد قادة لبعض الجماعات والأحزاب، حملهم الترفع على النقد أو النصيحة أن شقوا طريق العنف فى مواجهة السُّلطات، وقلدهم أو حاكاهم الناشئة ومَنْ ليستْ لديهم حصانة فكرية، وجرت بسبب ذلك ومازالت حمامات، وأنهار من الدم، ولا يعلم إلا الله متى تنتهى أو تتوقف.

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار رفض النقد والنصيحة على العمل الإسلامى :

١ ـ التوقف عن التنمية والعطاء :

ذلك أن الاستمرار على الخطأ دكتاتوريةٌ أو استبدادٌ ، وتلك تتوقف بالعمل الإسلامى عن التنمية والعطاء ومواكبة مستجدات العصر.

وحسبنا أنَّ نفراً من الإسلاميين الغيوريين مازال يصرُّ على أن يبقى الجهاد بالسَّيف فى عصر راجمات الصواريخ، والأسلحة الجرثومية، والكيماوية، والنووية. . . ونحوها، رافضاً كل نقد أو نصيحة، وأن نفراً آخر من هؤلاء مازال يصر على ترك مقاعد الدراسة العلمية التجريبية ليشتغل بتحصيل العلم الشرعى، معتمداً على عدوه فى

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة «التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة».

طعامه، ولباسه، وشرابه، وسكناه، ومواصلاته، وتطبيبه، ونحوها، غير مبالٍ بأىٍّ نقدٍ أو نصيحة.

٢ ـ تشويه صورة العمل الإسلامى بل العمل على القضاء عليه بضربه أو على الأقل إجهاضه :

وهذا أمر بدهى من مجتمع متوقف عن التنمية والعطاء، حيث يفتح الباب أمام الحاقدين، والكارهين لهذا العمل لتشويهه، وربما محاولة القضاء عليه بضربه، أو على الأقل إجهاضه فلا يؤتى ثماره إلا بعد عشرات السنين، وهذا فيه من الخسارة ما فيه.

كما هو قائم الآن فى أكثر من بلد من بلدان العالم العربى والإسلامى.

خامسًا : علاج رفض النقد والنصيحة :

وإذ قد وقفنا على ماهية رفض النقد والنصيحة، وموقف الشارع الحكيم من ذلك، والأسباب أو البواعث، والآثار والنتائج، فإنه يسهل تقديم العلاج بل الوقاية، ويكمن ذلك فى اتباع هذه الخطوات :

١ ـ التعريف بالنفس :

وذلك بأن يوضع بين يَدَىْ المنصوح والمنتقَد: أن النَّفسَ البشرية جُبِلتْ على الخطأ إلا من عصم الله من النبيين، والمرسلين، وأنه ليس عيباً على المرء أن يخطئ، وإنما العيب كل العيب أن يُصرَّ على الخطأ. قال تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف].

وعلَّقَ ابن عطية على الآية بقوله : « وهذه أيضاً مختلف فيها: هل هى مِنْ كلام يوسف أم من كلام المرأة حسب التى قبلها ؟ »(١) ، ولخص أن فيها رأيين:

الأول : أنها مِنْ كلام يوسف عليه السلام ، وذكر أدلة مرفوعة، وموقوفة، ومقطوعة لا تخلو من ضعف الإسناد، بل ضعف المتن لمعارضتها العصمة التى هى من خصائص الأنبياء والمرسلين.

والآخر: أنها من كلام المرأة، امرأة العزيز، ووجه كلامها: «الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالتْ: وما هذا ببدع، ولا ذلك بنكير على

(١) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١ .

البشر فأبرئ أنا منه نفسي، والنفوس أمارات بالسوء مائلة إليه »[١] ، وقال ﷺ : «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون »[٢] .

٢ ـ التذكير بعواقب الرافضين للنقد والنصيحة :

وذلك بأن يوضع بين يدى المنصوح كذلك: عواقب الرافضين للنقد والنصيحة مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه، وسائر المكذِّبين، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

إذ وَضْعُ هذه العواقب على هذا النحو من شأنه أن يحمل المرء إذا كان عاقلا أن ينزعج قلبه، ويخاف العقاب بمثل هذه العواقب، فيقبل النصيحة، وحين يقبل القلب النصيحة يأمر الجوارح أن تفارق الإثم والخلل، وتنزل على ما يوجبه النقد أو النصيحة من باب قول النبى ﷺ : « ... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحتْ صَلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسدتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهى القلب »[٣] .

٣ ـ التربية على التواضع :

وذلك بالتركيز على تحرير النفس من الإعجاب والغرور والتكبر، فتصبح صالحة لقبول التواضع الذى يدل على التحلِّى به : قبول النقد ، أو النصيحة ، وسبيل ذلك : ما مضى آنفًا من علاجات لهذه الآفات، وكذلك ببيان فضل التواضع، ومنزلة صاحبه

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ٨ / ١ ـ ٢ بتصرف كثير .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: باب منه ٤/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩ رقم(٢٤٩٩)، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الزهد: باب ذكر التوبة ٢/ ١٤٢٠ رقم(٤٢٥١)، والدارمىُّ فى : السنن : كتاب الرقائق : باب فى التوبة ٢/ ٣٠٣، وأحمد فى: المسند ٣/ ١٩٨ كلهم من حديث على بن مسعدة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، وعقب الترمذى بقوله: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة ، عن قتادة »، وزاد أحمد : « ولو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى لهما ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح : كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ١ / ٢٠ ، ومسلم فى: الصحيح : كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣ / ١٢١٩، ١٢٢٠ رقم (١٥٩٩)، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الفتن : باب الوقوف عند الشبهات ٢/١٣١٨، ١٣١٩ (٣٩٨٤) .

عندالله كقوله ـ سبحانه ـ في صفات عباد الرحمن : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] .

وقوله ﷺ : « ... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه » (١) . « مَنْ تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في علّيين... » الحديث (٢) .

٤ ـ التربية على نبذ الخصومات والعداوات والمراء والجدل بالباطل واتباع الهوى:

وذلك ببيان العواقب الوخيمة التي تتركها الخصومات أو العداوات، وكذلك المراء والجدل بالباطل، واتباع الهوى وسبيل ذلك : ما مضى وما سيأتي من علاجات لهذه الآفات، وأيضاً ببيان فضل ومنزلة سلامة الصدر من الأحقاد، كقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

[الحشر]

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء] .

وكان من دعائه ﷺ : « ربِّ أعنِّي ولا تُعنْ عليَّ، وانصرني ولا تَنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسِّرْ الهدى لي، وانصرني على مَنْ بغى عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوَّاهًا منيبًا، ربِّ تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبِّتْ حُجَّتي، وسدِّدْ لساني، واهد قلبي ، واسلل سخيمة صدري » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب استحباب العفو والتواضع ٤/ ٢٠٠١ رقم (٢٥٨٨)، والترمذي في: السنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء في التواضع ٤/ ٣٣٠ رقم (٢٠٢٩)، والدارمي في: السُّنن: كتاب الزكاة: باب في فضل الصدقة ١/ ٣٩٦، وأحمد في: المسند ٢/ ٣٨٦ كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٣/ ٧٦، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الزهد: باب في البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٨ رقم (٤١٧٦) كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وعقَّب عليه شهاب الدين البوصيري في : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/ ٢٢٩ بقوله: «هذا إسناد ضعيف، دراج بن سمعان أبو السمح المصري ـ وإن وثَّقه ابن معين ـ فقد قال أبو داود وغيره: حديثه مستقيم إلا ما كان عن أبي الهيثم، وقال ابن عديٍّ: عامة أحاديث دراج مِمَّا لا يتابع عليه، وضعفه أبو حاتم، والنسائي، والدارقطني ».

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في: السنن: كتاب الدعوات : باب في دعاء النبي ﷺ ٥/ ٥١٧ ـ ٥١٨ رقم (٣٥٥١)، وابن ماجه في: السنن: كتاب الدعاء: باب دعاء رسول الله ﷺ ٢/ ١٢٥٩ رقم (٣٨٣٠) كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وعقب عليه الترمذي بقوله: «هذا حديث حسن صحيح» .

٥ ـ التحويل عن البيئة السيئة إلى بيئة صالحة :

وذلك بالتنفير من البيئة السيئة، وبيان عواقبها الضارة وآثارها الخطيرة، ثم تحسين البيئة الصالحة، وبيان عواقبها النافعة، وآثارها الحميدة، بل التحويل بالفعل من الأولى إلى الثانية، ومن خير ما يفيد فى ذلك قوله ـ سبحانه: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴿٦٧﴾** ﴾ [الزخرف] .

وقوله ﷺ : «إنما مَثَلُ الجليس الصالح، وجليس السُّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أنْ يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة » [1] .

٦ ـ إشعار المنتقد والمنصوح بتجرد النقد والنصيحة عن التشهير والشماتة:

وذلك بجعل النقد أو النصيحة فى السِّرِّ دون العلانية، وقرنها بالرحمة واللين والشفقة، والإكثار من الدعاء والتواضع، والتأكيد على إرادة الخير والمثوبة، والإصلاح قدر الطاقة والإمكان، على نحو ما صنع نوح فى قوله لقومه : ﴿ **وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [هود : ٢٩] .

وعلى نحو ما قال هود لقومه : ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴿٥١﴾** ﴾ [هود] .

وعلى نحو ما قال نبينا ﷺ للمكذبين من قومه : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ [ص] .

وعلى نحو ما قاله شعيب لقومه : ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾** ﴾ [هود].

٧ ـ مراعاة شروط وآداب النقد والنصيحة :

وذلك بتخير أنسب الظروف، وأحسن الأحوال، وأجمل الألفاظ، وإبراز المحاسن، ودقَّة التحرى والتثبت، ومراعاة السِّرِّيَّة، وإرادة وجه الله، ثم الخير للمنتقد أو المنصوح، والتناسب سِنّاً ومقاماً بين الناصح والمنصوح ، إلى غير ذلك من الشروط والآداب التى لو رُوعيت بحق وصِدْق لعادت بأحسن الثمار، وأجمل النتائج .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الأول، آفة « الفتور» .

٨ ـ التذكير بواقع السلف، وفرحهم بالنقد والنصيحة :

حيث كان عمر يقول : « رَحِمَ الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي » (١) .

وقال رجل له : اتق الله يا عمر، وأكثر عليه، فقال له قائل: اسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين، فقال له عمر : « دَعْهُ ، لا خير فيهم إن لم يقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبل» (٢) .

وعن جبير بن مطعم أن نفراً قالوا لعمر بن الخطاب: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط، ولا أقول بالحقِّ، ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين، فأنت خير الناس بعد الرسول ﷺ ، فقال عوف بن مالك: كذبتم والله، لقد رأيت بعد رسول الله ﷺ خيراً من عمر : أبا بكر.

فقال عمر : « صدق عوف، وكذبتم، ولقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلي ـ يعني قبل أن يُسلم » (٣) .

وخرج ذات يوم من المسجد، والجارود العبدي معه، فبينما هما خارجان إذ بامرأة على ظهر الطريق، فسلَّم عليها عمر، فردَّت عليه السلام، ثم قالت: رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة، قال لها: قولي. قالت: يا عمر، عهدي بك وأنت تسمَّى عميراً في سوق عكاظ، تصارع الفتيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت.

فقال الجارود : هيه قد اجترأتِ على أمير المؤمنين.

فقال عمر : « دعها ، أما تعرف هذه يا جارود؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها مِنْ فوق سمائه، فعمر ـ والله ـ أحرى أن يسمع كلامها».

أراد بذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ [المجادلة] (٤) .

(١ ، ٢) انظر: الخراج لأبي يوسف ص ١٤، وعنه نقل الطنطاويان في : أخبار عمر .

(٣) انظر : سيرة عمر لابن الجوزي ١ / ١٢٨، وعنه نقل الطنطاويان في: أخبار عمر.

(٤) انظر : نهاية الأرب للنويري ٣ / ٢٤٥، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ص ١٢٨، وعنهما نقل الطنطاويان .

وقال ابن عون : كان الرجل يقول لمعاوية : والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية أو لنقوِّمنَّك، فيقول: بماذا ؟ فيقول: بالخشب، فيقول : إذن نستقيم [١] .

وقال عبيد القواريري: لما لقى الرشيد الفضيل قال له: يا حسن الوجه أنت المسؤول عن هذه الأمة، حدثنا ليث عن مجاهد ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة : ١٦٦] قال : الوصلة التى كانتْ بينهم فى الدنيا، فجعل هارون يبكى ويشهق [٢] .

وقال الرشيد لشيبان : عظنى، قال: لأن تصحب من يخوِّفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تَصْحَبَ مَنْ يؤمنك حتى يدركك الخوف، فقال الرشيد: فسِّر لى هذا، قال: مَنْ يقول لك أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله، أنصح لك مِمَّنْ يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم ﷺ، فبكى الرشيد حتى رحمه مَنْ حوله [٣] .

إلى غير ذلك من المواقف.

٩ ـ تحلِّى الناقد والناصح بالأمل والثقة فى الله ـ عز وجل ـ :

وعلى الناقد أو الناصح أن يكون متفائلاً ذا أمل وثقة فى الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض، والذى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فإن ذلك الأمل وتلك الثقة يحملان على الاستمرار مع عدم اليأس والقنوط إلى أن يأتى الله بالفتح أو أمرٍ من عنده.

ولقد رسم لنا رسول الله ﷺ هذا المعلم وثبَّته. كما فى حديث عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحد؟ قال : «لقد لقيتُ مِنْ قومك [٤] ، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة [٥] فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهى [٦] ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب [٧] ، فرفعتُ رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فنادانى فقال : إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد سمع قول

(١ ـ ٣) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩٥، ٢٨٥، ٢٩٤ .

(٤) تقدير الكلام : «لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ» .

(٥) يوم العقبة : هو اليوم الذى وقف ﷺ عند العقبة بمنىً داعياً الناس إلى الإسلام، فما أجابوه، وآذوه، وذلك اليوم صار معروفاً.

(٦) «على وجهى» يعنى: على الجهة المواجهة لى، فالجار والمجرور متعلقان بـ (انطلقتُ)، أى: انطلقتُ هائماً لا أدرى أين أتوجه .

(٧) قوله ﷺ : «فلم أستفق إلا بقرن الثعالب » أي لم أفطن لنفسى، وأتنبه لحالى، وللموضع الذى أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عند قرن الثعالب لكثرة همِّى الذى كنتُ فيه، انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج للنووى ٤/ ٤٣٨، ثم ينقل عن القاضى عياض قوله: «قرن الثعالب هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن: كل جبل صغير ينقطع مِنْ جبل كبير».

قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فنادانى ملك الجبال، وسلَّم علىَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثنى ربُّك إليك لتأمرنى بأمرك، فما شئت؟ [(١)] إن شئتَ أن أطبِق عليهم الأخشبين » [(٢)] .

فقال له رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله مِنْ أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئًا »[(٣)] .

وقد حقق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ ما رجا، إذ أقبل هؤلاء يُسلمون عام الفتح، وما بعده، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، كما ظهر هذا الأمل، وتلك الثقة عنده ﷺ فى دعوته لعمر بالهداية، إذ كان يكثر فى دعائه من قوله : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب»[(٤)] .

---

(١) قوله : «فما شئت؟» استفهام، وتقدير الكلام: ما الذى شئت حتى أنفذه لك؟

(٢) جواب الشرط محذوف تقديره: «أطبقت» يعنى: إن شئت ضممتُ الأخشبين، وجعلتهما كالطبق عليهم حتى يهلكوا تحته فعلتُ، والأخشبان هما الجبلان المحيطان بمكة: أبو قبيس، والأحمر، وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان، والأخشب: كلُّ جبلٍ خشن غليظ الحجارة، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٢٩٤، والمنهاج للنووى ٤/ ٤٣٩ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم «آمين»، والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه ٦/ ٣١٢ ـ ٣١٣ برقم (٣٢٣١) (فتح البارى) بهذا اللفظ، وكتاب التوحيد: باب ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ١٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣ برقم (٧٣٨٩) (فتح البارى) بلفظ : « إن جبريل ﷺ نادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردُّوا عليك».
ومسلم فى : الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب ما لقى النبى ﷺ مِنْ أذى المشركين والمنافقين ٣/ ١٤٢٠ ـ ١٤٢١ برقم (١٧٩٥) بهذا اللفظ.

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب المناقب: باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٥/ ٦١٧ برقم (٣٦٨١) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً به، وقال: «حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، غير أن فى إسناده: «خارجة بن عبدالله» وهو كما قال ابن حجر فى: التقريب ص ٢٨٣ برقم (١٦٢١): «صدوق له أوهام» وله شواهد منها: ما أخرجه الطبرانى فى : المعجم الأوسط ١/ ٣٤٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد فيه مبارك بن فضالة وقد قال عنه ابن حجر فى: التقريب ص ٩١٨ برقم (٦٥٠٦): «صدوق يدلس ويسوِّى» ولكنه صرح بالسماع من شيخه.
ومنها ما أخرجه الطبرانى فى : المعجم الكبير ١٠ / ١٩٦ ـ ١٩٧ من حديث ابن مسعود بإسناد فيه مجالد بن سعيد ، قال عنه ابن حجر فى : التقريب ص ٩٢ برقم (٦٥٢٠) : « ليس بالقوى، وقد تغيَّر فى آخر عمره » ، وفيه : محمد بن الحسن الأسدى ، وقد قال عنه ابن حجر فى : التقريب ص ٨٣٦ ـ ٨٣٧ برقم (٥٨٥٣) : «صدوق فيه لين».
ومنها ما أخرجه ابن ماجه فى : السنن: المقدمة ١/ ٣٩ من حديث عائشة رضي الله عنها بإسناد فيه ضعف.
ومنها ما عند الحاكم فى المستدرك ٣/ ٨٣ من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأقره الذهبى. =

وقد أجاب الله دعاءه ﷺ، فهدى عمر إلى الإسلام، وأسلم، وكان إسلامه عزًا وفتحًا ونصرًا للإسلام والمسلمين.

وظهر هذا الأمل، وهذه الثقة أيضًا لدى رسول الله ﷺ عندما جاءه الطفيل بن عمرو يقول له: إن دوسًا قد هلكتْ : (عَصَتْ) ، وأَبَتْ، فادع الله عليهم، فقال ﷺ : « اللهم اهد دوسًا، وائت بهم » [1] .

قال ابن حجر : «وقع مصداق ذلك، فذكر ابن الكلبى أن حبيب بن عمرو بن حثمة الدوسى كان حاكمًا على دوس، وكذا كان أبوه من قبله، وعمَّر ثلاثمائة سنة، وكان حبيب يقول: إنى لأعلم أن للخلق خالقاً، لكن لا أدرى مَنْ هو، فلما سمع النبى ﷺ خرج إليه، ومعه خمسة وسبعون رجلاً من قومه، فأسلم وأسلموا » [2] .

= وبهذه الشواهد جميعاً يصير الحديث ـ كما يقول الدكتور أكرم ضياء العمرى ـ السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٧٨ : «صحيحاً لغيره».

ولكن الشيخ محمد الصادق عرجون فى: محمد رسول الله ١/ ٦١١ ـ ٦٢٧ بتصرف كثير وَهَّى الحديث من حيث المتن، مستنداً إلى أمور، منها:

١ ـ أنه مضطرب الألفاظ فى الروايات، فقد رواه صاحب الصفوة بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بعمرو ـ اى أبى جهل ـ أو عمر»، ورواه ابن إسحاق عن خباب بن الأرت بلفظ: «اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكم ابن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، ورواه ابن سيِّد الناس فى عيون الأثر بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إمَّا أبو جهل بن هشام، وإمَّا عمر ابن الخطاب»، قال: وهذا الاضطراب فى ألفاظ الحديث يضعف روايته، ويوهى نصه.

٢ ـ أن أبا جهل كان ـ منذ جاء الإسلام ـ لعين الله تعالى وملائكته، ورسوله والمسلمين أجمعين بسبب عداوته الشديدة، وإيذائه المستمر للرسول والمسلمين، حسبه ما صنع مع سميَّة أول شهيدة فى الإسلام، وما صنع مع أسماء بنت أبى بكر الصديق يوم الهجرة، وهما امرأتان لا حول لهما ولا قوة، فكيف يتصور أن يدعو رسول الله ﷺ ربَّه أن يؤيد دينه برجل يفقد العزة والكرامة والمروءة ؟ .

٣ ـ أن جعل هذا الخبيث ـ أبا جهل ـ فى ميزان مع عمر بن الخطاب، وهو مَنْ هو فى جاهليته: رجولة، وفتوة، وعزة، وجدَّة، لا يستقيم مع موازين الرجال، والتطلع إليهم ليسهموا فى معالى أمور الحياة وقيادتها، ولو كان وضع الرجلين فى ميزان مستقيماً لكانت الدعوة بإعزاز الدين بالرجلين معاً أجدى وأنفع، والإسلام لا يضيق بإسلام الرجلين، وإعزازهما، وتأييدهما له.

٤ ـ أنه ثبت فى الصحيح دعاء النبى ﷺ على أبى جهل لما أفرط فى إيذائه له، فكيف يدعو عليه، وله، وهو مُجاب الدعوة ؟ .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى: باب قصة دوس والطفيل بن عمرو الدَّوسى ٨/ ١٠١ برقم (٤٣٩٢) (فتح البارى)، ومسلم فى: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة... ٤/ ١٩٥٧ برقم (٢٥٢٤) كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعاً.

(٢) انظر: فتح البارى ٨ / ١٠٢ .

١٠ ـ مشاهدة الأحياء من ذوى الأسوة والقدوة الذين يفرحون بالنقد والنصيحة ويبادرون بالتنفيذ :

ومن أحسن طرق علاج رفض النقد أو النصيحة، مشاهدة الأحياء من ذوى الأسوة والقدوة الذين يفرحون بالنقد أو النصيحة، وينزلون على مقتضاهما، فإن ذلك يحمل على الاقتداء والتأسى أو على الأقل المحاكاة والتشبُّه.

فالابن إذا رأى أبويه قد وجه إليهما نقد أو أسديتْ إليهما نصيحة ونزلا على مقتضاهما ـ حمله ذلك على النسج على منوالهما، وقِس على ذلك كل المواقف التى من هذا القبيل.

١١ ـ الإنكار بالوسيلة المناسبة، وأقلها بالقلب :

ومن أساليب العلاج : الإنكار بالوسيلة المناسبة، وأقلها بالقلب، فإن ذلك أفعل فى التغيير والإصلاح.

إذ يقول النبى ﷺ : « مَنْ رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »[١] .

ويقول أيضًا : « ما مِنْ نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمَّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف مِنْ بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[٢] .

ولقد تحقَّقَ أثر هذا الإنكار على أرض الواقع حين تخلَّف كعب بن مالك، وهلال ابن أميَّة، ومُرارة بن الربيع عن الذهاب مع النبىِّ إلى تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان: باب بيان كون النَّهى عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ رقم (٤٩)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الصلاة: باب الخطبة يوم العيد ١/ ٦٦٧ ـ ٦٧٨ برقم (١١٤٠)، والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان، أو بالقلب ٤/ ٤٠٧، ٤٠٨ برقم (٢١٧٢) وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»،والنسائى فى : السنن: كتاب الإيمان : باب تفاضل أهل الإيمان ٨/ ١١١ ـ ١١٢ برقم (٥٠٠٨، ٥٠٠٩)، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء فى صلاة العيدين ١ / ٤٠٦ برقم (١٢٧٥) ، وكتاب الفتن: باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٣٠ برقم (٤٠١٣)، وأحمد فى: المسند ٣/ ١٠ كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعا.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ ـ ٧٠ برقم (٨٠) ، وأحمد فى : المسند ١/ ٤٥٨ ـ ٤٦٢ كلاهما من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعاً به، إلا أن رواية أحمد انتهت عند قوله: «يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون» .

بغير عذر سوى عذر التسويف، والقدرة على الجهاز واللحاق بالجيش فى أىّ لحظة.

ودعاهم النبىُّ ﷺ لما عاد من الغزو، وسألهم: ما الذى خلَّفكم؟ فكلهم صدق النبى ﷺ... الحديث.

فأمر المسلمين بمقاطعتهم إلى خمسين ليلة، ثم جاء القرآن إلى النبى ﷺ بقبول توبتهم بعد ما أصابهم ما أصابهم.

قال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة].

فقد علمتهم المقاطعة الانتباه وعدم الرجوع إلى الخطأ، وكذلك يمكن أن يحمل الرافضين للنقد، أو للنصيحة على القبول وعدم التمادى.

١٢ ـ تربية ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخوف الآخرة:

وقبل هذا وذاك فإنه ينبغى التركيز على ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنه يسمع ويرى ويعلم، وأننا راجعون إليه لا محالة، ومجزيُّون على أعمالنا بالسوء سوءًا، وبالإحسان إحساناً.

إذ لو تحقق ذلك فإنه يقود لا محالة إلى قبول النقد، والنزول على النصيحة خوفاً من سوء العاقبة، ولذا كانت الدعوة والتربية ـ أول الأمر ـ قائمتين على ذلك، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس]. وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾ [الاعلى]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

حتى إذا قويت هذه الملكة زال الجدل والمراء من صدور الناس، وصاروا أطوع ما يكونون لحكم الله ورسوله، وعندئذ أثنى عليهم ربُّ العزة بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً(٢٣)﴾ [الاحزاب].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ [النور].

الآفة الثلاثون
اللغـــو

والآفة الثلاثون التي يتهاون بها الناس كثيراً وهي من الخطورة بمكان: « اللغو ».

وحتى يتخلص منها من ابتلي بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من القيام بسلسلة من الأعباء تبدأ بالتعرف على أبعاد ومعالم هذه الآفة على النحو التالي :

أولا : تعريف اللغو لغة واصطلاحًا :

لغةً : يُطلق اللغو على معانٍ عدة منها :

١ ـ الميل عن النافع إلى غيره، تقول: لغا عن الصواب، وعن الطريق مال منه إلى غيره من الخطأ ونحوه.

٢ ـ الخطأ أو الباطل، تقول: لغا فلانٌ لغواً، وباللغو: تكلم الخطأ أو الباطل، وبالخطأ أو بالباطل.

٣ ـ لزوم الشيء أو الولع به وعدم مفارقته، تقول: لَغِيَ بالشيء وفي الشيء لزمه أو أولع به وفيه فلم يفارقه.

٤ ـ الإكثار من الشيء مع عدم جدواه، تقول: لَغِيَ بالماء والشَّراب أكثر منه مع عدم ريِّه.

٥ ـ المزاح، تقول : لاغاه: مازحه.

٦ ـ التنغيم، تقول : لَغِيَ بصوته : نغَّم به.

٧ ـ الفحش، تقول: كلمة لاغية : فاحشة .

٨ ـ ما لا يُعتد به، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع، تقول : تكلَّم باللَّغا : قال: ما لا يُعتد به، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع .

٩ ـ ما لا يعقد عليه القلب، مثل: لغو اليمين، وهو قول القائل: لا والله، وبلى والله، مما يصدر باللسان ولا يُراد منه عقد القلب [١] .

وظنّي أنَّه لا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ بعضها يحدد حقيقة اللغو وهو الميل عن النافع إلى غيره، أو الاشتغال بما لا يُعتد به، ولا يحصل منه فائدة ولا نفع، وبعضها يحدد صوره من: المزاح، والتنغيم، والفحش، وما يجرى على اللسان دون قصد أو نيَّة، وبعضها يحدِّد مقداره وحجمه، وهو لزوم الشىء أو الولع به مع عدم مفارقته، وبعضها يجمع ذلك كلَّه، ولكن على سبيل الإجمال لا البسط، وهو الإكثار من الشىء مع عدم جدواه.

اصطلاحًا : اختلفت عبارات العلماء فى تعريفه اصطلاحًا ، ودونك أشهر هذه التعاريف :

١ ـ تعريف ابن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ، إذ قال : « واللغو كلُّ كلام أو فعل باطل، وكل ما يستقبح، كسبِّ الإنسان، وذكر النكاح باسمه فى بعض الأماكن، وسماع الغناء مما هو قبيح ، كل ذلك يدخل فى معنى اللغو الذى يجب أن يجتنبه المؤمن » [٢] .

٢ ـ تعريف الزجاج ت ٣١١هـ، إذ قال: «واللغو : كل لعب، ولهو، وكل معصية فهى مُطَّرحة ملغاة » [٣] .

٣ ـ تعريف أبى حيان الأندلسى ت ٧٥٤ هـ إذ قال : « اللغو : فضول الكلام وما لا طائل تحته»[٤]، وقال أيضًا: «اللغو ما لا يغنيك مِنْ قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة طرحه »[٥] ، وقال : « كل ما ينبغى أن يُلغى ويُطرح » [٦] .

٤ ـ تعريف الحافظ ابن كثير ت ٧٧٤هـ، إذ قال : «اللغو: الباطل، وهو يشمل الشرك، والمعاصى، وما لا فائدة فيه من الأقوال، والأفعال» [٧] .

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادى ٤/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٣١، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٣١، الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ١٠٥٥ مادة : « لغا » بتصرف كثير.

(٢) انظر : جامع البيان : ١٩/ ٣٢ .

(٣) انظر : زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ٤٦٠ .

(٤ ـ ٦) انظر : البحر المحيط ٦/ ٢٠٢، ٣٩٥، ٥١٦ .

(٧) انظر : تفسير القران العظيم ٣/ ٢٣٨ بتصرف.

٥ ـ تعريف ابن عطية ت ٥٤١ هـ، إذ قال : «واللغو : سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبى ﷺ وأصحابه»[1] .

٦ ـ تعريف صديق حسن القنوجي ت ١٣٠٧ هـ إذ قال: «وقيل المراد باللغو: كل ما كان حرامًا، أو مكروهًا، أو مباحًا لم تدع إليه ضرورة، ولا حاجة»[2] .

ومع أن هذه التعاريف جميعًا متقاربة إلا أن أجمعها، وأكثرها إيجازًا ودلالة على المراد هو تعريف الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ ت ٧٧٤هـ، وتعريف أبى حيان ت ٧٥٤هـ الأخير: « كل ما ينبغى أن يُلغى ويُطرح »، ولا مانع من صياغته بعبارة أكثر سهولة ويسرًا بأن يُقال : هو الاشتغال بغير النافع المفيد عن النافع المفيد .

ثانيًا : بعض المظاهر الدَّالة على اللغو مع بيان موقف الإسلام منها :

وهناك مظاهر كثيرة دالة على اللغو، نذكر منها :

١ ـ رفع الصوت بقبيح الغناء، وكذلك سماعه.

٢ ـ كثرة الكلام من غير مبرر ولا موجب .

٣ ـ استخدام الألفاظ النابية أو القبيحة فى التعبير عن الشىء.

٤ ـ اللعب غير المشروع، مثل اللعب بالحمَام، والميسر، ونحو ذلك.

٥ ـ اللهو الباطل على نحو ما جاء فى الحديث الشريف: « كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، أهله، ورميُه بقوسه ونبله، فإنهنَّ من الحق » الحديث[3] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١٠/ ٣٣١ .

(٢) انظر : فتح البيان فى مقاصد القرآن ٩/ ٩٧ .

(٣) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد: باب الرمى ٣/ ٢٨ ـ ٢٩ رقم (٢٥١٣)، والترمذى فى : السُّنن: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله ٤/ ١٤٩ رقم (١٦٣٧)، والنسائى فى : السُّنن: كتاب الخيل: باب تأديب الرجل فرسه ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، من حديث عقبة بن عامر مرفوعًا عند أبى داوُد والنسائى، ومن حديث عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبى حسين، وعقبة عند الترمذى، وابن ماجه فى: السُّنن: كتاب الجهاد: باب الرمى فى سبيل الله ٢/ ٩٤٠ رقم (٢٨١١) من حديث عقبة بن عامر الجهنى، وأوله: « إن الله ليدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفر الجنَّة...» الحديث، وعقَّب عليه الترمذى بقوله: «وفى الباب عن كعب بن مُرَّة، وعمرو بن عَبَسَة، وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح».

٦ ـ المزاح غير المنضبط بضوابط الشرع الحنيف، إذ كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًا، أو الإكثار من المزاح ولو كان منضبطًا بضوابط الشرع.

٧ ـ الوقوف مع أهل اللغو، أو الخوض معهم، ومشاركتهم باطلهم.

٨ ـ الحلف بغير مبرر ولا موجب ولو كان حقًا، ومن باب أولى الحلف بالباطل.

٩ ـ التدخل فيما لا يعنى، وإقحام النَّفْسُ فيما لا ينفع ولا يفيد.

١٠ ـ السخرية واللمز، والاستهزاء، ونحو ذلك.

ويجمع ذلك كله قول صديق بن حسن القنوجى المذكور آنفًا وهو: «كل ما كان حرامًا، أو مكروهًا، أو مباحًا لم تدع إليه ضرورة ولا حاجة».

ولقد ذم الشارع اللغو بكل أشكاله وصوره ومظاهره، حيث جعل الإعراض عنه، وعن أهله من صفات المؤمنين فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [المؤمنون] .

قال أبو حيان : « لـمَّا وصفهم بالخشوع فى الصلاة ، أتبعهم الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشَّاقَّين على الأنفس ، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف » (1) .

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ ﴾ [الفرقان] .

قال أبو حيان : « والمعنى : وإذا مرُّوا بأهل اللغو مرُّوا مُعرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم ، والخوض معهم لقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ انتهى » (2) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥ ﴾ [القصص] .

وحذَّر من مجالسة أهله فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨ ﴾ [الأنعام] .

---

(1) انظر : البحر المحيط ٦/ ٣٩٥ .

(2) انظر : البحر المحيط ٦/ ٥١٦ .

وقال تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء] .

وطهَّر سبحانه الجنة منه بقوله عن أهلها: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] .

وقوله : ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور] . وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا(٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا(٢٦)﴾ [الواقعة] . وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥)﴾ [النبأ] . وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) ﴾ [الغاشية] .

وجاء عن النبيِّ ﷺ قوله : « مِنْ حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في : السنن: كتاب الزهد : باب منه ٤/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤ رقم (٢٣١٧) من حديث الأوزاعي، عن قرَّة، عن الزهري، عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه»، ورقم (٢٣١٨) من حديث مالك بن أنس، عن الزهري، عن علي بن حسين قال: قال رسول الله ﷺ : «إن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وعقَّب عليه بقوله: «وهكذا روى غير واحد من أصحاب الزهري، عن الزهري، عن علي بن حسين عن النبي ﷺ نحو حديث مالك مرسلا، وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، وعلي بن حسين لم يدرك علي بن أبي طالب ».

والإسناد الأول عند الترمذي حسن، ولا يضره أن قرَّة بن عبد الرحمن ـ مع كونه صدوقًا ـ له مناكير، إذ الحديث ليس واحدًا منها، انظر: التقريب ص ٨٠٠ ـ ٨٠١ رقم (٥٥٧٦)، وهكذا حسنه الإمام النووي في الأربعين النووية ووافقه ابن رجب.

وأمَّا الإسناد الثاني فصحيح غير أنه مرسل لأن علي بن الحسين لم يلق النبي ﷺ ، وبيَّن الأئمة الاختلاف في المحفوظ من هاتين الروايتين: فبينما يقول ابن عبد البر: هذا الحديث محفوظ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، نجد أكثر الأئمة يقولون: ليس هو بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنما هو محفوظ عن الزهري، عن علي بن حسين، عن النبي ﷺ مرسلا، وأيًا ما كان فالحديث حسن، انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/ ١٧ ـ ١٩ بتصرف كثير. دار الكتب الجديد، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٦/ ٦٠٨ بتصرف.

وأخرجه ابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة ٢/ ١٣١٥ ـ ١٣١٦ رقم (٣٩٧٦) بالإسناد الأول عند الترمذي، وأحمد في : المسند ١/ ٢٠١ عن ابن غير، ويعلي كلاهما عن حجاج بن دينار الواسطي، عن شعيب بن خالد عن حسين بن علي عن النبي ﷺ ، وعقَّب ابن رجب على ذلك ٢/ ١٩، وعنه نقل المباركفوري ٦/ ٦٠٨ بقوله:« وضعفه البخاري في تاريخه من هذا الوجه أيضًا، وقال: لا يصح إلا عن علي بن الحسين مرسلا».

ومما يتعجب منه بعد كلِّ ما تقدم إيراد الألباني له في : صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ برقم ١٨٨٦/ ٢٤٣٣ وتعقيبه عليه بقوله: « صحيح ـ ابن ماجه ٣٩٧٦ »، ورقم ١٧٨٧/ ٢٤٣٤ وتعقيبه عليه بقوله: « صحيح بما قبله ».

وقوله : « كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه. . .» الحديث [(١)] . وقوله : « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » [(٢)] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٣٩ من هذا الجزء .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب خوف المؤمن من أن يحبط عَمَلُهُ وهو لا يشعر ١/ ١٩، وكتاب الفتن: باب قول النبى ﷺ : «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ٩/ ٦٣ عن زبيد بن الحارث اليامى، والأعمش: سليمان بن مهران كلاهما عن شقيق بن سلمة الأسدى أبى وائل الكوفى، عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، وكتاب الأدب: باب ما يُنهى من السِّباب واللعن ٨/ ١٨ عن سليمان ابن حرب، عن شعبة عن منصور عن أبى وائل، عن ابن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه البخارى بقوله: «تابعه غندر عن شعبة»، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان قول النبى ﷺ : « سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» ١/ ٨١، رقم (١١٦/ ٦٤) من حديث محمد بن طلحة، وسفيان، وشعبة كلهم عن زبيد، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: « قال زبيد: فقلت لأبى وائل: أنت سمعته من عبد الله يرويه عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم»، وليس فى حديث شعبة قول زبيد لأبى وائل، ورقم (١١٧/ ٦٤) من حديث شعبة عن منصور والأعمش كلاهما عن أبى وائل، عن عبد الله، عن النبى ﷺ بمثله، والترمذى فى : السنن: كتاب البرِّ: باب منه ٤/ ٣١١ رقم (١٩٨٣) من حديث زبيد بن الحارث، عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «قال زبيد: قلتُ لأبى وائل: أأنتَ سمعتَه من عبد الله ؟ قال: نعم، وهذا حديث حسن صحيح »، وكتاب الإيمان : باب ما جاء: سباب المؤمن فسوق ٥/ ٢١ ـ ٢٢ رقم (٢٦٣٤) من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه مرفوعًا: «قتال المسلم أخاه كفر، وسبابُه فسوق»، وعقَّب عليه بقوله: « وفى الباب عن سعد، وعبد الله ابن مغفَّل، وحديث ابن مسعود حديث حسن صحيح، وقد روى عن عبد الله بن مسعود من غير وجه»، ورقم (٢٦٣٥) من حديث أبى وائل عن ابن مسعود مرفوعًا: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقال عقيبه: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى: السنن: كتاب تحريم الدم: باب قتال المسلم ٧/ ١٢١ ـ ١٢٢ (المجتبى) من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعًا بلفظ: «قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق»، ومن حديث أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود موقوفًا: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وفى رواية: «فسق» بدل «فسوق»، ومن حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه مرفوعًا: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، ومن حديث أبى وائل عن ابن مسعود مرفوعًا، وموقوفًا، وابن ماجه فى : السنن: المقدمة: باب اجتناب البدع والجدل ١/ ١٨ رقم(٤٦) من حديث أبى الأحوص، عن ابن مسعود مرفوعًا على أنه قطعة من حديث: «إنما هما اثنتان: الكلام والهَدْىُ. . .»، وباب فى الإيمان ١/ ٢٧ رقم (٦٩) من حديث أبى وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، وكتاب الفتن: باب سباب المسلم فسوق: وقتاله كفر ٢/ ١٢٩٩ رقم (٣٩٣٩) من حديث ابن مسعود مرفوعًا بهذا اللفظ، ومن حديث محمد بن الحسن الأسدى، عن أبى هلال، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ٤/ ١٦٥ ـ ١٦٦ بقوله : « إسناد حديث أبى هريرة حسن ، وأبو هلال اسمه: محمد بن سليم، مختلف فيه، وكذلك محمد بن الحسن وله شاهد من حديث ابن مسعود، رواه الشيخان وغيرهما»، وأحمد فى المسند ١/ ٣٨٥، ٤١١، ٤٣٣، ٤٣٩، ٤٥٤ ـ ٤٥٥ من حديث أبى وائل عن ابن مسعود مرفوعًا، هذا وقد خرَّج الحافظ ابن حجر فى: فتح البارى ١/ ١١٢ الحديث تخريجًا مستوعبًا كما ساق له سبب ورود، فقال فى: فتح البارى ١٣/ ٢٧: «وورد لهذا الحديث سبب أخرجه البغوى والطبرانى من طريق أبى خالد الوالبى ، عن عمرو بن النعمان بن مُقَرِّن المزنى =

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة : أكثرهم خوضًا فى الباطل »[(١)] .

وقال سلمان رضي الله عنه : « أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة : أكثرهم كلامًا فى معصية الله »[(٢)] .

إلى غير ذلك مما يشهد بذمِّ الشارع للغو، وتنفيره منه.

ثالثًا : أسباب الوقوع فى اللغو :

والأسباب التى توقع فى اللغو كثيرة، نذكر منها :

١ ـ البيئـة :

فقد تكون البيئة التى يولد بها المرء، وينشأ ويعيش فيها من أبرز الأسباب التى توقع فى اللغو بغض النظر عن كون هذه البيئة قريبة كالبيت أو الأسرة التى ينتمى إليها أم بعيدة كالمجتمع الذى يخالطه، ولذا تقدم التنبيه غير مرَّة على ضرورة الالتزام بضوابط الشرع الحنيف عند بناء الأسرة، وكذلك فى تحديد مكان السكنى والإقامة، وأيضًا الدقة فى اختيار مجتمع الأصحاب والأصدقاء، إذ هذه جميعًا إذا كانت غارقة فى اللهو منغمسة فيه، حملت الناشئة حملا على التأثر والاصطباغ بنفس الصبغة، أما إذا كانت بمنأى عن هذا اللغو فإنها تصبغ الناشئة بصبغتها، وتسقيهم من حياضها.

٢ ـ عدم إدراك المرء رسالته فى الأرض :

وقد يكون عدم إدراك المرء رسالته فى الأرض من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، إذ المرء حينئذٍ يكون أشبه بالعجماوات التى لا همَّ لها سوى ملأ البطون،

= قال: انتهى رسول الله ﷺ إلى مجلس من مجالس الأنصار، ورجل من الأنصار كان عرف بالبذاء، ومشاتمة الناس، فقال رسول الله ﷺ : « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر »، زاد البغوى فى روايته: «فقال ذلك الرجل: والله لا أسَابُّ رجلا».

كما فسر إطلاق الكفر على قتال المؤمن بقوله: « إن أقوى ما قيل فى ذلك أنه أطلق عليه مبالغة فى التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه، أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر».

(١) أورده الغزالى فى: إحياء علوم الدين: الكتاب الرابع من ربع المهلكات: الآفة الثالثة: الخوض فى الباطل ٣/ ١١٦، وعقَّب عليه العراقى فى: المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار بهامش الإحياء بقوله: «أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا، ورجاله ثقات، ورواه هو والطبرانى موقوفًا على ابن مسعود بسند صحيح».

(٢) انظر : إحياء علوم الدين : الكتاب الرابع من المهلكات: الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل ٣/١١٦ .

وإشباع الفروج، وتلك والعياذ بالله سمة الكفار، إذ يقول الحقُّ سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] .

أَجَلْ: إنَّ عدم معرفة الإنسان لرسالته ودوره فى الأرض يعنى: أن نفسه صارت فارغة من الحق، ومَنْ فرغت نفسه من الحقِّ امتلأت بالباطل، وذلك هو اللغو.

٣ ـ تلاشى أو ضعف مراقبة الله عز وجل :

وقد يكون تلاشى أو ضعف مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن المرء إذا لم يؤمن أن الله معه فى كل ظروفه وأحايينه: يسمع، ويرى، ويعلم، أو تضعف لديه هذه المراقبة يقع لا محالة فى كلِّ إثم ورذيلة، وليس هذا سوى اللغو.

وقد جاء فى الحديث ما يكشف عن ذلك، إذ يقول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[(١)] .

يقول المهلب فى معنى نفى الإيمان عنه : «تنزع منه بصيرته فى طاعة الله»[(٢)] .

ويقول ابن الجوزى : « إن المعصية تذهله عن مراعاة الإيمان، وهو تصديق القلب، فكأنَّه نسى مَنْ صدَّق به »[(٣)] .

ويقول ابن حجر : « معنى قوله ليس بمؤمن: أى ليس بمستحضر فى حالة تلبُّسه بالكبيرة جلال مَنْ آمن به، فهو كناية عن الغفلة التى جلبتها له غلبة الشهوة »[(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب المظالم: باب النهبى بغير إذن صاحبه ٣/ ١٧٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب نقصان الإيمان بالمعاصى ١/ ٧٦ ـ ٧٧ رقم (٥٧/ ١٠٠ ـ ١٠٥)، وأبو داود فى : السُّنن: كتاب السُّنة: باب الدليل على زيادة الإيمان، ونقصانه ٥/ ٦٤ ـ ٦٥ رقم (٤٦٨٩)، والترمذى فى: السنن: كتاب الإيمان: باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن ٥/ ١٦ ـ ١٧ رقم (٢٦٢٥)، والنسائى فى: السنن: كتاب قطع السارق: باب تعظيم السرقة ٨/ ٦٤ ـ ٦٥، وابن ماجه فى: السنن : كتاب الفتن : باب النهى عن النهبة ٢/ ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ رقم (٣٩٣٦) كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه.

(٢) انظر: فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١٢/ ٦٠ .

(٣، ٤) انظر : فتح البارى ١٢/ ٦١ .

ويقول الطيبى : (ويحتمل أن يكون الذى نقص من إيمان المذكور: الحياء، وهو المعبَّر عنه فى الحديث الآخر بالنور، وقد مضى أن الحياء من الإيمان، فيكون التقدير: لا يزنى حين يزنى وهو يستحيى من الله، لأنه لو استحيا منه، وهو يعرف أنَّه مُشاهد حاله لم يرتكب ذلك، وإلى ذلك تصح إشارة ابن عباس تشبيك أصابعه، ثم إخراجها منها، ثم إعادتها إليها، ويعضِّده حديث « مَنْ استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى ») (١) .

ويقول الإمام النووى : « اختلف العلماء فى معنى هذا الحديث ، والصحيح الذى قاله المحقِّقون أنَّ معناه: لا يفعل هذه المعاصى، وهو كامل الإيمان، هذا من الألفاظ التى تطلق على الشىء، والمراد نفى كماله، كما يقال : لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا ما يُغَلُّ ، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وإنما تأولناه لحديث أبى ذرٍّ : « مَنْ قال : لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق»، وحديث عبادة الصحيح المشهور: « أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يسرقوا، ولا يزنوا. .» الحديث، وفى آخره: «. . ومَنْ فعل شيئًا من ذلك فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة، ومَنْ لم يُعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه»، فهذا مع قول الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] .

مع إجماع أهل السنة على أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك يضطرنا إلى تأويل الحديث ونظائره، وهو تأويل سائغ فى اللغة مستعمل فيها كثيرًا، وتأوَّله بعض العلماء على من فعله مستحلا، مع علمه بتحريمه » (٢) .

٤ ـ نسيان يوم الحساب والجزاء :

وقد يكون نسيان يوم الحساب والجزاء من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن الإنسان إذا نسى أن أعماله محصية ومكتوبة عليه، وأنَّه رجع إلى ربه لا محالة، ومجزى عن هذه الأعمال بالسوء سوءًا، وبالإحسان إحسانًا إذا نسى ذلك: وجد من نفسه الجرأة على اقتحام اللغو والوقوع فيه، وقد نبَّه ربُّ العزة إلى ذلك بقوله : ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص] .

---

(١) انظر: فتح البارى ١٢/ ٦٢ .

(٢) انظر: فتح البارى ١٢/ ٦٠ ـ ٦٢ حيث يقول ابن حجر: « وحاصل ما اجتمع لنا من الأقوال فى معنى هذا الحديث ثلاثة عشر قولا خارجًا عن قول الخوارج، وعن قول المعتزلة » من جملتها هذه الأقوال المذكورة فى بيان المراد مِنْ سلب الإيمان عَمَّنْ ارتكب جريمة أو أكثر من الجرائم المذكورة فى الحديث.

٥ ـ العمل على تحقيق العبودية على غير هدى وبغير منهاج :

وقد يكون المرء عارفًا بدوره ورسالته فى الأرض، وأنها العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثلة فى عمارة الأرض إلى حدِّ السيادة فيها مع ربط ذلك بمنهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنه يسعى لتحقيق هذه العبودية بغير هدى، وعلى غير منهاج، فتراه يقدم الفروع على الأصول، والنوافل على الفرائض، والمختلف فيه على المجمع عليه، بل ربما توسع فى المباحات إلى حدِّ الولع بها، وعدم الاستغناء عنها، وتلك إحدى صور اللغو التى مضى الحديث عنها آنفًا.

٦ ـ اتباع الهوى :

وقد يكون اتباع الهوى من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن الإنسان إذا تبع هواه من غير هدى من الله، زيَّن له شياطين الإنس والجن الوقوع فى اللغو، وسوَّلت له نفسه الأمارة بالسوء ذلك، وقد يكون من الضعف بحيث يستجيب لهؤلاء جميعًا إشباعًا لهواه، وهذا هو اللغو، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص].

٧ ـ الاحتجاج بحديث : ساعة وساعة :

وقد يكون الاحتجاج بحديث : «ساعة وساعة» [1] ، من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن النفس تسأم وتمل، ولابدَّ لها من المرح، والرفاهية، ولكن بالمشروع، وقد يفهم نفر من الناس أن اللغو هو من المرح، والرفاهية التى تخفف عن النفس السأم والملل، ويزعمون أن ذلك مباح على لسان النبى ﷺ ، حيث أجاب حنظلة الذى جاء إليه ﷺ يشكو له أنه قد نافق، لأنه يجد قسوة من قلبه بعد انصرافه من عند النبى

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ٤/ ٢١٠٦ ـ ٢١٠٧ رقم (٢٧٥٠/ ١٢ ـ ١٣) من حديث حنظلة الأسيدى ـ وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ ـ قال: لقينى أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلتُ: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات ، فنسينا كثيرًا ، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسول الله ﷺ ، فقلتُ: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : «وما ذاك ؟» قلتُ: يا رسول الله، نكون عندك، تذكّرنا بالنار والجنّة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة، وساعة»، ثلاث مرت، وله لفظ آخر عند مسلم أيضًا.

ﷺ واشتغاله بملاعبته أهله وولده، ومعالجة شؤون معاشه، بقوله: «لو تكونون فى بيوتكم كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة فى الشوارع، والطرقات، وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة»، وبئس ما زعموا، فإن النبى ﷺ لا يبيح اللغو، وقد نهى الله عنه فى الآيات التى مضت آنفًا، كما نهى عنه النبى ﷺ فى الأحاديث التى سقناها من قبل فى بيان موقف الإسلام من اللغو، وإنما المراد أن الحياة عدة ساعات، فمنها ساعة للعلم والذكر، وساعة للأهل والولد، وساعة للمعاش، وساعة للأضياف، وساعة للعلاقات الاجتماعية، وساعة للنوم والراحة. . . وهكذا.

وحياته ﷺ خير تطبيق لذلك، حيث كانت أوقاته ﷺ دائرة بين حق الله، وحق نفسه، وحق أهله، وحق أولاده، وأحفاده، وحق أصحابه، وحق أقاربه وأرحامه. . وهلم جرا.

٨ ـ عدم القيام بالواجب نحو المشتغلين باللغو :

وقد يكون عدم القيام بالواجب من الأمة، ومن ولى الأمر نحو المشتغلين باللغو من بين الأسباب التى توقع المرء فى اللغو، وربما تحمله على استمرائه، والتمادى فيه؛ إذ المؤمنون ـ كما ذكر رب العزة سبحانه ـ بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ومَنْ ينسى منهم هذا الواجب، أو يهمله، فإنه يفسح المجال لأهل اللغو أن يستمروا أو يتمادوا، وربما يحتجون بعدم نهى الآخرين لهم أو إنكارهم عليهم.

٩ ـ عدم محاسبة النفس :

وقد يكون عدم محاسبة النفس من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن المرء مطلوب منه أن يحاسب نفسه أولا بأول عن كلِّ ما كسبتْ، فإن وجد خيراً حمد الله، وإن وجد غير ذلك تاب وأناب ورجع إلى الله الواحد القهار، وعزم ألا يعود وإن قطِّع، وحرِّق بالنار، وحين ينسى المرء أو يهمل هذه المحاسبة يقع فى اللغو من حيث لا يدرى ولا يشعر.

١٠ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الوقوع فى اللغو :

وأخيراً قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على الوقوع فى اللغو من بين الأسباب التى توقع فى اللغو، ذلك أن المرء إذا غفل أو نسى العواقب الضارة، والآثار الخطيرة لعمل مَّا فإنه يقع فى هذا العمل، وربما يقيم عليه ولا ينفك عنه بحال.

رابعًا : العواقب والآثار المترتبة على الوقوع فى اللغو :

هذا وهناك عواقب خطيرة، وآثار مهلكة مترتبة على الوقوع فى اللغو سواء على العاملين، أم على العمل الإسلامى، ودونك هذه الآثار والعواقب:

أ ـ على العاملين :

وهى كثيرة نذكر منها :

١ ـ قسوة القلب :

ذلك أن اللغو إثم، وكل إثم يقترفه العبد يسوِّد جانبًا من القلب حتى يسوِّد القلب كله، ومع الاستمرار يقفل، ويطبع عليه بطابع، أو يختم عليه بخاتم، كما جاء فى الحديث : « إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ فى قلبه نُكْتَةٌ سوداءُ ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرانُ الذى ذكر الله: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ »[1] .

وإذا انتهت الحال بالقلب إلى هذا المستوى، فإنه يصبح غاية فى القسوة يأمر الجوارح بكل منكر وشرٍّ .

٢ ـ تبديد القوى والطاقات فيما لا فائدة فيه :

ذلك أن المقارف للغو يبدد قواه وطاقاته فيما لا طائل تحته، ولا فائدة من ورائه، وبذلك يضيِّع أغلى ما يملك، وهو عمره، وفى الحديث : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ »[2] .

٣ ـ تضييع ثواب الطاعات :

ذلك أن المرء المسلم لا ينفك عمله عن بعض الطاعات، وبوقوعه فى اللغو يبطل

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب التفسير : باب ومن سورة ويل للمطففين ٥/ ٤٠٤ رقم (٣٣٣٤)، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الزهد: باب ذكر الذنوب ٢/ ١٤١٨ رقم(٤٢٤٤)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٩٧ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا، واللفظ للترمذى، وعقب على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى : السنن (الكبرى) : كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ . . ﴾ ٦/ ٥٠٩، رقم (١١٦٥٨) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب ما جاء فى الرِّقاق والا عيش إلا عيش الآخرة ٨/ ١٠٩ ، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ٤/ ٤٧٧ رقم (٢٣٠٤)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب الحكمة ٢/ ١٣٩٦ رقم (٤١٧٠)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٤٤ كلهم من حديث عبد الله بن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ.

ثواب هذه الطاعات، وبالتالى تضيع عليه، وقد أشار النبى ﷺ إلى شىء من ذلك حين قال : « إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة أنصتْ، والإمام يخطب فقد لغوت » [(١)] .
وحين قال: « . . . ومَنْ مسَّ الحصا فقد لغا » [(٢)] .

٤ ـ فتح الباب أمام الآخرين للاقتداء والتأسى به فى الإثم :

ذلك أن المقارف للغو يفتح الباب أمام الآخرين لاسيَّما الناشئة، ومَنْ لا حصانة لهم، فيتحمل إثمين : الأول: إثم لغوه، والآخر: إثم اقتداء هؤلاء وتأسيهم به من غير أن ينقص من آثامهم شىء . على حدِّ قوله ﷺ : « . . . مَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئًا » [(٣)] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأمَّا آثار اللغو على العمل الإسلامى فكثيرة من أهمِّها :

١ ـ الفرقة والقطيعة :

ذلك أن اللغو يفسد القلوب ويبدد الطاقات والإمكانات على النحو الذى ذُكِر آنفًا، والنتيجة الحتمية لذلك كله: إنما هى الفرقة والقطيعة، إذ : « الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف » [(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الجمعة: باب فى الإنصات والإمام يخطب ٢/ ١٦، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الجمعة: باب فى الإنصات يوم الجمعة فى الخطبة ٢/ ٥٨٣ رقم (٨٥١/ ١١ ـ ١٢)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الصلاة: باب الكلام والإمام يخطب ١/ ٦٦٥، رقم (١١١٢)، والنسائى فى : السنن: كتاب الجمعة: باب الإنصات للخطبة يوم الجمعة ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤، وابن ماجه فى : السنن: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها: باب ما جاء فى الاستماع للخطبة والإنصات لها ١/ ٣٥٢ رقم (١١١٠)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٤٧٤ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجمعة: باب فضلِ من استمع وأنصت فى الخطبة ٢/ ٥٨٧، ٥٨٨ رقم ٨٥٧/ ٢٧ على أنه قطعة من حديث لفظه: «مَن توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت، غفر له ما بينه وبين الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصا فقد لغا»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١/ ٣٢٧ رقم (١٠٢٥)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٤٢٤ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا واللفظ لمسلم.

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح مختصرًا (تعليقًا): كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب إثم مَنْ دعا إلى ضلالة، أو سنَّ سنة سيئة ٩/ ١٢٧، ومسلم فى: الصحيح : كتاب العلم: باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومَنْ دعا إلى هدى أو ضلالة ٤/ ٢٠٦٠ رقم ٢٦٧٤/ ١٦، وأبو داود فى: السنن: كتاب السنة: باب لزوم السنة ٤/ ٢٠١ رقم ٤٦٠٩، والترمذى فى: السنن: كتاب العلم: باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى ٥/ ٤٣ رقم ٢٦٧٤، وابن ماجه فى: السنن: المقدمة: باب من سن سنة حسنة أو سيئة ١/ ٧٥ برقم (٢٠٦)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٣٩٧، ٥٠٥ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا.

(٤) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الرابع،آفة « الغضب » .

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وهذا أمر بدهى، لأنه إذا سرى الخراب والخلل إلى النفوس بسبب اللغو، ودبَّتْ الفرقة والقطيعة، علت راية الباطل وانتفشت، الأمر الذى يؤدى إلى طول الطريق مع كثرة التكاليف والتبعات.

خامسًا : علاج اللغو، والوقاية منه :

ويمكن علاج اللغو، وكذلك الوقاية منه باتباع هذه الخطوات :

١ ـ الفقه الصحيح للحدود الفاصلة بين اللغو وبين غيره :

إذ مضى معنا من الأسباب: ظن بعض الناس أن اللغو مباح شرعًا بحديث: «ساعة وساعة»، وهذا ناشئ من سوء الفهم للحديث، ولو فهم الحديث على وجهه الصحيح لعرف الحد الفاصل بين اللغو وبين غيره، إذن فبداية التخلص من اللغو بل الوقاية منه إنما تبدأ بالفقه الصحيح لتمييز اللغو عن غيره لئلا يقع المرء فى المحظور، وهو يظن أنه مشروع.

٢ ـ المعايشة الدائمة لكتاب الله وسنة وسيرة النبى ﷺ :

إذ هذه المعايشة تثمر أمورًا منها: التعريف بالله، وكمالاته، بحيث تُبنى ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى النفس فيستحيى المرء مقارفة اللغو لاطلاع ربِّه عليه، ومنها: اليقين بالرجوع إلى الله وإن طال الزمن للحساب والجزاء فيزجره ذلك عن الوقوع فى اللغو، وإن وقع كانت التوبة والإنابة، ومنها معرفة المرء دوره ورسالته فى الأرض، والطريق القويم لأداء هذا الدور، وهذه الرسالة اقتداءً وتأسيًا بالنبى ﷺ، ومنها معرفة جزاء مَنْ حفظ نفسه من اللغو، ومنها معرفة ما يمكن أن يخفف عن النفس من اللهو المباح أو المشروع، إلى غير ذلك من ثمرات هذه المعايشة.

٣ ـ العيش فى بيئة نظيفة نقية من اللغو :

إذ البيئة النظيفة أو النقية من اللغو سواء أكانت قريبة كالبيت، أم بعيدة كالأصدقاء والمجتمع تساعد المرء أن يتخلص من اللغو، بل تحميه أن يقع فيه ابتداءً، حيث قيل: الإنسان ابن بيئته، فإن كانت خيِّرة كان خيِّرًا، وإن كانت شرِّيرة كان شرِّيرًا.

٤ ـ قيام المجتمع بواجبه نحو المعروفين باللغو :

إذ المؤمنون بينهم ولاء مبناه التكافل المادى والمعنوى، قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

ومن التكافل الإنكار على مقترفى اللغو، ولكن بالأسلوب المناسب، انطلاقًا من قوله ﷺ : « مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

٥ ـ قيام ولى الأمر بواجبه فى تنقية وتطهير الحياة من اللغو :

ثم متابعة وملاحقة هؤلاء المقارفين اللغو، ومداواتهم بالأسلوب المناسب، والطريق المجدى، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

٦ ـ التذكير الدائم بحسن حال الإعراض عن اللغو، وعقاب الوقوع فيه:

وذلك ببيان أجر المعرضين عن اللغو وأهله، ومنزلتهم عند الله، وعند الناس، وثمرة ذلك فى الدنيا والآخرة، وكذلك ببيان عواقب وعقاب المقارفين اللغو المصاحبين الخائضين فيه، المحبِّين لهم، فإن النفس تنسى، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير لقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] .

٧ ـ التدرج مع النفس فى التخلص من اللغو :

ذلك أن الإقلاع عما جبلت عليه النفس جملة واحدة قد يكون شاقًا وصعبًا على النفوس، وخير سبيل إنما هى التدرج، وحسبنا أن رب العزة سبحانه حرَّم الخمر وكذلك الربا على أربع مراحل، مراعاة لطبيعة النفس البشرية، وانطلاقًا من واقعها.

فمثلا يصاحب اللاغى فترة للإقلاع عن اللغو الحرام، وثانية للإقلاع عن اللغو المكروه، وثالثة للإقلاع عن الإكثار من اللغو المباح، والولع به، والحبِّ له.. وهكذا.

٨ ـ معاملة النفس بحزم وعزم :

ذلك أن النفس إذا رأتْ من صاحبها تهاونًا سولت له بإعانة شياطين الإنس والجن، وإغراءات الدنيا الوقوع فى اللغو، أمَّا إذا رأت منه الحزم، والإرادة القوية، والعزيمة الصادقة فإنها ترتدع، وترعوى عن الوقوع فى اللغو، بل تقلع عنه بسرعة على حدِّ قول القائل:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ على ... حبِّ الرضاع، وإن تفطمه ينفطم(٢)

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثالث، آفة « الغيبة » .

(٢) البيت من قصيدة البوصيرى ت ٦٩٥ هـ المعروفة بالبردة .

٩ ـ دوام النظر فى قصص النبيين وسير الصالحين :

ذلك أن قصص هؤلاء النبيين، وسير أولئك الصالحين مليء بالكثير الذى يكشف عن حرصهم على طهارة حياتهم من اللغو والإثم، والوقوف على ذلك، مما يولِّد فى النفس معنى الاقتداء والتأسى، أو على الأقل المحاكاة والتشبه، وصدق الله القائل : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

١٠ ـ الترويح عن النفس بالمباح المشروع :

وذلك أن النفس إذا أشبعت بالمباح المشروع امتلأت وقنعتْ، وغضَّتْ الطرف عن الوقوع فى اللغو ونحوه من كلِّ ما ليس بمباح ولا مشروع، وليكن ذلك بقدر من غير غلوٍّ أو إفراط.

١١ ـ محاسبة النفس على الدوام :

وليكنْ ذلك بعد كل سلوك، قولى أو فعلى، وبعد كلِّ ساعة، وبعد كل صلاة، وفى نهاية كل يوم، وفى آخر كل أسبوع، وبانتهاء كل شهر، ومع ربع السنة، ونصفها، وثلاثة أرباعها، وفى آخرها لمعرفة جوانب الخلل، ومحاولة سدِّها أولا بأول، ليظل القلب مضيئًا، والنفس مشرقة، والصدر منشرحًا، والعمل مرضيا عنه من الله والرسول، ومُفْرِحًا للمؤمنين الصادقين. على أن يكون سدُّ الخلل هذا بالمشروع، ومطابقًا للحال أو المقام.

١٢ ـ الاستعانة التامة بالله ـ عزَّ وجلَّ :

وذلك باعتماد مَنْ يريد التوبة من اللغو، والاحتراز من العود إليه مرة أخرى، وكذلك مَنْ حوله ممن يريدون علاجه وحمايته من ذلك. اعتماد هؤلاء جميعًا ـ بعد تنفيذهم ما سبق التنبيه إليه من خطوات ـ على الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض، والذى له الحول والطول، والذى يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه لا يبخل على عباده بعطائه وهم مقيمون على المعصية، فكيف لو أرادوا الطاعة، وشقوا طريقهم إليه؟ وصدق الله الذى يقول : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء] .

والذى يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق] .

الآفة الحادية والثلاثون
الكبت

والآفة الحادية والثلاثون التى كانت وراء شيوع كثير من الفتن والمنكرات، وصارت حجر عثرة فى طريق النبوغ والنهوض والتقدم، إنما هى: « الكبت » .

وحتى يتخلص منها مَنْ شاعت وانتشرت بينهم، ويتوقاها مَنْ سلَّمهم الله - عزَّ وجلَّ - منها، فإنه لابدَّ من القيام بطائفة من الأعباء والمسؤوليات وفى مقدمتها: الوقوف على أبعاد ومعالم هذه الآفة، وفى هذه السطور بيانٌ لهذه الأبعاد، وتلك المعالم على هذا النحو :

أولا : تعريف الكبت لغةً واصطلاحًا :

لغةً : يأتى الكبت فى اللغة على عدَّة معانٍ، منها :

١ - الصرع والهزم، تقول: كبت فلان فلانًا : صَرَعَه وهزَمَه.

٢ - الكسر، والذل، تقول: صرع المسلمون عدوَّهم: كسروه وأذلُّوه.

٣ - الصرف ، والردُّ بغيظ وخزى، تقول: كبت فلان فلانًا: صرفه، وردَّهُ بغيظ وخزى، وكبت الله العدوَّ كبتًا: غاظه، وأذله، وأخزاه، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾ [آل عمران] .

٤ - الحبس، تقول: كَبَتَ فلانٌ غيظه أو شهوته: حبسه.

٥ - الامتلاء غيظًا أو غما ، تقول : اكتبتَ فلانٌ : امتلأ غيظًا أو غما ، يقول الفيروزآبادى: « كَبَتَهُ ، يكبتُهُ: صَرَعهُ، وأخزاه، وصَرَفه، وكَسَرَهُ، وردَّ العدوَّ بغيظه، وأذلَّه، والمكتبتُ : الممتلئ غما »(١) ، وقيل: التاء بدل من الدال، كأنَّ الأصل، كبده، أى فعل به ما يؤذى كبده(٢) .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ١ / ٣٣٦ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ١ / ٣٣٦ ، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى ٣ / ٤٢٧ - ٤٢٨، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٧٢، والصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٩٧٥ .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، لأن بعضها يعبِّرُ عن جوهر الكبت إجمالا، وهو: فعل كل ما يؤذى، وبعضها يعبر عن جوهر الكبت تفصيلا، وهو الصرع، والهزم، أو الكسر، والذل، أو الصرف والرد بغيظ وخزى، أو الحبس للشىء، أو الامتلاء غيظًا أو غمًا.

اصطلاحًا : أما فى الاصطلاح فقد عرَّفه الفلاسفة بأنه عملية نفسية لا شعورية تحول دون خروج الأفكار والرغبات المؤلمة أو المحرَّمة إلى نطاق الشعور رغم بقائها حيَّة فعالة فى اللاشعور [1] .

وتصورى : أن منع خروج الأفكار السيئة، والرغبات المحرَّمة ليست كَبْتًا، وإنما هو نوع من قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وعلوّ الهمة يمنع هذه من الخروج لما فيها من أذىً للنفس وللغير، مع إبدالها بالأفكار السليمة، والرغبات النافعة للنفس وللغير.

وانطلاقًا من ذلك فإن التعريف المناسب للكبت : أنه اسم لمنع أو حبس الأفكار السليمة، والرغبات النافعة، والسلوكيات المستقيمة من الخروج إلى الواقع بصورة تملأ النفس حزنًا وكمدًا، أو غيظًا وغمًا.

ثانيًا : أهم المظاهر الدالة على الكبت مع بيان موقف الإسلام منه :

وهناك مظاهر كثيرة دالة على الكبت، نذكر منها :

١ ـ إلصاق التهم بأصحاب الأفكار النيرة، والسُّلوكيات المستقيمة، والعمل على تشويه صورتهم، وتدنيس سمعتهم.

٢ ـ ملاحقة ومحاصرة أصحاب الأفكار السليمة، والسلوكيات الحميدة، بل إيقاع العقوبات: البدنية، والمالية، والأدبية، ونحوها بهم.

٣ ـ وصف أفكار هذا الصنف من الناس بأنها رجعية، وسلوكياتهم بأنها متأخرة ومنحطة، وغير ملائمة لأفكار العصر وسلوكياته.

٤ ـ فرض الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحرفة على الناس، وهلم جرا.

والإسلام يحظر كبت الآخرين بالمعنى الذى مضى آنفًا لما فيه من حرمان الأمة من إسهامات أصحاب الأفكار النافعة، والسلوكيات السديدة، ويتجلى هذا الحظر فى هذه الصور :

---

(١) انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٩٧٦ .

١ ـ الوعيد بالعذاب الشديد يوم القيامة لكل من يحارب الدعاة إلى الله ويعمل على كبتهم أو تكميم أفواههم، والحيلولة بينهم وبين إبلاغ كلمة الله إلى عباد الله، يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)﴾ [آل عمران] .

يقول الألوسى ـ رحمه الله : « أى أولئك المتصفون بتلك الصفات الشنيعة الذين بطلت أعمالهم، وسقطت عن حيِّز الاعتبار، وخَلَتْ عن الثمرة فى الدنيا، حيث لم تحقن دماؤهم وأموالهم، ولم يستحقوا مدحًا، وثناءً، وفى الآخرة حيث لم تدفع عنهم العذاب ولم ينالوا بسببها الثواب. . . والمراد من انتفاء الناصرين: انتفاء ما يترتب على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفت مِنْ جمع ، فانتفاؤها من واحد أولى، ثم إن هذا الحكم وإن كان عامًّا لسائر الكفار كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٢] إلا أنه له هنا موقعًا، حيث إن هؤلاء الكفرة وصفوا بأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط، وهم ناصرو الحق، ولا يوجد فيهم ناصر يحول بينهم وبين قتل أولئك الكرام، فقوبلوا لذلك بعذاب لا ناصر لهم منه، ولا معين لهم فيه، ومن الناس مَنْ زعم: أن فى الآية مقابلة ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء: الكفر بالعذاب، وقتل الأنبياء بحبط الأعمال، وقتل الآمرين بانتفاء الناصر، وهو كما ترى » [(١)] .

وعن أبى عبيدة بن الجراح قال : قلتُ : يا رسول الله، أىُّ الناس أشد عذابًا يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبيًا، أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر» ثم قرأ الآية، ثم قال ﷺ : « يا أبا عبيدة، قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلا من عُبَّاد بنى إسرائيل، فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم،فهم الذين ذكر الله تعالى » [(٢)] .

٢ ـ الدعوة إلى رفض هذا الكبت بطريق أو بأخرى، وإلا كان العقاب الشديد من الله لمن رضوا بذلك ممثلا هذا العقاب فى اللعن والطرد من رحمة الله مع التباغض والفرقة.

---

(١)انظر : روح المعانى ٣ / ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢)الحديث أورده ابن جرير الطبرى فى : جامع البيان فى تفسير القرآن ٣ / ١٤٤ ـ ١٤٥، وعنه وعن ابن أبى حاتم نقل السيوطى فى : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩ من حديث أبى عبيدة بن الجراح مرفوعًا بهذا اللفظ.

عن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « إن مَنْ كان قبلكم من بنى إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة فنهاه الناهى تعذيرًا، فإذا كان من الغد جالسه، وواكله، وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، على لسان داوُد وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على أيدى المسيء، ولتأطرنَّه على الحق أطرًا [(١)] ، أو ليضرِبَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم » [(٢)] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا رأيتَ أمتى لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم، فقد تودع[(٣)] منهم »[(٤)] .

٣ ـ سقوط منزلة الأمة عندما ترضى بالكبت إلى حدٍّ تسليط غيرها من الأمم عليها، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : لما رجعتْ إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر ، قال : « ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » قال فتيةٌ منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس مرَّت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها

---

(١) لتأطرنَّه على الحقِّ : يعنى لتعطفنَّه، ولتحملنَّه على الحق حملا، تقول: أطر الشيء يأطره: عطفه، وثناه، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٣٤ .

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد: كتاب الفتن: باب وجوب إنكار المنكر ٧/ ٢٩٦ من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعًا بهذا اللفظ، وعزاه إلى الطبرانى قائلا : « رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح ».

(٣) تُوُدِّعَ منهم ـ بضم التاء والواو ـ : مبنى للمجهول من التوديع، والمعنى استُرِيح منهم، وخُذِلوا، وخلِّى بينهم، وبين ما كانوا يرتكبون من المعاصى، وقيل المعنى: أُسلِموا إلى ما استحقوه من النكير عليهم، وتُركوا وما استحبوه من المعاصى حتى يكثروا منها فيستوجبوا العقوبة، وهو من المجاز لأن المُعْتَنى بإصلاح شأن الرجل إذا يئس من صلاحه تركه، واستراح من معاناة النصب معه، ويجوز أن يكون من قولهم: تودَّعتُ الشيء إذا صُنته فى مِيْدَع، يعنى: قد صاروا بحيث يتحفظ منهم، ويتوقون، كما يُتوقَّى شرار الناس، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/١/٢٠١.

(٤) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند (١٩ / ١٧٥، ١٧٦ الفتح الربَّانى) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الفتن: باب وجوب إنكار المنكر ٧/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ، وقال: «رواه أحمد والبزَّار، والطبرانى، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح، وكذا إسناد أحمد، إلا أنَّه وقع فيه فى الأصل غلط»، بيد أن الساعاتى عقَّب على الهيثمى فى: بلوغ الأمانى ١٩/ ١٧٦ بقوله: الغلط الذى أشار إليه : الحسن بن عمرو ـ كما جاء فى النسخة التى وقعت ـ: حدثنا الحسن عن عمرو، والصواب: حدثنا الحسن بن عمرو، كما جاء فى نسختنا، وأورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب، وقال: «رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وأقرَّه الذهبى»، وأورده السيوطى فى: الجامع الصغير، وعزاه للإمام أحمد، والطبرانى فى الكبير، والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان».

قلة من ماء، فمرَّتْ بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعتْ التفتتْ إليه، فقالت: سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسيَّ ، وجمع الأولين، والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غداً، فقال رسول الله ﷺ : «صدقتْ، صدقتْ، كيف يقدِّسُ الله أمَّةً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم »[(١)] .

ورغم هذا فالإسلام لا يمنع الناس أن يدينوا بدين آخر بشرط عدم الدعوة إليه بوسيلة أو بأخرى، قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ۝٦ ﴾ [الكافرون] .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس] .

فإن أصروا على الدعوة إلى كفرهم وباطلهم فلابد من مدافعتهم يعنى كبتهم لئلا تتحول الأرض إلى بؤرة من الشرّ والفساد، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ﴾ [الحج] .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من كبت الشعوب لتختفى الفضيلة، وتنتشر الرذيلة، فإن الموقف لا يختلف كثيراً عن كبت الأفراد، إذ الشعوب هى مجموع الأفراد وما يشعر به الفرد يظهر صداه فى الشعب .

وفى ضوء ما تقدم يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝١٢٧ ﴾ [آل عمران].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : « وأما قوله : ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ فقد فسروه بأقوال ، منها: أن معناه يخزيهم، ومنها: أن معناه يصرعهم لوجوههم، وفى الأساس: كبت الله

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن: كتاب الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢ / ١٣٢٩ برقم (٤٠١٠) من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر مرفوعًا . وأورده الشهاب البوصيرى فى: مصباح الزجاجة برقم (١٤١٠) وعقب عليه قائلا : « إسناده حسن ، وسعيد بن سويد مختلف فيه » .

عدوه»، أكبّه، وأهلكه ، ولكن صاحب الأساس فسَّر الكلمة فى الكشاف بقوله : «ليخزيهم، ويغيظهم بالهزيمة»، وقال الراغب: الكبت الرد بعنف وتذليل . وقال البيضاوى: أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وهن يقع فى القلب، وكل هذه المعانى وردت فى كتب اللغة، وصرح البيضاوى بأن «أو» هنا للتنويع لا للترديد، والمعنى: أنه يقطع طرفًا، وطائفة، ويكبت: طائفة أخرى، أى : ويتوب على طائفة، ويعذب طائفة كما فى الآية الآتية » (١) .

كما يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾ [المجادلة] .

يقول ابن عطية ـ رحمه الله : « هذه الآية نزلت فى المنافقين ، وقوم من اليهود وكانوا فى المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ «يحتكون به»، ويتربصون بهم الدوائر، ويديرون عليهم، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك فنزلت : ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : وهم منافقو الأمة الماضية الذين حادُّوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديمًا فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين » (٢) .

ثالثًا : أسباب الكبت وبواعثه :

وللكبت أسباب توقع فيه، وبواعث تدعو إليه، نذكر منها :

١ ـ حرمان المرء حقه من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح منذ الصغر:

ذلك أن المرء إذا شبَّ محرومًا من التعبير عن رأيه بصراحة ووضوح صعب عليه إعلان ذلك عندما يشب عن الطوق إذ مَنْ نشأ على شىء شاب عليه إلا أن تتداركه رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ .

ولذا كان من أسس التربية : إعطاء الصغير حرية التعبير عمَّا عنده بصراحة ووضوح مع تقويم وتهذيب ما يمكن أن ينطوى عليه ذلك من خلل أو عوج.

٢ ـ الخوف من الوقوع فى الخطأ لمرض ونحوه مع عدم استيعاب المحيطين بالمرء لذلك فيسخرون منه ويستهزئون :

ذلك أن المرء قد يكون مصابًا ببعض عيوب النطق أو لم يدرَّب على الحديث مع الآخرين منذ الصغر، وحينئذ لا يحب أن يبدى رأيه فى شىء خوفًا من الوقوع فى الخطأ، والمحيطون به لا يستوعبون ذلك فينالون منه بسخرية أو استهزاء أو نحو ذلك.

---

(١) انظر : تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ٤ / ١١٧ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١٤ / ٣٤١ ـ ٣٤٢ .

ومن هنا لزم الانتباه للصغير بحيث إذا ظهرتْ به بعض الأمراض لاسيما أمراض النطق أن يعالج بسرعة، وكذلك ينبغى تعويده وتدريبه على لقاء الآخرين، والحديث معهم بحيث يزول حاجز الخوف والرهبة، وتكون الجرأة والشجاعة فى التعبير عن الرأى، وإتيان السلوك الحميد.

٣ ـ عدم تقدير رأى الآخرين والانتفاع به :

ذلك أن عدم تقدير رأى الآخرين ، والانتفاع به كما يفعله ذوو المسؤولية، وصنَّاع القرار فى بلادنا العربية والإسلامية مع أصحاب الآراء الحرَّة النزيهة النافعة من الإهمال والإهدار، بل السخرية والاستهزاء ، مما يكون سببًا فى الوقوع فى الكبت، والاصطلاء بناره.

ومثل ذلك يمكن أن ينطبق على الأبوين مع صغارهما، والأصحاب مع بعضهم البعض. . وهكذا.

٤ ـ ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمساك بالعادات والسلوكيات التى جاء بها الشرع الحنيف:

ذلك أن ضغط العادات والتقاليد الباطلة مع الحرص على الاستمساك بالعادات والسلوكيات التى جاء بها الشرع الحنيف، مما يصيب المرء بالكبت، لاسيما إذا كان عوده لا يزال غضًا طريًا لم يكتسب حصانة ولا مقاومة ضد باطل هذه العادات والتقاليد.

وهذا واضح فى عصرنا الذى كثر فيه الخبث، وانتشرت فيه الفتن، وصار أهل الفضيلة فيه أندر من الكبريت الأحمر، أو حبات اللؤلؤ المتناثرة فى صحراء مترامية الأطراف.

٥ ـ تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذى الكفاية مع عدم القدرة على التعبير:

ذلك أن تقديم فاقد الأهلية أو الضعيف على ذى الكفاية مع عدم القدرة على التعبير مما يصيب المرء بالإحباط والكبت ليس حقدًا أو حسدًا، وإنما لحرمان الأمة من طاقات وإمكانات ذوى الكفاية من أبنائها، وإيقاعها فيما لا تحمد عقباه بواسطة فاقدى الأهلية أو الضعفاء.

٦ ـ العبث بالقيم العليا والمبادئ السامية مع عدم القدزة على التعبير:

ذلك أن العبث بالقيم العليا، والمبادئ السامية كالنيل من الذات الإلهية، وإهانة الأنبياء والمرسلين والملائكة، والعدوان على القرآن، والسخرية من اليوم الآخر، وتحقير

الفضيلة، ونحو ذلك مع عدم القدرة على التغيير.. ذلك كله قد يورث الكبت والقهر والعياذ بالله، والواقع الذى تعيشه الأمة المسلمة اليوم سواء فى بلاد العرب أم فى غيرها من البلدان، والقائم على تسليط وسائل الإعلام، ودور التربية والتعليم للنيل من الإسلام وأهله هو الذى صنع ظاهرة الكبت والقهر التى شاعتْ وانتشرتْ فى ربوع الأمة لاسيَّما بين الشباب، وأثمرتْ هذه الثمار المرة التى سيأتى الحديث عنها فى آثار وعواقب الكبت.

٧ ـ اختلال معايير تقييم الناس :

ذلك أن معيار تقييم الناس الثابت الذى لا يتغيَّر أبدًا من قديم : إنما هو التقوى التى مبناها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، ثم العمل الصالح، وقد ينسى الناس لسببٍ أو لآخر ذلك، وتنشأ معايير أخرى لتقييم الناس من: المال، والجاه، والنسب، والعشيرة.. ونحوها، وكلها معايير يدخل فيها الهوى، ويغطيها الخداع بحيث يحترم الضعيف الذى لا يحسن شيئًا، سوى أنه من الأثرياء، أو من عائلة، أو صاحب مركز ومنصب، ويُهان ذو الكفاية والنباهة، وحينئذٍ لا يجد هؤلاء الأقوياء أصحاب الكفاية والنباهة من ملجأ سوى كبت ما لديهم من خير مع شدة الحسرة والحزن.

٨ ـ خلو الحياة من الصديق الصادق الوفىّ :

ذلك أن شخصية المرء إنما تنضج وتكتمل من خلال الصديق الصادق الوفى الملتزم بمبادئ الشرع الحنيف، وقد يحدث ـ لكثرة الخبث ـ أن تخلو الحياة من هذا الصديق الصادق الوفىّ الذى يفضى إليه المرء بهمومه، ومكنونات نفسه كى يشاركه فى حمل ذلك، وحينئذٍ لا يكون أمامه سوى الكبت والقهر، ولذا رأينا موسى يطلب من ربه حين كلَّفه الذهابَ إلى فرعون ليردَّه عن طغيانه يطلب من ربه الإعانة بأخيه هارون قائلا : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه] .

٩ ـ سوء المعاملة المتمثل فى السخرية والسب والتعذيب ونحو ذلك :

وقد يكون سوء المعاملة المتمثل فى السخرية، والسَّبِّ، والسجن، والتعذيب، والتنكيل بالأهل والأقارب، ونحو ذلك على نحو ما تصنعه كثير من الحكومات العربية والإسلامية بأبنائها ممَّن يستمسكون بالفضيلة، ويرفضون الرذيلة، ويرضون بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًا ورسولا، بدعوى الإرهاب والتطرف، حتى حاول

نفر من هؤلاء الذين لم يتحملوا سوء المعاملة هذه الظهور بمظهر المتحللين من كل قيمة فاضلة أو خُلق سامٍ ، فتراه يرتاد أماكن اللهو والفجور، وإن لم يمارس فيها شيئًا أو يعلق فى بيته صورًا خليعة ماجنة، كل هذا ليبعد عنه تهمة أنه مسلم متطرف أو أصولى، وما هذا كله سوى الكبت والقهر، وقديمًا اضطر عمار بن ياسر أن يخفى إسلامه تحت وطأة التعذيب لعدم تحمله، ويجيب المشركين إلى ما طلبوا، وجاء بعدها يشكو إلى النبى ﷺ الهلاك، وسأله النبى ﷺ : «كيف تجد قلبك ؟». قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. قال: « إن عادوا فَعُدْ »، ونزل قول الله عز وجل : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل] .

١٠ ـ ضعف الإيمان :

وقد يكون ضعف الإيمان هو السبب فى الكبت والقهر، ذلك أن ضعيف الإيمان إذا نزلت به شدة أو محنة ولم يُحسن التصرف فيها أصابه الهلع والجزع، وكان الكبت والقهر، بينما أقوياء الإيمان يقدرون أنَّ الأمر محض ابتلاء من الله ـ عز وجل ـ وعليهم الرضا والتسليم، واستئناف المسيرة ليبدل الله حالهم من ذل إلى عز، ومن هوان إلى رفعة، ومن محنة إلى منحة . . وهكذا.

١١ ـ عدم تقدير عواقب الكبت :

وقد يكون عدم تقدير عواقب الكبت من بين الأسباب التى توقع فيه، ذلك أن من جهل العواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر مَّا وقع فيه دون أن يشعر، لذا وجب التفكير في عواقب أيِّ أمر وآثاره قبل الإقدام عليه.

رابعًا : العواقب والآثار المترتبة على الكبت :

وللكبت عواقب ضارة، وآثار مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامى، ودونك هذه الآثار وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

وهى كثيرة نذكر منها :

١ ـ اضطراب الأعصاب :

ذلك أن الكبت نوع من الضغط على الأعصاب، الأمر الذى ينتهى إلى انحراف

السلوك، وعدم السَّداد فى الرأى، بل عدم القدرة على التكيُّف الاجتماعى، ومَنْ يتابع التدرج التاريخى لمقترفى الجرائم يجد أن نسبة عالية منها مردها إلى الكبت والقهر.

٢ ـ عدم الرحمة أو الشفقة على الغير حين يصير أمره بيده :

ذلك أن الذى عانى الكبت يشعر أنَّه لم يحظ بشىء من الرحمة أو الشفقة، وبالتالى يحاول أن يشفى غليله، وأن يُنَفِّس عن غيظه وحقده بعدم الرحمة والشفقة على الآخرين حين يصير مسؤولا عنهم، وكأنه يرى أن ذلك نوع من الثأر أو القصاص، ومَنْ ينقب فى حياة المستبدين أو المتسلطين أو الطغاة يجدها فى الأعم الأغلب مبناها الكبت والقهر فى مرحلة من مراحلها.

٣ ـ الانتقام الشديد مِمَّن كان سببًا فى الكبت حين تُتاح الفرصة :

وموقف بلال من أميَّة بن خلف يوم بدر ذلك الذى كان يتفنَّن فى تعذيبه وكبته وقهره فى مكة خير شاهد على ذلك، إذ يقول عبد الرحمن بن عوف:

« كاتبتُ أميَّة بن خلف كتابًا بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة، فلما ذكرتُ « الرحمن » قال: لا أعرف الرحمن، كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية فكاتَبْتُه: عبد عمرو، فلما كان فى يوم بدر خرجتُ إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال : أميَّة بن خلف، لا نجوتُ إن نجا أميَّة، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيتُ أن يلحقونا خلفتُ لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبَوا حتى يتبعونا ـ وكان رجلا ثقيلا ـ فلما أدركونا قلتُ له: ابرك، فبرك، فألقيتُ عليه نفسى لأمنعه فتخلَّلوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه [(١)] .

٤ ـ العزلة والانقطاع عن الناس أو ما يسمَّى بالاكتئاب :

وقد لا تتاح الفرصة للمكبوت أو المقهور أن يبدى ما بداخله ، فيترجم ذلك إلى عزلة وانقطاع، أو ما يُعرف بالاكتئاب، وبذلك تخسر الأمة طاقات وإمكانات كان بمقدورها الإسهام فى دفع مسيرة الأمة إلى الأمام، ورفع رايتها خفاقة فى العالمين.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوكالة : باب إذا وكَّل المسلم حربيًا فى دار الحرب، أو فى دار الإسلام جاز ٣/ ١٢٩، وكتاب المغازى: باب قتل أبى جهل ٥/ ٩٦ من حديث عبد الرحمن بن عوف بهذا اللفظ، ومختصرًا .

٥ ـ النفاق ، أو إظهار خلاف ما يبطن :

وقد ينتهى الكبت والقهر بصاحبه إلى النِّفاق أو إظهار خلاف ما يُبطن اتقاء أذى الجبارين والمتسلطين، أو المستبدين، فإن صاحب المسؤولية إذا ابتغى الريبة فيمن تحت سلطانه أفسدهم.

٦ ـ الحقد على الآخرين :

وقد تكون عاقبته كذلك: الحقد على الآخرين خصوصًا إذا استمر هذا الكبت أو القهر دون تنفيس أو تفريج، ويوم تنتشر الأحقاد بين الناس فقد تودع منهم، وصارت الأبـواب مفتوحة أمام الأعداء للنيل من حريتهم وكرامتهم.

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار الكبت على العمل الإسلامى :

١ ـ حرمان المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته :

إذ ما يصيب الأفراد ينعكس على المجتمع، وتكون النتيجة حرمان هذا المجتمع من خيرة طاقاته وإمكاناته، الأمر الذى يؤدى إلى طول الطريق مع كثرة التكاليف.

٢ ـ انتشار الجريمة :

وقد يؤدى الكبت إلى انتشار الجريمة بين ربوع المجتمع فيغيب الأمن والأمان، ويتأخر هذا المجتمع ، فتعظم التكاليف كذلك وتطول الطريق.

٣ ـ الفرقة والشتات :

وأخيرًا تكون الكراهية بين أبناء المجتمع، وتكون الفُرقة والشتات، الأمر الذى يُطمع الأعداء، ويدفعهم إلى النيل من كرامة وعزة الأمـة.

خامسًا : علاج الكبت والوقاية منه :

يمكن علاج الكبت والوقاية منه على ضوء ما تقدم باتباع هذه الخطوات:

١ ـ تعريف المرء رسالته فى الأرض ومعوِّقات الطريق وسبيل النجاة :

ذلك أن الإنسان إذا عرف رسالته فى الأرض، ووقف على معوِّقات الطريق، وسبيل النجاة، وتجاوز هذه العقبات انطلق يؤدى هذه الرسالة غير مبال بما يلحقه من

أذىً أو شدة، بل إنه ليحتسب ذلك كله عند الله، فأين الكبت إذن والقهر، وصفحات تاريخنا كلها إشراقةٌ وبهاء في هذا المعنى.

تروي عائشة رضي الله عنها فتقول: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألحّ أبو بكر على النبي ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر، إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضُرِبوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووَطِئ أبو بكر، وضُرِب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عُتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلتْ المشركين عن أبي بكر، وحملتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعتْ بنو تيم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمّه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خَلَتْ به ألحّت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالتْ: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فخرجتْ حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد ابن عبد الله؟ فقالتْ: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت: نعم، فمضيتْ معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنتْ بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسوق وكفر، وإنّي لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: فأين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله عليَّ ألا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتى إذا هدأتْ الرِّجْل، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبّله، وأكب عليه

المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي برَّةٌ بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرًا ـ وهم تسعة وثلاثون رجلا ـ وقد كان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضُرِبَ أبو بكر »[1] .

ولما أسلم أبو ذر الغفارى قال له النبى ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى ».

فقال: والذى بعثك بالحق لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه مِنْ غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا إليه، فأكب العباس عليه. . . الحديث[2] .

والنماذج من حياة الصحابة أكثر من أن تحصى، ومثل ذلك وقع فى عصر المُلك الجبرى الذى تعيشه الأمة المسلمة اليوم، فقد وقف أبناء الحركة الإسلامية فى وجه الطغيان ومحاولة فرض المناهج الشيوعية، والصليبية، والصهيونية، والعلمانية، والبعثية، والطائفية، ونحوها، وتحملوا ومازالوا يتحملون فى ذلك الشيء الكثير رافضين أن يكونوا أسرى الكبت والقهر، ومحتسبين كل ما يصيبهم فى ذات الله، موقنين أن هذه طريق أصحاب الدعوات: شدائد، وامتحانات، وتعذيب، وتنكيل، ثم يكون النصر والتمكين، والأمن والأمان.

٢ ـ التنشئة على إبداء الرأى وتقويمه بحكمة إن كان خاطئًا :

عن سهل قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون فى هذا ؟» قالوا: حريٌّ إنْ خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمع، قال : ثم سكت، فمرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون فى هذا ؟ » قالوا : حريٌّ إن

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) الحديث قطعة من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب مناقب الأنصار: باب إسلام أبى ذرٍّ رضي الله عنه ٥ / ٥٩ ـ ٦٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أبى ذرٍّ رضي الله عنه ٤/ ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ رقم (٢٤٧٤ / ١٣٣) كلاهما من حديث ابن عباس مرفوعًا به .

خطب ألا يُنْكَح ، وإن شفع ألا يُشفَّع ، وإن قال ألا يُستمع، فقال رسول الله ﷺ : «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا »(١) .

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية: أن أباها زوَّجها، وهى ثيِّب، فكرهتْ ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها (٢) .

وكان ﷺ يشاور أصحابه فيما لا نصَّ فيه نزولا على قوله سبحانه : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وتشجيعًا لهم على إبداء الرأى واحترامه، وتقويمه بحكمة إن كان به شيء من الخلل، وكذلك فعل الأئمة من بعده ﷺ إلى وقت قريب جداً.

عن الحسن قال : « ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم»، وفى لفظ « إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذى ينفع » (٣) .

وعنه أيضًا قال : « قد علم أنه ما به إليهم حاجةٌ ، ولكن أراد أن يستنَّ به مَنْ بعده » (٤) .

وقال الشافعى : « إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبِّهه على ما يغفل عنه، ويدلُّه على ما لا يستحضره من الدليل لا ليقلِّد المشير فيما يقوله، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ ، وقد ورد من استشارة الأئمة بعد النبى ﷺ أخبار كثيرة منها: مشاورة أبى بكر رضي الله عنه فى قتال أهل الردة،وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، واستشارة عثمان بن عفان رضي الله عنه الصحابة فى جمع الناس على مصحف واحد . . وهلم جرا » (٥) .

---

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ فى : الصحيح : كتاب النكاح: باب الأكفاء فى الدين ٧/ ٩ ـ ١٠، وكتاب الرِّقاق: باب فضل الفقر ٨/ ١١٨ ـ ١١٩، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الزهد: باب فضل الفقراء ٢/ ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠ رقم ٤١٢٠ كلاهما من حديث سهل بن سعد السَّاعدى مرفوعًا واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح: باب إذا زوَّج ابنته وهى كارهة فنكاحه مردود ٧/ ٢٣ من حديث عبد الرحمن، ومجمِّع ابنى يزيد بن جارية عن خنساء بنت خدام الأنصارية مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٣) الحديث أورده ابن حجر فى: فتح البارى ١٣/ ٣٤٠ وعزاه إلى البخارى فى الأدب المفرد، وابن أبى حاتم قائلا: «أخرج البخارى فى الأدب المفرد: وابن أبى حاتم بسندى قوىٍّ عن الحسن قال: «ما تشاور قوم قطٌّ بينهم إلا هداهم الله. . . »الحديث .

(٤) الحديث أورده ابن حجر فى : فتح البارى ١٣/ ٣٤٠ وعزاه إلى ابن أبى حاتم قائلا : « وأخرج ابن أبى حاتم بسند حسن عن الحسن قال: « قد علم أنه ما به إليهم حاجة. . . » الحديث.

(٥) انظر : فتح البارى ١٣ / ٣٤٢ ـ ٣٤٣ بتصرف كثير.

٣ ـ احترام آراء الآخرين ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة :

هذا عبد الله بن الزبير بن العوام يأتى النبى ﷺ ـ كما تقول أمُّهُ أسماء ـ بعد سبع سنين ليبايع النبى ﷺ وقد أمره بذلك أبوه الزبير، فتبسَّم النبى ﷺ حين رآه مقبلا، ثم بايعه [١].

وهذا عمر بن الخطاب يدعوه رسول الله ﷺ ليبعثه برسالته إلى أهل مكة يوم الحديبية يخبرهم بمقصده، وأنه لا يريد الحرب، وإنما يريد بيت الله الحرام للعمرة، فيبدى عمر رأيه فى هذه المهمَّة قائلا: « يا رسول الله ، إنى أخاف قريشًا على نفسى وليس بها من بنى عدىٍّ أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزُّ منى: عثمان ابن عفَّـان»، واحترم النبى ﷺ رأيه، فدعا عثمان فبعثه برسالته إلى قريش.

ولما انتهى عقد الصلح بين النبى ﷺ وبين سهيل بن عمرو ـ ممثل قريش فى الحديبية ـ قام رسول الله ﷺ فقال: « يا أيها الناس انحروا، واحلقوا »، قال: فما قام أحد، قال : ثم عاد بمثلها، فما قام رجل، حتى عاد بمثلها فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أمِّ سلمة، فقال: « يا أمَّ سلمة، ما شأن الناس؟ » قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت، فلا تكلمنَّ منهم إنسانًا، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحدًا حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون، ويحلقون. . . الحديث [٢].

إلى غير ذلك من الصور الدالة على احترامه ﷺ آراء الآخرين ، ومحاولة توظيف هذه الآراء إن كانت نافعة، وهكذا ينبغى اتباع هذا المنهج فى علاج الكبت بل توقيـه.

---

(١) الحديث قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الآداب: باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله ٣/ ١٦٩٠ ـ ١٦٩١ رقم (٢١٤٦ / ٢٥)، وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٣٦٥ .

(٢) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه أحمد فى : المسند ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم قالا: « خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة. . .» الحديث، وابن هشام فى: السيرة النبوية ٣/ ٣٠٨، وعنهما نقل الدكتور أكرم ضياء العمرى فى: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٦ بتصرف كثير.

٤ ـ السماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود :

ذلك أن السَّماح للقيم العليا، والمبادئ السامية أن تسود، من شأنه أن يقضى على القيم الهابطة والمبادئ الساقطة، أو على الأقل يحاصرهما ويحصرهما فى دائرة ضيِّقة، فيزول بهذا سبب أساسى من أسباب الكبت والقهر من منطلق أن القيم العليا، والمبادئ السامية استجابة لنداء الفطرة، وإذا استجيب لنداء الفطرة كان الأمن والأمان والسكينة والطمأنينة، والعكس بالعكس.

وما غاية الجهاد فى ديننا الحنيف، بل فى رسالات الأنبياء والمرسلين جميعًا سوى إفساح المجال أمام القيم العليا والمبادئ السامية أن تأخذ طريقها إلى عقول الناس وقلوبهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

[البقرة : ٢٥١]

وإذ يقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

وصدق النبى ﷺ إذ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كَمَثَلِ قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ مَنْ فوقنا ؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعًا »[1] .

٥ ـ حُسن المعاملة للغير ولو كان مخطئًا :

ذلك أن حسن معاملة الغير ـ ولو كان مخطئًا ـ تجعل العدو صديقًا، والبعيد قريبًا، وتقضى على الكبت والقهر ، أو تخفف من حدتهما ، وصدق الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت] .

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشركة: باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه ٣/ ١٨٢ ، وكتاب الشهادات: باب القرعة فى المشكلات ٣/ ٢٧٣ ، والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب منه ٤/ ٤٠٨ رقم (٢١٧٣)، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، كلهم من حديث النعمان بن بشير ﷺ مرفوعا. واللفظ للبخارى .

ومن حُسن المعاملة : الحوار الهادف الهادئ، والإصغاء للرأى الآخر، ومحاكمة الحجة بالحجة، والنزول على الحقِّ بغض النظر عمَّنْ هَدَى إليه، وأبرزه فى الناس، وفى كتاب الله وسنة النبى ﷺ وسيرته من الجدل والمحاورة ومقارعة الحجة بالحجة الشىء الكثير، وحسبنا هنا ما دار بين موسى وهارون وبين الطاغية الجبار الذى قال للناس : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] . وقال لهم أيضًا : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨]. وقال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

٦ ـ مراعاة المعايير الإلهية فى تقييم الناس، وإسناد المهام إليهم :

إذ بَيَّن ربُّ العزَّة فى كتابه الكريم معايير وموازين تقييم الناس بقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وبقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ].

كما بيَّن ذلك على لسان نبيه ﷺ ، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، فلا فضل لعربى على أعجمى، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى » [(١)] .

وعن أبى ذر رضي الله عنه أنَّ النبى ﷺ قال له : « انظر فإنَّك لست بخير من أحمر، ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » [(٢)] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ سُئل: أى الناس أكرم؟ قال : «أكرمهم عند الله أتقاهم . . . » الحديث [(٣)] .

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٨/ ٨٤، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط، والبزَّار بنحوه إلا أنه قال: إن أباكم واحد، وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خُلِقَ من تراب، ورجال البزَّار رجال الصحيح».

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ١٥٨ بهذا اللفظ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الأدب: باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٨/ ٨٤، وعزاه إلى أحمد قائلا: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزنى لم يسمع من أبى ذر».

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ٤/ ١٨٢، وكتاب التفسير: سورة يوسف: باب قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ٦/ ٩٥ من حديث أبى هريرة مرفوعًا، ولفظه ـ كما فى الرواية الثانية ـ قال: سئل رسول الله ﷺ : أىُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس: يوسف نبى الله ابن نبىِّ الله ابن نبىِّ الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»، وعقَّب عليه بقوله: « تابعه أبو أسامة عن عبيد الله ».

وبيَّنه أيضًا فى قول ابنة العبد الصالح لأبيها فى شأن موسى ﷺ : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص] .

وجملة هذه المعايير: الكفاية والتقوى، أو القوة والأمانة، ومراعاتهما فى تقييم الناس، وإسناد المهامِّ إليهم يقضى على الكبت والقهر، بل يحمى النفس أصلا من ذلك.

٧ ـ معايشة الصديق الصادق الوفىِّ :

ذلك أن معايشة الصديق الصادق الوفىِّ تقضى على الكبت أو القهر، بل تحمى النفس أصلا من الإصابة بهذا النوع من الآفات، إذ من خصائصها: المواساة التى منها حكاية ما يعانى منه المكبوت أو المقهور لصديقه وأسباب ذلك، ورسم طريق العلاج والوقاية، وقد صوَّر ذلك نبى الله موسى ﷺ فى قوله لربه : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ [طه] .

كما صوره علقمة فى وصيته لولده بقوله : « يا بنىَّ، إذا عرضتْ لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب مَنْ إذا خدمتَه صانَك، وإن صحبتَه زانَك، وإن قعدت بك مؤونة مانَكَ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيئة سترها، اصحبْ مَنْ إذا سألته أعطاك، وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلتْ بك نازلةٌ واساك، اصحب مَنْ إذا قلتَ صَدَّقَ قولك، وإن حاولتَ أمراً آمرك، وإن تنازعتما آثرك » .

٨ ـ الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولى :

ويُعدُّ الإكثار من ذكر الله بمعناه العام الشمولى الجامع لذكر الله العقلى بالعلم والتفكر، والقلبى بالتعظيم لله، والحبِّ، واللسانى بالثناء عليه سبحانه بما هو أهله، والبدنى بتوظيف البدن فيما يرضيه سبحانه وتعالى، ثم دعوة الآخرين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، فإن المواظبة على الذكر تفرغ النفس من كل كبت أو قهر، وتملؤها بالأمن والأمان والطمأنينة وسكينة النفس، وصدق الله الذى يقول : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد] . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الانعام] . ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة] .

على أن هذا الذكر من شأنه إلانة القلوب، وحمل النفس على العفو والصفح الجميل طمعًا فى الأجر من الله والمثوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] .

وكما قال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] .

٩ ـ التذكير بعواقب الكبت :

ولعل التذكير المستمر بعواقب الكبت أو القهر على النحو الذى تقدم مما يعين على التخلص من هذا الداء أو هذه الآفة، بل الحماية والوقاية، إذ النفس من شأنها النسيان والغفلة والتذكير خير علاج لذلك، قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]. وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى].

الآفة الثانية والثلاثون
اليأس والقنوط

والآفة الثانية والثلاثون التى يُراد للأمة الإسلامية ـ أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين ـ بلوغها والوقوع فى شباكها وحبائلها إنما هى: «اليأس والقنوط».

وحتى يعالج منها مَنْ ابتلى بها، ويتوقاها، ويتحصن منها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من الواجبات تجمعها هذه السطور:

أولا : تعريف اليأس والقنوط لغة واصطلاحًا :

أ ـ اليأس لغة : يأتى اليأس لغة على معانٍ منها :

١ ـ انقطاع الأمل من الشىء، وانتفاء الطمع فيه، تقول: يئس من الشىء ييأسُ، وَيَيْئِس يائسًا، ويآسةً : انقطع أمله منه، وانتفى طمعه فيه فهو يائس، ويؤوس، ويئس، ومنه: يئست المرأة: عقمتْ، فهى يائسة، ويئسة، ويقال للعقيم من النساء: يائس[1] .

٢ ـ الذل أو القهر والخضوع، أو اللين والتصاغر، تقول: آس أيسا: ذلَّ وخضع، وأس فلانٌ فلانًا: قهره، وتأيَّس فلانٌ فلانًا: لان وتصاغر[2] .

ولا تعارض بين المعنيين: إذ انقطاع الأمل من الشىء، وانتفاء الطمع فيه يفضى إلى الذلِّ والقهر، أو اللين والتصاغر مع الخضوع .

ب ـ اليأس اصطلاحًا : هو انقطاع الرجاء فى الخروج من المأزق الراهن الذى تعيشه الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين بصورة تفضى إلى الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام[3] .

(١، ٢) انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٦٢ مادة: «يئس»، ١٠/ ٥٣ مادة «أيس»، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ لأحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبى ت ٧٥٦هـ ٤/ ٤٠١، ٤٠٢، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ٢/ ٢٨٩ مادة: «أيس»، ٢/ ٣٧٩ مادة : « يئس » ، والمعجم الوسيط ١/ ٣٤، ٢/ ١٠٦٢.

(٣) المرجع السابق .

أ ـ القنوط لغة :

١ ـ هو أشد اليأس من الشيء، تقول: قَنَط يقنَط فهو قانط، وقَنوط: شديد اليأس من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى : ٢٨] .

٢ ـ هو اليأس نفسه، ومنه قوله تعالى في التنزيل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] (١) .

ب ـ القنوط اصطلاحًا : هو شدة انقطاع الرجاء في الخروج من المأزق الراهن الذى تعيشه الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين بصورة تفضى إلى الذل والقهر، أو اللين والتصاغر، والخضوع والاستسلام (٢) .

ثانيًا : بعض المظاهر الدالة على اليأس والقنوط مع بيان موقف الإسلام من هذه الآفة :

وهناك مظاهر كثيرة تدل على اليأس والقنوط، نذكر منها :

١ ـ التخلِّي عن الالتزام بالإسلام بدعوى أن الالتزام بالإسلام جرَّ علينا ويلات، وويلات، وأعطى الأعداء فرصة لحربنا مرَّة باسم: الإرهاب، وثانية باسم: التطرف، وثالثة باسم: الأصولية. . . وهكذا.

٢ ـ القعود عن جهاد الدعوة إلى الله، والتربية بدعوى أننا ندعو الآخرين ونربيهم على العمل بدين الله، ولدين الله، من أجل تصدير هؤلاء إلى سجون ومعتقلات الطغاة والجبارين الذين ابتليت بهم هذه الأمة، أو بدعوى أنَّ ما نصل إليه من نجاحات مع هؤلاء فى سنوات تهدمه وسائل الإعلام، ومدارس، ومعاهد التعليم ذات التوجه المخالف لعقيدة الأمة فى لحظات.

٣ ـ عدم الثقة بأيِّ شيء ينتمى إلى الإسلام سواء فى المجال الاقتصادى، أو التعليمى، أو الصحى، أو الإعلامى، أو السياسى، أو الاجتماعى، أو غير ذلك من المجالات، بل السخرية، والاستهزاء.

٤ ـ تثبيط همم الملتزمين بالإسلام، والداعين إليه، بدعوى: أنكم ما عملتم شيئًا سوى إفناء أعماركم فى سلسلة طويلة من الشدائد والامتحانات عادت بالضرر عليكم وعلى أهليكم، وذويكم، بل على الأمة جميعًا.

(١ ، ٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٧٩، وعمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٣/ ٤٠١، والقاموس المحيط ٢/ ٥٦٢، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٦٢ مادة : « قنط » بتصرف.

٥ ـ الثقة المطلقة بأعداء الأمة بدعوى نجاحهم فى كلِّ شىء، أو إمساكهم بزمام العالم، وقدرتهم على متابعتنا، وملاحقتنا حتى فى مخادع النوم، وإنزال الضرر بنا إن أرادوا.

٦ ـ تصديق أعداء الأمة فى كلِّ ما يقولونه عنا لاسيَّما فى مجال تشويه تاريخنا، ومسيرتنا الإسلامية، بل ترديد ذلك وإشاعته، وإذاعته بيننا بكل ما يمكن من أساليب ووسائل إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على اليأس والقنوط.

هذا.. ويقف الإسلام من هذه الآفة موقف المحرِّم لها، الرافض الوقوع فى حبائلها وشباكها، ومن باب أولى الدعوة إليها، قال تعالى على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو يستحث أبناءه الضرب فى الأرض طلبًا ليوسف وأخيه يحدوهم الأمل، والرجاء فى الله دون يأس أو قنوط من باب أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف] .

يقول الإمام الألوسى ـ رحمه الله : « ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ : أى لا تقنطوا من فرجه سبحانه، وتنفيسه ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ : لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإن العارف لا يقنط فى حال من الأحوال، أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك » [1] .

وقال تعالى مبيِّنًا أنه من أخلاق الكافرين فى أكثر من آية : منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾

[العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ [الممتحنة] .

وفى معنى يأس هؤلاء قال ابن جرير الطبرى : « واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك قد يئس هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم من اليهود مِنْ ثواب الله فى الآخرة، وأن يُبعثوا كما يئس الكفار الأحياء من أمواتهم الذين هم فى القبور أن يرجعوا إليهم... وقال آخرون : بل معنى ذلك قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها،

---

(1) انظر : روح المعانى ١٣ / ٤٤ المجلد الخامس .

ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا، وصاروا إلى القبور من رحمة الله، وعفوه عنهم فى الآخرة، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم».

ثم ساق من المأثور ما يؤيِّد كلا من القولين [(١)] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣ ﴾ [الإسراء] . وقال تعالى : ﴿ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ ﴾ [فصلت] .

والإنسان فى هذه الآيات الثلاث الأخيرة : هو الكافر أو هو الذى يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ۝٥٦ ﴾ [الحجر] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦ ﴾ [الروم] .

ودعا صراحة إلى التحرر منها بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾ [الزمر] .

ولا يقولنَّ قائل: كيف يكون اليأس حرامًا، والله حكى عن الأنبياء سريانه إلى نفوسهم بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝١١٠ ﴾ [يوسف] .

والجواب أن فى تحديد المراد من الاستيئاس هنا أقوالا، منها :

١ ـ أن الرسل أيسوا من إيمان قومهم، وأن قومهم ظنُّوا أن الرسل كذبوا بدليل ما رواه الطبرى بأسانيد متنوعة من طريق عمران بن الحارث، وسعيد بن جبير، وأبى الضُّحى، وعلى بن أبى طلحة، والعوفى، كلهم: عن ابن عباس فى هذه الآية قال: «أيس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل كذبوا » [(٢)] .

---

(١) انظر : جامع البيان ٢٨/ ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٤ ـ ٥٦ م٧ ، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٨ .

وعند النسائى من طريق أخرى عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿قَدْ كُذِبُوا ﴾ قال : « استيأس الرسل مِنْ إيمان قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم» [(١)] .

٢ ـ أو أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر أن يتخلف النصر لا من تهمة بوعد الله، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثتْ حدثًا ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال، واشتد البلاء عليهم دخلهم الظنُّ من هذه الجهة[(٢)] ، والراجح هو القول الأول تنزيهًا للرسل الذين جاءوا لزرع الثقة والأمل فى النفوس بعد اقتلاع جذور اليأس والقنوط[(٣)] .

ثالثًا : أسباب وبواعث اليأس والقنوط :

وهناك أسباب تؤدى إلى اليأس والقنوط، وبواعث تحمل عليهما نذكر منها:

١ ـ كثرة الإخفاق، ودوام الفشل مع إهمال النفس من المحاسبة :

ذلك أن المرء عرضة فى عمله للنجاح والفشل، والفوز والإخفاق، بيد أن الإخفاق إذا كثر، وتتابع الفشل، ولم يراجع المرء نفسه ليعرف سبب هذا الإخفاق، وبواعث هذا الفشل، ويعمل على التخلص منها، فإنه قد يصاب بنوع من اليأس والقنوط ينتهيان به إلى أثر أو أكثر من آثار اليأس والقنوط التى سنعرض لها بعد قليل.

والمتأمل فى جهاد الأمة المسلمة فى نهاية القرن الميلادى الماضى وهذا القرن يجد أن هذه الأمة بذلت الكثير من نفسها ومالها لتطهير أرضها من الغاصبين والمحتلين، ولكن المتربصين ممن لا دين لهم ولا خلاق من أبناء هذه الأمة استطاعوا ـ بطريق أو بأخرى ـ سرقة هذا الجهاد، وتوظيفه لصالح الغاصبين المحتلين من ناحية، وتحقيق مآربهم ومصالحهم الشخصية من ناحية أخرى، ولم تفكر الأمة فى مراجعة نفسها، ومعرفة سبب هذه المحنة، بل سبب تكرارها فى أكثر من مكان، الأمر الذى يوشك أن يلقى

---

(١) انظر : السنن الكبرى: كتاب التفسير: باب قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ٦/ ٣٠ ٧ رقم (١١٢٥٧) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ، وقال عنه ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٩: « وإسناده حسن» .

(٢) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٦ ـ ٥٧ م٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٨ .

(٣) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٣ / ٥٧ ـ ٥٨ م٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٨/ ٣٦٩ .

على الأمة ظلالا من اليأس والقنوط، إلا أن تتداركها رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقس على ذلك تصفية شركات توظيف الأموال، وحل النقابات والجمعيات العلمية، ونوادى أعضاء هيئة التدريس، وتغيير مناهج التعليم، وتشويه تاريخ الأمة المجيد فى أكثر من بلد وناحية، مع إهمال البحث عن سبب ذلك، والعمل على التخلص منه، ومداواته بما يناسب من الدواء.

٢ ـ الجهل بموقف الإسلام من اليأس والقنوط :

ذلك أن الإسلام يحرِّم اليأس والقنوط، ويحذر منهما أشدَّ التحذير على النحو الذى مضى آنفًا.

والجهل بهذا الموقف يوقع المرء فى اليأس والقنوط دون أدنى شعور من وخز النفس، وتردد الصدر.

٣ ـ الوقوف عند حالات الفشل مع نسيان حالات النجاح فى الماضى والحاضر:

ذلك أن حياة المرء لا تخلو من حالات نجاح، وحالات فشل، وقد يقف المرء عند حالات الفشل ناسيًا أو متناسيًا حالات النجاح، وعند ذلك يصاب باليأس والقنوط.

وبالمثل لا تخلو حياة الأمة المسلمة من حالات نجاح لا حصر لها : حسبنا بقاؤها عزيزة الجانب، مرهوبة الكلمة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، وحسبنا الإقبال على الإسلام اليوم من غير المسلمين بصورة عديمة النظير، بل إقبال الكثير من المسلمين لاسيَّما الناشئة والشباب على الالتزام بالإسلام والغيرة أشد الغيرة لانتهاك الحرمات فى النفس، وفى المال، وفى العِرض، وفى الأوطان والمقدسات، ومقارعة الكافرين والمستعمرين فى: أفغانستان، والبوسنة والهرسك، وفلسطين... وغيرهم، بل العمل على تطبيق شرع الله فى كل شىء، وإن غضب الكافرون، وأذنابهم، كما فى السودان. ولكن لا تخلو حياة الأمة كذلك من جوانب الفشل على النحو الذى تعيشه الآن، والوقوف عند جوانب الفشل هذه، ونسيان جوانب النجاح، وما أكثرها يوقعها لا محالة فى اليأس والقنوط.

٤ ـ الغفلة عن جوانب الفشل فى حياة الأعداء :

ذلك أن حياة الأعداء رغم ما فيها من نجاحات تتمثل فى هذا التقدم العلمى الهائل فى كلِّ شؤون الحياة، والذى به كانت سيادة وسيطرة هؤلاء على غيرهم من الأمم

الضعيفة أو المستضعفة، إلا أنها لا تخلو من جوانب فشل وإخفاق فى جانب القيم والأخلاق، فمنها ما ينكر وجود الله بالمرَّة، ويقول: الكون مـادة، ولا إلـه، والدين أفيون الشعوب، ولا آخرة، وإنما هى أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتبعًا لذلك يطلق العنان لنفسه أن تنال حظها من الشهوات بكل ما تيسَّر لها من سبل وأساليب، ومنها ما يشرك بالله ويتصور الجزاء فى الآخـرة قائمًا على مـبـدأ المحـاباة، والمحسوبية وتبعًا لذلك يُقبل على الشهوات واتباع الهوى غير ملتزم بأى ضابط خُلقى وإنسانى، ولقد انتهت الأمور بهؤلاء وأولئك إلى القلق والاضطراب النفسى، والفرقة، والقطيعة، والعلل، والأمراض البدنية المستعصية على العلاج، وشيوع الجريمة، وتمرد الظواهر الكونية ونحوها، وأخيرًا اليأس والقنوط إلى حدٍّ كراهية الحياة، ومحاولة التخلص منها بطريق أو بأخرى.

وهكذا.. لا تخلو حياة الأعداء من جوانب فشل نهايتها اليأس والقنوط، وغفلة المسلم عن هذه الجوانب يوقعه فى اليأس والقنوط لا محالة.

٥ ـ عدم معرفة الله حقَّ المعرفة :

وقد تؤدى عدم معرفة الله حق المعرفة من أنَّـه سبحانه موصوف بكل كمال، منزه عن كلِّ نقص، ومن كماله سبحانه : نصر المؤمنين، وإعزاز الدين، شريطة أن يكون المؤمنون أتقياء أقوياء، فإن اختل هذان الشرطان أو أحدهما كانت السيادة والغلبة لغيرهما ليفيق المؤمنون، ويعودوا للأخذ بأسباب القوة والغلبة، قد تؤدى عدم معرفة الله على النحو المذكور إلى الوقوع فى اليأس والقنوط.

٦ ـ سوء الظنِّ بالله ـ عـزَّ وجـلَّ :

وقد يؤدى سوء الظن بالله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ من أنَّـه لا ينصر دينـه ولا يؤيد أهله، وأولياءه ، وأن دينه سيضمحل ، وأن أهله وأولياءه سيقضى عليهم، وينتهون، كما قال سبحانه : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

وكما قال ـ عزَّ من قائل: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ ﴾

[الفتح]

إذ يقول ابن القيم ـ رحمه الله : « فَمَنْ ظنَّ بأنَّه لا ينصر رسوله، ولا يُتمُّ أمره، ولا يؤيِّده، ويؤيِّد حزبه ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنَّه لا ينصر دينه، وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالا، لا يقوم بعده أبداً ، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله، وجلاله، وصفاته، ونعوته » [1] .

قد يؤدى سوء الظن بالله هكذا إلى الوقوع فى اليأس والقنوط.

٨ ـ ضرب أو إجهاض كل محاولة نجاح أو فوز :

وقد يكون الحرص على ضرب كل محاولة نجاح أو فوز أو على الأقل إجهاضها من البواعث التى تحمل على اليأس والقنوط، ذلك أنَّ مرور النجاح أو الفوز بسلام واستقراره على أرض الواقع مما يبعث الأمل فى النفوس، ويبثُّ الثقة فى القلوب، أمَّا القضاء على كل نكاح أو فوز بالضرب أو الإجهاض فإنه يسمح بتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس.

وأمثلة ذلك من الواقع المُعاش اليوم كثيرة لا تخفى على كل ذى لُبٍّ، وذى بصيرة على المستوى الفردى، والجماعى، والحكومى، والشعبى، والدولى، والعالمى.

٩ ـ عرض تاريخ الأمة : أفراداً وجماعات، حكامًا ومحكومين، عرضًا مشوَّهًا مبتوراً :

وقد يكون عرض تاريخ الأمة: أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، عرضًا مشوَّهًا، مبتوراً من الأسباب التى توقع فى اليأس والقنوط، ذلك أن قيمة كل أمَّة فى صفاء تاريخها، ونقاء سيرتها أفراداً وجماعات، حكامًا ومحكومين، فإذا ما شوِّه هذا التاريخ، وعُرض عرضًا مبتوراً ناقصًا فقد قضى على ما تُفاخر به الأمة وتباهى به بين الأمم والشعوب، وفتح الباب لتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس على النَّحو الذى صنعه الأعداء والمغرضون بتاريخنا، وحسبنا من ذلك ما عرضه جورج زيدان فى كتابه: «تاريخ التمدن الإسلامى»، وما عرضته إسرائيل وهى تحتفى بمرور خمسين عامًا على إنشائها من تزييف النجاح الذى حققته الأمة فى حرب رمضان عام ١٩٧٣م، وتشويه المستشرقين والمستغربين لجهاد المجاهدين من أبناء هذه الأمة، بدءاً بالشيخ محمد بن عبد الوهاب، وانتهاءً بالشيخ حسن البنا عليهما من الله الرحمة والرضوان.

---

(١) انظر : بدائع التفسير لابن قيم الجوزية ١ / ٥١٩ .

١٠ ـ القطيعة والفرقة :

وقد تكون القطعية والفرقة من بين الأسباب التى توقع فى اليأس والقنوط، ذلك أن المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، والدين لا يمكن له التمكين الصحيح إلا بجماعة تتمتع بكل مواصفات الجماعة، كما قال عمر رضي الله عنه : « لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا ببيعة، ولا بيعة إلا بطاعة »[1] .

وإذا دبت القطيعة بين أبناء الأمة الواحدة، وعلتها الفرقة والتمزق زال وانمحى مبعث الأمل والرجاء من نفس المسلم، وحلّ محله اليأس والقنوط.

١١ ـ الغفلة عن سنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل :

وقد تكون الغفلة عن سنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل من بين الأسباب التى تبعث على الوقوع فى اليأس والقنوط، ذلك أنَّ لله سننًا فى مواجهة الإخفاق والفشل، وتتمثل هذه السنن فى العمل بحكمة، واستمرار، مع استعانة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وحُسن توكل عليه حتى يقضى على هذا الإخفاق، ويزول الفشل والغفلة عن هذه السنن، والأخذ بها يوقع لا محالة فى اليأس والقنوط.

١٢ ـ العيش فى وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط :

وقد يكون العيش فى وسط يسيطر عليه اليأس والقنوط سواء أكان قريبًا كالبيت، أم كان بعيدًا كالمجتمع، مما يبعث على اليأس والقنوط، لاسيَّما إذا لم يكتمل نضج المرء، ولم يكن يتمتع بالحصانة اللازمة للحماية من الوقوع فى براثن هذه الآفة.

١٣ ـ ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات :

وقد يكون ضعف الهمم، وفتور العزائم، ونزول الإرادات مما يبعث على اليأس والقنوط، ذلك أن الهمة القوية، والعزيمة الصادقة، والإرادة العالية مما يبعث على الأمل، ويزرع الثقة والرجاء فى النفوس أن تتخطى العوائق والحواجز مهما يكن شأنها وقوتها، بخلاف ضعف الهمة، وفتور العزيمة، ونزول الإرادة فإنها تفتح الباب أمام اليأس والقنوط أن يشقا طريقهما إلى القلوب، وأن يسيطرا على النفوس.

---

(١) الحديث أخرجه الدارمىُّ فى: السُّنن: المقدمة: باب فى ذهاب العلم ١ / ٧٩ من حديث تميم الدَّارىِّ بلفظ: «تطاول الناس فى البناء فى زمن عمر، فقال عمر: يا معشر العريب الأرض، الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة. . .» الحديث.

١٤ ـ الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيرًا قد تكون الغفلة عن عواقب وآثار اليأس والقنوط على كلِّ المستويات الفردية والجماعية، الحكومية والشعبية، على النحو الذى سيظهر من خلال العرض بعد قليل، من بين الأسباب والبواعث الحاملة على اليأس والقنوط، من باب أن الجهل بالعواقب الضارة، والآثار المهلكة لأمر مَّا قد توقع المرء فى هذا الأمر، ثم يكون الندم حين لا ينفع الندم. إلى غير ذلك من الأسباب.

رابعًا : آثار وعواقب اليأس والقنوط :

ولليأس والقنوط آثار ضارة، وعواقب مهلكة سواء على العاملين أم على العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار وتلك العواقب:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار اليأس والقنوط على العاملين :

١ ـ القعود عن أداء الواجبات :

ذلك أن اليأس والقنوط ينتهيان بالمرء إلى القعود عن أداء الواجبات، فإذا هو يتخلى عن الالتزام بمنهج الله، بل عن الدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى متذرعًا بأن ذلك ألَّب الكارهين للإسلام الحاقدين عليه ضدَّه، وجرَّ عليه ويلات وويلات فى نفسه، وأهله، وذويه، وأمواله، ومركزه، وما كان أغناه عن ذلك، خصوصًا أن قضية الالتزام بدين الله، والعمل لهذا الدين ما جنتْ شيئًا يذكر فى مواجهة تحديات الأعداء.

٢ ـ دعوة الآخرين إلى القعود عن أداء واجبهم :

ذلك أن اليائس القانط الذى قعد عن أداء دوره وواجبه يريد أن يجد لنفسه سلوة أو أسوة، ولا يرى ذلك إلا فى دعوة الآخرين إلى القعود عن أداء دورهم وواجبهم مثله، وفى عصرنا الحاضر قعد واحد من أبناء الحركة الإسلامية عن أداء دوره وواجبه ضعفًا من ناحية، ويأسًا وقنوطًا من ناحية أخرى، فإذا هو يضع كتابًا بعنوان : « خمسة وعشرون عامًا فى جماعة» يدعو فيه الناشئة إلى الابتعاد عن الحركة الإسلامية لأنه لاقى الأمرين من وراء الالتحاق بها، وما جنى شيئًا يذكر، وهو يضنُّ بهؤلاء الناشئة أن يصيبهم مثل الذى أصابه، أو يحل بهم مثل الذى حلَّ به.

٣ ـ الخضوع والاستسلام لمن يُحادُّون الله ورسوله :

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا على المرء لم يجدْ بُدًا من الخضوع والاستسلام لمن يحادُّون الله ورسوله، ظانًا أنه يجد عندهم النجاة والخلاص، وأولئك يعرفون نقطة الضعف هذه، فيستغلونها فى تحقيق مآربهم ومصالحهم، بأن يجعلوا من هذا الصنف من الناس عينًا لهم، بعد أن يلقوا به فى حمأة الإثم والرذيلة، وحينئذٍ يكون مِمَّن خسر الدنيا والآخرة جميعًا، وذلك هو الخسران المبين.

وفى تاريخ الحركة الإسلامية نماذج عدَّة من هذا النفر، منهم مَنْ قضى نحبه، ومنهم مَنْ ينتظر، وقد حاد عن الطريق المستقيم، فارتمى فى أحضان مَنْ يُحادُّون الله ورسوله مستسلمًا منقادًا لهم بسبب اليأس والقنوط.

٤ ـ الشك فى كلِّ ما ينتمى إلى الإسلام والمسلمين إلى حدِّ الطعن والتشويه :

ذلك أن اليأس والقنوط إذا سيطرا على المرء دخله الشك والارتياب فى كلِّ ما ينتمى إلى الإسلام والمسلمين : سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وفكريًا، وعلميًا، وأدبيًا، وإعلاميًا، إلى حد السخرية، والاستهزاء، والاحتقار، والازدراء، بل الطعن والتشويه، وفى الواقع المعاصر نماذج عِدَّة ناطقة بصحة هذا الأثر يمكن اكتشافها بقليل من البحث والتنقيب.

٥ ـ حمله وزر نفسه وأوزار المقتدين به :

ذلك أنَّه بيأسه وقنوطه قد حمل وزرًا عظيمًا عن نفسه، وعن مَنْ اقتدى به لاسيَّما من الناشئة والشباب وضعاف الهمم والعزائم، لأنه حينئذٍ من دعاة الضلالة، وقد قال النبى ﷺ : « وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » (١) .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار اليأس والقنوط على العمل الإسلامى :

١ ـ التعطيل والإيقاف :

ذلك أنه إذا سيطر اليأس والقنوط على القائمين على أمر العمل الإسلامى حملهم ذلك على تعطيل وإيقاف هذا العمل بدعوى الملاحقة من الأعداء، وأنه لا فائدة ولا جدوى ولا ثمرة تذكر من وراء هذا العمل.

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى، آفة « التطلع إلى الصدارة وطلب الريادة».

٢ ـ العمل بتراخٍ وتوانٍ وتسيُّب :

وحتى على تقدير عدم التعطيل والإيقاف للعمل يكون البديل عن ذلك العمل بتراخٍ، وتوانٍ، وتسيب، وفى فضول الأوقات، وعندما يصل العمل الإسلامى إلى هذا المستوى تطول الطريق، وتعظم التكاليف، ويتمكن الأعداء، فيعيثون فى الأرض فساداً، ويعبثون بالقيم العليا، والمبادئ السامية، ويستبيحون المحرمات من الدماء، والأموال، والأعراض، والأوطان ونحوها.

٣ ـ الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح :

وإذا لم يكن التعطيل والإيقاف، وكذلك إذا لم يكن العمل بتراخٍ وتوانٍ وتسيب، فإنه يكون الانحراف بالعمل عن مساره الصحيح بدعوى تفادى التصادم مع المناوئين استمرارًا للعمل، وإنجاحًا له، أو بدعوى عدم جدواه وفائدته بالأسلوب التقليدى القديم، أو بغير ذلك من الدعاوى والمبررات.

خامسًا : علاج اليأس والقنوط والوقاية من ذلك :

وحيث تمَّ تحديد ماهية اليأس والقنوط، والمظاهر الدالة عليهما، ووضعهما فى ميزان الإسلام، وبيان الأسباب والبواعث الحاملة عليهما، وآثارهما على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، يأتى دور العلاج، بل الوقاية، وذلك باتباع هذه الخطوات:

١ ـ المعرفة الحقة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع حُسن الظن به ـ سبحانه وتعالى :

وذلك بدوام النظر فى آيات الله المنظورة فى الكون وفى النفس، وآياته المسطورة فى كتابه وسنة نبيِّه محمد ﷺ، فإن ذلك يعرِّفنا بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ معرفة حقة تقود إلى حُسن الظنِّ به سبحانه وتعالى، وأنه ناصر دينه، معين مؤيد أهله وأولياءه ماداموا آخذين بأسباب النصر، والتأييد، والتمكين، لاسيَّما وقد جاء فى الحديث القدسى : « أنا عند ظنِّ عبدى بى . . . » [1] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وباب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ ٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨، ١٧٧، ومسلم فى: الصحيح: كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/ ٢٠٦١ رقم (٢٦٧٥/ ٢)، وكتاب التوبة: باب الحض على التوبة والفرح بها ٤/ ٢١٠٢ رقم (٢٦٧٥/ ١) ، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى حسن الظن بالله ٤/ ٥١٤ ـ ٥١٥ رقم(٢٣٨٨)، وكتاب الدعوات: باب فى حسن الظن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ٥/ ٥٤٢ رقم ٢٦٠٣، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الأدب: باب فضل العمل ١٢/ ١٢٥٥ ـ ١٢٥٦ رقم (٣٨٢٢) ، والدارمىُّ فى : السنن : كتاب الرِّقاق : باب حسن =

إذ هو سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] .

كما يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور : ٥٥] .

ويقول أيضًا : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] .

ويُبيِّن أنه يبتلى عباده المؤمنين بما يبتليهم به تمحيصًا لهم، إذ يقول : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران] . ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

ويقول أيضًا : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت] .

وكذلك لكشف المنافقين، والأدعياء، والدخلاء، إذ يقول : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة] .

وهكذا تقود المعرفة الحقة بالله إلى حُسن الظن به سبحانه، بما يدفع اليأس، ويقتلع القنوط من الأساس والجذور. ﴿ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة] .

وهكذا تقود المعرفة الحقة بالله إلى حُسن الظن به سبحانه، بما يدفع اليأس، ويقتلع القنوط من الأساس والجذور.

٢ ـ اليقين أن اليأس والقنوط من أخلاق الكافرين الضَّالين لا مِنْ أخلاق المؤمنين الصادقين :

إذ المؤمنون الصادقون عارفون بربهم، واثقون من وعده لهم بالنصر، وتبعًا لذلك

= الظن بالله ٢/ ٣٠٥، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١، ٤١٣، ٤٤٥، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤ ـ ٥٣٥، ٥٣٩، ٣/ ٢١٠، ٢٧٧، ٤٩١، ٤/ ١٠٦ كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ إلا ابن ماجه فإنه عنده من حديث واثلة بن الأسقع، وزاد أحمد روايتين من حديث أنس بن مالك، وروايتين من حديث واثلة بن الأسقع، وعقَّب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

فإنهم يوالونه ـ سبحانه ـ بمحبته وتعظيمه وطاعته ، والنزول على حكمه فى كل ما يأتون، وما يذرون، وإنْ نزل بهم من الشدائد والمحن ما نزل، فمن أين يأتيهم إذن اليأس والقنوط، سيَّما وقد جاء فى الحديث ما يكشف عن ذلك، إذ يقول ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كُلَّه له خير ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »[1] .

بخلاف الكفار الضالين فإنهم غير مؤمنين بالله وبالدار الآخرة، وتبعًا لذلك فهم آيسون قانطون من رحمته فى الدنيا والآخرة، والمؤمن الحق يخاف أن يتصف بصفتهم من اليأس والقنوط، فيكفر بالله، ويضل عن سبيله، ويحرم خير الدنيا والآخرة، لذلك يجاهد نفسه أن تقع فى اليأس والقنوط، بل يعمل للتخلص منهما، إن ابتلى بهما، ليحيا ويموت والله عنه غير ساخط ولا غاضب.

٣ ـ دوام النظر فى قصص الأنبياء والمرسلين :

ذلك أن قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين مليء بصور لا حصر لها من المحن والشدائد ووجهت منهم بالصبر والتحمل، والعمل مع الثقة فى الله، والأمل،والرجاء، أن يعينهم على تجاوز هذه المحن والشدائد، وقد كان :

هذا إبراهيم عليه السلام يُلقى فى النار، فلا ييأس، ولا يقنط، وإنَّما يضرع إلى الله، وكله أمل ورجاء أن يجيب الله دعاءه قائلا : «حسبنا الله ونعم الوكيل»[2]، ويستجيب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ له، فيحوِّل هذه النار بردًا وسلامًا على إبراهيم : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق: باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم (٢٩٩٩ / ٦٤)، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب الرقاق: باب المؤمن يؤجر فى كلِّ شيء ٢/ ٣١٨ كلاهما من حديث صهيب مرفوعًا، واللفظ لمسلم، وكذلك أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٢٤ من حديث أنس ابن مالك مرفوعًا بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التفسير: سورة آل عمران: باب ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ .. ﴾ الآية ٦/ ٤٨ ـ ٤٩ من حديث ابن عباس قال : «حسبنا الله ونعم الوكيل: قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، وبإسناد آخر عنه أيضًا قال: «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقى فى النار: حسبى الله ونعم الوكيل»، والحديث وإن كان ظاهره أنه موقوف، لكن له حكم المرفوع، لأن مثل هذا لا مجال للرأى والاجتهاد فيه.

وهذا موسى عليه السلام يخرج بنى إسرائيل ليلا من مصر إلى فلسطين ويتبعه فرعون وملؤه ، وحين يتراءى الجمعان يقول أصحاب موسى فى خوف وهلع : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ، ولكن موسى المؤمن بربه، الواثق من وعده له بالنجاة والنصر، يقطع هذا الخوف، ويبدده مطمئنًا لهم بقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] .

وفعلا يحقق الله له ما وعده به فيقول : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء] .

وبقيتْ هذه آية للأجيال اللاحقة تأخذ منها الدرس والعبرة وزاد الطريق، حيث يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً . . . ﴾ [الشعراء] .

وهذا زكريا يبلغ من العمر عتيًّا، ولا يُرزق الولد، فيدعو ربه فى ثقة وأمل قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم] . ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء] .

وحقق الله له ما رجاه وما طلبه بقوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران] . ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم] .

وهكذا مَنْ ينعم النظر فى سير الأنبياء والمرســلين عمومًا يجد فيها زادًا غنيًّا لمقاومة حال اليأس والقنوط، بل على العكس، فإن هذا الزاد يسرى إلى القلوب حاملا معه الثقة فى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والرجاء، والأمل، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] .

ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

ويقول : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

٤ ـ دوام النظر فى سيرة وسنة نبيِّنا وإمامنا محمد ﷺ على وجه الخصوص:

إذ فيها ما يغرس الثقة فى النفوس، ويزرع الأمل والرجاء فى الصدور.

يقول ابن سيِّد الناس : « وروينا عن عثمان بن طلحة من طريق ابن سعد قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين، والخميس، فأقبل ـ يعنى النبى ﷺ ـ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلَّظْتُ له، ونِلْتُ منه، وحلم عنِّى، ثم قال : « يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئتُ»، فقلتُ: لقد هلكت قريش يومئذ، وذَلَّتْ، فقال: « بل عمرتْ، وعزَّتْ يومئذ»، ودخل الكعبة، فوقعتْ كلمتُه منى موقعًا ظننتُ يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، وفيه أنه ﷺ قال له يوم الفتح : «يا عثمان، ائتنى بالمفتاح»، فأتيتُه به، فأخذه منِّى، ثم دفعه إلىَّ، وقال: «خذها تالدةً، خالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف»، قال عثمان : فلمَّا وليتُ نادانى، فرجعت إليه فقال: «ألم يكن الذى قلت ؟» قال: فذكرتُ قوله لى بمكة قبل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت»، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله » [١] .

وعن عبد الله بن عمر ﷺ : «أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحَجْبة حتى أناخ فى المسجد، فأمره أن يأتى بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ، ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهارًا كاملا، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول مَنْ دخل، فوجد بلالا وراء الباب قائمًا، فسأله : أين صلَّى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذى صلَّى فيه، قال عبد الله : فنسيتُ أن أسأله: كم صلَّى سجدةً » [٢] .

وفى مرسل الزهرى : (أن النبى ﷺ قال لعثمان يوم الفتح : « ائتنى بمفتاح الكعبة »، فأبطأ عليه، ورسول الله ﷺ ينتظره، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، ويقول: «ما يحبسه؟» فسعى إليه رجل،وجعلتْ المرأة التى عندها المفتاح ـ وهى أم عثمان ، واسمها سلافة بنت سعيد ـ تقول : إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبدًا ،

---

(١) انظر: عيون الأثر فى فنون المغازىْ، والشمائل، والسير: فتح مكة: باب إبقاء ابن طلحة على السدانة رغم الذى كان بينه وبين الرسول قبل إسلامه ٢/ ٢٣١، وفتح البارى ٨/ ١٨ ـ ١٩ حيث عزاه إلى ابن إسحاق، من حديث صفية بنت شيبة، وقال: «إسناده حسن».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : غزوة الفتح : باب دخول النبى ﷺ مِنْ أعلى مكة ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩، وحجة الوداع : باب حجة الوداع ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الحج: باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، والصلاة فيها، والدعاء فى نواحيها كلها ٢/ ٩٦٦ ـ ٩٦٧ رقم(١٣٢٩ / ٣٨٨ ـ ٣٩٤) كلاهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ واللفظ للبخارى.

فلم يزل بها حتى أعطت المفتاح، فجاء به ففتح، ثم دخل البيت، ثم خرج، فجلس عند السقاية، فقال عليٌّ: إنا أعطينا النبوة، والسقاية، والحجابة، ما قوم بأعظم نصيبًا منَّا، فكره النبيُّ ﷺ مقالته، ثم دعا عثمان بن طلحة، فدفع المفتاح إليه) (١) .

وفى الهجرة من مكة إلى المدينة مكث ﷺ مع الصِّديق رضي الله عنه فى غار ثور ثلاث ليال، وقد تمكَّن المشركون من اقتفاء أثرهم إلى الغار حيث رأى الصدِّيق أقدامهم، فقال: « يا نبى الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا » .

فقال له النبى ﷺ : « اسكتْ يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما » (٢) .

وإلى هذا اليقين الصادق، والتوكل الكامل أشارت الآية : ﴿ إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

[التوبة : ٤٠]

وتمثل هذا النصر فى قوله سبحانه : ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة] .

إلى غير ذلك من صور اليقين بوعد الله، والثقة بنصره فى أشد ساعات المحنة، وأحلك أوقات الشدة، والعيش فيها يقضى على اليأس والقنوط، ويجعل مكانه الثقة بالله، وأنه لا يتخلَّى عن عباده المؤمنين الصادقين.

٥ ـ الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامى :

ذلك أنه مرَّتْ بالأمة الإسلامية : أفرادًا وجماعات فترات عصيبة أحاطت بها الخطوب من كل ناحية، ولفَّتها الشدائد من كل جانب، ولكنها جاهدتْ، وأخلصت فى جهادها حتى مرَّت الخطوب، وانتهتْ الشدائد، وعادت كالذهب النضار.

هذا بيت المقدس ظلَّ رهينة فى أيدى الصليبيين إحدى وتسعين سنة، ثم خلَّصه المسلمون من قبضة أيديهم بقيادة زنكى، وصلاح الدين الأيوبى فى حطين عام ٥٩١هـ.

وها هم التتار جاءوا إلى بغداد عام٦٥٦هـ، فاستولوا على بغداد، بعد أن قتلوا الخليفة العباسى، وأعملوا السيف فى رقاب الأهلين وفرضوا حَظْر تجوُّل دام أربعين يومًا حتى تلوث الهواء، وفسد الجو، ومات بسبب ذلك من الأحياء أضعاف أضعاف مَنْ مات بأيدى التتار، ثم صنع هؤلاء الهمج الرعاع من ميراث المسلمين الفكرى

(١) الخبر أورده ابن حجر فى: فتح البارى ٨/ ١٨، وعزاه إلى عبدالرزَّاق، والطبرانى.
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور: أكرم ضياء العمرى ١/ ٢١١ نقلا عن: فتح البارى.

والعلمى (كتبهم) جسراً عبروا عليه من دجلة إلى الفرات إلى بلاد الشام، وهناك فعلوا بالناس ـ مع إعانة اليهود، والنصارى، والرافضة لهم ـ الأفاعيل، ثم صاروا من بلاد الشام إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان بين حكام الشام والكرك والشويبك، وبين حكام مصر من الخلافات ما لا يعلمه إلا الله، ولكن عدوان التتار هذا أنساهم خلافاتهم وجمع شملهم، وتنادوا باسم الإسلام، فخفَّ أهل المغرب علماء وطلاب وعامَّة إلى المشرق لإعانة إخوانهم على التتار، وفى عين جالوت عام ٦٥٨هـ التقى الجمعان، وهزم الله التتر، وردَّهم على أعقابهم خاسرين، وأسلم التتر، وحسن إسلامهم حتى حملوا الإسلام إلى بلادهم ناشرين له، مدافعين عنه لأكثر من خمسة قرون من الزمان، وما كان هذا الموقف يتم من المسلمين فى وجه الصليبيين، ومن بعدهم التتار، إلا بطرحهم اليأس والقنوط من حياتهم، وتحليهم بالثقة التامة فى وعد الله بنصر المسلمين، وهزيمة وخزى غيرهم مِمَّن يُحادُّون الله ورسوله، والمؤمنين، وقِسْ على هذين الموقفين مواقف أخرى أكثر من أن تُحصى.

وهكذا يمكن أن يساعد الاستقراء الصحيح لمسيرة تاريخنا الإسلامى الصحيح على تطهير النفوس من اليأس والقنوط، بل حمايتها أعظم الحماية من ذلك.

٦ ـ النظر الصحيح فى واقع الأمة المعاصر :

ذلك أن الأمة، وإن كانت تعيش اليوم حربًا على كلِّ المستويات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعلمية، والأخلاقية، والعسكرية، والصحية، وغيرها تحت شعار تجفيف المنابع، إلا أن الإقبال على الالتزام بالإسلام التزامًا صحيحًا دائمًا لاسيَّما بين الناشئة والشباب اتخذ صوراً عدة، وهى من المبشِّرات التى تدفع اليأس والقنوط، وتزرع الثقة بالله فى النفوس، والأمل، والرجاء.

ففى المجال الثقافى والعلمى : أصبح هناك إقبال على تعلم اللغة العربية بكلِّ فروعها ، وهذا من الأهمية بمكان لكونها مفتاح فقه الكتاب والسنة ، وطريق الدخول إلى تاريخنا الإسلامى بسنائه ، وضيائه ، الأمر الذى يكون طريقًا إلى الوحدة الإسلامية الجامعة.

وصار هناك الحرص على الفقه فى الدين: عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقًا ونظمًا وتشريعات، وهذا بدوره يُعد سببًا فى ضبط تصرفات المسلم من ناحية، وإرشاده إلى مكائد الشياطين، وسبيل إحباطها، وكيفية التخلص منها من ناحية أخرى.

كما برز النبوغ فى العلوم التجريبية من : طب، وهندسة، وفلك، وجيولوجيا، وزراعة، ونحوها حتى كانتْ نخبة العلماء الذين على أكتافهم تدور عجلة البحث العلمى والإنتاج فى كلٍّ من أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، وهم بإذن الله رصيد مدخر للأمة يمكن توظيفه، والانتفاع به فى اللحظة الحاسمة، والبيئة المناسبة، كما كان الرد على الشبهات والأباطيل التى أثيرت وتثار بين الحين والحين حول الإسلام والمسلمين بصورة تحمى الناشئة والشباب من التأثر بهذه الشبهات والأباطيل.

كما انتشر الكتاب الإسلامى المبرز الصورة الكلية للإسلام بشموله ووسطيته، وواقعيته، وسماحته، ويسره، وثباته، ومرونته، بالإضافة إلى بعث المخطوطات فى كلٍّ فروع الثقافة والعلم من جديد بعد أن كادت تبلى وتموت.

وفى مجال الأخلاق والسلوك : برز الالتزام بالإسلام فى الحرص على تعاطى الحلال فى المطاعم، والمشارب، والملابس، والسكنى، ونحوها، وفى الحرص على الظهور بالمظهر الإسلامى فى الحجاب، وفى بناء البيوت وتخطيط التجمعات السكانية ونحوها.

كما علتْ الأصوات المنادية بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حتى من أولئك الذين كانوا يعلنون فى إصرار: أنه لا دخل للسياسة فى الدين، ولا للدين فى السياسة، خطبًا لودِّ الشعوب المسلمة التى باتت لا يرضيها إلا أن تُحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ووضعت الدراسات والبحوث اللازمة فى كثير من جوانب الشريعة الإسلامية تيسيراً لسبيل التطبيق والتنفيذ.

وحرص الأكثرون على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع مراعاة شروطه وآدابه.

وباتت التجارب الواقعية : تُلحُّ على الشباب المندفع بعاطفة وحماسة للقيام بهذا الواجب عن طريق القوة فقط، وإراقة الدماء، أن يثوب إلى رشده، وأن يعود إلى وعيه مراعيًا الحكمة فى تطبيق هذا الواجب بلا ضرر، ولا ضرار.

وفى المجال الاجتماعى : كان التوسع فى أعمال البرِّ والمعروف من أجل تخفيف المعاناة عن كل صاحب حاجة، وكذلك مَنْ ألمَّ به عذر من الأعذار، كما تشهد بذلك بيوت الزكاة ولجانها، وكذلك صناديق الوقف الخيرى، ولجان العمل الإسلامى المنتشرة فى كلِّ قارات الدنيا، وكان التنسيق بين بعض الأقطار من أجل التعاون والتآزر لتحقيق المصالح والأهداف المشتركة، كما يشهد بذلك: منظمة المؤتمر الإسلامى وغيرها.

وفى المجال الاقتصادى : كان حصر الإمكانات والموارد الاقتصادية فى العالمين العربى والإسلامى من أجل العمل على توظيفها واستغلالها على أكمل وجه وأحسنه.

كما وضعت بعض السياسات والنظم الاقتصادية فى كثير من بلدان العالمَيْن: الإسلامى، والعربى، لتحقيق التكامل والتعاون الاقتصادى، وكان التكامل والتبادل فى الصناعة والزراعة حسب الخصائص التى يتمتع بها كل واحدٍ من هذه البلدان، توفيراً للتكاليف، وقضاءً على المنافسة غير المجدية، وتبادلا للخبرات، وإفادة من التجارب الاقتصادية فيما بينها.

وكان استخدام التقنية الحديثة، وتطويرها، وتوظيفها بما يساعد على التنمية الاقتصادية بأقل التكاليف، ومن أقصر طريق.

وقامت بيوت التمويل والمصارف، ملتزمة المنهج الإسلامى، وعاملا للتخلص من المعاملات المحرَّمة، والمحظورة.

وفى المجال السياسى والإدارى : وضعت البحوث، وعقدت المؤتمرات التى تتناول الشكل الإسلامى للسياسة والحكم، المتمثل فى: الشورى، والانتخاب، والتعددية الحزبية، وتنصيب المرأة ونحوها، كما روجت أشكال الحكم القائمة فى العالم اليوم من: الديمقراطية، والدكتاتورية، والحكم الفردى الشمولى المطلق.

وشكَّلت بعض أنظمة الحكم فى العالم العربى والإسلامى على النمط الإسلامى، وإن كانت لا تزال تحتوى على جوانب النقص، ولكنها فى طريقها إلى الزوال بالاستمرار والصبر.

وفى مجال الأسرة وتربية الأولاد : كان الاهتمام بمعرفة مقاصد الزواج، وأنجح سبل تطبيقها وتنفيذها، وكذلك برز الاهتمام بالطفل من حيث إنه اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع بوضع رسائل صغيرة فى تربية الأولاد، وحل المشكلات التى تعترض سبيلهم من المنظور الإسلامى، وتمَّتْ العناية بالمرأة المتمثلة فى إفهامها أن الإسلام ارتقى بها إلى مستوى لم يكن لها به عهد من قبل البعثة المحمدية، وقد أعطاها من الحقوق قدر ما عليها من الواجبات سوى مسألة القوامة، حيث جعلها للرجل رعاية لمصلحة الأسرة عمومًا، والمرأة على وجه الخصوص، قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] (١) .

---

(١) انظر: التربية الإسلامية: الصف الرابع الثانوى بدولة الكويت: الدرس الأخير بتصرف يسير.

وهكذا يمكن أن يؤدى النظر بمثل هذه الصورة من الاستقراء والتتبع فى واقع الأمة اليوم إلى اقتلاع اليأس والقنوط من النفوس، وشحن هذه النفوس بالثقة التامة فى الله، والرجاء، والأمل فى وعده بالنصر والتمكين عندما نأخذ بأسباب النصر والتمكين.

٧ ـ النظر فى واقع الأعداء بالأمس واليوم :

أمَّا واقع الأعداء بالأمس فمعروف مقدار ما نزل بهم من الفشل والهزيمة بأيديهم، وبأيدى المؤمنين فى: بدر، والخندق، وحُنين، ويوم بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، وفى خيبر، وأثناء الحروب الصليبية، وما كان فى الحرب العالمية الأولى والثانية.

وأمَّا واقعهم اليوم فحسبهم ـ رغم التقدم العلمى الهائل الذى يعيشون فى كلِّ مناحى الحياة ـ انهيار القيم، وتحطم الأخلاق،وشيوع الجريمة، وسيطرة القلق النفسى، وعدم الصبر، والرضا، وسيادة الشكوك، والظنون الكاذبة، وتشتت القلوب، وشيوع الأمراض البدنية لاسيِّما التى استعصت على العلاج، وتمرد الظواهر الكونية، وكثرة الكوارث فى البرِّ، وفى البحر، وفى الجوِّ، وما أدى ذلك إليه من اليأس والقنوط، ومحاولة الانتحار والتخلص من الحياة.

إذ أنَّ دوام النظر فى واقع هؤلاء الأعداء بالأمس واليوم يطمئن المسلم أن الأعداء ممتحنون مثلنا وأشد، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

وكما قال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾ [النساء] .

وأن علينا أن نصبر ونتحمل، ونؤدى واجبنا للخروج من قدر الهزيمة إلى قدر النصر، ومن قدر الفشل إلى قدر النجاح، وذلك هو وعد ربِّنا لنا إذ يقول : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران] .

٨ ـ محاسبة النفس دومًا لمعرفة أسباب الفشل والإخفاق، ثم محاولة التخلص من هذه الأسباب :

ذلك أن هذه المحاسبة المستمرة توقف المرء على جوانب الخلل فى حياته، والأسباب أو البواعث الدافعة لذلك، وهذا يحمل على التخلص من هذه الأسباب والبواعث إن كان المرء جادًا صادقًا مع نفسه، وبهذه المحاسبة يقضى على سبب رئيس من أسباب اليأس والقنوط، إذ سيقل الفشل والإخفاق، وربما يتلاشى تمامًا.

قال تعالى في الدعوة إلى هذه المحاسبة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ ﴾ [الحشر] .

وقال ﷺ : « الكَيِّس مَنْ دان نفسه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والأحمق مَنْ أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني » [(١)] .

٩ ـ التأمل في إقبال غير المسلمين الشديد على الإسلام :

ذلك أن غير المسلمين قد أيسوا الأمن والأمان في ظل المناهج الأرضية التي عاشوا في كنفها، وتحاكموا إليها بعد أن دانوا بالإلحاد أو بالشرك، لأن منها مَنْ انهار بعد أن ثبت فشله، وعدم غناه أو جدواه، كالمنهج الاشتراكي أو الشيوعي القائم على أن الكون مادة، ولا إله، والدين أفيون الشعوب، ولا آخرة، وما هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يُهلكنا إلا الدهر، ومنها ما هو في طريقه إلى الزوال كالمنهج الرأسمالي القائم على إطلاق حقِّ الملكية بلا ضوابط، ولا قيود، فنشأ الاستغلال، والظلم من الأقوياء للضعفاء، ونشأت الأحقاد من الضعفاء للأقوياء، والكل أصبح غارقًا في الجريمة والإثم لأنه لا يوحّد الله، ولا يقيم له وزنًا، ولا يرجو له وقارًا، ولا يخاف عقاب الآخرة لتصوره أنه ابن الله وحبيبه، فكيف يعذب الأب ولده، والحبيب حبيبه، ثم ها هم الأحبار، والرهبان، والحاخامات، يحلون لهم الحرام، ويُحرِّمون عليهم الحلال، ويعدونهم مغفرة ذنوبهم والجنَّة بعد ابتزازهم، وأخذ ما في أيديهم وجيوبهم.

ولما آلت حالهم إلى هذا الوضع المزري بحثوا عن الخلاص فما وجدوه سوى في الإسلام، فأقبلوا إليه إقبالا عديم النظير، لاسيَّما في أوروبا الشرقية والغربية، وأمريكا، مع قلة الجهد الذي يبذله المسلمون في ذلك من ناحية، ومع السلوكيات المنحرفة من كثير من المسلمين من ناحية ثانية، ومع التشويه والتحريف للإسلام بأيدي المستشرقين والمستغربين وبعض أبنائه من ناحية ثالثة، وما ذلك إلا لأنه دين الفطرة والأمان، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم] .

وقال تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة] .

والحال هذه تقتضي التأمل فيها، وأنَّ الله هو الذي يصنع لدينه، ولو كره المشركون والكافرون.

---

(١) الحديث سبق تخريجه في الجزء الأول، آفة « الغرور » .

١٠ ـ تذكر حالات النجاح بالإضافة إلى حالات الفشل :

ذلك أنَّه إذا ألحَّتْ حالات الفشل على الفرد والجماعة، الحاكم والمحكوم، فإنه ينبغي ـ مقاومة لهذا الإلحاح ـ تذكُّر حالات النجاح والفوز في النفس، وفي الكون، ومع الخصوم من شياطين الإنس، والجن، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ عوَّدنا: أن مع العسر يسرًا، وأن مع الشدة الفرج، قال تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾ [الطلاق] .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح] .

ويفعل ذلك للمرء في كلِّ يوم، بل في كل ساعة، بل في كل دقيقة، بل في كل لحظة، رحمةً منه ـ سبحانه ـ وتفضلا، فإن تأخر ذلك فلحكمة لايعلمها إلا هو، قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ ﴾ [الأعراف] .

ومَنْ يظل على هذه الحال متذكرًا النجاح بالإضافة إلى الفشل يبقى سليمًا من اليأس والقنوط، واثقًا بوعد ربه، متفائلا، عاملا إلى آخر الزمان.

١١ ـ التصرف بحكمة وقاية للمكاسب من الضرب أو الإجهاض:

ينبغي اليقين أن الأعداء والخصوم لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمَّة، وأنهم إذا تمكنوا لا يرضيهم شيء إلا أن نعود كفارًا مثلهم أو نموت.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء : ٨٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ ﴾ [الممتحنة] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝ ﴾ [الكهف] .

وقال تعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وانطلاقًا من هذا اليقين وآثاره، فإن على المسلمين : أفرادًا وجماعات، حكامًا ومحكومين، أن يتصرفوا بلباقة وحكمة لاسيَّما في مرحلة الضعف التي نعيشها اليوم تفاديًا لتحقيق ما يريد هؤلاء من الضرب أو الإجهاض لاسيَّما وقد قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[النحل : ١٢٥]

وقال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة] .

١٢ ـ الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها :

وذلك بأن يكون لدينا اليقين التام: أن الوحدة الإسلامية والمحافظة عليها هى طريق القضاء على اليأس والقنوط، بل زرع الثقة بالله فى القلوب، والأمل فى النفوس، بيد أن هذه الوحدة لا تتحقق إلا بالإخلاص ثم بالأخوَّة الإسلامية التى فيها ينصح الأخ أخاه، ويأخذ بيده للتخلُّص من عيبه عمليًا، ويملأ عليه فراغ حياته، فلا تبقى لحظات تستغل مِنْ قبل شياطين الإنس، وشياطين الجنّ،وتكسبه خبرات وتجارب، وتفتح له مزيد أبواب لتحصيل الأجر والثواب، وتُذهب عنه السأم والملل، وبالتالى اليأس والقنوط، وتعينه على إنجاز المطلوب من أقصر طريق، وبأقل التكاليف، وتحفظ له هيبته بين الناس.

وهكذا تثمر الأخوَّة الإسلامية فى ضوء ما تقدم وحدة إسلامية جامعة، تقف فى وجه الأعداء والخصوم، وتحبط المكائد والمؤامرات شريطة عدم الإصغاء لهؤلاء الأعداء، وعدم الثقة فيما يصدر عنهم مما ظاهره المشورة والإصلاح، وباطنه العذاب، والفساد، والإفساد.

١٣ ـ التخلص من صحبة المعروفين باليأس والقنوط ، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين :

وينبغى كذلك التخلص من صحبة المعروفين باليأس والقنوط لئلا يصيبه ما أصابهم، مع العيش بين المتفائلين والمستبشرين كى يفتح له هؤلاء باب الأمل، والرجاء، والثقة فى الله، وفى وعده بنصر المؤمنين، وصدق النبى ﷺ القائل: « مَثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمَّا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة » [(١)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الذبائح والصيد: باب المسك ٧/ ١٢٥، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البرِّ والصِّلة والآداب: باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ رقم (٢٦٢٨ / ١٤٦) كلاهما من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

١٤ ـ الانتباه إلى ضاعفة الوزر لليأس والقنوط :

ذلك أن المرء بيأسه، وقنوطه، موزور لا مأجور، لأنه استمع للشياطين، ولم يستمع لله والرسول، وبالتأكيد سيقتدى به فى يأسه وقنوطه آخرون، لاسيَّما الناشئة والشباب فيضاعف عليه الوزر: وزر نفسه، ووزر هؤلاء، ويلقى بذلك عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة جميعًا.

قال تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣] .

وقال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] .

١٥ ـ مواجهة اليأس والقنوط بهمة عالية، وعزيمة صادقة :

ذلك أن الهمَّة العالية، والعزيمة الصادقة، والإرادة القوية تعين المرء على مواجهة أىٍّ من الشدائد : يأسًا أو قنوطًا من غير توانٍ أو انقطاع، وكذلك تعين على تخطِّى العقبات والمعوقات، كى تصل السفينة سالمة إلى شاطئ النجاة، وبرِّ الأمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩)﴾ [العنكبوت] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] .

١٦ ـ الأخذ بسنن الله فى مواجهة الإخفاق والفشل :

ذلك أن لله سننًا فى كلِّ شىء فى هذا الوجود، لاسيَّما مع اليأس والقنوط، ولئن أراد الضعفاء التخلص من حالات اليأس التى أصابتهم، والقنوط الذى اعتراهم فليبحثوا عن هذه السُّنن، وليأخذوا بها، ومن هذه السُّنن: النجاح فى عمارة الأرض إلى حدِّ السيادة فيها، مع معرفة حكم الله، والأخذ به فى كل صغير وكبير، ثم حراسة الحقِّ من عدوان المبطلين وتطاول المتطاولين، مع الصبر والتحمل إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

وبعبارة أخرى ينبغى على العلماء ـ كلٌّ فى تخصصه ـ أن يحصروا آخر ما وصلت إليه البشرية من تطور وتقدم، ثم يضيفوا إليه الجديد الذى يجعلهم سابقين عصرهم، مواكبين واقعهم ، وكذلك على أرباب الأموال مساعدة هؤلاء العلماء فى تنمية البحث العلمى ليخطوا خطوات إلى الأمام، ومَنْ لم يكن من هذا الصنف ولا ذاك، فليسخِّر بدنه فى قضاء حوائج الناس من: حفر آبار، والأخذ بيد معوَّق أو طاعن فى السن،

وإرشاد الضال، وإغاثة ملهوف، وتفريج كربات المكروبين، وهلمَّ جرا، مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كلٌّ بما يناسب حاله، وحال الأمة من تغيير باليد، أو باللسان، أو بالقلب، والصبر على مشاقِّ ذلك مع التحمل.

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر] .

وقال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

١٧ ـ تذكر عواقب وآثار اليأس والقنوط :

وأخيرًا علينا أن نتذكر عواقب اليأس والقنوط الفردية والجماعية، وننعم النظر فى ذلك علَّها تكون حاملا على التخلص من هذا اليأس والقنوط، ودافعًا للحصانة منهما أن يأخذا طريقهما إلى النفوس مرَّة أخرى، فإن من تذكر العاقبة الضارة لأمر ما، وكان صادقًا مع نفسه، مراقبًا ربَّه أقلع عن هذا الأمر، وعمل جاهداً على عدم العود إليه مرة أخرى.

والله ولى التوفيق .

الآفة الثالثة والثلاثون
أكل الحــرام

والآفة الثالثة والثلاثون المؤدية لكلِّ بلية ومصيبة فى هذه الأرض إنما هى: «أكل الحرام» فى أىِّ من صوره.

وحتى يتطهَّر منها مَنْ ابتلاه الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ بها، ويتوقاها ويحترز منها مَنْ سلَّمه الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فإنه لابد من تنفيذ سلسلة من الأعباء أولها ورأسها: الإلمام بأبعاد ومعالم هذه الآفة، على النحو التالى :

أولا : ماهية أكل الحرام :

لغة : أكل الحرام مركب إضافى من لفظين هما: « أكل» و «حرام»، ولابد من معرفة معنى كلٍّ على حِدَة، ثم معرفة معناهما معًا بعد التركيب، وها هو البيان :

أ ـ أكل : تأتى كلمة أكل فى اللغة على معانٍ منها :

١ ـ المضغ والبلعُ، تقول: أكل الطعام أكلا : مضغه، وبلعه.

٢ ـ الإفساد والإفناء، تقول : أكلته النار : أفنتـه، وأكله السوس : أنخـره، وأفسده.

٣ ـ الاستباحة، تقول : أكل مَالَهُ، وحقَّهُ : استباحه، وفى التنزيل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ [البقرة] .

٤ ـ الطعام والطعمة، تقول: هذا أكل: طعام، وهذه مأكلةٌ: طُعْمـةٌ.

٥ ـ الكسب، تقول : هذا أكل : هذا كسب [١] .

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٣٧، والقاموس المحيط: ٣ / ٤٨٢ ـ ٤٨٣، والمعجم الوسيط ١/ ٢٢ ـ ٢٣ مادة : «أكل» بتصرف كثير.

ولا تعارض بين هذه جميعًا، إذ هو كسب من طعام أو غيره عاقبته الفناء بالمضغ أو بغيره، يأتى بالاستباحة والاستحلال أو بغير ذلك من الصور.

ب ـ الحرام لغة : أصل الحرام فى اللغة : الممنوع من فعله، يقال: حَرَمَ فلانًا الشىء حرمانًا: منعه إياه، وحَـرُمَ الشىء حرمةً: امتنع [١] .

اصطلاحًا : عرفه أصوليو المتكلمين بأنه: خطاب الله المقتضى الكفَّ عن الفعل اقتضاءً جازمًا، أى لم يجوِّز فعله أبدًا [٢] .

وعرفه أصوليو الحنفية بأنه : طلب الكف عن الفعل بدليل قطعى، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] .

وكتحريم الربا فى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا... ﴾ [البقرة : ٢٧٥] [٣] .

وعرفه أبو البقاء الكفوى بقوله : « والحرام: ما استُحِقَّ الذَّمُّ على فعله، وقيل: ما يثاب على تركه بنية التقرُّب إلى الله تعالى » [٤] .

وفى موضع ثان بقوله : «والحرام: الممنوع منه، إما بتسخير إلهى، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة] . وإما بمنع بشرى كقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص : ١٢] . وإما بمنع من جهة العقل كقوله : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الاعراف : ١٥٧] . أو من جهة الشرع كتحريم بيع الطعام متفاضلا » [٥] .

وفى موضع ثالث بقوله : « والحرام: ما ثبت المنع عنه بلا أمر معارض له، وحكمه العقاب بالفعل، والثواب بالترك لله تعالى، لا بمجرد الترك، والإلزام أن يكون لكل أحد فى كلِّ لحظة مثوبات كثيرة، بحسب كل حرام لم يصدر عنه » [٦] .

جـ ـ أكل الحرام اصطلاحًا : وتبعًا للتعاريف التى ذكرتْ آنفًا فإنه يمكن القول: إن أكل الحرام: كسب ما طلب الشارع الكف عن فعله بدليل قطعى طعامًا أو غيره، مع

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، والقاموس المحيط ٤/ ١٣١ ـ ١٣٢، والمعجم الوسيط ١/ ٢٢ ـ ٢٣ مادة : «حرم» بتصرف.

(٢ ، ٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ٢٠٦ بتصرف كثير.

(٤) انظر : الكليات ص ٤٠٠، ٤٠٤ ـ ٤٠٥ بتصرف يسير.

(٥، ٦) انظر : الكليات ص ٤٠٠، ٤٠٤ ـ ٤٠٥ بتصرف يسير.

إنفاقه فى أى صورة من صور الإنفاق تارةً فى المأكل والمشرب، وتارة فى اللباس، وتارة فى السكنى، وغيرها.

ثانيًا : أهم صور أكل الحرام وموقف الشارع الحكيم :

ولأكل الحرام صور كثيرة تدل عليه، ومظاهر عِدَّة تكشف عنها، ومنهـــا :

١ ـ الربا بكل أشكاله وصوره :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ [البقرة] .

٢ ـ السرقة :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الممتحنة] .

وعن عبادة بن الصامت ـ وكان شهد بدرًا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولاتعصوا فى معروف، فمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومَنْ أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك [(١)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الإيمان: باب منه ١/ ١١، وكتاب مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار إلى النبى ﷺ بمكة، وبيعة العقبة ٥/ ٧٠، وكتاب التفسير: سورة الممتحنة: باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ٦/ ١٨٧، وكتاب الحدود: باب الحدود كفارة، وباب توبة السارق ٨/ ١٩٨، ٢٠١، وكتاب الأحكام: باب بيعة النساء ٩/ ٩٩، وكتاب التوحيد: باب فى المشيئة والإرادة ٩/ ١٦٩، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الحدود : باب الحدود كفارات لأهلها ٣ / ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ رقم (١٧٠٩/ ٤١، ٤٤)، والترمذى فى: السُّنن: كتاب الحدود: باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها ٤/ ٣٦ رقم (١٤٣٩)، والنسائى فى: السنن: كتاب البيعة: باب البيعة على الجهاد ٧/ ١٤١ ـ ١٤٢، وكتاب الإيمان وشرائعه: باب البيعة على الإسلام ٨/ ١٠٨ ـ ١٠٩، والدارمىُّ فى: السُّنن: كتاب السير: باب فى بيعة النبى ﷺ ٢/ ٢٢٠، وأحمد فى: المسند ٥/ ٣١٤ كلهم من حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

٣ ـ الغصْب ـ وهو الاستيلاء بالقوة على مال الغير بغير حقٍّ علانية :

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ [البقرة] .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه من سبع أرضين » [(١)].

٤ ـ الرشوة :

وهى ما يُدفع من مال إلى ذى سلطان أو ما فى حكمه ليحكم لشخص أو على خصمه بما يريد، أو ينجز له عملا، ويؤخِّر لغريمه مثله ـ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ الراشى، والمرتشى » [(٢)].

٥ ـ التدليس ـ وهو كتمان العيب فى السلعة، أو الثمن مع العلم به :

قال رسول الله ﷺ : « البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن تفرقا وبيَّنا بُورك لهما

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المظالم والغصب : باب إثم مَنْ ظلم شيئًا من الأرض ٣/ ١٧٠، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء فى سبع أرضين ٤/ ١٢٩، ١٣٠ من حديث سعيد بن زيد، وزاد البخارى فى بدء الخلق روايتين : الأولى من حديث عائشة رضي الله عنها والأخيرة من رواية سالم بن عبد الله، عن أبيه، ومسلم فى: الصحيح: كتاب المساقاة: باب تحريم الظلم، وغصب الأرض وغيرها ٣/ ١٢٣٠ ـ ١٢٣٢ رقم (١٦١٠/ ١٣٧ ـ ١٤٠) من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا به، وبمثله، وبنحوه، ورقم (١٦١١/ ١٤١) من حديث أبى هريرة مرفوعًا، ورقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة مرفوعًا، والترمذى فى: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد ٤/ ٢٠ ، ٢١ رقم (١٤١٨) على أنه قطعة من حديث طويل بلفظ: «ومَنْ سرق من الأرض شبرًا طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين »، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب البيوع: باب مَنْ أخذ شبرًا من الأرض ٢/ ٢٦٧ من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا، وأحمد فى: المسند ١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠ من عدة طرق عن سعيد بن زيد مرفوعًا، ٢/ ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٣٢ من عدة طرق عن أبى هريرة مرفوعًا به وبنحوه.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السُّنن : كتاب الأقضية: باب فى كراهية الرشوة ٤/ ٩ ـ ١٠ رقم (٣٥٨٠)، والترمذى فى : السنن: كتاب الأحكام: باب ما جاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم ٣/ ٦٢٣ رقم (١٣٣٧)، وابن ماجه فى: السُّنن: كتاب الأحكام: باب التغليظ فى الحيف والرشوة ٢/ ٧٧٥ رقم (٢٣١٣) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا به، غير أنه قال فى رواية ابن ماجه: «لعنة الله على الراشى، والمرتشى»، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وأورده الألبانى فى: غاية المرام فى تخريج أحاديث الحلال والحرام ص ٢٦٣ رقم (٤٥٧) وحسنه، ولكن من طريق أبى هريرة.

فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقتْ بركة بيعهمـا »[(١)] .

٦ ـ الغش قليلا أو كثيراً :

لقوله ﷺ : « مَنْ غشَّ فليس منَّا »[(٢)] .

٧ ـ أكل أموال اليتامى ظلمًا :

لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩ ﴾ [النساء] .

٨ ـ السؤال غير المشروع :

لما جاء فى الحديث عن قبيصة بن مخارق الهلالى بلفظ : تحمَّلْـتُ حمالةً فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » .

ثم قال: «يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالةً فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحتْ ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال: سدادًا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا مِنْ قومه: لقد أصابت فلان فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال سدادًا مـن عيش ـ فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة سُحتًا، يأكلها صاحبها سحتًا »[(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب إذا بيَّن البيِّعان ولم يكتما ، ونصحا ، وباب ما يمحق: الكذب، والكتمان فى البيع، وباب كم يجوز الخيار، وباب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٣/ ٧٦، ٧٧، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البيوع: باب الصدق فى البيع والبيان ٣/ ١١٦٤ رقم (١٥٣٢/ ٤٧)، وأبو داود فى: السنن: كتاب البيوع والإجارات: باب فى خيار المتبايعين ٣/ ٧٣٧ ـ ٧٣٨ رقم (٣٤٥٩)، والترمذى فى: السنن: كتاب البيوع: باب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٣/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩ رقم (١٢٤٦)، والنسائى فى: السنن: كتاب البيوع: باب ما يجب على التجار ٧/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، والدارمى فى: السنن: كتاب البيوع: باب فى البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٢/ ٢٥٠ كلهم من حديث حكيم بن حزام ﷺ مرفوعًا، وعقَّب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث صحيح».

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب قول النبى ﷺ : «مَنْ غشنا فليس منا» ١/ ٩٩ رقم (١٠٢/ ١٦٤)، والترمذى فى: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء فى كراهية الغش فى البيوع ٣/ ٦٠٦ رقم (١٣١٥)، والترمذى فى: السنن: كتاب البيوع: باب النهى عن الغش ٢/ ٧٤٩ رقم (٢٢٢٤) كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وقال الترمذى: «حسن صحيح».

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب مَنْ تحل له المسألة ٢/ ٧٢٢ رقم (١٠٤٤/١٠٩)، وأبو داود فى : السنن: كتاب الزكاة: باب ما تجوز فيه المسألة ٢/ ١٢٠ رقم (١٦٤٠)، والنسائى فى: السنن: كتاب الزكاة: باب الصدقة لمن تحمَّل حمالة ٥/ ٨٨ ـ ٩٠، والدارمى فى: السنن: كتاب الزكاة: باب مَنْ تحل له الصدقة ١/ ٣٩٦، وأحمد فى: المسند ٥/ ٦٠ كلهم من حديث قبيصة بن مخارق الهلالى مرفوعًا به.

٩ ـ منع الزكاة :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] .

١٠ ـ الاتجار فى المحرَّمات :

مثل: الخمور ، والمخدرات، والأصنام، والتماثيل، والخنزير، وأوراق اللعب، والمزامير، وأدوات اللهو، ونحوها.

١١ ـ عدم إتقان أو إجادة الأعمال :

فإن هذا يعنى أخذ أجر من غير بذل ما يقابلـه من عرق، وجهد.

وفى ضوء هذه الصور، وغيرها، والدليل على حرمتها، يظهر أن الشارع الحكيم يحرم أكل الحرام، وينهى عنه أشد النهى، كما هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] . وقوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ [النحل]

ثالثًا : أسباب وبواعث أكل الحرام :

ولأكل الحرام أسباب كثيرة، وبواعث عِدَّة تؤدى إليه، وتوقع فيه، نذكر منها :

١ ـ الجهل بماهية الحرام وحقيقته، وعواقبه :

ذلك أن كثيرًا من الناس يجهلون ماهية الحرام، ولا يعرفون حقيقته، لاسيَّما دقائقه، ولا يدركون عواقبه، ومَنْ جهل ماهية أمرٍ مَّا، وحقيقته، وعواقبه أتى هذا الأمر، وإن كان ضاراً ، وهو لا يدرى ولا يشعر.

لذا جعل الشارع الحكيم : الفقه فى الدين أساسًا لأداء المسلم دوره، ورسالته فى الأرض، خصوصًا قضية الحلال والحرام، والمباح والمحظور. فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ

الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] .

ووعى السَّلف حقيقة ذلك، فجعلوا الفقه فى الدين الأساس الأول لبناء شخصية المسلم، لاسيما الحلال والحرام، حيث قام نظام التعليم فى الدولة الإسلامية على هذا، فكانوا يبدءون بالقرآن مع اللغة العربية، مع أحاديث أصول الأحكام، مع الفقه لمعرفة الحلال والحرام، ثم يكون التعمُّق فى ناحية أو أكثر من العلوم الشرعية، أو العلوم الحياتية، وحسبنا ما أُثر عن عمر ﷺ أنه كان يطوف بالسوق، ويضرب بعض التجار بالدرَّة، ويقول: «لا يبع فى سوقنا إلا مَنْ قد تفقه فى الدين » [(١)] .

وحسبنا ما أُثر عن أبى هريرة ﷺ أنه مرَّ بسوق المدينة يومًا فوقف عليها فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم ؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم، وأنتم ههنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا: وأين هو ؟ قال: فى المسجد.

فخرجوا سراعًا، ووقف أبوهريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم : ما لكم ؟ قالوا : يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم: وما رأيتم فى المسجد أحدًا ؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ [(٢)] .

٢ ـ عدم معرفة الله حق المعرفة، وعدم مراقبته :

ذلك أن المرء إذا خلا قلبه من معرفة اللـه، وأنَّـه سبحانه عالم بكلِّ شيء، مطلع على كلِّ شيء، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، سَهُلَ عليه أن يقع فى كلِّ محظور، ومن المحظورات الكسب الحرام.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب الصلاة : باب ما جاء فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ٢/ ٣٥٧ رقم (٤٨٧) من حديث عمر ﷺ موقوفًا عليه بهذا اللفظ ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب العلم ١/ ١٢٣ ـ ١٢٤ من حديث أبى هريرة موقوفًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن».

وقد نبَّـه النبى ﷺ إلى ذلك فى حديثه المشهور : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد » (١) .

يقول المهلب فى معنى نفى الإيمان عنه : « تنزع منه بصيرته فى طاعة الله ».

ويقول ابن الجوزى فى ذلك: « إن المعصية تذهله عن مراعاة الإيمان، وهو تصديق القلب فكأنَّـه نسى مَنْ صدَّق به ».

ويقول ابن حجر : « معنى قوله : ليس بمؤمن، أى ليس بمستحضر فى حالة تلبُّسه بالكبيرة جَلال مَنْ آمن به، فهو كناية عن الغفلة التى جلبتها له غلبة الشهوة ».

ويقول الطيبى: « يحتمل أن يكون الذى نقص من إيمان المذكور الحياء، وهو المعبر عنه فى الحديث الآخر بالنور، وقد مضى أن الحياء من الإيمان، فيكون التقدير لا يزنى حين يزنى وهو يستحيى من الله، لأنه لو استحيا منه، وهو يعرف أنَّـه مشاهد حاله لم يرتكب ذلك، وإلى ذلك تصح إشارة ابن عباس تشبيك أصابعه، ثم إخراجها منها، ثم إعادتها إليها ، ويعضِّده حديث : « مَن استحيـا من الله حق الحيـاء فليحفظ الـرأس وما وعى، والبطن وما حوى»(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المظالم: باب النُّهْبَى بغير إذن صاحبه ٣/ ١٧٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب نقصان الإيمـان بالمعاصى ١/ ٧٦ ـ ٧٧ حديث رقم(٥٧/ ١٠٠ ـ ١٠٥)، وأبو داود فى: السنن: كتاب السنة: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٤/ ٢٢١ رقم (٤٦٨٩)، والترمذى فى: السنن: كتاب الإيمان: باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن ٥/ ١٦ ـ ١٧ حديث رقم (٢٦٢٥) ، والنسائى فى : السُّنن [المجتبى] : كتاب قطع السارق : باب تعظيم السَّرقة ٨/ ٦٤ ـ ٦٥، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب النهى عن النهبة ٢/ ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ حديث رقم (٣٩٣٦) كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا به وبنحوه .

(٢) وهناك أقوال أخرى فى معنى الحديث لخصها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١٢/ ٦٠ ـ ٦٢ فى اثنى عشر قولا بالإضافة إلى القول الذى ذكرناه، وهذه أهم هذه الأقوال:

١ ـ قال الإمام النووى: اختلف العلماء فى معنى هذا الحديث ، والصحيح الذى قاله المحقِّقون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصى وهو كامل الإيمان، هذا من الألفاظ التى تطلق على نفى الشىء، والمراد نفى كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا ما يغلُّ، ولا عيش إلا عيش الآخرة، وإنما تأولناه لحديث أبى ذر: «مَنْ قال: لا إله إلا الله دخل الجنَّة، وإن زنى، وإن سرق»، وحديث عبادة الصحيح المشهور: «أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يسرقوا ولا يزنوا...» الحديث، وفى آخره: «وَمَنْ فعل شيئًا من ذلك فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة، ومن لم يعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه» فهذا مع قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ مع إجماع أهل السنة على أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك، يضطرنا إلى تأويل الحديث ونظائره، وهو تأويل ظاهر سائغ فى اللغة مستعمل فيها كثيرًا » . =

٣ ـ الإسراف مع قلة ذات اليد:

ذلك أن الإسراف مع قلة ذات اليد قد يضطر المرء أن تمتد يده إلى الحرام فى أىٍّ من صوره التى مضت لتغطية نفقاته تلك، بغض النظر عن الباعث على هذا الإسراف، أهو المرء نفسه؟ أم زوجه وذووه؟، ولعل هذا من بين الأسباب التى من أجلها نهى الشارع الحكيم عن الإسراف والتبذير، قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ۝٢٧﴾ [الإسراء] .

٤ ـ الديون مع حلول الأجل وقلة ذات اليد :

وقد تكون الديون مع حلول الأجل، وقلة ذات اليد، من بين الأسباب التى تحمل على أكل الحرام، ذلك أن الدَّين همٌّ بالليل، وغمٌّ بالنهار، وهو قرين الكفر كما جاء عن المعصوم ﷺ ويعظم ذلك حين يحين الأجل مع قلة ذات اليد، إذ ربما تُحدِّث المرء نفسه، ويسوِّل له شياطين الجن والإنس السعى إلى كسب الحرام لقضاء هذا الدَّين، والخروج من دائرة الهمِّ، والغَمِّ، والحرج.

ولعل هذا من بين الأسباب التى من أجلها دعا الشارع إلى إنظار المعسر، وربَّما الحط عنه ، قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠﴾ [البقرة] .

وقال ﷺ : « مَنْ أنظر معسراً، أو وضع له، أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظلِّ عرشه، يوم لا ظل إلا ظلُّه » [1] .

= ٢ ـ وقال النووى أيضًا : «وتأوله بعض العلماء على مَنْ فعله مستحلا مع علمه بتحريمه».

٣ ـ وقال النووى كذلك : «وقال الحسن البصرى، ومحمد بن جرير الطبرى: معناه ينزع عنه اسم المدح الذى سمَّى الله به أولياءه، فلا يقال فى حقه: مؤمن، ويستحق اسم الذمِّ، فيُقال : سارق، وزانٍ، وفاجر، وفاسق».

٤ ـ وقال الإمام النووى أيضًا : «وعن الزهرى أنه من المشكل الذى نؤمن به، ونُمرُّ كلما جاء، ولا نتعرض لتأويله».

٥ ـ وقال الحافظ ابن حجر: «أن يكون منافقًا بهذه الأعمال نفاق معصية، لا نفاق كفر، حكاه ابن بطال عن الأوزاعى».

٦ ـ أن معنى نفى كونه مؤمنًا، أنه شابه الكافر فى عمله.

٧ ـ أن المراد به الزجر والتنفير، ولا يراد ظاهره، إلى غير ذلك من الأقوال.

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرِّقاق: باب حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر ٤/ ٢٣٠١ ـ ٢٣٠٢ رقم (٣٠٠٦/ ٧٤) من حديث عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت مرفوعًا، =

٥ ـ البيئة التى ينشأ فيها المرء :

وقد تكون البيئة التى ينشأ فيها المرء صغيرة ـ كالبيت ـ أم كبيرة ـ كالمجتمع ـ سببًا فى أكل الحرام، ذلك أن المرء إذا نشأ فى بيت يأكل الحرام ولا يبالى، وكذلك إذا عاش فى مجتمع هذه صفته وحاله يتأثر بذلك كثيراً فيأكل الحرام، ولا يجد أدنى مرارة أو غضاضة فى هذا.

وهذا هو سرُّ تأكيد الشارع الحكيم على صلاحية البيت، ونقاء المجتمع من كلِّ صور الشرِّ والفساد كما سبقت الإشارة إلى ذلك غير مرة.

٦ ـ التلذذ بأكل الحرام :

وقد يكون التلذذ بأكل الحرام سببًا قويًا من أسباب الوقوع فيه، ذلك أن المرء إذا تلذذ بشىء أقبل عليه واقترفه غير مبال بآثاره وعواقبه، كما هو حال كثير من العصاة لا يبالون ما يدخل بطونهم، ولا ما يضعون فوق أجسادهم، ولا ما ينفقون على أهليهم وأولادهم، بل يجدون أعظم اللذة، وأتم السرور فى ذلك.

٧ ـ الفقر والمسكنة :

وقد تكون الحاجة الشديدة المتمثلة فى الفقر، أو الحاجة البسيطة المتمثلة فى المسكنة من بين أسباب الوقوع فى أكل الحرام، ذلك أن المحتاج يعمل جاهداً على سدِّ حاجته، وقد لا يتاح له هذا من طريق حلال، وحينئذ يلجأ إلى الحرام والعياذ بالله ـ ويستمر فى ذلك إلى غير رجعة إلا أن تدركه عناية الله ورحمته.

٨ ـ الخوف على مستقبل الأهل والأولاد :

وقد يكون الخوف على مستقبل الأهل والأولاد دافعًا إلى أكل الحرام ، ذلك أن المرء إذا كان غير مؤمن بالله ، أو كان مؤمنًا ولكن إيمانه ضعيف يُشغل بمستقبل الأهل والأولاد ، ويظن أن أمن هذا المستقبل مرهون بكثرة المال ، فيعمل لذلك غير

= والترمذى فى: السنن: كتاب البيوع: باب ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به ٣/ ٥٩٩ برقم (١٣٠٦) من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقَّب عليه قائلا: «وفى الباب عن أبى اليسر، وأبى قتادة، وحذيفة، وابن مسعود، وعبادة، وجابر، وحديث أبى هريرة حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الصدقات: باب إنظار المعسر ٢/ ٨٠٨ رقم (٢٤١٩) من حديث أبى اليسر مرفوعًا بلفظ: «من أحبَّ أن يظلَّه الله فى ظلِّه فلينظر معسراً، أو ليضع له»، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب البيوع: باب فيمن أنظر معسراً ٢/ ٢٦١ من حديث ربعى أبى اليسر، وأبى قتادة به، وبنحوه عند أحمد فى: المسند ٢/ ٥٣٩ من حديث أبى هريرة مرفوعًا.

مبالٍ بالعواقب والآثار ، بينما أرشد رب العزة إلى طريق تأمين مستقبل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ ﴾ [النساء] .

٩ ـ تيسير سبيل أكل الحرام وتذليل كل العقبات من طريقه :

وهذا هو المشاهد اليوم: إذ بيوت الربا، وسبيل الغش والخداع والرشوة ونحوها، ملقاة على قارعة الطريق لمن شاء أو أحب، بينما هناك صعوبة، وصعوبة بالغة فى الحصول على الكسب الحلال، لذا يُقبل نفر كثير من الناس على أكل الحرام لسهولة الحصول عليه وليس الأمر كذلك فى أكل الحلال.

١٠ ـ الرغبة فى الظهور بمظهر الوجهاء والأغنياء :

وقد تكون الرغبة فى الظهور بمظهر الوجهاء والأغنياء، مع عدم تيسير ذلك إلا عن طريق الكسب الحرام من بين أسباب الوقوع فى أكل الحرام، وهذا حال كثير من الناس اليوم، يتصورون أن تقدير الناس لهم إنما يكون عن طريق الغنى واليسار، والوجاهة، وليس بمقدورهم الوصول إلى ذلك إلا عن طريق الكسب الحرام ، فيقعون فيه ـ والعياذ بالله ـ غير مبالين بعواقبه ونتائجه.

١١ ـ اعتقاد أن كسب الحرام مهارة من المهارات :

وقد يعتقد نفر من الناس أن كسب الحرام إحدى المهارات الحياتية التى لا يُسْتَغْنى عنها، وبسبب هذا الاعتقاد يعمل جاهدًا على أكل الحرام، سيَّما إذا رأى تقديرًا وتشجيعًا من المحيطين به فى هذا الأمر، كما هو حال نفر من الناس فى كلِّ العصور، وسائر البيئات .

١٢ ـ ضعف الرقابة البشرية :

وقد يكون ضعف الرقابة البشرية المتمثل فى السؤال عن مصدر الكسب، والتأكد من صحة هذا المصدر ، ثم المحاسبة وتوقيع العقوبات اللازمة من الحدود أو التعازير ونحوها من بين الأسباب المؤدية إلى أكل الحرام،وقد قيل: «المال السايب يُعلِّم السرقة».

لذا كانت الرقابة البشرية جزءًا من صلاح الفرد والجماعة، حيث يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١] .

وكان النبى ﷺ يحاسب عماله، ويجازى كلاً بما يستحق، وحسبنا هذا الحديث:

عن أبى حميد الساعدى رضي الله عنه قال : استعمل النبى ﷺ رجلا من الأزد يُقال له ابن الأتبية (اللُّتبيَّة) على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهدى لى، قال : «فهلاً جلس فى بيت أبيه، أو بيت أمِّه، فينظر يُهدى له أم لا، والذى نفسى بيده لا يأخذ أحدٌ منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر »، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرة إبطيه « اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت » ثلاثًا (١) .

١٣ ـ عدم المبالاة بحلٍّ أو حرمة :

وقد يكون عدم المبالاة بحل أو حرمة من بين أسباب الوقوع فى أكل الحرام، ذلك أن المرء إذا تبلد حسُّه، وماتت عاطفته أصبح لا يبالى بحلٍّ أو حرمة ويصير كل همِّه وتوجهاته: إشباع لذائذه الشخصية بكل الأساليب والوسائل الممكنة، وقد أشار النبى ﷺ إلى ذلك فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه حين قال : « يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام » (٢) .

إلى غير ذلك من الأسباب والبواعث.

رابعًا : العواقب والآثار المترتبة على أكل الحرام :

هناك عواقب ضارة وآثار مهلكة تترتب على أكل الحرام سواء على العاملين أم على العمل الإسلامى، ودونك بعض هذه الآثار والعواقب:

أ ـ على العاملين :

وهى كثيرة ، نذكر منها :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الهبة وفضلها: باب مَنْ لم يقبل الهديَّة لعلة ٣/ ٢٠٩، وكتاب الحيل: باب احتيال العامل ليهدى له ٩/ ١٣٦ وكتاب الأحكام: باب هدايا العمال: وباب محاسبة الإمام عُمَّاله ٩/ ٨٨، ٩٥، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب تحريم هدايا العمال ٣/ ١٤٦٣ ـ ١٤٦٥ رقم (١٨٣٢ / ٢٦ ـ ٢٩)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الخراج، والإمارة، والفيء: باب فى هدايا العمال ٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥ رقم (٢٩٤٦) ، والدارمىُّ فى : السنن : كتاب الزكاة : باب ما يُهدى لعمال الصدقة لمن هو ؟ ١/ ٣٩٤ ، وأحمد فى : المسند ٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤ كلهم من حديث أبى حميد الأنصارى الساعدى مرفوعًا، واللفظ للبخارى فى بعض رواياته.

(٢) الحديث أورده المنذرى فى: الترغيب والترهيب: كتاب البيوع وغيرها: باب الترغيب فى طلب الحلال، والأكل منه، والترهيب من اكتساب الحرام وأكله، ولبسه، ونحو ذلك ٢/ ٥٠٤ رقم (٩٦١) (المنتقى من الترغيب والترهيب للدكتور يوسف القرضاوى)، وعزاه ـ أى المنذرى ـ إلى البخارى والنسائى قائلا: «رواه البخارى والنسائى، وزاد رزين فيه: فإن ذاك لا تُجاب لهم دعوة»، والحديث من مسند أبى هريرة.

١ ـ مرض القلب بل موته... الأمر الذى يفضى إلى النَّار :

ذلك أن القلب يصيبه المرض بالمعاصى والسيئات حتى إذا استمرت هذه المعاصى والسيئات ، ولم تنتـه بعد كان موت هذا القلب ، وأكل الحـرام من أكبر المعاصى والسيئات.

وقد مرَّ معنا شرح أحوال القلب من حين يصيبه المرض بأول ذنب أو معصية حتى يموت بسبب الاستمرار والمواظبة على المعاصى والسيئات، من الغين، إلى الغيم، إلى الرَّان، إلى القفل، إلى الختم والطبع.

وإذا مرض القلب بل مات انصرف عن رسالته وهى توجيه الجوارح لأداء الرسالة التى كُلِّف بها صاحب هذا القلب، إلى توجيهه ناحية الشرِّ والفساد، فيعيش آكل الحرام غارقًا فى المعاصى من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه حتى يموت، ويكون مصيره وعاقبته: النار وبئس دار القرار ـ والعياذ بالله .

وقد لفت النبى ﷺ النظر إلى ذلك بقوله : « يا كعب بن عجرة ، إنَّه لا يدخل الجنَّـة لحمٌ نبت من سُحتٍ ، النَّار أولى به »[١] .

ووعى المسلمون الأوائل ذلك فامتنعوا عن أكل الحرام، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبى بكر الصِّديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبوبكر، فقال له الغلام: أتدرى ماهذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو؟ قال: كنتُ تكهَّنْتُ لإنسان فى الجاهلية، وما أُحسن الكهانة إلا أنِّى خدعته، فلقينى فأعطانى لذلك هذا الذى أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شىء فى بطنه»[٢] .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أن أكل الحرام يسوِّد القلب، ويفسده ـ كما مضى ـ ، وهذا بدوره يؤدى إلى القلق والاضطراب النفسى.

---

(١) الحديث أخرجه احمد فى: المسند ٣/ ٣٢١، ٣٩٩ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا على أنه من حديث طويل، والترمذى فى : السنن : كتاب الصلاة : باب ما ذكر فى الصلاة ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣ رقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة مرفوعًا بلفظ: «يا كعب بن عجرة إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى»، وصححه الشيخ أحمد شاكر فى شرحه على الترمذى.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب مناقب الأنصار: باب أيام الجاهلية ٥/ ٥٣، ٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها بهذا اللفظ.

وحسبنا قوله ـ سبحانه وتعالى ـ فيمن يأكلون الربا : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

٣ ـ عدم قبول الدعاء :

ذلك أنَّ أكل الحرام يجر صاحبه ـ كما تقدم ـ إلى سيل من المعاصى والسيئات، ولاشك أن هذا مما يحول بين العبد وبين قبول الدعاء :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] » ثم ذكر الرجل يطيل السَّفر، أشعث أغبر، يمُدُّ يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِى بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك ؟ (١) .

٤ ـ الكوارث التى تذهب بكل خير :

ذلك أن أكَلَة الحرام قد ينزل بهم من الكوارث، والبلايا ما يكون سببًا فى ذهاب كلِّ خير، وحسبنا قوله سبحانه فى أكلة الربا : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى] .

٥ ـ القعود عن أداء الواجبات، والانصراف إلى المعاصى والسيئات :

ذلك أن أكلَ الحرام يثقل بصاحبه عن أداء الواجبات، ويقوده إلى المعاصى، والسيئات، ومَنْ قعد عن أداء واجبه وانطلق يكرع من المعاصى والسيئات فقد خسر إنسانيته، وتحول إلى حيوان وربما أدنى من الحيوان.

ب ـ على العمل الإسلامى :

وهى كثيرة أيضًا، نذكر منها :

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، وتربيتها ٢/ ٧٠٣ رقم(١٠١٥ / ٦٥)، والترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن: سورة البقرة ٥/ ٢٠٥ رقم (٢٩٨٩)، والدارمى فى: السنن: كتاب الرِّقاق: باب فى أكل الطيب ٢/ ٣٠٠، وأحمد فى : المسند ٢/ ٣٢٨ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

١ ـ ضعف الإنتاج وتوقف التنمية :

وهذا أمر بَدَهي في عملٍ كلٍّ من أفراده ميِّت القلب، قلق النفس، مضطرب الأعصاب، قاعد عن أداء واجبه، منصرف إلى المعاصي والسيئات تحيط به الكوارث، وتلاحقه المصائب من كلِّ ناحية، لا يقبل الله منه دعاء، ولا يجيب له طلبًا، لأنه ماضٍ في أكْلِ الحرام لا يرجع عنه.

٢ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

وضعف الإنتاج وتوقف التنمية يؤدي بدوره إلى أن تطول الطريق، وتكثر التكاليف، ويتأخر النصر، وتبقى الحياة مرتعًا للظالمين، والجبارين ينشرون في الأرض الفساد، ويهلكون الحرث والنَّسل، ويعبثون بالقيم العليا، والمبادئ السَّامية، ويتحمل آكلو الحرام إثم ذلك كله، وجُرْمَه، وصدق الله العظيم الذي يقول : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم] . ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] . ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧] . ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

خامسًا : علاج أكل الحرام بل الوقاية منه :

وإذ انتهينا من معرفة ماهية أكل الحرام، وأهم صوره، وموقف الإسلام منه، والأسباب والبواعث المؤدية إليه، وآثاره، وعواقبه على العاملين، وعلى العمل الإسلامي ، فإنه يسهل علينا رسم طريق العلاج بل الوقاية من أكل الحرام، وذلك باتباع هذه الخطوات :

١ ـ الفقه الصحيح لنظام المعاملات المالي في الإسلام مضمونًا ومغزى:

كأنَّ الخطوة الأولى لعلاج أكل الحرام، بل الوقاية منه، إنما تكمن في: الفقه الصحيح لنظام المعاملات المالي في الإسلام مضمونًا ومغزى من: أنَّ أصل المكاسب الإباحة إلا ما ورد النص بتحريمه لقوله ﷺ : «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال،

وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا»، وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١) .

ومن حرمة أكل مال الغير ظلمًا وعدوانًا فى أىٍّ صورة من صوره : كالربا ، والغصب، والاختلاس، والاحتكار، وبيع الرجل على بيع أخيه من غير ترك الأول أو إذنه، والنجش، والغش، والرشوة ، وغيرها، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] .

ولقوله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وماله، وعِرضه » (٢) . وقوله ﷺ فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا . . . » (٣) .

ومن أنَّـه لابدَّ أن تكون السلعة معلومةً غير مجهولة، ومقدورًا على تسليمها وسبب البداية بهذه الخطوة : تمييز الحلال من الحرام، بل المشتبه فيه ومعرفة عقوبة أكل الحرام، وأجر أكل الحلال ليهلك مَنْ هلك عن بيِّنةٍ، ويحيا من حَىَّ عن بيِّـنةٍ، وقد تقدم

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك: كتاب التفسير: باب منه ٢/ ٣٧٥ من حديث رجاء ابن حيوة، عن أبى الدرداء ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأقره الذهبى فى: التلخيص، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد: كتاب العلم: باب ثان منه فى اتباع الكتاب والسنة، ومعرفة الحلال من الحرام ١/ ١٧١ من حديث أبى الدرداء مرفوعًا بهذا اللفظ وعقب عليه بقوله: «رواه البزَّار والطبرانى فى الكبير، وإسناده حسن ورجاله موثَّقون»، وكتاب التفسير: سورة مريم عليها السلام ٧/ ٥٥ من حديث أبى الدرداء مرفوعًا، وعقب عليه بقوله: «رواه البزَّار، ورجاله ثقات»، وأورده الألبانى فى: غاية المرام فى تخريج أحاديث الحلال والحرام ص ١٤ ـ ١٥ وعقب عليه بقوله: «حسن»، وعلل لتحسينه بسبب رجاء بن حيوة.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم ظلم المسلم وخذله ٤/١٩٨٦رقم (٢٥٦٤/ ٣٢)، وأبو داود فى : السنن: كتاب الأدب: باب فى الغيبة رقم (٤٨٨٢)، والترمذى فى: السنن : كتاب البر والصلة: باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ٤/٢٨٦رقم (١٩٢٧) وعقب عليه بقوله : « حديث حسن غريب » ، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن : باب حرمة دم المؤمن وماله ٢/١٢٩٨ رقم (٣٩٣٣)، وأحمد فى المسند ٢/٢٧٧.

(٣) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الحج: باب الخطبة أيام منى ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٧ من حديث ابن عباس، وأبى بكرة، وابن عمر مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الحج: باب حجة النبى ﷺ ٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢ رقم (١٢١٨ / ١٤٧) من حديث جابر ابن عبد الله مرفوعًا بهذا اللفظ .

حديث : « مَنْ يُرد الله به خيراً يُفَقِّههُ فى الدين. . . » ، وقول عمر ﷺ : « لا يبع فى سوقنا إلا مَنْ قد تَفقَّه فى الدين »[(١)] .

يقول الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على قول عمر بن الخطاب: « نعم. . حتى يعرف ما يأخذ، وما يدع، وحتى يعرف الحلال والحرام، ولا يفسد على الناس بيعهم، وشراءهم بالأباطيل، والأكاذيب، وحتى لايدخل الربا عليهم من أبواب قد لا يعرفها المشترى، وبالجملة: لتكون التجارة تجارةً إسلامية صحيحة خالصة، يطمئن إليها المسلم، وغير المسلم لا غش فيها، ولا خداع »[(٢)] .

٢ ـ تربية ملكة المراقبة لله ـ عـزَّ وجـلَّ :

وذلك بالمعايشة الطويلة لآيات الله فى كونه المسطور [القرآن الكريم] وآياته فى كونه المنظور [النفس والكون] ، فإن ذلك يقوِّى الإيمان بالله، ومراقبته ـ سبحانه ـ عباده فى السرِّ والعلن، قال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]. وقال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر].

وعن أبى ذر ـ جندب بن جنادة ـ وأبى عبد الرحمن ـ معاذ بن جبل ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اتق الله حيثما كنت. . . » الحديث[(٣)] .

وهكذا لو قَويتْ ملكة المراقبة لله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ فى النفس فإنها تساعد على ترك أكل الحرام، بل توقيه حياءً، وخجلا منه ـ سبحانه وتعالى .

٣ ـ توفير الضروريـات الحياتية للناس :

ذلك أن هناك ضروريات حياتية لا يعيش الناس بدونها، وهى التى وعدها الله آدم

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٢٤.

(٢) انظر: تعليقه على سنن الترمذى: كتاب الصلاة: باب ما جاء فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ٢/ ٣٥٧.

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب البر: باب ما جاء فى معاشرة الناس ٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣ رقم (١٩٨٧) من حديث أبى ذر مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، ومن حديث مُعاذ بن جبل مرفوعًا بنحوه، وقال محمود بن غيلان: «والصحيح حديث أبى ذر»، والدارمى فى: السنن: كتاب الرقاق: باب فى حسن الخلق ٢/ ٣٢٣ من حديث أبى ذر مرفوعًا بهذا اللفظ، وأحمد فى: المسند ٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٦٩ من حديث أبى ذر ﷺ مرفوعًا به، وبنحوه ٥/ ٢٢٨، ٢٣٦ من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا بنحوه.

عليه السلام حين أسكنه الجنَّة فى قوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه].

ولابدَّ من توفير هذه الضروريات للجميع، فتُقطع الطريق على الشيطان، ذلك الذى لاهمَّ له إلا إغراء الإنسان، وحمله على ارتكاب المعاصى، وأولها أكل الحرام، بدليل تحذير رب العزَّة سبحانه من ذلك عقب أمر الناس بأكل الحلال فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة] .

وتوفير هذه الضروريات مسؤوليات السلطان أولا ، يعنى (الدولة) ومسؤولية المجتمع يعنى الشعب ثانيًا، لاسيَّما أهل الغنى واليسار بتوفير ميادين العمل الحلال الشريف لمن تأهل له، ومؤسسات التعليم والتدريب لمن لم يتأهل له، وهذا جانب استثمارى، وسدٌّ الحاجات الضرورية الآنية، وهذا جانب استهلاكى.

وفى حديث أبى ذرٍّ رضي الله عنه ما يُرشد إلى شىء من ذلك، إذ يقول : سألتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال: « إيمانٌ بالله، وجهاد فى سبيله »، قلتُ: فأى الرِّقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها»، قلتُ: فإن لم أفعل، قال: «تُعين صانعًا، أو تصنع لأخرق (١) »، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشرِّ، فإنها صدقة تصدَّق بها على نفسك » (٢) .

كما جاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم بضمانه الحاجات الضرورية لمن فقدها، فقال: «مَنْ كان لنا عاملا فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسبْ خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا » (٣) .

---

(١) الأخرق: الجاهل بما يجب أن يعمله، ولم يكن فى يديه صنعة يكتسب بها، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٢٩٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب العتق وفضله: باب أى الرقاب أفضل ٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩، وابن ماجه فى: السنن: كتاب العتق: باب العتق ٢/ ٨٤٣ رقم(٢٥٢٣)، وأحمد فى: المسند ٥/ ١٥٠، ١٧١ ، ٢٦٥، كلهم من حديث أبى ذر مرفوعًا به وبنحوه، وهو عند أحمد أيضًا ٢/ ٣٨٨ من حديث أبى هريرة بنحوه.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى: السُّنن: كتاب الخراج والإمارة والفىء ٣/ ٣٥٤ رقم (٢٩٤٥) من حديث المستورد بن شداد مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب بقوله: (قال: قال أبو بكر: أخبرتُ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ اتخذ غير ذلك فهو غالٌّ أو سارق »).

٤ ـ الاقتصاد فى النفقة :

ذلك أن الاقتصاد فى النفقة يحمى المرء من الوقوع فى غوائل الدّين، وبالتالى الوقوع فى الكسب الحرام، وقد أمر الشارع بذلك فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] . وقال : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الاعراف]. وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة] .

وقال ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنٍ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه » (١) .

وكان من دعائه ﷺ : « اللهم ارزق آل محمد قوتًا » (٢) .

إلى غير ذلك من الأخبار، والآثار التى مضى الحديث عنها فى «آفة الإسراف».

٥ ـ الانسلاخ من صحبة أَكَلَةِ الحرام مع الحرص على صحبة آكلى الطيبات:

ذلك أن المرء على دين خليله كما سبق فى غير ما موضع من هذه الآفات، وعليه فإن مَنْ يريد التخلص من الحرام عليه أن ينسلخ من صحبة أولئك الذين يُعْرَفون بأكل الحرام، ويحرص على سلوك السبيل إلى البديل، ألا وهو صحبة آكلى الحلال، عند ذلك يخف الضغط النفسى، ويقضى على أكل الحرام، بل تكون هناك حصانة أو وقاية منه، وعلى ذلك يتنزل الحديث الشريف: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى. . .» الحديث (٣) .

٦ ـ دوام النظر فى سير وأخبار الماضين المعروفين بالحرص على أكل الحلال :

من أمثال ما قصَّه علينا نبينا محمد ﷺ فى خبر بنى إسرائيل، إذ قال: « اشترى رجل من رجل عقارًا له، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّةً فيها ذهب، فقال له الذى اشترى العقار: خذ ذهبك منِّى، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذى له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال

(١، ٢) الحديثان سبق تخريجهما فى الجزء الأول، آفة «الإسراف» .

(٣) الحديث اخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يؤمر أن يجالس ٤/٢٥٩رقم (٤٨٣٢)، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب صحبة المؤمن ٤/ ٥١٩ رقم (٢٣٩٥) كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذى بقوله: « هذا حديث حسن، إنما نعرفه من هذا الوجه » .

الذى تحاكما إليه: ألكما ولد ؟ قال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدَّقا » [١] .

وما جاء عن عمر رضي الله عنه أنَّه قسَّم مُرُوطًا بين نساءٍ من نساء المدينة، فبقى مِرْطٌ جيِّد، قال له بعض مَنْ عنده: يا أميرالمؤمنين، اعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التى عندك ـ يريدون أم كلثوم بنت علىٍّ ـ فقال عمر: أمُّ سَليطٍ أحق ـ وأمُّ سَليط من نساء الأنصار ممَّن بايع رسول الله ﷺ ـ قال عمر: فإنها كانت تَزفِرُ لنا القرب يوم أُحد ـ قال أبو عبد الله : تزفر: تخيط [٢] .

وما جاء عن نساء العصرالأول : أن المرأة كانت تقول لزوجها إذا غدا ليقتات لها، ولولده، ولذويه: «يا فلان، اتق الله فينا، فإنَّا نصبر على الجوع،ولا نصبر على النار».

وتقدم ما أُثر عن الصِّديق أبى بكر رضي الله عنه فى هذا الشأن.

وهذا حسن الهضيبى يطلب منه بعض ولده أوراقًا يسوِّد فيها بعض دروسه، وأمامه أوراق كثيرة جلبها من دار القضاء لتسويد القضايا، ثم تبييضها، فيأبى إلا أن يعطيهم مالا ليشتروا به حاجتهم، فيقولون له: كيف يكون ذلك، والأوراق أمامنا؟ فيجيبهم: إن هذه ليست ملكًا لنا، وإنما هى أمانة عندنا لا يحل الانتفاع بها إلا فى مسائل القضاء.

هذه الأخبار والسيَّر: منتهى الخشية من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتقوى والورع، والوقوف عليها يساعد المرء أن يتطهر من أكل الحرام بل الوقاية منه.

٧ ـ ضرورة أن تكون الأسرة قدوة فى تعاطى الحلال :

ذلك أن المرء إذا نشأ فى بيت حريص على أكل الحلال تأثر بذلك، ونشأ عليه، فتكون هذه حماية ووقاية له، وهذا ما يريده الشارع الحكيم من وراء أن يكون بناء البيت على أساس التقوى أو الدين، كما تقدمت الأحاديث والأخبار بذلك.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأنبياء: باب منه ٤/ ٢١٢ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجهاد: باب حمل النساء القِرَب إلى الناس فى الغزو ٤/ ٤٠ ـ ٤١، وكتاب المغازى: غزوة أحد: باب ذكر أم سليط ٥/ ١٢٧ ـ ١٢٨، كلاهما من حديث ثعلبة ابن أبى مالك ـ رضى الله عنه ـ بهذا اللفظ، والمرط: كساء من صوف، وربَّما كان من خزٍّ أو كتَّان أو غيره يُؤتَزَر، وتتلفع به المرأة جمع مُرُوط، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ٩٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٦٤ بتصرف.

٨ ـ تحصين وتأمين مستقبل الأولاد بالتقوى :

ذلك أن تقوى الله بتوحيده، وترك المعاصى، والسيئات، والإقبال على الطاعات، تكون سببًا فى تحصين وتأمين مستقبل كريم للأولاد ، وليس أكل الحرام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩ ﴾ [النساء] .

٩ ـ التحرر من الرغبة فى الظهور بمظهر الوجهاء والأغنياء :

ذلك أن التحرر من الرغبة فى الظهور بمظهر الوجهاء، والأغنياء، يُعفى المرء من الحرص على أكل الحرام، وحيازة المال الكثير، بدعوى أن هذا من أسباب احترام الناس وتقديرهم، ناسيًا أو متناسيًا أن التقدير إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [الحجرات] .

١٠ ـ إحياء الرقابة البشرية من الحاكم ومن الأمة على السواء :

ذلك أن إحياء الرقابة البشرية من الحاكم والأمة على السواء يمنع من أكل الحرام، بل يحصن منه، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

ولفعل الرسول ﷺ ، حيث كان يحاسب عمَّاله وينتزع منهم مَنْ ليس لهم كما تقدم فى قصة ابن اللُّتبيَّة الأزدى، حين قال: « هذا لكم، وهذا أُهدِى لى »، وكذلك كان عمر يحاسب عماله اقتداءً، وتأسِّيًا بالنبى ﷺ، وكذلك كان المسلمون الأولون.

١١ ـ الصبر على الجوع والفقر :

ذلك أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكمة يعلمها هو، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٢] .

وقد كشف عن جانب من هذه الحكمة فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٢٧ ﴾ [الشورى] .

وواجب العبد حين يُضيِّق عليه ربه بعد أخذه بالأسباب التى بمقدوره أن يقوم بها: أن يصبر موقنًا أن صبره على الجوع والفقر أحسن ألف مرَّةٍ ، ومرّةٍ من أكل الحرام لعواقبه وآثاره التى مضى الحديث عنها آنفًا.

١٢ ـ إغلاق كل الأبواب المؤدية إلى الحرام مع إيجاد البدائل الحلال:

ومن الضرورى كذلك في علاج أكل الحرام، بل الوقاية منه : إغلاق كل الأبواب المؤدية إلى الحرام من بيوت الربا، ودور البغاء، وحانات الخمور، ومصانع التماثيل، وبيع الكلاب والخنازير، ونحوها، مع إيجاد البدائل الحلال من بيوت التمويل، والمصارف، والمؤسسات، والمتاجر، والمصانع المقامة على الالتزام بمبادئ شرع الله الحنيف، وقد طمأن الله الناس إذا فعلوا ذلك بقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة] .

١٣ ـ الحث على العمل وترك القعود :

ذلك أن مواصلة العمل، وترك القعود مما يوفِّر للمرء قدرًا من الحلال يغنيه عن التطلع إلى الحرام، ولنا فى سير الأنبياء والمرسلين الأسوة والقدوة، حيث كانوا جميعًا أصحاب حرف ومهن، ومن أجمعها رعى الغنم، على أن النبى ﷺ لم يقبل من أحدٍ قادر على العمل والكسب أن يرقد ولا يعمل، وحسبنا هذا الحديث : « والذى نفسى بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتى به، فيحمله على ظهره، فيأكل، خيرٌ له من أن يسأل الناس، ولأن يأخذ ترابًا فيجعله فى فيه خيرٌ له من أن يجعل فى فيه ما حرَّم الله عليه »(١) .

١٤ ـ التذكير الدائم بعواقب أكل الحرام :

ذلك أن الإنسان قد ينسى لسبب أو لآخر، عواقب أكل الحرام، وخير علاج لذلك هو دوام التذكير بعواقب أكل الحرام، قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات] . وقال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى] .

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب البيوع وغيرها : باب الترغيب فى طلب الحلال [٢/ ٣٠٥ رقم(٩٥٩) المنتقى للدكتور يوسف القرضاوى] من حديث أبى هريرة مرفوعًا، وعقب عليه بقوله: « رواه أحمد بإسناد جيد ».

الآفة الرابعة والثلاثون
الخـوف

والآفـة الرابعة والثلاثون التى قعدتْ بكثير من المسلمين عن أداء دورهم وواجبهم فى الشهادة على العالمين، الأمر الذى أدَّى إلى عواقب وخيمة وآثار خطيرة ليس فى حياة المسلمين وحدهم، بل فى حياة البشرية جميعًا، إنما هى: « الخوف ».

وكى يتحرر منها مَنْ ابتلى بها، ويتوقها مَنْ سلَّمهُ الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من تنفيذ سلسلة من المهامِّ فى مقدمتها : التعرف على أبعاد ومعالم هذه الآفة على النحو التالى :

أولا : ما هية الخوف لغةً واصطلاحًا :

أ ـ لغـة : يأتى الخوف لغة على معانٍ منها :

١ ـ الفَزَع، تقول: خاف من كذا: فَزِعَ، وأخافَهُ الأمرَ: فزَّعهُ منه.

٢ ـ توقع حلول مكروه أو فوت محبوب ، تقول : خَافَ : خَوْفًا ، ومخافةً، وخِيفةً : توقع حلول مكروه، أو فوت محبوب (١) .

ولا تعارض، إذ توقع حلول مكروه أو فوت محبوب يؤدى إلى الفزع والاضطراب غالبًا .

ب ـ اصطلاحًا : اختلفتْ ألفاظ العلماء فى تعريف الخوف مع اتفاقهم على معناه، وإليك هذه الألفاظ :

١ ـ يقول أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ) : « الخوف : تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى المستقبل (٢) .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ٣/ ٢٠٤، والمعجم الوسيط ١/ ٢٦٢ ، والصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٢٩٢ بتصرف .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٤ / ١٥٥، ط التجارية الكبرى ـ مصر .

٢ ـ ويقول أبو القاسم الجنيد: « الخوف: توقع العقوبة على مجارى الأنفاس» [(١)] أى : إذا صرفتْ في غير ذكر الله.

٣ ـ ويقول آخرون : « الخوف: انفعال فى النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب » [(٢)] .

٤ ـ ويقول الكفوى : «الخوف : غمٌّ يلحق لتوقع المكروه، وكذا الهم، وأمَّا الحزن فهو غمٌّ يلحق مِنْ فوات نافع، أو حصول ضار » [(٣)] .

ولعل أكثر هذه التعاريف دقة وقبولا: تعريف الغزالى والكفوى، إذ هما الموافقان لما فى كتاب الله فى مواطن كثيرة، ومنها هذا الموطن، وهو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾ [البقرة] .

قال فى: أنوار التنزيل: « الخوف على المتوقع، والحزن على الواقع » [(٤)] .

جـ ـ علاقة الخوف بالخشية والرهبة، والوجل، والهيبة :

يرى ابن القيِّم : أن هذه الألفاظ متقاربة بالمعنى، ولكنَّها غير مترادفة ويفرق بينها بقوله : (والخشية : أخص من الخوف، فإنَّ الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] . فهى خوف مقرون بمعرفة، وقال النبى ﷺ : «إنى أتقاكم لله وأشدُّكم له خشية») .

فالخوف : حركة، والخشية: انجماع، وانقباض، وسكون، فإن الذى يرى العدوَّ، والسيل، ونحو ذلك له حالتان: إحداهما: حركة للهرب منه وهى حالة الخوف، والثانية: سكونه، وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه، وهى الخشية، ومنه انخشَّ الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضى البازى، وتقضض.

وأمَّا الرهبة، فهى: الإمعان فى الهرب من المكروه، وهى ضد الرغبة التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه.

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم ١ / ٥١١ .
(٢) الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط ١ / ٢٦٢ .
(٣) الكليات : ص ٤٢٨ .
(٤) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل للبيضاوى ١ / ١٤٥ .

وأما الوجل : فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر مَنْ يخاف سلطانه، وعقوبته أو لرؤيته.

وأما الهيبة : فخوف مقارن للتعظيم ، والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبِّين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم، والمعرفة يكون الخوف والخشية (١) .

ثانيًا : مظاهر الخوف وموقف الشارع منه :

هناك مظاهر كثيرة دالَّـة على الخوف سواء من الخالق أم من المخلوق:

أ ـ مظاهر الخوف من الخالق :

أمَّـا مظاهر الخوف من الخالق فكثيرة نذكر منها :

١ ـ عدم انتهاك محارم الله لاسيَّـما فى الخلوة، والبعد عن الناس.

٢ ـ المبادرة بالتوبة النصوح عند الوقوع فى الذنب.

٣ ـ المبادرة بتنفيذ حكم الله، ولو كانت المتاعب والمشقات.

٤ ـ القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حدود الطاقة والوسع.

٥ ـ استمرار الالتزام بمنهج الله إلى الممات، إلى غير ذلك من المظاهر.

ب ـ مظاهر الخوف من المخلوق :

وأمَّـا مظاهر الخوف من المخلوق فكثيرة أيضًا نذكر منها :

١ ـ طاعة المخلوق فى معصية الخالق إلى حدِّ التفانى فى مرضاة هذا المخلوق ولو مع الذلِّ والهوان .

٢ ـ القعود عن القيام بواجب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر.

٣ ـ تتبع عورات المسلمين ، والتجسس عليهم بلا مبرر ولا موجب.

٤ ـ ترك التعاون مع العاملين لدين الله، وإن كان هذا التعاون لم يتجاوز تهذيب النفس، وتقويمها، وإعدادها لتقوم بواجبها فى الأرض.

---

(١) انظر : مدارج السـالكين ١ / ٥١٢ ـ ٥١٣ .

٥ ـ الوشاية بالعاملين لدين الله لدى خصومهم تنفيذًا لأمر هؤلاء الخصوم أو مجاملة لهم ومحاباة، إلى غير ذلك من المظاهر.

جـ ـ موقف الشارع الحكيم من الخوف:

لما كان الخوف دائرًا بين أن يكون من الخالق أو من المخلوق اختلف موقف الشارع منه.

فما كان من الخالق بصورة تحجز عن محارم الله، وتحمل على الطاعة، والتوبة النصوح عند المعصية، وتنفيذ حكم الله، وإن خالف هوى النفس، وكذلك القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واستمرار الالتزام بمنهج الله إلى الممات.

ما كان من الخالق بهذه الصورة فمحمود، وممدوح، دعا إليه الشارع صراحةً، وضمنًا، بأسلوب مباشر وغير مباشر.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ(٤١)﴾ [النازعات]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون].

عن عائشة ـ زوج النبى ﷺ ـ قالتْ: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالتْ عائشة: هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: « لا يا بنت الصدِّيق، ولكنَّهم الذين يصومون، ويصلُّون، ويتصدَّقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، أولئك الذين يُسارعون فى الخيرات »[1].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب التفسير: باب ومن سورة «المؤمنون» ٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم (٣١٧٥)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب التوقى على العمل ٢/ ١٤٠٤ رقم (٤١٩٨)، كلاهما من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا، واللفظ للترمذى.

وما كان منه بصورة تحمل على اليأس والقنوط من رحمة الله أو القعود عن أداء الواجب، والتفريط فى الرسالة فمذموم ، مقبوح.

قال تعالى : ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] .

ومـا كان من المخلوق بصورة تقعد عن أداء الواجـب أو التطـاول على الحرمـات بغير مشقة ولا إكراه فمذموم مقبوح كذلك ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] . وقال تعالى: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الاحزاب] وقال تعالى : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه] . وقال تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التوبة] . وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل] .

ثالثًا : أسباب وبواعث الخوف :

وللخوف المذموم أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه نذكر منها:

١ ـ العيش فى وسط يسيطر عليه الخوف :

ذلك أن المرء إذا نشأ وشبَّ فى وسط يسيطر عليه الخوف لاسيَّما من المخلوقين: سرت إليه عدوى هذا الوسط، وتأثر به وحاكاه أعمُّ من أن يكون هذا الوسط قريبًا كالبيت، أم بعيدًا كالمجتمع والأصدقاء والأقران.

وقد كان ﷺ مضرب الأمثال فى الشجاعة فى بيته وخارج بيته، اقتلاعًا لهذا السبب من النفوس، وإشاعة للأمن والرخاء.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا ـ وقد سبقهم إلى الصوت ـ وهو على فرسٍ

لأبى طلحة عُرْىٍ فى عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»، قال: «وجدناه بحرًا، أو إنَّه لبحرٌ»، قال: وكان فرسًا يُبَطَّأُ (١) .

٢ ـ الأذى النفسى والبدنى ولاسيَّما إذا كان بصورة لا تطاق :

وقد يكون الأذى البدنى والنفسى ولاسيَّما إذا كان بصورة لا تطاق من بين الأسباب والبواعث التى تدعو للوقوع فى الخوف، ذلك أن المرء إذا لقى من الآخرين إيذاءً لا يُطاق بدنيًا كان أم نفسيًا: لزمه الرعب، والخوف، والفزع لاسيَّما إذا كان فى أول حياته وتنقصه المعرفة الحقَّة بالله ـ عزَّ وجلَّ .

وقد كان النبىُّ ﷺ يداوى ذلك بالدعوة إلى تأمين الآخرين، وعدم إيذائهم أو ترويعهم فى أىِّ صورة من صور الإيذاء والترويع.

إذ يقول ﷺ : « مَنْ أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه، وأمِّه » (٢) .

يقول الإمام النووى ـ رحمه الله ـ تعليقًا على ذلك : « فيه تأكيد حرمة المسلم، والنهى الشديد عن ترويعه، وتخويفه، والتعرض له بما قد يؤذيه،وقوله ﷺ : «وإن كان أخاه لأبيه وأمِّه» : مبالغة فى إيضاح عموم النهى فى كلِّ أحد سواء مَنْ يتهم فيه، ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلا ولعبًا أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام بكل حال، ولأنَّه قد يسبقه السِّلاح كما صرح به فى الرواية الأخرى، ولعن الملائكة له يدل على أنه حرام » (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح :كتاب الجهاد : باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ٤/ ٤٧، وكتاب الأدب: باب حُسن الخُلق والسخاء وما يُكره من البخل ٨/ ١٦، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الفضائل: باب فى شجاعة النبى ﷺ وتقدُّمه للحرب ٤/ ١٨٠٢ ـ ١٨٠٣، رقم(٢٣٠٧ / ٤٨ ـ ٤٩)، والترمذى فى: السنن: كتاب الجهاد: باب ما جاء فى الخروج عند الفزع ٤/ ١٧٢ رقم (١٦٨٧)، وابن ماجه فى: السُّنن: كتاب الجهاد: باب الخروج فى النفير ٢/ ٩٢٦ رقم (٢٧٧٢)، وأحمد فى: المسند ٣/ ١٤٧، ١٨٥، ٢٧١، كلهم من حديث أنس بن مالك مرفوعًا بهذا اللفظ، وبمثله، وبنحوه، وعقَّب عليه الترمذى بقوله: «هذا حديث صحيح».

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب النهى عن الإشارة بالسِّلاح إلى مسلم ٤/ ٢٠٢٠ رقم (٢٦١٦ / ١٢٥)، والترمذى فى: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء فى إشارة المسلم إلى أخيه بالسِّلاح ٤/ ٤٠٣ رقم(٢٦١٢) ، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا واللفظ لمسلم، وعقب عليه الترمذى بقوله: «وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه...».

(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/ ٣٨٥ م ٨ .

ويقول ﷺ : «لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعبًا أو جادًا، فمَنْ أخذ عصا أخيه فليردَّها إليه» (١).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه، فأخذه، ففزع، فقال رسول ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا » (٢) .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صلَّى صلاة الصبح فهو في ذمَّة الله، فلا يطلبنَّكم الله مِنْ ذمَّته بشيء فإنَّه مَنْ يطلبه مِنْ ذمَّته بشيء يدركه، ثم يكبُّه على وجهه في نار جهنم » (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « . . . كل المسلم على المسلم حرام دَمُه، ومالُهُ، وعِرْضُه » (٤) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع، فكان مما قال : «فإن دماءكم ، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. . .» الحديث (٥) .

ومرَّ هشام بن حكيم بن حزام بالشَّام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصُبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال : ما هذا ؟ قيل : يعذَّبون في الخراج، فقال : أما أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يعذِّب الذين يُعذِّبون في الدنيا » (٦) إلى غير ذلك من الأساليب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في : السنن: كتاب الأدب : باب مَنْ يأخذ الشيء على المزاح ٤/ ٣٠١ رقم (٥٠٠٣) ، والترمذي في: السنن: كتاب الفتن: باب ما جاء لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا ٤/ ٤٠٢ رقم (٢١٦٠) ، كلاهما من حديث يزيد بن السائب مرفوعًا، واللفظ للترمذي، وعقب عليه بقوله: «وهذا حديث حسن غريب».

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في: السُّنن: كتاب الأدب: باب مَنْ يأخذ الشيء على المزاح ٤/ ٣٠١ رقم (٥٠٠٤) من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أصحاب النبيِّ ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب فضل صلاة العشاء، والصبح في جماعة ١/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥ رقم (٦٥٧ / ٢٦٢) من حديث جندب بن عبد الله القسري مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٤) الحديث سبق تخريجه في الجزء الثالث، آفة «سوء الظن » .

(٥) الحديث سبق تخريجه في الجزء الثالث ، آفة «الغيبة ».

(٦) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب الوعيد الشديد لمن عذَّب الناس بغير حق ٤/ ٢٠١٧ ـ ٢٠١٨ رقم (٢٦١٣ / ١١٧ ـ ١١٩) بهذا الإسناد، وبهذا اللفظ .

٣ ـ الوقوف على كلِّ ما يخيف ويؤذى :

وقد يكون الوقوف على كلِّ ما يخيف ويؤذى إنْ بالمشاهدة ، وإنْ بالقراءة، وإنْ بالسَّماع من بين الأسباب التى تؤدى إلى الخوف، والبواعث التى توقع فيه، لاسيَّما إذا كان هذا الواقف ممن نشأ فى بيئة ناعمة مترفة لم تتمرس على خشونة العيش ، ولم تألف قسوة الحياة؛ لذا كان من اللائق عدم الاطلاع على ذلك، إلا بعد تأديب النفس وتعويدها الصبر والتحمل، ومعاناة الحياة.

ويمكن أن يستشف هذا السبب، وذلك الباعث من خلال ما طلبه الشارع من حضور طائفة من المؤمنين إقامة الحدِّ على الزُّناة ليكون ذلك تخويفًا وزجرًا لهم أن يأتوا مثل هذا العالم، وإلا حلَّ بهم من العقاب مثل ما حلَّ بهؤلاء الزناة، قال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

وقد جاء عنه ﷺ الدواء الشافى لمثل هذا السبب، إذ يروى ابن إسحاق فيقول:

ولما افتتح رسول الله ﷺ القموص : حصْن بنى أبى الحقيق أتى رسول الله ﷺ بصفية ابنة حُيَىٍّ بن أخطب وبأخرى معها، فمرَّ بهما بلال ـ وهو الذى جاء بهما ـ على قتلى مِنْ قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية صاحتْ وصكَّتْ وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: « اغربوا [١] عنِّى هذه الشيطانة»، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، فقال رسول الله ﷺ لبلال ـ فيما بلغنى ـ حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: «أنزعتْ منك الرحمة يا بلال حين تمرُّ بامرأتين على قتلى رجالهما » [٢] .

٤ ـ عدم المعرفة بالله بصورة تؤدى إلى التعدى على الحدود، وانتهاك الحرمات :

وقد يكون عدم المعرفة بالله من أنَّه : الموصوف بكلِّ كمال، المنَّزه عن كلِّ نقص، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض، ولا فى السَّماء، القاهر فوق عباده، العزيز، الجبار، المتكبر، الجامع الناس ليوم لا ريب فيه، المجازى كلا بالسوء سوءًا، وبالإحسان إحسانًا، الأمر الذى يؤدى إلى تعدى حدوده، وانتهاك حرماته.

(١) اغربوا: ابعدوا، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة (غرب) .

(٢) الخبر أخرجه ابن سعد فى: الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٠، وتاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبرى ٣/ ١٣، ودلائل النبوة للبيهقى ٤/ ٢٣٢ بهذا اللفظ وبنحوه.

قد يكون ذلك من بين الأسباب والبواعث التى تجعل المرء يأمن مكر الخالق ومَنْ يأمن مكر الخالق يعاقبه الله بالخوف من المخلوق.

وقد أشار ربُّ العزّة إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّيَفْقَهُونَ ⑬ ﴾ [الحشر]. وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه : ١٢٤] . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ⑰ ﴾

[الجن]

وأىُّ ضنك أو عذاب أشد من الخوف من المخلوقين وخشيتهم بصورة يكون معها الخضوع، والاستسلام، والذل، والخنوع ؟

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪⑭ ﴾

[البقرة]

٥ ـ شيوع الظلم وتلاشى العدل :

وقد يكون شيوع الظلم فى أىِّ صورة من الصور، وتلاشى العدل من بين الأسباب والبواعث التى توقع فى الخوف، ذلك أنه إذا ضرب الظلم بأطنابه، وألقى بجرانه بين الناس، وغاب أو تلاشى العدل بصورة تونس المظلوم أن يصل إلى حقه : فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرء يعيش فى رعب وفى فزع خشية أن تصيبه نار هذا الظلم، ولا يجد من ينصفه أو يقف بجواره لينال حقَّه على النحو المعاش فى البلدان التى يسودها الحكم الشمولى أو الفردى، والتى لا تقيم للإنسان وزنًا، ولا تعترف له بأىِّ حق من الحقوق.

٦ ـ غياب القوانين والدساتير التى يقع عليها عبء إنسانية الإنسان بل بناؤها على غير ما وُضعتْ له :

وقد يكون غياب القوانين والدساتير التى يقع عليها عبء الاحتفاظ للإنسان بإنسانيته، بل بناؤها على غير ما وضعتْ له من بين الأسباب التى تؤدى إلى الخوف، وتوقع فيه، ذلك أن الشأن فى القوانين والدساتير، أنها موضوعة لرعاية مصالح الإنسان فردًا كان أم جماعة.

فكيف تكون الحال لو غابتْ ، أو وُجِدتْ ولكنَّها أقيمتْ على أساس الجور لا العدل، والمحاباة والمجاملة لا الإنصاف والموضوعية ؟

لا جواب عن ذلك سوى شيوع الخوف، والرعب ، والفزع.

ومن هنا دعا ربُّ العزَّة الخلق إلى تحكيم كتابه، والعمل به، وإن لحقهم من المشقات والتعب ما لحقهم، إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٤٨] . ويقول تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]. ويقول تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]. ويقول تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾

[الأنعام : ١١٤]

٧ ـ التوبة من بعد الإسراف على النفس وظن عدم القبول والمغفرة :

وقد تكون التوبة من بعد الإسراف على النفس، وظنُّ عدم القبول والمغفرة من بين الأسباب والبواعث التى تؤدى إلى الخوف وتوقع فيه.

ذلك أن العبد إذا أسرف على نفسه فى المعصية، ثم وفقه الله إلى التوبة، وظل شبح الذنب يلاحقه ربمَّا ظن عدم القبول والمغفرة، فخاف وأصابه الرعب والفزع، وقد طمأن الله مثل هذا الصنف من الناس بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] . وبقوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] .

٨ ـ توقع الفقر مع عدم الثقة بما عند الله :

وقد يكون توقع الفقر لكثرة الولد، أو لذهاب وجاهة، أو فَقْدُ وظيفة أو نحو ذلك، مع عدم الثقة بما عند الله من بين الأسباب أو البواعث التى توقع فى الخوف، وتؤدى إليه، ذلك أن المرء إذا عاش متوقعًا الفقر فى أىٍّ من الأحوال المذكورة آنفًا أو غيرها مع عدم ثقته بما عند الله التى لا تفنى خزائنه، ولا ينسى خَلْقَهُ،وإن كانوا كفارًا، حيث يقول: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ [البقرة: ١٢٦]. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ [لقمان: ٢٤] .

إذا عاش المرء على هذا التوقع انتهتْ به الحال إلى الوقوع فى الخوف من المخلوق، والرعب، والفزع.

وقد لفت النبىُّ ﷺ النظر إلى هذا السَّبب فيما رواه عنه يعلى العامرىُّ إذ قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبىِّ ﷺ فضمَّهما إليه، وقال: « إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ » (١).

٩ ـ التعرض بَغْتةً لموقف مخيف :

وقد يكون التعرض لموقف مخيف من بين الأسباب أو البواعث التى توقع فى الخوف باستمرار، وتؤدى إليه على الدوام، ذلك أنَّ المرءَ قد يتعرض لموقف مفاجئ لم يكن يتوقعه، وربما يكون هذا الموقف عنيفًا أو شديدًا، ولا يتمكن هذا المرء من تحمُّله، وتكون العاقبة الوقوع فى الخوف على الدوام، وأغلب مرضى النفس أو الأعصاب ضحايا هذا السبب أو هذا الباعث.

١٠ ـ إحاطة المتكبِّرين أنفسهم بهالة من القوة التى لا تُقهر، والجبروت الذى لا يُقاوم :

وقد يكون إحاطة المتكبِّرين أنفسهم بهالة من القوَّة التى لا تُقهر، والجبروت الذى لا يُقاوم من بين الأسباب التى توقع فى الخوف وتؤدى إليه، على نحو ما زعم النمرود ابن كنعان فى قوله : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وعلى نحو ما زعم فرعون فى قوله لأهل مصر: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] .

وعلى نحو ما أشيع عن التتر: « مَنْ حدَّثك أن التتر قد هزموا فلا تصدِّق ».

وعلى نحو ما يُشيعه الإسرائيليون : يهود، وصهاينة عن أنفسهم: أنهم الشعب الذى لا يُقهر والقوَّة التى لا تُهزم، وهكذا.

ووقت المجابهة الحقيقية تتمزق هذه الهالة ، ويسفر الصبح لذى عينين، فقد أُخذ النمرود ببعوضة، وأهلك فرعون وملؤه بالغرق، وهزم التتر فى عين جالوت، وانكشفتْ إسرائيل على حقيقتها فى حرب رمضان ١٣٩٣هـ أكتوبر ١٩٧٣م، وعلى يد أطفال الحجارة الذين بدؤوا انتفاضتهم المباركة عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، وفى المستنقع اللبنانى

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى: السُّنن: كتاب الأدب: باب برِّ الوالد، والإحسان إلى البنات ٢/ ١٢٠٩ رقم (٣٦٦٦)، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٧٢، كلاهما من حديث يعلى العامرىِّ مرفوعًا بهذا اللفظ، وأورده البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ٤/ ٩٩ بهذا اللفظ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

اليوم، بل مِنْ قبل أمام المجاهدين من أبناء الحركة الإسلامية فى فلسطين عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م، وهلم جرا.

١١ ـ وعيد الجبارين الشديد، وتهديدهم المستمر :

وقد يكون وعيد الجبارين الشديد، وتهديدهم المستمر من بين الأسباب والبواعث التى توقع فى الخوف وتؤدى إليه، ذلك أنَّه إذا عرف عن جبار أنه لا يرقب فى أحد إلاًّ ولا ذمَّة حتى لو كان من أقرب المقربين إليه، وأطلق هذا الجبار وعيده الشديد، وتهديده المستمر: هابه الناس، وخافوه، وروِّعوا منه، وفزعوا، إلا مَنْ رحم الله، على نحو ما سمعنا، ونسمع عن بعض جبابرة أهل الأرض، ولعله يكون مِن بين هؤلاء مَنْ ينتسب إلى الإسلام، ويدَّعى الانتماء إلى العروبة، ويزعم أنَّه حامى الأوطان، صائن الحرمات، والمقدسات، على نحو ما قال فرعون قديمًا لما أبلغه موسى عليه السلام دعوة الحق من ربِّ العالمين : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] .

وعلى نحو ما أطلقه زعماء وقادة فى العصر الحاضر مِنْ وصف مَنْ يقولون : ربنا الله ويدعون إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة: أنهم رجعيُّون، ومتخلفون، ولا علاج لهذا الصنف من الناس إلا بالتصفية والاستئصال، ثم انقلب ينفِّذ ما هدَّد به وتوعَّد .

١٢ ـ عدم تقدير عواقب الخوف :

وقد يكون عدم تقدير عواقب الخوف المذموم يعنى من المخلوق: الفردية والجماعية، العاجلة والآجلة، من بين الأسباب والبواعث التى توقع فى الخوف، وتؤدى إليه، ذلك أن المرء إذا جهل العواقب المدمِّرة، والآثار المهلكة لأمرٍ مًّا فإنه قد يقع فيه من حيث لا يدرى ولا يشعر.

رابعـًا : آثار الخوف، وعواقبه :

وللخوف المذموم آثار مُهلكة ، وعواقب خطيرة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار وعواقب الخوف على العاملين :

١ ـ التوتر العصبى والاضطراب النفسى :

ذلك أن مَنْ أمِنَ الخالق، وخاف المخلوق عرَّض نفسه لعقاب الله فى الدنيا والآخرة، ومن أبرز صور هذا العقاب فى الدنيا: التوتر العصبى، والاضطراب النفسى.

وقد أشار ربُّ العزَّة إلى هذا الأثر بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (١٢٧)﴾ [طه] . وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن] .

٢ ـ السَّعيُ الجاد لإرضاء المخلوق وإن كان فى ذلك معصية الخالق، الأمر الذى يوجب غضب الله وسخطه :

ذلك أن مَنْ خاف المخلوق ونسى الخالق سعى بجدِّية لإرضاء هذا المخلوق الذى يخافه، وإن كان في ذلك معصية الخالق، فتراه يذل نفسه، ويمتهن آدميته، ويضرب بالقيم العليا والمبادئ السَّامية عرض الحائط لا لشيء إلا ليُرضى مَنْ يخافه، ويوم تصل الأمور إلى هذا الحدِّ يكون غضب الله، وسخطه، ومَنْ يُصيبه غضب الله وسخطه فقد خسر خسرانًا مبينًا، وصدق الله الذى يقول: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ [طه]

٣ ـ القعود عن أداء الواجبات إلى حدِّ السكوت على المنكرات :

ذلك أن مَنْ خاف المخلوق، وأمن الخالق يقعد عن أداء الواجبات إلى حدٍّ أنه يرى المنكرات مُلقاة على قارعة الطريق، فلا ينكر ولو بالقلب، إيثارًا للعافية والسلامة بزعمه، ويوم تتفشى المنكرات، ولا نجد مَنْ ينكر أو يغيِّر كصورة من صور القعود عن أداء الواجبات يكون الهلاك والبوار على نحو ما قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة : ٢٥٢] . ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] .

وعلى نحو ما تقدم فى الحديث من قوله ﷺ : « إذا رأيتَ أمَّتي لا يقولون للظالم منهم : أنت ظالم، فقد تُودع منهم »[١] .

٤ ـ إيذاء أصحاب الأيدى المتوضئة بصورة أو بأخرى :

ذلك أن الخوف من المخلوق قد ينتهى بصاحبه إلى ما تقدم، وربَّما تسول له نفسه

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

إيذاء أصحاب الأيدى المتوضئة بصورة أو بأخرى، لئلا يشعر بتأنيب النفس، ووخز الضمير، إذ كان ضمن هذا الصنف الكريم من البشر، ولخوفه من مخلوق ضعيف مثله انفضَّ عنه، وانقلب يؤذيه بكل ما يستطيع، هذا من ناحية، وإرضاءً لمن يخافه من البشر من ناحية أخرى، وإلا ناله نصيب أكبر من العذاب.

٥ ـ اليأس والقنوط :

ذلك أن استمرار الخوف من المخلوق مع عدم وجود بارقة أمل أو انفراج ينتهى بالمرء إلى اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته، وهذه قاصمة الظهر التى يسعى الأعداء أن تصل الأمة المسلمة أفرادًا وجماعات إليها، وحينئذٍ يكون الخنوع والاستسلام لهؤلاء الأعداء يخططون ما يشاءون، وينفِّذون ما يريدون على النحو الذى تقدم فى آفة اليأس والقنوط.

٦ ـ الإقدام على التخلص من الأولاد، وربَّما التخلص كذلك من الحياة :

ذلك أنَّ توقُّعَ الخوف من كثرة الأولاد، أو ذهاب الوجاهة، أو فقد الوظيفة، أو نحو ذلك مع عدم الثقة بالله قد يحمل على محاولة التخلص من الأولاد بالقتل بل ربَّما التخلص من الحياة بطريقةأو بأخرى، وقد أشار ربُّ العزَّة إلى ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سألتُ رسول الله ﷺ : أىُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلَقَك»، قال: قلتُ له: إن ذلك لعظيم، قال: قلتُ: ثم أىٌّ؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قال: قلتُ: ثم أىٌّ؟ قال: « أنْ تُزانى حليلة جارك » (١) .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار وعواقب الخوف على العمل الإسلامى :

١ ـ القطيعة والفرقة :

ذلك أن الخوف من المخلوق جرَّ نفرًا من الأمة إلى الآثار التى مضتْ آنفًا،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ٦/ ٢٢ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ١/ ٩٠ رقم (٨٦ / ١٤١) .

ولاشك أن عاقبة هذا هى الكراهية، والعـداوة، والقطيعـة والفرقة، تلك التى حذَّرنا منها ربُّ العزَّة فى أكثر من موضع من كتابـه، ومنها قوله : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ [الأنعام] .

٢ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

إذ ثمرة الفرقة المرَّة هى : تمكُّن الأعداء من رقاب الأمة وسيطرتهم على كل شىء فيها، ونشرهم لباطلهم، ومبادئهم الهدامة، ومنها التربص بأهل الحقِّ، وتصفيتهم أو على الأقل محاصرتهم، والتضييق عليهم، وحينئذ تطول الطريق، وتكثر التكاليف.

آثار الخوف المحمود ، وعواقبـه :

ولا بأس من الإشارة إلى آثار الخوف المحمود، ألا وهو الخوف المعتدل من الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ وهى كثيرة، نذكر منها:

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الخوف المحمود على العاملين :

١ ـ مراقبة الله فى السرِّ والعلن بصورة تحمل على عدم انتهاك حرمات الله لاسيَّما فى الخلوة، والغياب عن أعين الناس، فيكون الأمن والأمـان.

٢ ـ المبادرة بالتوبة النصوح عند اقتراف الذنب والوقوع فى الخطأ.

٣ ـ السعى نحو تنفيذ حكم الله قدر المستطاع من غير مبالاة بالمشاقِّ والمتاعب.

٤ ـ القيام بواجب الدعوة والبلاغ، والأمـر بالمعروف، والنهى عن المنكر بالأسلوب الملائم، والوسيلة المناسبة مع التضحية وبذل أقصى ما فى الطاقة والوسع.

٥ ـ محبة المؤمنين، والارتباط الشديد بهم، ومؤازرتهم فى كلِّ ما يقصدون.

٦ ـ الزهد فى الدنيا، إذ يقول ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى » (١) .

---

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الكسـوف : باب الصدقة فى الكسوف ٢ ./ ٦١٥ رقم (١٠٤٤) من حديث عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ إلى قوله: «ولبكيتم كثيرًا»، وكتاب التفسير: سورة المائدة: باب لا تسـألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم ٨/ ١٣٠ رقم (٤٦٢١) من =

٧ ـ دوام الالتزام بمنهج الله من غير تبديل أو تفريط حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا، إلى غير ذلك من الآثار.

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار الخوف المحمود على العمل الإسلامى :

١ ـ النموُّ كمًا وكيفًا :

ذلك أنَّه إذا كان الخوفُ من الله يدفع كلاً من العاملين إلى التحلِّى بالآثار التى ذكرتْ آنفًا، فإن الأثر الرئيس الذى ينعكس على العمل الإسلامى إنما هو نموُّه كمًا ـ يعنى زيادة عدد هؤلاء العاملين ـ وكيفًا ـ يعنى: تمكُّنهم من الأداء على أحسن وَجْهٍ، وأتمِّه، وأخلصِه، مع الترابط والوحدة.

٢ ـ قصر الطريق وقلة التكاليف :

وحين ينمو العمل الإسلامى كمًا، وكيفًا على هذا النحو، فإنه يمكَّن له، ويؤتى ثماره وأكله من أقصر طريق، وبأقل التكاليف: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⑥﴾

[الروم]

خامسًا : علاج الخوف المذموم والوقاية منه :

وإذ قد تصورنا : ماهية الخوف، ومظاهره، والمحمود منه، والمذموم، وأسبابه، وآثاره، وعواقبه على العاملين وعلى العمل الإسلامى، فإنه يسهل تصور طريق علاج الخوف المذموم، والوقاية منه، فى هذه الخطوات:

= حديث أنس مرفوعًا بهذا اللفظ الأول، وكتاب النكاح: باب الغيرة ٩/ ٢٣٠ رقم (٥٢٢١) من حديث عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ الأول مع زيادة فى أوله، وكتاب الرقاق: باب قول النبى ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرًا» ١١/ ٣٢٦ رقم (٦٤٨٥) من حديث أبى هريرة، ورقم (٦٤٨٦) من حديث أنس [فتح البارى]، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الكسوف: باب منه ٦/ ١٩٨ ـ ٢٠١ من حديث عائشة مرفوعًا [شرح النووى]، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢ رقم (٤١٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه مرفوعًا بلفظ المتن كاملا مع زيادة فى أوله، ورقم (٤١٩١) من حديث أنس مرفوعًا بلفظ البخارى ومسلم، والدارمىُّ فى: السنن: كتاب الرقاق: باب لو تعلمون ما أعلم ٢/ ٣٠٦ من طريقين عن أنس مرفوعًا بلفظ البخارى ومسلم، وأحمد فى: المسند ٢/ ٢٥٧، ٣١٢ ـ ٣١٣، ٤١٨، ٤٥٣، ٤٦٧، ٤٧٧، من حديث أبى هريرة مرفوعًا.

١ ـ معرفة الله حق المعرفة :

ذلك أن العبد إذا عرف ربَّه حقَّ المعرفة من : أنَّه مالك الملك، بيده نواصي العباد، يؤتى الملك مَنْ يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويُعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

إذا عرف العبد ذلك كله، خاف الله وحده، دون أحد من خلقه، بل خوَّف الله كل من أراد إذلاله وإخافته، إذ وعد سبحانه بحماية عباده المؤمنين في قولـه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحج] . وفى قوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم] .

٢ ـ انتزاع النفس من الأوساط التى يسيطر عليها الخوف إلى أوساط شجاعة جريئة:

ذلك أن انتزاع المرء نفسه من الأوساط التى يسيطر عليها الخوف إلى أوساط شجاعة جريئة، من شأنه أن يغرس فى النفس الشجاعة والجرأة شيئًا فشيئًا، حتى يبلغ الكتاب أجله، ويصبح المرء متحرراً من خوف مخلوق مثله، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً، فضلا عن أن يملك ذلك لغيره، بل قد يصير خائفًا من الله وحده، وهذا هو الفوز المبين.

٣ ـ رفع كل صور الأذى البدنى، والنفسى عن الناس :

ذلك أنَّ رَفْعَ كلِّ صور الأذى البدنى، والنفسى عن الناس من شأنه أن يجعل الناس يتنفسون الصعداء، ويعيشون آمنين مطمئنين، لاسيَّما إذا ربطوا أنفسهم برسالتهم، ودورهم فى الأرض بحيث ينطلقون يؤدون هذه الرسالة، وهذا الدور.

وقد تقدمت الأحاديث التى فيها النهى عن ترويع، وتعذيب عباد الله فى أى صورة من صور التعذيب والترويع.

٤ ـ عدم الوقوف على أحوال المعذَّبين إلا بعد الحصانة من الخوف:

ذلك أن عدم الوقوف على أحوال المعذَّبين: مشاهدةً أو سماعًا، أو قراءةً فى بداية التربية والبناء من شأنه أن يعطى الفرصة للنفس أن تتحصَّن من خوف المخلوق، ولا تخاف إلا من الخالق على النحو الذى حدث للنبى ﷺ حين أخبر ورقة بن نوفل بما حدث له فى غار حراء أول مرَّة، فرد عليه ورقة بعد أن تأكد له أن الله اختاره للنبوة والرسالة، وأن إنسانًا بلغ هذا المستوى لم يَعُد يخاف إلا من الله العزيز الحكيم، قائلا:

« يا ليتنى فيها جذعًا أكون حيًا حين يخرجك قَوْمُك »، فقال رسول الله ﷺ : «أومُخرجىَّ هُمْ؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئتَ به إلا عُودى، وإن يدركنىْ يومُكَ أنصُرْكَ نصراً مؤزَّراً (١) .

وقد مرَّ معنا لومه بلال بن رباح حين مرَّ بصفية، وامرأة معها على قتلى خيبر؛ لأن ذلك مما يلقى الرعب فى القلوب، ويزرع الخوف فى النفوس، ويجعلها غير صالحة بالمرَّة لأداء دورها ورسالتها فى الأرض.

٥ ـ نشر العدل بين الناس مع محاربة الظلم بكلِّ أشكاله وصوره :

ذلك أن نشر العدل بين النَّاس، مع محاربة الظلم فى كلِّ أشكاله وصوره، من شأنه أن يقضى غالبًا على خوف المرء من المخلوقين، ويجعله يمشى على الأرض آمنًا، مطمئنًا أنّه لن يُعتدى عليه، وإن اعتَدى عليه أحد فهناك من يأخذ له حقَّه، ويرد عليه مظلمته.

ولذا كانت دعوته سبحانه إلى العدل، ومقاومة الظلم ذات حجم واسع وكبير فى القرآن الكريم، والسنة النبوية.

إذ يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل] . ويقول: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الشورى] . ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥ ﴾ [النساء] . ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة] . ويقول : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ فى: الصحيح: كتاب بدء الوحى: باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/ ٣ ـ ٤، وكتاب التفسير: سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥، وكتاب التعبير: باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة ٧/ ٣٧ ـ ٣٨، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب بدء الوحى ١/ ١٣٩ ـ ١٤٢ رقم (١٦٠/٢٥٢)، كلاهما من حديث عائشة مرفوعًا به.

ويقول ﷺ : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظله: إمامٌ عادل... » الحديث (١) .

وقد لفت النبيُّ ﷺ النظر إلى هذه الخطوة العلاجية فى قوله: « لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلعُ، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور مَنْ لا يعرف غيره، ثم يأتى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل مَنْ لا يعرف غيره» (٢) .

ولا يتمُّ العدل إلا بتطبيق منهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه وحده المنهج المبنىُّ على الإنصاف وعدم الجور، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المائدة] .

٦ ـ اليقين التام : أن الخَلْقَ مهما بلغتْ قوتهم وإمكاناتهم فإنهم أقل وأعجز من أن يصنعوا بالمرء شيئًا إلا بإذن الله :

وقد دعا إلى ذلك ربُّ العزَّة سبحانه فى قوله فى كتابه : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح: كتاب الأذان: باب مَنْ جلس فى المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد ١/ ١٦٨، وكتاب الزكاة: باب الصدقة باليمين ٢/ ١٣٨، وكتاب الرقاق : باب البكاء من خشية الله ٨/ ١٢٥، ١٢٦، وكتاب الحدود : باب فضل مَنْ ترك الفواحش ٨/ ٢٠٣ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ فى الروايتين: الأولى والثانية، ومقتصرًا على صنف البكائين فى الرواية الثالثة، وبتقديم بعض هذه الأصناف على بعض فى الرواية الأخيرة، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل إخفاء الصدقة ٢/ ٧١٥، ٧١٦ رقم (١٠٣١/ ٩١) من حديث أبى هريرة بالقطع على تقديم اليمين على الشمال فى التخفىِّ بالصدقة، ومن حديث أبى سعيد، وأبى هريرة على الشك، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: باب ما جاء فى الحبُ فى الله ٤/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩ رقم (٢٣٩١) من حديث أبى هريرة أو أبى سعيد، وعقَّب عليه قائلا: «هذا حديث حسن صحيح»، وهكذا روى هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا وشك فيه، وقال: عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد، وعبيد الله بن عمر، رواه عن حبيب بن عبد الرحمن، ولم يشك فيه، يقول عن أبى هريرة.

والنسائى فى: السنن: كتاب آداب القضاة: باب الإمام العادل ٨/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ من حديث أبى هريرة بمثل رواية البخارى الأخيرة.

ومالك فى : الموطأ : باب ما جاء فى المتحابين فى الله ص ٦٧٩ رقم (١٧٣٣) من حديث أبى سعيد، أو أبى هريرة بمثل رواية البخارى الأخيرة.

وأحمد فى: المسند ٢/ ٤٣٩ من حديث أبى هريرة ، مع تقديم صنف: الذى ذكر الله خاليًا، ففاضتْ عيناه على : الذى تصدَّق بصدقة فأخفاها.

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ من حديث معقل بن يسار ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ.

وفى قوله ﷺ لابن عباس : « . . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. . . »[1] .

وها هم سحرة فرعون يشهدون آية موسى عليه الصلاة والسلام فيوقنون صدقها، ويخرون للأذقان سجدًا قائلين : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه] .

ويتوعدهم فرعون قائلا : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ [طه] . ويردون عليه فى طمأنينة وثبات قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٢ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝٧٣﴾ [طه] .

٧ ـ دوام النَّظر فى سير مَنْ أُثِرَ عنهم عدم الخوف إلا من الله وحده :

ذلك أن دوام النظر فى سيَر هذا الصنف من الناس ـ وما أكثرهم سواء فى هذه الأمة أم فى غيرها من الأمم ـ يُوَلِّـد فى النفس معنى الاقتداء، والتأسِّى، أو على الأقل التشبه والمحاكاة.

هذا عبد الله بن الزبير يمر به عمر بن الخطاب، وهو صبى يلعب مع الصبيان فيفر الصبيان خوفًا من عمر ، وهو واقف مكانه لم يفر ، فقال له عمر : مالك لم تفر مع أصحابك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، لم أُجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيِّقة فأوسع لك[2] .

وهذا عطاء بن أبى رباح يدخل على عبد الملك بن مروان ـ وهو جالس على سريره وحوله الأشراف من كلِّ بطن، وذلك بمكة فى وقت حجَّة فى خلافته ـ فلما بصر به عبد الملك قام إليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد، ما حاجتك ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله فى حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده

---

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه الترمذىُّ فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ رقم (٢٥١٦) من حديث ابن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه الترمذىُّ بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) انظر: عبد الله بن الزبير العائذ ببيت الله الحرام لماجد لحّام ، ص ٣٢ .

بالعمارة، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنَّك بهم جلستَ هذا المجلس، واتق الله فى أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتَفَقَّدْ أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم، فقال له: أجل، أفعل، ثم نهض، وقام، فقبض عبد الملك عليه، وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا عن حاجة لغيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لى إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف (١) .

وهذا الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينكر على الملك الصالح إسماعيل تسليمه: صَفَدَ، والشقيف إلى الفرنج، ويؤيده فى ذلك الشيخ أبو عمرو بن الحاجب الأصولى، الفقيه، المالكى، فيُخرجهما الملك الصالح إسماعيل من بلده، فيسير أبو عمرو إلى الناصر داوُد صاحب الكرك فيكرمه، ويسير ابن عبدالسلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر، فيكرمه ويوليه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق (٢) .

وهذا الإمام النووى يطلب منه الملك الظاهر بيبرس مع غيره من العلماء أن يفتوا بجواز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فيكتب له بعض الفقهاء بجواز ذلك، ويمتنع آخرون، ومنهم الإمام النووى، فيطلبه الظاهر، ويقول له: اكتب بخطك مع الفقهاء فيمتنع، ويقول: لا، فيقول له الظاهر: ما سبب امتناعك ؟ فيقول:

«أنا أعرف أنك كنت فى الرِّقِّ للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم مَنَّ الله عليك، وجعلك ملكًا، وسمعتُ أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحلىِّ، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيتْ مماليكك بالبنود الصوف، بدلا عن الحياصات الذهب، وبقيت الجوارى بثيابهنَّ دون الحلىِّ، ولم يبق فى بيت المال شىء من نقد أو متاع، أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، وإنما يُستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار نبيِّه ﷺ» (٣) .

فيغضب السلطان من كلامه، ويقول: اخرج من بلدى ـ يعنى: دمشق ـ فيقول: السمع والطاعة ، ويخرج إلى بلدة أبيه مسقط رأسه ومنشئه : نوى ، فقيل للملك : ما سبب عدم قتلك له؟ فقال : « كلما أردتُ قتله أرى على عاتقه: سَبُعَيْنِ يُريدان افتراسى فأمتنع من ذلك »(٤) .

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله للدكتور توفيق الواعى ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٣ ، ٤) انظر: الإمام النووى للشيخ عبد الغنى الدقر ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

وغير هذا كثير فى كل العصور، بل وفى عصرنا هذا،وما مواقف الحركة الإسلامية الشجاعة فى: الجزائر، وبلاد الشمال الإفريقى، وكشمير، والبوسنة والهرسك، وفلسطين، وغيرها ضد المستعمرين عنا ببعيد.

٨ ـ المعايشة الدائمة لكتاب الله وسنة وسيرة نبيِّنا محمد ﷺ :

ذلك أن هذه الخطوة هى أجمع وأشمل الخطوات التى مَضَتْ، إذ الكتاب والسنة يُعرفان العباد بربِّهم حق المعرفة، وحقه عليهم، ويعرفانهم حقيقة أنفسهم، ورسالتهم فى الأرض، وسبيل أداء هذه الرسالة، وكذلك عقبات ومعوقات الطريق ، وطريق تجاوز هذه العقبات والمعوِّقات، ويذكران من القصص ما يقوِّى القلب، ويُثبت الفؤاد، كما يذكران من الترغيب والترهيب فى الدنيا والآخرة ما يجعل المرء يستصغر كل عطاء، وكل بذل فى هذه السبيل.

ولعل فى سيرة الرعيل الأول من المسلمين : صحابة، وتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ما يؤكد هذه الحقيقة، ويصدق هذا التصور، حيث لم تتجاوز تربيتهم : القرآن، والسنة، والسيرة، فقهًا وتدبرًا، وتلاوة وترتيلا، وعملا وتطبيقًا، دعوة ، وبلاغـًا .

الآفة الخامسة والثلاثون
الظُلم

والآفـة الخامسة والثلاثون التى كانتْ سببًا فيما تعيشه الأمة المسلمة اليوم أفرادًا وجماعات من محن، وشدائد، وابتلاءات إنما هى: «الظلم».

وكى يتخلص منها مَنْ ابتُلى بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمـهُ الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ منها، فإنه لابد من القيام بطائفة من الأعمال والواجبات فى مقدمتها الإلمام بأبعاد ومعالم هذه الآفة، وذلك من خلال هذه الجوانب:

أولا : ماهية الظلم لغةً واصطلاحًا :

لغة : يأتى الظلم وما يشتق منه على معانٍ منها :

١ ـ الجور أو مجاوزة الحدّ ، تقول : ظلم فلانٌ فلانًا : جار عليه، أو جاوز الحدَّ معه.

٢ ـ وضع الشىء فى غير موضعه، وفى المثل: «مَنْ أشبه أباه فما ظلم»، وفى المثل أيضًا : « مَنْ استرعى الذئب الغنم فقد ظلم»، يضرب لمن يولىّ غير الأمين.

٣ ـ الغضب والنقص، تقول: ظلم فلانًا حقَّـه: غصبـه، ونقصه إياه.

٤ ـ السواد، تقول : ظلـمَ الليل ظَـلْـمًا فهو ظليم : اسودَّ، وأظلم الليل اسودَّ كذلك.

٥ ـ التمويه والتزويق، تقول : هذا شىء مُـظَـلَّـم : مـمـوَّهٌ ، ومزوَّقٌ بالذهب، والفضـة [1] .

---

(١) انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٣/ ٥٦ ـ ٥٧، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٧٧ ، والصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشلين ص٦٩٤ ـ ٦٩٥ مادة: «ظلم» بتصرف كثير .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، إذ بعضها يعبر عن حقيقة الظلم وهو الأول، والثانى، وبعضها يعبر عن بعض صوره، وهو الثالث، وبعضها يعبِّر عن الحال أو الهيئة التى يخرج بها للناس وهو : الرابع والخامس، وكأنه : جور ومجاوزة للحد، أو وضع الشىء فى غير موضعه كالغضب والنقص، ونحو ذلك تارةً بصورة مكشوفة سافرة سوداء، وتارةً بصورة مموَّهـة ومزوَّقـة بما يشبه الذهب والفضة.

اصطلاحًا : مجاوزة حدود الله فى أىِّ صورة من الصور إنْ بالكفر: شركًا أو إلحادًا، وجحودًا، أو إنكارًا لمعلوم من الدين بالضرورة أو استحلالا لما حرَّم الله، أو تحريمًا لما أحلَّ الله ونحوها من صور الكفر وإنْ بما دون ذلك من المعاصى والسيئات كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وحسبنا قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق : ١] .

ثانيًا : مظاهر الظلم ، وموقف الإسلام منها :

وللظلم مظاهر كثيرة تدل عليه وأمارات واضحةٌ بيِّنة ترشد إليه تقدمتْ الإشارة إليها فى التعريف جملة ، حيث مضى: أنَّه كفر أو دون الكفر، ونذكر منها:

أ ـ الشرك فى أىِّ شكل من أشكاله : الكبير والصغير، الظاهر والباطن، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام].

عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ : «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بنىِّ لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم »[1] .

يقول الخطابى ـ رحمه الله ـ تعليقًا على الحديث: « إنما قالتْ الصحابة هذا القول؛ لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره الذى هو الافتيات بحقوق الناس، أو الظلم الذى ظلموا

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب ظلم دون ظلم ١/ ١٥، وكتاب الأنبياء: باب واتخذ الله إبراهيم خليلا ٤/ ١٧١ ـ ١٧٢، وباب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ٤/ ١٩٨، وكتاب التفسير: سورة الأنعام ٦/ ٧١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب صدق الإيمان، وإخلاصه ١/ ١١٤، ١١٥ رقم (١٢٤/١٩٧)، والترمذى فى: السنن: كتاب التفسير: سورة الأنعام ٥/ ٢٦٢، رقم (٣٠٦٧)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٧٨، ٤٢٤، ٤٤٤، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، وهذا لفظ البخارى فى أول إخراجه له، وعقب الترمذى بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

به أنفسهم من ركوب معصية أو إتيان محرَّم، كقوله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ . .﴾ [آل عمران: ١٣٥] وذلك حقُّ الظاهر فيما كان يصلح له هذا الاسم، ويحتمله المعنى عندهم، ولم تكن الآية نزلت بتسمية الشرك ظلمًا، وكان الشرك عندهم أعظم من أن يلقَّب بهذا الاسم فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزل قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾ [لقمان] ، فسمىَّ الشرك ظلمًا، وعظَّم أمره فى الكذب، والافتراء على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذلك أن أصل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه، ومَنْ أشرك بالله، وجعل الربوبية مستحقَّةً لغيره، أو عدل به شيئًا، واتخذ معه نِدًا، فقد أتى الظلم، ووضع الشىء فى غير موضعه ومستقرِّه »[1] .

ب ـ ما دون الشرك من المعاصى والسيئات : كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وقد ذكر الله فى كتابه صورًا لذلك منها :

١ ـ خيانة الرجل فى أهله : قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلَّقت الأبواب، وقالتْ: هيت لك : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ㉓﴾ [يوسف] .

٢ ـ أخذُ غير الجانى مكان الجانى : قال تعالى على لسان يوسف كذلك لما قال له إخوته : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ㊆ ﴾ [يوسف]. فرد قائلا : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ㊇ ﴾

[يوسف]

٣ ـ التخلى عن مخالطة ومعايشة الصالحين الضعفاء، قال تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ㊷﴾ [الأنعام] .

٤ ـ تخريب المساجد من روَّادها، وعمارها، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪⑭﴾ [البقرة] .

---

(١) انظر : اعلام الحديث فى شرح صحيح البخارى للخطابى : كتاب الإيمان : باب ظلم دون ظلم ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣ .

٥ ـ كتمان العلم لاسيَّما في القضايا المصيرية المتعلقة بالعقيدة، قال تعالى عن أهل الكتاب، وقد كتموا الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة مع أنها عهد مأخوذ من الله على أنبيائهم وعليهم من قديم : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] .

٦ ـ أكل أموال اليتامى ظُلمـًا وعدوانًا، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩﴾ [النساء] .

٧ ـ أكل أموال الناس بالباطل، وقتل المرء نفسه، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ㉙ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ㉚﴾

[النساء]

٨ ـ إمساك المرأة للإضرار بها ، قال تعالى : ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

٩ ـ القتل الخطأ ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام لما أدرك عاقبة قَتْله عدوًّ الذى من شيعته : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑯﴾

[القصص]

وقد قضى الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه، وعلى لسان نبيِّه محمد ﷺ تحريم الظلم، حيث نزَّه نفسه عنه فى قوله ـ سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ㊹﴾ [يونس] . ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ㊾﴾ [الكهف] . ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ㊵﴾ [النساء] . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ㊻﴾ [فصلت] .

وفى قوله فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنِّى حرَّمْتُ الظُّلم على نفسى ، وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا. . . » الحديث [(١)].

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ رقم (٢٥٧٧ / ٥٥) ، وأحمد فى : المسند ٥/ ١٦٠، كلاهما من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ لمسلم .

يقول الإمام النووى فى بيان المراد: « قال العلماء : معناه تقدستُ عنه، وتعاليتُ، والظلم مستحيل فى حقٍّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أى لأن الظلم تجاوز الحد، والتصرف فى ملك الغير، وكيف يتجاوز سبحانه حدا، وليس فوقه مَنْ يطيعه؟ وكيف يتصرف الله فى غير ملكه، والعالم كله ملكه، وسلطانه، وأصل التحريم فى اللغة: المنع، فسمَّى تقدسه سبحانه عن الظلم تحريمًا لمشابهته بالممنوع، فى أصل عدم الشيء » .

وجاء التنفير منه، والتحذير فى آيات كثيرة منها :

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء] . وقوله تعالى : ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ [الأعراف] . وقوله تعالى : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)﴾ [هود]. وقوله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾ [الصافات] . وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾ [سبأ]. وقال تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم] .

إلى غير ذلك من الآيات.

كما جاء التنفير منه، والتحذير فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. . .» الحديث [1] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الرابع ، آفة « الشح» .

وقوله : « إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلته » ، ثم قرأ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود] (١).

وقوله : « ألا مَنْ ظَلَمَ معاهداً، أو انتقصَهُ، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ، فأنا حجيجُه يوم القيامة » (٢). وقوله : « مَنْ ظلم من الأرض شيئًا طوِّقَه من سبع أرضين » (٣). وفي رواية ثانية : « مَنْ ظلم قيد شبر من الأرض طوَّقه مِنْ سبع أرضين » (٤). وفي رواية ثالثة : « مَنْ أخذ من الأرض شيئًا بغير حقِّه خُسِفَ

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح: كتاب التفسير: سورة هود ٦/ ٩٤ ، ومسلم في: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨ رقم (٢٥٨٣ / ٦١)، والترمذي في: السنن: كتاب التفسير: باب ومن سورة هود ٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩رقم (٣١١٠)، وابن ماجه في: السنن: كتاب الفتن: باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم (٤٠١٨) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ ، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في: السُّنن: كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب في التشديد في جباية الجزية ٣/ ٤٣٧ رقم (٣٠٥٢) من حديث صفوان بن سليم، عن عدَّة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دِنْيةً «أي متصلي النسب»، عن النبيِّ ﷺ قال: «ألا مَنْ ظلم معاهداً...» الحديث، وفيه مجهولون كما هو ظاهر من السياق .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المظالم : باب إثم مَنْ ظلم شيئًا من الارض ٣/ ١٧٠، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء في سبع أرضين ٤/ ١٣٠، ومسلم في: الصحيح: كتاب المساقاة: باب تحريم الظلم، وغصب الأرض وغيرها ٣/ ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ رقم(١٦١٠ / ١٣٧ ـ ١٤٠)، والدارميُّ في: السنن: كتاب البيوع: باب مَنْ أخذ شبراً من الأرض ٢/ ٢٦٧، وأحمد في: المسند ١/ ١٨٧، ١٨٨ ، ١٨٩، ١٩٠، كلهم من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه، وله في البخاري ومسلم قصة ولفظها كما في مسلم: أن أروى خاصمته في بعض داره، فقال: دعوها وإياها، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أخذ شبراً من الأرض بغير حقِّه، طوِّقه في سبع أرضين يوم القيامة»، اللهم إن كانتْ كاذبةً، فأعم بصرها، واجعل قبرها في دارها، قال: فرأيتها عمياءَ تلتمس الجُدُرَ، تقول: أصابتني دعوةُ سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مَرَّتْ على بئر في الدار، فوقعت فيها، فكانت قبرها، وفي رواية هشام بن عروة، عن أبيه: أنَّ أروى بنت أويس ادَّعَتْ على سعيد بن زيد: أنه أخذ شيئًا من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنتُ آخذ من ارضها شيئًا بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعتَ من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أخذ شبراً من الأرض ظُلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين»، فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا، فقال: اللهم إن كانت كاذبةً فعمِّ بصرها، واقتلها في أرضها، قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها، ثم بينا هي تمشي في أرضها، إذْ وقعتْ في حُفْرة فماتتْ.

(٤) هذه الرواية : أخرجها البخاري في: الصحيح: كتاب المظالم : باب إثم مَنْ ظلم شيئًا من الأرض ٣/ ١٧٠ ـ ١٧١ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب المساقاة: باب تحريم الظلم، وغصب الأرض، وغيرها ٣/ ١٢٣١ ـ ١٢٣٢ رقم (١٦١٢ / ١٤٢)، وأحمد في: المسند ٦/ ٦٤، ٧٩، ٢٥٢، ٢٥٩، كلهم من حديث عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ، وفي أوله أن أبا سلمة كان بينه وبين قومه خصومة في أرض، وأنه دخل على عائشة فذكر ذلك لها، فقالتْ: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظلم قيد شبرٍ من الأرض...» الحديث .

به يوم القيامة إلى سبع أرضين»(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

ثالثًا : أسباب الظلم وبواعثـه :

وللظلم أسباب كثيرة تؤدى إليه ، وبواعث عِـدَّة توقع فيه، منها :

١ ـ البيئـــة :

ذلك أن البيئة قريبة كالبيت أو بعيدة كالمجتمع لها دورٌ كبيرٌ فى تشكيل سلوك الإنسان، بحيث إذا كانت خيِّرة كان خيِّرًا، وإذا كانتْ شريرةً كان شريرًا، ومن الشرِّ الظلم أو الجور.

وقدقال ﷺ : « لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور مَنْ لا يعرف غيره، ثم يأتى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يُولد فى العدل مَنْ لا يعرف غيره» (٢) .

٢ ـ عدم مراقبة الله تعالى مع نسيان الآجلة :

ذلك أن عدم مراقبة الله تعالى مع نسيان الآجلة تقود إلى الظلم أو الجـور حتمـًا.

وحسبنا قوله سبحانه عن صاحب الجنتين : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

[الكهف]

وقوله عمن يبخسون الناس أشياءهم : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين] .

وحسبنا ما تقدم من قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا

(١) هذه الرواية : أخرجها البخارى فى: الصحيح : كتاب المظالم: باب إثم مَنْ ظلم شيئًا من الأرض ٣/ ١٧١، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء فى سبع أرضين ٤/ ١٣٠ من حديث سالم عن أبيه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ من حديث معقل بن يسار مرفوعًا بهذا اللفظ .

يسرق السَّارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن...» الحديث (١).

٣ ـ النعمة والعافية :

وقد تكون النعمة والعافية من : الصحة، والمال، والأهل، والولد، والعشيرة، والوجاهة ، واستمرار ذلك من غير ضرٌ أو بأس من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، والبواعث التي توقع فيه، قال تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق]

وقد ذكر ربُّ العزَّة في كتابه عددًا من النماذج لصنف من الناس قادهم هذا السبب إلى الظلم، والانغماس فيه من مفرق رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، مثل: النمرود بن كنعان حيث انتهى به دوام النعمة إلى دعواه أنه يُحيي ويُميت، فقد بقي مَلِكًا معافىً أربعمائة سنة :

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

ومثل فرعون مصر الذي قادته النعمة إلى دعواه : أنه ربُّ الناس الأعلى ، قال تعالى : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾ [الزخرف] .

وقال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝﴾ [النازعات] .

وقال تعالى عن ثمود قوم صالح : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقال تعالى عن سبأ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] .

إلى غير ذلك من النماذج .

٤ ـ عدم محاسبة الجبارين لا من المجتمع ولا من ولى الأمـر :

وقد يكون عدم محاسبة الجبَّارين لا من المجتمع ، ولا من ولى الأمر من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، والتمادى فيه ، ذلك أنَّ فى الإنسان تسلطًا واستبدادًا، وما لم تكنْ مواجهة من المجتمع أو من ولى الأمر، أو منهما معًا بالأسلوب المناسب، والوسيلة الملائمة، فإنَّ التسلط يقع، والاستبداد يسود، قال تعالى عن بنى إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾ [المائدة] .

والكلام وإن كان بأسلوب الخبر، لكنَّه يؤول إلى معنى النهى لاقترانه بالذَّم والوعيد كأنه قال : (لا تتركوا إنكار المنكر، ولا توالوا الذين كفروا، وإلا حلَّ بكم من العقاب مثلما حلَّ بهؤلاء).

وقال أبو بكر ـ بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه : يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة] ، وإنَّـا سمعنا النبى ﷺ يقول: « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» [1] .

٥ ـ الشـــح :

وقد يكون الوقوع فى الشحِّ ، والانغماس فى البخل من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، ذلك أن الشحيح أو البخيل حريص على أن يملك كلَّ شىء ولا يملك غيره شيئًا، وفى سبيل ذلك يتعدى الحدود، ويرتكب كل محظور.

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن : كتاب الفتن: باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ٤/٤٠٦ رقم (٢١٦٨) وعقب عليه بقوله: «هذا حديث صحيح» من حديث أبى بكر الصديق ؓ .

وقد نبَّه ﷺ على ذلك بقوله : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشحَّ، فإن الشح أهلَكَ مَنْ كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١] .

وفي رواية : « إياكم والشح، فإنه هلك مَنْ كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »[٢] .

٦ ـ الخوف من ظلم الظالمين :

وقد يكون الخوف من ظلم الظالمين وجبروتهم من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، ذلك أن شيوع الظلم في مجتمع مَّا قد يحمل على اقتراف الظلم، من باب أن الشر لا يدفع إلا بشر مثله، إن لم يكن أعظم وأشد، وقد كان هذا شائعًا عند العرب في الجاهلية وقبل الإسلام، حتى قال قائلهم :

وَمَنْ لا يذد عن حوضه بسهامه يُهدَّم وَمَنْ لا يَظْلم الناس يُظْلَم[٣]

ولكنَّ الشارع الحكيم أباح ردَّ الشرِّ بمثله من غير زيادة فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ⁽٤٠⁾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ⁽٤١⁾﴾ [الشورى] .

٧ ـ التكبر :

وقد يكون التكبر من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم والموقعة فيه، ذلك أن المتكبر يغريه شياطين الإنس والجن، وتسوِّل له نفسه الأمارة بالسوء، وتدفعه الدنيا بزخارفها إلى البغي والطغيان حفاظًا على هذا الخُلق الذميم التكبر، وما يسمَّى بالمركز الأدبي والاجتماعي.

وقد لفت ربُّ العزة سبحانه النظر إلى ذلك في قوله : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ⁽١٤٦⁾﴾ [الأعراف] .

٨ ـ الجهل بعواقب الظلم وآثاره :

وقد يكون الجهل بعواقب الظلم، وآثاره الدنيوية والأخروية، الفردية، والجماعية

---

(١) الحديث سبق تخريجه في الجزء الرابع ، آفة « الشح» .
(٢) الحديث سبق تخريجه في الجزء الرابع ، آفة « الشح» .
(٣) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى ورقمه : (٥٣) .

من بين الأسباب التى توقع فيه وتؤدى إليه، ذلك أن الجهل بالعواقب الضارَّة، والآثار المهلكة لأمر مَّـا يقود حتمًا إلى الوقوع فى هذا الأمـر، وعدم التخلِّى عنه إلا مَـنْ رحم الله ـ عـزَّ وجـلَّ .

لذا كان من الواجب على مَنْ يريد إتيان أمـر مَّـا: التفكير فى عواقبه وآثاره، فإن كانت خيرًا أقبل، وإن كانتْ شرًا أدبر، فيسلم هو فى نفسه، ويسلم الآخرون فى أنفسـهم وذويهم كذلك.

رابعـًا : آثار الظلم وعواقبـه :

وللظلم آثار مهلكـة وعواقب وخيمة على العاملين ، وعلــى العمـل الإسلامى، ودونك طرفًا من هذه الآثار والعواقب :

أ ـ على العاملين :

فمن آثاره على العاملين :

١ ـ الحرمان من الفقه، والتوفيق :

ذلك أن الظالم لـم يصل إلى ما وصل إليه من ظلم وطغيان إلا بعد أن اسودَّ قلبه بسبب المعاصى والسيئات، وسواد القلب يحول بين المرء وبين الفقه فى الدين، بل يكون سببًا فى الحرمان من التوفيق الإلهى ، قال تعالى : ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران] .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أن الظالم يعيش ليله ونهاره في المعاصى والسيئات، وتلك تورث فساد القلب، الأمر الذى يؤدى إلى القلق والاضطراب، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴿٨٢﴾﴾ [الانعام] . ومن قوله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا . . .﴾ [طه: ١٢٤] . ومن قوله : ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن] .

٣ ـ نزع هيبة هؤلاء العاملين من قلوب الناس :

ذلك أن الظالم سقط بظلمه من عين الله، ومَنْ سقط من عين الله سقط من أعين

الناس، ونزع الله هيبته من قلوبهم، وصدق الله الذى يقول : ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة : ١٥٠] .

٤ ـ الانتقام فى الدنيا قبل الآخرة :

ذلك أن الناس يضجون بالشكوى من الظالمين، ويستغيثون بالله دومًا أن يرد إليهم مظلمتهم، وأن ينتقم من هؤلاء الظالمين، وقد وعد الله إجابة المظلومين ولو بعد حين .

ففى حديث معاذ بن جبل المشهور حين بعثه النبى ﷺ داعيًا إلى الله، ومرشدًا، ومُعلمًا فى اليمن ، قال له : « ... واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[(١)] .

وفى الحديث أيضًا :

« ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزَّتى وجلالى لأنصرنَّك ولو بعد حين»[(٢)] .

٥ ـ الندامة والحسرة، ولكن بعد فوات الأوان :

ذلك أن الظالم استعدى عليه الخالق والمخلوق، وبالتالى فإنه إذا نزل به ضرٌ لم يجد الناصر والمعين، بل الشفيع، يستوى فى ذلك الدنيا والآخرة، ويندم أشد الندم يوم القيامة، ولو أتيح له أن يفدى نفسه بكل غالٍ ونفيس لفعل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ [يونس : ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾ [إبراهيم] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الزكاة: باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد فى الفقراء حيث كانوا ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩، وكتاب المظالم: باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم ٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠، وكتاب المغازى: باب بعث أبى موسى، ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٥ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الإيمان: باب الدعاء إلى الشهادتين، وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ رقم (١٩ / ٢٩)، كلاهما من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء فى صفة الجنَّة ونعيمها ٤/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣ رقم(٢٥٢٦)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الصيام : باب فى الصائم لا ترد دعوته ١/ ٥٥٧ رقم (١٧٢٥)، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوى، وليس هو عندى بمتصل »، وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر عن أبى مدله، عن أبى هريرة مرفوعًا، والإسناد الآخر الذى يشير إليه الترمذى هو الذى عند ابن ماجه.

٦ ـ فقدان الناصر والمعين بل الشفيع :

وأعظم من الحسرة والندامة : فقدان الناصر والمعين بل الشفيع، إذ هم دائمًا فى شقاق وفرقة، فكيف ينصر بعضهم بعضًا، بل كيف ينصرهم غيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠، وآل عمران: ١٩٢] . وقال تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج] . وقال تعالى : ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] . وقال تعالى : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثاره على العمل الإسلامى :

١ ـ التعطيل أو التعويق :

ذلك أن الظالمين لسبب أو لآخر يسعون جاهدين لتعطيل العمل الإسلامى أو على الأقل تعويقه فلا يؤتى ثماره إلا بعد تكاليف كثيرة، وزمن طويل، من منطلق أن سيادة العمل الإسلامى ستكون سببًا فى كشف أوراق هؤلاء الظالمين، وفضحهم على مرأى ومسمع من الناس، وربَّما محاسبتهم، وقد يكون الحساب صعبًا، وعسيراً.

٢ ـ البطء فى كسب الأنصار بل ضعف التأثير :

ذلك أن شيوع الظلم فى صفوف العمل الإسلامى يكون سببًا فى غضب الله، ولغضبه سبحانه عواقب وخيمة، منها: تبديد الطاقات، وضعفها، وعدم التوفيق لكسب الأنصار، بل التأثير فى هؤلاء الأنصار، فتطول الطريق كذلك، وتعظم التكاليف.

٣ ـ الامتحانات والابتلاءات :

ذلك أن سنَّته ـ سبحانه ـ نصرُ المتقين الأقوياء، وإذا شاع الظلم فى صفوف العمل الإسلامى كان العقاب من الله حتى لو كانت القوَّة، وقد يكون العقاب محنًا وابتلاءات تتمثل فى مصادرة أموال، أو فصل من وظائف، أو حبس، وجلد ظهور، أو نفى وتشريد فى الأرض، وهكذا.

ومضى معنا حديث جابر قال : لما رجعتْ إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر ، قال : « ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ ».

قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس، مَرَّتْ بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة ماء، فمرَّتْ بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها، ثم دفعها، فخرَّتْ على ركبتيها، فانكسرتْ قُلَّتُها فلما ارتفعتْ، التفتتْ إليه، فقالتْ: سوف تعلم يا غُدَر: إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمتْ الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى، وأمرك عنده غدًا، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يقدِّس الله أمَّةً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم »(١) .

وكانت هذه القاعدة الذهبية لابن تيمية: « إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة » (٢) .

خامسًا : علاج الظلم، والوقاية منه :

وإذ قد وقفنا على ماهية الظلم، وصوره، وموقف الشارع منه، وأسبابه، وآثاره وعواقبه: فإنه يسهل تحديد أساليب ووسائل العلاج بل الوقاية، وتتلخص فى:

١ ـ معايشة القرآن وسنة وسيرة النبيِّ الأمين محمد ﷺ :

ذلك أنَّ القرآن الكريم ملىء بالحديث عن الظلم والظالمين، جرائم، وعواقب، وكذلك سنة وسيرة نبينا محمد ﷺ وحسبنا أن الرسل والرسالات كانتْ من أجل رفع الظلم عن المظلومين، ومداواة الظالمين أو تخويفهم عاقبة ظلمهم هذا، وإقامة الحجة عليهم، قال تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الاحقاف] . وقال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج] . وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر] . وقال تعالى : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانبياء]. وقال تعالى : ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] .

وقال ﷺ : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة... » الحديث (٣) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٦ .

(٣) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الرابع، آفة « الشح » .

وقال ﷺ أيضًا : « إن الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ... » الحديث [(١)] .

ومضى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنّى حرمتُ الظلم على نفسى، وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا. . . » الحديث [(٢)] .

٢ ـ التوبة النصوح :

وذلك بالإقلاع عن الظلم، ورد المظالم إلى أصحابها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، والعزم الأكيد الصادق على عدم العودة، وإن كان التقطيع والتحريق بالنار، وليكن الحذر من التأخير والتسويف، إذ الإنسان لا يضمن عمره، ولا يدرى ما اسمه غدًا ؟

وليبصر مقدار جزاء التوبة، وقيمة هذا الجزاء، وكذلك عاقبة التمادى فى الظلم، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾

[النساء]

وقال النبى ﷺ :

« مَنْ كانت له مظلمة لأحد من عرضه ، أو شىءٍ فلْيتحلَّلْهُ منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذَ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه » [(٣)] .

وفى عاقبة التمادى فى الظلم جاء حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : بلغنى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريتُ

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الرابع، آفة « الشح » .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ١٨٥ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب مَنْ كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبيِّن مظلمته ٣/ ١٧٠، وأحمد فى: المسند ٢/ ٥٠٦ ، كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

بعيرًا ، ثم شددتُ رحلى فَسِرْتُ إليه شهرًا حتى قدمتُ الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلتُ للبواب: قل له: جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله؟ قلتُ : نعم ، فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقنى، فقلتُ: حديث بلغنى عنك، أنك سمعتَهُ من رسول الله ﷺ فخشيتُ أن أموتُ أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً، غُرْلا، بُهْمًا ».

قلنا: ما بهما؟ قال:

«ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعهُ مَنْ بَعُدَ، كما يسمعهُ مَنْ قَرُبَ، أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغى لأحدٍ من أهل الجنة، يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار، يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة».

ـ يعنى: لا يدخل أهل الجنة: الجنة، وأهل النارِ النارَ، إلا بعد القصاص، وتصفية الحساب .

قلتُ : وكيف؟ وإنما نأتى الله عُراةً، بُهمًا؟

قال: «بالحسنات والسيئات» [(١)] .

٣ ـ دوام النظر فى مصائر الظالمين :

وكذلك لابدَّ من النظر فى مصائر الظالمين، وهى ماثلة أمام أعيننا هنا وهناك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧)﴾ [الذاريات]. وقال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] .

وقال تعالى عن المستهزئين بالنبى ﷺ وصحبه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ

---

(١) انظر: تخريج هذا الحديث فى : شفاء الصدور لكاتب هذه الآفات ١ / ١١٥ ـ ١١٦ .

آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين] .

وكان النبى ﷺ دعا عليهم لما أفحشوا فى الإيذاء والاستهزاء من أمثال: أبى جهل، وعقبة بن أبى معيط، والعاص بن وائل السهمى، وأبى لهب بن عبد المطلب عمِّ الرسول ﷺ، والأسود بن عبد يغوث الزهرى، القرشى، والأسود بن عبد المطلب الأسدى ابن عم خديجة زوج النبى ﷺ ، والوليد بن المغيرة عم أبى جهل، وغيرهم، فأخذهم الله يوم بدر، ومنهم من ابتلاه الله بأمراضٍ شديدة فهلك بسببها كأبى لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وهكذا يمكن أن يؤدى النظر فى مصائر الظالمين إلى الإقلاع عن الظلم، وتوقى الوقوع فيه من جديد.

٤ ـ تربية ملكة المراقبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى السر والعلن :

ومن الضرورى فى العلاج من الظلم، بل توقيه: التربية على مراقبة الله لعبده فى سرِّه وعلانيته، وحده أو مع الناس، مع بيان عظيم أجر المراقبة عند الله، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان] .

٥ ـ تهيئة الجوِّ النظيف الذى يعين الظالم على التخلص من ظلمه بل توقيه:

ولابدَّ كذلك من تهيئة الجو الطاهر النظيف الذى يعين الظالم على التخلص من ظلمه، بل توقيه والاحتراز منه، وقد مضى معنا الحديث الدَّال على ذلك، كما مرَّ معنا

حديث : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسى لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه» [1] ، وكأن البيئة مما يساعد على التشكيل بالعدل أو بضدِّه.

٦ ـ التذكير بالنعمة والعافية :

ومن الضرورى كذلك التذكير بالنعمة والعافية: مَنْ المنعم؟ وما حقُّه؟ وكيف يؤدَّى هذا الحق؟ وما ثمرته، وما فوائده ؟

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء] . وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] .

٧ ـ قيام ولى الأمر والمجتمع بواجبهما نحو الظالمين :

ولابد من قيام ولى الأمر ، وكذلك المجتمع بواجبهما نحو الظالمين، كلٌّ بما منحه الله من إمكانات، شريطة ألا يؤدى ذلك إلى منكر أكبر منه، وحسبنا قوله ﷺ : «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » [2].

ولعل القيام بهذا الواجب يكون سببًا فى ردع الظالمين وتخويفهم فيكون الإقلاع، بل التوقى والحذر، وما ذلك على الله بعزيز .

٨ ـ دوام النظر فى أحوال الأمم التى تأبى الضيم، ولا ترضى الظلم وتقاومه بكلِّ طريق إلى أن ينقشع وربما تكون هذه الأمم كافرة :

وحسبنا هذا الحديث :

عن المستورد بن شداد القرشى قال عند عمرو بن العاص : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول سمعتُ رسول الله ﷺ. قال : لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعًا : «إنهم

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الخراج والإمارة والفىء : باب فى اتخاذ الوزير ٣/ ١٣١ رقم (٢٩٣٢) من حديث عائشة ﵂ .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثالث ، آفة «الغيبة» .

لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّةً بعد فرَّة ، وخيرهم لمسكين، ويتيم، وضعيف، وخامسة حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك »[1] .

٩ ـ التذكير بعواقب وآثار الظلم :

ذلك أن الظالم فى نشوة طغيانه، وجبروته، وعدوانه على الدماء، والأموال، والأعراض ينسى عواقب وآثار الظلم فى الدنيا والآخرة، الفردية منها والجماعية، وعلاج النسيان إنما يكون بالتذكير بالأسلوب المناسب، والوسيلة الملائمة لعلَّه يذكَّر أو يخشى، فإن لم يكن، فقد لزمته الحجة، وزال عذره لاسيَّما يوم يرد إلى الله، انطلاقًا من قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾ [الاعراف] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة : باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ٤/ ٢٢٢٢ رقم (٢٨٩٨ / ٣٥ ـ ٣٦)، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢٣٠، كلاهما من حديث المستورد مرفوعًا، وعمرو موقوفًا، واللفظ لمسلم .

الآفة السادسة والثلاثون
الحسد والعين

والآفة السادسة والثلاثون التي يعاني منها كثير من الناس، وكانتْ سببًا فى قعود طائفة من الأمة عن أداء دورها وواجبها إنما هى: «الحسد والعين».

وحتى يتخلص منها مَنْ ابتلى بها، ويتوقاها مَنْ سلَّمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها، فإنه لابدَّ من التعريف بها، من خلال هذه الجوانب :

أولا : حول ماهية الحسد.. وعلاقته بالغبطة والتنافس :

الحسد لغةً : الحسد فى أصل وضعه اللغوى : القشر، نقول: حسد الشجرة قشر عنها لحاءها، ومعلوم أن الشجرة إذا قشر عنها لحاؤها يبست، ونقول: حَسَدَه، يحسُدُه، ويحسِدُهُ حَسَدًا، وحُسُودًا: قشرهُ وتحاسد القوم، ورجل حاسد منْ قوم حُسَّد، وحُسَّاد، وحَسَدَة مثل حامل وحَمَلَة، وحَسُودٌ مِنْ قَومٍ حُسُدٍ، والأنثى بغير هاء، وهم يتحاسدون: يحسد بعضهم بعضا[1].

وحكى الأزهرى عن ابن الأعرابى قوله : «الحسدل: القُراد، ومنه أُخِذَ: الحسد يقشر القلب، كما تقشر القُرادُ الجلد فتمتص دَمَه» [2] . الحســد شرعًا :

وللحسد شرعًا عدَّة تعاريف يمكن حصرها فى خمسة:

التعريف الأول : وهو لأبى الحسن الماوردى الفقيه الأديب السياسى المفسِّر المعروف، المتوفى عام(٤٥٠ هـ)، إذ يقول :

« إنَّـه ـ أى الحسد ـ فى الظَّاهر : شدة الأسى على الخير أن يكون للنَّاس الأفاضل»[3] . ويقول فى موضع آخر :

« وحقيقة الحسد : شدَّة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل » [4].

(١، ٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ٢/ ٨٦٨، مادة: «حسد»، ٥/ ٣٢٠٨، مادة: «غَبَطَ»، وتاج العروس شرح القاموس للزبيدى ٢/ ٣٣٦ .

(٣) انظر : تسهيل النظر وتعجيل الظَّفَر فى أخلاق المَلِك وسياسة المُلْك ص ١١٩، ١٢٠ .

(٤) انظر : أدب الدنيا والدين ص ٢٤٥ .

وعبارة الماوردى واحدة فى الموضعين تقريبًا ومؤداها أن الحسد : حزن أو حسرة شديدة تصيب القلب عند رؤية النعمة فى أيدى أهلها من ذوى الصَّلاح والفضل، وهو لأبى البقاء أيوب بن موسى الكفوى ت (١٠٩٤هـ) إذ يقول: «والحسد: اختلاف القلب على الناس لكثرة الأموال والأملاك » [(١)] .

التعريف الثانى : وهو لأحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية (ت٧٢٨هـ) إذ يقول: «والتحقيق أن الحسد: هو البُغض والكراهة لما يراه من حُسن حال المحسود»[(٢)] .

التعريف الثالث : وهو لأبى عبد الله الحسين بن حسن المعروف بالحليمى (ت ٤٠٣هـ)، إذ يقول : « والحسد : الاغتمام بالنعمة يراها الأخ لأخيه المسلم، والتمنِّى بزوالها عنه»[(٣)] .

التعريف الرابع : وهو لأبى حامد الغزالى(ت ٥٠٥ هـ)، إذ يقول: «الحسد حدُّه: كراهة النعمة، وحبُّ زوالها عن المُنعَم عليه»[(٤)]. التعريف الخامس: وهو للأكثرين من العلماء، ومنهم الشريف بن على الجرجانى إذ يقول: «الحسد : تمنِّى زوال نعمة المحسود إلى الحاسد »[(٥)] . والإمام محيى الدين النووى (ت ٦٧٦ هـ) ، إذ يقول: « والحسد : تمنِّى زوال النعمة » [(٦)] . والحافظ أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ)، إذ يقول: «الحسد: تمنِّى الشخص زوال النعمة عن مستحقٍّ لها أعم من أن يسعى فى ذلك أو لا» [(٧)] . وأبو البقاء الكفوى إذ يقول : «والحسد: إرادة زوال نعمة الغير » [(٨)] . وبنظرة خاطفة فى هذه التعاريف الخمسة يظهر :

أن الأول منها عرَّف الحسد بذكر أهم أسبابه، وهو تغير القلب، وحزنه وحسرته لما يرى من حسن حال المحسود.

---

(١) انظر : الكليات ص ٤٠٨ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى الكبرى ١/ ١١٢ .

(٣) انظر: المنهاج فى شُعب الإيمان: الباب الثالث والأربعون من شُعب الإيمان: الحث على ترك الغل والحسد ٣/ ١٠٣ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى: كتاب ذم الغضب والحقد والحسد: باب بيان حقيقة الحسد.. ٢٧٧/٣.

(٥) انظر : التعريفات ص ٨٧ حرف الحاء .

(٦) انظر : المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٤٢٣، ٤٢٦ .

(٧) انظر : فتح البارى ١٠ / ٤٨٢ .

(٨) انظر : الكليات ص ٦٧٢ .

وأن الثاني عرَّف الحسد كذلك بذكر سببه إجمالا وهو البُغض والكراهيــة.

وأن الثالث عرَّف الحسد بذكر أهم آثاره وهو الغم يصيب القلب، وبذكر حقيقته، وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

وأن الرابع عرَّف الحسد بذكر سببه إجمالا وهو البغض والكراهية وبذكر حقيقته وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

وأن الخامس عرَّف الحسد بذكر حقيقته، وهو تمنِّي زوال النعمة عن الغير.

غير أن منها ما شرط لصحته أن تزول النعمة عن الحاسد إلى المحسود، وهو تعريف الجرجاني، وليس بلازم فإنه يصح بزوال النعمة إلى غير الحاسد، ومنها ما شرط: أن تزول عن مستحق لها، وهو الحافظ ابن حجر العسقلاني، وكأنَّـه نظر إلى الحسد العرفي المذموم في لسان الشرع، إذ لو تمنَّى زوالها عن غير مستحق لها مثل كافر، أو عاص يُفسد بها في الأرض فيُهلك الحرث والنَّسْل لم يكن آثمًا كما سيأتي في بيانها، ومنها ما أطلق وهو الإمام النووي ليبقى التعريف عامًا مستوعبًا لكل الصور: المذموم منها وغير المذموم، القبيح منها والأقبح، ولا تعارض بين ما قاله الإمام النووي، وما قاله الحافظ ابن حجر، إذ ما قاله الإمام النووي يصدق على الحسد شرعًا، وما قاله الحافظ ابن حجر يصدق على الحسد عرفًا، وينبغي الوقوف عند المعنى الشرعي، لا عند المعنى العُرفي، لأنه محور الحديث هنا.

وعليه فإن الحسد شرعًا هو : تمنِّي زوال نعمة الغير مطلقًا، أعم من أن يكون صاحب هذه النعمة مستحق أو غير مستحق لها، وأعم من أن تؤول إلى الحاسد، أو إلى غير الحاسد، وأعم من أن يسعى الحاسد في إزالتها أو لا يسعى، وأعم من أن يكون السعي بالتفكير والتخيُّـل، أو بالنظر والعين، أو بالملامسة، أو بغيرها من الوسائل.

ويدل لصحَّة ما قلنا أن ابن حجر نفسه اعتمد على هذا التعريف في موطن آخر من كتابه فتح الباري، إذ يقول في كتاب العلم ١/ ١٦٦ : «الحسد تمنِّـي زوال النِّعمـة عن المنعم عليـه ، وخصَّه بعضهم بأن يتمنَّى ذلك لنفســه ، والحقُّ أنه أعم» ، ويبقى تميز ما يبيحه الشارع منه وما يذمه رهن الدليل، كما سيأتي.

الغبطة لغة : يطلق أصل هذه المادة، وهو الغين، والباء، والطاء (غبط) على ثلاثة معانٍ هي :

١ ـ دوام الشيء ولزومه، يقال: أغبطتْ عليه الحمَّى أى دامتْ، وأغبطتُ الرَّحْلَ على ظهر البعير: إذا أدمته عليه، ولم تحطَّه عنه، ولذلك سُمِّى الرَّحْلُ غبيطًا، ومن هذا جاءت الغِبطة بمعنى حسن الحال، ودوام المسرَّة.

٢ ـ الجس والاطمئنان، يُقال: غبطتُ الشَّاةَ إذا جسستَها بيدك تنظر بها سِمَنٌ، ومِنْ هذا الباب: الغبيط: أرض مطمئنة كأنها غبطتْ: أى جُسَّتْ حتى اطمأنَّت.

٣ ـ نوع من الحسد، يُقال: إنه غير مذموم، لأنَّه لا يتعدَّى أن يكون تمنيًا لمثل نعمة الغير، دون إرادة زوالها عنه [(١)]. ولا تعارض بين هذه المعانى الثلاثة، إذ الغبطة نوع من الحسد المحمود يقوم على تحسس نعمة الغير، والاطمئنان إلى أنَّه يحسن أن يكون له مثل هذه النعمة، على أن تدوم هذه النعمة لصاحبها ولا تزول عنه.

الغبطة شرعًا: والغبطة شرعًا ـ فى ضوء ما قدمنا فى المعنى اللُّغوى ـ عرَّفها الحليمى بقوله: «والغابط مَنْ يتمنَّى أن يكون له من الخير مثل ما لغيره» [(٢)]. والجرجانى بقوله: «الغبطة عبارة عن تمنِّى حصول النعمة لك كما كان حاصلا لغيرك مِنْ غير تمنِّى زوالها عنه»[(٣)]. وابن حجر بقوله: «ومعنى الغبطة: تمنِّى المرء أن يكون له نظير ما للآخر من غير أن يزول عنه» [(٤)]. ومعناها جميعًا متقارب.

وقد جاء هذا المعنى بعينه فى بعض روايات حديث: «لا حسد إلا فى اثنتين...» إذ يُبيِّن النبى ﷺ ذلك بقوله: «... رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، فسمعه جارٌ له فقال: ليتنى أُوتيتُ مثل ما أُوتِى فلان، فعملتُ مثل ما يعملُ، ورجلٌ آتاه الله مالا، فهو يُهلكه فى الحقِّ، فقال رجل: ليتنى أُوتِيتُ مثل ما أُوتِى فلان، فعملتُ مثل ما يعمل»[(٥)].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٤١٠ ـ ٤١١، ولسان العرب ٥/ ٣٢٠٨ ـ ٣٢١٠ مادة: «غبط» بتصرف.

(٢) انظر: المنهاج فى شعب الإيمان ٣/ ١٠٣.

(٣) انظر: التعريفات ص ١٦١.

(٤) انظر: فتح البارى ١/ ١٦٦.

(٥) وهذه الرواية أخرجها البخارى فى: الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٦/ ٢٣٦، عن على بن إبراهيم، عن روح بن عبادة، عن شعبة، وكتاب التمنِّى: باب تمنِّى القرآن والعلم ٩/ ١٠٤، عن عثمان بن أبى شيبة عن جرير، وكتاب التوحيد: باب قول النبى ﷺ: «رجل آتاه الله القرآن...» ٩/ ١٨٨ ـ ١٨٩ عن قتيبة عن جرير، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٥/ ٢٧ رقم (٨٠٧٣) عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى، عن شعبة، وكتاب العلم: باب الاغتباط فى العلم ٣/ ٤٢٦ رقم(٥٨٤١) عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، =

التنافس لغة : يأتى التنافس لغة على معانٍ، منها :

١ ـ محبة الشيء، والرغبة فيه، وأصله من الشيء النفيس في نوعه، يقال: نافَسْتُ

= وأحمد في: المسند ٢/ ٤٧٩ عن محمد بن جعفر، وروح قالا: حدثنا شعبة كلاهما ـ أى شعبة وجريرعن الأعمش سليمان بن مهران، عن ذكوان أبى صالح السمَّان عنه، غير أن رواية النسائى التى فى: كتاب العلم تومئ: أنها غير محفوظة لاقتصارها على خَصْلَة فقط، إذ لفظها: «لا تحاسد إلا فى اثنين: رجل آتاه الله القرآن، وهو يتلوه فى آناء الليل وآناء النهار، فيقول : لو أوتيت مثل ما أُوتى هذا لفعلتُ كما يفعل هذا، ورجل آتاه الله علمًا»، وهذا ينافى رواية النسائى نفسه التى فى كتاب فضائل القرآن.

وللحديث رواية أخصر من هذه عن ابن مسعود أخرجها البخارى فى: الصحيح: كتاب العلم: باب الاغتباط فى العلم والحكمة ١/ ٢٨ عن الحميدى، عن سفيان بن عيينة، وكتاب الزكاة: باب إنفاق المال فى حقه ٢/ ١٣٤ عن محمد بن المثنى، عن يحيى القطان، وكتاب الأحكام: باب أجر مَنْ قضى بالحكمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ٩/ ٧٨، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة: باب ما جاء فى اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالى .... ٩/ ١٢٦ عن شهاب بن عباد، عن إبراهيم بن حميد الرؤاسى، ومسلم فى: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل مَنْ يقوم بالقرآن ويعلمه ١/ ٥٥٩ رقم (٨١٦/ ٢٦٨) عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكيع، وعن محمد بن عبد الله بن نمير، عن أبيه ومحمد بن بشر، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب العلم : باب الاغتباط فى العلم ٣/ ٤٢٦ رقم (٥٨٤٠) عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، ووكيع، وعن سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٨٥ عن يحيى القطان، ١/ ٤٣٢ عن وكيع، ويزيد تسعتهم عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس ابن أبى حازم البجلىّ الأحمسىّ عنه ـ أى ابن مسعود ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّطه على هلكته فى الحقِّ، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها، ويُعلِّمها».

وللحديث رواية ثالثة عن ابن عمر بلفظ يماثل رواية ابن مسعود أخرجها البخارى فى: الصحيح: كتاب التوحيد: باب قول النبى ﷺ : «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار» ٩/ ١٨٩ عن على بن عبد الله المدينى، ومسلم فى: الصحيح: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل مَنْ يقوم بالقرآن ١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩ رقم (٨١٥/ ٢٦٦، ٢٦٧) عن أبى بكر بن أبى شيبة، وعمرو الناقد، وزهير بن حرب، والترمذى فى: السنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء فى الحسد ٤/ ٢٩١ رقم (١٩٣٦) عن ابن أبى عُمر، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٥/ ٢٧ رقم (٨٠٧٢) عن قتيبة بن سعيد ، وابن ماجة فى: السنن: كتاب الزهد: باب الحسد ٢/ ١٤٠٨ رقم (٤٢٠٩) عن يحيى بن حكيم المقوِّم، ومحمد بن عبد الله بن يزيد، وأحمد فى: المسند ٢/ ٨ ـ ٩ تسعتهم عن سفيان، عن الزهرى، عن سالم: عنه ـ يعنى ابن عمر مرفوعًا، وقال الترمذى: «حسن صحيح»، والبخارى أيضًا فى الصحيح: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٦/ ٢٣٦ عن أبى اليمان، عن شعيب، وأحمد فى: المسند عن عبد الرزاق، عن معمر ٢/ ٣٦ كلاهما عن الزهرى، عن سالم عنه ـ يعنى ابن عمر ـ مرفوعًا.

هذا ورواية البخارى موضع الشاهد هنا هى عند ابن حجر فى فتح البارى: كتاب فضائل القرآن: باب اغتباط صاحب القرآن ٩/ ٧٣ رقم (٥٠٢٦)، وكتاب التمنِّى: باب تمنِّى القران والعلم ١٣/ ٢٢٠ رقم (٧٢٣٢)، وكتاب التوحيد: باب قول النبى ﷺ : «رجل آتاه الله القرآن...» ١٣/ ٥٠٢ رقم (٧٥٢٨) من حديث أبى هريرة مرفوعًا به.

فى الشىء منافسةً، ونَفَاسةً، ونِفَاسًا، ونَفُسَ الشى بالضمِّ نفاسةً، صار مرغوبًا فيه محبوبًا.

٢ ـ الضنُّ بالشىء، أو البخل به، يقال: نَفِسْتُ عليه الشىء بالكسر أنْفَسُه نفاسةً، ضننتُ أو بخلتُ عليه به، وما أحبُّ أن يصل إليه.

٣ ـ رؤية الغير فاقد الأهلية للشىء مع حسده عليه، نقول: تنافس الشىء، وبالشىء على فلان، لم يره أهلا لهذا الشىء، وحسده عليه.

٤ ـ التسابق والتبارى فى الشىء من غير إلحاق الضرر بالمتنافس، نقول: نافس فلان فلانًا فى كذا: سابقه وباراه من غير أن يُلحق الضرر به، وتنافس القوم فى كذا: تسابقوا فيه، وتبَارَوا دون أن يلحق بعضهم الضرر ببعض، ومنه قوله سبحانه : ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين] [1] . ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا، فإن رؤية الغير ليس أهلا للشىء أو للأمر قد تحمل أو تقود إلى التسابق والتبارى فى تحصيله رغبةً فيه، ومحبَّةً له، وضنًا به على هذا الغير.

التنافس اصطلاحًا : ولا يعرف معنى التنافس اصطلاحًا إلا بما يُضاف إليه، فإذا أضيف إليه الدنيا كان معناه: «التبارى فى الرغبة فى الدنيا، وأسبابها، وحظوظها، على وجه الانفراد، والاستئثار بها» [2] . وإذا أضيف إلى الآخرة كان معناه: «التبارى فى الرغبة فى الآخرة وأسبابها وحظوظها على وجه لا يلحق فيه، ولا يسبق » [3] .

العلاقة بين الحسد ، والغبطة، والتنافس :

والعلاقة بين الحسد، والغبطة، والتنافس تبعًا لما عرفنا من ماهية كلٍّ منها تظهر فى: أن الحسد : تمنّى زوال نعمة الغير مطلقًا، والغبطة تمنّى مثل نعمة الغير دون إرادة زوالها عنه، والتنافس هو الرغبة فى الشىء وأسبابه على وجه الانفراد، والاستئثار به.

ثانيًا : حول ماهية العين وعلاقتها بالنفس :

العين لُغةً : تطلق العين وما يُشتق منها لُغَةً على معانٍ، منها :

١ ـ حاسَّة البصر، والرؤية، والجمع أعيان، وأعين، والكثير عيون، وجمع الجمع أعْيُنات.

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/٢٣٨، مختار الصحاح ص ٤٥١ ـ ٤٥٢، المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٠ مادة: «نفس»، وانظر كذلك: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووى ٥/ ٤٢٧، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى ١١/ ٢٤٥ بتصرف كبير.

(٢، ٣) انظر: المنهاج للنووى ٥/ ٤٢٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ١١/ ٢٤٥.

٢ ـ الجاسوس الذى يُبعث لتجسس الخبر، جاء فى الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بُسَيْسَةَ عينًا ينظر ما صنَعَتْ عِيرُ أبى سفيان...» الحديث [(١)] .

٣ ـ عظم سواد العين وسعتها، نقول: رجل أعين واسع العَيْن، بيِّن العين ومنه قيل لبقر الوحش: «عين» صفة غالبة، وقال الله تعالى فى نساء الجنَّة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]

٤ ـ الرئيس الرائد ، نقول : فلان عين الجيش: رئيسه، ورائده.

٥ ـ عين الماء، أو ينبوع الماء الذى ينبع من الأرض ويجرى، ومنه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان]، ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان]

٦ ـ الناحية أو الجهة، نقول : جاء مِنْ هذه العين: الناحية أو الجهة.

٧ ـ الشمس، نقول طلعت العينُ، أو غابت العين: الشمس.

٨ ـ المال العتيد، الحاضر، النَّاضُّ، ومِنْ كلامهم: عين غير دين.

٩ ـ النقد، يقال : اشتريتُ العبد بالدين أو بالعين: النقد.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة [الجهاد عند المزّى فى: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦ رقم ٤٠٨] باب : ثبوت الجنَّة للشهيد ٣/ ١٥٠٩ ـ ١٥١١ رقم (١٩٠١/ ١٤٥) قال: حدثنا أبو بكر بن النضر بن أبى النضر، وهارون بن عبد الله ـ يعنى: الحمّال ـ ومحمد بن رافع، وعبدُ بن حميد، وألفاظهم متقاربة، قالوا ـ أربعتهم : حدثنا هاشم بن القاسم ـ يعنى أبا النضر ـ قال: حدثنا سليمان ـ وهو ابن المغيرة ، عن ثابت، عن أنس بن مالك بهذا اللفظ، وهو جزء من حديث طويل، وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد: باب فى بعث العيون ٣/ ٨٨ رقم (٢٦١٨) قال : حدثنا هارون بن عبد الله قال: حدثنا هاشم بن القاسم إلى نهاية إسناد مسلم، مقتصراً على هذا اللفظ ، وأحمد فى: المسند ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧ من رواية ابنه عبد الله عنه، قال: حدثنى أبى، قال: حدثنى هاشم ابن القاسم إلى نهاية إسناد مسلم، واللفظ واحد، وبُسَيْسَةُ هذا : ذكره ابن حجر فى الإصابة: القسم الأول ١/ ١٥١ فسمَّاه: «بسبسة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى»، وضبطه بموحدتين مفتوحتين بينهما مهملة ساكنة، ثم مهملة مفتوحة، قال: «ويقال له: «بسبس» بغيرها ـ هو قول ابن إسحاق وغيره ـ شهد بدراً باتفاق، وحكى عياض أنه فى مسلم بموحدة مصغَّر: «بسيبسى»، قال ابن حجر: وهو عند أبى داود «بسيبسة» بصيغة التصغير، وكذا قال ابن الأثير: إنَّه رآه فى أصل ابن منده، لكن بغير هاء، قال: «والصواب الأول، فقد ذكر ابن الكلبى أنَّه الذى أراد الشاعر بقوله:

أقم لها صدورها يا بسبس ... إن مطايا القوم لا تحبس

١٠ ـ الدينار أو الذهب عامَّــة.

١١ ـ الميل، تقول العرب: فى هذا الميزان عين أى فى لسانه ميل قليل، أو لم يكن مستويًا.

١٢ ـ حقيقة الشىء ، يقال: جاد بالأمر مِنْ عين صافية: أى من قصِّه، وحقيقته، وجاء بالحقِّ بعينه: أى خالصًا واضحًا.

١٣ ـ نفس الشىء وشخصه، وأصله، وعينُ كلِّ شىء: نفسه، وحاضره، وشاهده.

١٤ ـ الشاهد، تقول العرب : عين الرجل شاهده، ومنه قولهم: الفرس الجواد عينُه فِراره، يعنى: إذا رأيته، وشاهدته، تفرَّسْتَ فيه الجودة من غير أن تـفـرَّهُ عن عَـدْوٍ، أو غير ذلك.

١٥ ـ حرف الهجاء المعروف باسم «العين».

١٦ ـ العائن أى الذى يصيب أو يؤذى الآخرين بعينه ، يقـال: عِنْتُ الرجل: إذا أصبته بعينك، فأنا أعينه عينا، وهو معيون، ورجل عيون، ومعيان : خبيث العين، والعائن الذى يعين، وهكذا إلى أكثر من عشرين معنى [(١)].

وواضح من هذه التعاريف : أن الأول منها حقيقى، وبقيتها مجازى.

العين شرعًا :عرَّف القاضى أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٤ هـ) العيْن شرعًا فقال: «أن يخلق الله فى المعيون ـ عند نظر العائن إليه وإعجابه به إذا شاء ـ ما شاء من ألم أو هلكة » [(٢)].

وعرَّفها ابن حجر العسقلانى فقال : « والعين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر» [(٣)]. وكان ينبغى لابن حجر أن يقيِّده بالمشيئة كما فعل ابن العربى، لئلا يُفهم منه أن العين تؤثر بنفسها، كما كان عليه أن يرفع عبارة «مشوب بحسد من خبيث الطبع» لأنَّ العَيْـنَ قد توثر بذلك، وقد تؤثر بمجرد

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٤، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٣١٩٧ ـ ٣٢٠١، والكليات لأبى البقاء الكفوى ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١، مادة: «عين» بتصرف كثير.

(٢، ٣) انظر: فتح البارى ١٠/ ٢٠٠ .

الاستحسان والإعجاب دون أن يكون معها حسد، بدليل حديث سهل بن حنيف، إذ يروى عنه ابنه أبو أمامة فيقول: إنَّ أباه حدَّثه أن النَّبِيَّ ﷺ خرج، وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ـ وكان رجلا أبيض حسن الجسم والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة، فقال: ما رأيتُ كاليوم، ولا جلد مخبَّأة، فلبط ـ أى صرع وزنًا ومعنىً ـ سهل، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «هل تتَّهمون به من أحد؟» قالوا: عامر بن ربيعة، فدعا عامرًا فتغيَّظ عليه، فقال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلاَّ إذا رأيتَ ما يعجبك برَّكْتَ ؟» ثم قال: «اغتسل له»، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره فى قدح، ثم صُبَّ ذلك الماء عليه يصبُّه رجلٌ مِنْ خلفه على رأسه، وظهره،ثم يكفئ القدح، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس[1] . فإن الحديث صريح كما نرى فى الإصابة بالعين لمجرد الاستحسان والإعجاب من غير أن يقترن ذلك بالحسد، ولقد أقرَّ ابن حجر نفسه بذلك فى الصحيفة التى تلى هذه الصحيفة التى ذكر بها تعريفه المذكور عند بيان الفوائد المستنبطة من حديث أبى هريرة مرفوعًا عند البخارى: «العين حق...»، وحديث ابن عباس عند مسلم: «العين حق، ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استُغسِلتُم فاغسلوا »[2] ، قائلا: «وفى الحديث من الفوائد أيضًا...أن العين تكون مع الإعجاب، ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح»[3] .

ولم يبق بعد هذا النقد الموجَّه إلى تعريف ابن حجر للعين شرعًا، سوى اعتماد تعريف القاضى ابن العربى لسلامته من مثل هذا النقد.

النفس لغة : تأتى النفس فى اللغة على معانٍ ، منها :

١ ـ الروح ، نقول : خَرَجَتْ نفس فلان : روحه.

٢ ـ الروع، نقول: وفى نفس فلان أن يفعل كذا وكذا: فى روعه[4] .

٣ ـ جملة الشىء، وحقيقته، نقول: قتل فلان نفسه، وأهلك نفسه: أوقع الهلاك بذاته كلها، وحقيقته، والجمع من كلٍّ ذلك: أنفس ونفوس.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى المسند ٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧ .

(٢) انظر : فتح البارى ١٠ / ٢٠٣ . (٣) انظر : فتح البارى ١٠/ ٢٠٥ .

(٤) روعه : نفسه وخلده، ومنه قوله ﷺ : «إن روح القدس نفث فى روعى» أى فى نفسى وخلدى، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ١١١ .

٤ ـ العين، يقال : أصابتْ فلانًا نَفْسٌ ، ونفستُك بنفس إذا أصبتَه بعين ، ويقال ما أنفسه: ما أشدَّ عينه، والنافس العائن، والمنفوس: المعيون.

٥ ـ الحسد ، يقال : نَفَسَ عليك فلانٌ، ينفس نفسًا ، ونفاسةً : حسدك [1] .

النفس شرعًا :

وتُطلق النَّفْسُ شرعًا: على العين، ويدل لذلك ما أخرجه البزَّار من حديث جابر ﷺ رفعه : « أكثر مَنْ يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس » ، قال الراوى : يعنى العين[2]، وما أخرجه أبو داود من حديث سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل، فدخلتُ، فاغتسلت فيه ، فخرجتُ محمومًا ، فنمي ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « مروا أبا ثابت يتعوَّذ» ، فقلت: يا سيدى، والرقى صالحة؟ فقال: «لا رقية إلا فى نفس، أو حُمَّة، أو لدغة » [3] وما أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى: أن جبريل أتى النبى ﷺ فقال: يا محمد، اشتكيتَ؟ فقال: «نعم»، قال: «باسم الله أرقيك، من كلِّ شيءٍ يُوذيك، مِنْ شرِّ كل نفسٍ أو عينِ حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[4] .

الفرق بين العين والنفس :

وبعد بيان ماهية كلٍّ من العين والنَّفْس، يوحى الظاهر أن العين والنفس مترادفان، كأنهما اسمان لمسمّىً واحد، وحين يذكران معًا تكون العين تفسيرًا للنفس، كما فى رقية جبريل للنبى ﷺ تلك التى أثبتناها الآن، ولكن بعد التدقيق والتمحيص: يظهر أن النَّفْس أعم، والعين أخص، كما يشهد بذلك الواقع، وهذا هو ما ينبغى أن يحمل عليه الحديث.

ثالثًا : الحسد فى الدراسات النفسية المعاصرة :

يتصور كثير من علماء النفس المعاصرين : أن الحسد من مكوِّنات انفعال الغيرة التى تحمل على الصراع بين المتنافسين، وتنمِّى الخصومة بينهم.

ومنهم مَنْ يتصوره: مِنْ مكوِّنات سمة العداوة Hostilitytrait وهى سمة مرتفعة عند الجانحين، فكلما زاد الحسد، وما يرتبط به مِنْ حقد، وغيظ، وخصومة، وشحناء، وبغضاء زاد الميل للعُدْوان والرغبة فى التعدِّى على الناس وممتلكاتهم.

---

(١) انظر: الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ١١٩٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٤٠.

(٢) الحديث أورده ابن حجر فى: فتح البارى ١٠/ ٢٠٤، قائلا : «وقد أخرج البزَّار من حديث جابر بسند حسن عن النبى ﷺ قال: «أكثر من يموت. . . .» الحديث.

(٣) أبو داود فى : السنن : كتاب الطب : باب ما جاء فى الرقى ٤/ ٢١٥ـ٢١٦ رقم (٣٨٨٨).

(٤) مسلم فى: الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرضى والرقى ٤/١٧١٨ـ ١٧١٩ رقم (٢١٨٦/ ٤٠).

أما مدرسة التحليل النفسي الفرويدية فتتصور: أن الحسد عند البنات أعلى منه عند الأولاد، وردُّوا ذلك إلى عوامل فطرية قائلين: إن البنت تحسد الولد لامتلاكه قضيبًا، وترغب في امتلاك مثله، فتميل إلى أبيها، وتغير عليه من أمِّـهـا، وتسمِّي ذلك (عقدة الكترا) ويميل الولد إلى أمِّه، ويغير عليها من أبيه (عقدة أوديب).

وقد أثبتتْ الدراسات التجريبية خطأ هذا التصور نظرًا لكون الحســد بين أفراد الجنس الواحد، أعلى منه بين أفراد الجنسين، فالبنت تحسد البنت مثلها أكثر مِمَّا تحسد الأولاد، والولد يحسد الولد مثله أكثر مِمَّا يحسد البنات (١) .

رابعًا : علاقة كل من الحسد والعين بالآخر :

وعلى ضوء ما قدمنا في ماهية الحسد والعين، وما في معناهما يتبيَّـن الفرق بينهما، وخلاصته: أن الحسدَ أعم من وجه، وأخص من وجه آخر، وكذلك العين، فمن حيث السبب أو الباعث على الحسد والعين يلتقيان فيما كان سببه أو باعثه البغض أو الكراهية للنعمة تكون عند الغير، وإرادة زوالها عنه، وتنفرد العين فيما كان سببه الإعجاب والاستحسان، ومن حيث السعي في إزالة النعمة عن الغير يلتقيان فيما كانت وسيلته الرؤية، أو التوجه بالروح أو التوهم والتخيُّل، وينفرد الحسد فيما كانت وسيلته غير ذلك من الاتصال والملامسة، أو النميمة، أو الأدعية، والرُّقى، والتعوُّذات، يقول ابن حجر: «والعينُ تكون مع الإعجاب، ولو بغير حسد، ولو من الرجـل المحبِّ، ومن الرجل الصالح » (٢) ، وفي هذا إشارة إلى الوجه الأول.

ويقول ابن القيِّم : «والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه مَنْ قلَّ علمه، ومعرفته بالطبيعة، والشريعة، بل التأثير يكون تارةً بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو مَنْ يؤثر فيه، وتارةً بالأدعية، والرُّقى، والتعوُّذات، وتارةً بالوهم، والتخيُّـل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإنْ لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم : ٥١] . وقال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ » (٣) .

---

(١) انظر : المدخل إلى علم الصحة النفسية للدكتور : كمال إبراهيم مرسي ص ٢٠٦ بتصرف.

(٢) انظر: فتح الباري ١٠ / ٢٠٥ . (٣) انظر : زاد المعاد ٣/ ١١٨ .

وفى هذا إشارة إلى الوجه الثانى.

خامسًا : حول حقيقة الحسد والعين بين الإنكار والإثبات :

ونعرض الآن أقوال المنكرين والمثبتين للحسد والعين، وأدلة كل فريق، ثم نوازن بين هذه الأدلة لمعرفة الرأى الراجح على هذا النحو :

أ ـ المنكرون للحسد والعين وأدلتهم :

أنكر الحسد والعين نفرٌ من الناس، وهم الطبعيون الماديون الملحدون الذين يقولون: الكون مادة، ولا إله، ولا إيمان إلا بما تدرك الحواس الخمس، والطبيعة، أو الصدفة، أو قانون الأسباب والمسببات، هذه هى التى تحرِّك كل شىء فى هذا العالم.

وما دمنا لا نرى اتصالا محسوسًا مباشرًا بين الحاسد والعائن، وبين المحسود والمعيون عند نزول الضرر بكل منهما، فإنا لا نُسلِّم بالحسد والعين، وإنما هما من قبيل الأوهام والخيالات، فدليلهم إذن هو الواقع المدرك بالحواس.

يقول ابن القيِّم عن هذا النَّفر من النَّاس : «فأبطلت طائفة ممَّنْ قَلَّ نصيبهم من السَّمْع والعقل أمر العين وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها» [(١)] . وقال المازرى : «وقد أنكره طوائف من المبتدعة، والدليل على فساد ما قالوه: أن كلَّ معنىً ليس بمحال فى نفسه: ولا يؤدى إلى قلب حقيقة، ولا إفساد بدليل، فإنه مِنْ مجوَّزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقوعه فلا معنى لتكذيبه، وهل فرق بين تكذيبه فى هذا إذا ثبت جوازه، وبين تكذيبه فيما نخبر من أخبار الآخرة» [(٢)] .

وإنصافًا لهؤلاء ينبغى التفريق بين إنكار أصل الفعل، وإنكار الأثر المترتب عليه، إذ هم لا ينكرون أصل الفعل، وإنما ينكرون الأثر المترتب عليه.

ب ـ المثبتون للحسد والعين وأدلتهم :

وأثبت الحسد والعين أهل السنة والجماعة، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق] . إذ يقول القرطبى ـ رحمه الله تعالى :

« وقوله : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ دليل على أن الحسد يؤثر فى المحسود ضررًا يقع به إمَّا فى جسمه بمرضٍ ، أو فى ماله، وما يختص به بضرر، وذلك بإذن

(١)انظر : زاد المعاد ٣/ ١١٧ .

(٢)انظر : المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦ ، وعنه نقل النووى فى: المنهاج ٥/ ٣٢ .

الله تعالى ومشيئته، كما قد أجرى عادته، وحقَّق إرادته، فربط الأسباب بالمسبِّبات، وأجرى بذلك العادات، ثم أمرنا فى دفع ذلك بالالتجاء إليه، والدعاء، وأحالنا على الاستعانة بالعُوَذ والرقى» (١) .

وبقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم] .

وبقوله ﷺ : « العَيْنُ حقٌّ، ولو كان شىءٌ سَابَقَ الْقَدَر سبقتْهُ العيْنُ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » (٢) . إذ يقول القرطبى :

« قوله : «العين حق» أى ثابت موجود، لاشكَّ فيه، وهذا قول علماء الأمَّة، ومذهب أهل السنة » (٣) . ويقول أيضًا :

«وقوله : «ولو كان شىء سابَقَ القدر لسبقته العين» هذا إغياء فى تحقيق إصابة العين، ومبالغة فيه تجرى مجرى التمثيل ، لا أنَّه يمكن أن يَرُدَّ القدر شىءٌ، فإن القدر عبارة عن سابق علم الله تعالى ونفوذ مشيئته، ولا رادَّ لأمره، ولا مُعقِّبَ لحُكمه، وإنما هذا خرج مخرج قولهم: لأطلبنَّك ولو تحت الثرَّى، أو ولو صعدت إلى السماء، ونحوه، مما يجرى هذا المجرى، وهو كثير» (٤) .

وبقوله ﷺ : «والعين حقٌّ، ويحضر بها الشيطان، وحسد ابن آدم»(٥) .

وبقوله أيضًا: « أكثر مَن يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس » يعنى: بالعين(٦) .

واستدلوا بأن العقل لا يمنع ذلك كما تقدم ردُّ المازرى على الطبعيين.

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥/ ٥٦٤ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب السَّلام : باب الطبِّ والمرضى والرُّقى ٥/ ٣٢ [المنهاج للنووى] من حديث ابن عباس مرفوعًا به، والترمذى فى: السُّنن: كتاب الطب: باب أن العين حقٌّ والغسل لها ٤/ ٣٤٧ برقم (٢٠٦٢) من حديث ابن عباس، والنسائى فى: السُّنن [الكبرى] كتاب الطب: باب العين ٤/ ٣٨١ برقم (٧٦٢٠ / ٤) من حديث ابن عباس به، وابن ماجة فى: السنن: كتاب الطب: باب العين ٢/ ١١٥٩ برقم (٣٥٠٦) من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه مرفوعًا، وبرقم (٣٥٠٨) من حديث أبى هريرة مرفوعًا، غير أنه اقتصر فى الروايتين على قوله: «العين حق»، وبرقم (٣٥٠٨) من حديث عائشة مرفوعًا بلفظ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»، غير أن فى إسناده ـ كما قال البوصيرى فى: مصباح الزجاجة ـ أبا واقد، واسمه: صالح بن محمد بن زائدة الليثى وهو ضعيف.

(٣، ٤) انظر : المفهم ٥/ ٥٦٥ ، ٥٦٦ .

(٥) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/ ٤٣٩ من حديث أبى هريرة بهذا اللفظ.

(٦) الحديث سبق تخريجه ص٢١٤.

كما استدلوا بالواقع نفسه، حيث يقول القرطبي: «فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أحَلَّتْهُ القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] »(١).

ويبين أهل السنة والجماعة الكيفية التي يتم بها ذلك قائلين:

لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من العين، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسامَّ جسمه، فيخلق الله سبحانه الهلاك عندها، كما يخلق الهلاك عند شرب السُّمِّ، عادة أجراها الله تعالى، وليس ضرورة، ولا طبيعة ألجأ إليها العقل(٢).

وأيدوا هذه الكيفية مما هو مُشاهد فى الواقع، حيث أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى، والخواص فى الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه مَنْ يحتشمه من الخجل، فيرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية مَنْ يخافه (٣).

يقول ابن حجر: «وقد أشكل ذلك على بعض الناس فقال: كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر للمعيون ؟ والجواب: أن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك مِنْ سمٍّ يصل مِنْ عين العائن فى الهواء إلى بدن المعيون، وقد نقل عن بعض مَنْ كان معيانًا أنَّه قال: إذا رأيتُ شيئًا يعجبنى وجدتُ حرارة تخرج من عينى، ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها فى إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طُهرها لم يفسد، وكذا تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس من غير أن تمسَّها يدها، ومِنْ ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد، ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو، أشار إلى ذلك ابن بطال »(٤).

ويقول فى موضع آخر: «وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى فى الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين، وليستْ هى المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة فى طبائعها، وقواها، وكيفياتها، وخواصها، فمنها ما يؤثر فى البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك الروح، وكيفيتها الخبيثة، والحاصل أن التأثير بإرادة الله ـ تعالى ـ وخلقه ليس مقصورًا على الاتصال الجسمانى،

---

(١) انظر: المفهم ٥/ ٥٦٥.

(٢) انظر: المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٦، وعنه نقل النووى فى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥/ ٣٢.

(٣) انظر: فتح البارى ١٠/ ٢٠٠.

(٤) المرجع السابق: ١٠/ ٢٠٠، ٢٠١.

بل يكون تارةً به، وتارةً بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذى يحدث من الأدعية، والرُقى، والالتجاء إلى الله، وتارةً يقع ذلك بالتوهم، والتخيُّل، فالذى يخرج من عين العائن سهم معنوى إن صادف البدن لا وقاية له أثَّـر فيه، وإلا لم ينفذ السَّـهم، بل ربما رُدَّ على صاحبه كالسُّـهْم الحسِّى سواء »[1] .

هذا ومن المثبتين من فلاسفة الإسلام، وأصحاب المذهب العقلى مَنْ صوَّر هذه الكيفية قائلا : «إن العائن تنبعث من عينه قوةَّ سُـمِّية تتصل بالمعيون فيهلك أو يفسد، قالوا: لا يستنكر هذا كما لا يستنكر قوةَّ سُـمِّية من الأفعى والعقرب تتصل باللديغ فيهلك، وإن كان ذلك غير محسوس لنا فكذلك العين »[2] .

وقد أبطل المازرى هذا التفسير بقوله : « وهذا عندنا غير مُسلم، لأنَّا بيَّـنَّا فى كتب علم الكلام ألا فاعل إلا الله تعالى، وبيَّـنَّا فساد القول بالطبائع، وبيَّـنَّا أن المحدَث لا يفعل فى غيره شيئًا، وهذه الفصول إذا تقرَّرت لم يكن بنا حاجة معها إلى إثبات ما قالوه، ونقول : هل هذا المنبعث من العين جوهر أو عرض، فباطل أن يكون عرضـًا إذ العرض لا ينبعث، ولا ينتقل، وباطل أن يكون جوهراً، إذ الجواهر متجانسة، فليس بعضها أن يكون مفسدًا لبعض أولى من أن يكون الآخر مفسـدًا له، فإذا بطل كونه عرضًا أو جوهرًا مفسـدًا على الحقيقة بطل مايشيرون إليه »[3] .

ويعنى المازرى بكلامه هذا : بطلان تأثير العين بذاتها كما يقول الفلاسفة، وأصحاب المذهب العقلى، وإنما تؤثر بإرادة الله تعالى وإذنه ومشيئـتـه.

جـ ـ تقييم أقوال المنكرين والمثبتين للحسد والعين :

والراجح ما ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة : إثباتًا وكيفية لاسيما وقد جاء عن النبى ﷺ ما يصلح أن يُقاس عليه لشرح الكيفية المذكورة آنفًا.

إذ جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النَّبىَّ ﷺ يخطب على المنبر يقول : « اقتلوا الحيـات، واقتـلوا ذا الطُّفْيتين[4] ، والأبتـر[5] ، فإنهمـا يطمـسان البصـر ، ويستسقطان

(١) المرجع السابق: ١٠ / ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) انظر : المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٦، وعنه نقل النووى فى : المنهاج ٥/ ٣٢ .
(٣) انظر : المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٥٦، وعنه نقل النووى فى : المنهاج ٥/ ٣٢ .
(٤) ذو الطُّـفْـيتين : الطُّـفْـيـة : خوصة المُقْل فى الأصل، وجمعها طُفىّ، شبَّه الخطَّين اللذين على ظهر الحيَّـة بخوصتين من خوص المقل، انظر: النهاية ٣/ ٤١ .
(٥) الأبتر: المقطوع الذنب، ومن الحيات: القصير الذنب الخبيث، انظر: المعجم الوسيط ١/ ٣٧.

الجَبَـل »(١) . وعن أبى لبابة أن النَّبى ﷺ قال: «لا تقتلوا الجِنَّان إلا كلَّ أبتر ذى طُفْيتين، فإنه يسقط الولد، ويُذهب البصر فاقتلوه»(٢) . وعن عائشة ﵂ قالت: قال النبى ﷺ : « اقتلوا ذى الطُّفْيتين فإنَّه يلتمس البصر، ويصيب الحمل»(٣) . وفى رواية : أمر النبى ﷺ بقتل الأبتر، وقال: «إنَّه يصيب البصر، ويُذْهِبُ الحَبَل» (٤) .

إذ ما يصدق على هذا الصنف من المخلوقات يصدق على الحاسد والعاين، فيكون الضرُّ والأذى إذا أراد الله ـ عز وجل ـ ذلك، وإلا فلا شيء، أمَّا المنكرون له أو المثبتون على غير وجهه فلا حجة لهم سوى الهوى أو التحكم العقلى المَحْض، غير أنه لابدَّ من التأكيد هنا ألا يصح الإفراط فى: ردِّ كل ضرر أو أذى إلى الحسد والعين، لا سيَّما وأنَّ تأثيرهما ليس من ذات الحاسد أو العائن، وإنَّما بمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ .

ولعلَّ الأخذ بأساليب الوقاية ـ التى ستُذكر فى موضعها من هذا البحث ـ مما يحمى من آثار الحسد والعين، وكذلك الأخذ بأساليب العلاج مما يبطل هذا الأثر إن وقع لا قدَّر الله.

أجل ، إن تجنُّب مثل هذا الإفراط يجعل المرء يمشى فى الحياة آمنًا مطمئنًا وعلى الأخص عندما يتجنَّب المعاصى والسيئات،ويتبع ذلك بالالتزام والمحافظة على الطاعات.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق: باب قول الله تعالى : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ٤/ ١٥٤، ومسلم فى: الصحيح: كتاب السَّلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٢ ـ ١٧٥٣ رقم (٢٢٣٣ / ١٢٨، ١٢٩)، وأبو داود فى: السُّنن: كتاب الأدب: باب فى قتل الحيَّات ٤/ ٣٦٤ برقم (٥٢٥٢)، والترمذى فى : السُّنن: كتاب الأحكام والفوائد: باب ما جاء فى قتل الحيات ٤/ ٦٤ ـ ٦٥ برقم(١٤٨٣)، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه فى : السُّنن : كتاب الطبِّ : باب قتل ذى الطُّفيَتين ٢/ ١١٦٩ برقم (٣٥٣٥)، وأحمد فى: المسند ٢/ ٩، ١٢١، كلهم من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب بَدْءِ الخلق: باب خير مال المسلم غَنَمٌ يتبع بها شعف الجبال ٤/ ١٥٦، ومسلم فى : الصحيح: كتاب السلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٣ ـ ١٧٥٥ برقم(٢٢٣٣/ ١٣١، ١٣٥، ١٣٦)، وأبو داود فى: السُّنن: كتاب الأدب: باب قتل الحيَّات ٤/ ٣٦٤ برقم (٥٢٥٣)، وأحمد فى : المسند ٣/ ٤٥٣، كلهم من حديث أبى لبابة مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

(٣، ٤) الحديث بروايتيه أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب بَدْء الخلق: باب خير مال المسلم غنم يتبعُ بها شعف الجبال ٤/ ١٥٤، ومسلم فى : الصحيح: كتاب السَّلام: باب قتل الحيات وغيرها ٤/ ١٧٥٢ برقم (٢٢٣٢ / ١٢٧)، والنسائى فى: السُّنن: كتاب المناسك: باب قتل الوزغ ٥/ ١٨٩، وابن ماجة فى : السُّنن: كتاب الطبِّ: باب قتل ذى الطفيتين ٢/ ١١٦٩ برقم (٣٥٣٤)، وأحمد فى: المسند ٦/ ٢٩، ٤٩، ٨٣، ١٥٧، ٢٣٠ ، كلهم من حديث عائشة مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

قال تعالى :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وفى ضوء ما تقدم من إثبات الحسد والعين وتأثيرهما بمشيئة الله ـ تعالى ـ لا يقولن قائل: إذا كان للحسد أو للعين تأثير ضار مِنْ غير ملامسة، فلماذا يطير الطيارون بالطائرات الضخمة ولا يصابون بأذى ؟ ولماذا يخترع المخترعون، وينبغ النابغون فى قوم كفَّار ماديين ؟ ولماذا بلغتْ إسرائيل ما بلغتْ من السيطرة على فلسطين، بل على العالم العربى، والإسلامى، والغربى، وتسخير هؤلاء جميعًا فى التمكين لها، وترسيخ أقدامها ؟

لا يقولنَّ ذلك لأن الله لم يأذن بشىء من ذلك، ولم يشأ، ومادام لم يأذن ولم يشأ فلا تأثير ولا ضرر.

سادسًا : حول حكم الحسد والعين والحاسد والعائن :

ولابد من بيان حكم الحسد والعين، وكذلك الحاسد والعائن فى ضوء السنة النبوية، على هذا النحو :

أ ـ حكم الحسد والعين :

يتفق العلماء : أن الحسد ، والعين بمعنى تمنِّى زوال النعمة أو عدم نزولها بمن هو أهل لها مع السَّعى فى تحقيق ذلك بكل وسيلة ممكنة: حرام، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفلق] .

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله : «وتأمَّل تقييده سبحانه : شرَّ الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذىً بوجه مَّا، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد فى قلبه شيئًا مِنْ ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحبُّ الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا مَنْ عصم الله.

وقيل للحسن البصرى: أيحسدُ المؤمن ؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف. لكن الفرق بين القوَّة التى فى قلبه مِنْ ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعةً لله،

وخوفًا، وحياءً منه، وإجلالا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفةً لله، وبغضًا لما يحبُّ الله، ومحبَّةً لما يبغضه فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتَمنِّى زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقَّق ذلك وحسده، ورتَّب على حسده مقتضاه: من الأذى بالقلب، واللسان، والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمنِّى الزَّوال، ومثله: تمنِّى استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يجب أن يبقى على حاله مِنْ جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه فهو يتمنَّى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شىء مقدَّر، والأول حسد على شىء محقَّق، وكلاهما حاسد عدوٌّ نعمة الله وعدوٌّ عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسى، فإنَّ النَّاس لايسوِّدون عليهم إلا مَنْ يريد الإحسان إليهم، فأمَّا عدوٌّ نعمة الله عليهم فلا يسوِّدونه باختيارهم أبدًا، إلا قهرًا يعدُّونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه، وهو يبغضهم » (١) .

ولقوله ﷺ : « لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا. . . » الحديث (٢) .

أمَّا الحسد والعين بمعنى تمنِّى زوال النعمة أو عدم نزولها بمن ليس أهلا لها من كافر أو فاسق يستعين بها على معاصى الله تعالى، فليس بمذموم بل هو ممدوح »(٣) . لقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾

[يونس]

يقول ابن عطية : « معناه : أهلكها ، ودمِّرها ، وروى أن الطمسة كانت من آيات موسى عليه السلام التسع، وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ بمعنى اطبع ، واختم عليهم بالكفر »(٤) .

---

(١) انظر : بدائع التفسير ٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .
(٢) الحديث سيأتى تخريجه بعد قليل .
(٣) انظر : فتح البارى ١/ ١٦٧ بتصرف.
(٤) انظر : المحرر الوجيز ٧/ ٢٠٦ .

ولقول نوح عليه السلام : ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] .

ورجا النبى ﷺ يوم بدر عير قريش لتكون نافلةً للمسلمين تعويضًا لهم عما تركوه فى مكة من ناحية، وإزالة لهذا المال من أيدى الكفار لكونهم يستخدمونه فى المعصية، ومنها حرب الله ورسوله والمسلمين من ناحية أخرى.

فقد جاء فى الحديث أن النَّبى ﷺ لما سمع بأبى سفيان مُقبلا من الشام: ندب المسلمين إليهم، وقال : « هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. . . »[1] .

وأما الحسد بمعنى الغبطة أى تمنِّى مثل ما عند الغير من النعمة دون زوالها عنه فجائز، لحديث : «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّطه على هلكته فى الحقِّ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلِّمها » [2] . وقد اختلف العلماء فى المراد بالحسد فى الحديث.

فذهب نفر إلى أن المراد به الغبطة يعنى: تمنِّى مثل ما للغير من النعمة دون زوالها عنه، وأيَّد هذا الفهم حديثُ أبى هريرة مرفوعًا : «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النَّهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتنى أُوتيتُ مثلما أوتى فلان، فعملتُ مثلما يعمل، ورجلٌ آتاه الله مالا فهو يُهلكه فى الحقِّ، فقال رجل: ليتنى أُوتيت مثلما أوتى فلان، فعملتُ مثلما يعمل» [3] .

يقول ابن حجر فى تصوير هذا الرأى : «وأمَّا الحسد المذكور فى الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازًا، وهو أن يتمنى أن يكون له مثلما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمَّى منافسة، فإن كان فى الطاعة فهو محمود، ومنه ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وإن كان فى معصية فهو مذموم، ومنه: «ولا تنافسوا» وإن كان فى الجائزات فهو مباح، فكأنه قال فى الحديث: لا غبطة أعظم أو أفضل من الغبطة فى هذين الأمرين، ووجه الحصر: أن الطاعات إمَّا بدنية، أو مالية، أو كائنة عنهما، وقد أشار إلى البدنية بإتيان الحكمة والقضاء بها، وتعليمها »[4] .

---

(١) الحديث أورده ابن هشام فى : السيرة النبوية ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧ من طريق ابن إسحاق بسند صحيح حيث صرَّح ابن إسحاق بالتحديث.

(٢) الحديث سبق تخريجه .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

(٤) انظر : فتح البارى ١/ ١٦٧ .

وذهب نفر ثان إلى أن الحسد فى الحديث على حقيقته، والاستثناء منقطع، والمعنى عليه: نفى الحسد مطلقًا، لكن هاتان الخصلتان محمودتان، ولا حسد فيهما، فلا حسد أصلاً (١) . وذهب نفر ثالث إلى أنَّ الكلام جرى مجرى المبالغة فى الحثِّ على تحصيل هاتين الخصلتين، كأنَّه قيل: لو لم يمكن تحصيل هاتين الخصلتين إلا بالطريق المذموم وهو الحسد، لكان ما فيهما من الفضل حاملا على الإقدام على تحصيلهما بهذه الطريق، فكيف والطريق المحمود تساعد على تحصيلهما (٢) .

ب ـ حكم الحاسد والعائن :

وأمَّا حكم الحاسد والعائن فقد قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبى (ت٦٥٦هـ): «مَنْ عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعًا لضرره، قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيرًا رزقه ما يقوم به، وكفَّ أذاه عن النَّاس، ولو انتهتْ إصابة العين إلى أن يُعْرَف بذلك، ويُعْلَمَ من حاله أنَّه كلما تكلم بشىء مُعظِّمًا له، أو متُعجبًا منه أُصيب ذلك الشىء، وتكرر ذلك بحيث يصير ذلك عادةً، فما أتلفه بعينه غرمه، وإن قتل أحدًا بعينه عامدًا لقتله قتل به كالسَّاحر القاتل بسحره عند مَنْ لا يقتله كفرًا » (٣) . ويمكن حمل كلام هذا النفر من العلماء على ما إذا استخدم الحاسد والعائن قوىً خفية كالسحر أو الجنِّ مثلا .

وذهب الشافعية إلى أنَّه لا قصاصَ، ولا ديةَ، ولا كفارةَ على الحاسد أو العائن إذا تسبب بعمله هذا فى قتل غيره، معللين: أن ذلك لا يقتل غالبًا، ولا يُعد مهلكًا.

قال النووى ـ رحمه الله : «ولا ديَة فيه ولا كفَّارة، لأنَّ الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس فى بعض الأحوال مما لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلا، وإنما غايته حسد، وتمنٍّ لزوال نعمة، وأيضًا فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعيَّن ذلك المكروه فى زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين (٤) .

وتصوُّرى أن الأمر أولا وآخرًا مرجعه إلى الإمام يتصرف بما يراه مناسبًا، لكن لا يسمح لمثل هذا الصنف من الناس بعد اليقين الذى لاشكَّ معه بخطره أن يخالط الناس ويعايشهم ، وعليه أن يوفِّر له ولأهله وولده وذويه كفايتهم من العيش المناسب ، وهذا

---

(١) انظر : فتح البارى ١/ ١٦٧ .
(٢) انظر : فتح البارى ٩/ ٧٣ بتصرف .
(٣) انظر : المفهم ٥/ ٥٦٨ .
(٤) انظر : روضة الطالبين ٩/ ٣٤٨، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ١٠/ ٢٠٥ .

ما نقله ابن بطال عن بعض أهل العلم: «أنه ينبغى للإمام منع العائن إذا عُرف بذلك مداخلة الناس، وأن يلزم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر رضي الله عنه بمنعه من مخالطة الناس كما تقدَّم واضحًا فى بابه، وأشد من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة» (١) .

وعقَّب النووى على هذا الرأى بقوله: «وهذا القول صحيح متعيِّن لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه»(٢) .

وينبغى الانتباه إلى أمر فى غاية الأهمية فى هذا المقام ألا وهو: عدم اتهام أحد من الناس بالحسد أو العين إلا بالبيِّنة المتمثلة فى الإقرار أو العلم من حاله أنَّه كلما تحدَّث بشىء على جهة التعظيم، أو التعجب منه، أصيب ذلك الشىء، وتكرر منه بحيث تصير عادةً له.

سابعًا : أسباب الحسد والعين :

وهناك أسباب وبواعث توقع فى كلٍّ من الحسد، والعين، ودونك هذه الأسباب، وتلك البواعث:

١ ـ وقوف المرء عند النعمة يراها فى يد الغير، وقد حُرِم هو منها مع نسيان المنعم وحكمته :

ذلك أن وقوف المرء عند النعمـة يراها في يد الغير من: صحة، وعافية، وعلم، ووجاهة، ومال، ورئاسة، وأهل، وولد، وعشيرة، ونحوها، وقد حرم هذا المرء من هذه النعمة مع نسيان المنعم، وأنه سبحانه قسّم النِّعم بين عباده بحكمة وتقدير، بحيث يستوى العباد فى نعم الدنيا فى النهاية، ولا يبقى التفاضل إلا بالتقوى، وصالح العمل ذلك كله يفتح الطريق أمام الشيطان ليلقى فى النفس طائفة من التساؤلات: لم كانت هذه النعمـة عنـد فلان من الناس ؟ ولِمَ خُصَّ بهـا دونى وهو لا يبلغ من الأهليـة لها ما بلغتُ ؟ ولِـمَ لَـمْ تكن لى من أول الأمر؟ وإن هذه النعمة التى أصابته دونى جعلتْ له مكانًا مرموقًا بين الناس، ويظل الشيطان يُلقى هذه التساؤلات على النفس، وينفخ فيها حتى تصل إلى حدٍّ كراهية هذه النعمة عند الغير، وتمنِّى زوالها مطلقًا، أعم من أن تؤول إليه أو إلى غيره، بل العمل بالفعل على تحقيق ذلك بوسيلة أو أكثر من وسائل الحسـد، والعين التى ذكرنا آنفًا.

(١ ، ٢) انظر : فتح البارى ١٠/ ٢٠٥ .

وكراهية النعمة عند الغير، وتمنّي زوالها عنه، والعمل على تحقيق ذلك بوسيلة أو بأخرى إنما هو الحسد أو العين كما قدمنا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمعان في النّار : مسلم قتل كافرًا ، ثم سدَّد وقارب ، ولايجتمعان في جوف مؤمن: غبار في سبيل الله ، وفيح جهنَّم ، ولايجتمعان في قلب عبد : الإيمان والحسد » (١) . والحديث دالٌّ بمنطوقه، أو بلفظه على أنَّ الإيمان بالله المنعم لا يجتمع مع الحسد أبدًا، بل إذا وُجِد أحدهما انتفى الآخر، فإذا وجد الإيمان بالله انتفى الحسد، وإذا انتفى الإيمان بالله وُجِد الحسد، سواء فسِّر انتفاء الإيمان بانتفاء أصله ـ وهو الكفر بكل صوره وأشكاله من الإلحاد والشرك ـ أم فُسِّر بانتفاء كماله.

يقول العلامة السِّندى في حاشيته على سنن النسائي تعليقًا على الجملة الأخيرة من الحديث : « هذا تقبيح للحسد ، وبيان أنَّه لا ينبغي للمؤمن أن يحسد فإنه ليس من شأنه ذلك، فمعنى لا يجتمعان ههنا: أنه ليس من شأن المؤمن أن يجمعهما، ويحتمل أن المراد بالإيمان كماله ، فليتأمَّل : (يعني: المراد بالإيمان أصله، أو كماله) والله تعالى أعلم » (٢) .

وقد حدثنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه الكريم عن صنفين من الكفار قادهم الكفر بالله إلى الحسد: وهما أهل الكتاب: اليهود والنصارى، ومشركو مكة، أمَّا أهل الكتاب: اليهود والنصارى فقد حسدوا محمدًا وأمَّته على الفضل الذى حباهم الله به، حيث أعطى الله محمدًا الرسالة العالمية الخاتمة، ووعد بحفظها بنفسه، وجعل أمته خير أمَّة أُخرِجَت للناس، وبلغ بهم الحسد حدًا ودُّوا معه أن نصير كفارًا مثلهم، قال تعالى: **﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾** [النساء] .

---

(١) الحديث أخرجه النسائي في: السنن (المجتبى): كتاب الجهاد: باب فضل مَنْ عمل في سبيل الله على قدمه ٦/ ١٢ ـ ١٣ ، في السنن الكبرى ٣/ ٩ ـ ١٠ رقم (٤٣١٧ ـ ٤٣٢٠/ ٤ ـ ٧) عن عيسى بن حماد، عن ليث، عن محمد بن عجلان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه ذكوان، عن أبي هريرة به، واختلف فيه على سهيل.

(٢) ٦/ ١٣ بهامش: المجتبى، وزهر الرُّبى.

يقول ابن جرير ـ رحمه الله : «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله عاتب اليهود الذين وصف صفتهم فى هذه الآيات، فقال لهم فى قيلهم للمشركين مِنْ عَبَدَةَ الأوثان: أنهم أهدى من محمد، وأصحابه سبيلا على علم منهم بأنهم فى قيلهم ما قالوا مِنْ ذلك كذبةً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، وإنَّما قلنا ذلك أولى بالصَّواب، لأن ما قَبْلَ قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله مِنْ فضله مضى بذمٍّ القائلين من اليهود للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، فإلحاق قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله مِنْ فضله، بذمِّهم على ذلك، وتقريظ للذين آمنوا الذين قيل فيهم ما قيل أشبه وأولى، ما لم يأت دلالة على انصراف معناه عن معنى ذلك، واختلف أهل التأويل فى تأويل الفضل الذى أخبر الله أنَّه آتى الذين ذكرهم في قوله: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله، فقال بعضهم: ذلك الفضل هو النبوَّة، وقيل غير ذلك». واختار ابن جرير: أن هذا الفضل: هو النبوَّة التى فضَّل بها محمداً وتشرَّف بها العرب، فقال: «وأولى التأويلين فى ذلك بالصواب قول قتادة، وابن جريج: أن معنى الفضل فى هذا الموضع النبوَّة التى فضل الله بها محمداً، وشرَّف بها العرب إذ آتاها رجلا منهم دون غيرهم» (١) .

ويقول الألوسى ـ رحمه الله : « أم يحسدون الناس: انتقال عن توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد الذى هو مِنْ أقبح الرَّذائل المهلكة من اتصف بها دنيا وأخرى، وذكره بعده من باب الترقِّى، وأمْ منقطعة، والهمزة المقدَّرة بعدها لإنكار الواقع والمراد من الناس: سيِّدهم بل سيد الخليقة على الإطلاق : محمد ﷺ وإلى هذا ذهب عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو مالك، وعطيَّة. . .

وذهب قتادة ، والحسن، وابن جريج إلى أن المراد بهم: العرب، وعن أبى جعفر، وأبى عبد الله : أنهم النبى وآله، عليه وعليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، وقيل: المراد بهم جميع الناس الذين بعث إليهم النبى ﷺ من الأسود والأحمر، بل أيحسدونهم: يعنى النبوَّة. . . أو بعثة النبى ﷺ منهم، ونزول القرآن بلسانهم: أو جمعهم كمالات تقصر عنها الأمانى، أو تهيئة سبب رشادهم ببعثة النبى ﷺ إليهم، والحسد على هذا مجاز، لأن اليهود لما نازعوه فى نبوَّته ﷺ التى هى إرشاد لجميع الناس فكأنَّما حسدوهم جمع» (٢) .

---

(١) انظر : جامع البيان فى تفسير القرآن ٥/ ٨٨ المجلد الرابع.

(٢) انظر : روح المعانى ٥/ ٧٥ المجلد الثانى.

وقال تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . . .﴾ [البقرة: ١٠٩] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله: «ويعنى بقوله ـ جل ثناؤه ـ ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: أن كثيرًا من أهل الكتاب يودُّون للمؤمنين ما أخبر الله ـ جلَّ ثناؤه ـ عنهم: أنهم يودُّونه لهم من الرِّدَّة عن إيمانهم إلى الكفر، حسدًا منهم، وبغيًا عليهم، والحسد إذن منصوب على غير النَّعت للكفار، ولكن على وجه المصدر الذى يأتى خارجًا من معنى الكلام الذى يخالف لفظه لفظ المصدر، كقول القائل لغيره: تمنَّيْتُ لك ما تمنَّيْتُ من السوء حسدًا منِّى لك، فيكون الحسد مصدرًا من معنى قوله: تمنَّيْتُ من السوء، لأن فى قوله: تمنَّيْتُ لك ذلك معنى: حَسَدْتُكَ على ذلك، فعلى هذا نصب الحسد، لأن فى قوله: ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارًا، يعنى حسدكم أهل الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد لدينه، والإيمان برسوله، وخَصَّكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلا منكم، رءوفًا بكم رحيمًا، ولم يجعله منهم، فتكونوا لهم تبعًا، فكان قوله: حسدًا مصدرًا من ذلك المعنى، وأمَّا قوله: من عند أنفسهم، فإنه يعنى بذلك مِنْ قبل أنفسهم ، كما يقول القائل : لى عندك كذا، وكذا، بمعنى لى قبلك. . . وإنما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ عنهم المؤمنين أنهم ودُّوا ذلك للمؤمنين مِنْ عند أنفسهم، إعلامًا منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك فى كتابهم، وأنهم يؤتون ما يؤتون من ذلك على علم منهم بنهى الله إياهم عنه » [1] .

ويقول سبحانه عن المشركين : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا . . .﴾ [الزخرف] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله : « وقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، يقول تعالى ذكره: أهؤلاء القائلون لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم: يا محمد، يقسمون رحمة ربِّك بين خلقه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا، وفضله لمن أرادوا، أم الله الذى يقسم ذلك، فيعطيه مَنْ أحب، ويحرمه مَنْ شاء. . .؟ وقوله: نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، يقول تعالى ذكره: بل نحن قسمنا رحمتنا وكرامتنا بين مَنْ شئنا مِنْ خَلقِنا فنجعل من شئنا رسولا، ومَنْ أردنا صديقًا، ونتَّخذ مَنْ أردنا خليلا كما قسمنا بينهم معيشتهم التى يعيشون بها فى حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات،

(١) انظر : جامع البيان ١/ ٣٨٩ المجلد الأول.

فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجةً، بل جعلنا هذا غنيًا، وهذا فقيرًا، وهذا مَلِكًا، وهذا مملوكًا، ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا »[(١)] .

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله : «وقالوا ـ أى كالمعترضين على الذى أنزله تعالى، وتقدَّس ـ : لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم: أى هلاَّ كان إنزال هذا القران على رجل عظيم: كبير فى أعينهم، من القريتين: مكة والطائف، وقد ذكر غير واحد من السَّلف أنهم أرادوا بذلك: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى، وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف، وقال السُّدِّى: عنوا بذلك: الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عمرو الثقفى، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان، قال تعالى ردًا عليهم فى هذا الاعتراض: أهم يقسمون رحمة ربِّك ؟ أى ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلى الله ـ عز وجل ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا، ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلا، ثم قال ـ عز وجل ـ مبيِّنًا أنه قد فاوت بين خلقه، فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق، والعقول، والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا. . . الآية »[(٢)] .

ويقول سبحانه عن المشركين أيضًا: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم] .

يقول ابن جرير ـ رحمه الله : « يقول ـ جل ثناؤه ـ ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا محمد، ينفذونك بأبصارهم مِنْ شدة عداوتهم لك، ويزيلونك، فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظًا عليك، وقد قيل: إنه عنى بذلك: وإن يكاد الذين كفروا ممَّا عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد، ويصرعونك كما تقول العرب: كان فلانٌ يصرعنى بشدَّة نظره إلىَّ، قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين، فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلا مثله، أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيِّه عند ذلك: وإنْ يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم لمَّا سمعوا الذكر، ويقولونَ إنه لمجنون» ثم ساق من المأثور ما يؤكد ذلك[(٣)] .

ويقول الماوردى : « فيه ـ أى قوله : ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ ـ ستة أوجه : أحدها : معناه،

---

(١) انظر : جامع البيان ٢٥/ ٤٠، ٤١ المجلد الحادى عشر.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧ بتصرف.

(٣) انظر : جامع البيان ٢٩/ ٢٩.

ليصرعونك، قاله الكلبي، الثاني : ليرمقونك، قاله قتادة، الثالث : ليزهقونك، قاله ابن عباس، وكان يقرؤها كذلك، الرابع: لينفذونك، قاله مجاهد، الخامس: ليمسُّونك بأبصارهم مِنْ شدَّة نظرهم إليك، قاله السُّدِّى، السادس: ليعتانونك، أى لينظرونك بأعينهم، قاله الفراء، وحكى أنهم قالوا: ما رأينا مثل «حجمه»[(١)] ، ونظروا إليه ليعينوه، أى ليصيبوه بالعين، وقد كانتِ العرب إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدًا يعنى فى نفسه، أو ماله، تجوَّع ثلاثًا، ثم يتعرض لنفسه أو ماله، فيقول: تالله ما رأيتُ أقوى منه، ولا أشجع، ولا أكثر مالا منه ولا أحسن، فيصيبه بعينه،فيهلك هو وماله،فأنزل الله هذه الآية»[(٢)].

ويقول الألوسى ـ رحمه الله : «والمعنى أنهم لشدَّة عداوتهم ينظرون إليك شزرًا بحيث يكادون يزلون قدَمَك، فيرمونك، مِنْ قولهم: نظر إلىَّ نظرًا يكاد يصرعنى، أو يكاد يأكلنى، أى لو أمكنه بنظره الصرع، أو الأكل لفعله، وجعل مبالغة فى عداوتهم حتى كأنها سرت من القلب والجوارح إلى النظر، فعاد يعمل عمل الجوارح، وأنشدوا قول الشاعر:

يتقارضون إذا التَقَوا فى موطن نظــرًا يـزل مواطــئ الأقـدام

أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين، إذ روى أنه كان فى بنى أسد عيانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فنزلتْ، وقال الكلبى: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه، فيقول: لم أر كاليوم إبــلا ولا غنمًا أحسن من هذه فتسقط طائفة منها، وتهلك، فاقترح الكفار منه أن يصيب رسول الله ﷺ فأجابهم وأنشد :

قد كان قومُك يحسبُونَكَ سيِّدًا وأخـالُ أنـكَ ســيِّدٌ مَعــيــون

فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل عليه هذه الآيــة »[(٣)] .

٢ ـ بسط الدنيا وتنافسها :

وقد يكون من أسباب الحسد والعين: بسط الدنيا وتنافسها؛ ذلك أنَّ الدنيا إذا أقبلتْ على الناس، ولم يكونوا على بصيرة بالضوابط التى وضعها الشارع الحكيم للتعامل مع هذه

(١) ولعل الصواب «حُجَّتَه» انظر: بدائع التفسير ٥/ ٤١٦ .

(٢) انظر : النكت والعيون ٤/ ٢٨٩ . (٣) انظر : روح المعانى ٢٩/ ٣٨ .

الدنيا، فإنهم يقعون في شراك التنافس فيها، ويقودهم هذا التنافس إلى الحسد، وذلك ما لفت النبيُّ ﷺ النظر إليه حين قال: « إذا فُتحت عليكم فارس والروم، أيُّ قومٍ أنتم؟ »

قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله [١] ، قال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض» [٢] .

---

(١) قوله: «نقول كما أمرنا الله»: معناه ـ كما ذكر النووي في: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٨/ ٩٦م٩ ـ: «نحمده، ونشكره، ونسأله المزيد من فضله»: ـ وكما ذكر القرطبي في: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧/ ١١٤ ـ: «أي نقول قولا مثل الذي أمرنا الله وكأنَّ هذا منه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ...﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك أنه فهم أن رسول الله ﷺ خاف عليهم الفتنة من بسط الدنيا عليهم، فأجابه بذلك، فكأنَّه قال: «نَسْتكفي الفتن، والمحن بالله، ونقول كما أمرنا الله، وهذا إخبار منهم عما يقتضيه حالهم في ذلك الوقت، فأخبرهم النبي ﷺ بأنهم لا يبقون على تلك الحال، وأنها تتغيَّر بهم» أقول والرأى أنه لا تعارض بين التفسيرين، إذ المسلم يرى أنَّ إقبال الدنيا مثل إدبارها محنة، بل أشد كما قال سليمان ﷺ حين منَّ الله عليه بما مَنَّ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل]، والواجب عليه حينئذ هو: الحمد، والشكر بالعطاء، وسؤاله المزيد من فضله، وكذلك الاستعانة به سبحانه خشية الافتتان، واستخدامها في غير مرضاة الحق ـ تبارك وتعالى .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق: باب ما يحذر من بسط الدنيا، ومن التنافس ٤/ ٢٢٧٤ ـ ٢٢٧٥ رقم (٢٩٦٢)، وابن ماجه في: السُّنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤ رقم (٣٩٩٦) كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا، واللفظ لمسلم، وقوله: «ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين...» الحديث، فسَّره بعضهم: أنه إذا وقع التنافس بينهم والتحاسد، والتباغض: أخذ القويُّ حقَّ المسكين من المهاجرين الذي لا يقدر على مدافعته بالقهر والغلبة، مستدلا بسياق الحديث وبرواية السمرقندي: «فيحملون» بدل «فيجعلون»، ولكن القاضي عياض لم يرض هذا التفسير محتجًا: أن هذا كلام مستأنف لا ارتباط له بما قبله، ثم قال: «والأشبه أن يكون الكلام على وجهه، وأراد أن مساكين المهاجرين، وضعفتهم ستفتح عليهم إذ ذاك الدنيا حتى يكونوا أمراء بعضهم على رقاب بعض»، ولم يرتض القرطبي إبطال القاضي عياض هذا الرأى، ولا تفسيره الذى اختاره قائلا كما في المفهم ٧/ ١١٥ ـ ١١٦ ـ: «قلتُ: والعجب من إنكار القاضي على هذا المتأول، واختياره هذا المعنى الذي لا يقبله مساق الحديث، ولا يشهد له معناه، وذلك أن معنى الحديث: أنه أخبرهم أنهم تتغيَّر بهم الحال، وأنهم يصدر عنهم أو عن بعضهم أحوال غير مُرضية، تُخالف حالهم التي كانوا عليها معه من التنافس والتباغض، وانطلاقهم في مساكن المهاجرين، فلابدَّ أن يكون هذا الوصف غير مرضي كالأوصاف التي قبله، وأن تكون تلك الأوصاف المتقدمة توجبه، وحينئذ يلتئم الكلام أوله وآخره، ولا يصح ذلك إلا بذلك التقدير الذي أنكر القاضي، فيكون معنى الحديث: أنه إذا وقع التنافس، والتحاسد، والتباغض، حملهم ذلك على أن يأخذ القويُّ ما أفاءه الله تعالى على المسكين الذي لا يقدر على مدافعته فيمنعه عنه ظلمًا، وهذا بمقتضى التنافس، والتحاسد، والتباغض، ويعضده رواية السمرقندي: «فيحملون بعضهم على رقاب بعض»، أي بالقهر والغلبة، وأما ما اختاره القاضي فغير ملائم للحديث، فتدبَّره تجده كما أخبرتك، والله تعالى أعلم».

وحين قال: «فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطتْ على مَنْ قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم »[(١)] .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ خرج يومًا فصلَّى على أهل أُحد صلاته على الميت،ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إنى فرط لكم،وإنى شهيدٌ عليكم، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإنى والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدى، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها »[(٢)] .

وعن أبى سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرِجُ الله لكم مِنْ زهرة الدنيا » قالوا : وما زهـرة الدنيا يا رسول الله ؟ ، قال: «بركاتُ الأرض...» الحديث [(٣)] .

وقد علَّق العلاَّمـة القرطبى على حديث عبد الرحمن بن عوف بقوله: «أى: تتسابقون إلى أخذ الدنيا، ثم تتحاسدون بعد الأخذ، ثم تتقاطعون فيولِّى كل واحد

---

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجزية: باب الجزية والمواعدة... ٤/ ١١٧ - ١١٨، وكتاب المغازى: باب منه ٥/ ١٠٨، وكتاب الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٨/ ١١٢، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرقائق: باب ما يحذر من بسط الدنيا ومن التنافس ٤/ ٢٢٧٣ رقم (٢٩٦١)، والترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة.. باب منه ٤/ ٥٥٢ - ٥٥٣ رقم(٢٤٦٢)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٤ - ١٣٢٥ رقم (٣٩٩٧)، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٣٧، ٣٢٧، كلهم من حديث عمرو بن عوف الأنصارى - وهو حليف لبنى عامر بن لؤى، وكان شهد بدرًا - أن رسول الله ﷺ بعث أباعبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النَّبى ﷺ فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا...» الحديث، وعقَّب الترمذى على روايته بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الجنائز: باب الصلاة على الشهيد ٢/ ١١٤- ١١٥، وكتاب المناقب: باب علامات النبوة فى الإسلام ٤/ ٢٤٠، وكتاب المغازى: باب غزوة أحد وباب أحد جبل يحبنا ٥/ ١٢٠، ١٣٢، وكتاب الرقاق: باب فى الحوض ٨/ ١٥١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ٤/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦ رقم (٢٢٩٦ / ٣٠ - ٣١)، وأحمد فى المسند ٤/ ١٤٩ كلهم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

(٣) الحديث جزء حديث طويل أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتامى ٢/ ١٤٩ - ١٥٠، وكتاب الجهاد: باب فضل النفقة فى سبيل الله ٤/ ٣٢، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الفضائل: باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ٢/ ٧٢٧ - ٧٢٩ رقم (١٠٥٢ / ١٢١ - ١٢٣)، والنسائى فى: السنن: (الصغرى): كتاب الزكاة: باب الصدقة على اليتيم ٥/ ٩٠ - ٩١ (الكبرى) ٢/ ٤٨ رقم (٢٣٦٢)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الفتن: باب فتنة المال ٢/ ١٣٢٣ رقم(٣٩٩٥)، وأحمد فى: المسند ٣/ ٧، ٢١، ٩١، كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ للبخارى.

منكم دبره عن الآخر معرضًا عنه، ثم تثبتُ البغضاء فى القلوب، وتتراكم حتى يكون عنها الخلاف، والقتال، والهلاك، كما قد وجد » [١] .

كما علَّق عليه الإمام النووى بقوله : « قال العلماء : التنافس إلى الشيء : المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إيَّاه، وهو أول درجات الحسد. . . » [٢] .

٣ ـ الاستعلاء والتكبر :

وقد يكون السبب في الحسد إنَّما هو الاستعلاء والتكبر، ذلك أنَّ مَنْ يستعلى أو يتكبر فى الأرض بغير الحقِّ لا يحبُّ أن يرى أحدًا فوقه أو أعلى منه، ولئن رأى من يفوقه أو يتقدم عليه، وهو غير قادر على مضاهاته أو مساواته فإنه يحقد عليه، وبمرور الزمن يتحول الحقد إلى حسد، ولعل هذا من السَّير فى سبيل الغيِّ الذى هو دأب المتكبِّرين، قال تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الاعراف] .

ولعلَّ منه أيضًا امتناع إبليس من السجود لآدم استعلاءً وتكبرًا بدعوى أنه خير منه من حيث إن الله خلقه من نار، وآدم من طين، وعنده أن النار أفضل من الطين، قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦)﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة].

وقد نقل أبو الليث السمرقندى تلميح بعض الحكماء إلى ذلك، ثم عقب عليه بما يجلِّيه ويوضحه فقال : «وقال بعض الحكماء: إياكم والحسد فإن الحسد أول ذنب عُصى الله تعالى به فى السَّماء، وأول ذنب عُصى الله تعالى به فى الأرض، وإنَّما أراد بقوله: أول ذنب عُصى الله تعالى به فى السَّماء يعنى: إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، وقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فحسده، فلعنه الله تعالى بذلك، وأمَّا الذى عصى الله تعالى به فى الأرض فهو قابيل بن آدم حين قَتَلَ أخاه هابيل حسدًا،

---

(١) انظر : المفهم لما أشكل منْ تلخيص كتاب مسلم ٧/ ١١٤ .

(٢) انظر : المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووى ١٨/ ٩٦ / م٩ .

وهو قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة] »[(١)].

٤ ـ العداوة والبغضاء مع عدم القدرة على الانتقام :

وقد تكون العداوة والبغضاء مع عدم القدرة على الانتقام من بين الأسباب أو البواعث التى تدفع إلى الحسد.

وهذا ما لفت الحق ـ تبارك وتعالى ـ النظر إليه فى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . . . ﴾

[آل عمران]

يقول الألوسى ـ رحمه الله : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ ﴾ أيها الذين آمنوا ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ نعمة من ربِّكم، كالألفة، واجتماع الكلمة، والظفر بالأعداء ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أى تحزنهم، وتغظهم، ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى محنة ، كإصابة العدو منكم ، واختلاف الكلمة فيما بينكم ﴿ يَفْرَحُوا ﴾ ، أى يبتهجوا ﴿ بِهَا ﴾ ، وفى ذلك إشارة إلى تناهى عداوتهم إلى حدِّ الحسد، والشماتة »[(٢)].

ولفت النبى ﷺ النظر إليه فى قوله فى حديث أنس بن مالك: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »[(٣)].

---

(١) انظر : تنبيه الغافلين بأحاديث سيِّد الأنبياء والمرسلين: باب الحسد ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) انظر : روح المعانى ٤/ ٤٠ م٢.

(٣) الحديث اخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٨/ ٢٣ عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة الحمصى ـ مولى بنى أميَّة ـ عن الزهرى عن أنس، وباب الهجرة، وقول رسول الله ﷺ : «لايحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث» ٨/ ٢٥ ـ ٢٦ عن عبد الله بن يوسف، ومسلم فى: الصحيح: كتاب البرِّ والصلة والآداب : باب تحريم التحاسد، والتباغض، والتدابر ٤/ ١٩٨٣ رقم(٢٥٥٩ / ٢٣) عن يحيى بن يحيى، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فيمن يهجر أخاه المسلم٤/ ٢٧٨ رقم (٤٩١٠) عن عبد الله بن مسلمة (القعنبى) ثلاثتهم، عن مالك عن ابن شهاب، عن أنس أن النبى ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تَحَاسَدوا، ولا تدابروا ، وكونوا عِباد الله إخواناً. . .» الحديث ، والترمذى فى : السنن : كتاب البر =

وعن أبى هريرة أن النَّبى ﷺ قال : « لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا إخوانا كما أمركم الله»(١) .

= والصلة: باب ما جاء فى الحسد ٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩١، رقم (١٩٣٥) عن عبد الجبار بن العلاء العطار، وسعيد بن عبد الرحمن، كلاهما عن سفيان، عن الزهرى، عن أنس مرفوعًا: «لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، وفى الباب عن أبى بكر الصديق، والزبير بن العوام، وابن مسعود، وأبى هريرة»، ومالك فى: الموطأ: كتاب حُسن الخُلق: باب ما جاء فى المهاجرة ص ٥٦٦ رقم (١٤) عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال».

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تحريم الظنّ والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها ٤/ ١٩٨٦(٢٥٦٣/ ٣٥مكرر) عن الحسن بن على الحُلْوانىّ، وعلى بن نصر الجهضمىّ كلاهما عن وهب بن جرير، عن شعبة عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ، والبُخارىّ فى : الصحيح: كتاب النكاح: باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ٧/ ٢٤ عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج قال: قال أبو هريرة يأثر عن النبى ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخواناً، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك»، وكتاب الفرائض: باب تعليم الفرائض، وقال عقبة بن عامر: تعلموا قبل الظانين، يعنى: الذين يتكلمون بالظنّ ٨/ ١٨٥ عن موسى ابن إسماعيل عن وهيب عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة: «إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولاتحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ، وكتاب الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد، والتدابر، وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٨/ ٢٣ عن بشر بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن همَّام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إياكم والظنَّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولاتحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»، وباب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ٨/ ٢٣، عن عبد الله بن يوسف ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعًا : «إياكم والظنَّ ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظنّ، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها ٤/ ١٩٨٥ رقم (٢٥٦٣ / ٢٨)، عن يحيى بن يحيى، عن مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى الظن٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٧) عن عبد الله ابن مسلمة، عن مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إياكم والظنَّ، فإنّ الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا».

والترمذى فى: السنن: كتاب البرّ والصلة: باب ما جاء فى ظنّ السوء ٤/ ٣١٣ رقم (١٩٨٨) عن ابن أبى عمر، عن سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعًا: «إياكم والظن، فإن الظنّ أكذب الحديث» وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

ومسلم فى : الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظنّ والتجسس. . . ٤/ ١٩٨٥ =

يقول أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ تصويراً لهذا السبب، وكيف يؤدى إلى الحسد:

«العداوة والبغضاء ، وهما أشد أسباب الحسد، فإن مَنْ آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض لوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في

= رقم (٢٥٦٣ / ٢٩) عن قتيبة بن سعيد ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة مرفوعًا: «لا تهجروا» ـ وفي رواية:« لا تهاجروا ـ ولا تدابروا ، ولاتحسسوا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا » ٤/ ١٩٨٥ رقم (٢٥٦٣)، وعن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير ابن عبد الحميد، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعًا: «لا تحاسدوا ولاتباغضوا، ولاتجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا» ٤/ ١٩٨٥ رقم (٢٥٦٣/ ٣٠)، وعن أحمد بن سعيد الدَّارمى، عن حَبَّان، عن وهيب، عن سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعًا : «لاتباغضوا، ولا تدابروا، ولا تنافسوا، وكونوا عباد الله إخوانا» ٤/ ١٩٨٦ رقم (٢٥٦٣ / ٣١)، وباب تحريم ظلم المسلم وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله ٤/ ١٩٨٦ رقم (٢٥٦٤/ ٣٢) عن عبد الله بن مسلمة بن قعنب، عن داود بن قيس، عن أبى سعيد ـ مولى عبد الله بن عامر بن كريز ـ عن أبى هريرة مرفوعًا: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولاتدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لايظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»، وعن أبى الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن أسامة بن زيد، عن أبى سعيد ـ مولى عبد الله بن عامر بن كريز ـ عن أبى هريرة مرفوعًا: نحوه، وزاد ونقص، ومما زاد فيه: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وأشار بأصابعه إلى صدره، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب البغى ٢/ ١٤٠٩ رقم (٤٢١٣) عن يعقوب بن حميد المدنى، عن عبد العزيز بن محمد، عن داود بن قيس، عن أبى سعيد ـ مولى بنى عامر ـ عن أبى هريرة مرفوعًا: «حسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم»، وكتاب الفتن: باب حرمة دم المؤمن وماله ٢/ ١٢٩٨ رقم (٣٩٣٣)، عن بكر بن عبد الوهاب، عن عبد الله بن نافع، ويونس بن يحيى، كلاهما عن داود بن قيس، عن أبى سعيد ـ مولى عبد الله بن عامر بن كريز ـ عن أبى هريرة مرفوعًا: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

وأخرج ابن ماجه فى: السنن: كتاب الدعاء: باب الدعاء بالعفو والعافية ٢/ ١٢٦٥ رقم (٣٨٤٩) عن أبى بكر، وعلى بن محمد، كلاهما عن عبيد بن سعيد، عن شعبة، عن يزيد ابن خُمَير، عن سُلَيم بن عامر، عن أوسط بن إسماعيل البجلى أنه سمع أبا بكر حين قبض النبى ﷺ يقول: قام رسول الله ﷺ فى مقامى هذا عام الأول ـ ثم بكى أبو بكر ـ ثم قال: «عليكم بالصدق، فإنه مع البرِّ، وهما في الجنَّة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النَّار، وسلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولاتباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا: عباد الله إخوانا»، والنسائى فى: السُّنن الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة: باب مسألة المعافاة ٦/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢ رقم (١٠٧١٥ ـ ١٠٧٢٤ / ١ ـ ١٠) من عدَّة طرق إلى بكر، وبألفاظ متفاوتة، ومالك فى: الموطأ: كتاب حسن الخلق: باب ما جاء فى المهاجرة ص ٥٦٦ رقم(١٥) عن أبى الزناد، عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ ، فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولاتحسسوا، ولاتنافسوا ، ولاتحاسدوا ، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفِّي، والانتقام فإن عجز المبغض عن أن يتشفَّى بنفسه أحب أن يتشفَّى منه الزَّمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوَّه بليَّة فرح بها، وظنَّها مكافأةً له من جهة الله على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنها ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم له من عدوِّه الذي آذاه، بل أنعم عليه، وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة، ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي ألا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه، فأمَّا أن يبغض إنسانًا، ثم تستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفَّار به، أعني: الحسد بالعداوة، إذ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ... ﴾ [آل عمران] .

وكذلك قال: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

[آل عمران : ١١٨]

والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع ، والتقاتل ، واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل ، والسعاية ، وهتك الستر ، وما يجري مجراه » [١] .

٥ ـ استحسان الشيء والإعجاب بـه :

وقد يكون استحسان الشيء، والإعجاب به من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد أو العين، ذلك أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيَّف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين بإذن الله ومشيئته، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويُعجبون منه فيُصاب بذلك [٢] .

وتقدم حديث سهل بن حنيف حين حسده ورماه بالعين من شدة إعجابه واستحسانه ببياض جلده : عامر بن ربيعة.

٦ ـ عدم الاستعاذة والتحصن من شرِّ الحاسد والعائن :

وقد يكون عدم الاستعاذة والتحصُّن من شرِّ الحاسد والعائن من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد والعين، ذلك أن ذكر الله حصانة من كلِّ شيء مؤذي لاسيما الحاسد، والعائن، كما قال النبي ﷺ : « إن الله ـ عز وجلَّ ـ أمر يحيى بن زكريا عليه السلام

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٣ / ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٣٢ بتصرف.

بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، وكاد أن يبطئ، فقال له عيسى: إنك قد أُمرتَ بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، فإمَّا أن تبلِّغهُنَّ، وإمَّا أن أُبَلِّغهنَّ، فقال: يا أخى، إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذَّب، أو يُخسف بى، قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشُّرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهنَّ، وآمركم أن تعملوا بهنَّ:

أولهنَّ : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل رجلٍ اشترى عبدًا من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدِّى غلَّته إلى غير سيِّده، فأيُّكم سرَّه أن يكون عبده كذلك، وإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وآمركم بالصلاة، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفتْ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه جرَّة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب مِنْ ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوُّ، فشدُّوا يديه إلى عنقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه.

وآمركم بذكر الله ـ عز وجلَّ ـ كثيرًا، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سراعًا فى أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصَّن فيه، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان، إذا كان فى ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ .

فقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس، الله أمرنى بهنَّ : بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد فى سبيل الله، فإنَّ مَنْ خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم»، قالوا: يا رسول الله، وإنْ صامَ، وإنْ صلَّى، قال: «وإنْ صامَ، وإنْ صلَّى، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمَّاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسلمين، المؤمنين عباد الله ـ عزَّ وجلَّ»[1] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٤/ ١٣٠، ٢٠٢ من حديث الحارث الأشعرى مرفوعًا به.

٧ ـ البُخل أو الشُّحّ :

وقد يكون البخل أو الشُّحّ من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد أو العين، ذلك أن البخيل أو الشحيح يكرهه الناس، وقد تنتهى الكراهية غالبًا إلى الحسد أو العين.

وهذا هوالمفهوم من قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة] .

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله : « فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمَنْ لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدوٌّ ، فإنَّه يوشك أن يظفر به عدوُّه ، وإن تأخَّرتْ مدَّة الظفر»[1] .

ويقول القرضاوى : «والزَّكاة ـ لآخذها أيضًا ـ تطهير من داء الحسد، والكراهية، فالإنسان إذا عضَّتْهُ أنياب الفقر، ودهته داهية الحاجة ورأى مَنْ حوله ينعمون بالخير، ويعيشون فى الرَّغد، ولا يمدُّون له يدًا بالعون، بل يتركونه لمخالب الفقر وأنيابه، هذا الإنسان لا يسلم قلبه من البغضاء، والضَّغينة على مجتمع يهمله، ولا يُعْنَى بأمره، وتربة الشحِّ، والأنانية لا تنبتُ إلا الحقد، والحسد لكلِّ ذى نعمة »[2] .

٨ ـ التفريق فى المعاملة :

وقد يكون التفريق فى المعاملة من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد والعين، ذلك أن الإنسان يحبُّ أنْ يعامله الناس بمبدأ المساواة والمماثلة لأقرانه ، وأترابه ، فإذا رأى ظلمًا وتفريقًا فى المعاملة، ولا يستطيع الانتقام لسبب أو لآخر عوَّض عن ذلك بالحسد والعين.

وهذا أكثر ما يكون بين الضرائر، وبين الأولاد، وبين المرءوسين مع المسؤولين عنهم أو رؤسائهم.

٩ ـ عدم التزام الحاسد أو العائن بحقيقة وآداب الشرع الحنيف :

وقد يكون عدم التزام الحاسد أو العائن بحقيقة وآداب الشرع الحنيف من قوله إذا رأى شيئًا يعجبه : « بسم الله ما شاء الله، لا قوة إلا بالله »، « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » ، وقراءة : المُعوِّذتين، والإخلاص، وآية الكرسى، وفاتحة الكتاب،

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٣ .

(٢) انظر : فقه الزكاة ٢/ ٨٧٦ .

ونحوها من أسباب الوقوع فى الحسد أو العين، إذ جاء فى الحديث : أن النبى ﷺ قال: « إذا رأى أحدكم مِنْ أخيه ما يعجبه، فَلْيَدْعُ له بالبركة »[(١)].

ومفهومه أنَّه إذا لم يَدْعُ ربَّــه بذلك ربما وقع ما لا يُحمد عُقباه، وكان الحسد، والعين.

١٠ ـ الغفلة عن عواقب الحسد والعين :

وقد تكون الغفلة عن عواقب الحسد والعين من بين الأسباب المؤدية إلى الحسد والعين، ذلك أن مَنْ جَهِلَ عواقب أمرٍ مًّا: أتى هذا الأمر من غير أن يلوى على شىء.

ثامنـًا : آثار الحسد والعين :

وللحسد والعين آثار ضارَّة ، وعواقب مهلكة تصيب الفرد والجماعة ، وتتجاوز الدنيا فى الحاسد والعائن إلى الآخرة، ودونك طرفًا من هــذه الآثار:

أ ـ آثار الحسد والعين على الحاسد والعاين :

١ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أنَّهمـا بعيدان عن الله، غير راضين بقسمته، وأقل ما يعاقب به مَنْ كان على هذا الحال: القلق والاضطراب النفسى، كما قال سبحانه فى شأن الأنصار : ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا**﴾ [الحشر: ٩] .

يقول أبو حامد الغزالى بعد ذكره الآية: « أى لا تضيق صدورهم به، ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد»[(٢)].

﴿**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾**﴾ [الجن] . ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا. . .**﴾ [طه: ١٢٤] .

وهذا أيضًا هو المفهوم من قوله سبحانه : ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ. . .**﴾ [التغابن: ١١] . ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ [الأنعام] . ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾**﴾ [الرعد] .

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل تقدم لفظه، وتخريجه ص ٢١٥ .

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٣ / ١٩٠ .

٢ ـ القعود عن العمل وأداء الواجب :

ذلك أنَّهما يعيشان على الأمانى والآمال فى بعض الأحوال مِنْ تَمَنِّى زوال نعمة الغير وصيرورتها إليهما، تاركين العمل، وأداء الواجب وراءهما ظهريًا، ومَنْ كان على هذه الشاكلة فهو عنصر سلبى فى المجتمع يعوق نموَّه، وتقدُّمه، بل ربَّما تتعدى عدواه إلى الآخرين، والأولى أن يُغَيَّب عن أعين الناس حصرًا للخطر والضرر فى أضيق دائرة، ويجرى عليه رزقه، وكذلك أهله وذويه كما تقدم.

٣ ـ ملازمة الهموم والغموم له :

ذلك أنَّ الأمور تسير بتقدير من الله العليم الحكيم، وليس بهوى الحاسد والعائن، وما عُرِفَ أنَّ الله استجاب لهذا الصنف من الناس الذى يحقد على الناس بالباطل، وحوَّل النعمة من الغير إليهم ، بل يتركهم هكذا فى همومهم وغمومهم يتلظون ، ويصطلون .

٤ ـ الذهاب بالحسنات إنْ كانتْ حسنات :

ذلك أن الحاسد أو العاين ربما تكون له حسنات لبعض الطاعات ولكنَّه بالحسد والعين يضيِّع هذه الحسنات أولا بأول، فيكون أشبه ما يكون بالسَّفيه، لديه من المال الشىء الكثير، ويبدده كل يوم هنا وهناك، وقد ورد حديث ضعيف فى هذا المعنى: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب »[1] .

٥ ـ سوء العقبى :

وهذا بدهى فإنَّ مَنْ كانتْ حياته على النحو الذى تقدم تسوء عاقبته، ويلقى من العقاب ما يلقى جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلامٍ للعبيد. قال تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) ﴾ [النساء] . ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦، والجاثية : ١٥].

بل أقلُّ ما يُقال: أنه يتحمل إثم مَنْ ألحق بهم أذى أو ضررًا، وتنتهى به الآثام إلى سوء العقبى.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب في الحسد ٤/٢٧٦ رقم (٤٩٠٣) من حديث إبراهيم بن أبى أسيد عن جده عن أبى هريرة مرفوعًا به، وفيه جهالة الجد.

ب ـ آثار الحسد والعين على المحسود والمعيون :

١ ـ الضُّرُّ والأذى :

ذلك أن الحسد أو العين يلحقان بالمحسود والمعيون ضررًا وأذى ـ إن أراد الله ـ يتمثل في مرض بدني أو نفسي أو هما معًا، أو نكبة في مال، أو أهل، أو ولد، أو وظيفة، أو عشيرة، أو وجاهة، أو نحو ذلك، وقد تكون هذه جميعًا، يعني الضر والأذى يكونان مؤلفين من كل هذه الصور .

٢ ـ القعود عن العمل وأداء الواجب :

ذلك أن مَنْ نزل به ضرٌ أو أذى، ولم يكن مؤهلا لمثل هذا الضر والأذى يقعد عن العمل وأداء الواجب الأمر الذي يؤدي إلى تأخر الأمة وانحطاط الجماعة، ويفتح الباب لتمكن الأعداء، وسيادتهم على هذه الأمة ومقدَّراتها.

٣ ـ كراهية الحاسد أو العائن :

لاشكَّ أنَّ مَنْ تأكد له بالدليل اليقيني القطعي أن فلانًا كان سببًا في إنزال ضرٌ أو أذى به : يتوجه إليه بالكُرْهِ ، والبغضاء ، بل بالفرقة والقطيعة ، وحينئذٍ تسنح الفرصة للأعداء بالدخول ، والسيطرة وتحقيق ما يريدون من مكائد، ومخططات.

٤ ـ السعي للثأر والانتقام :

وقد لا يكتفي المحسود أو المعيون بالكراهية، بل يتجاوز ذلك إلى الثأر والانتقام هو أو ذووه، ويكون ما لا تُحمد عُقباه من القطيعة وخسارة الأمة لعناصر بشرية كان مأمولا مِنْ ورائها أن تساعد في نهضتها وتقدُّمها.

٥ ـ فتح باب جديد لتحصيل الأجر والثواب :

وقد يكون المحسود أو المعيون مِنْ قوَّة الإيمان واليقين بحيث يجاهد نفسه، ويحملها على الرضا بقضاء الله وقدره، ويأتي مزيدًا من الطاعات والقربات بغية أن يصرف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه، ويعافيه، فيكتب له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) ﴾ [الزُمَر] .

وكما قال النبي ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك

لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له » [(١)] .

وما أجمل قول بعض الحكماء فى الطرفين جميعًا الحاسد والمحسود والعائن والمعيون :

« بَارَزَ الحاسد ربَّه من خمسة أوجه: أحدها: أنَّه أبغض كل نعمة ظهرتْ على غيره، ثانيها: أنَّه ساخط لقسمة ربِّه، كأنه يقول: لِمَ قسمتَ هذه القسمة؟ ثالثها: أنَّه ضادَّ فعل الله، أى أن فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء وهو يبخل بفضل الله، ورابعها: أنَّه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم، وخامسها: أنَّه أعان عدوَّه إبليس» [(٢)] .

تاسعًا : حول الوقاية والعلاج من الحسد والعين :

وإذ قد تم التعرف على ماهية الحسد والعين، وحكمهما، وتأثيرهما، وأسبابهما، وآثارهما: فإنَّه يصبح من السهل رسم طريق الوقاية والعلاج على هذا النحو :

١ ـ التحصُّن بالله والتعوذ به سبحانه وتعالى :

وذلك بالمواظبة على ذكر الله بعموم، والاستعاذة من شرِّ الحاسد إذا حسد، وكذلك العائن بخصوص ، فإن هذا الذكر أكبر حماية وحصانة للعبد من شرِّ شياطين الجن، وشياطين الإنس. وقد أمر الله بذلك فى قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [سورة الفلق] .

٢ ـ تقوى الله ـ عزَّ وجلَّ :

المتمثلة فى توحيده سبحانه، والإقلاع عن المعاصى، والمواظبة على فعل الطاعات، قال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الزهد والرَّقائق: باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ رقم (٢٩٩٩ / ٦٤)، والدارمىُّ فى: السُّنن: كتاب الرقائق: باب المؤمن يُؤجر فى كلِّ شىء ٢/ ٣١٨، كلاهما من حديث صهيب مرفوعًا، وأحمد فى: المسند ٥/ ٢٤ من حديث أنس مختصراً، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووى ٦/ ٩٧، وفيض القدير للمناوى ٣/ ١٢٥.

وقال ﷺ لابن عمه : عبد الله بن عباس : « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك » (١) .

٣ ـ الصبر والتحمل :

فلا يحدّث نفسه بأذى الحاسد أصلا، ولا يقاتله، ولا يشكوه، وتمادى الحاسد والعائن يكون سببًا فى هلاكه من حيث لا يدرى ولا يشعر .

يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله : « السبب الثالث : الصبر على عدوِّه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدّث نفسه بأذاه أصلا، فما نُصِر على حاسده، وعدوِّه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره، وبغيه، فإنه كلَّما بغى عليه كان بغيه جندًا، وقوةً للمبغى عليه المحسود، يقاتل به الباغى نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها مِنْ نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغىُّ عليه ذلك لسرَّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ [الحج: ٦٠] .

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقَّه أولا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا مِنْ حقِّه، بل بُغِىَ عليه وهو صابر، وما مِنْ ذنبٍ أسرع عقوبة من البغى، وقطيعة الرحم ، وقد سبقتْ سُنَّة الله: أنه لو بَغَى جبلٌ على جبل جعل الباغى منهما دكًّا»(٢) .

٤ ـ التوكل على الله :

وذلك بالأخذ بالأسباب التى مضتْ مع الاعتماد التام على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن هذا التوكل بهذه الصورة من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم، وعدوانهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب صفة القيامة: باب منه ٤/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ برقم (٢٥١٦) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: كنتُ خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال:« يا غلام إنِّى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشىء لم يضرُّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجفَّت الصُّحف»، وعقّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد فى: المسند ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧ ـ ٣٠٨، من حديث ابن عباس مرفوعًا به، وبنحوه.

(٢) انظر : بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤١ .

وقد قيل: « لو توكَّلَ العبدُ على الله حقَّ توكله، وكادته السموات والأرض، ومَنْ فيهنَّ، لجعل الله له مخرجًا مِنْ ذلك، وكفاه ونصره » [(١)] .

٥ ـ التوبة النصوح :

بأن يتذكر نعمة الله عليه، وسوء أدبه مع هذه النعمة، حيث استخدمها فى معصية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فينقدح فى قلبه الخوف من الله ومن عقابه فيقلع، ويرد المظالم إلى أصحابها فورًا، ويعزم عزمًا أكيدًا ألاَّ يعود وإن قُطِّع وحُرِّق بالنار، عند ذلك يكون العفو عنه من الله وصرف كيد الحُسَّاد والعيَّانين. قال تعالى : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] . وقال تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور] .

٦ ـ الإحسان إلى الحاسد والعائن :

وذلك بالكلمة الطيبة، والهدية، والصدقة، وإطعام الطعام، والاحترام، والسؤال، والتهنئة بنعمة، والمواساة فى الشدة، والإفساح فى المجلس، وطلاقة الوجه ونحوها، قال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص] .

ووجه الدلالة أن الإحسان يستل سخائم النفوس وحقدها فإذا هى تتحول من عدوٍّ إلى صديق .

٧ ـ الرُّقية بالمشروع :

إذ كان جبريل عليه السلام يرقى رسول الله ﷺ ، وأمر النبى ﷺ بها.

عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت : كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، قال: « باسم الله يُبْريك، ومن كلِّ داءٍ يشفيك، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، وشرِّ كل ذى عين » [(٢)] .

وعن أبى سعيد: أن جبريل أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمد، اشتكيتَ ؟ فقال:

---

(١) انظر : بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب السلام : باب الطب والمرض والرقى ٤/١٧١٨ رقم (٣٩/٢١٨٥) من حديث عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ.

«نعم»، قال: «باسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، مِنْ شرِّ كلِّ نفسٍ أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك» [(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها : «أن النبي ﷺ كان يَنْفُثُ على نفسه - في المرض الذي مات فيه - بالمعوِّذات، فلما ثقل كنتُ أنفث عليه بهنَّ، وأمسح بيده نفسه لبركتها» [(٢)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « أمرني رسول الله ﷺ - أو أمر - أن يسترقى من العين»[(٣)] .

وعن أمِّ سَلَمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سَفْعَةٌ [(٤)] ، فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة» [(٥)] .

٨ ـ أمر العائن بالاغتسال :

بعد التأكد من أنَّه صنع ذلك على النحو الذي ذُكر آنفًا، ثم صبّ فضل هذا الماء على المعيون، لاسيَّما مواضع الضعف منه.

فقد تقدم حديث أبي أمامة سهل بن حنيف: أن أباه حدثه أن النبي ﷺ خرج، وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ـ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرض والرقى ٤/ ١٧١٨ ـ ١٧١٩ رقم (٢١٨٦ / ٤٠)، والترمذي في: السُّنن: كتاب الجنائز: باب ما جاء في التعوذ للمريض ٣/ ٣٠٣ رقم(٩٧٢)، وعقب عليه بقوله: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في: السنن: كتاب الطب: باب ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به ٢/ ١١٦٤ رقم (٣٥٢٣)، كلهم من حديث أبي سعيد مرفوعًا به.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الطب: باب الرُّقى بالقرآن والمعوِّذات ١٠/ ١٩٥ رقم (٥٧٣٥) (فتح الباري) من حديث معمر عن الزهري، عن عروة عن عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ، وفي آخره: قال معمر: «فسألت الزهري: كيف ينفث؟ قال: كان ينفثُ على يديه، ثم يمسح بهما وجهه».

(٣) الحديث أخرجه البخاريُّ في : الصحيح : كتاب الطب : باب رقية العين ١٠/ ١٩٩ رقم (٥٧٣٨) من حديث عائشة مرفوعًا بهذا اللفظ (فتح الباري) .

(٤) السفعة ـ بفتح المهملة، ويجوز ضمها، وسكون الفاء بعدها عين مهملة ـ سواد في الوجه، ومنه سفعة الفرس: سواد ناصيته، وقيل: حمرة يعلوها سواد، وقيل: صفرة، وقيل: سواد مع لون آخر، قال ابن حجر في: فتح الباري ١٠/ ٢٠٢: «وكلها متقاربة، وحاصلها: أن بوجهها موضعًا على غير لونه الأصلي، وكأن الاختلاف بحسب اللون الأصلي، فإن كان أحمر فالسفعة سواد صرف، وإن كان أبيض فالسفعة صفرة، وإن كان أسمر فالسفعة حمرة يعلوها سواد».

(٥) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الطب: باب رقية العين ١٠/ ٢٠١ رقم (٥٧٣٩) (فتح الباري) من حديث محمد بن الوليد الزبيدي ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقّب عليه البخاري بقوله: «وقال عقيل عن الزهري: أخبرني عروة عن النبي ﷺ ، تابعه عبد الله بن سالم عن الزبيدي».

وكان أبيض حسن الجسم ، والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة، فقال : ما رأيتُ كاليوم، ولا جلد مُخبَّأة، فلبط ـ أى صرع وزنًا ومعنى ـ سهل، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «هل تتهمون به من أحد؟» قالوا: عامر ابن ربيعة، فدعا عامراً فتغيَّظ عليه، فقال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يُعجبك برَّكتَ، ثم قال:اغتسل له، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره فى قدح، ثم يصب ذلك الماء عليه رجل من خلفه، على رأسه وظهره، ثم يكفأ القدح، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس »[1] .

يقول ابن القيم : «هذه الكيفية لا ينتفع بها مَنْ أنكرها ، ولا مَنْ سخر منها، ولا مَنْ شكَّ فيها أو فعلها مجربًا غير معتقد، وإذا كان فى الطبيعة خواص لا يعرف الأطباء عللها، بل هى عندهم خارجة عن القياس، وإنما تفعل بالخاصية، فما الذى تنكر جهلتهم من الخواص الشرعية؟ هذا مع أن فى المعالجة بالاغتسال مناسبة لا تأباها العقول الصحيحة، فهذا ترياق سُمِّ الحيَّة يؤخذ من لحمها، وهذا علاج النفس الغضبية توضع اليد على بدن الغضبان فتسكن، فكأنَّ أثر تلك العين كشعلة نار وقعتْ على جسد، ففى الاغتسال إطفاء لتلك الشعلة، ثم لـمَّا كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر فى المواضع الرقيقة من الجسد لشدة نفوذها فيها، ولا شيء أرقَّ من المغابن فكان فى غسلها إبطال لعملها، ولاسيَّما أن للأرواح الشيطانية فى تلك المواضع اختصاصًا، وفيه أيضًا وصول أثر الغُسل إلى القلب مِنْ أرقِّ المواضع ، وأسرعها نفاذًا ، فتنطفئ تلك التى أثارتها العين بهذا الماء »[2] .

وقال ابن حجر : (هذا الغسل ينفع بعد استحكام النظرة، فأمَّا عند الإصابة وقبل الاستحكام فقد أرشد الشارع إلى ما يدفعه بقوله فى قصة سهل بن حنيف المذكورة كما مضى: «ألا بركت عليه »، وفى رواية ابن ماجه « فليدع بالبركة »)[3] .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى: المسند ٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الطب: باب العين ٢/ ١١٦٠ رقم (٣٥٠٩) ، كلاهما من حديث سهل واللفظ لأحمد.

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيِّم ٢/ ٢٤٥ .

(٣) انظر : فتح البارى ١٠ / ٢١٥ .



الجزءان : السابع والثامن

الآفة السابعة والثلاثون
الخذلان

والآفة السابعة والثلاثون ذات الآثار الضارة، والعواقب الوخيمة إنما هى: «الخذلان» وحتى يبرأ مَنْ ابتلى بهذه الآفة ، ويحترز منها من سلَّمه الله ـ عز وجل ـ ووقاه شرها فإن لابد من تصور دقيق لها، يوضح أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال هذه الجوانب:

أولا : تعريف الخذلان لغة واصطلاحًا :

لغة : الخذلان يأتى فى اللغة بمعان عدة ، نذكر منها :

١ ـ ترك الشىء ، والقعود عنه ، ثم خصَّ بترك المعونة ، والنصرة .

يقال : خذلت الوحشية ولدها ، فهى خذول أى : قعدت ، وتركته .

ويقال : خَذَلَهُ خذلانا : إذا ترك عونه ونصره .

٢ ـ الضعف ، والانهزام: تقول: تخاذلت رجلاه: ضعفتا، والخاذل: المنهزم .

٣ ـ الإسلام للغير ، وتخييب الآمال ، تقول : خَذَلَهُ يَخْذِلَهُ خَذْلاً ، وخذلانا ، وخذلانا ، أى: أسلمه وخيَّبَهُ .

٤ ـ التثبيط ، والفتُّ فى العضد ، تخاذل القوم ، أى : ثبط كل واحد من عزيمة صاحبه ، وفتَّ فى عضده (١) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا إذا هو تثبيط وفت فى العضد يؤدى إلى الضعف، والانهزام ، وترك المعونة والنصرة، بل الإسلام للغير، وتخييب الآمال .

اصطلاحًا : قال الراغب الأصفهانى : الخذلان : ترك النصرة ممن يظن به أن ينصر (٢) ، وقال ابن الأثير : الخذل : ترك الإغاثة ، والنصرة (٣) .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٦٧/٢، الصحاح للجوهرى ١٦٨٣/٤ ، لسان العرب لابن منظور ١١١٨/٢ بصائر ذوى التمييز ٥٣١/٢ بتصرف .

(٢) انظر : المفردات ص ١٤٤ بتصرف .

(٣) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٦/٢ .

ولعل المعانى اللغوية للخذلان ، وكذلك ما ذكره الراغب ، وابن الأثير تساعد كلها فى رسم صورة واضحة ودقيقة للمعنى الاصطلاحى، وخلاصته أنه: تثبيط شياطين الإنس والجن للمرء، وفتهم فى عضده بصورة تؤدى إلى الانهزام النفسى، والضعف والقعود عن تقديم المعونة والنصرة لمن هو فى حاجة إليها، بل ربما إسلامه للغير بما يقطع الرجاء ويخيب الآمال .

ثانيًا : صور الخذلان وموقف الشارع الحكيم من هذا الخذلان :

صور الخذلان كثيرة نذكر منها :

١ ـ رؤية الحرمات من دم، ومقال، وعرض، ودين تنتقص، دون أن يكون هناك أدنى تحرك لحماية هذه الحرمات ، ولو بالإنكار القلبى ، وتمعُّر الوجه، ومقاطعة المعتدى على هذه الحرمات .

٢ ـ إسلام المظلومين للظالمين للنيل منهم، والتنكيل بهم بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة .

٣ ـ قبول المسلم أن يكون يد الظالمين المنفذة لما يراد بالمظلومين من النيل منهم والتنكيل بهم .

وخذلان مَنْ هو محتاج إلى المعونة، والنصرة من يقدر على ذلك ولا يقدِّمُه كبيرة من الكبائر تقتضى وجوب التوبة فوراً ممن ابتلى بها، وذلك بالإقلاع عن هذا الموقف المذل المخزى ، والتحوُّل للنقيض قبل أن تقع الواقعة، وتضيع الفرصة ويكون الندم حيث لا ينفع الندم، والدلائل الشرعية على هذا الحكم تتجلى فى هذه النصوص .

١ ـ قوله ﷺ : « ... المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومَنْ فَرَّج عن مسلم كربةً فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة » [1] .

٢ ـ وقوله ﷺ : « ما من امرئ يخذل مسلمًا فى موطن ينتقصُ فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المظالم: باب لا يظلم المسلمُ المسلم، ولا يسلمه ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٢، وكتاب الحيل: باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه ... ص ١١٩٩ رقم ٦٩٥١ ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم ص ١١٢٩ رقم ٦٥٧٨/٥٨/٢٥٨٠ كلاهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

مسلمًا فى موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته »[١] .

٣ ـ قوله ﷺ : « مَنْ أكل برجل مسلم أُكْلةً فإن الله يطعمه مثلها فى جهنم، ومَنْ كُسى ثوبًا برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء ، فإن الله يقوم به مقام سمعةٍ ورياء يوم القيامة »[٢] .

٣ ـ قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قالوا : يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا ؟ قال : « تأخذ فوق يديه »[٣] .

ووجه الدلالة من النصوص الثلاثة الأولى : أنها جاءت بصيغة الخبر الذى ما له الأمر بالنصرة، والنهى عن الخذلان كما هو ـ مقرر عند علماء الأصول أما النص الرابع فدلالته واضحة إذ فيه التصريح بإعانة المظلوم، ومنع الظالم من التمادى فى ظلمه، وتلك أعظم نصرة له، وإعانة .

ثالثًا : الآثار المترتبة على الخذلان :

للخذلان آثار خطيرة وعواقب مهلكة وأهمها :

أ ـ على العاملين :

١ ـ فقد الثقة وضياع الهيبة :

ذلك أن من يخذل غيره وهو قادر على الوقوف بجانبه، ونصرته، يسحب الناس

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب: باب الرجل يذب عن عرضه أخيه ص ٦٨٩ رقم ٤٨٨٤ من حديث جابر بن عبد الله، وأبى طلحة بن سهل الأنصارى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمى فى: مجمع الزوائد: كتاب الفتن باب فيمن قدر على نصر مظلوم أو إنكار منكر ٧/ ٢٦٧ من حديث جابر، وأبى أيوب الأنصارى ، وعقب بقوله : « حديث جابر وحده، رواه أبو داود ، ورواه الطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ص ٦٨٨ رقم ٤٨٨١ من حديث المستورد بن شداد ﷺ مرفوعًا به، وأحمد فى المسند ٤/ ٢٢٩ وأورده الألبانى فى: صحيح أبى داود ٣/ ٩٢٣ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩٣٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٣، ٢٤٤٤، وكتاب الإكراه : باب يمين الرجل لصاحبه ص ١١٩٩ رقم ٩٩٥٢ من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ص ١١٣٠ رقم ٢٥٨٤/ ٦٢/ ٦٥٨٢ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا فى قصة مشهورة بين المهاجرين والأنصار .

ثقتهم به، وتذهب هيبته على نحو ما صنع عبد الله ابن سلول حين انسحب بثلاثمائة من أتباعه يوم أحد، قائلاً : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] . وتخلى عن نصرة المسلمين ساعة الشدة، والمحنة إنه بهذا العمل سقط من أعين الناس ، وضاعت هيبته واحترامه ، فلم يعد يثق به أحد .

٢ ـ الحرمان من العون والنصرة ساعة الشدة والمحنة :

ذلك أن الحياة شدائد وامتحانات، ومن تخلى عن نصرة من أصابته شدة أو نزلت به محنة مع القدرة على النصرة والإعانة سيصيبه ما أصاب غيره، ويفتش عن الناصر والمعين فلا يجد جزاءً وفاقًا ، وكذلك يسهل على العدو قضمه ، وابتلاعه من باب «أكلت يوم أكل الثور الأبيض » (١) .

وقد مضى حديث النبي ﷺ ولفظه : « ما من امرئ مسلم يخذل مسلمًا في موطن ينتقص فيه عرضه وينتهك من حرمته ، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصره . . . الحديث » (٢) .

٣ ـ الفضيحة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد :

ذلك أن من خذل أخاه عن طريق الوشاية به، وإسلامه للعدو، فقد شهر به، ومَنْ شهَّر بالناس في الدنيا شهر الله به يوم القيامة، وفضحه على رؤوس الأشهاد، فيا حسرة من اختار لنفسه هذا المصير السيئ والعاقبة المذمومة .

يقول النبي ﷺ : « . . . ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » (٣) .

---

(١) يروى أن أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه قال : « إنما مثلي ، ومثل عثمان ، كمثل أثوار ثلاثة ، كنَّ في أجمة : أبيض، وأسود، وأحمر، ومعهنَّ فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود، والثور الأحمر : لا يُدلُّ علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإنه لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة، فقالا : دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الأسود، لتصفو لنا الأجمة، فقال : دونك فكله، فأكله ثم قال للأحمر : إني آكلك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثًا، فقال : افعل فنادى : ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال عليّ رضي الله عنه : ألا إني هُنت ـ ويروى : وهنت ـ يوم قتل عثمان يرفع بها صوته »، هذا مثل يضربه الرجل ينصر في حق أخيه إبقاءً على نفسه فيهلكان معا انظر : مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٥، وعنه نقل الخولي في : فرائد الخرائد في الأمثال ص ٢٥ مع تصرف يسير .

(٢) الحديث سبق تخريجه . (٣) الحديث سبق تخريجه .

٤ ـ العقاب بنار جهنم :

ذلك أن من يعش على دماء الناس وأعراضهم، وأموالهم فإنه يعاقب يوم القيامة بنار جهنم طعامًا، وشرابًا، وكسوة، ونحو ذلك، من باب « الجزاء من جنس العمل ».

يقول ﷺ : « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها فى جهنم ، ومن كسى ثوبًا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم . . . الحديث »[١] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

١ ـ وقوع المسلمين فريسة فى أيدى الأعداء :

الزمرة بعد الزمرة والطائفة بعد الطائفة، إذ يأكلون الأضعف ثم من فوقه، ومن فوقه، حتى يأتوا على البقية الباقية من المسلمين لخذلان كل منهم غيره .

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وإذا أراد المسلمون العودة إلى عابر مجدهم، وسالف قوتهم بعد إذ خذل بعضهم بعضًا فإن هذا يكلفهم طريقًا طويلاً، وجهدًا ومالاً فى الوقت الذى يستمتع فيه الأعداء بخيرات المسلمين وثرواتهم، مع تسخير جزء من هذه الخيرات، وتلك الثروات لضرب المسلمين، وإحكام الطوق حول أعناقهم، وذلك فيه من الخطر ما فيه .

رابعًا : أسباب الخذلان وبواعثه :

للخذلان أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه نذكر منها :

١ ـ إيثار العافية والسلامة :

ذلك أن بعض الناس يرى أن نصرته وعونه لمن هم بحاجة إلى النصرة والعون قد يكلفه كثيرًا من الجهد، والوقت، والمال وهو غير مستعد لتحمل هذا، لذا يتراءى له أن يدير ظهره إلى هؤلاء المحتاجين إلى النصرة ، والعون مؤثرًا العافية، والسلامة .

٢ ـ البيئة :

إذ قد ينشأ المرء فى بيئة قريبة ـ وهى البيت ـ أو بعيدة ـ وهى المجتمع شأنها الأثرة، والأنانية، وعدم الاهتمام بإغاثة الملهوف ونجدة المكروب، فيشب على ذلك ، بحيث يرى الملهوف يستغيث، والمكروب يستنجد، ولا تتحرك فيه شعرة، ولا يتمعر له وجه ولا يتأثر أدنى تأثر .

---

(١) الحديث بجزءيه سبق تخريجه .

٣ ـ نسيان الأجر والثواب المترتب على نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف :

ذلك أن الشرع الحنيف قد أخبر أن هناك أجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلاً لمن يعمل على نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربات، ونسيان ذلك الأجر، وهذا الثواب يجعل المرء لا يحفر بنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وتفريج الكربات .

٤ ـ خسة الطبع، ولؤم النفس :

وقد يكون السبب فى عدم نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف ونجدة المكروب، إنما هى خسة الطبع، ولؤم النفس، إذ فى كل خسةٍ ولؤم، والمطلوب مقاومة هذه الخسة، وذلك اللؤم، فإذا لم تتم هذه المقاومة قويت هذه الخسة، ونمى ذلك اللؤم حتى يصير جبلة وسلوكًا بحيث يرى هذا الصنف من الناس المظلومين يئنون، والملهوفين يستغيثون، ولا يحرك ساكنًا، ولا يدمى له قلب، ولا تدمع له عين .

٥ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه في الحث على نصرة من هم بحاجة إلى النصرة :

ذلك أن ولىَّ الأمر هو المسؤول الأول عن إقامة شرع الله فى الأرض بما منحه الله من قوة وسلطان، وبما أوجب له حق الطاعة فى المعروف ومن مسؤولياته الحث على نصرة من هم بحاجة إلى العون والنصرة بل إلزام القادرين ـ بما لديه من إمكانات ـ على تنفيذ ذلك، وحين يقصر فى القيام بهذه المسؤولية فإنه يفتح الباب أمام الكسالى والجاهلين، والغافلين أن يقعدوا عن نصرة من هم بحاجة إلى النصر والإعانة .

٦ ـ الغفلة عن حقوق الأخوة الإنسانية بل والإسلامية :

ذلك أن لكل إنسان حقوقًا على أخيه الإنسان بمقتضى الإنسانية، وحقوقًا للمسلم على المسلم بمقتضى الإسلام ومن هذه الحقوق : حرمة خذلانه وإسلامه لعدوه وظلمه، وتحقيره، وحين يغفل المرء عن هذه الحقوق، وينساها يكون الخذلان وما وراءه مما ذكر آنفًا .

٧ ـ الجهل أو النسيان للعواقب المترتبة على الخذلان :

إذ قد يكون الجهل أو النسيان للعواقب المترتبة على الخذلان من الأسباب التى يقعد بالمرء عن نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، ذلك أن من جهل أو نسى العواقب الضارة، والآثار المهلكة لعمل ما أقدم على فعله ظانا أن فيه سعادته ومصلحته، والحقيقة أن فيه حتفه وهلاكه .

أ ـ خوف المخلوقين، ونسيان الخالق :

إذ قد يكون السبب فى الخذلان هو الخوف من بطش المخلوقين ، وأنهم يملكون للمرء ضراً وشقوة فى نفس، أو مال، أو عرض، أو أهل، أو عشيرة فى الوقت الذى يأمن فيه جانب الخالق الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله : الحياة ؛ والموت والضر ، والنفع، والشقوة، والسعادة، والنصرة، والخذلان .

ب ـ الأمن من الوقوف غداً بين يدى الله ـ عز وجل ـ والسؤال :

ذلك أن الأمن من ساعة الوقوف غداً بين يدى الله ـ عز وجل ـ والسؤال : رأيت الملهوفين، والمظلومين، والمكروبين، وخذلتهم إلى حد أنك أسلمتهم إلى أعدائهم ؟ وقد جاء: « من نوقش الحساب عذب » (١) أن هذا الأمر يقود لا محالة إلى خذلان من هم بحاجة إلى العون والنصرة .

خامسًا : طريق علاج خذلان الغير بل الوقاية :

طريق علاج خذلان الغير بل الوقاية تقتضى اتباع هذه الخطوات :

١ ـ التعريف بالخالق تعريفًا يملك على المرء أقطار نفسه ، بحيث يرى هذا المرء ربه: مالك الملك يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم، فيقدم على نصرة من هم بحاجة إلى النصرة مستعينًا بالله عز وجل الذى يتولى عباده الصالحين، ويؤيد المتقين .

٢ ـ التذكير بلحظة الوقوف بين يدى الله عز وجل غداً، والسؤال عن ترك نصرة المظلومين، وعدم إغاثة الملهوفين، وتفريج كربات المكروبين، وأن من نوقش الحساب عذب التذكير بذلك كله، فإنه قد يقود مع التقوى والصدق إلى الإسراع بنصرة من هم بحاجة إلى النصرة، وإن كان معها من الشدائد والامتحانات ما معها .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه ص ٢٣ رقم ١٠٣، وكتاب التفسير : سورة الانشقاق: باب، فسوف يحاسب حسابًا يسيراً ص ٨٨١ ـ ٨٨٢ رقم ٤٩٣٩، وكتاب الرقاق: باب من نوقش الحساب عذب ص ١١٣٢ رقم ٦٥٣٦، ٦٥٣٧، والترمذى فى: السنن: باب منه (من نوقش هلك) ص ٥٢٢ ـ ٥٥٣ رقم ٢٤٢٦ وكتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① ﴾ ص ٧٦١ رقم ٣٣٣٧، ٣٣٣٨ كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا به وبنحوه ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث صحيح حسن » وزاد الترمذى مخرجًا من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ : « من حوسب عذب » وعقب عليه بقوله : « وهذا حديث غريب من حديث قتادة عن أنس لا نعرفه من حديث قتادة عن أنس ، عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه » .

٣ ـ دوام النظر فى سير النبيين وخاتمهم محمد ﷺ ، هذا يوسف الصديق يرى فى رؤية الملك محنة وشدة تنزل بالناس فلا يقول ما قال الملأ : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف] بل يقول : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف] .

وهذا موسى يجد عند وروده أرض مدين: امرأتين تذودان، فسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ قالتا ﴿ لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص] .

وهذا النبى ﷺ تستصرخه امرأة مسلمة اعتدى عليها واحد من يهود قينقاع فيحاصر هؤلاء اليهود حتى يجليهم عن المدينة .

وتستصرخه خزاعة حين اعتدت عليها بكر بمعونة قريش، فيجيبها ﷺ ، ويكون فتح مكة .

أجل : إن دوام النظر فى سير هؤلاء النبيين سيحمل على الاقتداء والتأسِّى لقوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقوله سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾

[الأحزاب]

٤ ـ الوقوف على حقوق الأخوة الإسلامية ومنها أنه : لا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يظلمه ، ولا يحقره ، فإن الوقوف على هذه الحقوق سيقود الصادقين حتمًا إلى التخلص من كل هذه الأخلاق الذميمة، والتخلق بأضدادها من الحماية ، والرعاية ، والعدل ، والتوقير ، والاحترام .

٥ ـ قيام الأمة بواجبها فى مواجهة من يخذلون غيرهم ممن يستحق النصرة ولو بالإنكار القلبى المتمثل فى القطيعة ، فإن ذلك لو تحقق قد يقود إلى التخلى عن الخذلان، والعمل على الوقوف بجانب الغير نصرة وإعانة .

٦ ـ قيام ولى الأمر بواجبه فى التحذير من خذلان من يستحقون النصرة بل العمل على تأديبهم وإصلاحهم لئلا يتمادوا فى هذا الخذلان على نحو ما صنع النبى ﷺ مع الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك من ضرورة مقاطعتهم حتى تاب الله عليهم

في قوله ـ سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

[التوبة]

٧ ـ إسهام الأسرة فى علاج ظاهرة الخذلان لدى أبنائها بأن يقلع الأبوان عن هذا الخلق الذميم، ويعلنوا أن ذلك كان مجافيًا منهم للقيم الإنسانية، وأن عليهم ألا يحاكوا الوالدين فى هذا الخلق الذميم، بل عليهم أن يتحلوا بالشهامة، والمروءة، والنخوة، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربات، ونحو ذلك .

٨ ـ دوام النظر فى سير المعروفين بخذلان غيرهم وعواقبهم :

وخير ما يصور ذلك : خذلان أمراء الأندلس بعضهم بعضًا مع الاستعانة بالنصارى فى آخر أيامهم، على نحو ما صنع بنو عباد وخلفاؤهم من بنى جهور، وبنى الأفطس ضد خصومهم الأمر الذى عجل بدولتهم، وجعلهم فريسة للنصارى الذين عملوا على ملاحقة المسلمين فيما عرف بمحاكم التفتيش .

إن دوام النظر فى هذه السير يحمل متبلدى الحس وميِّتى العاطفة :

أن يغيروا موقفهم نحو المستحقين للمعونة والنصرة فتراهم يقفون إلى جوارهم يجبرونهم يؤازرونهم بكل ما يملكون من أساليب ووسائل .

٩ ـ دوام النظر فى سير المعروفين بنصرة غيرهم ومؤازرتهم :

هذا المعتصم بالله العباسى تستغيثه امرأة فى عمورية : أن روميًا لطمها طالبةً الثأر والإنصاف، ورد مظلمتها لها فيغزو الروم، وينكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها أحد، ويشتت جموعهم، ويخرب ديارهم، ويفتح عمورية بالسيف، ويطلب من المرأة أن تلطم النصرانى الذى لطمها بمثل ما فعل بها .

وهذا مؤمن آل فرعون ينهض لنصرة نبى الله موسى عليه السلام حين يأتمر به الملأ يقتلوه وحين يتوعده فرعون بالقتل .

وهذا حبيب النجار ينصر الرسل الثلاثة لما كذبهم قومهم، وتوعدهم بالرجم بل بالقتل، وتصل به نصرة هؤلاء إلى حدّ التضحية بحياته فى سبيل الله، وهذا نور الدين زنكى يصفه الإمام أبو شامة بقوله :

« وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين ـ رحمه الله ـ بأمر المسلمين حين نزل الفرنج

على دمياط أنه قرئ بين يديه جزء حديث له كان له به رواية، فجاء فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليتمَّ السلسلة، على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك، وقال : إنى لأستحى من الله ـ تعالى ـ أن يرانى مبتسمًا، والمسلمون محاصرون بالفرنج [١] .

إن دوام النظر فى هذه السير يولد فى نفس المرء من المروءة والشهامة ما يحمل على التخلى عن خذلان الغير، ويشجعه على نصرة الآخرين، وإعانتهم بكل ما يمكن من أساليب النصرة والإغاثة .

١٠ ـ تذكر الأجر والثواب الذى ربط الحق ـ تبارك وتعالى ـ بنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف على النحو الذى ورد فى الأحاديث المذكورة آنفًا، فإن ذلك الأجر وهذا الثواب يهونان على أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة والعارفين بالله ـ عز وجل ـ وبالعاقبة والمصير كل ما يلحقهم من أذى ومشقات من باب : « مَنْ لاح له بريق الأجر هانت عليه مشقة التكليف » .

١١ ـ استحضار العواقب المترتبة على خذلان المرء لمن يستحقون الإغاثة والنصرة سواء أكانت فردية، أو جماعية، دنيوية أو أخروية، فإن استحضار هذه العواقب يحمل على جمع الهمة، ومضاء العزيمة، والمضى فى الطريق إلى نهايتها من نصرة المظلومين، وإغاثة الملهوفين، وتفريج كرب ، المكروبين .

١٢ ـ معايشة القدوات الحيَّة التى قدمت أرواحها وما تملك نصرة للمخذولين :

لعل أصدق تصوير لهذه الخطوة حالة الأمة حين وقعت فريسة بين أنياب الاستعمار خلال القرون الثلاثة الماضية، ومنها أرض الإسلام المباركة الأقصى وما حوله، وتجهيل المستعمر الأمة، وإفساد أخلاقها، وتمزيق وحدتها حتى لا تقوم لها قائمة، وكان الأمر عكس ما توقع الأعداء إذ ظهرت الحركات الجهادية التى حملت راية الجهاد بأوسع معانيه من بذل أقصى ما فى الطاقة والوسع من أجل إعلاء كلمة الله عز وجل تارة باستحضار النية وتارة بإشاعة الفقه فى الدين والعلم الحياتى، وتارة بالتوسع فى العمل الخيرى وتارة بإعانة أسر المجاهدين، وتارة بتجهيز المجاهدين وتارة بالجهاد بالنفس، وهلم جرا .

---

(١) انظر : الروضتين فى أخبار الدولتين : النورية ، والصلاحية .

ومن هذه الحركات على سبيل المثال لا الحصر : حركة الشهيد أحمد عرفان فى الهند، وحركة أبى الكلام آزاد، وحركة الجماعة الإسلامية فى باكستان، وحركة ندوة العلماء فى الهند، وحركة جماعة التبليغ، وحركة جمعية العلماء فى الجزائر، وحركة الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وحركة الإخوان المسلمين، وحركة عز الدين القسام، وحركة أنصار السنة (السلفية)، وحركات أخرى لا حصر لها .

إن معايشة رموز هذه الحركات والوقوف على تصورها لواقع الأمة، وكيفية الخروج من هذا الواقع، ثم حملها الراية عمليًا نصرةً للمظلومين، وإغاثة للملهوفين والمكروبين وعدم التخلى عن هؤلاء، وتركهم فريسة للشياطين الإنسية، والجنية : يمكن أن يحرك الكسالى ، ويوقظ النائمين، وينبه الغافلين كى يقوموا بدورهم، وواجبهم أسوةً بغيرهم من الناس متحلين بالحكمة التى دعا إليها الشرع الحنيف فى قوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

الآفة الثامنة والثلاثون
تتبع العورات

والآفة الثامنة والثلاثون التي إن ابتلى بها الناس ، وشاعت فيهم أصابتهم بالكراهية، والفرقة، والقطيعة، ثم الوقوع فريسة في أيدى الأعداء إنما هي : « تتبع العورات» .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها ويتقيها ، ويحذرها من سلمه الله عز وجل منها، فإنه لابد من [illegible] على أبعادها ومعالمها من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : تعريف تتبع العورات لغة وشرعًا :

لغة : تتبع العورات مركب إضافي مؤلف من كلمتين هما « تتبع » « عورات » والأمر يقتضى تعريف كل على حدة ، ثم تعريف هذا المركب، ودونك البيان: «التتبع» يأتي في اللغة بمعنى : السير وراء الشيء، وتطلبه على مهل [1] . « العورات » : جمع عورة ولها في اللغة معان : منها :

١ ـ الخلل والعيب في الشيء .

٢ ـ كل ما يستره الإنسان استنكافًا أو حياءً [2] وهي من الرجل : ما بين السرة والركبة من المرأة الحرة : جميع جسدها إلا الوجه واليدين إلى الكوعين [3] ولا تعارض بين هذين المعنيين ، إذ هي كل عيب أو خلل يستنكف أو يستحيا من إظهاره .

وتتبع العورات هو : السير بتؤدة وعلى مهل وراء كل عيب ، أو خلل يستنكف، أو يستحيا من إظهاره .

شرعًا :أما تتبع العورات شرعًا فلم أجد فيه بحثًا مفردًا ، وإنما عبارات متناثرة هنا وهناك فحواها ، ومضمونها أنه :

---

(١)انظر : المعجم الوسيط ١/ ٨١ بتصرف .

(٢)انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٣٨ : المعجم الوسيط ٢/ ٣٦٣ بتصرف .

(٣)انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٣٨ .

متابعة البحث والتفتيش عما خفى مما يستحى الناس منه ، ويستنكفون من إظهاره صوابًا أو خطأ مدحًا أو قدحًا، فصار المعنى الشرعى أوسع من المعنى اللغوى إذ المعنى اللغوى مقصور على محاولة الكشف عن المعيب أو الخطأ ، بينما المعنى الشرعى يعم كل ما يخفيه الناس معيبًا، أو غير معيب صوابًا أو خطأ .

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن رجلا اطلع فى بعض حجر النبى ﷺ فقام إليه بمشقص أو مشاقص ، وجعل يختله ليطعنه » [1] .

وليس فى بيت النبى ﷺ أمور معيبة أو مذمومة ومع ذلك عمل على طعنه إيذانًا بأن تتبع العورات شرعًا أبعد مدى وأوسع دائرة من المدلول اللغوى :

الجانب الثانى : ماهية الألفاظ ذات الصلة : (التجسس ـ التحسس ـ الترصد ـ التنصت) :

وردت عدة ألفاظ ذات صلة قوية بتتبع العورات منها :

١ ـ التجسس : وهو فى اللغة : التفحص باليد ، ثم صار عامًا فى التفحص والتتبع باليد وبغير اليد [2] .

٢ ـ التحسس : وهو فى اللغة : التفحص بالحواس من اليدين ، والعينين والفم ، والسمع ، والشم [3] .

وقد اختلف العلماء فى علاقة كل منهما بالآخر ، فمن قائل بالتضاد ، ومن قائل بالتوافق ، ومن قائل بالعموم ، والخصوص، والراجح أن مآلهما واحد وهو تتبع المخفى والمستور وتفحصه بكل ما يمكن من أساليب ووسائل .

أما التجسس أو التحسس اصطلاحًا فهو: تتبع العورات وغيرها بكل الأساليب والوسائل مشروعة أو غير مشروعة، ثم خُصَّ بالاطلاع على عورات المسلمين ونقل أخبارهم للعدو بطريقة سرية سواء أكانت هذه الأخبار عسكرية أو غير عسكرية أيام السلم أو أيام الحرب، وسواء أقام بها مسلم أو غير مسلم [4] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الديات : باب من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ص ١١٨٩ رقم ٦٩٠٠ .

(٢) انظر : لسان العرب ٧/ ٣٣٣٧ ، تهذيب اللغة ٩/ ٤٤٨، تاج العروس ٤/ ١١٩ .

(٣) انظر : لسان العرب ٧/ ٣٣٧، تهذيب اللغة ٩/ ٤٤٨، المعجم الوسيط ١/ ١٢٣ .

(٤) انظر : التجسس وأحكامه فى الشريعة الإسلامية لمحمد زاكان الدغمى ص ٢٦ ـ ٣١ بتصرف .

٣ ـ الترصد لغة هو : القعود على الطريق ترقبًا ومنه الرصدى : الذى يقعد على الطريق ينظر الناس ليأخذ شيئًا من أموالهم ظلمًا وعدوانًا .

أما الترصد اصطلاحًا فهو: القعود بالمرصاد للناس، ومراقبتهم لمعرفة أخبارهم[1] .

٤ ـ التنصت لغة هو : التسمع أو تكلف الإنصات[2] .

أما التنصت اصطلاحًا فهو : التسمع لأخبار الناس ولو بشيء من التكلف .

وهكذا يلتقى مصطلح : « تتبع العورات » مع التجسس، والتحسس والترصد، والتنصت فى أن الغاية هى الوقوف على أخبار الناس، وإن اختلفت الوسيلة والأسلوب.

الجانب الثالث : أهم صور تتبع العورات وموقف الإسلام من هذه الآفة وأدلة هذا الموقف لتتبع العورات صور أهمها :

١ ـ السؤال وبإلحاح للناس عن خاصة شؤونهم وأحوالهم .

٢ ـ التنصت على الناس فى أحاديثهم ، ومتابعة سلوكهم .

٣ ـ اختلاس النظر فى بيوت الناس .

٤ ـ دخول البيوت بغير إذن من أهلها .

٥ ـ طرح الأسئلة الإسقاطية التى ظاهرها العموم، وهى فى حقيقتها تعنى الخصوص وهلم جرًا .

هذا وقد حرم الشارع تتبع العورات والتنقيب عما خفى من أمور الناس إذ يقول النبى ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته »[3] .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١/ ٣٤٨، الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٣٨٦، ٣٨٧ بتصرف .

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٩٢٥، الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ١١٧١ بتصرف .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ص ٦٨٨ رقم : ٤٨٨ من حديث أبى برزة الأسلمى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وأورده الغزالى فى : إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٠ وعقب عليه العراقى فى المغنى بقوله : « سنده جيد » كما ذكره الألبانى فى : صحيح سنن أبى داود رقم ٤٠٨٣ وعقب عليه بقوله : « حسن صحيح » .

ويقول أيضًا : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا »[(١)] .

ومن قبل قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات : ١٢] .

بل لقد بين النبى ﷺ بالقول وبالفعل : أن على من انتهكت حرماته وتتبع عوراته أن يدفع هذا الأذى الذى لحق به بما يروع منتهكى الحرمات ومتتبعى العورات بأن يستخدم أخف الوسائل، فإن لم يرتدع استخدم أشدَّها وإن أصيب المعتدى فى نفسه، أو فى بعض أعضائه، فلا دية، ولا قصاص .

إذ يقول ﷺ : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ، ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح »[(٢)] .

وإذ يقول : « مَن اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه ففقؤوا عينه فلا دية له ، ولا قصاص »[(٣)] .

وإذ يقول أنس رضي الله عنه : « أن رجلاً اطلع فى بعض حجر النبى ﷺ فقام إليه بمشقص أو مشاقص وجعل يختله ليطعنه »[(٤)] .

على أنه يجوز تتبع عورات من ظهرت منه أمارات الفسق والفجور فى نفسه أو مع غيره لحمله على الإقلاع، وزجره عن المعاودة .

يقول الأستاذ محمد زاكان الدغمى ـ بعد أن ساق طائفة من النصوص المتعلقة بتتبع العورات : « والتجسس على عورات الناس حرام سواء أكان بالتطلع أم بالاستنصات والاستماع، وسواء أكان ذلك من الأفراد والجماعات أم من الحاكم، وذلك لورود النهى عن التجسس صراحة فى القرآن الكريم والسنة النبوية كما مر آنفًا .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى آفة : سوء الظن .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الديات : باب من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ص ١١٨٩ رقم ٦٩٠٢ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الاستئذان ص ٧٢٦ رقم ٥١٧٢ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به .

(٤) الحديث سبق تخريجه .

ومن هنا فلا يجوز التجسس إلا لشبهة دالة على ريبة، أو جناية لا يعرف فاعلها فيجوز التحرى، والتجسس على أهل الريب لمعرفة الجانى، ومن هذا عمل رجال المخابرات عمومًا لمعرفة الخطرين على الأمن لوضع الضوابط التى تدفع شرهم »[(١)] .

وذكر الإمام أبو حامد الغزالى شروطًا بها يجوز للمسؤول التجسس منها : الشرط الثالث : « أن يكون المنكر ظاهرًا للمتجسس بغير التجسس » .

« فكل من أغلق بابه، وستر عورته لا يجوز أن يتجسس عليه إلا أن يظهر بالدار ظهورًا يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير، والأوتار أو سماع طمطمة، أو ارتفاع الأصوات بحيث جاوزت حيطان الدار فمن سمع ذلك من المسؤولين فله دخول الدار ؛ لأن التجسس هو طلب الأمارات المعروفة وهو المنهى عنه فإذا حصلت الأمارة المعروفة دون طلب، عندها يجوز العمل بمقتضاها ولذا لا يجوز اقتحام الدور بالظنون نظرًا لحرمة المساكن فى الإسلام وضرورة المحافظة على ما ستره الله تعالى فيها أما فى حالة ظهور الفساد، فيجب دفع الضرر والمفسدة ، ويجوز عندها التجسس »[(٢)] .

وقد سبق إلى هذا الفقه من الصحابة ﷺ ابن مسعود، وعمر إذ يقول ابن مسعود ﷺ : « إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به »[(٣)] .

وإذ يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن نفسه : « إنه حرس مع عمر بن الخطاب ليلة بالمدينة فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج فى بيت، فانطلقوا يؤمونه، فلما دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر وأخذ بيده عبد الرحمن بن عوف: أتدرى بيت من هذا ؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شُرُبٌ فما ترى ؟ قال : أرى أن قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] ، فقد تجسسنا فانصرف عنهم، وتركهم »[(٤)] .

---

(١) انظر : التجسس وأحكامه فى الشريعة الإسلامية ص : ١٤٨ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٢/ ٣٢٠، ٣٢١ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن كتاب الأدب فى التجسس ص : ٦٩٠ رقم ٤٨٩٠ من حديث زيد ابن وهب قال : « أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلا تقطر لحيته خمرًا فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس. الحديث » .

(٤) الحديث أورد السيوطى فى : الدر المنثور ٧/ ٥٦٧.

الجانب الرابع : آثار تتبع العورات :

أ ـ على العاملين :

لتتبع العورات أثر على العاملين نذكر منها :

١ ـ زرع الأحقاد، والضغائن فى النفوس :

ذلك أن لكل حرمته في دينه، ودمه، وعقله، وعرضه، وماله.

وإذا ما انتهكت هذه الحرمة فإنها يورث فى النفس الأحقاد، والضغائن من باب غضبة المرء لحرماته. لا سيما إذا عجز هذا المرء عن الثأر لهذه الحرمات .

٢ ـ ذهاب الهيبة، وخسران الثقة :

ذلك أن الناس ينظرون إلى من يتتبع العورات أنه غير آمن على حرمات الناس ، فيسحبون منه الثقة ، وتسقط هيبته من نفوسهم، وماذا يبقى للمرء بعد سحب الناس ثقتهم به وزوال هيبته من نفوسهم ؟

٣ ـ التورط فى مزيد من الفسق والفجور :

ذلك أن المتتبع لعورات الناس، قد يطلع على ما يسوء ولا تحمد عقباه، فيقوده ذلك إلى مزيد من الفسق، والفجور، كالغيبة، والنميمة وحب الثأر المتمثل فى سفك دم، أو انتهاك عرض أو سلب مال ونحو ذلك، وقد نبه إلى هذا رب العزة سبحانه إذ يقول : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

٤ ـ حلول الغضب الإلهى :

ذلك أن المتتبع لعورات الناس قد خالف حكم الله ورسوله فى حرمة التجسس وتتبع عورات الناس، ومن يخالف حكم الله ويتمادى فى ذلك ولا يتوب يحلل عليه الغضب الإلهى، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه].

٥ ـ الفضيحة فى الدنيا والآخرة :

يتمثل الغضب الإلهى الذى ينزل بمن يتتبع عورات الناس فى صور لا حصر لها ومنها فضيحة الله ـ عز وجل ـ وقد بين ذلك رسول الله ﷺ فى قوله : « يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته »[1] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

٦ ـ هدر المتتبع لعورات الناس حرمات نفسه :

ذلك أن المتتبع لعورات الناس قد أهدر حرمة الآخرين، وأقل عقاب له فى الدنيا أن تهدر حرمته هو، من باب: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومن باب : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

وهذا ما نبه إليه النبى ﷺ فى قوله : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم، ففقؤوا عينه، فلا دية له، ولا قصاص » [(١)] .

٧ ـ حمل الآخرين لا سيما الناشئة ومن لا حصانة لهم أن يشتغلوا بعورات غيرهم:

ذلك أن تتبع عورات الناس سيعلم الآخرين لاسيما الناشئة ومن لا حصانة لديهم: أن يشتغلوا بتتبع عورات غيرهم فيكسب مَنْ علَّمهم ذلك إثمين : إثم نفسه، وإثم من اقتدى به، وسار وراءه من باب : « . . . ومن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا » [(٢)] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ولتتبع عورات الآخرين كذلك آثار على العمل الإسلامى : نذكر منها :

١ ـ الفرقة والقطيعة :

ذلك أن امتلاء الصدور بالأحقاد والضغائن، والتورط فى مزيد من الفسق، والفجور كل ذلك يؤدى إلى تسويد القلوب، ومن ثم الفرقة والقطيعة .

٢ ـ الحرمان من العون الإلهى :

ذلك أن الفرقة والقطيعة ليست من دين الله فى شىء كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وقد مضت سنته سبحانه أن يخذل كلَّ من أتى ما يخالف منهاجه، ويضاد حكمه، كما صنع سبحانه مع أهل الكتاب، إذ يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾ [آل عمران] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه . (٢) الحديث سبق تخريجه .

٣ ـ كثرة التكاليف ، وطول الطريق :

ذلك أن الخذلان الإلهى لمتبعى عورات الناس يتمثل فى صور منها : الوقوع فريسة فى أيدى الأعداء، وعبث هؤلاء بالمناهج والقيم والمبادئ، ويحتاج المسلمون للتخلص من سيطرة هؤلاء الأعداء إلى زمن طويل مع جهد كبير، ومعاناة ومشقات على نحو ما هو قائم وواقع ببلاد المسلمين اليوم وعلى نحو ما حل بهم منذ أكثر من قرنين من الزمان.

الجانب الخامس : أسباب تتبع العورات :

هناك أسباب تؤدى إلى تتبع العورات، وعوامل توقع فيه نذكر منها :

١ ـ سوء التربية الأسرية :

ذلك أن الأسرة إذا كانت حياتها مبنية على تتبع العورات ، ولم تتعهد صغارها على الأقل بالتنفير من هذا الفعل، وتقبيحه فإنه ينشأ وفى دمه الاطلاع على العورات، بل الترصد لها والتجسس عليها من باب أن الولد صورة دقيقة للأسرة : إن استقامت استقام، وإن انحرفت انحرف .

٢ ـ ضَعف الإيمان :

ذلك أن المرء إذا كان ضعيف الإيمان بالله، والعاقبة، والمصير : استهان بالعورات، ففتش عنها، وتجسس عليها بكل الأساليب والوسائل، وصدق النبى ﷺ إذ يقول : «إنَّ مَّما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[1] .

٣ ـ أصدقاء السوء :

ذلك أن المرء إذا عاش بين أصدقاء السوء، وكان من أخلاقهم تتبع العورات، والتفتيش عنها، والتجسس عليها ، فإنه يتأثر بهم غالبًا ، ولا سيما إذا لم يكن قوى الشخصية.

إذ المرء على دين خليله ، وفى الأمثال الأعجمية : « قل لى : من صديقك ؟ أقل لك : من أنت ؟ » .

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى الصحيح : كتاب أحاديث الأنبياء : باب منه ص ٥٨٧ رقم ٣٤٨٣، ٣٤٨٤، وكتاب الأدب : باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ص ١٠٦٧ رقم ٦١٢٠ وأبو داود فى / : السنن : كتاب الأدب : باب فى الحياء ص ٦٧٩ رقم ٤٧٩٧ كلاهما من حديث أبى مسعود البدرى ؓ مرفوعًا .

٤ ـ مرض القلب :

ذلك أن المرء إذا كان مريض القلب لاقترافه المعاصى والسيئات فإنه يستهين بالعورات، ويعمل بطريق أو بأخرى على رصدها، واقتناص ما يمكن اقتناصه منها .

وفى حديث حذيفة ﷺ ما يصور أثر القلب المريض على صاحبه إذ يقول ﷺ : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مُجَخّيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه »[(١)] .

٥ ـ عدم الاحتراز من مواطن الريبة والتهمة :

ذلك أن المرء قد لا يحترز من مواطن الريبة، والتهمة، فيفتح الباب أمام المتطفلين ونحوهم أن يظنوا به سوءًا ، ويحملهم هذا الظن على التجسس وتتبع العورات للتحقيق والتأكد، وذلك فيه من الخطورة ما فيه لهذا جاء فى الحديث قوله ﷺ : « . . . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، وعرضه . . . »[(٢)] . « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[(٣)] .

٦ ـ الاستخدام من قبل جهات لا تخشى الله والدار الآخرة :

ذلك أن هناك جهات لا تخشى الله والدار الآخرة ، وليس لها هم سوى الاطلاع

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب ص ٧٤ رقم ٢٣١/ ١٤٤/ ٣٦٩ من حديث حذيفة مرفوعًا به .

(٢) الحديث جزء من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ص ١٢ رقم ٥٢، وكتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين . . ص ٦٢٩ رقم ٢٠٥١، ومسلم فى: الصحيح: كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ص ٦٩٨ رقم ١٠٧، ١٠٨ / ١٥٩٩ / ٤٠٩٤ ـ ٤٠٩٧، وأبو داود فى : السنن : كتاب البيوع : باب ما جاء فى اجتناب الشبهات ص ٤٨٤، ٤٨٥ رقم ٣٣٢٩، ٣٣٣٠، والترمذى فى السنن : كتاب البيع : باب ما جاء فى ترك الشبهات ص ٢٩٤ رقم ١٢٠٥، والنسائى فى السنن: كتاب البيوع: باب اجتناب الشبهات فى الكسب ص ٦١٧، ٦١٨ رقم ٤٤٥٨، وابن ماجه فى السنن : كتاب الفتن : باب الوقوف عند الشبهات ص ٥٧٣ رقم ٣٩٨٤ كلهم من حديث النعمان بن بشير ﷺ مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب حديث اعقلها وتوكل ص ٥٧٢ رقم ٢٥١٨ والنسائى فى : السنن : كتاب الأشربة : باب الحث على ترك الشبهات ص ٥٧٢، ٥٧٣ رقم ٥٧١٤ كلاهما من حديث الحسن بن على ﷺ مرفوعًا به، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

على العورات، وتوظيفها بما يناسب أهواءها ومشاربها، وقد لا تستطيع الوصول إلى ما تريد بنفسها أو تستطيع، ولكنها لا تحب الكشف عن هويتها فتستخدم بعض الأغرار فى تتبع العورات والتجسس عليها، ويتورط هؤلاء فى ذلك عن قصد أو غير قصد .

٧ ـ الظفر بالعثرات لتكون أداة ضغط لخدمة أهداف معينة :

ذلك أن المتربصين بالناس الدوائر قد لا يجدون تحقق أهداف بعينها إلا عند طائفة ما بين الناس، ويصعب عليهم شراء ذمم هؤلاء، ولا يبقى أمامهم سوى الظفر ببعض العثرات حيث إن كل بنى آدم خطاء، ويجعلون من هذه العثرات أدوات ضغط على هذه الطائفة لتحقيق ما يريدون ويرون الطريق لذلك فى تتبع العورات، والبحث، والتفتيش عنها.

٨ ـ الفراغ :

ذلك أن الفارغ من الناس يملى عليه الشيطان الدخول فى سبل لا حصر لها ومنها تتبع العورات لملأ هذا الفراغ، وتستجيب النفس الأمارة بالسوء لذلك، فيكون التورط فى هذه الآفة وصدق النبى ﷺ الذى يقول: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » [(١)].

والذى يقول : « اغتنم خمسًا قبل خمس : حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك » [(٢)].

٩ ـ تقصير المجتمع فى واجبه نحو متتبعى العورات :

ذلك أن على المجتمع أن يقوم نحو بعضه البعض بواجب إنكار المنكر، وإلا تحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد، يشيع فيها انتهاك الحرمات فى : العقيدة ، والدم ،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الرقاق : باب الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة ص ١١٣ رقم ٦٤١٢، والترمذى فى: السنن : كتاب الزهد : باب الحكمة ص ٦٠٨ رقم ٤١٧٠ كلهم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى: المستدرك: كتاب الرقاق : باب نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ٥/ ٤٣٥ رقم ٧٩١٦ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا بهذا اللفظ وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه » وسكت عنه الذهبى فى : تخليص المستدرك وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى : فى صحيح الجامع الصغير ١/ ٤٣، ٢٤٤ مرفوعًا ومرسلا.

والعقل، والعرض، والمال . وتتبع العورات من أنكر المنكر ، وحين يقصِّر المجتمع فى واجبه نحوه يشيع ويتفشى بين الناس حتى لكأنه السمة العامة للمجتمع .

١٠ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه نحو تتبع العورات :

ذلك أن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن وحين لا يقوم ولى الأمر بواجبه نحو تتبع العورات من التحذير، ثم التعزير فإنه يتفشى هذا الوباء، وينتشر بين الناس وذلك فيه من الخطورة ما فيه .

الجانب السادس : سبيل الخلاص من هذه الآفة بل الوقاية والاحتراز :

إن سبيل الخلاص من هذه الآفة بل الوقاية والاحتراز تتمثل فى :

١ ـ أن يقوى المرء ملكة المراقبة لله عز وجل لديه :

ذلك أن المرء إذا قويت ملكة المراقبة لله عز وجل لديه بأنه يراه ويطلع على كل ما يقع منه سراً وعلانية استحيا أن يتورط فيما نهى عنه وحذر الرسول ﷺ من التجسس على عباد الله وتتبع عوراتهم، ولا شك أن تربية ملكة المراقبة هذه ليست بالأمر الهين ولا باليسير؛ إذ هى تبدأ بمعرفة الله وكمالاته من دوام النظر فى الكون، وفى النفس وكثرة تلاوة القرآن والمواظبة على الذكر المطلق، والمقيد، ثم معايشة الأحداث التى وقعت فى الماضى وكان حاضرها وشاهدها، والقاضى فيها رب العزة سبحانه كقصة المرأة التى ظاهر منها زوجها فى سورة المجادلة، وكقصة حاطب بن أبى بلتعة وكقصة ابنتى سعد بن الربيع حين صادر عمهما تركة أبيهما، وحرمهما الإرث منها ، واطلاع الحق سبحانه على ذلك كله، وإنزال قرآن يقضى بالحق، فى ذلك كله ويتلى هذا القرآن إلى آخر الزمان، ثم قياس الحاضر على الماضى وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ثم ما يشعره الإنسان من داخله من معية الله سبحانه وتعالى واطلاعه على أحواله لا سيما فى أوقات الشدائد، والمحن، ثم مصاحبة القدوات الحية المعروفة بمراقبتها لله عز وجل وخوفها الشديد منه .

٢ ـ أن يستحضر المرء على الدوام رجوعه إلى ربه ، والحساب ، والجزاء :

ذلك أن الخلق كلهم راجعون إلى الله ومسؤولون ومجزيون عن أعمالهم بالسوء سوءاً ، وبالإحسان إحساناً، ويوم يستحضر المرء ذلك ويضعه نصب عينيه ويكون عاملا لمصلحة نفسه، ساعيًا من أجل إسعادها فإنه يقلع لا محالة عن هذه الآفة بل يعمل جاهدًا على تحصين نفسه منها بطريق أو بأخرى، ولا شك أن استحضار هذه اللحظات،

وتلك الساعات يحتاج إلى معايشة دائمة لكتاب الحياة : القرآن الكريم ، وكذلك النبى ﷺ من خلال سننه الشريفة، وسيرته العطرة، المطهرة، وكيفية تصوير هذا الكتاب، وتلك السنة للعافية والمصير، وما ينتظر العباد هناك من شدائد وأهوال إلا من رحم الله.

٣ ـ أن تقلع الأسرة التى نشأ بها المرء عن هذه الآفة مع التنويه بخطئها فى الماضى:

ذلك أن إقلاع الأسرة التى نشأ بها المرء عن هذه الآفة، مع اعتراف هذه الأسرة بخطئها الماضى ، والعزم الأكيد أنه لا عودة إلى هذه الآفة مرة أخرى ، وإن تعرضت لشتى المساومات .

إن ذلك لو حدث يعيد إلى المرء ثقته بالبيئة التى نشأ بها وحرصه على تجميل صورها بين الناس بإقلاعه عن هذه الآفة وإصراره على عدم الرجوع إليها ، وإن قطع وحرق بالنار .

٤ ـ أن ينقلب المرء عن مصاحبة أهل السوء إلى مصاحبة أهل الطاعة والإحسان :

ذلك أن شخصية المرء لا يكتمل بناؤها إلا من خلال الأصحاب ، غاية ما فى الأمر أن البناء يكون هشًا لا أساس له إن كان هؤلاء الأصحاب أهل شر وسوء ، ويكون قويا متينًا راسخًا إن كانوا أهل بر وإحسان ، وما من شك فى أن أصدقاء السوء هم الذين يعملون بطريق أو بأخرى كما قدمنا على جر المرء أن للوقوع فى غائلة هذه الآفة .

والعلاج الانقلاب من صحبة هؤلاء السيئين الأشرار إلى صحبة الطيبين الأخيار ، وينبغى أن يتعاون الطيبون الأخيار في كل حى، وأن يجعلوا من أنفسهم سفينة الإنقاذ لمثل هؤلاء .

٥ ـ أن يداوى المرء قلبه مما نزل به من علل وأمراض :

ذلك أننا قدمنا أن مرض القلب كان من بين أسباب الوقوع فى هذه الآفة ، ولا يمرض القلب إلا بالمعاصى والسيئات، والعلاج أن يقلع المرء عن المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، إن هذا الإقلاع لا محالة سيؤدى إلى صقل القلب وشفائه، فلا يقبل القلب وهو ملك الجوارح أن تتبع هذه الجوارح عورات الناس وخفاياهم.

وقد ذكر النبى ﷺ الصورة التى يكون عليها القلب عندما يخطئ العبد ،

والصورة التى يكون عليها عندما يقلع عن هذا الخطأ فقال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذى ذكر الله ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] »[1] .

٦ ـ أن ينأى المرء بنفسه عن مواطن التهمة والريبة :

ذلك أن المرء إذا رغب فى الحفاظ على عوراته وعدم تتبعها، من قبل الآخرين، فإن عليه أن يتخذ خطوة إيجابية تتمثل فى أن ينأى بنفسه عن مواطن التهمة والريبة ، بحيث يغلق باب الظن السيئ ومن ثم التجسس وتتبع العورات، وهذا يتلقى حين تكون السلوكيات محسوبة .

٧ ـ أن يكون المرء يقظًا واعيًا بحيث لا يقع فريسة فى أيدى أصحاب الأهواء :

ذلك أن أصحاب الأهواء لا يكفون عن البحث عن الأغرار الغافلين لتوظيفهم فى التجسس وتتبع العورات وعلى المرء أن يكون يقظًا واعيًا مقدراً : أن هؤلاء لن ينفعوه ولن يغنوا عنه من الله ـ عز وجل ـ شيئًا كما أنهم سيحصلون على حاجتهم منه ويلقونه بعد ذلك على قارعة الطريق لا حول له، ولا قوة بعد أن تكون قد حقَّت عليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، وربما قتلوه، وتخلصوا منه بالمرة، فيكون قد خسر الحياتين جميعًا : الدنيا، والآخرة، وذلك هو الخسران المبين .

٨ ـ أن يملأ المرء أوقاته بالنافع المفيد :

ذلك أن وقت الإنسان قد يكون دماراً أو عماراً ، فإذا ملأه بسفاسف الأمور ، وتوافهها كان دماراً وهلاكًا، وإذا ملأه بالنافع المفيد كان عماراً ، ونجاة، وعليه فالعاقل هو الذى يجتهد أن يصنع لنفسه برنامج عمل يومى بما لا يتعارض مع الكتاب والسنة بحيث لا تبقى لديه لحظة تستغل من قبل الشياطين الجنية والإنسية فى البحث عن خفايا الناس وكشف ما ستره الله .

٩ ـ أن يقوم المجتمع بواجبه فى مقاومة تتبع العورات :

ذلك أن الشرع الحنيف جعل المجتمع أداة فاعلة فى سيادة الفضيلة وقتل الرذيلة حين كلفه بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر مستخدمًا فى ذلك أساليب شتى من

---

[1] الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة ويل للمطففين ص ٧٦١ رقم ٣٣٣٤ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا به وعقب بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

الطلب المباشر وغير المباشر فقال سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقال ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

وعليه فإن على المجتمع أن يقوم بواجبه فى مقاومة التجسس على الناس وتتبع عوراتهم بكل ما منحه الشرع الحنيف من أساليب ووسائل، وأقل ذلك الإنكار القلبى المتمثل فى مقاطعة هذا الصنف من الناس بحيث تتعطل مصالحه وتنقطع به السبل أعتقد أن المجتمع لو قام بذلك بصدق وإخلاص وجد فإنه يحمل المتتبعين لعورات الناس أن يقلعوا ليعودوا عناصر مقبولة بين أبناء المجتمع .

١٠ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه فى مقاومة هذه الآفة :

ذلك أن ولى الأمر هو الحصن المنيع الذى يؤول إليه كل خائف ويلوذ به كل مظلوم، كما أنه السوط الموجع الذى يؤدب به كل خارج ويقوم به كل معوج حتى جاء: «إن الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن »(٢) .

وعليه فإن من واجبه أن يقوم بتقويم المتجسسين على أسرار الناس وخصوصياتهم بكل ما منحه الله من قوة وسلطان مرة بالترهيب، وأخرى بالترغيب، منفذًا ما يتوعد أو يعد به، ظنى أن ذلك لو قام به ولى الأمر صادقًا قلبه لا تأخذه فى الله لومة لائم فإنه سيحمل المتبعين للعورات أن يقلعوا لا محالة خوفًا من العقاب وطمعًا فى الثواب.

١١ ـ أن يتذكر المرء العواقب المترتبة على تتبع العورات :

ذلك أن الوقوف على عواقب الأمور، والأشياء سيحمل على اتخاذ موقف إقبال أو إدبار حسب نوعية هذه العواقب وقد قدمنا طائفة من العواقب الضارة والآثار المهلكة لتتبع العورات وحتى يسلم المرء من هذه العواقب وتلك الآثار فإن عليه أن يتذكرها على الدوام ويسأل نفسه .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان . . . ص ٤٢ رقم ٧٨/١٧٧/٤٩، والترمذى فى : السنن: كتاب الفتن : باب ما جاء فى تغيير المنكر . . . ص ٤٩٩ رقم ٢١٧٢ كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا به ، وعقَّب الترمذى بقوله : «هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الأثر سبق تخريجه .

أيسره أن تذهب هيبته، ويخسر ثقة الناس به ؟ أم يسره أن يتورط فى مزيد من المعاصى والسيئات؟ أم يسره حلول الغضب الإلهى به المتمثل فى فضيحة الدنيا والآخرة؟ أم يسره زرع الأحاقد والضغائن فى النفوس ؟ أم يسره اقتداء الآخرين به فيحمل وزراً على وزر ؟ أم تسره الفرقة والقطيعة بين الناس ؟ أم يسره الحرمان من العون الإلهى ، والتأييد الربانى ؟ أم يسره طول الطريق ، وكثرة التكاليف ؟

ظنى أن عاقلا لا يسره شىء من ذلك بحال من الأحوال .

١٢ ـ أن يتذكر المرء عواقب الجواسيس والمتتبعين للعورات :

ذلك أن السعيد من وعظ لغيره، ومن ذلك دوام النظر فى حال المتتبعين العورات إذ حالهم ناطقة أنهم تفانوا فى خدمة سادتهم ثم طرحوا فى المزابل وعلى قارعة الطريق ، وما جنوا سوى غضب الله ورسوله، ولعنة الملائكة والناس أجمعين، إن هذا التذكر قد يحرك القلب النائم فيستيقظ والغافل فيتنبه ومن ثم يكون الإقلاع، وتكون التوبة .

الآفة التاسعة والثلاثون
الاحتقار

والآفة التاسعة والثلاثون التى ليست أقل خطراً من سابقتها إنما هى: « الاحتقار ». وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها، ويحترز منها من سلمه الله عز وجل منها، فإنه لابد من تصور دقيق لأبعاد ومعالم هذه الآفة، وذلك من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : ماهية الاحتقار لغة واصطلاحًا :

لغة : الاحتقار : لغة :

١ ـ الاستصغار تقول : تحاقر : تصاغر وتحاقرت إليه نسبه : تصاغرت[(١)] ومنه قوله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ... الحديث »[(٢)] يريد : صغائر الذنوب ولا تعارض بين هذه المعانى إذ الاحتقار هو الاستصغار المؤدى إلى الإذلال والإهانة مطلقًا أعم من أن تكون مع المبالغة أو بلا مبالغة .

٢ ـ الإذلال ، والاستهانة يقال : حقر الشيء حقراً ، وحقرة ، وحقارة أذلة ، واستهان به ، وفلان : حقير أى : ذليل وهين .

٣ ـ المبالغة فى الاحتقار : تقول حقرة : بالغ فى حقره .

اصطلاحًا : أما الاحتقار اصطلاحًا هو : استصغار شخص ما أو طائفة لشخص آخر أو لطائفة أخرى فى نفسه، أو فيما يصدر عنه بصورة تؤدى إلى الإذلال والإهانة مع المبالغة أو بلا مبالغة .

الجانب الثانى : سمات الاحتقار مع بيان موقف الإسلام منه والدليل :

للاحتقار سمات تدل عليه منها :

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ١/١٨٧، الصحاح فى اللغة والعلوم للمرعشليين ص ٢١٧ بتصرف .

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ١/٤٠٢، ٤٠٣ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ وتمامه : « فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً ، أجّجوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها » .

١ ـ مقاطعة الكلام ومصادرته، وإظهار معايبه .

٢ ـ محاكاة السلوك القولي ، والفعلي .

٣ ـ السب ، والشتم ، والإهانة .

٤ ـ الإبعاد من الصدارة ، والزيادة .

٥ ـ الترفع عن مشاركة المحتقر الحديث .

إلى غير ذلك من السمات .

ويقف الإسلام من الاحتقار موقف الرفض ، بل والتحريم إذ يقول ﷺ : « . . . المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا » ويشير إلى صدره ثلاث مرات : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه »[1] .

وقال أبو جُرَي جابر بن سليم : رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئًا إلا صدودًا عنه، قلت : من هذا ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ قلت : عليك السلام يا رسول الله : مرتين، قال : « لا تقل : عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الميت، قل : السلام عليك » .

قال : قلت : أنت رسول الله ﷺ ؟ قال : « أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشف عنك وإن أصابك عام سَنَة، فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء، أو فلاة فضلَّت راحلتك فدعوته ردَّها عليك » قلت : اعهد إليَّ قال : « لا تَسُبَّنَّ أحدًا » قال : فما سببت بعده حرًا ولا عبدًا، ولا بعيرًا، ولا شاة . قال : « لا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلِّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرءٌ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم . . . ص ١١٢٤ رقم ٣٢/٢٥٦٤/٦٥٤١، والترمذي في: السنن : كتاب البر والصلة ص ٤٤٩ رقم ٦٩٢٧، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب البغي ص ٦١٣ رقم ٤٢١٣ كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا ، وأحمد في : المسند ٣/ ٤٩١ من حديث واثلة بني الأسقع ﷺ مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في : السنن : كتاب اللباس : باب ما جاء في إسبال الإزار رقم ٤٠٤٨، وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٧٦٩،وقال: «صحيح» والترمذي في: السنن: كتاب الاستئذان : باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئًا ص ٦١٧ رقم ٢٧٢٢ كلاهما من حديث جابر بن سليم ﷺ مرفوعًا، وعقب الترمذي على حديثه بقوله: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال ﷺ : « يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارة لجارتها، ولو فرسن شاة » [(١)] .

وقال ﷺ : « إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير الحق » [(٢)] .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

ومن قبل قال الله ـ عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ [الحجرات] .

وقال سبحانه ـ حكاية عن رد الملأ على نوح عليه السلام إذ قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء] .

ورد نوح عليه السلام عليهم بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠)﴾

[هود]

الجانب الثالث : آثار الاحتقار ، وعواقبه :

أ ـ على العاملين :

هناك آثار سيئة للاحتقار، وعواقب وخيمة، على العاملين نذكر منها :

١ ـ الغضب والسخط الإلهى :

ذلك أن الله جعل رحمته فى صحبة الضعفاء ومجالستهم ، إذ يقول سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] .

فإذا ما نظر إلى هؤلاء نظرة احتقار، وانتقاص وإهانة كان العقاب الإلهى المتمثل فى غضبه، وسخطه سبحانه . إذ يقول أبو هبيرة عائذ بن عمرو المزنى ـ وهو من أهل

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب لا تحقرن جارة لجارتها ص ١٠٥٢ رقم ٦٠١٧ وكتاب الهبة : باب فضل الهبة ص ٤١٥ رقم ٢٥٦٦ ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب الحث على الصدقة، ولو بالقليل ص ٤١٥ رقم ٩٠/ ١٠٣٠/ ٢٣٧٩ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ص ٦٨٨ رقم ٤٨٧٦ وذكره الألبانى فى : صحيح أبى داود ٣/ ٩٢٣ وقال : « صحيح » وأحمد فى : المسند ١/ ١٩٠ رقم ١٦٥١ كلاهما من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا وروى أبو داود : رقم ٤٨٧٧ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن من أكبر الكبائر استطالة المرء فى عرض رجل مسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسبة » .

بيعة الرضوان ـ رضي الله عنه : إن أبا سفيان أتى على سلمان، وصهيب، وبلال فى نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر رضي الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش، وسيدهم فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: « يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » فأتاهم فقال: يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخى [1] .

٢ ـ الحرمان من التأييد، والعون الإلهى :

ذلك أن الله يعطى نصره بسبب الصالحين ، والضعفاء ، وعليه قالوا بوجوب احترامهم ، وتوفيرهم ، لمكانتهم فى الأمة ، فإن قوبلوا بالاحتقار والحط من أقدارهم: سحب الله نصره وتأييده من أولئك الذين حطوا من أقدارهم واحتقروهم .

جاء فى بيان فضل الصالحين والضعفاء قول نوح عليه السلام ردًا على الملأ الذين احتقروا الضعفاء ، والفقراء ، طالبين منه طردهم : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [هود] .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «ابغونى الضعفاء، فإنما تنصرون، وترزقون بضعفائكم»[2] .

٣ ـ الاعتداء على حرمات المحتقر :

ذلك أن المحتقر ينظر إلى المحتقر على أنه ضعيف لا حول له ولا قوة وقد تحمله هذه النظرة على العدوان عليه فى حرماته من سفك دم وانتهاك عرض وسلب مال ونحو ذلك .

على نحو ما صنع ويصنع الكراء فى ظل عصر ، ومصر مع الضعفاء والفقراء .

٤ ـ ضياع رصيد المحتقر من الحسنات :

ذلك أن الاحتقار يكون سببًا فى تضييع رصيد المحتقر من الحسنات؛ لأنه يقضى عمره فى سبِّ الآخرين، وقذفهم، وسلب أموالهم، وسفك دمائهم وكل ذلك على حساب رصيده من الحسنات .

---

(١) الحديث اخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل سلمان، وبلال، وصهيب رضي الله عنهم ص ١١٠٢ رقم ٢٥٠٤/١٧٠/ ٦٤١٢ من حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة ص ٣٧٥ رقم ٢٥٩٤ من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما المفلس؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ، ولا متاع فقال : « إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه : أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » (1) .

٥ ـ تسليط الجبارين على المحتقرين :

ذلك أنه مضت سنة الحق سبحانه أنه كما يدين المرء يدان وعليه فإن المحتقرين للضعفاء والفقراء يبتليهم الله بمن هو أقوى منهم يستذلونهم ويسومونهم العذاب من باب : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشوره : ٤٠] . ومن باب : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الانعام] .

٦ ـ كراهية الناس للمحتقرين والابتعاد عنهم :

ذلك أن الناس يحبون من يحنو عليهم ، ويعرف قدرهم ، ويقترب منهم ، وعلى العكس يبغضون من يقسو عليهم ، ويهنهم ويبتعدون عنه وعليه فإن من كانت مسيرته في الحياة احتقار الآخرين، والعدوان عليهم، فإن الناس يبغضونه، وينفضون عنه لا سيما في ساعات الشدائد والمحن، فيندم، ولا ينفع الندم، ويتحسر ولا تفيد الحسرة.

٧ ـ تعريض النفس لدعوات المحتقرين المقهورين :

ذلك أن المحتقرين المقهورين لا يجدون ملاذًا ولا مأوى إلا الله، فتراهم بالليل والنهار يستغيثون الله، ويستصرخونه الانتقام ممن احتقروهم وآذوهم، وهؤلاء لكونهم مظلومين، منقطعين يجيب الله دعاءهم، لحديث : « ... وإياك ودعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (2) .

---

(1) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب البر ، والصلة : باب تحريم الظلم ص ١١٢٩ ، ١١٣٠ رقم ٥٩/ ٢٥٨١ / ٦٥٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(2) الحديث جزء من حديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب وجوب الزكاة ص ٢٢٤، ٢٢٥ رقم ١٣٩٥، وباب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ص ٢٤٣ رقم ١٤٩٦، وباب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ص ٢٣٦ رقم ١٤٥٨، وكتاب المظالم : باب الاتقاء ، والحذر من دعوة المظلوم ص ٣٩٥ رقم ٢٤٤٨، وكتاب المغازى : باب بعث أبي موسى ، ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ص ٧٣٦، رقم ٤٣٣٧، وكتاب التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ص ١٢٦٨ رقم ٧٣٧١، ٧٣٧٢، ومسلم في: الصحيح: كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ص ٣١ رقم ٢٩ / ١٩ / ١٢١ ، وأبو داود في : السنن : =

وحديث : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتى وجلالى لأنصرنك، ولو بعد حين » (1) .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وكما أن للاحتقار آثاراً على العاملين فإن له آثاراً على العمل الإسلامى منها .

١ ـ الحرمان من كسب الأنصار :

ذلك أنه مضى معنا الآثار التى يتركها الاحتقار على العاملين وتكون العاقبة الحرمان من العون والتأييد الأخوى وكما قيل : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه .

٢ ـ الفرقة والقطيعة :

ذلك أن عملا يقوم على احتقار أبنائه بعضهم بعضًا، فماذا يرجى منه أو ينتظر سوى الفرقة والقطيعة الأمر الذى يمكن الأعداء من رقاب المسلمين ويكون ما لا تحمد عقباه :

٣ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

ذلك أنه إذا تمكن الأعداء من رقاب الأمة، واستنزفوا خيراتها وثرواتها، وفكر الناس فى التحرير، وخلع ربقة الأعداء، فإن الأمر يتطلب منهم كثرة تكاليف وتضحيات ويطول الطريق إلا أن تدرك الناس رحمة الله .

الجانب الرابع : الأسباب المؤدية إلى الاحتقار :

هناك أسباب كثيرة تؤدى إلى الاحتقار نذكر منها :

١ ـ احتقار الأسرة الآخرين :

قد ينشأ المرء فى أسرة شأنها احتقار الآخرين والنيل منهم ويشاهد هذا فيها على الدوام، وتكون العاقبة سريان هذا الداء إليه من حيث لا يدرى، ولا يشعر لا سيما وأنه تأثير السلوك أوقع وأفعل فى النفس من تأثير القول .

= كتاب الزكاة: باب ما جاء فى كراهية أخذ خيار المال فى الصدقة ص ١٦١ رقم ٦٢٥، وكتاب البر والصلة باب ما جاء فى دعوة المظلوم ص ٤٦٤ رقم ٢٠١٤، والنسائى فى السنن، كتاب الزكاة : باب وجوب الزكاة ص ٣٣٥ رقم ٢٤٣٧ (المجتبى) وباب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد ص ٢٥٤ رقم ١٧٨٣، وأحمد فى : المسند ١/ ٢٣٣ كلهم من حديث عبد الله بن عباس ﷺ مرفوعًا .

(1) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الصيام : باب فى الصائم لا ترد دعوته ص ٢٤٩ رقم ١٧٥٢ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

٢ ـ احتقار الأصدقاء الآخرين :

كما قد يعيش المرء فى جو من الصداقة شأنه احتقار الآخرين والاعتداء على حرماتهم، ويأخذ فى الاقتداء بهم : أو على الأقل محاكاتهم والتشبه بهم ، لا سيما إذا كان فى أول نشأتهم أو ليست لديه الحصانة الكافية حتى يصبح الاحتقار للآخرين خلقًا من أخلاقه .

٣ ـ الرغبة فى الثأر ، والانتقام :

كذلك الرغبة فى الثأر والانتقام، قد تكون السبب فى الاحتقار ذلك أن المرء قد يعامل من الآخرين : بيتًا، مدرسة، مجتمعًا باحتقار، وعدوان بين، ويتولد من نفسه الحقد حتى إذا أتيحت له الفرصة كان الثأر والانتقام كمظهر من مظاهر الاحتقار.

٤ ـ الوقوف عند النعمة ونسيان المنعم :

إذ قد يخص الله عز وجل بعض الناس بنعمة أو أكثر من مال أو أهل أو ولد أو وجاهة، أو رياسة، أو علم أو قبول وإلف، أو قدرة على التأثير، أو نحو ذلك، فى الوقت الذى يقف فيه عند هذه النعمة أو تلك النعم، وينسى المنعم، وتكون النتيجة احتقار الآخرين، والنيل منهم .

٥ ـ الجهل بميزان التفاضل فى هذا الدين :

ذلك أن ميزان التفاضل فى هذا الدين ليس بمال، والأهل والولد ونحوها إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، أو التقوى كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبأ] ، وكما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ومن يجهل هذا الميزان يقع لا محالة فى آفة احتقار الآخرين والنيل منهم ، والعدوان عليهم .

٦ ـ عدم عناية المرء بمظهره :

ذلك أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده من باب : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ [الضحى] سواء فى الملبس، أو المركب ، أو المسكن ، أو نحوها .

والذى يجتهد فى إخفاء النعمة، ويظهر بمظهر غير لائق به إنما يفتح الباب أمام الآخرين لاحتقاره، والنيل منه، والعدوان عليه وربما على أهله وذويه، فتكون (على نفسها جنت براقش) (١) .

٧ ـ عدم قيام المجتمع بواجبه نحو من يحتقرون الآخرين :

ذلك أن واجب المجتمع حماية الفضيلة، ومحاربة الرذيلة بكل الأساليب والوسائل الممكنة على ألا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، ومن ذلك مقاومة احتقار الناس بعضهم بعضًا، وإذا لم يقم المجتمع بواجبه فى مقاومة داء الاحتقار والقضاء عليه، فإنه يتفشى وينتشر فى كل نواحى المجتمع وسائر جوانب الحياة .

ويكون ما لا تحمد عقباه مما سبق ذكره فى الآثار ، والعواقب .

٨ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه فى القضاء على الاحتقار :

ذلك أن واجب ولى الأمر فى الأمة : حفظ الأمن والنظام، وضبط كل شؤون الحياة، ومن ذلك مقاومة الاحتقار ، والقضاء عليه بكل ما منحه الله من أساليب القوة ووسائل المواجهة وحين يهمل فى القيام بذلك يتفشى الاحتقار وينتشر ويسرى فى المعمورة سريان النار فى الهشيم .

٩ ـ نسيان الآثار والعواقب المترتبة على الاحتقار :

قد يكون نسيان الآثار والعواقب المترتبة على الاحتقار من بين أسباب الوقوع فى الاحتقار؛ إذ من المعلوم أن نسيان الآثار والعواقب المترتبة على أمر ما قد تقود لا محالة إلى الوقوع فيه سيما إذا كانت النفس تميل إلى ذلك أو تهواه .

١٠ ـ عدم مراقبة الله والغفلة عن اليوم الآخر :

ذلك أنه عدم مراقبة الله والغفلة عن اليوم الآخر ، وما قد يكون فيه من شدائد وأهوال قد تقود جميعًا إلى احتقار الآخرين والنيل منهم، والعدوان عليهم إلى غير ذلك من الأسباب .

الجانب الخامس : علاج الاحتقار والوقاية من هذه الآفة :

إذا كان هذا شأن الاحتقار ماهية ومضمونًا وحكمًا وآثارًا وأسبابًا فما طريق العلاج بل الوقاية والاحتراز ويمكن إجمال ذلك فى هذه الخطوات :

---

(١) هو مثل مشهور يضرب لمن يجلب الشر إلى نفسه بيديه وهو لا يدرى ولا يشعر .

١ ـ أن يقوى المرء فى نفسه ملكة المراقبة لله عز وجل :

ذلك إنه إذا قويت مراقبة العبد لربه من أنه سبحانه يسمع ويرى ويعلم كل شيء وكان مبتلى بآفة احتقار عباد الله، والنيل منهم فإنه يقلع عن ذلك استحياءً من ذى الجلال والإكرام .

أما إذا كان سالمًا من هذه الآفة فإنه يتفقد نفسه، ويحرص كل الحرص ألا تتسرب إليه، أو تسيطر عليه، وسبق بيان طريق تقوية هذه الملكة .

٢ ـ أن يستحضر المرء الوقوف بين يدى الله عز وجل غداً :

ذلك أن المرء حين يستحضر ساعة الوقوف بين يدى الله سبحانه وأنه سيسأله عن كل شيء ومن ذلك احتقار عباد الله والنيل منهم، والعدوان عليهم ثم بعد ذلك يكون القصاص وربما التعذيب بالنار وبئس المصير، حين يستحضر ذلك فإنه يبادر بتطهير نفسه من آفة الاحتقار هذه بل يعمل ألا يبتلى بها مرة أخرى، وقايةً لنفسه من هذا الموقف الأليم، وما سيكون بعده من شدائد ، وأهوال .

٣ ـ أن تعيد الأسرة النظر فى سلوكياتها :

ذلك أن الأسرة إذا أعادت النظر في سلوكياتها : أقوالا وأفعالا وأقلعت عن احتقار الآخرين ، والنيل منهم، واعتذرت لأبنائها عما كان منها فى الماضى وبصرت بضرورة تقدير الناس واحترامهم، وكف الأذى عنهم ، إذا فعلت فإن له أعظم الأثر فى التخلى عن الاحتقار، وتحصين النفس ضده .

٤ ـ أن ينزع المرء نفسه من الصداقات الضارة، ويرتمى فى محضن الصداقات النافعة :

ذلك أن المرء إذا انتزع نفسه من الصداقات الضارة وحرص على الارتماء فى محضن الصداقات النافعة، فإن ذلك يفتح له نافذة : أن يقلع عن احتقار الآخرين بل والوقاية من العودة إلى ذلك مرة أخرى ، حيث وجد على الخير أعوانًا بعد أن كان يجد على الشر أعوانًا .

٥ ـ أن يجاهد المرء نفسه على ترك الحقد المتمثل فى حب الثأر والانتقام :

ذلك أن المرء إذا أراد التخلص من احتقار الآخرين والنيل منهم فإن عليه أن ينسى إيذاء الآخرين له بالاحتقار المتمثل فى العدوان عليه إذ هذا ذنب الذين آذوه لا ذنب من يفكر هو فى إيذائهم وليتذكر أجر الصفح، والعفو ، بل الإحسان ، انطلاقًا من قوله

سبحانه : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] . وقوله سبحانه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الاعراف] . ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وليتذكر موقف يوسف من إخوته وقد آذوه في صور شتى وكذلك آذوا أخاه بنيامين ، وقابل ذلك بالعفو قائلاً : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف] .

كما يتذكر موقف النبى ﷺ من أعدائه، وقد عاملهم بالعفو، والصفح، فانقلبوا محبين له بعد أن كانوا مبغضين .

٦ ـ أن يكثر المرء من ذكر المنعم عند ذكر النعمة :

ذلك أن النعمة التى يتمرغ العبد فيها ليل نهار لم تأته من تلقاء نفسها، وإنما كانت فضلاً من الله عز وجل والواجب حينئذ عبادته لا عبادة النعمة ويوم يصل المرء إلى هذا المستوى فإنه سيقلع عن احتقار الآخرين بالنيل منهم، والعدوان عليهم، من باب التوبة عما وقع منه فى الماضى، والعزم الأكيد ألا يعود إلى هذا الاحتقار مرة أخرى وإن قطع وحرِّق بالنار، على أن هذا المحتقر للآخرين بسبب تفرده بنعمة ما ينبغى ألا ينسى : أن لدى الآخرين نعمًا مفردة ليست لديه وما كان عطاء ربك محظوراً .

٧ ـ أن يدرك المرء حقيقة ميزان التفاضل فى هذا الدين :

ذلك أن ميزان التفاضل فى هذا الدين إنما هو بالإيمان والعمل الصالح (التقوى) لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧] .

وذكر النبى ﷺ صوراً عملية لهذا الميزان، جاء عن سهل قال : مَرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال : « ما تقولون فى هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يستمع قال : ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين فقال: « ما تقولون فى هذا ؟ » قالوا : حرى إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع، فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب النكاح : باب الأكفاء فى الدين ص ٩١٠، ٩١١ رقم ٥٠٩١ وكتاب الرقاق : باب فضل الفقر ص ١١٩ رقم ٦٤٤٧ وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب فضل الفقر ص ٦١٠ رقم ٤١٢٠ كلاهما من حديث سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

وجاء عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ... وبينا صبى يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا، فترك الثدى وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال : لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديه، فجلع يرتضع » قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها . قال : « ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت وهى تقول حسبى الله، ونعم الوكيل فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فترك الرضاع ونظر إليها، فقال : اللهم اجعلنى مثلها فهناك تراجعا الحديث فقالت : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت ، سرقت فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلت : اللهم اجعلنى مثلها، قال : إن ذاك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله، وإن هذه يقولون لها : زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق فقلت : اللهم اجعلنى مثلها » (١) .

وجاءت تطبيقات الصحابة لتؤكد هذا الميزان :

فبلال العبد كان يوصف بالسيد بين الصحابة .

هذا عمر يذكر فضل أبى بكر، ومناقبه ومنها قوله : « وهذا سيدنا بلال حسنة من حسناته » (٢) .

وأقبل بلال، وأخوه فى الإسلام أبو رويحة إلى قوم من خولان فقالوا : « إنا قد أتيناكم خاطبين، وقد كنا كافرين، فهدانا الله، ومملوكين فأعتقنا الله، وفقيرين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله فزوجوهما»(٣) .

وهذا أسامة بن زيد المولى ابن المولى يفرض له عمر ثلاثة آلاف وخمسمائة، ويفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف، فقال عبد الله : لم فضلته علىَّ فوالله ما سبقنى إلى مشهد؟ قال : لأن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وهو أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبى » (٤) .

وكان عمر ﷺ : لا يلقى أسامة قط إلا قال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، توفى رسول الله ﷺ وأنت علىَّ أمير » (٥) .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة: باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، وغيرها ص ١١١٨، ١١١٩ رقم ٦٥٠٩/٨ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢، ٣) انظر : نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء لمحمد بن حسن ٦٤/١ .

(٤، ٥) انظر : نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ١/١٨٤، ١٨٥ .

إن إدراك المرء لحقيقة هذا الميزان سيحمله إن كان جاداً على الانسلاخ من احتقار الآخرين وإهانتهم بل وحرصه على طهارة نفسه طهارة كاملة .

٨ ـ أن يهتم المرء بحسن مظهره :

ذلك أن المرء حين يهتم ويعنى بمظهره، فإنه يغلق الباب أمام احتقار الآخرين له، إذ هذا يعنى أنه يعتز بنفسه مبرزاً نعمة الله تعالى عليه، وأنه لا يقبل الضيم والإهانة حينئذ يهابه الآخرون ويعرفون له قدره ومكانته .

٩ ـ أن يقوم المجتمع بواجبه نحو مَن يحتقرون الآخرين :

ذلك أن المجتمع إذا قام بواجبه نحو من يحتقرون الآخرين، بكل الأساليب والوسائل التى لا تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف، وأقلُّ ذلك الإنكار القلبى المتمثل فى قية هؤلاء ومحاصرتهم بحيث يشعرون أنهم غرباء، وأن مصالحهم أصبحت معطلة إن ذلك لو وقع من المجتمع سيكون من أنجح الطرق التى تحمل على التحرر من احتقار الآخرين ، بل والعمل على تحصين النفس من دخول الاحتقار إليها مرة أخرى .

١٠ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه نحو من يحتقرون الآخرين :

أجل لو أن ولى الأمر قام بواجبه نحو من يحتقرون الآخرين، مرة باللين ومرة بالشدة، مرة بالترغيب ومرة بالترهيب ولولىّ الأمر من الهبة والاحترام ما ليس لغيره إنه لو قام بذلك لعمل بسرعة على معالجة الاحتقار والحصانة ضده . وما أجمل لو كان ذلك مصحوبًا بالإخلاص لله، واتباع السنة إن الله حينئذ سيبارك العمل ويمنح النصر والتأييد .

١١ ـ أن يتذكر المرء على الدوام عواقب الاحتقار :

ذلك أن هذا التذكر سيحمل العاقل على ترك الاحتقار، وحماية النفس من أن يقتحمها مرة أخرى لا سيما وأن هذه العواقب تشمل الدنيا والآخرة وتتناول الفرد والجماعة جميعًا .

الآفة الأربعون
الشماتة

والآفة الأربعون التي يبتلى بها نفر من العاملين، وتكاد تعصف بالوحدة التي هي أساس التمكين لمنهج الله في الأرض إنما هي : « الشماتة » وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها ويتوقاها من سلمه الله عز وجل منها فإنه لابد من الوقوف على أبعادها ومعالمها من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : تعريف الشماتة لغة واصطلاحًا :

لغة : الشماتة في اللغة هي :

١ ـ الفرح ببلية أو مصيبة العدو، تقول : شمت به، أو بعدوه شماتة : فرح بمكروه أصابه ، أو ببلية العدوّ . ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

٢ ـ سوء الحال التي تحمل على الشماتة تقول : وقع في الشماتة، وبات طوع الشوامت : باءت حاله بحيث يشمت به .

٣ ـ الخيبة تقول : شمته الله : خيبه . ويقال : خرج القوم في غزاة، فقفلوا : شماتى، ومتشمتين: رجعوا خائبين فلم يغنموا [١] ولا تعارض بين هذه المعاني جميعًا، إذ هي الفرح ببلية العدو ومصيبة من خيبة، وهزيمة، وفاجعة ونحوها .

اصطلاحًا : ذكر العلماء تعاريف عدة للشماتة اصطلاحًا نذكر منها :

١ ـ تعريف الراغب الأصفهاني ، إذ قال : « الشماتة : الفرح بمن تعاديه ، ويعاديك » [٢] .

---

(١) انظر : المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٧٣، ومعجم مقاييس اللغة ٣/ ٢١٠، والصحاح في اللغة والعلوم ٣/ ٢١٠، لسان العرب ٢/ ٥١، ٥٢ المعجم الوسيط ١/ ٤٩٢، ٤٩٣، الصحاح في اللغة والعلوم ص ٥٦٨، ٥٦٩ بتصرف كثير .

(٢) انظر : المفردات ص ٢٧٣ .

٢ ـ تعريف القرطبى : « الشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب فى الدين والدنيا » [١] .

٣ ـ تعريف المناوى : « الشماتة : الفرح بمصيبة العدو » [٢] .

٤ ـ تعريف الكفوى : « الشماتة : السرور بمكاره الأعداء » [٣] .

٥ ـ تعريف ابن مفلح : « الشماتة هى الفرح ببلية العدو » [٤] .

ورأيى : أن الاختلاف بين هذه التعريفات إنما هو فى الألفاظ فقط أما المؤدَّى فواحد غير أن تعريف القرطبى أكثر بسطًا ، ووضعًا للنقاط على الحروف حيث يوضح أن المصيبة التى يفرح بها تشمل الدين والدنيا معًا .

الجانب الثانى : مظاهر الشماتة، وحكمها، ودليل هذا الحكم :

للشماتة مظاهر تدل عليها نذكر منها :

١ ـ التبريكات ، والنهائى التى غالبًا ما تكون مصحوبة بالولائم ونحوها .

٢ ـ التعريض ، والتلويح والكناية التى غالبًا ما تصحبها النكات .

٣ ـ محاكاة مصائب العدو وبلاياه عن طريق التمثيليات ، والمسرحيات ، والمسلسلات، والكاريكاتير، ونحوها .

والشماتة فى الجملة حرام، لقوله ﷺ : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك » [٥] . وقوله ﷺ : « من عيَّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله » [٦] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٩١ .

(٢) انظر : التوقيف ص ٢٠٨ .

(٣) انظر : الكليات ص ٥٠٨ .

(٤) انظر : الآداب الشرعية ١/ ٤٠٨ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب لا تظهر الشماتة ص ٥٧٠ رقم ٢٥٠٦ من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب » وأورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣/ ٣١٠ عازيًا إياه إلى الترمذى ، ووافق على تحسينه .

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب فى وعيد من عيَّر أخاه بذنب ص ٥٦٩ رقم ٢٥٠٥ من حديث معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا . وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل » وقال عنه محقق الآداب الشرعية ١/ ٤١٢ : « وإسناده منقطع ، وضعيف » .

وكان ﷺ : يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء [(١)] .

وطلب هارون من أخيه موسى لما أخذ برأسه حين رجع فوجد قومه قد عبدوا العجل من دون الله، ألا يشمت به الأعداء، فقال : ﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) ﴾ [الأعراف] .

بيد أن الفرح بنزول المصيبة أو البلية بالعدو المحارب لدين الله المذل لعباده جائز ، من قبيل شفاء صدور قوم مؤمنين ، وذهاب غيظ قلوبهم فقد قال الله عز وجل : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الروم] .

يقول ابن عطية : « وروى فى قصص هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره :

أن الكفار لما فرحوا بمكة بغَلَبِ الروم بشر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بأن الروم سيغلبون فى بضع سنين أى من الثلاثة إلى التسعة فلما بشرهم بذلك خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد فقال لهم: « أسركم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون فى بضع سنين» وقال له أبيّ بن خلف وأمية أخوه وقيل: أبو سفيان ابن حرب فقال : يا أبا فصيل يعرضون بكنيته بالبكر فلنتناحب أى : نتراهن فى ذلك فراهنهم أبو بكر قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار وجعل الرهان خمس قلائص والأجل : ثلاث سنين فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال له : إن البضع إلى التسع ، ولكن ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل، ففعل أبو بكر رضي الله عنه فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام، فغلبت الروم فى أثناء الأجل فروى عن أبى سعيد الخدرى أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، وروى أن ذلك كان يوم الحديبية، وأن

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب التعوذ من جهد البلاء ص ١١٠٣ رقم ٦٣٤٧ وكتاب القدر : باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء ص ١١٤٤ رقم ٦٦١٦ ومسلم فى : الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : باب فى التعوذ من سوء القضاء، ودرك الشقاء وغيره ص ١١٧٧ رقم ٢٧٠٧/٥٣/ ٦٨٧٧ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

الخبر بذلك وصل يوم بيعة الرضوان روى نحوه عن قتادة وفى كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين .

ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أن يوم غلبة الروم للفرس يُفرح المؤمنون بنصر الله . . . »[1] .

وفرح النبى ﷺ ومعه المؤمنون بنصر الله لهم يوم بدر ودحر المشركين وهزيمتهم كما فرحوا بالنصر فى سائر الغزوات لا سيما فى غزوة خيبر وفتح مكة؛ لأنه بسقوط خيبر آخر معقل لليهود فى الجزيرة العربية وفتح مكة استقر الإسلام فى الجزيرة وفتحت الطريق أمام دعوة الإسلام فى كل أنحاء الأرض خارج الجزيرة، وشمت المسلمون بالكافرين؛ لأنهم حادوا الله ورسوله، وظنوا أنه لا غالب لهم فكان عكس ما توقعوا : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف : ٢١] .

الجانب الثالث : آثار الشماتة ، وعواقبها :

أ ـ على العاملين :

للشماتة آثار سيئة ، وعواقب خطيرة على العاملين نذكر منها :

١ ـ تعميق العداوة والكراهية :

ذلك أن الشماتة إنما تنشأ من العدواة والكراهية، وحين تقع فإنها تعمق العداوة ، والكراهية لدى المشموت به، وتحمل على تمنى نزول الضر بالشامتين وأن يذوقوا من نفس الكأس الذى شربوا منه » .

٢ ـ تقطيع أواصر الأخوة :

ذلك أن حق الأخ على أخيه : أن يحبَّ له ما يحب لنفسه وأن يبغض له ما يبغض لنفسه إذ يقول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] .

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ١١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٨ باختصار كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ص ٥ رقم ١٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ص ٤١ رقم ٧١، ٧٢/ ١٧٠، ١٧١، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب حديث حنظلة ص ٥٧٢ رقم ٢٥١٥ كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ ، وبنحوه ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث صحيح » .

ومراعاة هذا الحق تقوى أواصر الأخوة، وتمتنها فإذا ما شمت الأخ : بأخيه لضر نزل به ، أو مصيبة : فقد أتى ما يؤدى إلى تقطيع أواصر الأخوة ، والقضاء عليها ، وهذا فيه من الخطر ما فيه .

٣ ـ تعريض النفس للانتقام الإلهى :

ذلك أن من عواقب الشماتة بالغير تعريض النفس للانتقام الإلهى؛ لأن الشماتة بالغير تعنى تزكية النفس والبناء عليها وأنها سالمة من الخطأ الذى كان سببًا فى نزول المصيبة بالمشموت به غالبًا ، وليس من حق المرء أن يزكى نفسه وأن يثنى عليها لقوله سبحانه : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] . وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء] .

وحين يزكى المرء نفسه ، ويثنى عليها : يكون العقاب ، والانتقام الإلهى تأكيداً لمبدأ : « كل ابن آدم خطاء . . » [(١)] .

وقد وقع ذلك فعلاً . إذ قال بعض السلف : « عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه فذهبت أسنانى ونظرت إلى امرأة لا تحل لى فنظرت زوجتى إلى من لا أريد » [(٢)] .

وقال ابن سيرين : « عيرت جلاً بالإفلاس ، فأفلست » [(٣)] .

٤ ـ خسارة احترام الناس وتقديرهم :

ذلك أن الأصل فى الإنسان أنه مخلوق على البراءة الأصلية وأنه محل ثقة الآخرين، واحترامهم فإذا ما ظهر منه الشماتة لما ينزل بالناس من محن وابتلاءات فإن الناس يغيرون نظرتهم إليه معتبرين أنه مريض نفسيًا لا يحب الخير للناس بل يفرح لأتراحهم ويأخذون فى سحب ثقتهم منه وتقديرهم إليه فيضيق الخناق حول عنقه وتتعطل مصالحه وتصير حياته جحيمًا لا يطاق .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب فى استعظام المؤمن ذنوبه ص ٥٦٨، ٥٦٩ رقم ٢٤٩٩ من حديث على بن مسعدة الباهلى عن قتادة عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا بلفظ : «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » وعقب عليه بقوله : « هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث علىّ بن مسعدة عن قتادة » وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب ذكر التوبة ص ٦١٩ رقم ٤٢٥١ من حديث أنس مرفوعًا ، وأورده الحافظ ابن حجر فى : فتح البارى ٣٤٦/٤ وعقب عليه بقوله : « سنده قوى » .

(٢، ٣) انظر : الآداب الشرعية لابن مفلح ٤١٣/١ .

٥ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أن الشامت بالآخرين قد أتى إثمًا يكون سببًا فى سواد جانب من القلب ويتابع الشماتة فيزيد السواد حتى يغطى القلب فذلك هو الران ويزيد أكثر وأكثر حتى يكون قفل القلب وختمه بخاتم ، وحينئذ يكون القلق والاضطراب النفسى وتشتت الذهن وضياع الذاكرة فى عقوبات أخرى نفسية لا يعلمها إلا الله عز وجل .

٦ ـ ضياع المهمات :

ذلك أن المشغول بالشماتة بالآخرين ينسى الأمور الأساسية والمهمة فى حياته؛ إذ لم يجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه فإذا اشتغل بعيوب غيره علاه العيب من كل ناحية ولم يعد لديه وقت لإصلاح عيبه، والمضى قدمًا إلى الأمام .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وكما أن للشماتة آثاراً سيئة : وعواقب خطيرة على العاملين فكذلك لها آثاراً سيئة، وعواقب خطيرة على العمل الإسلامى التى يمكن إجمالها فيما يلى :

١ ـ القطيعة والفرقة :

ذلك أن الآثار والعواقب التى مضى الحديث عنها بالنسبة للعاملين ستثمر لا محالة القطيعة والفرقة، التى هى أخطر ما يصيب العمل الإسلامى ، حيث تمكن الأعداء من رقاب المسلمين وتفتح أمامهم الباب للسيطرة على خيرات بلادهم ، وثرواتها والعمل على تغيير ثقافتهم وقيمهم وآدابهم .

٢ ـ طول الطريق ، وكثرة التكاليف :

ذلك أنه إذا صارت بلاد المسلمين تحت سيطرة أعدائهم فإن هزيمة هؤلاء الأعداء ، وإجلاءهم عن بلاد المسلمين تحتاج إلى زمن طويل مع كثرة التكاليف والتضحيات فى النفس وفى المال بحيث يرحل العدو ، وقد استنزف كل ما لدى المسلمين من خيرات وثروات وترك وراءه ذيولاً وأذنابًا يقومون بمهمته بعد رحيله فيصير غائبًا حاضراً .

الجانب الرابع : أسباب الوقوع فى الشماتة :

هناك أسباب توقع فى : الشماتة، وبواعث تؤدى إليها، نذكر منها :

١ ـ الأسرة :

ذلك أن الأسرة عليها معوَّل كبير فى تربية أبنائها بالقول والفعل على أن كل ما يقع

فى هذا الوجود إنما هو قضاء الله وقدره إذ يقول سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ [الحديد] .

وعليها أن تربيهم كذلك على أنه لا داعى للفرح لمصائب الناس وبلاياهم بل ينبغى المشاركة لهؤلاء وجدانيًا وسلوكيًا لتتآلف القلوب ، وتتجاذب النفوس ، ويكون تكاتف السواعد، وتشابك الأكف، وتتحقق الوحدة ويوم أن تهمل الأسرة القيام بهذا الدور فيكون سلوك الكبار فيها مبنيًا على الشماتة بالغير ولا تعلم أبناءها المعانى التى سبقت الإشارة إليها ، حينئذ تخرج للمجتمع أناسًا لا همَّ لهم إلا الشماتة بالغير .

٢ ـ الأصدقاء :

ذلك أن شخصية المرء إنما تتشكل من خلال أصدقائه فإن كانوا أخيارًا كانت الشخصية السوية وإن كانوا أشرارًا كانت الشخصية غير السوية وعليه فإذا ما صادق المرء أقوامًا شأنهم الشماتة بما ينزل بالآخرين من شدائد وامتحانات فإن ذلك ينعكس عليه لا سيما إذا كان عوده لم يزل غضًا ، طريًا ، ويصبح ضمن قافلة الباغين للبرءاء العنت ، والعثار للسليم، والشامتين فى عباد الله .

٣ ـ مقابلة السيئة بمثلها :

ذلك أن المرء قد يمتحن لسبب أو لآخر، ويرى الشامتين، وقد علتهم أمارات الشماتة، حيث زالت العداوة من بينهم وكثرت لقاءاتهم وكانت التهانى الواحدة تلو الأخرى، فيضمر ذلك فى نفسه حتى يأتى أمر الله، وينزل بهؤلاء الشامتين مثل ما نزل به أو أشد، فيشمت هو الآخر من باب مقابلة السيئة بمثلها .

إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] . ويقول : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] .

٤ ـ الاستذلال والقهر :

ذلك أن الناس فى هذه الأرض ما بين قوى وضعيف وقد تحمل إمكانات القوى أن يستذل ويقهر الضعفاء وتمضى سنة الله فيسلط الله على هذا القوى من هو أقوى منه فيستذله ويقهره كما استذل الآخرين وقهرهم .

٥ ـ عدم استنكار المجتمع على الشامتين صنيعهم :

ذلك أن المجتمع إذا لم يقم بواجبه نحو الشامتين فيستنكر قبيح صنيعهم هذا، ويعمل على ردعهم ، ولو بالإنكار القلبى المتمثل فى المحاصرة والمقاطعة وتعطيل

المصالح، إذا لم يقم المجتمع بذلك فإن الشامتين قد يظنون أن المجتمع مستحسن عملهم راضٍ عنهم فيتمادون أكثر وأكثر وتشيع الشماتة بين الناس .

٦ ـ عدم ردع ولى الأمر للشامتين :

ذلك أن الله أعطى ولى الأمر من السلطان ما يمكنه من ملاحقة الرذيلة ، والقضاء عليها، أو على الأقل محاصرتها فى دائرة ضيقة للغاية إذ بيده فوق الحدود والقصاص سلطان التعزير يصنع به ما يشاء بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف وحين لا يستخدم ولى الأمر سلطانه فى تقويم، وردع الشامتين فإن خطرهم يستشرى وتصبح الشماتة سمة غالبة فى المجتمع .

٧ ـ نسيان العواقب المترتبة على الشماتة :

ذلك أن المرء حين ينسى العواقب المترتبة على الشماتة الفردية والجماعية الدنيوية والأخروية ، فإنه يتورط لا محالة فى هذه الآفة ويبتلى بهذا الداء ويسعى بظلفه إلى حتفه .

٨ ـ إهمال النفس من المراقبة والمحاسبة والمتابعة :

ذلك أن كل إنسان مبتلى بنفسه الأمارة بالسوء وشيطان الجن القاعد له بكل طريق وكذلك شياطين الإنس أعوان شيطان الجن وكذلك الدنيا ببريقها وشدائدها وعليه أن يكون مستيقظًا منتبهًا على الدوام لهؤلاء الأعداء ويحزم أمره على المجاهدة ولئن ضعف واستسلم فعليه أن يعمل على تخليص نفسه ويصلح خطأه ثم يتابع أمره حتى يظل ماضيًا فى الطريق إلى نهايتها دون توان أو انحراف .

وحين يغفو الإنسان وتعتريه الغفلة فإن نفسه الأمارة بالسوء بإيعاز من الشياطين الجنية والإنسية وبإيعاز من الدنيا ستتورط فى كثير من الآفات ومنها آفة الشماتة .

ولعلنا بذلك نفهم السر الذى من أجله دعا رب العزة سبحانه عباده إلى تجديد محاسبة النفس المرة بعد المرة وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] .

الجانب الخامس : طريق علاج الشماتة ، والوقاية منها :

إن طريق علاج الشماتة والوقاية منها يمكن تلخيصها فى هذه الخطوات :

١ ـ أن تقوم الأسرة بواجبها التربوى :

ذلك أن الأسرة إذا قامت بواجبها التربوى من تطهير النفس من آفة الشماتة ،

فصارت أسوة كريمة وقدوة طيبة أمام المنتمين إليها، وعملت فى نفس الوقت على توجيه هؤلاء ، وإرشادهم إلى ضرورة التخلص من هذه الآفة، بل عملت على التوجيه إلى التسامح وشكر الله على العافية مما ابتلى به كثيراً من خلقه إذا قامت الأسرة بذلك فإن له دوراً كبيراً فى التخلص من الشماتة .

٢ ـ أن يحتوى أصدقاء الخير الشامتين :

إذ على من ابتلى بهذه الآفة أن ينتزع نفسه من أحضان أصدقاء السوء وأن يرمى بنفسه فى أحضان أصدقاء الخير وعلى أصدقاء الخير أن يكونوا محاضن فى كل حى بل فى كل شارع لاستيعاب واحتواء هذا الصنف وأن يعملوا بما لديهم من برامج ومناشط على استئصال داء الشماتة من نفس صاحبه وأن يغرسوا مكانه العفو والتسامح وشكر الله على السلامة والعافية إنهم حين يصنعون ذلك مع صدق، وإخلاص واتباع للسنة فإن الله يكلل عملهم بالنجاح ويتخلص كل شامت من دائه ويقيه الله الرجوع إليه مرة أخرى .

٣ ـ أن يرغب الشامتون فى رعاية حقوق الأخوة الإسلامية :

ذلك أن الأخوة الإسلامية لها حقوق تتمثل فى كف الأذى باللسان واليد لقوله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . . »[1] .

كما تتمثل فى كظم الغيظ بل العفو ، والصفح الجميل بل صنع المعروف المعبر عنه بالإحسان .

قال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وإذا كان الأمر كذلك، فالواجب ترغيب الشامتين فى رعاية هذه الحقوق ومنها أنه لا داعى للشماتة بالغير؛ لأن هذا هو الإيذاء الذى نهى عنه الشارع الحكيم ولا داعى كذلك للخصومة التى انتهت إلى هذه الشماتة، وأحسن من ذلك كظم الغيظ والعفو، والإحسان ليزيد رصيد الحسنات عند الله ويظل هذا الترغيب قائمًا المرة تلو المرة حتى تطهر النفوس من الشماتة ثم يغمس هذا الذى طهرت نفسه من الشماتة فى برامج نافعة ومتتابعة بحيث يحاط بسياج من الخير يحول بينه وبين العودة إلى هذه الآفة .

---

[1] الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وباب أى الإسلام أفضل ص ٥ رقم ١٠، ١١ وكتاب الرقاق : باب الانتهاء عن المعاصى ص ١١٢٤ رقم ٦٤٨٤، ومسلم فى الصحيح: كتاب الإيمان ١٦١ ـ ١٦٤، وأبو داود فى السنن: كتاب الجهد : باب فى الهجرة هل انقطعت ص ٣٥٩ رقم ٢٤٨١ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله وأبى موسى الأشعرى ﷺ مرفوعًا به ، وبنحوه .

٤ ـ أن ينبه الناس إلى الرفق فى المعاملة والعدل :

ذلك أن الإنسان لا يستغنى عن التعامل مع غيره حتى قال ابن خلدون « الإنسان مدنى بطبعه » وأحسن شىء يحبب الناس فى بعضهم البعض : الرفق فى المعاملة والعدل.

حتى قال الله عز وجل عن نبيه ﷺ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة] . وقال سبحانه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وعليه فينبغى أن ينبه الناس إلى الرفق فى المعاملة، والتزام العدل كيلا يفتحوا الباب أمام الشامتين، ويعمقوا الشماتة فى نفوسهم .

٥ ـ أن يواظب الشامتون على محاسبة أنفسهم :

ذلك أن محاسبة المرء نفسه على الدوام تكون سببًا فى تنقية نفسه من العيوب والآفات، وعليه فإن على الشامتين أن يواظبوا على محاسبة أنفسهم وأن يقتلعوا منها هذه الآفة، ثم يشترطون على أنفسهم عدم الرجوع إليها تحت أى من المؤثرات ويتابعونها لحظة بلحظة حتى تبرأ من علتها وتعود إليها العافية من جديد .

٦ ـ أن يقوم المجتمع بواجبه فى مقاومة الشامتين :

ذلك أن المجتمع إذا قام بواجبه فى مقاومة الشامتين بكل ما يستطيع من أساليب ووسائل فإنه قد يحمل هؤلاء الشامتين أن يقلعوا عن هذه الآفة لا سيما إذا وجدوا أنفسهم فى شبه عزلة تامة، وأن مصالحهم قد توقفت أو تعطلت وأن كل واحد فى المجتمع يمقت فعلهم هذا ولا يرضى عنه وهكذا يستطيع المجتمع أن يفعل الكثير والكثير.

٧ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه فى ردع الشامتين :

ذلك أنه إذا قام ولى الأمر بما منحه الله من إمكانات فى ردع الشامتين تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب : يمكن أن يحمل الشامتين على التخلص بما ابتلوا به من هذا الداء وهذه الآفة لا سيما إذا عرفوا أن ولى الأمر يمكنه أن يوقع بهم عقوبات شديدة أقلها: الإقامة الجبرية، ومصادرة الحرية والتشهير والفضيحة .

٨ ـ أن يتحلى المشموت به بالصبر والتقوى :

ذلك أن الشامت إذا أبصر أن شماته لم تنل من المشموت به وأنه استقبل محنته بالصبر والتقوى فكأنه جبل أشم ومما يحمله ذلك على التخلص من مرضه وأن يحرص على وقاية نفسه منه بحيث لا يرجع إليه مرة أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾ [آل عمران] .

٩ ـ أن يديم النظر فى سير السلف :

ذلك أن سير السلف مليئة بالوقائع والحوادث الدالة على التحرر من الشماتة بل الحزن لما يصيب الناس من شدة، والفرح لما ينزل بهم من النعمة .

أخرج الطبراني عن ابن بريدة الأسلمى قال : « شتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما فقال ابن عباس : إنك لتشتمنى وإن فىَّ ثلاث خصال : إنى لآتى على الآية فى كتاب الله فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم، وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأفرح، ولعلِّى لا أقاضى إليه أبداً، وإننى لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح، وما لى به سائمة »[1] .

وعن جبير بن نفير رضي الله عنه قال : « لما فتحت قبرص، فرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض ورأيت أبا الدرداء رضي الله عنه جالساً وحده يبكى فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ قال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره بينا هى أمة قاهرة، ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[2] .

وفى رواية : « فسلط عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم ، فليس لله فيهم حاجة »[3] .

---

(١) الحديث أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٤، وعزاه إلى الطبرانى قائلا : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

(٢) الحديث أخرجه أبو نعيم فى : حلية الأولياء ١/ ٢١٦ من حديث جبير بن نفير بهذا اللفظ .

(٣) هذه الرواية أخرجه ابن جرير الطبرى فى : تاريخ الملوك والأمم ٣/ ٣١٨ من حديث جبير بن نفير .

١٠ ـ أن يتذكر الشامتون الآثار والعواقب المترتبة على الشماتة :

ذلك أنه إذا لم ينجح كل ما مضى فى اقتلاع هذه الآفة من النفس، فإن على هؤلاء الشامتين أن يتذكروا الآثار والعواقب المترتبة على الشماتة وأثر واحد يكفى لحملهم على التخلص من آفة الشماتة والعزم الأكيد على عدم العودة إليها وإن قطعوا وحرقوا بالنار، فكيف لو كانت عدة آثار منها الفردى والجماعى، ومنها ما يتصل بالأشخاص ، ومنها ما يتصل بالأعمال الصادرة عن هؤلاء الأشخاص ، ومنها ما هو دنيوى ومنها ما هو أخروى ، وهكذا يمكن أن يكون تذكر الآثار والعواقب المترتبة على الشماتة أنجع الدواء وآخر الدواء وصدق الله الذى يقول: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ ﴾

[الأعلى]

الآفة الحادية والأربعون
الغدر

والآفة الحادية والأربعون التى يبتلى بها بعض العاملين، فتترك آثاراً سيئة وعواقب خطيرة عليهم وعلى العمل الإسلامى إنما هى : « الغدر » .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها، ويتحصن ضدها من عافاه الله ـ عز وجل ـ منها، فإنه لابد من تصور دقيق لأبعادها ومعالمها من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : الغدر لغة واصطلاحًا :

لغة : الغدر لغة يأتي على معانٍ نذكر منها :

١ ـ الإخلال بالشيء ، وتركه تقول : غدر فلان بالأمر أخل به أو تركه والمغادرة الترك وأغدر الشيء تركه وبقَّاه .

٢ ـ نقض العهد وترك الوفاء به تقول : غدر : إذا نقض العهد [(١)] ويقال : الذئب غادر: أى لا عهد له، والغدار: كثير الغدر أى نقض العهد ولا تعارض بين المعنيين، إذ هو: الإخلال بالشيء وتركه كما يظهر ذلك بجلاء في: نقض العهد، وترك الوفاء به.

اصطلاحًا : جاءت عدة تعريفات للغدر اصطلاحًا منها :

١ ـ **تعريف الجاحظ إذ يقول :** « هو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به » [(٢)] .

٢ ـ **تعريف المناوى إذ يقول :** «الغدر: نقض العهد والإخلال بالشيء وتركه» [(٣)] .

ولعل تعريف المناوى أتم وأشمل، إذ يتناول النقض : العهد الذى يُلزم به المرء عقلا وشرعًا، وكذلك ما يلزم المرء به نفسه يقول الراغب الأصفهانى :

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة ٤/٤١٣ والصحاح ٢/٧٦٦ والمفردات للراغب ص ٣٥٨ ولسان العرب ٥/٨ مادة : « غدر » بتصرف .

(٢) انظر : تهذيب الأخلاق ص ٣٠ .

(٣) انظر : التوقيف ص ٢٥٠ .

«عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسنة، وتارة بما تلتزمه، وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى بمجراها »[(١)] .

وأمر آخر يلاحظ على التعريفين معًا وهو الغفلة عما تحمله كلمة غدر من المفاجئة التى لم تكن متوقعة ولا منتظرة .

كأن الأحسن فى التعريف أن يقال : الغدر هو : نقض العهد مطلقًا فى لحظة لم تكن متوقعة ولا منتظرة .

الجانب الثانى : صور الغدر : وحكمه مع أدلة هذا الحكم :

للغدر صور ، نذكر منها :

١ ـ نقض العهد الذى أخذ الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره إذ يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

٢ ـ نقض العهد الذى وصى الله به خلقه من فعل ما يحبه الله ويراه من الأقوال والأفعال وترك ما لا يحبه الله ولا يرضاه من الأقوال والأفعال، والذى تضمنته كتبه المنزلة وبلغه رسله عليهم الصلاة والسلام، ومعنى نقض هذا العهد ترك العمل به .

٣ ـ نقض العهد المأخوذ على بنى آدم من النظر فى أدلة وحدانيته، وكمالاته المنصوبة فى السكون وفى النفس ، والذى تحدث عنه رب العزة فى قوله سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] . وفى قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت] .

ومعنى نقض هذا العهد : ترك النظر فى هذه الأدلة .

٤ ـ نقض العهد الذى أخذه الله على النبيين، وأتباعهم أن يؤمنوا بهذا النبى وأن ينصروه وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

[آل عمران]

٥ ـ نقض العهد الذى للإمام ونائبه على المسلمين من وجوب الطاعة فى المعروف ونصرة دين الله عز وجل دون مبرر شرعى يقتضى ذلك .

٦ ـ نقض العهد الذى أعطاه الشارع الحكيم للكفار غير المحاربين من أهل الذمة والمستأمنين، وكذلك المعاهدين دون مبرر شرعى يقتضى ذلك كأن يتحول نفر من هؤلاء إلى أن يكون محاربًا أو على الأقل يأتى أعمالا تخالف نظام الإسلام إذ فى الحديث : «ألا من قتل نفسًا معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يَرُحْ رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفًا » (١) .

٧ ـ خلف الموعد بأن يعطى موعداً وفى نيته عدم الوفاء، أما إذا أعطى موعداً وفى نيته الوفاء ولم يف لأمر خارج عن إرادته، فلا يعد ذلك نقضًا لحديث : « إذا وعد الرجل أخاه ، ومن نيته أن يفى فلم يف ولم يجىء للميعاد فلا إثم عليه » (٢) .

٨ ـ نقض الحكام ونوابهم ما عاهدوا الله عليه حين بويعوا من العمل لصالح الرعية وفق منهج الله بحيث يتحول الواحد منهم بعد توليه الأمر إلى أن يكون سيفًا مصلتًا على رقاب العباد يطلق العنان لزبانيته ، فيصادروا حرية الناس العقيدية والفكرية والسياسية والإعلامية ويهدروا حرمتهم فى دمائهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم فالناس ما بين عاطل عن العمل أو منفى بعيدًا عن أهله وعشيرته أو فى إقامة جبرية أو مسجون بلا تهمة ولا محاكمة أو معذب بأبشع صور التعذيب، ليدلى بمعلومات كاذبة ملفقة أو مُحاكَم محاكمة صورية أو مقتول تحت التعذيب مع دعوى انتحاره أو هروبه إلى غير ذلك من الصور التى ما تحدث إلا فى شرائع الغاب، أما حكم الغدر فهو كبيرة من الكبائر التى يعاقب المرء عليها فى الدنيا والآخرة جميعًا لقوله سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل : ٩١] .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الديات : باب ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدة ص: ٣٤٠ رقم ١٤٠٣، وابن ماجه فى : السنن: كتاب الديات : باب من قتل معاهد ص ٣٨٦ رقم ٢٦٨٧ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه وعقب الترمذى بقوله : « حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح » وزاد ابن ماجه رقم ٢٦٨٦ أن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا بلفظ: « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب : باب فى العدة ص ٧٠٣ رقم ٤٩٩٥ والترمذى فى: السنن: كتاب الإيمان: باب ما جاء فى علامة المنافق ص ٥٩٨ رقم ٢٦٣٣ كلاهما من حديث علىّ بن عبد الأعلى، عن أبى النعمان، عن أبى وقاص عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا وعد الرجل وهو ينوى أن يفى به، فلم يف به فلا جناح عليه » ، وعقب عليه أبو عيسى بقوله: « هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوى: على بن عبد الأعلى ثقة، وأبو النعمان مجهول، وأبو وقاص مجهول .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ﴾ [الإسراء] . وقوله سبحانه : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾ [الأنعام]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة] . وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد: ٢٥].

ولقوله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » [(١)] .

وقوله ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامّة » [(٢)] .

وقوله ﷺ : « من أعطى بيعة ، ثم نكثها لقى الله، وليست معه يمينه » [(٣)] .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على ذم الغدر، والتحذير منه وحسبنا فى ذمّه والتحذير منه بعد الأدلة النقلية التى ذكرت آنفًا ما يترتب عليه من عواقب مدمرة، وآثار خطيرة ما سيظهر من سياق الحديث .

الجانب الثالث : آثار الغدر وعواقبه :

للغدر آثار سيئة وعواقب وخيمة

أ ـ على العاملين :

لعل من أبرز هذه الآثار، وتلك العواقب على العاملين :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب علامات المنافق ص ٩ رقم ٣٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان خصال المنافق ص ٤٦ رقم ٢١٠/١٠٦/٥٨ كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق ص ٥٣١ رقم ٣١٨٨، وكتاب الأدب : باب ما يُدعى الناس بآبائهم ص ١٠٧٦ رقم ٦١٧٧، وكتاب الحيل : باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت... ص ١٢٠١ رقم ٦٩٦٦، وكتاب الفتن : باب إذا قال عند قوم شيئًا، ثم خرج فقال بخلافه ص ١٢٢٥ رقم ٧١١١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا بنحوه، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب تحريم الغدر ص ٧٦٩، ٧٧٠ رقم ١٧٣٥ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا ورقم ١٧٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا ورقم ١٧٣٧ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ورقم ١٧٣٨ من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أورده الحافظ ابن حجر فى : فتح البارى ٢١٨/١٣ وعزاه إلى الطبرانى قائلاً : « أخرجه الطبرانى بسند جيد » .

١ ـ الغواية والضلال :

ذلك أن كل صور الغدر التى ذكرت آنفًا يمكن أن ترد إلى أصل واحد وهو عدم العمل بمنهج الله كتابًا وسنة، ومن كان هذا شأنه فإن الله يغويه، ويضله، فلا يوفق إلى خير أبدًا؛ لأنه هو الذى اختار قرار الغواية، والضلال، وعدم التوفيق .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة] .

٢ ـ قسوة القلب :

ذلك أن من غدر بعهده مع الله ، ومع النـاس فقد حرم نفسه زاد الطريق الذى هو خير الزاد، إذ يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة] .

ومن حرم نفسه زاد الطريق فإن المرض يسرع إلى قلبه ويزيد المرض فيموت القلب، وحين يموت القلب تعتريه القسوة، فيكون كالحجارة أو أشد فلا يرحم أخًا ولا يوقر كبيرًا، ولا يتحنن على ولد .

ولقد كانت قسوة القلب سمة بارزة فى أهل الكتاب لا سيما اليهود، لكثرة نقضهم العهد والمواثيق .

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾ [المائدة] .

ولقد سرى هذا الداء إلينا نحن المسلمين حين غدرنا بعهدنا مع الله، فلم نعمل بمنهاجه، وإن عملنا فإنما نعمل بما تكاليفه سهلة ميسورة كالصلاة والصيام، والحج والعمرة، وقراءة القرآن، وباقى الأذكار وأهملنا الجهاد بأوسع ما تتضمنه كلمة الجهاد من اجتهاد النفس وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا ، وإن عملنا فى الجهاد فإنما نعمل فى فضل أوقاتنا وبفتور وتراخ وعدم انضباط فى حديث أو موعد، أو أمانة، أو خصومة وهلم جرا، فعاقبنا الله بقسوة

القلب فكانت بلادة الحس، وموت العاطفة حسبنا إخواننا المجاهدين فى كل مكان فى الأرض لا سيما أرض النبوات، وأرض الميعاد فلسطين وما يعانى أهلها فى أنفسهم وذويهم لأكثر من ثمانين سنة، ويستصرخوننا ولا مجيب .

لقد أسمعت إذا ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

٣ ـ ضياع المروءة، وذهاب الهيبة، وتسليط الأعداء :

ولا يقف العقاب الإلهى عند هذا الحد، بل يكون معه ضياع المروءة وذهاب الهيبة وتسليط الأعداء، وما يتبع ذلك من السيطرة على الأوطان واستنزاف الخيرات والثروات، وتغيير هوية الأمة وثقافتها وقيمتها وأخلاقها وسوم أبنائها سوء العذاب .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر :٤٣] .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] .

قال محمد بن كعب القرظى ﷺ : « ثلاث خصال من كن فيه، كن عليه : البغى ، والنكث ، والمكر، ثم قرأ هذه الآيات الثلاث » (١) .

وقال ابن عطية ـ رحمه الله تعالى ـ فى تفسير قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] . قال: « إن من نكث يعني : من نقض هذا العهد، فإنما يجنى على نفسه، وإياها يُهلك فنكثه عليه لا له » (٢) .

وقال ﷺ : « ... ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم ... » (٣) .

---

(١) انظر : ذم البغى لابن أبى الدنيا ص ٨٨ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ١٥/ ٩٦ .

(٣) هذا جزء حديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب العقوبات ص ٥٧٩، ٥٨٠ رقم ٤٠١٩ من حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعًا وأورده الشهاب البوصيرى فى: مصباح الزجاجة وعقب عليه بقوله: « هذا حديث صالح للعمل به » وأورده الحاكم فى المستدرك ٤/ ٥٤٠ وقال عنه: «صحيح» ووافقه الذهبى فى التخليص وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ٢/ ٢٥٦ ـ ٥٧٠ وذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى: صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٣٢١ رقم ٣٠٧٢ وقال عنه : «صحيح».

وقال ﷺ : «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل: يا رسول الله: فمن قلة يومئذ ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن فى قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا، وكراهيتكم الموت »[(١)] .

٤ ـ تحمل الجزاء المترتب على الغدر :

ذلك أن الغدر يؤدى إلى خسائر بدنية أو نفسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية وقد تكون هذه جميعًا، ولابد من ضمان التلف فى جزاء يتولاه ولى الأمر أو نائبه ، أو تتولاه الرعية حين يغدر ولى الأمر فيضيع من هم فى رعايته وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه يشهد بذلك، إذ فيه : أن رهطًا من عكل ثمانية قدموا على النبى ﷺ فاجتووا المدينة[(٢)] . فقالوا يا رسول الله : أبْغنا رسلا، فقال :

« ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بالذود فانطلقوا فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحُّوا، وسمنوا وقتلوا الراعى، واستاقوا الذود[(٣)] وكفروا بعد إسلامهم فأتى الصريخ النبى ﷺ فبعث الطلب فما ترجل النهار حتى أتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها وطرحهم بالحرة[(٤)] يستسقون فما يسقون حتى ماتوا»[(٥)] .

قال أبو قلابة : « قتلوا، وسرقوا، وحاربوا الله ورسوله ﷺ ، وعاثوا فى الأرض فسادًا »[(٦)] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الملاحم : باب فى تداعى الأمم على الإسلام ص ٢٢٧٦، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٧٨ (ص ١٦٥٦ رقم ٢٢٧٦٠ ط بيت الأفكار الدولية) كلاهما من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا به وبنحوه، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ٢/ ١٣٥٩ رقم ٣٢٥٧، وقال عنه: « صحيح » .

(٢) اجتووا المدينة : أصابهم الجوى، وهو المرض، وداء الجوف، فكرهوا المقام فيهم، انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ١٨٩ .

(٣) الذود : من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر، انظر : الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٣٥١ .

(٤) الحرة : الأرض ذات الحجارة السود، ناحية بالمدينة ١/ ٢١٥ .

(٥) الحديث أخرجه البخارى : فى الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب إذا حرّق المشرك المسلم، هل يحرّق ص ٤٩٨ رقم ٣٠١٨، وكتاب الوضوء : باب أبوال الإبل والدواب والغنم، ومرابضها ص ٢٣٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب القسامة والمحاربين : باب حكم المحاربين، والمرتدين ص ٧٣٨ ـ ٧٤٠ رقم : ١٦٧ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا واللفظ للبخارى .

(٦) أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب إذا حرّق المشرك المسلم هل يحرق ص ٤٩٨ رقم ٣٠١٨ مقطوعًا، ومعلقًا عن أبى قلابة .

وكأن أبا قلابة يشير إلى آية حد الحرابة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾ [المائدة] .

٥ ـ براءة النبى ﷺ ـ من أهل الغدر :

ذلك أن النبى ﷺ جاء بمنهاج يدعو إلى الوفاء مع الخالق، والمخلوق، ومع العدو، والصديق بل حتى مع الدواب والجمادات ثم طبق ذلك عمليًا على نفسه حين استبقى عليا مكانه فى فراشه ليلة الهجرة ليرد الودائع إلى أصحابها، ووفى بعهده مع اليهود لولا أنه غدروا كما وفى مع المشركين فى مكة والطائف وغيرهما لولا غدرهم وخيانتهم .

فإذا ادعى واحد أنه من أتباعه وغدر فى عهده، فلا أقل من أن يتبرأ منه النبى ﷺ لئلا يكون انتسابه إليه سببًا فى تشويه صورته بين الناس، ويوم القيامة يكون خصيمًا له يقول ﷺ : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبة فقتل فقتله جاهلية ، ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاش من مؤمنها [(١)] ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه » [(٢)] .

وحديث صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبى ﷺ عن آبائهم دنية [(٣)] عن رسول الله ﷺ : « ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » [(٤)] .

---

(١) لا يتحاش من مؤمنها : لا يفزع لذلك، ولا يكترث، ولا ينفر منه، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٢٧٠.

(٢) الحديث أخرجه مسلم : فى الصحيح : كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. . . ص ٨٣٠ رقم ١٨٤٨/ ٤٧٦/ ٥٣ من حديث أبى هريرة ؓ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) دنية : قريب، لاصق النسب . انظر : المعجم الوسيط ١/ ٢٩٩.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الخراج : باب فى تعشير أهل الذمة . . . ص ٤٤٧ رقم ٣٠٥٢ من حديث صفوان بن سليم » من حديث عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دنية مرفوعًا بهذا اللفظ، وأورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٥/ ١٨٥ رقم ٢٦٢٦، وعقب بقوله : « صحيح » .

٦ ـ حلول اللعنة على الغادر من الله، والملائكة، والناس أجمعين :

ذلك أن الله يغار حين يرى العبد أكل نعمته، ثم غدر فاستخدمها فى معصيته وحربه وتمثل هذه الغيرة فى حلول اللعنة عليه، ومعه سبحانه الملائكة، والناس أجمعون برهم، وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ [الرعد : ٢٥] .

وقال ﷺ : « المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا، من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه حرف، ولا عدل، وقال : ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف، ولا عدل ومن تولى قومًا بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف، ولا عدل »[(١)] .

٧ ـ الانتظام فى سلك المنافقين :

ذلك أن الغادر أظهر شيئًا فى الوقت الذى أبطن فيه خلافه، ومثل هذا الصنف من الناس يجب توقيه، والحذر منه لأنه لم يعد محل ثقة ولا أمانة إذ يظهر الموافقة على العهود، والالتزام، ثم يخفى النقض والغدر يقول النبى ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر »[(٢)] .

ويقول ﷺ : « من علامات المنافق ثلاثة : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب فضائل المدينة : باب حرم المدينة ص ٣٠١ رقم ١٨٧٠ ومسلم فى : الصحيح : كتاب الحج : باب فضل المدينة ... ص ٥٧٥ رقم ١٣٧٠ كلاهما من حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه مرفوعًا واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث سبق تخريجه منذ قليل .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب علامات المنافق ص ٩ رقم ٣٣، وكتاب الشهادات: باب منه ص ٤٣٧ رقم ٢٦٨٢ وكتاب الوصايا: باب قول الله عز وجل: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء: ١١] ص ٥٤٥ رقم ٢٧٤٩، وكتاب الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة:١١٩] ص ١٠٦٣ رقم ٦٠٩٥ ومسلم فى الصحيح: كتاب الإيمان: باب خصال المنافق ص ٤٦، ٤٧ رقم ١٠٧/٢١١ ـ ٥٩/١١٠ كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا واللفظ لمسلم .

٨ ـ الفضيحة على رؤوس الأشهاد :

ذلك أن الله لا يوقف عقابه للغادرين على الدنيا، بل يضم إلى ذلك عقاب الآخرة، وأوله : الفضيحة على رؤوس الأشهاد وما أعظمه وما أشده من عقاب .

يقول ﷺ : «من أمَّن رجلا على نفسه، فقتله أعطى لواء الغدر يوم القيامة»(١).

ويقول ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة » (٢) .

٩ ـ لقاء الله أبتر اليمين :

ذلك أنه أعطى بيعة بيمينه على الوفاء بما بايع عليه، وعدم النقض وأقل عقاب يعاقبه به رب العزة : أنه يبعثه من قبره، ليلقى ربه وقد حرمه يمينه تلك التي بايعت وخان صاحبها البيعة وغدر بعهده .

يقول النبي ﷺ : « من أعطى بيعة ثم نكثها لقى الله، وليست معه يمينه »(٣).

١٠ ـ المساءلة غداً مع الإهانة فى الكلام، ومع الحرمان من رؤية الله والجنة .

لا يقف أمر عقاب المولى للغادر عند حد الفضيحة على رؤوس الأشهاد، وعند حد لقائه سبحانه له ، وهو مبتور اليمين ، بل يتعدى ذلك إلى المساءلة والإهانة فى الكلام ، والحرمان من رؤية رب العالمين ، والجنة ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران]، ويقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

ويقول النبى ﷺ : « ألا من قتل نفسًا معاهدًا، له ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»(٤) .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الديات : باب من أمن رجلا على دمه فقتله، ص ٣٨٧ رقم ٢٦٨٨ من حديث عمرو بن الحمق الخزاعى بلفظ: « من أمن رجلا على دمه فقتله، فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة » وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٢٤) ص ١٦٢٠ رقم ٢٢٢٩٤) من حديث عمرو بن الحمق الخزاعى مرفوعًا بهذا اللفظ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٥، وعقب عليه بقوله : « رواه أحمد، والطبرانى ورجاله ثقات » .

(٢، ٣) الحديث سبق تخريجه منذ قليل .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب الديات: باب ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدًا ص ٣٤٠ رقم ١٤٠٣ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ وعقب عليه بقوله: «وفى الباب عن أبى بكرة، وحديث أبى هريرة حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

ويقول ﷺ : « من صلى الصبح فله ذمة الله، فلا تخفروا الله ذمته، فإنه من أخفر ذمته طلبه الله، حتى يكبَّه على وجهه »[(١)] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وكما أن للغدر آثاراً سيئة ، وعواقب وخيمة على العاملين فلها كذلك آثار سيئة وعواقب وخيمة على العمل الإسلامى نذكر منها :

١ ـ القطيعة والفرقة :

ذلك أنه إذا شاع الغدر بين أبناء المجتمع سحب كل منهم ثقته بالآخر ووقعت الخصومات وما يتبعها من القطيعة والفرقة الأمر الذى يؤدى إلى طمع الأعداء، وسعيهم للسيطرة على بلاد المسلمين وانتهاك حرماتهم من العقيدة والدم، والعقل والعرض، والمال .

٢ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

ذلك أنه إذا سيطر الأعداء، وفرضوا أنفسهم على المسلمين وديارهم : عملوا على التمكين لهم بطريق أو بأخرى .

ويوم يفيق المسلمون، ويعملون على التحرر من سيطرة الأعداء فإنهم يحتاجون إلى زمن طويل وتكاليف ضخمة فى النفس، وفى المال يكون الأعداء خلال ذلك قد استنزفوا كل شىء، فيخرجون وما تركوا وراءهم شيئًا يذكر فوق النيل من ثقافة الأمة، وحضارتها .

الجانب الرابع : أسباب الوقوع فى الغدر :

للغدر أسباب كثيرة ، وبواعث عدة توقع فيه نذكر منها :

١ ـ عدم قيام الأسرة بواجبها التربوى نحو أبنائها لا سيما الانضباط :

ذلك أن المرء خلق يوم خلق، ولديه استعداد لفعل الخير ولفعل الشر لقوله سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾ [الشمس] .

وليس عليه إلا أن يُرَبى على المجاهدة وبذل أقصى ما لديه من طاقة ليصطبغ بصبغة الخير، وصناعة البر والمعروف .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/ ١١١ رقم ٥٨٩٨ وقال عنه الشيخ أحمد شاكر ٨/ ١٤٥ : «إسناده صحيح» ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساجد : باب فضل صلاة العشاء ، والصبح فى جماعة ص ٢٦٥ رقم ٢٦١ من حديث جندب بن عبد الله القسرى ﷺ مرفوعًا بنحوه .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس]. وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت].

ويقع عبء التربية الأكبر للمرء فى أيامه الأولى من حياته على الأم، إذ لو كانت حازمة مع صغيرها فلم ترضعه، ولم تقم بتبديل ثيابه كلما بكى، وإنما وضعته تحت منهاج ثابت لا يتغير أبدًا إلا فى ظروف طارئة إنها لو صنعت ذلك لنشأ صغيراً على الانضباط فى كل شىء ومن ذلك الحفاظ على العهود، والمواثيق، وعدم الإقدام على نقضها مهما كانت الأسباب أما إذا أهملته حتى شب فإنه ينشأ على الفوضى، والتهاون بكل شىء، ومن ذلك العهود والمواثيق ومهما درب بعد ذلك على الانضباط، فإنه كان منطويًا على نوع من الخلل، فكيف لو نشأ فى بيت شأن الكبار فيه الفوضى، وعدم الانضباط، فإنه يقتدى بهم لا محالة إلا أن تتداركه رحمة الله عز وجل ويقيض له من يعينه على نفسه .

٢ ـ صحبة من شأنهم عدم الانضباط لا سيما مع العهود والمواثيق :

قد يجد المرء نفسه لسبب أو لآخر فى وسط من القرناء شأنهم عدم الانضباط لا سيما مع العهود، والمواثيق، ويطول بقاؤه معهم، ويتشرب أخلاقهم ويصير الغدر دأبه، وديدنه .

وهكذا يمكن أن يصنع الأصحاب من المرء غادراً ناقضًا لعهوده ومواثيقه .

٣ ـ عدم السؤال عن العهود، والمواثيق، وعدم المتابعة :

ذلك أن المرء كثيرًا ما يعتريه الضعف البشرى، فيغدر بعهوده، ومواثيقه وربما كان السبب فى ذلك عدم السؤال وعدم المتابعة لذا كان من هديه ﷺ سؤال كل ذى مسؤولية عن مسؤوليته ومتابعة التزامه بهذه المسؤولية، بل على المرء أن يسأل نفسه ويحاسبها، ويعمل عن تدارك التقصير عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : أهدى للنبى ﷺ عنب من الطائف، فدعانى فقال : « خذ هذا العنقود فأبلغه أمك » فأكلته قبل أن أبلغه إياها فلما كان بعد ليال، قال لى: « ما فعل العنقود ؟ هل أبلغته أمك ؟ » قلت: لا، قال : « فسمَّانى غُدَرَ »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الأطعمة : باب أكل الثمار ص ٤٨٧ رقم ٣٣٦٨ من حديث النعمان بن بشير مرفوعًا بهذا اللفظ وأورده البوصيرى فى : مصباح الزجاجة .

٤ ـ إقبال الدنيا :

ذلك أن المرء كثيراً ما يحافظ على عهوده، عندما يكون عيشة كفافًا، فإذا ما أقبلت الدنيا ببريقها، وزخارفها فإنه يتهاون بعهوده، ووعوده، وربما يغدر فيها، ناسيًا أو متناسيًا إن إقبال الدنيا لا يدوم، وأنها إذا أقبلت أدبرت، وإذا كست أوكست، وإذا حلت أوحلت .

٥ ـ تحميل المرء نفسه من المسؤوليات فوق ما تطيق :

قد يحمل المرء من المسؤوليات فوق ما يطيق، كأنه يريد أن يعمل كل شيء ، والذى يعمل كلَّ شيء لا يعمل شيئًا، وتكون العاقبة عدم الوفاء بالعهود، والمواثيق، بل ربما الغدر كذريعة لإعفاء النفس من المسؤوليات والتبعات .

٦ ـ عدم التدرج فى حمل المسؤوليات :

ذلك أن الإنسان يحتاج إلى التدرج فى حمل المسؤليات حتى يستخرج ما لديه من طاقات، وإمكانيات شيئًا فشيئًا، وإذا حدث أن حَمَل المسؤوليات جملة واحدة دون تدرج، فإنه لا يستطيع الوفاء بعهوده ومواثيقه، بل ربَّما يغدر ليكون ذريعة لإعفاء نفسه من المسؤوليات .

٧ ـ موالاة الكافرين :

ذلك أن الكافرين لا يريدون بنا نحن المسلمين خيراً .

إذ يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة: ٢] . ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف] .

موالاة هؤلاء بمعنى: محبتهم، والإصغاء لهم، وطاعتهم فيما يشيرون وما يفرضون يمكن أن تؤدى إلى الغدر، وعدم احترام العهود، والمواثيق والواقع المعاصر خير دليل : إذ يشير هؤلاء على نفر من ولاة أمور المسلمين بنقد عقد البيعة مع شعوبهم، بحيث يصيرون سيفًا مصلتًا عليهم والمفروض أن يكونوا اليد الحانية عليهم الرحيمة بهم، والمبرر أن هذه الشعوب أو نفرًا منها يتآمر عليهم لإزاحتهم عن كرسى الحكم ، والجلوس مكانهم.

٨ ـ عدم قيام المجتمع بواجبه نحو المعروفين بالغدر :

ذلك أن للمجتمع دوراً كبيراً فى إشاعة الفضيلة والقضاء على الرذيلة أو على أقل تقدير محاصرتها، إذا قام بواجبه مع عزيمة صادقة، وإخلاص، واتباع للسنة، وحكمة، وموعظة حسنة وجدال بالتى هى أحسن، أما إذا قعد ولم يقم بواجبه فإن الرذيلة ومنها الغدر ونقض العهود والمواثيق تشيع وتحاصر الفضيلة بل ربما تتلاشى وتمحى من المجتمع.

٩ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه نحو المعروفين بالغدر :

لقد ذكرنا فى أكثر من آفة دور ولى الأمر فى إصلاح الأمة، وملاحقة أهل الفسق، والفجور، والعصيان .

وعليه فإذا قصر، ولم يقم بواجبه نحو المعروفين بالغدر بعهودهم ومواثيقهم، فإن الخطر يعظم، والشر يستفحل، ويصبح الغدر دأبًا، وديدنًا للمجتمع .

١٠ ـ عدم استحضار عواقب الغدر :

إذ على المرء أن يديم النظر فى عواقب عمله فإن كانت خيراً لزم هذا العمل وإن كانت سوءاً أقلع عنه، ونأى بجانبه وعليه، فإذا نسى المرء عواقب الغدر سواء على نفسه أو على العمل الإسلامى وسواء أكانت دنيوية، أو دينية : إذا نسى المرء ذلك، ولم يستحضره على الدوام كان التمادى فى الغدر، وكان الخسران والبوار .

الجانب الخامس : علاج الغدر والوقاية منه :

إذ قد عرفنا ماهية الغدر، وصوره، وحكمه، وآثاره وأسبابه، فإن العلاج بل الوقاية يكمن فى اتباع هذه الخطوات :

١ ـ أن تقوم الأسرة بواجبها فى اجتناب الغدر :

بأن يتحلى أفرادها لا سيما الكبار منه بالوفاء بالعهود والمواثيق ويعتذروا عما بدر منهم من غدر فى حق الله، وفى حق الرسول وفى حق الآدميين والملائكة، وإخوانهم من الجن، وأن يعملوا فى الوقت نفسه لا سيما الأم على تقوية خلق الانضباط عند الأولاد منذ نعومة أظفارهم وأن يقبحوا لهم الغدر، ويحسنوا الوفاء، وأن يواظبوا على ذلك فإن هذا الجهد لو صحَّ من الأسرة فإن له دوراً كبيراً فى القضاء على الغدر، وتعليم الوفاء واحترامه، والحرص عليه مهما تكن التضحيات .

٢ ـ أن ينقطع المرء عن أصدقاء السوء، وأن يلازم أهل التقوى والصلاح :

ذلك أن المرء إذا انقطع عن أصدقاء السوء، ولزم أهل التقوى والصلاح فإن ذلك يساعده على التخلى عن الغدر، ويعينه على التحلى بالوفاء بعهوده، ومواثيقه، لا سيما إذا وعى هؤلاء الأصدقاء دورهم فى الإصلاح، وأنجح السبل، وأفضل الوسائل التى عليهم أن يستخدموها فى آداء هذا الدور، ثم حققوا ذلك على أرض الواقع، وطبقوا منهاج المحاسبة الدقيق لتقويم عملهم أولاً بأول .

٣ ـ أن يقوم المرء بمجاهدة نفسه للتخلص من آفة الغدر، والتحلى بفضيلة الوفاء:

ذلك أن المجاهدة للنفس تكون سببًا فى التخلص من آفة « الغدر » والتحلى بالوفاء، ولا شك أن المجاهدة لا تنشأ من فراغ وإنما لابد لها من زاد وأعظم الزاد مراقبة الله، واستحضار المساءلة غدًا كل شىء لا سيما العهود والمواثيق. لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

٤ ـ أن يضع المرء الدنيا فى موضعها الصحيح :

ذلك أن على المرء أن يضع الدنيا فى موضعها الصحيح، بأن ينظر إليها على أنها وسيلة لا غاية، وأنه لا ثبات لها، وأن متاعها مهما عظم فهو قليل وحقير، وأنه سيسأل عن كل شىء فيها من النقير والفتيل، والقطمير إذا صنع المرء ذلك، فإنه يستوى عنده إقبالها وإدبارها، والأحسن له الوفاء بالعهود، ومواثيقه لا النكث، والغدر .

٥ ـ أن يحمل المرء من المسؤوليات ما يتناسب مع طاقاته وإمكاناته :

ذلك أن على المرء أن يكون بصيراً بطاقاته، وإمكاناته، والظروف المحيطة به، ولا يحمل نفسه من المسؤوليات والتبعات فوق ما تطيق، كى يستطيع مواصلة المسيرة إلى نهايتها، من الوفاء، وعدم الغدر أو النكث .

٦ ـ أن يتدرج المرء مع نفسه فى حمل المسؤوليات :

إذا أراد أن يحمل تبعات التكاليف التى كلف بها من ربه وأن يفى بها كاملة دون غدر ونكث، فليتدرج معها على نحو ما كان يصنع النبى ﷺ مع أصحابه .

إذ كان يبايع على ترك المعصية أولاً لأن التخلية مقدمة على التحلية فيقول :

« بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم، وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى

منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئًا، ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»(١) .

ثم يعود ويبايع على فعل الطاعات والدعوة إلى الله .

فيقول جرير رضي الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم »(٢) .

ثم يبايع على الإيواء، والنصرة كما كان ليلة العقبة، ثم يبايع على الجهاد، والموت فى سبيل الله كما كان فى الحديبية وهكذا إذا أردنا أن يفى كل ذى عهد بعهده، وألا يغدر، أو ينكث فليكن التدرج شيئًا فشيئًا حتى تكون البراءة ، والوقاية، والوقاية .

٧ ـ التحرر من موالاة الكافرين :

ذلك أن التحرر من موالاة الكافرين فلا محبة، ولا طاعة وإن كان لهم حق التعامل اليومى أو الحياتى ما لم يكونوا محاربين، إن هذا التحرر يخلص النفس من الضغط، والإكراه من أجل حملها على الغدر أو النكث، ويفسح لها المجال أن تتحلى بالحفاظ على العهود، والمواثيق، والوفاء وإن لحقها من التبعات ما لحقها .

٨ ـ قيام المجتمع بواجبه نحو المعروفين بالغدر :

بأن يبدأ المجتمع بالنصح، والإرضاء، فإذا لم ينجح فلتكن الدعوة بالخطاب المباشر وإذا لم يُجْدِ ذلك فليكن إنكار المنكر بكل الأساليب والوسائل الممكنة، وأدنى ذلك الإنكار القلبى المتمثل فى الحصار والمقاطعة وتعطيل مصالح هذا الغادر، بحيث يحمله ذلك حملا على التحرر من الغدر، والنكث فى عهوده، ومواثيقه والحرص على الوفاء، مهما تكن التبعات، والتضحيات .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب منه ص ٦ رقم ١٨، وكتاب مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار إلى النبى ﷺ بمكة وبيعة العقبة ص ٦٥٤ رقم ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، وكتاب المغازى: باب منه ص ٦٧٥ رقم ٣٩٩٩ وكتاب التفسير: سورة الممتحنة: باب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة : ١٢] ص ٦٨٦ رقم ٤٨٩٤ وكتاب الحدود : باب الحدود كفارة ص ١١٦٩ رقم ٦٧٨٤ وباب توبة السارق ص ١١٧١، ١١٧٢ رقم ٦٨٠١ وكتاب الديات : باب ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة : ٣٢] ص ١١٨٤ رقم ٦٨٧٣، وكتاب الفتن : باب قول النبى ﷺ : « سترون بعدى أمورًا تنكرونها » ص ١٢١٧ رقم ٧٠٥٥ وكتاب الإحكام : باب كيف يبايع الإمام الناس ص ١٢٤٠ رقم ٧١٩٩ وباب بيعة النساء ص ١٢٤٢ رقم ٧٢١٣، وكتاب التوحيد : باب فى المشيئة والإرادة ص ١٢٨٧ رقم ٧٤٦٨ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب بيان أن الدين النصيحة ص ٤٥ رقم ١٩٩/٥٦٩٧ من حديث جرير رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

٩ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه نحو المعروفين بالغدر :

أى يبدأ ولىُّ الأمر فى الأمر بترك الغدر، والنكث فى العهود ، والمواثيق ثم يبين لهم عواقب ذلك على العاملين وعلى العمل الإسلامى ، وكذلك عواقب هذا فى الآخرة، فإذا لم ينفع ذلك فلتكن القسوة المتناسبة مع حجم الآثار المترتبة على الغدر .

ولن يعدم ولى الأمر طريقًا يحمل أهل الغدر والنكث أن يقلعوا عن هذه الآفة ، وأن يتحلوا بما يقابلها من الوفاء .

١٠ ـ أن يستحضر المبتلى بالغدر الآثار المترتبة على هذا الابتلاء :

قدمنا أن للغدر آثارًا سيئة وعواقب خطيرة على العاملين والعمل الإسلامى ، بل عواقب أخروية أشد وأنكى ويوم يستحضر المرء هذه العواقب باستمرار فإنه يتولد لديه إحساس قوى، وشعور أكيد بالندم على ما بدر منه من الغدر، والنكث ويعمل جاهدًا على التخلص من ذلك والتحلى بالوفاء جبرًا للخلل الذى اقترفه فيما مضى من حياته، وهكذا يمكن أن يؤدى استحضار الآثار والعواقب المترتبة على الغدر إلى التخلص منه بل الوقاية أن يقتحم النفس مرة أخرى .

الآفة الثانية والأربعون
عقوق الوالدين

والآفة الثانية والأربعون ذات الأثر الخطير، والعواقب الوخيمة على العاملين وعلى العمل الإسلامى إنما هى : « عقوق الوالدين » .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلى بها ويتحصن ضدها من عافاه الله عز وجل منها ، فإنه لابد من تصور دقيق لأبعادها ومعالمها من خلال هذه الجوانب :

الجانب الأول : معنى عقوق الوالدين لغة واصطلاحًا :

لغة : « عقوق الوالدين » مركب إضافي مؤلف من : « عقوق » و« الوالدين » ولابد من تعريف كل منها وحده قبل التركيب، ثم تعريف المركب بعد، أما العقوق لغة فله معان : منها :

١ ـ الشق، والقطع، تقول عقَّ رحمه: قطعها، وعقَّ عقًّا: انشق وعق ثوبه: شقه.

٢ ـ الاستحلاب تقول : عقت الريح السحاب : استحلبته كأنه شقته (١) .

ولا تعارض إذ هو : استحلاب الشىء وإخراج خيره بعد شقه وقطعه وأما الوالدان فهما الأب، والأم، وإن علوا (٢) .

اصطلاحًا : ذكر العلماء لعقوق الوالدين عدة تعريفات منها :

١ ـ تعريفات الإمام القرطبي المحدِّث إذ يقول : « وعقوق الوالدين : مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن برهما : موافقتهما على أغراضهما الجائزة لهما وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباحات فى أصله ، وكذلك إذا كان من قبيل المندوبات » (٣) .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٢/٦١٦.   (٢) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٥٦ .

(٣) انظر : المفهم ٦/ ٥٢٠ .

٢ ـ تعريف ابن الصلاح ، إذ يقول : « العقوق المحرم : كل فعل يتأذى به الوالد، أو نحوه تأذيًا ليس بالهين مع كونه لس من الأفعال الواجبة » (١) .

٣ ـ تعريف ابن حجر العسقلانى ، إذ يقول : «والعقوق ـ بضم العين المهملة مشتق من العق وهو القطع والمراد به صدود ما يتأذى به الوالد من ولده من قول، أو فعل إلا فى شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد » (٢) .

وكل هذه التعريفات تتفق فى المعنى وإن اختلفت فى اللفظ وعليه فلو اقتصر المرء على أى منها لكان دالاً على المراد .

٤ ـ تعريف ابن حجر المكى ، إذ يقول : « العقوق أن يحصل لهما أو لأحدهما إيذاء، ليس بالهين عرفًا » (٣) .

الجانب الثانى : أهم مظاهر عقوق الوالدين مع بيان حكمه، وأدلة ذلك :

لعقوق الوالدين مظاهر تدل عليه، نذكر منها :

١ ـ عدم إبرار قسمهما أو قسم أحدهما فيما ليس بمعصية مع قدرته على إيجاد هذا القسم .

٢ ـ عدم طاعة أمرهما أو أمر أحدهما فيما ليس بمعصية مع القدرة على الطاعة .

٣ ـ عدم إجابة سؤالهما أو سؤال أحدهما فيما ليس بمعصية مع القدرة على الإجابة.

٤ ـ خيانتهما ، أو خيانة أحدهما ، وقد ائتمناه .

٥ ـ الجهاد الكفائى دون إذنهما أو إذن الحىِّ منهما .

٦ ـ السفر سفر يشق عليهما أو على الحىِّ منهما وليس بواجب .

٧ ـ الغياب الطويل عنهما أو عن الحىِّ منهما، وليس فى مصلحة من علم نافع أو كسب حلال أو نحو ذلك .

٨ ـ سبهما، أو سب أحدهما بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر .

٩ ـ العبوس فى وجههما، أو فى وجه أحدهما مع بذل الطاعة ولزوم الصمت .

---

(١) انظر : دليل الفالحين ٢/١٧٨ .

(٢) انظر : فتح البارى ١٠/٤٠٦ .

(٣) انظر : الزواجر ص ٤٥٩ .

١٠ ـ استثقالهما أو استثقال أمرهما مع التأفف والضجر .

١١ ـ الامتناع من الإنفاق عليهما ولو إلى حد الكفاف .

١٢ ـ عدم احترامهما وتوقيرهما بأن يمشي أمام أبيه وأن يقعد قبله، وأن يدعوه باسمه ، وأن يحدَّ الطرف إليه قال عروة بن الزبير : « ما برَّ والده من شدَّ الطرف إليه » [1] .

١٣ ـ عدم الدعاء لهما أحياءً ، أو أمواتًا وعدم الاستغفار لهما .

١٤ ـ عدم صلة أرحامهما وأصحابهما .

١٥ ـ عدم قضاء ديونهما المادية، والمعنوية إلى غير ذلك من هذه المظاهر، وقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تتضمن هذه المظاهر ومنها :

قوله سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾

[لقمان]

وقوله ﷺ لرجل جاءه ويستأذنه في الجهاد : « لك أبوان ؟ » قال: نعم: قال: « ففيهما فجاهد » [2] .

---

(١) انظر : تهذيب سير أعلام النبلاء ٤١٦/١، فقرة : (٢) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب لا يجاهد إلا بإذن الأبوين ص ١٠٤٥، ١٠٤٦ رقم ٥٩٧٢، وكتاب الجهاد والسير : باب الجهاد بإذن الأبوين ص ٤٩٦ رقم ٣٠٠٤، ومسلم في: الصحيح : كتاب البر والصلة، والأدب : باب بر الوالدين، وأيهما أحق به ص ١١١٧ رقم ٦٥٠٤، ٦٥٠٥ كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا به وبنحوه .

وقوله ﷺ : لرجل أقبل فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغى الأجر من الله : « فهل من والديك أحد حيٌّ ؟ » قال : نعم، بل : كلاهما. قال: فتبتغى الأجر من الله ؟ » قال: نعم. قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » [(١)] .

وأتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى جئت أريد الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة ولقد أتيت وإن والدى ليبكيان، قال : « فارجع إليهما، فاضحكهما، كما أبكيتهما » [(٢)] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قيل : يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه » [(٣)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «إن أبر البر أن يصل الرجل ودَّ أبيه»[(٤)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من الأعراب، لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه قال ابن دينار ـ راوى الحديث عن ابن عمر ـ فقلنا له : أصلحك الله، إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير، فقال عبد الله بن عمر إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أبرَّ البرّ صلة الرجل أهل ودِّ أبيه » [(٥)] .

وعن أبى أسيد : مالك بن ربيعة الساعدى رضي الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والأدب : باب بر الوالدين وأيهما أحق به ص ١١١٨ رقم ٦٥٠٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب الرجل يغزو، وله أبوان ص ٤٠٢ رقم ٢٧٨٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى : صحيح ابن ماجه رقم ٢٢٤٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب لا يسب الرجل والديه ص ١٠٤٦ رقم ٥٩٧٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الكبائر وأكبرها ص ٥٤ رقم ٢٦٣/١٤٦/٩٠ كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، واللفظ للبخارى .

(٤) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة، والأدب : باب فضل صلة أصدقاء الأب، والأم، ونحوهما ص ١١٢٠ رقم ٦٥١٤/١٢ من حديث ابن عمر مرفوعًا بهذا اللفظ . وأحمد فى : المسند ٩٧/٢ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر، والصلة، والأدب باب فضل أصدقاء الأب، والأم، ونحوهما ص ١١٢٠ رقم ١١٠ ـ ١٣٠، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى إكرام صديق الوالد ص ٤٤٤، ٤٤٥ رقم ١٩٠٣ كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا .

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال: يا رسول الله هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما »[(١)] هذا والشرع الحنيف ينظر إلى عقوق الوالدين، على أنه من أكبر الكبائر بعد الكفر، والشرك بالله .

إذ جاء عنه ﷺ فيما رواه عنه أبو بكرة أنه قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله : قال : ثلاثًا : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئًا فجلس فقال: « ألا وقول الزور، وشهادة الزور . ألا وقول الزور، وشهادة الزور » .

فما زال يقولها حتى قلت : لا يسكت[(٢)] .

وقال فيما رواه عنه المغيرة بن شعبة ﷺ : « إن الله عزَّ وجل حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم ثلاثًا : قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال »[(٣)] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبى ﷺ قال : « الكبائر : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس »[(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى برِّ الوالدين ص ٧٢٢، ٧٢٣ رقم ٥١٤٢ من حديث أبى أسيد مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشهادات : باب ما قيل فى شهادة الزور ص ٤٣٠ رقم ٢٦٥٤ وكتاب الأدب : باب عقوق الوالدين من الكبائر ص ١٠٤٦، ١٠٤٧ رقم ٥٩٧٦ كلاهما من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا به ورقم ٥٩٧٧ من حديث أنس بن مالك بنحوه، وكتاب الاستئذان : باب من اتكأ بين يدى أصحابه ص ١٠٩٢ رقم ٦٥٧٣ من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا به وكتاب استتابة المرتدين . . : باب إثم من أشرك بالله ص ١١٩٢ رقم ٦٩١٩ من حديث أبى بكرة، ورقم ٦٩٢٠ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب الكبائر وأكبرها ص ٥٣ رقم ٢٥٩/١٤٣/٧٨ من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا به والترمذى فى : السنن : كتاب الشهادات : باب ما جاء فى شهادة الزور ص ٥٢٧ رقم ٢٣٠١ من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا به .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب عقوق الوالدين من الكبائر ص ١٠٤٦ رقم ٥٦٧٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأقضية : باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة ص ٧٦١ رقم ٤٤٨٣/١٢/٥٩٣ كلاهما من حديث المغيرة بن المغيرة ﷺ مرفوعًا به .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأيمان والنذور : باب اليمين الغموس ص ١١٥٢ رقم ٦٦٧٥ وكتاب الديات : باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] ص ١١٨٣، ١١٨٤ رقم ٦٨٧٠، وكتاب استتابة المرتدين . . . : باب إثم من أشرك بالله ص ١١٩٢ رقم ٦٩٢٠ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ وبنحوه .

وسيأتي في ذكر الآثار المترتبة على عقوق الوالدين ، ما يؤكد : أن هذا العقوق من أكبر الكبائر .

الجانب الثالث : آثار عقوق الوالدين، وعواقبه :

لعقوق الوالدين آثار سيئة، وعواقب خطيرة على العاملين وعلى العمل الإسلامي، ودونك هذه الآثار .

أ ـ على العاملين :

من آثار عقوق الوالدين على العاملين :

١ ـ الحرمان من التجارب والخبرات :

ذلك أن النجاح في الحياة لا يقتصر على مجرد التحصيل العلمي، وإنما لابد من الخبرات والتجارب، والخبرات والتجارب يكتسبها المرء تارة بممارسته هو وتارة بممارسة الآخرين، والوالدان بالقطع أصحاب خبرات، وتجارب، وقد جرت العادة بمنح الخبرات والتجارب لمن يخفض الجناح، ويلين الجانب فإذا عق الولد أبويه وأساء معاملتهما ضنًّا عليه بخبراتهما وتجاربهما وحينئذ تكون حياته سلسلة من الفشل، والانتكاسات وكفى بذلك عقابًا .

٢ ـ الحرمان من الدعوات :

ذلك أن المرء كثيراً ما تعتريه عقبات، ومعوقات ومهما بذل من جهود لتخطيها، فإنه لا يفلح، ويبقى الدعاء السهم النافذ والورقة الأخيرة وخير الدعاء : دعاء كبار السن والضعفاء، وكلما تقدم السن بالوالدين كانا إلى الضعف أقرب، وكانت الإجابة أسرع ولكن كيف يدعو الوالدان، والابن عاق، متمرد كأن العقوق يكون سببًا في حرمان الولد من دعوات أبويه، فتتعثر حياته، وتنقطع مسيرته .

٣ ـ حلول الغضب الإلهي :

ذلك أن الوالدين من أجل نعم الله على المرء، إذ هما السبب العادي في وجوده على ظهر هذه الأرض، وبجهودهما نشأ، ونما وترعرع وصار ملء السمع والبصر، فإذا ما عقهما فقد جحد نعمة الله عليه وجحود النعمة يقتضي الغضب الإلهي، والسخط وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] .

عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبى ﷺ قال : « رضا الرب فى رضا الوالد، وسخط الرب فى سخط الوالد » (١) .

٤ ـ سقوط هيبة الولد ووقاره من قلوب الناس :

ذلك أن الناس إذا رأوا من الولد عقوقًا لوالدين، أو لأحدهما، فإنهم ينظرون إليه على أنه خائن الأمانة جاحد النعمة وحينئذ تسقط هيبته من قلوبهم ويزول وقاره من أعينهم وقد جاء ذلك مصرحًا به فى حديث النبى ﷺ إذ يقول : « احفظ ود أبيك، لا تقطعه، فيطفئ الله نورك » (٢) .

٥ ـ بغض الناس للعاق وكراهيتهم :

ذلك أن محبة الناس، والقبول لديهم له أسبابه، وبواعثه، ولكن أعظم الأسباب، والبواعث إنما هو رضا الله، ومن غضب الله عليه وسخط فإنه يحرمه محبة الناس ، وقبولهم له، بل يعاقبه ببغض هؤلاء وكراهيتهم .

وقد جاء هذا صريحًا فى الحديث : إذ يقول ﷺ : « إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : إنى أحب فلانًا فأحببه فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء، فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول : إنى أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه أهل السماء ثم توضع له البغضاء فى الأرض » (٣) .

٦ ـ عدم التوفيق للنطق بالشهادتين عند الموت :

ثم يكون العقاب الأكبر أن يأتى الموت العاق،وقد انعقد لسانه من النطق بالشهادتين

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ص ٤٤٤ رقم ١٨٩٩ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعًا، وموقوفًا، وأورده الشيخ ناصر الدين الألبانى فى صحيح الترمذى، وقال : « صحيح » برقم ١٥٤٩ وأخرجه الحاكم فى : المستدرك ١٥٢/٤ وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » وأقره الذهبى فى : التلخيص .

(٢) الحديث أورده الهيثمى : مجمع الزوائد ١٤٧/٨ وعزاه إلى الطبرانى من حديث ابن عمر ﷺ قائلاً «رواه الطبرانى فى الأوسط، وإسناده حسن » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ص ٥٣٦ رقم ٣٢٠٩ وكتاب الأدب : باب المقت من الله تعالى ص ١٠٥٥ رقم ٦٠٤٠. وكتاب التوحيد : باب كلام الرب تعالى مع جبريل ونداء الله الملائكة ص ١٢٩٠ رقم ٧٤٨٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبدًا أمر جبريل ص ١١٤٨ رقم ٦٧٠٥/٢٦٣٧/١٥٧ كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ واللفظ لمسلم .

فيختم له والعياذ بالله بالشقوة، والخسارة، لأنه لم يشكر نعمة الله عليه بل جحد هذه النعمة فأصابته لعنة الحق سبحانه وتعالى، وقد يكون من صور هذه اللعنة عدم التوفيق للنطق بالشهادتين عند حضور الموت .

٧ ـ عقوق أولاد العاق للعاق :

على العاق أن ينتظر ثمن عقوقه أبويه فى الدنيا : أن يعقه أولاده من باب : « كما تدين تدان » وقد شهد الواقع صحة ذلك وصدقه قال الأصمعى : « حدثنى رجل من الأعراب، قال: خرجت من الحىّ ، أعقّ أعق الناس وأبر الناس، فكنت أطوف بالأحياء حتى انتهيت إلى شيخ فى عنقه حبل يستقى بدلو، لا تطيقه الإبل فى الهاجرة، والحر شديد، وخلفه شاب فى يده رشاء [1] من قدّ [2] ملوىٍّ، يضربه به قد شق ظهره بذلك الحبل ، فقلت أما تتقى الله فى هذا الشيخ الضعيف ؟ أما يكفيه ما هو فيه ، من هذا الحبل حتى تضربه؟ قال: إنه مع هذا أبى قلت: فلا جزاك الله خيراً قال: اسكت فهكذا كان هو يصنع بأبيه، وهكذا كان يصنع أبوه بجده فقلت هذا أعق الناس » [3] .

٨ ـ الحرمان من الجنة ، ورؤية الله عز وجل :

إن كل حرمان فى الدنيا يمكن تعويضه بصورة أو بأخرى أما حرمان الجنة ورؤية الله عز وجل فهو الحرمان الحقيقى الذى لا يمكن تعويضه قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر] .

والعاق يحرمه الله فى الآخرة : الجنة ورؤيته سبحانه: يقول النبى ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه والمرأة المترجلة ، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى » [4] .
« رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف » قيل: مَنْ يا رسول الله ؟ قال: « من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما، أو كليهما، فلم يدخل الجنة » [5] .

---

(١) الرشاء : الحبل ، أو حبل الدلو ، ونحوها ، انظر : المعجم الوسيط ٣٤٨/١ .
(٢) القد : السوط ، وأصله : سير يقد أى : يقطع من جلد مدبوغ انظر : المعجم الوسيط ٧١٨/١ .
(٣) انظر : مساوئ الأخلاق ص ٢٥٢ .
(٤) الحديث أخرجه النسائى فى : السنن : كتاب الزكاة : باب المنان بما أعطى ص ٣٥٥ رقم ٢٥٦٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وأورده الألبانى فى : صحيح سنن النسائى رقم ٢٤٠٢ وعقب بقوله : « حديث حسن صحيح » .
(٥) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر ص ١١٩٩ رقم ٢٥٥١/٩ / ٦٥١٠ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

ب ـ على العمل الإسلامى :

من آثار عقوق الوالدين على العمل الإسلامى :

١ ـ القطيعة والفرقة :

ذلك أن العقوق سيمتد من جيل إلى جيل، وتتقاطع الأجيال، وتكون الثمرة المرة: التمزق، والفرقة، الأمر الذى ينتهى إلى الضعف والهزيمة .

٢ ـ سيطرة الأعداء :

إذا تمزقت وحدة المجتمع، وكان الضعف، والانهزام، سيطر الأعداء واستنزفوا خيرات الأمة، وثمراتها بل عملوا على تغيير هوية الأمة وثقافتها حتى يظلوا مسيطرين أطول فترة ممكنة .

٣ ـ طول الطريق، وكثرة التكاليف :

إذا أرادت الأمة التخلص من سيطرة الأعداء فى هذا الجو المتنافر الممزّق فإنها ستتحمل كثيراً من التكاليف ويطول بها الطريق، على الأقل حتى ينقضى هذا الجيل العاق، وينشأ جيل بار بأبويه محسن إليهما مترابط متماسك يقوم بواجبه فى تحرير الأمة من سيطرة الأعداء .

الجانب الرابع : أسباب عقوق الوالدين وبواعثه :

لعقوق الوالدين : أسباب تؤدى إليه، وبواعث نوقع فيه نذكر منها :

١ ـ سوء التربية الأسرية :

يتمثل سوء التربية الأسرية فى التسمية القبيحة للولد، وإهمال تعليمه كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ وعدم تعريفه بفضل الوالدين وحقوقهما، وعواقب العقوق الضارة، وآثاره السيئة .

وهذا بدوره ينتهى بالمرء لا محالة إلى عقوق الوالدين وحرمانهما من أى صورة من صور البرّ ، والإحسان .

٢ ـ صحبة العاقين آباءهم :

قدمنا غير مرة أثر الصحبة فى تشكيل شخصية المرء، وانطلاقًا من ذلك : فإن المرء قد يجد نفسه فى وسط من الأصحاب شأنهم عقوق آبائهم ويتأثر بهم ويحاكيهم ويصير عاقا لأبويه مثل قرنائه .

٣ ـ وقوف العاق عند حاضره والغفلة عن ماضيه :

قد يأخذ الله سمع العاق، وبصره، فلا يرى إلا ما تحت قدميه من أنه ابن الحاضر، أما الماضي المتمثل في حمله، وولادته، وإرضاعه، ورعايته حتى بلغ أشده واستقلاله بنفسه فينساه العاق، أو يتناساه، وإذا انتهت به الرؤية إلى هذا الحال فأي باعث يحمله على بر هذين الأبوين صبراً وتحملا وإحسانًا وأي مبرر يحمله على ترك عقوقهما في أيّ من صور العقوق .

وقد صور هذا أمية بن أبي الصلت حين عتب على ابنه يومًا ، وقد امتنع من الإنفاق عليه لما كبر وشاخ ، فقال مخاطبًا له :

غَذَوْتكَ مولـوداً وعلتـك يافعـاً	تُعَـلُّ بمـا أجنى عليـك وتَنْهَلُ
إذا ليـلة نابتك بالشجو لم أبت	لشكواك إلا سـاهراً أتململ
كأني أنا المطـروق دونـك بالذي	طرقت بـه دونـي فعيني تهمـل
تخاف الردى نفسي عليـك وإنني	لأعلم أن المـوت حتـم مؤجـل
فلما بلغت السـن والغـاية التي	إليها مدى ما كنت فيـك أؤمِّلُ
جعلت جـزائي غلظة وفظاظة	كأنـك أنت المنعـم المتفضـل
فليتـك إذ لم تـرع حق أبوتي	فعلت كما الجارُ المجاور يفعل [1]

٤ ـ الإستجابة لضغط الزوجة :

ذلك أن الأبوين لا سيما الأم ينظران إلى زوجة الابن نظرة كراهية ونفور في الغالب، ظانين أن هذه الزوجة قد انفردت بالابن واستحوذت عليه دونهم ، وكذلك الزوجة تريد أن يكون الزوج لها ولا نصيب للأبوين فيه، وقد تكون لها الحظوة عند الزوج فتفرض عليه الانقطاع عن أبويه ويستجيب لها ويكون العقوق والعياذ بالله .

٥ ـ إهمال النفس من التفقد والمحاسبة :

قد يهمل المرء نفسه من التفتيش والتفقد، والمحاسبة، ويجد : أن هذه النفس انتهت به إلى عقوق الأبوين، وحرمانهما حقهما في الرعاية، والعناية، ولو كان واعيًا أو عاقلاً، لحاسب نفسه على كل صغيرة، وكبيرة من أمره، لا سيما عقوق الأبوين .

---

(١) انظر : الاغاني لابي فرج الأصفهاني ١٩١/٣ .

٦ ـ تقصير المجتمع فى القيام بواجبه نحو العاقين :

قد يقصر المجتمع فى القيام بواجبه نحو العاقين من النصح، والدعوة إلى التحرر من العقوق، بل الإلزام بذلك بالأسلوب المناسب وأدناه الإنكار القلبى المتمثل فى مقاطعة العاق ومحاصرته حتى يجد نفسه فرداً تعطلت مصالحه إذا قصَّر المجتمع فى القيام بهذا الواجب كان استمرار العقوق والقطيعة .

٧ ـ تقصير ولى الأمر فى القيام بواجبه نحو العاقين :

إذا قصر ولى الأمر فى القيام بواجبه نحو العاقين بما منحه الله من سلطان ، وقوة فلم يوجه أو يرشد هؤلاء ، ولم يخوِّف ويرهب، ولم يعاقب بالأسلوب المناسب .

إذا قصر فى القيام بهذا الواجب تكون العاقبة الاستمرار فى العقوق والقطيعة .

٨ ـ قسوة الأبوين فى معاملة الابن :

قد يرى الوالدين نفسيهما أصحاب قدرة وسلطان على الصغير، فيقسوان عليه فى المعاملة، ويشب الابن، وقد تكرست فى داخله آفة الحقد ، حتى إذا قوى عوده ، واستوى على سوقه دعته آفة الحقد إلى الانتقام، والثأر، وبعبارة أخرى إلى العقوق . والعياذ بالله .

٩ ـ حب الدنيا والتنافس عليها :

قد يبتلى المرء بحب الدنيا، والتنافس عليها، وبمرور الزمن يصير أسيراً أو عبداً لديها تلعب به، وتوجهه كما تشاء ، بل تنسيه واجبه نحو أبويه، وربما التفنن فى إيذائهما وإلحاق الضرر بهما .

١٠ ـ نسيان أو تناسى عواقب العقوق :

قد ينسى أو يتناسى العاق : عواقب العقوق الدنيوية ، والأخروية سواء على نفسه، أو على العمل الإسلامى وهما فى مجملها التعاسة والشقاء فى الأولى ، والآخرة .

عندما ينسى المرء ، أو يتناسى هذه العواقب، فإنه يتمادى فى العقوق ويغرق فيه من مفرق رأسه، إلى أخمص قدميه .

وهكذا ينهى نسيان أو تناسى العواقب إلى الاستمرار فى العقوق والقطيعة .

خامسًا : علاج عقوق الوالدين والوقاية :

ويأتى بعد هذا البيان والتفصيل دور العلاج، والوقاية، ويتلخص فى :

١ ـ أن يقوى العاق ملكة المراقبة لله لديه :

ذلك أن العاق إذا عرف ربه حق المعرفة، أيقن أن ربه الواحد الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وأنه يحصى عليه العقوق، وغير العقوق، وقد يعاقبه فى الدنيا أو يؤخر العقاب للآخرة وخير له أن يقلع عن هذا العقوق، وأن يشفعه بالبر والإحسان من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وأفضل طريق لتقوية هذه الملكة : دوام النظر فى النفس، وفى الكون، ومعايشة القرآن الكريم، ودراسة هدى النبى الأمين محمد ﷺ والاطلاع على أحوال السلف.

٢ ـ أن يتعرف العامة ماهية العقوق وحقيقته :

ذلك أن العاق إذا أدرك ماهية العقوق، وصوره، وحكمه، وأدلة هذا الحكم، وآثاره، وعواقبه والأسباب المؤدية إليه وبلغ به هذا الإدراك حد اليقين، فإنه قد يقلع عن عقوقه، ويأخذ فى التحلى بالبر والإحسان لوالديه، إذ من جهل شيئًا عاداه، ومن عرف شيئًا صادقه ووالاه .

٣ ـ أن يستل العاق نفسه من الوسط العفن إلى وسط نقى نظيف :

ذلك أن على العاق أن يستل نفسه من الوسط العفن الذى نشأ فيه، وأحاط به، وقاده إلى العقوق، وينقلب إلى وسط نقى نظيف، عارف بحقوق الوالدين، قائم بها عن طواعية ورضا، فيتشكل سلوكه من جديد على أساس من البر والإحسان لا على أساس من القطيعة والعقوق .

٤ ـ أن تتخلص الأسرة من رواسب الماضى المبنى على العقوق وتتحلى بنقيض ذلك :

ذلك أن على الأسرة التى عاشت العقوق، فأفسدت أخلاق أولادها، وربتهم على هذا العقوق ، أن تتخلص بكل الأساليب والوسائل من رواسب هذا العيش ، وتفتح صفحة جديدة كلها بر وإحسان إلى الناس جميعًا لا سيما الوالدين .

إنها لو نجحت فى القيام بتعديل سلوكها فإن ذلك له أعظم الأثر فى تعديل سلوك الأولاد، ووضع أقدامهم على الطريق الصحيحة .

٥ ـ أن يحزم المرء أمره مع نفسه : مشارطة، ومراقبة، ومحاسبة :

ذلك أن على المرء أن يكون حازمًا مع نفسه، فيخوفها حتى يتحرك فيها وازع الخير وحين يتحرك هذا الوازع يبدأ يشترط عليها ألا تعود إلى العقوق، وإن عادت فعاقبها متعدد الأساليب متنوع المذاق، ثم يراقبها ليرى أتفى أم تغدر، وإن غدرت قام بعقابها، وتأديبها ويظل معها على هذه الحال حتى تتخلص من العقوق ، وتعمل على التحلى بالنقيض من البر والإحسان .

٦ ـ أن يتحرر الأبوان من القسوة مع التحلى بالرحمة والشفقة :

ذلك أنه إذا تحرر الأبوان من القسوة فى معاملة الأولاد وعملا على التحلى باللين والرحمة والشفعة، فإن لذلك أعظم الأثر فى اقتلاع جذور الحقد من أغوار النفس ، وما يؤدى إليه من العقوق، ثم العمل على التحلى باللين، والرحمة، والشفقة، وما تؤدى إليه من البر والإحسان بالأبوين .

وصدق النبى ﷺ فى قوله : « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه ، وما نزع من شىء إلا شانه »[1] .

٧ ـ أن يتحرر العاق من حب الدنيا والتنافس عليها :

ذلك أن المرء إذا أخرج حب الدنيا من قلبه، وكسبها من حلال، بلا ذل ولا هوان، وانفقها إنفاقًا وسطًا، وأدى الذى عليه فيها فإن ذلك قد يحمله على أن يقدر فضل أبويه ومكانتهما، والجهد الذى بذل فى التنشئة، والتربية، فيتخلص من القطيعة والعقوق، ويتحلى بالبر والإحسان .

٨ ـ ألا يستجيب العاق لضغوط الزوجة :

ذلك أن على العاق أن يفهم زوجته أنه ليس له أن يكرهها على بر والديه، وليس لها كذلك أن تمنعه من طاعة والديه والبر بهما والإحسان إليهما لما لهما لديه من عظيم الفضل، والمعروف أنه لو جاملها، فقطع أبويه للزمه العقاب إن فى الدنيا وإن فى الآخرة وإن فيهما جميعًا وأنها لن تنفعه بشىء يوم يفر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته وبنيه وأنه لو عرض عليه يوم القيامة أن يفدى نفسه لفداها بملء كنوز الأرض ذهبًا. إن العاق لو فعل ذلك لساعده على التخلص من العقوق ودخل به إلى ميدان الشفقة والصلة، والبر ، والإحسان بالوالدين .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

٩ ـ أن يتذكر العاق نعمة الأبوين عليه :

ذلك أن المرء إذا عرف مقدار الجهد الذى بذله الأبوان فى التعليم، والتربية، والرعاية، والسرور والفرحة، والبكاء لحزنه وانشغال البال عليه حتى بلغ الأشد، واستقل بنفسه إذا عرف العاق ذلك معرفة حقيقية تجاوزت الآذان إلى القلب، والجنان، فإنه يرجى أن يتخلص من العقوق وأن يتحلى بالبر والإحسان .

١٠ ـ أن يقوم المجتمع بواجبه نحو العاقين :

يتجلى دور المجتمع فى قيامه بواجبه نحو العاقين فى بذل النصيحة، والدعوة إلى التخلى عن العقوق، فإن استجاب المرء فبها ونعمت وإلا اتخذ خطوات عملية أدناها الإنكار القلبى المتمثل فى المقاطعة والحصار حتى يشعر العاق أن مصالحه تعطلت ، وأنه صار منبوذًا لجريمته النكراء من كل أبناء المجتمع .

أجل إن العاق إذا شعر بذلك ربما حمله هذا على التحرر من العقوق والانقلاب إلى نقيضه من البر والإحسان .

١١ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه نحو العاقين :

يتلخص واجب ولى الأمر نحو العاقين بترهيب هؤلاء من العقوق ، وترغيبهم فى البر، وإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليكن العقاب الفعلى الذى يتناسب مع نوع العقوق، ويقينى أن الإمام حين يستخدم سلطانه، مع السَّير على نفس الخطوات التى مضى الحديث عنها آنفًا، فإن ذلك سيكون له دور كبير فى القضاء على العقوق ، أو على الأقل تضييق دائرته .

١٢ ـ أن يمعن العاق النظر فى سير العاقين لآبائهم ، والبارِّين بهم :

ذلك أن النظر فى سير الماضين الصالحين ، والصالحين غالبًا ما يكون له أثر واضح فى مراجعة المرء نفسه، بحيث يحملها على التطهر من الرذيلة والتحلى بالفضيلة .

وعليه فإن إمعان العاق النظر فى سير العاقين لآبائهم والبارين بهم قد يحمله على المراجعة، والتعديل من سلوكه، لا سيما إذا كان صادق التوجه ، قوى العزيمة ، متجردًا من حوله، وقوته، محتميًا بحول الله، وقوته .

ودونك بعض صور البر :

« عن محمد بن المنكدر المتوفى سنة ثلاثين ومائة : أنه كان يضع خدَّه على الأرض ثم يقول لأمه : قومى ضعى قدمك على خدِّى »[١] .

و« عن منصور بن المعتمر أن ابن هبيرة حبسه شهراً يريده على القضاء، فأبى فصاحت به أمه يومًا، وكان جالسًا فى منزله، وكانت فظة عليه تقول له : يا منصور : يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى ، فما دفع طرفه إليها »[٢] .

و« عن كهمس بن الحسن التميمى البصرى المتوفى سنة تسع وأربعين ومائة : أنه أراد قتل عقرب فدخلت فى جحر، فأدخل أصابعه خلفها فضربته فقيل له : قال : خفت أن تخرج فتجىء إلى أمى تلدغها »[٣] .

و « عن عبد الله بن عون المزنى البصرى المتوفى سنة إحدى وخمسين ومائة : أن أمه نادته فأجابها فعلا صوته صوتها، فأعتق رقبتين »[٤] .

و« عن محمد بن بشار الملقب بندار ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين قال : أردت الخروج ـ يعنى الرحلة فى طلب الحديث ـ فمنعتنى أمى فأطعتها برًا بها فبورك لى فيه »[٥] .

و « كان أحمد بن على من مسلم المعروف بابن الأبار المتوفى سنة تسعين ومائتين من أزهد الناس، واستأذن أمه فى الرحلة إلى قتيبة ، فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خراسان، ثم وصل إلى بلخ ـ إحدى ولايات أفغانستان وقد مات قتيبة فأخذ الناس يعزونه على هذا يعنى لوفاة قتيبة دون أن يسمع منه فقال: هذا ثمرة العلم، إنى أخذت رضا الوالدة »[٦] يعنى العلم حمله على بر أمه وهو فرض على الرحلة وهى نافلة.

و« عن حفصة بنت سيرين قالت: كانت والدة محمد حجازية ، وكان يعجبها الصِّبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبًا اشترى ألين ما يجد ، فإذا كان عيد صَبَغَ لها ثيابًا ، وما رأيته رافعًا صوته عليها ، كان إذا كلمها كالمصغى إليها »[٧] .

---

[١] انظر : تهذيب سير اعلام النبلاء ٤٩٦/١، فقرة : (٢) .
[٢] انظر : تهذيب سير اعلام النبلاء ٥٠٥/١، فقرة : (٥) .
[٣] انظر : تهذيب سير اعلام النبلاء ٥٤١/٢، فقرة : (٦) .
[٤] انظر : تهذيب سير اعلام النبلاء ٥٤٤/٢، فقرة : (٦) .
[٥] انظر : تهذيب سير أعلام النبلاء ٨٧٧/٢، فقرة : (٣) .
[٦] انظر : تهذيب سير أعلام النبلاء ٩٨٩/٢، فقرة : (٣) .
[٧] انظر : تهذيب سير أعلام النبلاء ٤٥٩/٢، ٤٦٠، فقرة : (٧) .

الآفة الثالثة والأربعون
قطيعة الرحم

والآفة الثالثة والأربعون التى ابتلى بها نفر من العاملين وكان لها دور كبير فى الإسهام فيما تعانى منه الأمة المسلمة اليوم من الفرقة والقطيعة إنما هى: «قطيعة الرحم».

وحتى يتطهر من هذه الآفة من ابتلى بها ويتحصن ضدها من سلمه الله ـ عز وجل ـ منها فإننا سنعرض لها من هذه الجوانب :

الجانب الأول : تعريف قطيعة الرحم والمظاهر الدالة عليها :

لغة : قطيعة الرحم مركب إضافى مؤلف من كلمتين هما : « قطيعة » و« الرحم » ولابد من تعريف كلٍّ على حدة قبل التركيب ثم تعريف المركب بعد ودونك البيان .

أ ـ قطيعة : تأتى القطيعة على معان نذكر منها :

١ ـ الفصل والإبانة تقول: قطع الشيء قطعًا: فصل بعضه، وأبانه، وقطع الثمر: جزه .

٢ ـ الترك : والهجر، تقول : قَطَعَ الصديق : تركه، وهجره وقطع رحمه : هجرها، ولم يصلها [(١)] .

ولا تعارض بين المعنيين إذ القطيعة : الهجران، والترك أو الصد على سبيل الفصل، والإبانة .

ب ـ الرحم : تطلق الرحم على معان نذكر منها :

١ ـ موضع تكوين الجنين ووعاؤه فى البطن .

٢ ـ القرابة غير العصبة وغير ذوى الفروض كبنات الإخوة، وبنات الأعمام[(٢)] .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ٢/ ٧٤٥، ٧٤٦، الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٩٣٥.

(٢) انظر : المعجم الوسيط ١/ ٣٣٥، الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٣٧٣.

ولعل التعريف الثالث أولى؛ لأنه الذى يتفق مع جوهر الإسلام الذى يدعو إلى الوحدة والتآلف لا إلى الفرقة، والتباغض .

قطيعة الرحم اصطلاحًا : هى هجر الأقارب هجرًا يتمثل فى عدم البر بهم، والإحسان إليهم، وتوفير ما هم بحاجة إليه، بل ربما إيذائهم باليد أو باللسان أو بهما معًا دون توقف أو انقطاع .

ولقطيعة الرحم مظاهر تعرف بها، ومنها :

١ ـ الإيذاء باللسان من الغيبة ، والنميمة، والإشاعات، وإفساد ذات البين، والسب، والشتم، واللمز، والتنابذ بالألقاب، ونحوها .

٢ ـ الإيذاء باليد من الضرب، والحرمان من العون المادى، والمعنوى .

٣ ـ عدم تحمل أذى ذوى الأرحام، اللسانى، واليدوى .

٤ ـ عدم العفو عن أخطاء ذوى الأرحام، ومسامحتهم .

٥ ـ حجب المعروف عنهم من : السؤال، والمواساة وقت الشدة والتهنئة بالنعمة، والزيارة، وإبراز فضلهم ومكانتهم، والابتسام فى وجوههم، والإفساح فى المجلس، وهلم جرًا .

الجانب الثانى : آثار قطيعة الرحم ، وعواقبه :

لقطيعة الرحم آثار ضارة ، وعواقب وخيمة سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، ودونك هذه الآثار ، وتلك العواقب :

أ ـ على العاملين :

أما آثار قطيعة الرحم على العاملين فكثيرة نذكر منها :

١ ـ الحرمان من العون والتأييد الإلهى :

ذلك أن الله سبحانه أمضى سنته بوصل من وصل رحمه : وقطع من قطع هذه الرحم، ولا معنى لقطيعة الله للعبد سوى الحرمان من العون، والتأييد .

وقد وردت النصوص بذلك ، إذ يقول ﷺ : « الرحم معلقة بالعرش، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله »[1] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

وإذ يقول : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » ثم قال رسول الله ﷺ اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد] [1] .

وإذ يقول أيضًا : « قال الله ـ تبارك وتعالى ـ أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته » [2] .

٢ ـ حلول اللعن الإلهي والطرد من رحمته سبحانه :

ذلك أن الله لا يثني على قاطع الرحم ، ولا يدنيه منه، ولا يصيبه برحمته بحال.

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد] .

٣ ـ نزع البركة من الرزق، والعمر :

ذلك أننا موعدون من ربنا حين نصل رحمنا بالبركة في الرزق، والبركة في العمر، فإذا ما كانت قطيعة كان العقاب بنزع البركة منهما معًا .

إذ يقول ﷺ : « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ في أثره ، فليصل رحمه » [3] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب من وصل وصله الله ص ١٠٤٨ رقم ٥٩٨٧، وكتاب التفسير : سورة محمد: باب ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد] ص ٨٥٥ رقم ٤٨٣٠، ٤٨٣١، ٤٨٣٢، وكتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ١٥] ص ١٢٩٢ رقم ٧٥٠٢، ومسلم في الصحيح : كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ص ١١٢١ رقم ٢٥٥٤/٦٥١٨/١٦ كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) الحديث أورده المنذري في : الترغيب والترهيب ٣/ ٣٤٠ من حديث أنس مرفوعًا، وعقب عليه بقوله : « رواه البزار ، وإسناده حسن » والهيثمي في : مجمع الزوائد ٨/ ١٥١ وعزاه إلى البزار قائلاً : « رواه البزار، وإسناده حسن » .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ورقم ٥٩٨٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا وكتاب البيوع : باب من أحب البسط في الرزق ص ٣٣٢ رقم ٢٠٦٧ من حديث أنس ومسلم في : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم ، وتحريم قطيعتها ص ١١٢١، ١١٢٢ رقم ٢٥٥٧/٦٥٢٣/ ٢٠، ٢١ من حديث أنس بن مالك مرفوعًا .

والواقع يصدق ذلك ، إذ رأينا قاطع الرحم يتنكر له أرحامه، ويتركونه وحده فى العراء، فيعتدى عليه الآخرون، فيسلبونه ماله فيعيش فى ضيق، وفقر، كما يعيش مكدر البال والخاطر، فيضيع عمره بددًا بلا طائل ولا فائدة .

٤ ـ عدم قبول العمل :

خلق الله الإنسان وفيه من الضعف ما يجعله ينهار أمام الإغراءات والشهوات . كما خلق فيه من القوة ما يمكنه من المقاومة لو أراد، وحين يقاوم المرء نفسه؛ ليصلح من شأنه ويسدد مسيرته وتبقى له أخطاء، فإن هذه الأخطاء لا تحول دون قبول الطاعات أو الصالحات إلا خطأ قطيعة الرحم، فإنه يمنع قبول أى طاعة، أو عمل صالح .

يقول ﷺ : « إن أعمال بنى آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم » (١) .

٥ ـ تعجيل العقوبة فى الدنيا :

ذلك أن كل ذنب يقتضى حلول العقوبة ، إن عاجلاً أو آجلاً ، إلا ذنب البغى وقطيعة الرحم ، فإن الله يعجل عقوبتهما فى الدنيا شفاء لصدور ذوى الأرحام من ناحية، وتحذيراً للآخرين من التورط فى قطيعة الرحم من ناحية أخرى .

إذ يقول ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر من البغى وقطيعة الرحم » (٢) .

٦ ـ الحرمان من الجنة :

ذلك أن الله جعل الجنة دار المثوبة، والمكافأة فى الآخرة لمن آمن وعمل صالحًا ، ومن قطع رحمه لم يعمل الصالحات، بل ربما استحل، ذلك فيكفر والعياذ بالله، فيكون مصيره الحرمان من الجنة إما على الدوام، أو لفترة تتناسب مع هذا الجرم، ثم يكون العفو ودخول الجنة يقول ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع » (٣) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن :كتاب صفة القيامة : باب فى عظم الوعيد على البغى وقطيعة الرحم ص ٥٧١ رقم ٢٥١١ من حديث أبى بكرة ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب عليه بقوله : «هذا حديث حسن صحيح » وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى النهى عن البغى ص ٦٩١ رقم ٤٦٠٢ من حديث أبى بكرة مرفوعًا ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب البغى ـ ٦١٣ رقم ٤٢١١ من حديث أبى بكرة مرفوعًا .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

ويقول ﷺ : « إن أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن ـ عز وجل ـ فمن قطعها حرمه الله الجنة » [(١)] .

٧ ـ كراهة ذوى الأرحام للقاطع ودعاؤهم عليه والتخلى عن نصرته :

ذلك أن حَجْبَ البر والمعروف عن ذوى الأرحام، بل أذاهم والإساءة إليهم تحملهم على كراهية القاطع ودعائهم عليه ودعوتهم مجابة لحديث : « الرحم معلقة بالعرش، تقول : من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله » [(٢)] . بل إنهم ليتخلون عن نصرته، ومؤازرته فينال الناس منه .

٨ ـ فقد القاطع ثقة الناس واحترامهم :

ذلك أن الناس يثقون بمن يعطف على أهله، ويحترمونه، فإذا قطع رحمه سحب الناس ثقتهم به، واحترامهم له من باب : أنه إذا لم يكن به خير لقراباته، فلا خير فيه لأحد أبدًا .

٩ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أنه قاطع الرحم مرتكب كبيرة من الكبائر ومثل هذا يسود قلبه على مدار الأيام وسواد القلب مرضه وقلقه واضطرابه وصدق الحق سبحانه إذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

وإذ يقول : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار قطيعة الرحم على العمل الإسلامى فتتمثل فى :

١ ـ تمزيق وحدة المجتمع والأمة :

ذلك أنه إذا انقطعت الأرحام ، فقد تمزَّقت وحدة المجتمع والأمة وإذا تمزقت وحدة المجتمع، والأمة صار من السهل على الأعداء النيل من كرامة هذا المجتمع ، وهذه الأمة بالسيطرة على الأرض، وأخذ الثروات، والعمل على تغيير الهوية، والثقافة .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ص ٦٨٨ رقم ٤٨٧٦ من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا مختصرًا، ورقم ٤٨٧٧ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بنحوه وأحمد فى : المسند ١/ ١٩٠ (ص ١٦٩، ١٧٠ رقم ١٦٥١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

٢ ـ كثرة التكاليف، وطول الطريق :

وحين ينال الأعداء من كرامة المجتمع، والأمة، ويعمل أبناء هذا المجتمع، وهذه الأمة على التخلص من هؤلاء الأعداء، فإنهم يعانون من كثرة التكاليف جهداً ووقتاً ومالاً، فضلاً عن طول الطريق .

الجانب الثالث : حكم قطيعة الرحم وأدلة هذا الحكم :

قطيعة الرحم بلا مبرر شرعى كبيرة من الكبائر للآيات، والأحاديث الدالة على ذلك.

إذ يقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع »[١] .

وإذ يقول : « الرحم معلقة بالعرش، تقول : من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله »[٢] .

وإذ يقول : « إن أعمال بنى آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم »[٣] .

كما أنهى كبيرة من الكبائر للآثار والعواقب المترتبة عليها كما سيظهر بعد قليل .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى صلة الرحم ص ٤٤٦ رقم ١٩٠٩ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه مرفوعًا ، وزاد فى آخره : « قال ابن أبى عمر . قال سفيان : يعنى قاطع رحم » وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » ، والبخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب إثم القاطع ص ١٠٤٨ رقم ٥٩٨٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ص ١١٢١ رقم ٢٥٥٦/ ٦٥٢٠/ ١٨ كلاهما من حديث جبير بن مطعم مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ص ١١٢١ رقم ٢٥٥٥/٦٥١٩/ ١٧ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بهذا اللفظ والبخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب من وصل وصله الله ص ١٠٤٨ رقم ٥٩٨٩ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بلفظ: « الرحم شجنة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٢/ ٤٨٤ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ٨/ ١٥١، وعقب عليه بقوله : « رواه أحمد، ورجاله ثقات » . وكذلك قال عنه الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

الجانب الرابع : أسباب قطيعة الرحم :

هناك أسباب تدفع إلى قطيعة الرحم، وبواعث تحمل عليها : نذكر منها :

١ ـ تعطل شرع الله لا سيما الجهاد :

ذلك أن إعمال شرع الله لا سيما الجهاد يكون سببًا فى توظيف طاقات كل فرد من أفراد الأمة : بحيث تختفى الجريمة، ويكون الترابط، والوحدة، وعلى العكس، فإن تعطيل شرع الله لا سيما الجهاد يؤدى إلى شيوع الجريمة، ومنها الخصومات وقطيعة الرحم، وصدق الله الذى يقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد : ٢٢] .

٢ ـ إساءة ذوى الأرحام مع الحرص على المقابلة بالمثل :

ذلك أن صنفًا من الناس إذا اعتدى عليه يحرص على المعاملة بالمثل متمثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

وعليه فمن لقى من رحمه إساءة، فإنه يحرص على مقابلة هذه الإساءة، بمثلها، وهذه هى قطيعة الرحم .

٣ ـ الغفلة عن قيمة الرحم وفضلها :

ذلك أن للرحم قيمة كبيرة وفضلاً عظيمًا عند الله حسبنا أنها :

- سبب فى صلة الله للواصل، وقطيعة للقاطع .
- وسبب فى سعة الرزق وبركة العمر : وعمران الديار .
- وسبب فى قبول العمل، ودخول الجنة .
- وسبب فى أن الصدقة عليها صدقة وصلة .
- وعلامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر .
- وسبب فى حفظ حرمة الواصل . وهيبته، وكرامته .
- وسبب فى راحة البال، وطمأنينة القلب .
- وسبب فى الدعاء بالخير بظهر الغيب .

ـ وسبب فى الحماية من ميتة السوء .

ـ وسبب فى تكفير الخطايا، ومحو الذنوب .

ـ وسبب فى الظفر بأعلى الدرجات فى الجنة وهكذا .

ومن غفل عن هذه الفضائل وتلك القيمة فإنه يتورط لا محالة فى قطيعة الرحم، لأن من جهل شيئًا عاداه لما قال الله عز وجل : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩] .

٤ ـ سوء التربية :

قد يُربى المرء تربية سيئة قوامها نسيان ذوى الأرحام بل إيذاؤهم بكل ما تتضمنه كلمة إيذاء فلا تتولى الأسرة التعريف بذوى الأرحام وفضلهم، ومكانتهم، كما لا تحرص على صلتهم بأى من صور الوصل، وينشأ المرء حينئذ، وليس فى ذهنه شىء اسمه الأرحام، وضرورة صلة هذه الأرحام .

٥ ـ عدم قيام المجتمع بواجبه نحو قاطعى الرحم :

قد لا يقوم المجتمع بواجبه نحو قاطعى الرحم من : النصح والوعظ والإرشاد ومحاولة الإصلاح، والإنكار القلبى المتمثل فى المقاطعة، والحصار بحيث يشعر كل قاطع رحم بأن مصالحه فى خطر .

قد لا يقوم المجتمع بهذا الواجب، وحينئذ يتجرأ من يريد قطيعة رحمه؛ لأنه لا يرى أمامه من يقاومه، ويرده عن غيِّه، وباطله .

٦ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه نحو قاطعى الرحم :

كما أنه قد يقصر ولى الأمر فى القيام بواجبه نحو قاطعى الرحم من : النصح ، والوعظ ، والإرشاد، والإصلاح مستخدمًا الترغيب، والترهيب حين يقصر ولى الأمر فى القيام بهذا الواجب فإن كل قاطع رحم سيتجرأ على هذه القطيعة، والتمادى فيها ، وصدق عمر وعثمان رضي الله عنهما فى قولهما: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(١)] .

٧ ـ عدم الاطلاع على أحوال القاطعين أرحامهم فى الماضى والحاضر :

ذلك أن السعيد من وعظ بغيره، وذلك يقتضى معرفة النتائج التى جناها غيره فى

(١) الأثر سبق تخريجه .

الماضى، والحاضر من وراء قطيعته لرحمه، ومن لم يحرص على معرفة هذه النتائج وتلك الأحوال فإنه يتورط فى قطيعة الرحم والتمادى فيها إلى حد الخسارة والبوار .

٨ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على قطيعة الأرحام :

قدمنا أن لقطيعة الأرحام آثار ضارة، وعواقب وخيمة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى ومن غفل عن هذه العواقب وتلك الآثار سيتورط لا محالة فى قطيعة الأرحام، ويتمادى فيها تماديًا لا يردعه خوف عاقبة، أو تقدير أثر .

الجانب الخامس : علاج قطيعة الرحم، والوقاية :

يمكن علاج قطيعة الرحم، والوقاية من هذه القطيعة، وذلك باتباع هذه الخطوات:

١ ـ أن يطبق شرع الله فى الأرض :

إن تطبيق شرع الله فى الأرض من لدن : لا إله إلا الله إلى : إماطة الأذى عن الطريق، سيجعل كل طاقات الأمة، والمجتمع فى شغل دائم، بحيث لا تبقى أية لحظة فراغ يمكن أن يستغلها شياطين الإنس، والجن فى نشر الجريمة، والإغراء بقطيعة الرحم وذلك هو المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] .

٢ ـ أن تقابل إساءة ذوى الأرحام بالإحسان :

لقد علمنا الله فى كتابه أن مقابلة الإساءة بالإحسان تحول الأعداء إلى أصدقاء والمتنافرين إلى متآلفين، متحابين . فقال سبحانه : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت] .

وعليه فإن المرء إذا لقى من ذوى رحمه إساءة، وأراد العلاج بل الوقاية فليحرص على مقابلة هذه الإساءة بالإحسان المتمثل فى صلة هؤلاء الأرحام .

وقد نبه النبى ﷺ لذلك بقوله : « ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » [1] .

٣ ـ أن يذكر المرء على الدوام قيمة صلة الرحم، وعواقب القطيعة :

مرّ بنا قيمة صلة الرحم، وفضلها، كما مر بنا كذلك عواقب القطيعة والعلاج بل

(١) الحديث سبق تخريجه .

الوقاية يقتضى أن يذكر القاطع على الدوام فوائد صلة الأرحام وعواقب قطيعتها سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى ، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات] .

والذى يقول : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى] .

ودوام التذكير قد يكون سببًا فى الإقلاع عن القطيعة والتحلى بالصلة .

٤ ـ أن يربى المرء على الترغيب فى صلة الأرحام والترهيب من القطيعة :

المرء بطبيعته ينسى ، وعلاج النسيان التذكير، والمعايشة، والأخذ بالأيدى للتنفيذ، والتطبيق، وعليه فإن قاطع الرحم فى مسيس الحاجة إلى من يعايشه، ويأخذ بيده نحو صلة الأرحام، بل إن الواصل لا غنى له عن هذه المعايشة حتى لا يتغير، ويبتلى بالقطيعة على نحو ما صنعت أم النبى محمد ﷺ حين أخذته فى زيارة لأقارب أبيه بيثرب ـ المدينة المنورة ـ وهو صغير لينشأ على رعاية فضيلة صلة الأرحام، والوقاية من القطيعة.

٥ ـ أن يقوم المجتمع بواجبه فى علاج قطيعة الأرحام :

إن للمجتمع دوراً كبيراً فى علاج قطيعة الأرحام، وعلى هذا المجتمع أن يقوم بهذا الدور نصيحة ووعظًا، وإرشادًا، وإصلاحًا، وحصاراً للقاطع، وحربًا لتعطيل مصالحه إلى أن يقلع عن هذه القطيعة، ويتحلى بصلة الأرحام .

وليس هذا من المجتمع تدخلاً فى شؤون الغير بل هو جزء من وظيفته ومهمته إذ يقول سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

٦ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه نحو قاطعى الأرحام :

كذلك لولى الأمر دور كبير فى إصلاح قاطعى الأرحام، وعلى هذا الولى أن يقوم بهذا الواجب : نصحًا، وإرشادًا ووعظًا وإصلاحًا، وترغيبًا، وزجراً، وتخويفًا، قبل أن يلقى ربه ويعرض نفسه للسؤال، والمحاسبة .

إذ يقول ﷺ : « كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته والرجل فى أهله راع ومسؤول عن رعيته . . . الحديث » [1] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

٧ ـ أن يطلع القاطع لرحمه على النتائج التى وصل إليها قاطعو الرحم :

ذلك أن المرء يستطيع أن يقلع عن قطيعة الرحم، ويصون نفسه عن العودة إلى هذه القطيعة حين يطلع على النتائج التى وصل إليها قاطعو الرحم فى الماضى، والحاضر، علّ هذا الاطلاع يساعد قاطعى الرحم على أن يقلعوا عن هذه الآفة، ويتحلوا بعكسها من صلة الأرحام إما اقتداءً وتأسيًا، وإما تشبهًا ومحاكاة .

٨ ـ أن يقف المرء على حكم قطيعة الأرحام :

إذا وقف المرء على حكم قطيعة الأرحام، وأدلة هذا الحكم النقلية والعقلية، والواقعية، وكان حريصًا على تنفيذ حكم الله، ورسوله، فإنه سيقلع عن قطيعة الرحم، ويتحول إلى صلة هذه الرحم، من باب : أن المسلم لا يسعه أمام حكم الله ورسوله إلا أن يسمع ويطيع .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

[النور]

٩ ـ أن يتحلى قاطع رحمه بتقوى الله :

إن إقلاع قاطع رحمه عن هذه الآفة ليس بالأمر الهين، ولا بالأمر اليسير، وحتى يسهل عليه ذلك فإن عليه أن يتحلى بتقوى الله عن ترك المعاصى والسيئات صغيرها، وكبيرها، ظاهرها، وباطنها وأن يكثر من الطاعات ظاهرها وباطنها، صغيرها وكبيرها لا سيما الدعاء : أن يلين الله قلبه وجلده، وجوارحه فيقلع عن قطيعة رحمه، ويقبل على صلتها، وتقوية هذه الصلة .

١٠ ـ أن يعين الأرحام قاطع الرحم على نفسه لتجاوز محنته :

ذلك أن قاطع الرحم قد يقلع عن قطيعته، ويمشى إلى رحمه يريد وصلها ، فيجد من الأرحام إعراضًا، وصدودًا، وحتى يتجاوز القاطع محنته فإنَّ على الأرحام أن يلينوا بالاستجابة، والتشجيع، والمسامحة، وأن يشكروا له عمله، على نحو ما مر بنا من استجابة عائشة لعبد الله بن الزبير لما قطعته وجاء معتذرًا يريد وصلها مستعينًا بالله ثم بنفر من التابعين، فسهلت عليه أمر الطاعة وأعانته على الاستمرار .

الآفة الرابعة والأربعون
تضييع الأولاد

والآفة الرابعة والأربعون التى ابتلى بها كثير من العاملين ولها آثار خطيرة وعواقب وخيمة على العمل الإسلامى ويوشك أن يبتلى بها آخرون ما لم يكن هناك مبادرة جادة لعلاج هذه الآفة، بل الوقاية منها، إنما هى « تضييع الأولاد » وحتى يكون لنا تصور عن أبعاد ومعالم هذه الآفة فإننا سنعرض لها من هذه الجوانب .

الجانب الأول : تعريف تضييع الأولاد والصور الدالة على هذا التضييع :

لغة : يأتى التضييع لغة على معان نذكر منها :

١ ـ الإهمال، تقول : ضيع الشىء ، وأضاعه : أهمله .

٢ ـ الفقد، تقول : ضيع الشىء ، وأضاعه : فقده .

٣ ـ الفقر والجوع، تقول : ضيع الشىء ، وأضاعه : أجاعه وأفقره ولا تعارض بين هذه المعانى إذ التضييع : الإهمال بصورة تنتهى إلى الفقر ، والجوع ، بل الفقد .

اصطلاحًا : أما تضييع الأولاد اصطلاحًا فهو إهمالهم من التعهد والرعاية بصورة تؤدى إلى فقرهم وجوعهم وتشردهم كأنهم صاروا مفقودين أو فى حكم المفقودين ولذلك صور ، نذكر منها :

١ ـ حرمان الأولاد من الجلوس معهم لتعريفهم بأصل هذا الوجود ، وبأنفسهم ودورهم، ورسالتهم فى الأرض وبالقدوة التى عليهم أن يسيروا وراءها وبالمنهج الذى يتحاكمون إليه فى كل ما يأتون وما يدعون والكون الذى يعيشون فيه والصلة المتبادلة بينهم وبين هذا الكون وعالم الملائكة، والجن، وكذلك تعريفهم بالعاقبة، والمصير، والحقوق والواجبات، والأعداء، والأصدقاء، والأمراض التى يمكن أن يصابوا بها وسبيل العلاج منها .

٢ ـ عدم الاهتمام باختيار قرناء الأولاد، الأمر الذى قد ينتهى بوقوع هؤلاء الأولاد فريسة لأصدقاء السوء .

٣ ـ عدم تفقد الأولاد للوقوف على المشكلات والعقبات التى تعترض طريقهم، وسبيل التعامل مع هذه المشكلات، وتلك العقبات .

٤ ـ الاهتمام بتوفير الجانب المادى للأولاد مع إهمال الجانب الخلقى والقيمى الأمر الذى قد يكسبهم أخلاقًا وقيمًا بعيدة عن الأخلاق والقيم الإسلامية، ويقع ما لا تحمد عقباه .

٥ ـ تربية الأولاد بأساليب خاطئة تتعارض مع فطرتهم، وواقعهم الأمر الذى قد يؤدى بهم إلى العزلة والانطواء أو التسيب والانفلات .

الجانب الثانى : حكم تضييع الأولاد ، وأدلة هذا الحكم :

ينظر الشارع الحكيم إلى تضييع على أنه من أكبر الآثام والذنوب إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] .

إن مفهوم الآية أن من أهمل نفسه، وأهله فقد عرضها للنار التى وقودها الناس والحجارة، والعياذ بالله .

ويقول ﷺ : « كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت » (١) .

كما أن الأولاد ممن يسأل عنهم المرء إذ يقول ﷺ : « كلكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته : الإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راع فى أهله، ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعينها والخادم راع فى مال سيده، ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته » (٢) .

قال الإمام الخطابى : « اشتركوا، أى: الإمام، والرجل، ومن ذكر فى التسمية، أى فى الوصف بالراعى، ومعانيهم مختلفة فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود، والعدل فى الحكم، ورعاية الرجل أهله، سياسته لأمرهم،وإيصالهم حقوقهم،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الزكاة : باب فى صلة الرحم ص ٢٥٠ رقم ١٦٩٢ ، وأحمد فى : المسند ٢/ ١٦٠ كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا، واللفظ لأبى داود .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأحكام : باب قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] ص ١٢٢٩ رقم ٧١٣٨، ومسلم فى : الصحيح كتاب الإمارة : باب فضيلة الأمير العادل ، وعقوبة الجائر ص ٨٢ رقم ٢٠ كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا واللفظ للبخارى .

ورعاية المرأة : تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج فى كل ذلك ورعاية الخادم : حفظ ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمته » [١] .

على أن الآثار الخطرة والعواقب الوخيمة لتضييع الأولاد تقتضى أن يكون هذا التضييع إثمًا عظيمًا : وجرمًا كبيرًا كما سيظهر بعد قليل .

الجانب الثالث : آثار تضييع الأولاد وعواقبه :

لتضييع الأولاد آثار ضارة ، وعواقب خطيرة على العاملين ، وعلى العمل الإسلامى، نذكر منها :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار تضييع الأولاد على العاملين :

١ ـ حرمان الآباء بر الأولاد :

ذلك أن الأبوين أو أحدهما إذا أهملا رعاية الأولاد، والعناية بهم حتى ضاعوا فإن النتيجة أن الأولاد سيتحولون إلى عاقين، فيحرم الآباء بر الأولاد، ويتكدر خاطرهم، وتصير الحياة جحيمًا لا يطاق .

٢ ـ تحول الأولاد إلى خنجر مسموم فى صدر الآباء :

قد ينتهى تضييع الأولاد : أن تتلقفهم جهات مشبوهة، وتعمل على تشكيلهم تشكيلاً خاصًا بحيث يصبحون خناجر مسمومة تحول إلى صدر الآباء فتقتلهم، أو على الأقل تعطلهم ويتحولون إلى عبء على العمل الإسلامى، والمفروض أن العمل الإسلامى عبء على كاهلهم .

٣ ـ انتشار الجريمة وتهديد أمن المجتمع :

يؤدى تضييع الأولاد إلى انتشار الجريمة بكل أشكالها وصورها، ويوم تنتشر الجريمة فإن أمن المجتمع يصير مهددًا تحيط به المخاطر من كل ناحية، وأقل هذه المخاطر القعود عن العمل والإنتاج .

٤ ـ تراكم الذنوب والآثام على المضيعين أولادهم :

فى ضوء الثلاثة الأولى التى مضى الحديث عنها آنفًا، فإن المرء يكتب عليه من

---

(١) انظر : فتح البارى ١٣/ ١١٣ .

الآثام، والذنوب بكل خطيئة اقترفها من ضيّعه ومن حاكاه في ذلك حتى يستوجب النار، وبئس القرار وحسبنا قوله ﷺ : «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»[1] .

٥ ـ العزلة والانطواء أو التسبب والانفلات :

قد تؤدى القسوة فى المعاملة إلى نوع من العزلة والانطواء أو التسيب والانفلات ، وكلاهما فيه من الضرر على العاملين ، وعلى العمل الإسلامى ما فيه ، حسبنا أن العزلة أو الانطواء قد ينتهيان إلى انفصام الشخصية وكذلك يؤدى التسيب إلى القحَّة ونزع الحياء ، وفى الحديث : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[2] .

٦ ـ تعريض النفس للمساءلة غداً بين يدى الله ـ عز وجل :

ثم يكون تعريض النفس للمساءلة غدًا بين يدى الله عز وجل ـ عن سبب تضييع الأولاد، ومن نوقش الحساب عذب، ثم يكون المؤاخذة الشديدة التى لا يعلم كم هى ؟ وماهيتها ؟ سوى الله تبارك وتعالى . .

وقد سبق حديث ابن عمر الدال على ذلك : « ألا كلكم راع . . » .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار تضييع الأولاد على العمل الإسلامى فكثيرة أهمها :

١ ـ اتساع دائرة الانحراف :

ذلك أن المفروض أن تكون ثمرة العمل الإسلامى اتساع دائرة الاستقامة وضيق دائرة الانحراف ، وإن تضييع الأولاد يؤدى إلى العكس ، إذ تتسع دائرة الانحراف، وتضييق دائرة الاستقامة ، وهذا فيه من الضرر ما فيه .

٢ ـ تمزيق وحدة المجتمع وتمكن الأعداء :

ذلك أن وحدة المجتمع تبدأ من الأسرة، وذلك بالاهتمام بالأولاد، وحسن تأديبهم، وتربيتهم، والعمل على معايشتهم وحل مشكلاتهم، وإذا حدث العكس كان ضياع الأولاد وكانت الفرقة فتتمزق وحدة المجتمع، ويتمكن الأعداء .

(١ ، ٢) الحديث سبق تخريجه .

٣ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

حين يتمكن الأعداء فإنهم يعملون فوراً على تغيير ثقافة الأمة وهويتها، وذلك بتغيير مناهج التعليم، وفتح باب الرذيلة على مصراعيه والتضييق على الفضيلة، ويوم أن تصحو الأمة وتعمل على طرد هؤلاء الأعداء، بتحرير العقول والقلوب فإنها تستغرق وقتًا طويلاً، وتتكلف كثيراً من بذل النفوس، والأموال، والجهد والأوقات، فضلاً عن نضوب الخيرات والثروات وذهابها إلى خزائن الأعداء بحيث تعيش الأمة فى فقر مدقع زمانًا طويلاً، ومرد ذلك بداية إلى إهمال الأولاد حتى كان الضياع، وكانت الآثار الخطيرة والعواقب الضارة التي مضى الحديث عنها بالنسبة للعاملين .

الجانب الرابع : أسباب تضييع الأولاد :

لتضييع الأولاد أسباب كثيرة ، وبواعث عدة ، نذكر منها :

١ ـ عدم تقدير الوالدين نعمة الأولاد :

ذلك أن نعم الله على المرء لا تعد ولا تحصى ومن بينها نعمة الأولاد من حيث إشباعها للأبوة والأمومة ، واستمرار النوع الإنسانى ، وامتداد الذكر على ظهر الأرض وعدم تقدير الوالدين نعمة الوالدين يؤدى إلى إهمالهم ، وعدم رعايتهم ومن ثم تضييعهم .

٢ ـ انغماس الآباء فى طلب الدنيا :

ذلك أنه ليس محظوراً على المرء أن يطلب الدنيا، بل المحظور أن ينغمس فى طلبها انغماسًا ينسيه عاقبته ومصيره، وأهله، وعليه فقد ينغمس الوالدان فى طلب الدنيا، ويشغلهم هذا الانعماس عن رعاية الأولاد ، وتفقدهم ، وتكون العاقبة ضياع هؤلاء الأولاد.

٣ ـ انفصال الأبوين :

ذلك أن كمال رعاية الأولاد إنما يكون بالالتحام التام بين الأبوين والتعاون الوثيق، وقد لا يتحقق هذا الالتحام، وذلك التعاون بسبب انفصال هذين الأبوين، ويصبح الأولاد بلا رعاية، أو برعاية قاصرة، ناقصة، وحينئذ يكون الضياع لهؤلاء الأولاد.

٤ ـ عيش الأولاد فى غير كنف الأم :

قد يحدث أن يحرم الأبناء من رعاية الأم إما لموت ، وإما لانفصال ، وتقوم عليهم

زوجة الأب، وقد تكون هذه الزوجة غير ديِّنة ، أو ضعيفة التدين، بحيث تتسلط عليهم بعد احتوائها للأب، وصرفه عن منحهم جرعة عطف أو حنان، وتكون عاقبة هذا التسلط ضياع هؤلاء الأولاد .

٥ ـ كثرة الواجبات للأبوين أو لأحدهما :

قد يكون الأبوان أو أحدهما على درجة لا بأس بها من الاستقامة، وتحملهم هذه الاستقامة على الاشتغال بهداية الآخرين وإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، إلى حد الإكثار من الواجبات والتبعات ويكون ذلك بالقطع على حساب الأولاد، بحيث يحرمون التفقد، والرعاية ويكون مآلهم الضياع، والعياذ بالله .

٦ ـ سوء التخطيط والإدارة للوقت :

قد تكثر الواجبات على أحد الوالدين، أو عليهما معًا لسبب أو لآخر، ولا ضير فى ذلك ولكنهما يهملان أو يسيئان التخطيط والإدارة للوقت بحيث تذهب أجزاء كثيرة من الوقت فيم لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه، وبعض ذلك قد يكون على حساب رعاية الأولاد وتفقدهم ويكتشف الأبوان فى النهاية خطورة إهدار الوقت وما ترتب عليه من تشرد الأولاد وضياعهم .

٧ ـ قرناء السوء :

إذ قد يبتلى الأب أو الأم أو هما معًا بقرناء السوء ، بحيث يستحوذ هؤلاء القرناء عليهم، ولا يتركون لهم لحظة تقضى فى الاطلاع على أحوال الأولاد، ومشاركتهم سراءهم، وضراءهم، وتكون النتيجة تشرد هؤلاء الأولاد وضياعهم .

٨ ـ إهمال النفس من المحاسبة وتدارك التقصير :

إذ يقد يصاب المرء لسبب، أو لآخر بالغفلة عن محاسبة النفس، ومعرفة ما لها ، وما عليها، وكيفية المحافظة على ما لها، والتخلص والتطهر مما عليها، ويكون الأولاد ضمن المحاور التى يقوم عليها مبدأ المحاسبة، وينساهم الأبوان أو أحدهما حتى يكون التشرد، والضياع .

٩ ـ عدم قيام المجتمع بواجبه نحو تقصير الآباء فى حق الأبناء :

إذ على المجتمع عبء كبير فى الإنكار على الآباء الذين يقصرون فى حق أولادهم ومحاولة إصلاحهم، والأخذ بأيديهم إلى شاطئ السلامة وبر الأمان، مع مراعاة

الحكمة، والموعظة الحسنة فى كل ما تقدم وعدم قيام المجتمع بهذا الواجب على النحو اللائق، والمنشود يؤدى لا محالة إلى تشرد الأولاد وضياعهم .

١٠ ـ عدم قيام ولى الأمر بواجبه نحو تقصير الآباء فى حق الأبناء :

ذلك أن منزلة ولى الأمر فى الأمة كمنزلة الوالد فى نفوس أولاده يتفقد كل واحد فيها، ويرعاه، ويتعهده كى يصل يوم القيامة إلى أن يجلس عن يمين الرحمن على منابر من نور، ويوم لا يقوم ولى الأمر بهذا الواجب نحو تقصير الآباء فى حق الأبناء، فإن العاقبة تكون الفشل للأولاد، وضياعهم .

١١ ـ اختراق الثقافات الوافدة لثقافة الأمة المسلمة :

ذلك أن للأمم الأخرى ثقافات تعارض ثقافة الأمة المسلمة، ولا تلتقى معها بحال وحين تهمل ثقافة الأمة المسلمة لسبب أو لآخر، فإن الثقافات الوافدة تعمل جاهدة على اختراق هذه الثقافة ويتأثر بها الآباء، والأبناء على السواء، الأمر الذى تكون عاقبته فشل الأولاد، وتشردهم، وضياعهم وبالتالى خسارة الأمة خسارة لا تقدر بمال على النحو الذى تعيشه الأمة الآن بسبب المدارس الأجنبية، والإعلام الهابط، وتغيير مناهج التعليم وهلم جرا .

١٢ ـ الجهل بمنهج تربية الأولاد :

ذلك أن تربية الأولاد ليست بالأمر الهين ولا باليسير، وإنما لها منهجية خاصة أبرز معالمها : وحدة مركز التوجيه والتأديب، والتبكير بها من لحظة اختيار كل من الزوجين للآخر، واستقائها من ثقافة الأمة، ودورانها بين اللين والشدة، وحسن اختيار القرين، والتعويد على الانضباط فى كل شىء، وحمل المسؤولية منذ نعومة الأظفار، والتفقد، والرعاية المستمرة وعلاج الأخطاء أولاً بأول وهكذا، وحين يجهل الوالدان هذه المنهجية تكون العاقبة تشرد الأولاد، وضياعهم .

١٣ ـ نسيان العواقب المترتبة على تضييع الأولاد :

قدمنا أن هناك عواقب وخيمة وآثاراً ضارة تترتب على تضييع الأولاد، وعلى المرء أن يكون ذاكراً لها على الدوام حتى إذا دعاه داعى الكسل ، والفتور أن ينسى أولاده بلا تفقد ولا رعاية كان من ورائه سوط سوء العاقبة الذى يلهب ظهره، ويحمله حملاً على الجدية فى رعاية الأولاد وتفقدهم أما حين ينسى هذه العواقب أو يتناساها فإن النتيجة تكون فشل الأولاد وتشردهم وضياعهم .

الجانب الخامس : علاج تضييع الأولاد والوقاية :

مضى الحديث حول ماهية تضييع الأولاد : وصوره، وحكمه، وأدلة هذا الحكم، والآثار المترتبة على ذلك، وتحديد الأسباب والبواعث، وفى ضوء ذلك يأتى دور العلاج والوقاية ويتلخص فى اتباع هذه الخطوات :

١ ـ أن يدرك الأبوان نعمة الأولاد وأن يعملوا على شكرها :

ذلك أن الله ذكر فى كتابه أن الأولاد نعمة أى نعمة، وأوجب شكره على هذه النعمة حتى تدوم، وأعظم شكر لهذه النعمة: أن يوقن الآباء قيمتها وأن يعرفوا أولادهم بها وبالمنعم المتفضل، وأن ينزلوا على حكمه فى كل ما يأتون وما يدعون ليبارك لهم فى أعمارهم، وسعيهم .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾ [النحل] .

٢ ـ أن يحتسب الوالدان الجهود المبذولة فى حماية الأولاد من الضياع :

ذلك أن حماية الأولاد من الضياع تحتاج إلى جهود كبيرة، وعلى الوالدين أن يحتسبا هذه الجهود، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً إذ يقول النبى ﷺ : « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن، وأحسن إليهن فله الجنة » (١) .

وعن عائشة ﵂ قالت : « دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئًا غير تمرة، فأعطيتها إيَّاها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت، فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته، فقال النبى ﷺ : « من ابتلى من هذه البنات بشىء كن له سترًا من النار » (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى فضل من عال يتامى ص ٧٢٣ رقم ٥١٤٧ من حديث أبى سعيد الخدرى ﵁ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب اتقوا النار، ولو بشق تمرة، والقليل من الصدقة ص ٢٢٩ رقم ١٤١٨، وكتاب الأدب : باب رحمة الولد، وتقبيله ومعانقته ص ١٠٤٩ رقم ٥٩٩٥، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب فضل الإحسان إلى البنات ص ١١٤٦ رقم ١٤٧، ١٤٨/٢٦٢٩ ـ ٢٦٣ ـ ٦٦٩٣، ٦٦٩٤، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى النفقة على البنات، والأحوال ص ٤٤٧ رقم ١٩١٣، ١٩١٥ كلهم من حديث عائشة ﵂ مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه [(١)] .

٣ ـ أن يوقن الأبوان أن تربية الأولاد شرف الدنيا والآخرة :

ذلك أن من أراد شرف الدنيا فعليه بإحسان تأديب ولده، ومن أراد شرف الآخرة فعليه بإحسان تأديب ولده كذلك .

حسبه الذكر الحسن، والثناء الجميل فى الدنيا، وحسبه رضا الله والجنة فى الآخرة إن ذلك أعظم ألف مرة ومرة من الدنيا وما فيها من عرض زائل ، يقول ﷺ : « ما نَحَلَ والدٌ ولدًا من نَحل أفضل من أدب حسن » [(٢)] .

٤ ـ أن يعمل الوالدان على تحسين علاقة كل منهما بالآخر :

قدمنا أن سوء العلاقة بين الأبوين يؤثر تأثيرًا كثيرًا فى رعاية الأولاد وتربيتهم وعليه، فإن واجب الأبوين تناسى حظوظ أنفسهما،وعدم الاستجابة لإغراءات الشياطين الإنسية ، والجنية وأن يحرصا عرضا على التلاحم التام فيما بينهما كى يعطيا الأبناء الجرعة التربوية الكافية لإصلاحهم واستقامتهم .

٥ ـ أن يدرج الوالدان رعاية الأولاد فى أول سلم الواجبات :

ذلك أنه ينبغى أن يكون المسلم مرتبًا فى حياته، بحيث يجعل رعاية الأولاد، وتربيتهم فى أول سلم الواجبات المنوطة به، هذا إذا لم يستطع توزيع هذه الواجبات بينه وبين غيره من إخوانه وبنى جنسه، وقد نبه النبى ﷺ إلى ترتيب الواجبات بتصديقه على قول سلمان لأبى الدرداء رضي الله عنه : « إن لربك عليك حقًا ، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقَّه » [(٣)] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب فضل الإحسان إلى البنات ص ١١٤٦ رقم ١٤٩/ ٢٦٣١/ ٦٦٩٥، والترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى النفقة على البنات، والأخوات ص ٤٤٧ رقم ١٩١٤ كلاهما من حديث أنس مرفوعًا بهذا اللفظ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البر والصلة : باب ما جاء فى أدب الولد ص ٤٥٣ رقم ١٩٥٢ من حديث أيوب بن موسى، عن أبيه، عن جده مرفوعًا بهذا اللفظ ، وعقب على حديثه بقوله: « هذا حديث غريب وهذا عندى حديث مرسل » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ص ٣١٦ رقم ١٩٦٨ من حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

٦ ـ أن يعطى الأب الأولاد مزيداً من الرعاية عن حرمانهم من أمهم :

إذا كان على الأب أن يرعى أولاده ويتعهدهم، فإن الأمر يتأكد عند حرمان هؤلاء الأولاد ـ لسبب أو لآخر ـ من أمهم .

ذلك أنَّ على الأم المعول الأكبر من إصلاح الأولاد، وتوجيههم، فإذا غابت عنهم الأم، فعلى الأب أن يقوم منهم مقام الأم، والأب معًا، ليقى نفسه النار، وينال ثناء الله ورضوانه والملائكة والناس أجمعين .

٧ ـ أن يهتم الوالدان بحسن اختيار قرناء الأولاد :

ذلك أن المرء على دين خليله، والواجب أن يكون الخليل صالحًا مستقيمًا، وتلك مسؤولية الأبوين بحيث يعطى هذا الاختيار النصيب الأوفى من حياتهما، وإن كلفهما ذلك ما كفلهما؛ لأن الأمر أمر مصير فإما سعادة فى الدنيا والآخرة ، وإما شقوة منهما كذلك .

٨ ـ أن يحمى الآباء الأولاد من اختراق الثقافات المنافية لثقافة الأمة :

إن حماية الأولاد من اختراق الثقافات المنافية لثقافة الأمة المسلمة يحتاج إلى متابعة الأولاد فى البيت والمجتمع، والمدرسة، فلا يلتحق هؤلاء الأولاد بمدارس تبشيرية ولا يترك الأولاد فريسة لإعلام هابط مدمر ، كما لا يتركون فى أيدى المنحرفين من أبناء المجتمع ، ولا يسلموا لخادمات فاقدات الأهلية ليقمن بتربية وإعداد جيل الحاضر والمستقبل .

٩ ـ أن يتقن الوالدان فن تربية الأولاد :

ذلك أن عملية التربية للأولاد تحتاج إلى أن يتقنها الوالدان مهما كلفتهم من جهد، ووقت، ومال، ولا يتم ذلك إلا بالاطلاع على مناهج التربية القديمة، والمعاصرة، واختيار المناسب منها لهذا العصر، وكذلك الإفادة من تجارب الآخرين بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف ، ومعايشة أهل الخبرة والتجربة ، وإفادة المرء من أخطائه وسؤال الحق سبحانه وتعالى الإلهام ، والرشاد لأحسن المناهج ، وأعدلها ، على النحو الذى علمنا فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

١٠ ـ أن يقوم المجتمع وكذلك ولى الأمر بدورهما فى علاج تضييع الأولاد :

إذا قام المجتمع بواجبه نحو الآباء المقصرين فى حق أولادهم من النصح والإرشاد،

بل الإنكار بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا لم يفد كل ذلك فليكن الإنكار القلبى المتمثل فى المقاطعة، والحصار حتى يعود الآباء إلى رشدهم، وصوابهم، ويعملوا على تقويم عوج الأولاد، وإصلاحهم وكذلك على ولىّ الأمر أن يقوم بواجبه فى علاج هذه الظاهرة الخطيرة ـ أعنى ظاهرة تضييع الأولاد بما منحه الله من بأس، وسلطان تارة بالكلمة، وتارة باليد، وليكن العلماء لسان ولىّ الأمر، مع غيرهم من أهل التوجيه، والإرشاد كى تثمر هذه الجهود، وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

١١ ـ أن يحاسب الوالدان أنفسهما أولاً بأول بشأن تأديب الأولاد :

ذلك أن محاسبة المرء لنفسه ستوقفه على جوانب الخلل والقصور، ولئن كان صادقًا مع ربه طامعًا فى رضاه فإنه سيعمل على تدارك هذا الخلل، وذلك التقصير، وعليه فإن على الوالدين تطبيق هذا المبدأ على أنفسهما : أين هى الإيجابيات والسلبيات بشأن تأديب الأولاد ؟ ثم يأخذان فى المحافظة على الإيجابيات وتنميتها، والعمل على التخلص من السلبيات مستحضرين الوقوف غدًا بين يدى الله ـ عز وجل ـ والمساءلة ثم الجزاء من جنس العمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر .

ولقد دعا رب العزة إلى ذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾

[التحريم]

١٢ ـ أن يستحضر الأبوان عواقب تضييع الأولاد :

قدمنا بيانًا مفصلاً عن عواقب تضييع الأولاد على العاملين وعلى العمل الإسلامى فكانت شيئًا مخيفًا، وعلى الأبوين أن يستحضرا هذه العواقب إن كانا حريصين على نجاة أولادهما، ونجاحهما وإن واحدة منها لتكفى المقصر أن يقلع عن تقصيره فكيف وقد صارت كما هائلاً .

إن إستحضار ذلك مع تقوى الله، والتبتل، والضراعة أن يصلح الله الأولاد، وأن يأخذ بأيديهم إلى شاطئ السلامة وبر الأمان سيحرك الأبوين أن ينهضا لتدارك التقصير والخلل قبل أن تقع الواقعة، ويكون الندم حيث لا ينفع الندم . ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق] .

الآفة الخامسة والأربعون
تضييع كل من الزوجين للآخر

والآفة الخامسة والأربعون التى ابتليت بها جميع شعوب الأمة المسلمة إلا من رحم الله، وكانت سببًا فى كثير من المعاناة، والتأخر، والانحطاط إنما هى : تضييع كل من الزوجين للآخر، وحتى يُقضى على هذه الآفة أو على الأقل تضييق هوتها، ويحترز منها من سلمه الله ـ عز وجل ـ منها ؛ فإنه لابد من الوقوف على أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال هذه الجوانب .

الجانب الأول : معنى تضييع كل من الزوجين للآخر، ومظاهر هذا التضييع :

يراد بتضييع كل من الزوجين للآخر عدم قيام كل منهما بواجبه نحو الآخر بصورة يكون معها الشتات والضياع، ولذلك مظاهر، نذكر منها :

١ ـ التقصير فى حق الله والرسول، والمؤمنين، بل الناس أجمعين .

٢ ـ التشتت الذهنى، وعدم القدرة على التفكير المحمود المنضبط .

٣ ـ الانطواء، والعزلة، أو الكبت والقهر .

٤ ـ القلق والاضطراب النفسى، والسلوكى المتمثل فى اقتراف الجرائم .

٥ ـ التبرم بالحياة، وربما العمل على التخلص منها إلى غير ذلك من المظاهر.

الجانب الثانى : موقف الإسلام من تضييع كل من الزوجين للآخر :

يحرِّم الإسلام تضييع كل من الزوجين للآخر، إذ يقول النبى ﷺ : « وكفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع من يقوت »[1] .

ويخبر النبى ﷺ أن ذلك هدف أساسى من أهداف إبليس يسعى إليه، ويحرص على تحقيقه، ويفرح أشد الفرح إذا وقع، فيقول ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجىء أحدهم؛ فيقول : فعلتُ كذا وكذا، فيقول : ما صنعتَ شيئًا، قال : ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركتُه حتى

(١) الحديث سبق تخريجه .

فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال : فيدنيه منه، ويقول : نِعْمَ أنت » . قال الأعمش : أراه قال : (فيلتزمه) [(١)] .

ويخبر النبى ﷺ عن عقوبة المرأة إذا آذت زوجها فضيعته، فيقول : « أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة » [(٢)] ، ويقول: « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح »[(٣)] .

كما يخبر ﷺ عن عقوبة الرجل إذا آذى امرأته، فكان ذلك سببًا فى ضياعها، فيقول: « من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل »[(٤)] .

ويقول : « لا تضربوا إماء الله » فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : « ذئرن النساء على أزواجهن، فرخَّص ﷺ فى ضربهن » فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن فقال النبى ﷺ : « لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم » [(٥)] .

على أن الآثار والعواقب المترتبة على تضييع كل من الزوجين للآخر، كما سيأتى بعد قليل تأكيد واضح وقوى على بغض الشارع الحكيم لهذا التضييع وتحريمه .

الجانب الثالث : آثار تضييع كل من الزوجين للآخر وعواقبه :

لتضييع كل من الزوجين للآخر آثار خطيرة، وعواقب ضارة، نذكر منها :

أ ـ على العاملين :

١ ـ التشتت الذهنى :

ذلك أن التشتت الذهنى إنما هو ثمرة تضييع كل من الزوجين للآخر ؛ إذ كل منهما

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح ، كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا ص ١٢٢٥ رقم ٧١٠٦/٢٨١٣/٦٧ من حديث الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعًا به .

(٢) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب الطلاق، باب فى الخلع ص ٣٢٢ رقم ٢٢٢٦ من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى حق الزوج على المرأة ص ٣٠٩ رقم ٢١٤١ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى القَسم بين النساء ، ص ٣٠٨ رقم ٢١٣٣ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٥) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى ضرب النساء ص ٣١٠ رقم ٢١٤٦ من حديث إياس بن عبد الله بن أبى ذباب مرفوعًا بهذا اللفظ، ومعنى : « ذئرن النساء على أزواجهن » : نشزن على أزواجهن أو تمردن على أزواجهن ، ولم يسمعن الكلام .

يصيبه من أذى الآخر ما يجعله موزَّع الهمة، شارد الذهن، الأمر الذى ينتهى به إلى شلل من التفكير، ومن ثم القعود والانقطاع عن أداء دوره، وواجبه فى هذه الأرض .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

كما يؤدى تضييع كل من الزوجين للآخر إلى القلق والاضطراب النفسى ؛ ذلك أن كل واحد منهما بتقصيره فى حق الآخر قد ارتكب ظلمًا فى حق نفسه، وحق غيره، وعاقبة الظلم القلق والاضطراب النفسى، وذلك هو المفهوم من قوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] .

٣ ـ التردى فى الهاوية :

كما يكون التردى فى الهاوية ، والوقوع فى الجريمة فتُنْتهك أعراض وتسلب أموال، وتراق دماء، ويتصدع بنيان المجتمع، وقد ينهار ـ والعياذ بالله ! ـ وهذا ما حذر منه النبى ﷺ عندما قال: « إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

٤ ـ حلول الغضب الإلهى :

ذلك أن تضييع كل من الزوجين للآخر، إنما هو إهدار لحكم الله الذى شرعه لإصلاح شؤون الأسرة ، والربط بين الزوجين ، وحين يُهدِرُ الزوجان حكم الله فإن عليهم أن ينتظروا حلول الغضب الإلهى، وما ظنُّك بعاقبة أناس حل عليهم غضب الله وسخطه ؟!

إنه السقوط فى الهاوية التى لا خروج منها ، ولا نهوض بعدها، وصدق الله الذى يقول : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] .

٥ ـ نزع البركة من الرزق ، والأجل :

إذ تضييع كل من الزوجين للآخر يشوش الذهن، ويَشْغَل البال والخاطر كما قدمنا، الأمر الذى يصرف عن السعى لكسب الرزق، ويضيع العمر هباء وبددًا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يزيد في العمر إلا البرُّ، ولا يردُّ القدرَ إلا الدعاءُ ، وإن الرجلَ ليُحرَم الرزق بخطيئة يعملها »[(١)] . وفي رواية : « وإن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه »[(٢)] .

٦ ـ ضياع الأولاد ، أو الحرمان منهم أصلاً :

إذ الشقاق بين الزوجين يؤدى إلى الاشتغال بهموم النفس عن تربية الأولاد، أو تربيتهم بمنهجية متعددة الأطياف، متفاوتة المشارب، وهذا فيه من ضياع الأولاد ما فيه.

وربما ينتهى الشقاق بين الزوجين إلى الحرمان من الأولاد أصلاً، والخسارة حينئذ لا تقتصر على الزوجين، وإنما تتعدى إلى المجتمع والأمة؛ لأنها تكون سببًا في انقراضهما وزوالهما .

ب ـ على العمل الإسلامى :

وأما آثار تضييع كل من الزوجين للآخر على العمل الإسلامى فكثيرة، نذكر منها:

١ ـ سريان الداء في جسم المجتمع والأمة :

إذ تضييع كل من الزوجين للآخر داء خطير، يسرى إذا وقع في جسم المجتمع والأمة، كالسرطان إذا أصاب جزءًا من الجسم ، فإنه يسرى في بقيته، وحينئذ يكون الهلاك ، والزوال .

٢ ـ تفكك المجتمع وسيطرة الأعداء :

وحين يسرى داء الشقاق بين الزوجين في ظل أنحاء المجتمع والأمة، فإنه يسود التفكك وينهار المجتمع، لانشغال كل من الزوجين بهمومه عن تربية الأولاد والتربية المنشودة التى عليها حماية المجتمع وصيانته ، وتكون النتيجة مجيء الأعداء وسيطرتهم على خير الأمة والمجتمع .

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء ص ١١٨٧ رقم ٦٩٤٨/ ٩٩/٢٧٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث : أخرجه ابن ماجه في السنن ، المقدمة ، باب في القدر ص ١٥ رقم ٩٠، وكتاب الفتن ، باب العقوبات ص ٥٨٠ رقم ٤٠٢٢ من حديث على بن محمد ، عن وكيع عن سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبى الجعد ، عن ثوبان ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ ، غير أنه قال في الرواية الأخرى : « وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

٣ ـ طول الطريق وكثرة التكاليف :

إذ حين تستيقظ الأمة ، وتريد طرد الأعداء ، وتحرير مقدساتها وثرواتها من سيطرتهم، فإنها تتحمل كثيراً من الجهد والمال فضلاً عن طول الطريق ؛ لأن الأمر يتطلب نسيان الشقاق بين الزوجين والاشتغال بتربية الأولاد، حتى يتماسك المجتمع من جديد وينجح فى أداء دوره فى التحرر، والاستقلال .

الجانب الرابع : أسباب تضييع كل من الزوجين للآخر :

لتضييع كل من الزوجين للآخر أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه نذكر منها :

١ ـ إكراه كل واحد من الزوجين على الاقتران بالآخر :

إذ قد يكون اقتران كل من الزوجين بالآخر مبناه الاضطرار أو الإكراه، بأن يحمل الوالدان أو أحدهما الابن أو البنت على الاقتران بمن لا يحب، الأمر الذى يؤدى إلى تقصير كل من الزوجين فى القيام بواجبه نحو الآخر، وحينئذ يكون التفرق والضياع.

٢ ـ إهمال حق الكفاءة بين الزوجين :

وقد يكون إهمال حق الكفاءة بين الزوجين نسبًا، أو علمًا، أو مالا أو وجاهة أو جمالا أو حرفة، أو حرية، أو دينًا، أو نحو ذلك .

قد يكون هذا الإهمال طريقًا للنشوز بين الزوجين والفرقة على نحو ما كان بين زينب بنت جحش ﵂ وبين زيد بن حارثة ﵁ وانتهاء ذلك بالفرقة والطلاق .

٣ ـ الاقتران بعيداً عن الدين :

ذلك أن الدين هو صمام الأمان فى حياة البشر ، وإذا غاب الدين من حياة البشر لا سيما الزوجين ، فقل : على هذه الحياة السلام، والواقع البشرى خير ما يشرح هذه الحقيقة ويجليها ؛ إذ أكثر ـ بل كل ـ المشكلات الزوجية مردها غياب الدين من حياة هؤلاء .

٤ ـ سيطرة الشح على النفوس :

ذلك أن الشح حين يسيطر على النفوس مالا أو جهدًا أو عشرة ؛ فإنه ينتهى إلى بغض كل من الزوجين للآخر، حيث جُبِلت النفوس على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها، وحين يخيِّم البغض على الأسرة ؛ يكون الشقاق والضياع .

٥ ـ إطلاق العنان للبصر :

ذلك أن البصر بريد الزنى، وهو السهم المسموم الذى يغرسه إبليس فى القلوب بُغية تدنيسها وإفسادها، وإذا لم ينتبه الناس ـ لا سيما الزوجان ـ إلى هذه الحقيقة، ويطلقان العنان للبصر ليمتلئ من كل ما لا يحل، فإن النتيجة هى تمرد كل من الزوجين على الآخر، وتبرمهما بالحياة الزوجية، وما فيها من الحلال الطيب بحيث يسود الشقاق والضياع، والعياذ بالله !

٦ ـ إفشاء أسرار الزوجية :

ذلك أن من أسباب تماسك الأسرة؛ الحفاظ على أسرار الزوجة، وإذا غفل الزوجان أو أحدهما عن هذه الحقيقة، وعمل كلاهما أو أحدهما على إفشاء ونشر هذه الأسرار، فإن هذا يؤدى إلى تسرب الشقاق، وبالتالى الضياع؛ لكون هذا الإفشاء، أو النشر يسمح للفضوليين بالتدخل فى حياة الزوجين ، والعمل على الوقيعة والإفساد . وحينئذ تكون الفرقة والضياع .

٧ ـ إهمال العناية بالمظهر :

ذلك أن عناية كل من الزوجين بمظهره تكون سببًا فى التقارب والحب والمودة، وعندما يهمل الزوجان أو أحدهما العناية بهذا المظهر،فلا اهتمام بالفم والأنف،ولا أخذ من الشعور الداخلية، ولا استحمام على الدوام ولا ملبس حسن، وهكذا دواليك.

أجل : إن عدم العناية بهذا المظهر تؤدى حتمًا إلى البغض والكراهية، ومن ثم الشقاق والضياع .

٨ ـ سوء الظن :

ذلك أن الأصل حمل المسلم على البراءة الأصلية، وحين تغيب هذه الحقيقة يكون سوء الظن، ويتبع ذلك التجسس وتتبع العورات، والغيبة، والنميمة، وإهدار الحرمات، الأمر الذى يؤدى إلى الشقاق، والفرقة، والضياع .

٩ ـ شدة الغيرة :

ذلك أن الغيرة ضرورة لا مناص منها لحماية الحرمات، وينبغى ألا تتجاوز حد الاعتدال، فإن تجاوزت حد الاعتدال، كانت نكالا ووبالا على حياة الزوجين ؛ لأنها تقود إلى الشك، والتجسس والغيبة، ونحوها مما لا تُحمد عُقباه، بحيث يكون الشقاق والضياع.

١٠ ـ طمع كل من الزوجين فى مال الآخر :

ذلك أن حب الدنيا والتكالب عليها، والتنافس فى تحصيلها يقود إلى طمع كل من الزوجين في مال الآخر، فيتخذان المضايقة والتأفف طريقًا للابتزاز، وقد شهد الواقع أن استمرار المضايقة تجعل المرء يضحى بالدنيا وما فيها، رجاء الاطمئنان وهدوء البال والخاطر، وهكذا ينتهى طمع كل من الزوجين فى مال الآخر إلى الشقاق والفرقة، والضياع.

١١ ـ الاستهانة بالمعاشرة :

ذلك أن المعاشرة طريق لاستمرار النوع الإنسانى ، وينبغى الاهتمام بها وإعطاؤها حقها من حيث كونها من أجلِّ النعم الإلهية على الإنسان، ولكن الذى يحدث أن كلا الزوجين أو أحدهما يستهين بهذه المعاشرة ؛ فينظر إليها على أنها شىء بهيمى مستقذر ينبغى الترفع عنه، أو لا يعطيها حقها من الاستعداد والتهيئة التامة، أو يفرط فيها ويسرف إلى حد العزوف عنها، أو اعتلال الجسم، وذهاب الصحة والعافية، بحيث يكون الشقاق والفرقة والضياع .

١٢ ـ انشغال كل من الطرفين عن الآخر بالدنيا أو بالواجبات الخارجية :

ذلك أنه لا يصح انشغال أى من الطرفين عن الآخر بأى شاغل ما ؛ كى تتوطد وتقوى العلاقة بينهما، وإذا ما انشغل أى من الطرفين عن الآخر بنوع ما من الشواغل ، دنيا أو واجبات خارجية ، فإن العلاقة بينهما تتهاوى ، وقد تنهار تمامًا فيكون التضييع.

١٣ ـ نسيان كل من الطرفين الطبيعة البشرية للطرف الآخر :

جبل الله الإنسان على أنه يصيب ويخطئ ، وهذا لا يعيبه فى شىء ، وإنما الذى يعيبه أن يصر على الخطأ، وإذا ما نسى كل من الطرفين هذه الطبيعة البشرية للطرف الآخر، فإن الخلاف يدب بينهما، ويكون الشقاق والفرقة والضياع ..

١٤ ـ تقمُّص كل من الطرفين شخصية الآخر :

ذلك أن كلا من الطرفين له شخصيته التى تميزه عن الآخرين ، وعندما يعمل كل من الطرفين على تقمص شخصية الآخر ، فإن الله يحرمهما عونه وتأييده ، ويكون الشقاق والضياع .

١٥ ـ انفراد كل من الطرفين بالمسؤولية دون الآخر :

ذلك أن مسؤولية كل من الطرفين فى الحياة الزوجية إنما تقوم على المشاركة

والتعاون، وحين ينفرد كل بالمسؤولية دون الآخر ، فإنه يكون التسلط والدكتاتورية ، وربما الانقطاع ، والفشل ، والشقاق .

١٦ ـ السماح للآخرين بالتدخل فى الحياة الزوجية بلا موجب ولا مبرر :

ذلك أن الحياة الزوجية سر مصون لا يصح اقتحامه بين الآخرين بلا موجب ولا مبرر ، وإن كان هؤلاء الآخرون من أقرب المقربين وحين يسمح لهؤلاء الآخرين بالتدخل دون مبرر أو اقتضاء، فإنه يكون النزاع ، ومن ثم الفرقة والضياع .

١٧ ـ الإصغاء للأفكار الوافدة الهدامة :

معلوم أن للمسلمين معالمهم التى ينتهون إليها ، وثقافتهم الخاصة بهم ، والنابعة من دينهم الحنيف ، ككون القوامة فى يد الرجل، وكون المرأة محبوسة على الرجل، فلا تبذل نفسها لغيره، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه وهلم جرا. وحين يكون الإصغاء للأفكار الوافدة التى تتعارض شكلاً ومضمونًا مع معالمهم وثقافتهم فى الأعم الأغلب، فإنه يدب الخلاف والشقاق بين الزوجين، وتكون الفرقة والضياع .

١٨ ـ حرص كل من الطرفين على الانتصار لنفسه ولو بالباطل :

ذلك أن الخلاف بين بنى البشر سنة بشرية لتفاوت العقول والبيئة والمعرفة، ونحو ذلك، والمطلوب تضييق هوة الخلاف على أساس الوصول إلى الحق والصواب، لا على أساس الانتصار للنفس .

وحين ينسى أحد الطرفين أو كلاهما هذه الحقيقة، ويكون الانتصار للنفس ولو بالباطل، فإن العلاقة تصاب بالانكماش وربما الانفصام والانقطاع .

١٩ ـ مقارنة كل من الطرفين قرينه بالغير :

ذلك أن لكل من الطرفين دائرة خاصة به لا يصح تخطيها والخروج منها ، وحين يعمل كل من الطرفين أو أحدهما على الخروج من هذه الدائرة إلى دائرة الغير، وتكون المقارنة، فإن الحياة الزوجية عادة ما تنتهى بالفشل والضياع .

٢٠ ـ قلة الخبرة أو التجربة فى تعامل كل من الطرفين للآخر :

لا شك أن الخبرة أو التجربة فى تعامل كل من الطرفين للآخر لها دور كبير فى نجاح الحياة الزوجية واستقرارها، وحين تقل هذه الخبرة، وتلك التجربة، فإن الحياة الزوجية يمكن أن يصيب بنيانها التصدع، وربما الانهيار .

٢١ ـ إهمال كل من الطرفين التزود بزاد الطريق :

ذلك أن الطريق التى يسير فيها الطرفان طريق طويلة كلها عقبات، وأفضل الزاد الذى يعين على قطع هذه الطريق مع تخطى العقبات إنما هو التقوى ؛ إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وحين يهمل كل من الطرفين أو أحدهما هذا الزاد ، فإنه يكون الفتور وربما الانقطاع ، والضياع .

٢٢ ـ تقصير المجتمع فى القيام بواجبه فى الإصلاح بين الزوجين عندما يقتضى الأمر ذلك :

ذلك أن على المجتمع واجبًا ضخمًا فى الإصلاح بين الزوجين حين يقتضى الأمر ذلك، وحين يقصِّر المجتمع فى القيام بهذا الواجب ؛ فإن الشقاق بين الزوجين يمكن أن يستفحل ، وينتهى بالفرقة والضياع .

٢٣ ـ تقصير ولى الأمر فى القيام بواجبه فى الإصلاح بين الزوجين حين يرفع إليه الأمر :

ذلك أن ولى الأمر له دور كبير فى تحقيق الاستقرار فى المجتمع لا سيما بين الزوجين ، وحين يقصر فى القيام بهذا الواجب بعد رفع الأمر إليه فإن الحياة الزوجية قد تتعرض للاهتزاز ، وربما الانهيار والسقوط .

٢٤ ـ جهل كل من الطرفين أو أحدهما بدوره ورسالته فى الأرض ونصيب الزواج منها :

ذلك أن كل إنسان له دور ورسالة فى هذه الأرض، وللزواج النصيب الأوفى من هذا الدور وتلك الرسالة، وحين يجهل كل من الطرفين أو أحدهما ذلك، يكون التصدع، وربما الانهيار والضياع .

ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على انهيار علاقة كل من الطرفين بالآخر :

وأخيرًا ، قد تكون الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على انهيار علاقة كل من الطرفين بالآخر على النحو الذى مضى عنه الحديث آنفًا قد تكون سببًا فى الفرقة والضياع .

الجانب الخامس : السبيل لتقوية علاقة كل من الزوجين بالآخر :

وما دمنا قد عرفنا المقصود بتضييع كل من الزوجين للآخر، والمظاهر الدالة على ذلك، والعواقب والآثار، والأسباب والبواعث، فإن السبيل لتقوية علاقة كل من الزوجين بالآخر تتمثل فى هذه الخطوات :

١ ـ أن يعرِّف كل من الزوجين برسالته فى الأرض، ونصيب الزواج منها :

ذلك أنه إذا عرف كل من الزوجين أن رسالته فى الأرض هى العبودية لله ـ عز وجل ـ والمتمثلة فى :

أ ـ عمارة الأرض بما لديه من طاقات وإمكانات وفق مبادئ الشرع الحنيف .

ب ـ دعوة القاعدين والكسالى أن ينهضوا للمشاركة فى عمارة الأرض وفق مبادئ الشرع الحنيف .

جـ ـ الوقوف فى وجه من يعملون على تقويض هذه العمارة وتحويل الأرض لبؤرة الشر والفساد .

وكذلك إذا عرف كل من الزوجين أن للزواج النصيب الأوفى فى تحقيق هذه العبودية، فإنهما سيعملان على التكيف والانسجام فيما بينهما ؛ كى يؤدى الزواج دوره ونصيبه الذى أراده له الشارع الحكيم حين دعا إليه، وأكد عليه ؛ إذ فى الحديث الشريف: « تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى »[(١)] .

٢ ـ أن يتم الاقتران بين الزوجَيْن على أساس من الاقتناع والرضا :

أساس الاستقرار فى الحياة الزوجية فى الإسلام الاستمرار لا الانقطاع، وأهم ما يساعد على تحقيق ذلك : الاقتناع، والرضا، لا المصادرة، والإكراه .

وقد جاء فى السنة ما يؤكد ذلك :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة، فخيَّرها النبى ﷺ »[(٢)] .

---

(١) الحديث : أورده البيهقى فى السنن الكبرى، من حديث أبى أمامة مرفوعًا، وقال عنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ١/٥٦٦ رقم ٢٩٤١ : « صحيح » .

(٢) الحديث : أخرجه ابن ماجه فى السنن، كتاب النكاح، باب من زوَّج ابنته وهى كارهة ص ٢٦٩ رقم ١٨٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا بهذا اللفظ .

وعن خنساء بنت خذام الأنصارية : « أن أباها زوَّجها، وهى ثيب، فكرهت ذلك، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فرد نكاحها »(١) .

وعليه ، فإنه إذا أريد للحياة الزوجية الاستقرار والفاعلية، فإنه لابد عند الاقتران بين الزوجين من الاقتناع والرضا، لا المصادرة والإكراه، ولا يتم الاقتناع والرضا إلا بإتاحة الفرصة لرؤية كل من الطرفين للآخر، وتبادل الحديث بينهما مع مراعاة الضوابط الشرعية اللازمة لذلك .

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل »(٢) .

قال : فخطبتُ جارية، فكنتُ أتخبأ لها حتى رأيتُ منها ما دعانى إلى نكاحها فتزوجتها »(٣) .

٣ ـ أن تراعى الكفاءة بين الطرفين عند اقتران كل منهما بالآخر :

يُعَدُّ احترامِ كل من الزوجين للآخر من العوامل المهمة فى استقرار الحياة الزوجية، ومما يساعد على تحقيق هذا الاحترام أن تراعى الكفاءة بين الزوجين، وليست هناك كفاءة أعظم من الدين على نحو ما علمنا رسول الله ﷺ ، وإن كان لا بأس من مراعاة الجوانب الأخرى ؛ إذ يروى أبو هريرة ﷺ أن أبا هند حجم النبى ﷺ فى اليافوخ، فقال النبى ﷺ : « يا بنى بياضة، أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه » ، وقال : « إن كان فى شىء مما تداوون به خيرٌ فالحجامة »(٤) .

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب النكاح، باب إذا زوَّج الرجل ابنته وهى كارهة فنكاحه مردود ص ٩١٩ رقم ٥١٣٨، ٥١٣٩ من حديث عبد الرحمن ومجمِّع ابنى يزيد بن جارية مرفوعًا بهذا اللفظ، وابن ماجه فى السنن، كتاب النكاح، باب من زوَّج ابنته وهى كارهة ص ٢٦٨ رقم ١٨٧٣ بنفس الإسناد، ولكن بنحوه .

(٢) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها ص ٣٠١ رقم ٢٠٨٢ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٣) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها ص ٣٠١ رقم ٢٠٨٢ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ٣٤٣ رقم ٨٤٩٤، ٢/ ٤٢٣ رقم ٩٤٦٦ من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، ولكن دون ذكر السبب، وأبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى الأكفاء ص ٣٠٣، ٣٠٤، رقم ٢١٠٢ بهذا الإسناد وبهذا اللفظ .

وزوّج النبى ﷺ فاطمة بنت قيس بعد انتهاء عدتها من أسامة بن زيد (١) ، كما زوّج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة (٢) وكان حامله فى كل ذلك الدين ، وأنه أساس الكفاءة .

حتى قال ﷺ : « تنكح المرأة لأربع ، لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٣) .

وقال أيضًا : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ، فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد » .

قالوا : يا رسول الله وإن كان فيه ؟

قال : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه، فأنكحوه ، ثلاث مرات » (٤) .

٤ ـ أن يحرص كل من الزوجين على التحلى بالجود والتضحية، والتحرر من البخل والشح :

إن متانة العلاقة بين الزوجين إنما تنشأ من عدة عوامل، أهمها : تحلى كل من الطرفين بالجود والتضحية، وتحررهما الكامل من البخل والشح؛ إذ بالجود والتضحية يحمل كل من الطرفين الآخر، وتكون المودة والحب لما جبلت عليه النفوس من حب مَنْ أحسن إليها .

(١) أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الطلاق، باب ما جاء فى نفقة المطلقة ٢/ ٥٨٠ رقم ٦٧، ومسلم فى الصحيح، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ص ٦٣٩ رقم ٣٦ كلاهما من حديث أبى سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، عن فاطمة بنت قيس : أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتَّة، وهو غائب بالشام... الحديث .

(٢) حديثهما فى سورة الأحزاب مشهور .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب النكاح، باب الأكفاء فى الدين ص ٩١٠ رقم ٥٠٩٠، ومسلم فى الصحيح، كتاب النكاح، باب استحباب نكاح ذات الدين ص ٦٢٣، ٦٢٤ رقم ٥٣/١٤٦٦/٣٦٣٥ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا به .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى السنن، كتاب النكاح، باب ما جاء فى من ترضون دينه فزوّجوه ص ٢٦١ رقم ١٠٨٥ من حديث أبى حاتم المزنى مرفوعًا، وعقّب عليه بقوله: هذا حديث حسن غريب،وأبو حاتم المزنى له صحبة، ولا نعرف له عن النبى ﷺ غير هذا الحديث، وأورده الألبانى فى إرواء الغليل ٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨ رقم ١٨٦٨، مقرًا بتحسين الترمذى، قائلاً: (قلت: ولعل تحسين الترمذى المذكور إنما هو باعتبار شواهده الآتية،وخصوصًا حديث أبى هريرة،وإلا فإن هذا الإسناد لا يحتمل التحسين؛لأن محمدًا وسعيدًا ابنى عبيد مجهولان، والراوى عنهما ابن هرمز ضعيف كما فى التقريب، وحديث أبى هريرة الذى أشار إليه الألبانى أخرجه الترمذى قبل حديث أبى حاتم المزنى مباشرة رقم ١٠٨٤، وقد ذكره الألبانى ضمن الدواوين التى أخرجت هذه الطريق، فكأن الترمذى حين حكم على حديث أبى حاتم بأنه حسن لم ينشأ من فراغ .

وعليه ، فليحرص كل من الزوجين عند الاقتران أن يوطنا أنفسهما على الجود والتضحية مع التحرر التام من البخل والشح .

ورسول الله ﷺ خير أسوة وقدوة فى هذا الباب؛ إذ كان حين يدخل بيته يكون فى مهنة أهله، وكان نساؤه كذلك يضحين بكل شىء فى سبيل راحته وإسعاده ﷺ .

٥ - أن يوصَّى كل من الزوجين بغض البصر :

ذلك أن إطلاق العنان للبصر له أثر سيئ فى تشتت ذهن كل من الزوجين، وربما تعلقهما بما لا يحل لهما، مع زهد كل منهما فى الآخر، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى انهيار العلاقة الزوجية وضياعها، لذلك لزم التعويد على غض البصر، ويتأكد ذلك عند اقتران كل من الزوجين بالآخر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور] .

ويقول النبى ﷺ : « يا على ، لا تُتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة » [(١)] .

وعن جرير بن عبد الله قال : « سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى » [(٢)] .

٦ - أن يحرص كل من الزوجين على حفظ أسرار الزوجية :

الزواج سر مكنون بين الرجل والمرأة، وحتى ينجح هذا الزواج ويبارك، فإنه لابد من أن يحرص كل منهما على حياطته بالسرية التامة، وعدم نقل ما يتصل به، ولو إلى أقرب المقربين كالأبوين مثلاً إلا إذا وقع ما لا يمكن علاجه إلا باطلاع هؤلاء .

وأهما ما ينبغى ستره فيما بين الزوجين : قضية الإفضاء قطعًا للطريق على الفضوليين الذين يدسون أنوفهم فى الحياة الزوجية، ومحاولة الإفساد والهدم .

صلَّى النبى ﷺ ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعد، ثم أقبل على الرجال فقال : هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره، واستتر

(١) الحديث : أخرجه ابن ماجه فى السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء فى نظر الفجاءة ص ٦٢٧ رقم ٢٧٧٧ من حديث ابن بريدة عن أبيه رفعه، قال : يا على . . . الحديث .

(٢) الحديث : أخرجه ابن ماجه فى السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء فى نظر الفجاءة ص ٦٢٧ رقم ٢٧٧٦ من حديث أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير مرفوعًا به .

بستر الله ؟ قالوا : نعم. قال: ثم يجلس بعد ذلك، فيقول : فعلت كذا، فعلت كذا ؟ قال : فسكتوا، قال : فأقبل على النساء، فقال : هل منكن من تحدث ؟ فسكتن، فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطاولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها، فقالت : يا رسول الله إنهم ليتحدثون، وإنهن ليتحدثنه . فقال : هل تدرون ما مثل ذلك ؟ فقال : إنما ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانًا فى السكة، فقضى منها حاجته، والناس ينظرون إليه . . . الحديث »[١] .

٧ ـ أن يوصَّى كل من الزوجين بالعناية بمظهره :

ذلك أن العناية بالمظهر لها دور كبير للغاية فى إقبال كل من الزوجين على الآخر، وغرس المودة والمحبة بينهما، وقد دعا إليها الشرع الحنيف حين جعل النظافة من الإيمان، وحين جعل الأخذ من الشعور الداخلية ضمن سنن الفطرة، وحين دعا إلى الغسل، وتنظيف الثوب والبدن والمكان، وجعل الوضوء طريقًا للدخول فى الصلاة، وجعل العناية بالفم والأنف من المهمات، وكذلك اهتم بما يدخل البطن، كل هذا للتأليف والمودة بين الناس، فكيف بالزوجة والزوج، وكلاهما من الجار الأقرب .

يقول النبى ﷺ : « الطهور شطر الإيمان . . . الحديث »[٢] . ويقول: « لا تُقبل صلاة بغير طهور . . . الحديث » [٣] . ويقول : «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة،وانتقاص الماء» يعنى الاستنجاء بالماء، قال زكريا: قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة » [٤].

---

(١) الحديث : أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ٥٤١ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بنحو هذا اللفظ، وأبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله ص ٣١٤ رقم ٢١٧٤ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ص ١١٤، رقم ٢٢٣/ ١، والترمذى فى السنن، كتاب الدعوات، باب فى فضل الوضوء والحمدلة والتسبيح ص ٨٠٢، رقم ٣٥١٧ كلاهما من حديث أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه مرفوعًا به وبنحوه، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : (هذا حديث حسن صحيح) .

(٣) الحديث: أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة ص ١١٤ رقم ٢٤٤/ ٥٣٥ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا به .

(٤) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ص ١٢٥ رقم ٦٠٤ وأبو داود فى السنن، كتاب الطهارة، باب السواك من الفطرة ص ١٩ رقم ٥٣، والترمذى فى : السنن : كتاب الأدب، باب ما جاء فى تقليم الأظفار ص ٦٢٤ رقم ٢٧٥٧ كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : (هذا حديث حسن) .

وحسبنا آية الوضوء والغسل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية [المائدة : ٦] .

وقد دعا النبى ﷺ المرأة إلى حسن التبعل لزوجها فقال : « إذا صلت المرأة خمسها، وحصَّنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت »(١) .

والرجل بالمثل مدعو إلى ذلك انطلاقًا من قوله سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

أجل، إن حرص الزوجين على الاهتمام بالمظهر من العوامل التى تساعد على الحب والمودة، وسلامة الحياة الزوجية من التصدع والانهيار .

٨ ـ أن يوطن كل واحد من القرينين نفسه على تحسين الظن بقرينه :

ذلك أن الأساس هو حمل حال المسلم على البراءة الأصلية، وتظل هذه البراءة هى قاعدة تعامل المسلم مع أخيه المسلم ما لم تكن هناك مجاهرة بالسوء والفحشاء، وانطلاقًا من ذلك ؛ فإنه ينبغى على كل واحد من القرينين أن يوطن نفسه على تحسين الظن بقرينه طالما أنه لا مجاهرة بالمعصية، وهذا من شأنه تقوية العلاقة بين الزوجين ، وحماية الأسرة من التصدع والانهيار .

وقد أرسى النبى ﷺ هذا الأساس حين كان يمتنع من طرق أهله إلا بعد إعلانهم بقدومه .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « كان النبى ﷺ يكره أن يأتى الرجل أهله طروقًا »(٢) .

وعنه أيضًا أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة ؛ فلا يطرق أهله ليلاً »(٣) .

وجاء فى بعض الروايات سبب هذا النهى وهو اتهامهم بالخيانة، أو الاطلاع منهم

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان فى الصحيح .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب العمرة، باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة ص ٢٩٠ رقم ١٨٠١ ، وكتاب النكاح، باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم ص ٩٣٦ رقم ٥٢٤٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا به .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب النكاح، باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة . . . ص ٩٣٦ رقم ٥٢٤٤ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا به .

على ما لا تحمد عقباه، ثم إعطاؤهم الفرصة لحسن التبعل؛ إذ يقول جابر ﷺ: « نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يطلب عثراتهم » [(١)] .

وعنه أيضًا أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحدَّ المغيبة ، وتمتشط الشعثة » [(٢)] .

يقول الحافظ ابن حجر : « ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة ؛ لئلا يطلع منها على ما يكون سببًا لنفرته منها، وإما أن يجدها على حال غير مرضية، والشرع محرِّض على الستر » [(٣)] .

ويقول أيضًا تعليقًا على حديث كراهيته ﷺ إتيان الرجل أهله طروقًا : « وفى الحديث : الحث على التواد والتحاب خصوصًا بين الزوجين ؛ لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين، مع اطلاع كل منهما على ما جرت العادة بستره، حتى إن كل واحد منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء فى الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق؛ لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه، فيكون مراعاة ذلك فى غير الزوجين بطروق الأولى. . . وفيه التحريض على ترك التعرض لما يوجب سوء الظن بالمسلم » [(٤)] .

٩ ـ أن يحرص كل من الزوجين على الاعتدال فى الغيرة :

غيرة كل من الزوجين على قرينه دليل الحب والمودة، ولكن الإغراق فى هذه الغيرة قد يؤدى إلى التبرم أو الضيق، وربما البغض والفراق .

وقد نبه الشرع الحنيف إلى الغيرة المعتدلة، والغيرة التى فيها إغراق وتطرف ؛ إذ يقول ﷺ : « من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يُبغض الله، فأما التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة وأما التى يُبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » [(٥)] .

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الصيد والذبائح ص ٨٦٠ رقم ٤٩٦٩ من حديث جابر مرفوعًا به .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب النكاح، باب طلب الولد ص ٩٣٦، ٩٣٧ رقم ٥٢٤٦ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا به .

(٣) انظر : فتح البارى ١١/ ١٢١ .

(٤) انظر : فتح البارى ١١/ ١٢١، ١٢٢ .

(٥) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب الجهاد، باب فى الخيلاء فى الحرب ص ٣٨٤ رقم ٢٦٥٩ من حديث جابر بن عتيك مرفوعًا بهذا اللفظ .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : « كان فى هذا البيت فتى منا حديث عهد بعرس، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن يومًا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذ عليك سلاحك، فإنى أخشى عليك قريظة »، فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة؛ فقالت له : اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى فدخل، فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح » (1) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كانت ليلتى التى كان النبى صلى الله عليه وسلم فيها عندى، انقلب، فوضع رداءه، وخلع نعله، فوضعها عند رجليه وسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدتُ فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلتُ درعى فى رأسى واختمرتُ وتقنعتُ إزارى، ثم انطلقت على أثره، حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفتُ فأسرع فأسرعتُ، فهرول فهرولتُ، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: ما لك يا عائش، حشيا رابية(2) ؟ قلت: لا شىء، قال لتخبرينى، أو ليخبرنى الله اللطيف الخبير، قلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى فأخبرته، قال : فأنت السواد الذى رأيت أمامى ؟ قلت : نعم، فلهدنى فى صدرى لهدة أوجعتنى ، ثم قال : أظننتِ أن يحيف الله عليكِ ورسوله، قلت : مهما يكتم الناس يعلمه الله؟ نعم، قال : فإن جبريل أتانى حين رأيت، فنادانى فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منكِ، ولم يكن يدخل عليك، وقد وضعت ثيابكِ، وظننت أن قد رقدت فكرهتُ أن أوقظك وخشيتُ أن تستوحشى، فقال : إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » (3) لهذا لزم أن يحرص كل من الزوجين على الاعتدال فى الغيرة على النحو الذى ذكر آنفًا، حتى يقوى الحب بين الزوجين، وتدوم الحياة بينهما على النحو الذى يحبه الله ورسوله .

---

(1) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب السلام، باب قتل الحيَّات وغيرها ص ٩٩٣ رقم ٥٨٣٥/٢٢٣٦/١٣٩ من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(2) أى : ما لك متهيجة متواترة النَّفَس، فإن ذلك لا يكون إلا لمن أسرع فى مشيه . انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر .

(3) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ص ٣٩١، ٣٩٢ رقم ٢٢٥٦/١٠٣ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بهذا اللفظ .

١٠ ـ أن يكون كل من الزوجين على درجة عالية من العفة بحيث لا يطمع فى مال الآخر :

جبل الله الإنسان على حب التملك، وأوجب عليه أن يكون تملكه من الحلال الطيب؛ فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

[سورة البقرة]

وانطلاقًا من ذلك فقد أعطى كلا من الزوجين حق التملك، وجعل له ذمة مالية خاصة، وحرم على كل منهما أن يطمع فى مال الآخر، فيستولى عليه دون وجه حق.

فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء] .

وقال ﷺ لهند بنت عتبة لما قالت له : إن أبا سفيان رجل مِسِّيك، وإنى آخذ من ماله، قال : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » (١) .

١١ ـ أن يعطى كل من الزوجين مسألة المعاشرة أو المباشرة حقها المعروف :

ذلك أن المعاشرة أو المباشرة ضرورة لاستمرار النوع الإنسانى، فضلاً عن الإشباع العفيف النظيف، وهى على هذا نعمة من أجلِّ النعم ينبغى شكرها، وشكرها إنما يكون بالنظر إليها على النحو المذكور، والاستعداد التام لها، والتهيئة، والتمكين من الاستمتاع بكل الكيفيات عدا الدبر، وأيام الحيضة .

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار ما يتعارفون بينهم فى البيوع والإجارة... رقم ٢٢١١، وكتاب المظالم، باب قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه ص ٣٩٦ رقم ٢٤٦٠، وكتاب مناقب الأنصار، باب ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها ص ٦٤٢، رقم ٣٨٢٥، وكتاب النفقات، باب نفقة المرأة إذا غاب عنها زوجها ونفقة الولد ص ٩٥٧ رقم ٥٣٥٩، وباب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ص ٩٥٨ رقم ٥٣٦٤، وباب ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ص ٩٥٩ رقم ٥٣٧٠، وكتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ؟ ص ١١٤٧ رقم ٦٦٤١، وكتاب الأحكام، باب من رأى للقاضى أن يحكم بعلمه فى أمر الناس... ص ١٢٣٢ رقم ٧١٦١، وباب القضاء على الغائب ص ١٢٣٦ رقم ٧١٨٠، ومسلم فى الصحيح، كتاب الأقضية، باب قضية هند ص ٧٦٠ رقم ٤٤٧٧/ ١٧١٤ كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا به، وبنحوه .

عن جابر رضي الله عنه قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها فى قبلها جاء الولد أحول، فنزلت الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(١) [البقرة: ٢٢٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من يهود وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات؛ فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه، وقالت : إنما كنا نُؤتى على حرف ، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله ـ عز وجل : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٣] أى مقبلات ومدبرات ومستقبلات يعنى بذلك موضع الولد »(٢) .

وينبغى التقديم لذلك بالملامسة والقبلة، وكل أسباب الإثارة والتهيئة، قال تعالى : ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾ [البقرة] ، وعلى المرأة ألا تمنع نفسها من زوجها إلا لمانع شرعى، وهذا يشمل :

عدم صيامها تطوعًا وزوجها حاضر إلا بإذنه .

يقول النبى ﷺ : « لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه »(٣) .

إجابته ولو كانت تَطهى طعامها، أو كانت على سفر :

يقول النبى ﷺ : « إذا دعا الرجل زوجته لحاجته ، فلتأته وإن كانت على التنُّور »(٤) .

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح ، كتاب التفسير ، باب ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ص ٧٦٩ رقم ٤٥٢٨، ومسلم فى الصحيح، كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته فى قُبُلها من قُدَّامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر ص ٦٠٨ رقم ١٤٣٥/٣٥٣٥ كلاهما من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) الحديث : أخرجه أبو داود فى السنن، كتاب النكاح، باب فى جامع النكاح ص ٣١٢ رقم ٢١٦٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بهذا اللفظ .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب النكاح، باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعًا ص ٩٢٩ رقم ٥١٩٢، ومسلم فى الصحيح، كتاب الزكاة، باب ما أنفق العبد من مال مولاه ص ٤١٤ رقم ١٠٢٦/٢٣٧٠ كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

(٤) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير، صحيح الجامع الصغير وزيادته ١٥٤/١ رقم ٣٥٤، وعزاه إلى النسائى والترمذى من حديث طلق بن على، وقال : (صحيح) وأقره الألبانى .

ويقول أيضًا : « إذا دعى الرجل امرأته إلى فراشه، فلتجب، وإن كانت على ظهر قتَب » (١) ، وعلى الرجل كذلك أن يسعى لتحصين امرأته، ولا يهمل ذلك تحت أى ذريعة من الذرائع .

فقد آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ﷺ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبذِّلة، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبى ﷺ : « صدق سلمان » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، فكان يتعهَّد كنَّته، فيسألها عن بعلها، فتقول : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يُفتش لنا كنفًا مذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبى ﷺ فقال : « ألقنى به » فلقيته بعد، فقال: « كيف تصوم ؟ » قال : كل يوم، فقال : « وكيف تختم ؟ » قال: كل ليلة، وفى رواية : قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الله: ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ » فقلت: بلى يا رسول الله، قال: « فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونَم، فإن لجسدك عليك حقًا . . . وإن لزوجك عليك حقًا » (٣) .

١٢ ـ أن يعى كل واحد من الزوجين الطبيعة البشرية للآخر :

ذلك أن الإنسان فيما عدا النبين والمرسلين مجبول على الخطأ، وهو أيضًا مرهف الحس، رقيق المشاعر، وعلى كل واحد من الزوجين استيعاب ذلك ، فيعذر قرينه إذا أخطأ، ولا يأتى من السلوكيات ما يخرج به إحساس غيره ومشاعره .

---

(١) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير، صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ١٥٤ رقم ٥٣٣، وعزاه إلى البزار من حديث زيد بن أرقم، وقال عنه : (صحيح) وأقره الألبانى .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ٣/٤٩، ٥٠، وكتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف ٨/ ٤٠، والترمذى فى السنن، كتاب الزهد، باب منه ٤/٦٠٨، ٦٠٩ رقم ٢٤١٣ كلاهما من حديث أبى جحيفة، عن سلمان مرفوعًا به، وعقَّب الترمذى على حديثه قائلاً : (هذا حديث صحيح) .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الجسد فى الصوم، وباب حق الأهل فى الصوم ٣/ ٥١، ٥٢، ومسلم فى الصحيح، كتاب الصيام، باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوَّت به حقا ٢/ ٨١٣ ـ ٨١٨ رقم ١٨٣ ـ ١٩٣، والنسائى فى السنن، كتاب الصوم، باب صوم يوم وإفطار يوم ٤/ ٢١٠، ٢١١، وباب صوم عشرة أيام من الشهر ٤/ ٢١٥ كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ واللفظ للبخارى .

جاء فى الحديث قوله ﷺ : « كل بنى آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون»(١) .

وقال سبحانه مادحًا المتقين : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

١٣ ـ أن يتحرر كل من الزوجين عن جميع ما يشغله عن الآخر :

ذلك أن الحياة الزوجية لا تستقيم ولا تدوم إلا بأن يعطى كل واحد من الزوجين نفسه للآخر، ولا يتحقق ذلك إلا بتحرر كل منهما عن كل ما يشغله عن الآخر من دنيا أو أعباء خارجية، وإن كان ولابد من الاشتغال بشيء من ذلك فلتكن الموازنة بين حق الأهل أو الزوج، وبين هذه، على حد قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص ؓ: « ... فإن لجسدك عليك حقًا ... وإن لزوجك عليك حقًا »(٢) .

وإقراره سلمان فى وصيته لأبى الدرداء ؓ : « إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا؛ فأعط كل ذى حق حقه »(٣) ، وقد مضيا منذ قليل.

والموازنة أن يكون لكل من الزوجين نصيبه من الآخر، ولو بمقدار ساعتين يوميًا ، والانقطاع لهما فى يوم أسبوعى يعرف بيوم الأسرة .

١٤ ـ أن يحرص كل من الزوجين على عدم تقمص شخصية الآخر :

ذلك أن الله منح كل واحد من الزوجين مواهب وطاقات ليست فى الآخر، وعلى كل أن يعمل على تنمية هذه المواهب، والطاقات ليكمل بها صاحبه، فيتكون المحضن الرئيسى الذى يمد المجتمع والأمة بحاجات من الموارد البشرية، وأعنى بهذا المحضن الأسرة.

ولا يمكن تنمية ما لدى كل واحد من الطرفين بما من الله عليه من طاقات ومواهب، إلا إذا حافظ على شخصيته، واستمر على ذلك حتى تنتهى الحياة، دون تقمص لشخصية الآخر .

---

(١) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير، صحيح الجامع الصغير وزيادته ٨٣١/٢ رقم ٤٥١٥، وعزاه إلى أحمد فى المسند والترمذى وابن ماجه فى السنن، والحاكم فى المستدرك من حديث أنس وقال عنه : (حسن) وأقره على ذلك الألبانى .

(٢، ٣) الحديثان سبق تخريجهما .

ولعلنا بذلك نفهم سر قوله ﷺ : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء »[١]، وقوله: « لعن الله المخنَّثين من الرجال، والمترجلات من النساء »[٢].

وقوله : « لعن الله الرَّجُلَةَ من النساء »[٣].

وقوله : « لعن الله الرجل يلبس لِبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل »[٤].

١٥ ـ ألا ينفرد كل من الطرفين بالمسؤولية دون الآخر :

ذلك أن نجاح الإنسان فى تنفيذ المهام المنوطة به، وإنما يتحقق بمشاركة الآخرين له هذه المهام، وانطلاقًا من ذلك فإن الحياة الزوجية لا تثمر تحقيق المهام المنوطة بها إلا باشتراك كل من الطرفين فى هذه المهام وتلك المسؤولية، وقد لفت ربُّ العزة النظر إلى ذلك فى قوله: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

كما لفت النبى ﷺ النظر إلى ذلك فى قوله : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، وكلكم مسؤول عن رعيته »[٥].

(١) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير : (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٩٠٨/٢ رقم ٥١٠٠٣) وعزاه إلى أحمد فى المسند، وأبو داود والترمذى وابن ماجه فى سننهم، وعزاه إلى ابن عباس ﷺ مرفوعًا، وقال : (صحيح) وأقره الألبانى .

(٢) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير : (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٩٠٨/٢ رقم ٥١٠٣) وعزاه إلى البخارى فى الأدب المفرد، والترمذى فى السنن من حديث ابن عباس ﷺ، وقال : (صحيح) وأقره الألبانى .

(٣) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير : (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٩٠٧/٢ رقم ٥٠٩٦) وعزاه إلى أبى داود من حديث عائشة ﷺ مرفوعًا، وقال : (صحيح) وأقره الألبانى .

(٤) الحديث : أورده السيوطى فى الجامع الصغير : (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٩٠٧/٢ رقم ٥٠٩٥) وعزاه إلى أبى داود فى السنن والحاكم فى المستدرك من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا، وقال : (صحيح)، وأقره الألبانى .

(٥) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الجمعة، باب الجمعة فى القرى والمدن ص ١٤٣ رقم ٨٩٣، وكتاب الاستقراض، باب العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه ص ٣٨٧ رقم ٢٤٠٩، وكتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله : عبدى أو أمتى ص ٤١٢ رقم ٢٥٥٤، وباب العبد راع فى مال سيده ونسب النبى ﷺ المال إلى السيد ص ٤١٣ رقم ٢٥٥٨، وكتاب الوصايا، باب تأويل قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : ١١] ص ٤٥٤ رقم ٢٧٥١، وكتاب النكاح، باب ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] ص ٩٢٦ رقم ٥١٨٨، وباب المرأة راعية فى بيت زوجها ص ٩٣٠ رقم ٥٢٠٠، وكتاب الأحكام، باب قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] ص ١٢٢٩ رقم ٧١٣٨ من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه .

١٦ ـ أن يحرص الزوجان على عدم تدخل الآخرين فى حياتهما الزوجية بلا موجب، ولا مبرر :

ذلك أنه إذا وعى الزوجان أن تدخل الآخرين، ولو كانوا من أقرب المقربين فى حياتهما الزوجية بلا موجب، ولا مبرر، يكون له أكبر الأثر فى اتساع هوة الشقاق والنزاع بينهما، وربما هدم الحياة الزوجية، إذا وعى الزوجان ذلك ، فإنه يتولد لديهما الحرص على صيانة حياتهما الزوجية من تدخل الآخرين، وإن كانوا من أقرب المقربين، إلا إذا كانت هناك مبررات وموجبات تقتضى ذلك، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء : ٣٥]

١٧ ـ ألا يستمع الزوجان للأفكار الوافدة الهدامة :

ذلك أن هناك جهات تحمل فى صدرها حقداً وكراهية للأسرة فى الإسلام وبنيانها على أساس من تقوى الله ومبادئ شرعه الحنيف،وتعمل على هذه الجهات على تصديع بنيان هذه الأسرة والقضاء عليها بتصدير ما لديها من أفكار مسمومة ومبادئ هدامة .

وعلى الزوجين ألا يستمعا إلى هذه الأفكار، وتلك المبادئ صيانة للأسرة من التصدع والانهيار .

وقد لفت النبى ﷺ النظر إلى ذلك فيما روى أحمد من حديث عبد الله بن سابط، قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، فقلت : إنى لسائلك عن أمر، وأنا أستحى أن أسألك، قالت: فلا تستح يا بن أخى، قال : عن إتيان النساء فى أدبارهن ، قالت : حدثتنى أم سلمة أن الأنصار كانوا يجبون النساء ، وكانت اليهود تقول : إنه من أجبى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار، فأجبوهن، فأبت المرأة أن تطيع زوجها، وقالت لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك ، فقالت : اجلس حتى يأتى رسول الله ﷺ ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ ، فخرجت فسألته أم سلمة، فقال : ادعى الأنصارية، فدعتها، فتلا عليها هذه الآية : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] صماماً واحداً[١] .

---

(١) الحديث أورده ابن كثير فى التفسير ١/ ٢٤٧ وعزاه إلى أحمد والترمذى .

إذ لم يسمح الحق ـ تبارك وتعالى ـ للأفكار الهدامة التى عند اليهود أن تقتحم على المسلمين حياتهم، وأن تغزو عقولهم، فتخرب عليهم بيوتهم وأسرهم .

١٨ ـ أن يجاهد كل واحد من الزوجين نفسه على أن يكون انتصاره للحق والحق وحده :

ذلك أنه إذا أيقن كل واحد من الزوجين : أن الخلاف بين بنى البشر سنة بشرية لتفاوت العقول، واختلاف البيئات، وتنوع المعرفة، وتباين الأدلة، وأن المطلوب تجاوز الخلاف، أو تضييق هوته على الأقل بغية بلوغ الصواب والحق، وإن خالف هوى النفس، إذا أيقن كل واحد من الزوجين بهاتين الحقيقتين، فإنه يجاهد نفسه على أن يكون الانتصار للحق، والحق وحده، وإن خالف هوى النفس، وبذلك تسلم الحياة الزوجية من أى اهتزاز أو تصدع .

١٩ ـ أن يتحرر كل من الزوجين من مقارنة الطرف الآخر بالغير :

ذلك أن الحياة الزوجية إذا بنيت على أساس مقارنة كل واحد من الطرفين للأخر بالغير، فإن مآلها التصدع والانهيار، وعليه ، فإذا أراد الزوجان استمرار الحياة الزوجية خالية من أى تشقق أو تصدع، فإن عليهما التحرر من هذه المقارنة؛ إذ الناس ليسوا سواء خَلقًا وخُلُقًا، وإذا كان الأمر كذلك فلا داعى للمقارنة، وليقل كل واحد من الزوجين إن قرينه هو قسمه من الله، وليوطن نفسه على الرضا بهذا القسم، عند ذلك تسلم الحياة الزوجية من أى تصدع أو انهيار .

٢٠ ـ أن يعمل كل من الزوجين على اكتساب الخبرات والتجارب التى تفيده فى تعامله مع قرينه :

وذلك أن الحياة الزوجية لا تنمو إلا بالخبرات والتجارب،وإذا حرص كل واحد من الزوجين على اكتساب الخبرات والتجارب تارة بالقراءة، وتارة بالسمع، وتارة بالمشاهدة، وتارة بالممارسة، وتارة بالسؤال.وحاولا استثمارها الاستثمار اللائق الصحيح، فإن ذلك يساعد ـ لا محالة ـ على تنمية الحياة الزوجية، وحفظها من أى تصدع أو انهيار .

٢١ ـ أن يعمل كل واحد من الزوجين على التزود بزاد التقوى :

ذلك أن الحياة الزوجية عشرة إلى نهاية الحياة، وطريقها كلها عقبات ومعوقات، ولا سبيل لاستمرار هذه العشرة وسلامتها وسط العقبات والمعوقات إلا بالتزود بزاد التقوى، وذلك بترك كل ما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة

والباطنة، والحرص على الإتيان بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فلا رياء، ولا إعجاب بالنفس، ولا غرور، ولا تكبر، ولا اتباع للهوى، ولا إسراف ولا تبذير، ولا شح ولا تقتير، ولا ظنون كاذبة،ولا عجلة فى إصدار الأحكام، ولا غيبة ولا نميمة، ولا فوضى، ولا تشاؤم، ولا تنطع، ولا مراء ولا جدل، ولا غضب للنفس، ولا حقد ولا حسد، ولا تنافس على الدنيا، ولا انهزام، ولا كبت، ولا قهر،ولا يأس ولا قنوط،ولا تعاطى للحرام،ولا لغو،ولا عزة بالإثم، ولا خذلان، ولا احتقار للآخرين، ولا تتبع للعورات، ولا شماتة، ولا غرر، ولا عقوق للوالدين، ولا قطيعة رحم، ولا تضييع للأولاد، لا شىء من ذلك كله، بل لا تفريط فى عمل اليوم والليلة، وإنما هنالك المحافظة على الفرائض من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة، ومواظبة على النوافل من قيام الليل، ولا صلاة الضحى، وصوم التطوع، وكثرة الصدقات، والمتابعة بين الحج والعمرة، وتحمل الأذى، والعفو عند المقدرة، وصناعة المعروف، والحرص على أكل الحلال، ومحاسبة النفس، وتجديد التوبة، والمواظبة على الأذكار المطلقة والمقيدة، والإكثار من حضور مجالس العلم، ومطالعة الكتب النافعة، ودوام تلاوة القرآن، والنظر فى السنة والسيرة النبوية، والاشتغال بواجب النصح والدعوة إلى الله، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واستصحاب نية الجهاد فى سبيل الله وهلم جرا، إن ذلك كله يكون سببًا فى تقوية ملكة التقوى، وهى زاد دوام العشرة الزوجية، وتخطى ما يعترضها من عقبات ومعوقات .

٢٢ ـ أن يستجيب المجتمع للقيام بواجبه فى الإصلاح بين الزوجين عندما يقتضى الأمر ذلك :

ذلك أن هناك نوعًا من الشقاق بين الزوجين لا يمكن درؤه إلا بتدخل الآخرين، وقد نبه الشرع الحكيم إلى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء] ، وعليه ، فإن على المجتمع أن يستجيب لدعوة الزوجين للإصلاح، وأن يعمل على القيام بواجبه فى ذلك مع تحرى الصدق والإخلاص، والحكم بالقسطاس المستقيم كى يوفق المولى سبحانه ويتم الإصلاح، وإلا فلتكن قطيعة الطرف المعتدى كى تتعطل مصالحه، ويراجع نفسه، ويعمل على العودة إلى حكم الله، والنزول عليه، وإن خالف مراده، وهواه.

٢٣ ـ أن يقوم ولى الأمر بواجبه فى الإصلاح بين الزوجين حين يُرفَع إليه الأمر:

ذلك أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وتبعًا لذلك فإنه إن استعصى

الإصلاح ورفع الأمر إلى السلطان فليحرص على القيام بواجبه فى ردم هوة الخلاف، بما لديه من إمكانات ليست لدى غيره، فإن استعصى ردم هوة الخلاف؛ فليقف إلى جوار الطرف الضعيف بعد التدقيق والتحرى، وليستعن بالله، و﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] .

٢ ـ أن يكثر الزوجان من النظر فى سير السلف فى حياتهم الزوجية :

ذلك أن لدنيا ـ نحن المسلمين ـ تجارب رائعة فى كل ميدان، ومن بينها حسن العشرة بين الزوجين، فقد أُثِر عن أسماء بنت أبى بكر إعانتها بجهدها وعرقها لزوجها الزبير بن العوام فى بيته، وأرضه، ودوابه، وصبرها على شدته وغيرته تبتغى الأجر من الله ـ تبارك وتعالى .

هذا الإمام الشعبى عامر بن شراحيل علامة التابعين، وأمهر القضاة فى عصره، يقول : عشت مع أهلى ما عشت فما رابنى منهم شىء أبدًا ، وهذا أحمد بن محمد المعروف بابن المظفر التركمانى الأصل، القاهرى الشافعى ت ٨٩٦هـ يحكى عن أمه وأبيه التونسيين أنهما عاشا زوجين خمسين سنة لم يختلفا يومًا واحدًا [(١)] .

وهذا الشيخ يحيى المزورى العماوى ، الشافعى البغدادى ت ١٢٤٠هـ يعاون زوجته فى غسل الثياب والطبخ وحوائج البيت ، وكان يغسِّل أولاده إذا ماتوا بنفسه، ويقول لزوجه : « لا تضجرى من موتهم، واشكرى الله تعالى » [(٢)] .

إن الإكثار من النظر فى سير هؤلاء السلف له أعظم الأثر فى استقامة الحياة الزوجية وصلاحها .

٢٥ ـ أن يشاهد الزوجان القدوات الحية للأسرة ذات الترابط والتماسك :

ذلك أن مشاهدة الزوجين القدوات الحية للأسر ذات الترابط والتماسك مما يعمل على تقريب الشقة بين الزوجين، ويحمل على مزيد من الصلاح والاستقامة، ولمٍّ شمل الأسرة .

فكم من أسر كاد الخلاف أو الشقاق أن يعصف بها لولا ما قيض الله لها من قدوات حية لأسر المجاهدين، الذين سُجنوا وعُذبوا واستشهدوا وهم يواجهون خطر

---

(١) انظر : الضوء اللامع للسخاوى ٢/١٠٧، ١٠٨ بتصرف .

(٢) انظر : حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار ٣/١٥٨٧، ٥١٩١ بتصرف كثير .

الشيوعية، والعلمانية، والصليبية، واليهودية الصهيونية فى المنطقة العربية،من أمثال أسر الشيخ حسن البنا، والمستشار حسن الهضيبى، وآل قطب، وآل الجوهرى، وآل مشهور، وآل دياب، وآل الشيخ أحمد ياسين، وآل الرنتيسى، وغيرهم وغيرهم، أجل، إن مشاهدة ومعايشة هذه الأسر القدوات الحية له أعظم الأثر فى القضاء على الشقاق بين الزوجين، ورأب الصدع، وإضفاء جو من حسن العشرة،ودوام الصلاح والاستقامة.

٢٦ ـ أن يذكِّر الزوجان على الدوام بالآثار والعواقب المترتبة على انهيار الأسر :

ذلك أن المرء ينسى وأعظم علاج للنسيان إنما هو التذكير الدائم انطلاقًا من قوله سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات] ، وعليه فإن من عوامل تقوية علاقة كل من الزوجين بالآخر دوام التذكير بالعواقب والآثار المترتبة على انهيار الأسرة مع التنويع والتلوين فى أساليب التذكير ، حتى يبلغ التذكير مبلغه من النفس الإنسانية، ولعل هذا التذكير إذا كان مقرونًا بالصدق والإخلاص ، يؤتى أكله طيبًا بإذن ربه، وما ذلك على الله بعزيز .

٢٧ ـ أن يواظب الزوجان على الدعاء أن يصلح الله الأسرة، وأن يجنبها كل زلل:

ذلك أن الدعاء هو العبادة، سواء أكان دعاء مسألة وطلب أم دعاء ثناء على الله ـ تعالى ـ وقد علمنا ربنا أن نقول : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [الفرقان] .

كما علمنا أيضًا أن نقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ [البقرة] .

أجل، إن الزوجين إذا واظبا على الدعاء بنوعيه، فإن الله يستجيب ويصلح من شأن هذا البيت، ويزرع الحب والشفقة والمودة بين الزوجين، فتدوم العشرة إلى الممات .

الآفة السادسة والأربعون
الغش

والآفة السادسة والأربعون التى تفشت وشاعت بين الناس ، فأفقدتهم الثقة فيما بينهم، وفرَّقتهم أيدى سبأ ، وأطمعت الأعداء فيهم، وجرَّأتهم عليهم إنما هى آفة : «الغش» بكل صوره وأشكاله، وحتى يبرأ منها من ابتلى بها، ولا يعود إليها، وحتى يحذرها من عافاه الله ـ عز وجل ـ منها فإنه لابد من القيام بسلسلة من الأعمال، وأولها التعرف على أبعاد ومعالم هذه الآفة من خلال هذه الجوانب .

الجانب الأول : تعريف الغش لغة، وشرعًا :

أ ـ لغة : يأتى الغش لغة على معان، نذكر منها :

١ ـ الخلط والتلبيس؛ تقول : غش اللبن : خلطه ولبَّسه بما يزيل صفاءه ونقاءه، يقول ابن منظور : « وهو ـ أى الغش ـ مأخوذ من الغش، وهو المشرب الكدِر » [(١)] ، ويقول الفيومى : « ولبن مغشوش : مخلوط بالماء » [(٢)] ، ويقول المناوى : « الغش : ما يخلط من الردىء بالجيد » [(٣)] .

٢ ـ التزيين والتحسين ، تقول : غش الشىء : زينه وحسنه، يقول الفيومى : «والاسم : غِشٌّ ـ بالكسر ـ لم ينصحه، وزين له غير المصلحة » [(٤)] .

٣ ـ الغل والحقد، تقول : غش صدره : امتلأ غلاً وحقداً [(٥)] ، ولا تعارض بين هذه المعانى ؛ إذ هو غلٌّ وحقد يظهر فى صورة خلط وتلبيس مشوب بالتمويه والتزيين.

---

(١) انظر : لسان العرب ٦/ ٣٢٣ مادة : (غش) .

(٢) انظر : المصباح المنير ص ١٧٠ مادة : (غش) .

(٣) انظر : التوقيف ص ٢٥٢ مادة : (غش) .

(٤) انظر : المصباح المنير ص ١٧٠ مادة : (غش) .

(٥) انظر : التاج ٩/ ١٥٤ مادة : (غش) .

ب ـ شرعًا :جاءت تعاريف عدة عن نفر من العلماء للغش، نذكر منها :

١ ـ تعريف ابن منظور : أن الغش هو نقيض النصح (١).

٢ ـ تعريف الكفوى : أن الغش هو سواد القلب ، وعبوس الوجه (٢).

والتعريف الأول معبر عن الحقيقة، ولكن بصورة مهمة ومجملة، أما التعريف الثانى فإنه معبر عن دافع الغش دون تصوير لما يكشف عن هذا الدافع، ويدل عليه.

ويمكن التعبير عن التعريفين معًا بأن الغش شرعًا : غل أو حقد يؤدى إلى عدم صدق النصيحة مع إظهار خلاف ذلك .

الجانب الثانى : مظاهر الغش أو صوره وحكمه فى نظر الشارع الحكيم :

وللغش مظاهر تدل عليه ، وصور تعبر عنه، نذكر منه :

١ ـ الغش العلمى والفكرى :

المتمثل فى السرقات العلمية والفكرية، سواء فى الامتحانات أو البحوث العلمية، أو منح الدرجات العلمية، والألقاب ونحوها .

٢ ـ الغش الوظيفى :

المتمثل فى إسناد الوظائف لغير أهلها، أو عدم الجدية فى القيام بالواجب الوظيفى، أو استخدام الوظيفة طريقًا لتحقيق منافع شخصية ونحوها .

٣ ـ الغش السياسى :

المتمثل فى تزوير إرادة الشعوب أو الوصول إلى سدة الحكم بالقوة، أو الكذب على الشعوب عن طريق الوعود البراقة التى لا أساس لها من الصحة، أو استغلال ثروات الأمة فى تحقيق مآرب شخصية، أو بيع الشعوب وخيرها وثرواتها للأعداء بطريق مباشر أو غير مباشر، ونحوها .

٤ ـ الغش التجارى والاقتصادى :

المتمثل فى إخفاء عيوب السلعة، أو عدم أداء الأعمال بإتقان ودقة، أو عدم صدق النصيحة فى الكسب والإنفاق والادخار، ونحوها .

---

(١) انظر : لسان العرب ٦/ ٣٢٣ .

(٢) انظر : الكليات ص ٦٧٢ .

٥ ـ الغش الاجتماعى :

المتمثل فى إخفاء عيب كل من الزوجين عن الآخر، أو عدم صدق النصيحة فيما يتصل بالأسرة أو الجوار، أو الأرحام، أو الأخوة ونحوها .

٦ ـ الغش القانونى والقضائى :

المتمثل فى وضع قوانين يضاهى بها شرع الله، أو لتقوم مقامه، أو لتحليل الحرام، أو لتحريم الحلال، أو الحكم بغير ما أنزل الله، ونحو ذلك .

٧ ـ الغش الإعلامى والدعوى :

المتمثل فى خلط السم بالدسم، الترفيه بالمحظور، عدم رعاية الأولويات، النيل من ذوى الأسرة والقدوة، تصويب السهام نحو الأصول والثوابت الإسلامية، ونحوها .

٨ ـ الغش المعلوماتى :

المتمثل فى تغيير المعلومات أو احتكارها دائمًا أو مؤقتًا، أو الحصول عليها أصلاً بطريق مشبوهة أو ملتوية، ونحوها .

٩ ـ الغش التعليمى والتربوى :

المتمثل فى تغيير المناهج بما يتعارض مع دين الأمة وثقافتها، أو إهمال الربط بين التعليم والتربية، أو عدم أهلية المعلم والمربى، ونحوها، إلى غير ذلك من المظاهر والصور الدالة على الغش .

أما حكم الغش بكل مظاهره وصوره عند الشارع الحكيم، فيتلخص فى أنه كبيرة من الكبائر، وبالتالى فهو حرام، إذ جاء فى الحديث أن النبى ﷺ مر على صُبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ » قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ؟ من غش فليس منى » [١] .

وعن معقل بن يسار المزنى رضي الله عنه فى مرضه الذى مات فيه، قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته؛ إلا حرَّم الله عليه الجنة » [٢] .

(١) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ : « ومن غشنا فليس منا » ص ٥٧، ٥٨ رقم ١٠٢/٢٨٤، من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح ص ١٢٣٠ رقم ٧١٥٠، ومسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالى الغاش لرعيته النار ص ٧٢، ٧٣، رقم ١٤٢/٢٢٧/٣٦٣ كلاهما من حديث معقل بن يسار المزنى مرفوعًا، واللفظ لمسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا، لا يبايعه إلا لدنيا؛ فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف »(١) .

وعن أسماء رضي الله عنها : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : إن لي ضرة فهل عليَّ جناح أن أتشبَّع من مال زوجي بما لم يعطني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زورٍ »(٢) .

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال : كنت عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأتاه رجل، فقال : ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبي ﷺ يُسرُّ إليَّ شيئًا يكتمه الناس، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، قال: فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: قال: « لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غيَّر منار الأرض »(٣) .

وعن عدي بن عمير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من استعملناه منكم على عمل فكَتَمَنَا مِخْيطًا فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة » فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه ، فقال : يا رسول الله ، اقبل عني عملك ، قال : «وما لك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: «وأنا أقول الآن، من استعملناه منكم على عمل، فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى »(٤) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: توفي رجل من أهل الصفة فوجدوا في شملته

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمنِّ بالعطية. . ص ٦٠ رقم ٢٩٧/١٧٣/١٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث : أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب المتشبِّع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة ص ٩٣٣ رقم ٥٢١٩، ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة ص ٩٥١ رقم ٥٥٨٤/١٢٧/ ٢١٣٠ كلاهما من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوع .

(٣) الحديث : أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله . . . ص ٨٨٣ رقم ٥١٢/ ٤٤ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٤) الحديث : أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال ص ٨٢٤ رقم ٤٧٤٣/ ٣٠/ ١٨٣٣، ورقم ٤٧٤٤، ٤٧٤٥ من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

دينارين؛ فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « كيَّتان » (١) قال الحافظ المنذرى معلقًا على هذا الحديث : « إنما كان كذلك؛ لأنه ادخر مع تلبسه بالفقر ظاهراً، ومشاركته الفقراء فيما يأتيهم من الصدقة » (٢) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمَه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » (٣) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « ما من أمير يلى أمور المسلمين، ثم لا يُجْهَد لهم، وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة » (٤) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر فقال : « الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس » ، وقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور، أو قال : شهادة الزور » (٥) .

---

(١) الحديث : أخرجه أحمد فى المسند ٦/ ١٧٠ رقم ٤٣٦٧، وعقَّب عليه الشيخ أحمد شاكر : (إسناده صحيح)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد، كتاب الزهد، باب فى الإنفاق والإمساك ١٠/ ٢٤٠، وعزاه إلى أحمد، وأبى يعلى، والبزار قائلاً : (رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، وفيه عاصم ابن بهدلة، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال صحيح) وسبقه المنذرى فقال : (رواه أحمد، وابن حبان فى صحيحه) .

(٢) انظر : المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى، انتقاء القرضاوى، كتاب الصدقات، باب الترغيب فى الإنفاق فى وجوه الخير كرمًا، والترهيب فى الإمساك، والادخار شحًا ١/ ٢٩٦ حديث رقم ٤٨٦ .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى فى : الصحيح، كتاب الإجارة، باب إثم من منع أجر الأجير ص ٣٦١، ٣٦٢ رقم ٢٢٧٠ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، ولكن بغير قوله : « ومن كنت خصمه خصمته»، وابن ماجه فى السنن، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء ص ٣٥٠ رقم ٢٤٤٢ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ، وأحمد فى المسند ١٦/ ٢٨٢ رقم ٨٦٧٧ من حديث أبى هريرة، وقد أورده الألبانى فى ضعيف الجامع قائلاً : (ضعيف من رواية ابن ماجه) وأحال تفصيل القول فيه إلى كتابه : إرواء الغليل رقم ١٤٨٩، وبين من مراجعة الإرواء أنه حكم على إسناد البخارى بأنه ضعيف، وأحسن أحواله أنه يحتمل التحسين، وأتصور أن هذا منه غريب .

(٤) الحديث : أخرجه مسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالى الغاش لرعيته النار ص ٧٣ رقم ٣٦٦ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٥) الحديث : أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ص ١٠٤٧ رقم ٥٩٧٧، ومسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها ص ٥٣ رقم ٢٦١ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا .

كما أن الآثار والعواقب المترتبة على الغش، سواءٌ أكان ذلك على المستوى الفردى، أو الجماعى لتؤكد حرمة هذا السلوك كما يكشف عنه الجانب التالى :

الجانب الثالث : الآثار والعواقب المترتبة على الغش :

لا شك أن للغش بكل أشكاله وصوره آثاراً مدمرة، وعواقب خطيرة على العاملين، وعلى العمل الإسلامى ، وذلك على النحو التالى :

أ ـ على العاملين :

فمن آثار الغش على العاملين :

١ ـ الكسب الحرام :

ذلك أن نهاية الغش الكسب الحرام، ولا شك أن الكسب الحرام يفسد أول ما يفسد القلب وبالتالى العقل، وإذا فسد قلب الغاش وعقله؛ فإنه ينطلق كالوحش الهايج ينال من كل ما يشبع نهمه، ويروى ظمأه من الشر والفساد، ويستمر هكذا حتى يفسُد الجسد كذلك، وتكون العاقبة النار وبئس القرار، حسبنا قوله ﷺ : « يا كعب بن عجرة، إنه لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت النار أولى به » [(١)] .

٢ ـ القلق والاضطراب النفسى :

ذلك أن الغاش ينام ويقوم وهو قلق مضطرب من داخله خشية أن يكتشف الناس غشه وخيانته، وذلك أشد أنواع العقاب فى الدنيا، حسبنا قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن]، وحسبنا أن هذا هو مفهوم قوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الانعام] .

٣ ـ تعطيل المصالح :

ذلك أن اكتشاف المجتمع للغشاش يحملهم على سحب الثقة منه، وربما مقاطعته، وعدم التعامل معه، خوفًا من الاكتواء بناره أكثر وأكثر، وحينئذ تتوقف مصالحه، وتتعطل أعماله، ولعل ذلك هو ما يشير إليه قوله ﷺ : « من غش فليس منا »[(٢)].

---

(١) الحديث : سبق تخريجه فى آفة أكل الحرام، المجلد الثالث ٥ ، ٦ / ١٧٠ .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى حكم هذه الآفة .

أى: إن كان مستحلاً الغش فقد كفر، وحينئذ لا يصح التعامل معه؛ لأنه يؤذى الأمة، وإن كان غير مستحلٍّ فقد ارتكب من المعاصى والمخالفات ما يوجب بُعْدَ الناس عنه ومقاطعته؛ حماية لمصالحهم من خطره وآذاه .

٤ ـ الحرمان من رحمة الله :

ذلك أن من ولع فى الغش بكل أشكاله وصوره، فقد اكتسب ما يكون سببًا فى حرمانه من رحمة الله وعفوه ومغفرته، وماذا بقى من رعاية وتأييد لهذا الغاش، وقد حرمه الله هذه الرعاية وذلك التأييد، وقد جاء هذا صريحًا فى قوله ﷺ: «. . .ولعن الله من غير منار الأرض » (١) .

وفى قوله ﷺ كذلك : « ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل . . . الحديث » (٢) .

٥ ـ الحرمان من الجنة :

ذلك أن الغاش إذا لقى ربه ولم يتب من هذا الغش؛ تكون عاقبته الحرمان من الجنة، والخلود فى النار، وقد نبه النبى ﷺ إلى ذلك فى قوله: « ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » (٣) .

كما نبه إليه فى قوله : « قال الله ـ تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته . . . الحديث » (٤) .

وفى قوله : « ما من أمير يلى أمور المسلمين، ثم لا يُجْهَدُ لهم، وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة » (٥) .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثار الغش على العمل الإسلامى :

١ ـ الفرقة والتمزق :

ذلك أن الغش إذا ساد كل أرجاء المجتمع تنافرت القلوب، وبالتالى تفرقت الكلمة، وتمزقت الصفوف، وحينئذ يُفتح الباب أمام الأعداء للدخول إلى بلاد المسلمين، والعمل على تغيير فكرهم، وثقافتهم ليستمروا فى نهب خير الأمة وثرواتها، وذلك فيه من الذل والهوان، والقهر والتأخر ما فيه .

(١ ـ ٥) الحديث سبق تخريجه عند الكلام على حكم الغش، وموقف الإسلام منه .

٢ ـ طول الطريق، وكثرة التكاليف :

وحين تحاول الأمة التخلص من سيطرة الأعداء، فإنها تتكلف كثيرًا من الجهد، والفكر، والمال، فضلاً عن طول الطريق، الأمر الذى يحول دون الرُّقى والتقدم، وأخذ المكان اللائق تحت الشمس .

الجانب الرابع : أسباب الغش وبواعثه :

للغش أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، نذكر فيه :

١ ـ حب الدنيا والتنافس عليها :

ذلك أن المرء إذا تمكن حب الدنيا من قلبه، ونافس الآخرين فى طلبها فإنه يسلك كل سبيل لإشباع هذا التمكن والتنافس، ويرى الغش أحسن هذه السبل، لا سيما أن فيه نوعًا من التمويه والتورية، الذى يستتر وراءه ولو إلى حين .

٢ ـ تلاشى مصادر الإلزام الخلقى البشرية من متابعة الغاش :

ذلك أن للإلزام الخلقى مصادر بشرية منها : القلب أو ما يسمى بالضمير، ثم العقل، ثم المجتمع، ثم ولى الأمر، وإذا ما تلاشت هذه ، فإن الجو يخلو للغاش ، يفعل ما يحلو له ، وما يشاء « خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرى » (١) .

٣ ـ نسيان الغاش أن الله عالم بكل ما يأتى وما يدع :

ذلك أن كمال الالتزام أن يجوِّد المرء عمله يقينًا منه أنه يرى ربه ويراه؛ فإن لم يوقن بذلك، ولم يصل إلى هذا المستوى؛ فإن الله يراه ، لقوله ﷺ فى حديث جبريل ـ وقد سئل عن ماهية الإحسان : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم

---

(١) أول من قال ذلك : طرفة بن العبد الشاعر، وذلك أنه كان مع عمه فى سفر، وهو صبى، فنزلوا على ماء، فذهب طرفة يفخيخ له ، فنصبه للقنابر، وبقى عامة يومه فلم يصد شيئًا، ثم حمل فخه، وعاد إلى عمه، وتحملوا من ذلك المكان، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحب ؛ فقال :

يا لك من قنبرة بمعمر ... خَلا لك الجوُّ فبيضى واصفُرى
ونقِّرى ما شئت أن تُنقِّرى ... قد رَحل الصيَّاد عنك فابشرى
ورُفِع الفخُّ فماذا تحذرى ... لابدَّ من صَيدك يومًا فاصبرى

وحذف النون من قوله : (تحذرى) لوفاق القافية أو لالتقاء الساكنين، قال أبو عبيد : يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لابن الزبير حين خرج الحسين رضي الله عنه إلى العراق : خلا لك الجو فبيضى واصفرى .

وانظر : مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٣٩، ٢٤٠ رقم ١٢٦٨ .

تحقيق : الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

تكن تراه فإنه يراك »[1] ، وعندما يغيب هذا المعنى من قلب الغاش فإنه يقدم عليه، وينغمس فيه غير مبال بعواقبه وآثاره .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

[الحشر]

٤ ـ البيئة التى ينشأ فيها الغاش ، وتحيط به :

ذلك أن الغاش قد ينشأ فى بيئة شأنها الغش فيقتدى بها ويتأسى ، وكذلك قد تحيط به طائفة شأنها الغش فتعينه وتقوى ظهره على الدخول فى هذا المنعطف الخطير، والاستمرار فيه .

وقديمًا قيل :

وينشأ ناشئُ الفتيـان منـا على مـا كان عوده أبـوه

وقال النبى ﷺ : « ومثل جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تشمَّ منه ريحًا منتنة »[2] .

٥ ـ غفلة ذوى الحقوق والمصالح أو جبنهم عن حماية حقوقهم ومصالحهم :

وقد تكون ذوى الحقوق والمصالح أو جبنهم عن حماية حقوقهم ومصالحهم هى السبب أو الباعث الذى يحمل الغاش على ممارسة غشّه والتمادى فيه، من باب : إنما يأكل الذئب من الغنم من لا راعى لها غيابًا أو غفلة أو جبنًا، وصدق طرفة :

ومن لا يذد عن حوضِه بسلاحه يهدم . . . .[3]

---

(١) جزء حديث طويل يعرف بحديث جبريل، أخرجه البخارى فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة ص ١٢ رقم ٣٧، وكتاب التفسير: سورة لقمان، باب قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] ص ٨٣٩ رقم ٤٧٧٧، ومسلم فى الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو ؟ وبيان الإسلام ما هو ؟ ، وبيان خصاله ص ٢٥، ٢٦ رقم ٩٧ ـ ٩٩، كلاهما من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به وبنحوه، وزاد مسلم رواية عن عمر بن الخطاب (ص ٢٤، ٢٥، رقم ٩٦ ـ ٩٦ به وبنحوه .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى أكثر من آفة فيما مضى .

(٣) هذا جزء بيت للشاعر طرفة بن العبد ضمن معلقته المشهورة وتمامه :

. . . . ومن لا يظلم الناس يظلم

انظر : جامع مهمات المتون : المعلقة الثانية ص ٧٩٩ الطبعة : ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م، دار الفكر، بيروت .

٦ ـ ظن الغاش الغش مهارة ينبغي توظيفها في تحقيق مصالحه ومطامعه :

وقد يظن الغاشُّ الغشَّ مهارة ينبغي توظيفها في تحقيق مصالحه ومطامحه، ويستند إلى ذلك ويمضى في ممارسة غشه وتحقيق هوايته، غير مبال بالآخرين، الأمر الذى جعل النبى ﷺ يسلكه ضمن أكبر الكبائر فيقول : وقد ذكر أكبر الكبائر : « الشرك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس » ، ويعود : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور، أو قال : شهادة الزور » (١) .

٧ ـ إمهال الله للغاش وتأخير فضيحته :

وقد يكون إمهال الله للغاش وتأخير فضيحته عله يتوب، أو تلزمه الحجة سببًا وباعثًا يحمله على التمادى في هذا الغش ناسيًا أو متناسيًا أن الله يمهل ولا يهمل .

لقوله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » (٢) .

٨ ـ نسيان العواقب والآثار المترتبة على الغش :

ذلك أن للغش ـ كما أسلفنا ـ عواقب خطيرة وآثارًا مدمرة على العاملين وعلى العمل الإسلامى دنيوية وأخروية، وحين ينسى الغاش هذه العواقب، وتلك الآثار؛ فإنه يمضى في غشه مستخدمًا كل ما لديه من أساليب ووسائل حتى يقع في الشباك أو الشرك، ويندم آنذاك ، ولا ينفع الندم .

الجانب الخامس : علاج الغش ، والوقاية منه :

لعلاج الغش والوقاية منه أساليب كثيرة، ووسائل عدة ، نذكر منها :

١ ـ أن يغرس فى نفس الغشَّاش من جديد التصور الصحيح عن النفس والحياة:

وذلك بأن يعلم إلى حد اليقين أنه خلق الله، وأن رسالته العبودية لله المتمثلة فى عمارة الأرض وفق منهاج الله، ودعوة النائمين والكسالى أن يستيقظوا، وأن ينشطوا للإسهام فى عمارة الأرض وملئها بالخير والبركة، والوقوف فى وجه المفسدين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، كيلا تتحول الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد، وأن يُعلم كذلك أن كل النعم التى تغمره فى نفسه، وفى الكون المحيط به، إنما هى إعانة من الله له على أداء دوره وواجبه فى هذه الأرض، وأن الحياة مثل عملة ذات

(١) الحديث سبق تخريجه عند الكلام على حكم الغش .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى آفة الظلم ، المجلد الثالث ٥، ٦ / ٢٣٧، ٢٣٨ .

وجهين ، أحدهما : الحياة الدنيا التى هى بمثابة مزرعة يزرع فيها المرء ويغرس، والأخرى: هى الحياة الأخروية التى هى دار الحصاد، والحساب والجزاء، والتى لا تنتهى أبدًا ، يستوى فى ذلك الصالح والطالح والظالم ، والمحسن والمسىء ، وأن عليه أن يسعى فى فعل ما يضمن له الحياة الطيبة فى الدنيا ، والفوز والنجاة غدًا إذا ما عاد إلى ربه بعد الموت، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]، وأن الغش لا يتفق بحال مع هذا التصور، والأحسن أن يقلع عنه، وإلا فلينتظر العقاب الإلهى فى الأولى والآخرة وما أشده وما أعظمه، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج : ١٢] .

إن مثل هذا التصور لو غُرِس فى نفسه الغاش، وغُذِّى على الدوام بما يقويه فى النفس، فإنه سيسهم فى تربية ملكة المراقبة لله، والإقلاع التام عن هذه الآفة الخطيرة، التى عانت البشرية وتعانى منها حتى يومنا هذا، والتى كانت سببًا فى كثير من الدمار والخراب .

٢ ـ أن تنقى البيئة التى يعيش فيها الغشَّاش :

ذلك أن سلوك الإنسان يتشكل غالبًا من البيئة التى يعيش فيها، فإن كانت صالحة استقام سلوكه وحسن، وإن كانت فاسدة، انحرف سلوكه وساء، وعليه، فإن علاج الغشاش وصيانته من التورط فى هذا الخُلُق الذميم مرة أخرى يحتاج إلى جهود متضافرة لتنقية هذه البيئة التى نشأ وعاش فيها فيلفت نظر البيت والأسرة والعائلة والعشيرة أن يكونوا أسوة وقدوة لا سيما فى ميدان الصدق والإخلاص، والبعد عن الغش والخداع، وتكون المتابعة الدائمة، والمحاسبة المستمرة من كل الناس الذين تتألف منهم هذه البيئة، بحيث لا يجد الغشاش فى البيت إلا ما يُثلج صدره، ويريح قلبه، وكذلك فى محيط الأسرة والعائلة والعشيرة، كما يلفت نظر المجتمع إلى ضرورة التطهر من هذه الآفة، والتمسك بالصدق والإخلاص، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بإحياء سنة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مقرونة بضوابطها وشروطها وآدابها، مع الحرص على إنشاء رابطة فى كل شارع وفى كل حى يمكن تسميتها برابطة الصدق والصادقين، تكون مهمتها التركيز على ماهية الصدق، وأهميته فى الحياة ثمرته وطرق اكتسابه وتنميته، وسبيل التعامل مع المشكلات التى تعترض طريق الصادقين، وتحويل هذه المعانى النظرية إلى تطبيق عملى من خلال عمل أنشطة وبرامج عدة، فإن ذلك كله من شأنه أن يغمر حياة الغشاش بالبديل الصحيح الذى يرضى عنه الله ورسوله، وتطيب به الحياة وتزكو .

٣ ـ أن يستخدم الغشاش مع نفسه سياسة المحاسبة، والثواب والعقاب :

ذلك أن كل بنى آدم خطاء، وما لم ينتبه المرء إلى خطئه سواء بنفسه أو بإرشاد غيره، فإن هذا الخطأ يعلوه ويحيط به من كل ناحية؛ بحيث يصعب تخطيه وتجاوزه إلا أن تداركه رحمة الله ـ عز وجل ـ وأحسن سبيل لمعرفة الخطأ والسعى الحثيث للتخلص منه، إنما تكمن فى المحاسبة أولا بأول مع الجزاء المكافئ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وهكذا لو استخدم الغشاش مع نفسه سياسة المحاسبة المستمرة الواعية مع الثواب والعقاب إزاء كل تصرف تقوم به، أو مع كل طائفة من التصرفات وكان جادًا مع نفسه، صادقًا لا يريد لها إلا السعادة فى الدنيا والآخرة، فإن الله سيعينه، ويأخذ فى التخلص من هذه الآفة شيئًا فشيئًا حتى يطهر منها تمامًا، بل سيعمل على الوقاية منها، والحصانة ضدها، وصدق النبى الكريم ﷺ وهو يقول : « الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى » [١] .

٤ ـ أن يتَّبع الغشاش مع نفسه سياسة التفتيش عن الأسباب التى أوقعه فى الغش، ومعرفة العواقب والآثار التى ترتبت على ذلك :

ذلك أن علاج أى داء يصيب المرء إنما يبدأ بالتفتيش عن الأسباب التى أفرزت هذا الداء والعواقب التى ترتبت عليه، ومتى وقف المرء على ذلك سهل عليه العلاج والوقاية، إن كان صادقًا فى ذلك، وكذلك الغشاش لابد له من البحث عن الأسباب التى أدت إلى هذا الغش، والآثار الضارة التى لحقت به وبغيره من خلق الله، وما يتبع ذلك من آثار الشد، وعواقب أكبر لو بقى سائرًا فى غشِّه متماديًا فيه، إن مثل هذه الطريقة لو اتبعها الغشاش فى علاجه نفسه، فإنها ستساعده فى التخلص من دائه من أقصر طريق، وبأقل التكاليف .

٥ ـ أن يظل أصحاب الحقوق والمصالح يحرسون حقوقهم ومصالحهم فى جرأة وشجاعة، واحتساب لكل ما يصيبهم من أجل حماية هذه الحقوق وتلك المصالح :

ذلك أن الإنسان مجبول على البخل والشح، ولو كان الأمر بيده لقتَّر على خلق الله، ولحرمهم كل شيء حتى أبسط الحقوق ، كما قال رب العزة سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه فى أكثر من آفة فيما مضى .

وقد أوجب الشرع الحنيف على كل إنسان معرفة حقوقه وواجباته، والسعى الجاد لرعاية هذه الحقوق وتلك الواجبات حتى لو كلفه ذلك حياته .

إذ يقول النبى ﷺ : « من قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتِل دون أرضه فهو شهيد، ومن قُتِل دون عرضه فهو شهيد، ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد »[1] .

وانطلاقًا من ذلك فإن على الأمة، حكّامًا ومحكومين، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثًا، علماء وعامة أن يحرس بعضها بعضًا، وأن يحافظ كل منها على حقوقه، فلا يتركها كلأ مباحًا يرتع فيه الغشاشون، بل يدفع هؤلاء بكل سبيل لا تنتهى إلى عواقب أكبر وضرر أشد، ويحتسب كل ما يصيبه من تعب ومشقات وأذى فى سبيل الله عز وجل، إن ذلك لو حدث سيصيب الغشاشين بشىء من التوقف والتفكير، والمراجعة قبل الإقدام على أى صورة من صور الغش؛ لأنه ليس من السهل أكل حقوق الغير ، لا سيما فى الآفة المسلمة التى صار الجهاد لحمايتها جزءاً من تصوراتها وبنيانها، وعندئذ تضيق مساحة الغش والغشاشين حتى تتلاشى من حياة الأمة تمامًا .

٦ ـ أن يُنبَّه الغاش إلى أن فى الناس من هو ذكى ، بل أذكى منه :

ذلك أن فى الناس من يتصور أنه وحده هو الذكى، وأنه يستطيع بهذا الذكاء تهويش الناس، والضحك عليهم دون أن يفطنوا إلى ذلك وأن يكتشفوه، وهو بذلك واهم أشد الوهم ؛ إذ عطاء ربك ليس محظوراً على فرد بعينه، وإنما شائع بين الخلق أجمعين .

وما يراه المرء أنه وحده المخصوص والمعنى به، تكشف له الأيام والليالى اشتراك غيره معه فى هذه الخصوصية، وعليه ، فإن على الغشّاش أن يتعامل مع الناس على أن لديهم قدرات مثل قدراته، بل ربما تكون أعظم، ولا داعى أن يتذاكى على الناس، أو يهوشهم أو يضحك عليهم .

٧ ـ ألا يغتر الغشاش بما يحققه من مكاسب ونجاحات :

ذلك أن الغشاش سيحقق لا محالة نجاحات ومكاسب ، ولئن كان عاقلاً فعليه ألا يغتر بهذه المكاسب وتلك النجاحات ؛ لأنه ، والحال هذه بمثابة مقامر ربح مرة ، وخسائر ألف مرة ، فضلاً عن أن الله ليس بغافل عن هؤلاء وأمثالهم؛ إذ يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝٥ ﴾ [آل عمران]، ويقول :

---

(١) الحديث أخرجه . . . .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، ولا تدرى سر التأخير، لكنه بالضرورة لحكمة يعلمها الله، وحوادث الدهر ووقائع التاريخ خير شاهد على صحة هذا الفهم .

وإلا ، فأين الذين خدعوا أنفسهم وقومهم وشعوبهم ؟! إنهم الآن تتبعهم اللعنات في الدنيا ويوم القيامة من المقبوحين، كما قال رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ [القصص : ٤٢] .

٨ ـ أن يتيقن الغشاش أن نجاحه في التخلص من آفة الغش والحصانة ضدها ؛ إنما يتوقف على عوامل كثيرة على النحو الذى ذُكر آنفًا ، وأهمها : المبادرة بالتوبة النصوح مع الجدية والصدق والإخلاص والاتباع :

ذلك أن الآجال بيد الله، ولا يعلمها إلا هو، وربما يأتي الموت بغتة، والمرء يعيش في أحلام التسويف، أو قد يسبق الموت مقدمات سريعة من مرض ونحوه ثم يكون الموت، وحينئذ يندم ولا ينفع الندم، والأحسن أن يكون صاحيًا منتبهًا، بحيث إذا زلت قدمه وسقط في صورة من الغش التى قدمنا أو أكثر يراجع نفسه، ويبادر بالإنابة والرجوع إلى الله، ويلزم سبيل الجد مع الصدق والإخلاص والاتباع، ولا يسأم من تكرار هذه المحاولة ؛ إذ باب التوبة مفتوح ما لم يُغرغر العبد، أو تقع الروح في الحلقوم، وليكن له من الماضين عبرة؛ إذ كم من أناس كانوا غارقين في الإثم من مفرق رؤوسهم إلى خُمصان أقدامهم، ولكنهم في كل مرة لم ييأسوا من التوبة النصوح إلى أن أكرمهم الله في نهاية المطاف، وماتوا على التوحيد، وعفا الله عنهم، وتجاوزوا عن زلاتهم، ورضى أصحاب الحقوق عنهم حتى تنازلوا عن حقوقهم، وأخذوا بأيدى بعضهم البعض، وصعدوا في درجاتهم في جنات النعيم .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الآفة الرابعة

العزلة أو التفرّد

الآفة الخامسة

الإعجاب بالنفس

الآفة السادسة

الغرور

الآفة السابعة

التكبّر

الآفة الثامنة

الرياء أو السمعة

الآفة التاسعة

اتباع الهوى

الآفة العاشرة

التطلع إلى الصدارةوطلب الريادة

الآفة الحادية عشرة

ضيق الأفق أو قصر النظر

الآفة الثانية عشرة

ضعف أو تلاشى الالتزام

الآفة الثالثة عشرة

عدم التثبت أو التبين

الآفة الرابعة عشرة

التفريط فى عمل اليوم والليلة

الآفة الخامسة عشرة

سوء الظن

الآفة السادسة عشرة

الغيبة

الآفة السابعة عشرة

النميمة

الآفة الثامنة عشرة

فوضى الوقت

الآفة التاسعة عشرة

التسويف

الآفة العشرون

التشاؤم

الآفة الحادية والعشرون

التنطع، أو الغلو فى الدين

الآفة الثانية والعشرون

المراء أو الجدل

الآفة الثالثة والعشرون

القعود

الآفة الرابعة والعشرون

الشح

الآفة الخامسة والعشرون

الغضب

الآفة السادسة والعشرون
الحقد

الآفة السابعة والعشرون
تنافس الدنيا

الآفة الثامنة والعشرون
الاحتقار أو الانهزام النفسى

الآفة التاسعة والعشرون
رفض النقد والنصيحة

الآفة الثلاثون
اللغـــو

الآفة الحادية والثلاثون

الكبت

الآفة الثانية والثلاثون

اليأس والقنوط

الآفة الثالثة والثلاثون

أكل الحرام

الآفة الرابعة والثلاثون

الخــوف

الآفة الخامسة والثلاثون

الظُلم

الآفة السادسة والثلاثون

الحسد والعين

الآفة السابعة والثلاثون

الخذلان

الآفة الثامنة والثلاثون

تتبع العورات

الآفة التاسعة والثلاثون

الاحتقار

الآفة الأربعون

الشماتة

الآفة الحادية والأربعون

الغدر

الآفة الرابعة والأربعون

تضييع الأولاد

الآفة الخامسة والأربعون

تضييع كل من الزوجين للآخر

الآفة السادسة والأربعون

الغش

دار الوفاء
للطباعة والنشر والتوزيع



الإدارة والمكتبة: 5 شارع هجرس - أمام كلية طب المنصورة - ص.ب: 230
ت: 20502370863+ فاكس: 20502370863+
E.mail: darelwafa2005@yahoo.com & darelwafa@hotmail.com
www.darelwafaa.com